

سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

٣

السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق
جامعة الأزهر

سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

(٣)

السيرة النبوية والدعوة

في العهد المدني

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

الطبعة الثانية

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،

فهذه هي الطبعة الثانية لكتايبى (السيرة النبوية والدعوة فى العهد المدنى) بعد أن نفذت طبعته الأولى.

وقد حافظت على الكتاب كما هو فى طبعته الأولى ، ولم أزد إلا تصحيح بعض الأخطاء اللغوية ، وإضافة بعض العبارات التوضيحية .

وأملئ أن يديم الله به النفع ، وأن يكون لى ذخرا عند ربى الكريم .

لقد كان الأمل فى تأليف كتاب فى سيرة المصطفى ﷺ هو المحرك لتأليف سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى ، وهو الذى شجعنى على مداومة الكتابة بعد سن الخامسة والستين ، فبدل أن أخلد للراحة بدأت فى الكتابة والتأليف ، وهذا فضل من الله تعالى ، وإعانة منه سبحانه وتعالى .

وكان من الممكن أن يضيع العمر كله بلا تأليف ، أو كتابة إلا أن قدر الله نافذ ، وحكمته بالغة ، وما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

فله الشكر ، والحمد ، والثناء ، ودعائى له سبحانه وتعالى بدوام الفضل، واستمرارية العون . فهو حسبى .

وعليه توكلنى واعتمادى .

وهو ارحم الراحمين ...

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

أول ربيع الآخر ١٤٣١هـ

١٧ مارس ٢٠١٠م

مدينة نصر فى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،

فلقد توقفت مع الكتاب الثانى فى سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى عند بيعة العقبة الثانية ، على أمل أن يبدأ الكتاب الثالث بالهجرة إلى المدينة المنورة لأنها البداية العملية للعهد المدنى .

لقد بدأ رسول الله ﷺ بعد الهجرة مباشرة فى وضع أسس الدولة الإسلامية الشامخة فى المدينة المنورة واستمر ﷺ يتلقى الوحي المناسب للمرحلة ، فلم يعد الوحي قاصراً على العقيدة فقط ، بل تناولها مع الشريعة والأخلاق ، ولم يستمر أمر الله لهم بـ ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾^(١) ، وإنما تحول إلى أن أمرهم بالجهاد فقال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾^(٢) .

إن العقيدة الدينية أصبحت راسخة فى قلوب المؤمنين رسوخاً ثابتاً لا يقبل الإزاحة أو التغيير ، وهى فى رسوخها وثباتها تجعل المسلم يعيش بها ، ويعمل لها ، ولا يقبل معها أي مخالفة ، أو تقصير ، أو إهمال .

إن العقيدة الإيمانية جعلت المهاجرين يتركون كل شئ فى مكة ، ويرحلون إلى المدينة: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾^(٣) ، وجعلت المسلمين الأنصار

(١) سورة النساء ، الآية ٧٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٠ .

(٣) سورة الحشر ، الآية ٨ .

الأنصار أهل المدينة يتركون حظوظ النفس والهوى ، و ﴿ تَحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
إِلَيْهِمْ وَلَا تَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ
كَانَ بِهِمْ حَصَصَةٌ ﴾^(١) .

لقد صنعت العقيدة الدينية الجماعة المسلمة صافية في توحيدها ، وتوحيدها ،
وتوجهها وجعلت المؤمنين عبيداً خاشعين لله ، يرون في مكة قبل الهجرة سعادتهم
في الطاعة ، ويقصرون آمالهم في رضى الله ، ويرجون سعادة حقيقية يعيشونها في
الدنيا مع الناس ، ويتمتعون بها في الآخرة عند الله .

فلما هاجروا إلى المدينة المنورة احتاجوا إلى التشريعة تنير لهم الطريق ،
وتعرفهم بمراد الله تعالى . وتطلعهم على أولمرم ونواهييه . ليعيشوا في إطار
المشروعية الدينية الصحيحة وليكون عملهم وخلقهم متوازناً مع إيمانهم وعقيدتهم ،
وليكونوا سوياً مجتمع الحب ، والتسامح ، والتألف .

لقد عاش الرسول ﷺ في المدينة المنورة بعد الهجرة والمسلمون معه الإسلام
كله ولم ينتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن نزل عليه قول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾^(٢) .

إن سيرة الرسول ﷺ في المدينة المنورة تختلف عن سيرته ﷺ في مكة من
ناحية أحداثها ، ووقائعها ، وحركتها ، وإن اتفقت في أنها جميعاً كانت في مجال
الدعوة إلى الله تعالى .

في مكة عاش ﷺ بعيداً عن الوحي حتى بلغ سن الأربعين ! وكان الله معه يرعاه
ويصنعه للرسالة فهياً له التربية الصحيحة ، وأبعده عن مزالق الهوى ، وأحاطه
بخوارق العادات في صورة إرهابات ، ومبشرات ، وعلامات ... كما أنه ﷺ عاش
بعد البعثة فترة الرسالة في مكة وسط قلة من المؤمنين مستضعفة أمام ظلم الكفرة
 وعدوانهم ، وكثيراً ما عانت ، وتحملت ، وصبرت وتمسكت بدينها الذى آمنت به .

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٣ .

أما فى المدينة المنورة فقد عاش النبى ﷺ والمسلمون معه حياة القوة العادلة ، وسط كثرة من المؤمنين تمثل أمة الإسلام الوليدة بمزاياها ومحاسنها مع استمرار تتابع نزول الوحي لتوضيح الطريق ، وتحديد معالم النجاح .

لقد احتاج المسلمون فى مكة إلى عقيدة تربطهم بالله ، وتؤملهم فى الجنة وتدفعهم إلى الصبر والتمحمل وهذا. كيفهم . وقد ثم لهم ذلك مع شئ من التوجيهات الخلقية التى لابد منها للإنسان المسلم .

أما فى المدينة المنورة فقد أصبح المسلمون فى حاجة إلى الشريعة لتأكيد اعتقادهم الراسخ ، وكان لابد لهم من فقه أحكام الحياة، التى أخذت تنزل عليهم تبعاً للأحداث وكانوا رضوان الله عليهم يسألون رسول الله ﷺ لأنهم يريدون أن تخضع جوارحهم لله مثل ما آمنت قلوبهم ... ولذلك نراهم يرجعون لرسول الله ﷺ فى كل ما لا حكم لله فيه .

يوضح القرآن الكريم ذلك فى آيات عديدة حيث يقول الله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾ .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ هُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ؕ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ؕ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ؕ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ وَدَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢٠ .

تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ آلِوَلَدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ
وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١﴾ .
﴿ ٢ ﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا
ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ .

وهكذا كانت حياة المسلمين في المدينة ... ومعهم كانت حياة رسول الله ﷺ .
لقد كان الله رءوفاً بهؤلاء الصفوة ، وكان معهم يمد لهم بشريعته ، ويفصل لهم
أحكامها ، ويوضح مزاياها وفوائدها ، ويركز على ضرورة التهيؤ للعمل بها ،
وربطها بسائر أركان الإسلام ، لأنها جميعاً تنتج الدين بكماله ، وتمامه (٣) .
لقد كان المسلمون في مكة يبحثون عن أمن يبسر لهم العبودية ، ويرجون
استقراراً يمكنهم من العمل لله بين أهلهم وأقوامهم ، لكن هذا الأمل لم يتحقق وهم
في مكة فهاجروا إلى الحبشة مرتين ، وبعدهما كانت الهجرة الكبرى إلى المدينة
المنورة حتى أصبحوا آمنين في حياتهم ، وعبادتهم ، وتوجههم لله رب العالمين ،
فحملوا الأمانة مع رسول الله ﷺ وصاروا مسئولين عن نشر الإسلام ، وتبليغه إلى
كل مكان استطاعوا أن يصلوا إليه وإلى أى إنسان يمكنهم تبليغه ودعوته وفق
منهج الله للوصول إلى الغايات المحددة ، والآمال المنشودة .

(١) سورة النساء ، الآية ١٢٧ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ١ .

(٣) يظهر هذا الربط بين موضوع السؤال والإسلام حين ننظر في الآيات لنرى الأمر حين
كان السؤال عن الأنفال كانت الإجابة بأنها لله والرسول ، وبعدها أمرهم بتقوى الله ،
وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول في كل أمر ونهى لأن ذلك دلالة الإيمان .
وحين كان السؤال عن اليتامى كانت الإجابة في أن الإصلاح لهم هو الخير المطلوب ثم
أرشدتهم إلى ضرورة مخالطتهم للتعليم والتأسي ، وضرورة معاملتهم بالصلاح حتى لا
يؤاخذهم الله على تقصيرهم معهم ...
وهكذا سائر التساؤلات حيث نرى فيها الإجابة المطلوبة ، ومعها إرشادات وتوجيهات
تؤكد شمول النظرة الإسلامية لكافة جوانب الحياة .

وعاش رسول الله ﷺ متحركاً بالدعوة ، ومبلغاً لدين الله تعالى ، وأخذ الإسلام يظهر في قوله ﷺ بلاغاً ، ودعوة ، وفي عمله سلوكاً ، وعملاً ، وفي قلبه صدقاً ، وانفعالاً ، وفي أخلاقه مودة ، ورحمة ، ومع الناس حياة ، وحضارة ، وعزا .
وشارك المسلمون في المدينة رسول الله ﷺ في العمل بالإسلام وللإسلام حتى تم النصر ودخل الناس في دين الله تعالى .
ومن هنا ...

اختلط الجانب الشخصي لرسول الله ﷺ في المدينة المنورة مع حركته بالدعوة اختلاطاً بيناً ، حتى أصبح الفصل بينهما أمراً شاقاً ، لأن كل جزئية في حياة رسول الله ﷺ صارت دليلاً شرعياً يبحث عنه المسلمون ويتأسون به ، ولا يمكن استثناء شيء من حياته ﷺ إلا ما ذكره ﷺ ونبه عليه ، ولعلم أصحابه بأنه من خصوصياته ﷺ .

وحيث أن حبي لرسول الله ﷺ يجعلني أعيش مع سيرته ﷺ في إطارها الذاتي كما فعلت معه في العهد المكي ، فإنني أجد نفسي مع هذا المنهج أكتب أولاً عن سيرة رسول الله ﷺ في المدينة ، وبعد ذلك أكتب عن حركة الرسول بالدعوة ، لأنتهى بعد ذلك إلى الكتابة عن أهم ركائز الدعوة المستفادة من العهد المدني .
إني على يقين من أن السيرة النبوية في العهد المدني ، الذي بدأ بالهجرة واستمر حتى وفاة رسول الله ﷺ اختلطت اختلاطاً كاملاً بحياة المسلمين العامة وعاشت حركة في نشاط الجماعة المؤمنة ، لأن الرسول لم يعيش لنفسه ، وإنما عاش لله بكل مشاعره وعناصره كما أمره الله تعالى ، وكما عرفه ﷺ لأصحابه ﷺ بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٢٥ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٢٦ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ١٢٧ ۝ ﴾

قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾ .

ولذلك أجد نفسي أمام تصور لدراسة العهد المدني ، تتضمن السيرة النبوية والدعوة ، مشتملة على ما يلي :

أولاً : تمهيد يعرف بالمدينة المنورة ، وبمن كان يسكنها وبأهم الأديان والاتجاهات الدينية بها قبيل الهجرة ، وبمدى ملائمتها لانطلاقة الدعوة إلى الله تعالى .

ثانياً : فصل يقدم أحداث السيرة النبوية متتابعة ، بدءاً من الهجرة حتى وفاة رسول الله ﷺ مع الاهتمام بالجانب الذاتي لرسول الله ﷺ بقدر الإمكان لشدة ارتباط سيرة الرسول ﷺ بحركته في تبليغ الدعوة .

ثالثاً : فصل يوضح حركة الرسول ﷺ بالدعوة ، وهذه الحركة ، وإن كانت جزءاً من السيرة إلا أن تأثيرها في حركة الإسلام وانفعال المسلمين بها وترسيخها لمبادئ الإسلام وقيمه ، جعلتني أدرسها في إطار حركة الرسول بالدعوة .

وسيشتمل هذا الفصل على عدد من المباحث تتضمن تأسيس دولة الإسلام في المدينة وتعداد سرايا والغزوات ، وبيان الرسائل والوفود . وتفصيل كل ما كان له دور في حركة تبليغ الإسلام حتى وفاة رسول الله ﷺ .

رابعاً : فصل أوضح فيه الركائز المستفادة من سيرة رسول الله ﷺ ، وحركته بالدعوة ، لتكون زاداً لكل مخلص يحب دينه ، ويقدر أمانة الله ، ويعمل على إبراز الإسلام نقياً صافياً ، ويبلغه لغيره من الناس مستقيماً بما تركه رسول الله ﷺ في مجال الدعوة إلى الله تعالى .

وبهذا التصور سيأتي الحديث عن العهد المدني مكوناً من تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، وبها تكمل الدراسة بإذن الله تعالى .

(١) سورة الأنعام ، من الآية ١٦١ : ١٦٤ .

إن العهد المدنى يتضمن حوادث الإسلام العظمى ، التي هي أساس التشريع ودعامة الحياة الإسلامية على طول الزمن إلى يوم القيامة ، فلقد شرعت العبادات فى العهد المدنى ، وتابع رسول الله ﷺ صحابته والمسلمين بالتوجيه وبيان الأحكام ، وفيها كان خطاب الدعوة لكل فئات البشر على اختلاف أديانهم ، وثقافتهم ، وحضارتهم .

وفى العهد المدنى أذن الله بالجهاد ، وأمر به ، وفصل فى أحكامه ، وبين الآثار المترتبة عليه .

ونزلت أحكام سائر المعاملات . ، ولأحوال الشخصية . ، ولأحكام الميلاد . ، والموت ، وكافة نظم الحياة .

وتحددت سمة المجتمع المسلم ، وطريقته فى التعامل مع أتباعه ، وغيرهم ، على اختلاف مذاهبهم ، واتجاههم ، ومواطنهم .

إن دراسة العهد المدنى طويلة عميقة ، وتحتاج إلى القراءة الواسعة والتأمل الواعى ، والاستنباط القائم على العلم والفهم ... وهذا ما سأحاوله معتمداً على الله تعالى . مؤملاً فى توفيقه . وبخاصة أن مقصدي إبراز الإسلام جلياً ، نقياً ، وإظهار المسلمين فى مجتمعهم العظيم ، الذى نبأه به الدنيا على الزمن كله ، ونرجوه مرة أخرى ليعود المسلمون إلى مجدهم وعزهم فى وقت كثرت فيه معاول النقد ، وتعددت طرق الهجوم على الإسلام .

إن المجتمع الذى أقامه الرسول ﷺ فى المدينة . مع مثاليته . يتهمه الحاقدون بالتخلف ، والرجعية ، والعدوانية ، ويفضلون عليه مجتمع الاختلاط والعرى ، وبروز الفوضى ، والخلق الرديئ ، مع محاولة إلباسه أثواباً لا تليق به بدعوى التجديد ، والتنوير ، والنهضة بطرق ملتوية لا تبغى إلا الهدم والفساد .

والعقيدة التى عاشها المسلمون الأوائل كانت يقيناً يتحكم فى عملهم ، وشريعة تنظم سلوكهم وخلقاً يحمل جوانب الحياة .

هذه العقيدة التى صنعت الجماعة الأولى معرضة اليوم لفصلها عن حركة الحياة بدعوى أنها الدين ، وليست هي الدنيا .

والشريعة الشاملة التي حكمت الحياة الإسلامية الأولى يعمل الأعداء على أن يستبدل بها قانون البشر رغم تناقضه ، وقصوره .
وها هي الأخلاق الإسلامية تغيب عن واقع الحياة حتى لا نراها إلا نادراً بين الناس مع أن الحياة بها تكون جميلة ، وسلسة ، وطيبة .
من كان يتصور أن عاقلاً من الناس يرى البغاء حرية ، وانتهاك الحرمات حضارة والإفساد فى الأرض باسم التنوير ، والحداثة تقدماً ، والتمتع المحرم أمورا شخصية للإنسان أن يفعلها ، ويعيش بها متى أراد !!!
ومن كان يتصور الزواج المثلى ، والشذوذ الجنى يبرز فى العلن ... بل ويحميه تشريع وقانون !!
ومن كان يتصور أن الاستعداد لرد الظلم ، وحماية الحقوق يصير إرهاباً وعدواناً !!!
إن مجتمع المسلمين المعاصر بعد كثيراً عن طريق الله حتى أصبح الدين غريباً فيه ، غائباً عنه ، وتمكن أعداء الدين من تشويه بعض حقائقه ، وإلحاق التهم الباطلة بالمتمسكين به ، مستغلين غيبة تعاليم الله عن الناس .
ويتساءل المرء :

من الذى غيب الدين عن الناس ؟

ومن الذى أبعدهم عن فهم حقائقه ؟

ومن الذى أغرقهم فى الماديات الباطلة ؟

ويدرك الفاهم المدقق أن من فعل ذلك هو الذى يشوه ويتهم !!

إنه يرتكب الجريمة ... ويسأل عن فاعليها !! ويتهم غيره !!

إن الإسلام يحتاج إلى رجال ، والدعوة تحتاج إلى من يقوم بها وفق منهجية عصرية ، تفهم الدين ، وتخطب الناس ، وتتعامل مع الواقع لتسمو به وترتقى .
إن أملى الذى أرجوه من دراسة السيرة والدعوة فى العهد المدنى التصدي لمحاولات الهدم ، ونقض التشكيك ، ورد كافة ألوان الزيف ، مهما كان مصدرها ، وأياً كان قائلها راجياً الوصول إلى ما يلي :

أولاً : الإحاطة بالسيرة النبوية بصورتها الشاملة لمعرفة الجوانب الشخصية لرسول الله ﷺ كهجرته ، ومسكنه ، وزواجه ، وعنايته بأولاده ، وسفره ، وإقامته ... وأيضاً لمعرفة الجوانب الدعوية العامة التي باشر رسول الله ﷺ خلالها تعليم الناس ، وتبليغهم دين الله تعالى .

ثانياً : اكتشاف حياة المسلمين الأوائل ، ومعرفة أنشطتهم ، ومعرفته مدى مساهمتهم في نصر دين الله تعالى بياناً لمناط الأسوة ، وإظهاراً لجوانب القدوة والريادة .

ثالثاً : بيان صور المواجهة التي تمت بين المسلمين وبين أعدائهم من المنافقين واليهود والكفار ، لإظهار مدى ملازمة الدعوة للحسن في التوجيه ، والمصدق في المطلب ، وتقدير الإنسان بصورة عامة ، وتوضيح أن الجهاد الإسلامي هو نصير العدل والحق والكرامة .

رابعاً : توضيح حركة النبي ﷺ بالدعوة لبيان ما فيها من منهج شامل لكل جوانب الدعوة ، وأركانها ، واستتباط الفوائد التي يمكن الاستفادة بها في العصر الحديث .

وسوف اعتمد على المصادر الصحيحة لهذه المرحلة ، وعلى رأسها القرآن الكريم الذي صور هذه المرحلة ، وقدم تفصيلات عديدة للعهد المدني حتى قال بعضهم : إن القرآن الكريم هو الصحيفة اليومية المصورة للمسلمين في المدينة المنورة ، تعيش حياتهم ، وترشدتهم للتي هي أقوم . وتعرفهم بخفايا النفوس . وتكشف طبائع الناس ، وتحذرهم من مزالق الهوى ، ومكائد الأعداء ، من الجنة والناس ، وتعرفهم بحكم الله كلما جد أمر ، أو وقع حدث أو دعت الحاجة إليه .

لقد كان القرآن الكريم ينزل منجماً حسب الوقائع والأحداث ، ثم كان جمعه وسيلة بيئة لتقويم الصورة الإسلامية بتمامها وكمالها ، ومثالياتها ، وواقعيتها ، لتبقى أسوة للناس ، وقدوة للعالمين .

ومع القرآن الكريم تكون السنة شارحه ، ومبينة ، ومصدراً لهذه الحقبة الزمنية
الرائدة .

ومن فضل الله تعالى أن. مدة البعثة النبوية في مكة والمدينة نالت اهتمام
أصحاب. رسول. الله ﷺ ،. والمسلم المصالح من بعدهم ،. حيث وجد المرولة ،
والمحدثون ، والمفسرون ، والفقهاء ، وغيرهم يبذلون الجهد من أجل صيانة التراث
الإسلامي كله ، وبذلك كان حفظ أحداث مرحلة البعثة النبوية ، وأحداث تاريخ
الدعوة إلى الله تعالى .

إن. معاشة مصادر. هذه المرحلة تحتاج إلى العقل والفهم ،. والتحليل
والاستنباط ، وقوة الوعي وسرعة الإدراك ، حتى لا يقع صاحب هذه المعاشة في
الإسرايليات. ،. ولأكاذيب المتى وضعها أعداء. الإسلام. مع شروح المصادر
الإسلامية ...

إن. كثيراً من علماء. العصر الحديث شغلوا. أنفسهم بتتقية مرويات. العصر
النبوي. من المدخل فيه ،. وبذلك أسدوا. للمسلمين معروفاً حسناً يتمكنون. به من
الوقوف على الحق والحقيقة .

ولسوف أستعين بكل ما بذله المخلصون مع السيرة والدعوة . قدامى ومحدثين .
لأسجل الحقيقة التي أرجوها ، وأعيش الحق الذي أعمل له ، وأضع أمام المسلم
المعاصر المعالم الواضحة التي تحقق الأمن ، والسلام ، وتنتشر السعادة ، والرضى
في الناس أجمعين، استنباطاً من عصر النبي الكريم ﷺ .

ومع كل ما أرجوه فإنني أشير إلى العلم الذي أكتب فيه ، وأذكر به ، وهو
تاريخ الدعوة إلى الله تعالى في إطار مرحلة زمنية محددة ، مع الاستفادة بكل
دراسة جادة توصلني إلى ما أتمناه وأرجوه .

والأمل الكبير في أن يمدني الله بسداد الفكر ، ودقة الترتيب ، وتحقيق الهدف
، وأن يفتح أمام هذه الدراسة القلوب والعقول ، وأن يجعلها في طريقها

المنشود مصدر هداية ورشاد ، ووسيلة للدعوة ، والبيان .
إن تعلقى برسول الله ﷺ حياة .
وخدمتى للإسلام غاية .
وتوجهى لهداية الناس أمنية .
والتزامى بالصدق ، والأمانة ، والموضوعية دين وعقيدة .
إن الله سبحانه وتعالى هو مصدر الأمل والرجاء ، وإليه قصدى وتوجهى ...
وله حياتى ومماتى ، وعليه توكلى واعتمادى .
وهو حسبى .. ونعم الوكيل .

أ.د/ أحمد أحمد غلوش
غرة جماد الأول ١٤٢٥ هـ
مدينة نصر فى
١٩ يونيو ٢٠٠٤ م



المدينة المنورة

المدينة المنورة هي مهجر النبي ﷺ ، ومأوى المسلمين ، وحصن الإسلام وأساس الدولة الإسلامية ، ومنها انطلق الإسلام إلى العالم كله .
وبوصول المهاجرين إليها بدأت الحركة بالإسلام تأخذ شكلاً شمولياً لأركان الدين ، ولسائر الناس في كل أرض . الله تعالى معتمدة على جهود المهاجرين والأنصار بقيادة رسول الله ﷺ .
والتعريف بالمدينة يحتاج إلى بيان النقاط التالية :

- ١ -

أسماء المدينة المنورة وفضلها

عرفت المدينة المنورة قبل الإسلام باسم "يثرب" ...
ويقال : إن الأرض التي أقيمت عليها المدينة هي المسماة بهذا الاسم .
وقيل : إنه اسم كل من سكنها^(١) .
وحيث أن هذا الاسم يتضمن معنى سيئاً لأن يثرب مشتق من التثريب أو الثرب ومعنى كل منهما الإفساد ، والتغيير ، واللوم ، والتعنيف ، والعقوبة ، والجزاء فقد تغير اسمها في الإسلام إلى ما يدل على الخير والبركة ، والنور والظهور ، وصارت تسمى بأسماء كثيرة .
من هذه الأسماء المدينة المنورة بهجرة النبي ﷺ إليها .
ومن أسمائها المدينة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾^(٢) .
ويقول سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾^(٣) .
ومنها طابة ، يقول النبي ﷺ حينما أشرف على المدينة عند عودته من

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٤١٤ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٠١ .

(٣) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

تبوك : "هذه طابة" (١) .

ومنها "طيبة" يقول النبي ﷺ : "إنها طيبة" (٢) .

ولها أسماء آخر أشهرها الإيمان ، والجائرة ، والمنورة ، والمحوبة ، والقاصمة ، والبارة ، والحرم ، والخيرة ، ... وقد عد صاحب السيرة الشامية للمدينة خمسة وتسعين اسماً (٣) .

وأسماء المدينة فى الإسلام مشتقة من صفاتها ، وخصائصها ونظراً لانتفاء صفاتها الجاهلية فإنه يكرم شرعاً تسميتها بما كان لها فى الجاهلية من أسماء وعلى رأسها يثرب .

روى الإمام أحمد ومالك والشيخان عن أبى هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : "أمرت بقرية تأكل القرى يقولون : يثرب ، وهى المدينة ، تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد" (٤) . ويقول النبي ﷺ : "من سمى المدينة بيثرب فليستغفر الله ، هى طابة ، هى طابة ، هى طابة" (٥) .

وقد التزم السلف أسماءها الجديدة وكرهوا تسميتها بيثرب ، يقول ابن عباس ؓ : "من قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات" (٦) .

ويقول عيسى بن دينار : "من سمى المدينة يثرب كتبت عليه خطيئة" (٧) .

وبهذا جزم العلامة كمال الدميرى ، ونظم رأيه شعراً فقال :

ومن دعاها يثرباً يستغفر .: فقله خطيئة لتنظر

وسبب الكراهة ما فى كلمة "يثرب" من دلالة على السوء أياً كان اشتقاقها فإن كان اشتقاقها من الثرب فمعناها الفساد ، وإن كان اشتقاقها من التثريب فمعناها العقوبة

(١) صحيح البخارى - كتاب الحج . باب المدينة طابة ج ٣ ص ٢٧٥ ط . الأوقاف .

(٢) صحيح البخارى ج ٣ ص ٢٧٤ ط . الأوقاف .

(٣) انظر سبيل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٤١٤ - ٤٢٧ .

(٤) صحيح البخارى كتاب الحج ج ٣ ص ٢٧٤ .

(٥) الكشف الإلهى للطرابلسى ، وفى صحيح البخارى "هى طابة" ج ١ ص ٢٧٥ .

(٦) الفوائد المجموعة للشوكانى ، الدرر ج ٥ ص ١٨٨ .

(٧) سبيل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٤٢٧ .

، والمواخذه بالذنب ، وكلا المعنيين لا يليق بالمدينة ، وكان ﷺ يحب الاسم الحسن دائماً ، ولذلك سماها طابة ، وطيبة وأقر سائر أسمائها الحسنة .

وأما تسميتها في القرآن بيثرب ، فهو حكاية قول المنافقين في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَأَهَّلِ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾^(١) .

وحكاية قول المنافقين تثبت الكراهة ، ولا تفيد الإباحة لأنهم : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ ﴾^(٢) فقول المنافق سوء كصاحبه .

وأما قوله ﷺ وهو يشير إلى أصحابه عن دار هجرتهم بعد ما رآها مناماً حين قال لهم : " رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي إلى اليمامة أو هجر فإذا هي يثرب المدينة"^(٣) وقال لهم : " لا أراها إلا يثرب"^(٤) فليس دليلاً على عدم الكراهة ، لأن النبي ﷺ قال ذلك تعريفاً بها لأصحابه وهم في مكة ولأنهم لم يعهدوا لها قبل الإسلام اسماً غير "يثرب" ، ولم يكن نزل نهى عن هذه التسمية بعد ، فلما نزل النهى بينه النبي ﷺ لأصحابه ليتركوه فتركوه .

وكان النبي ﷺ يحب المدينة ، ويحب أهلها ، فعن أنس بن مالك ؓ : أن رسول الله ﷺ كان إذا قدم من سفر ينظر إلى جدر المدينة المنورة ، وي طرح رداءه ويقول : " هذه أرواح طيبة"^(٥) ويحث راحلته على سرعة السير نحوها حباً وسروراً بالمدينة ، وأهلها ... وكثيراً ما كان ينادي ربه : " اللهم اجعل لنا بالمدينة قراراً ، ورزقاً حسناً"^(٦) ومن دعائه ﷺ للمدينة ما رواه أنس ؓ أن رسول الله ﷺ كان يدعو ويقول : " اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة"^(٧) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ١٣ .

(٢) سورة المنافقون ، الآية ٤ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب مناقب الأنصار . باب هجرة النبي ﷺ ج ٦ ص ٢٠٣ . والوهل الظن .

(٤) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٤٣٤ .

(٥) صحيح البخارى - كتاب الحج ج ٣ ص ٢٨٣ .

(٦) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٤٣٠ .

(٧) صحيح البخارى - كتاب الحج ج ٣ ص ٢٨٢ .

وعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها ، وإنى حرمت المدينة ودعوت لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة" ^(١) .

وعن عبد الله بن الفضل بن العباس رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ "أدعوك لأهل المدينة بمثل مكة" ^(٢) .

ويقول ﷺ : "إنى أحرم ما بين لابتى المدينة ، أن يقطع عضاها ، أو يقتل صيدها" .

وقال ﷺ : "المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله بمن فيها من هو خير منه ، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت شفعياً أو شهيداً يوم القيامة" ^(٣) .

ويروى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : "اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً ، وإنى حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها أن لا يهراق فيها دم ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا تخطب فيها شجرة إلا لعلف ، اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، اللهم بارك لنا فى صاعنا ، اللهم اجعل مع البركة بركتين ، والذى نفسى بيده ما فى المدينة شعب ولا نقب إلا عليه ملكان يحرسانها حتى تقدموا إليها" ^(٤) .

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك دعا لأهل مكة بالبركة وأنا محمد عبدك ورسولك ، وأنا أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى صاعهم ومدهم ، مثلما باركت لأهل مكة ، واجعل مع البركة بركتين" ^(٥) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووى فضل المدينة ج ٩ ص ١٣٥ .

(٢) صحيح مسلم . باب فضل المدينة ج ٩ ص ١٤٦ .

(٣) صحيح مسلم . باب فضل المدينة ج ٩ ص ١٣٦ .

(٤) صحيح مسلم . باب فضل المدينة ج ٩ ص ١٤٧ ، ١٤٨ . والمأزم بكسر الزاى الجبل أو المضيق بين جبلين ، والمراد به هنا الجبل .

(٥) سنن الترمذى بشرح تحفة الأحوذى . باب فضل المدينة ج ١٠ ص ٢٨٤ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : اللهم بارك لنا في ثمرنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ، وبارك لنا في مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك ، وخليفك ، ونبيك وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه^(١) .

وقد اتفق العلماء على تفضيل مكة والمدينة على سائر المدن والقرى ، إلا أنهم اختلفوا في التفاضل بينهما ، فذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبعض الصحابة ، وأكثر المدنيين إلى تفضيل المدينة وهو مذهب الإمام مالك ، وإحدى الروایتين عن الإمام أحمد مستدلين بما يلي :

١ . يقول الله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾^(٢) والمخرج الصدق هو مكة والمدخل المصدق هو المدينة ، وللسلطان النصير هم الأنصار . ، وقد بدأت الآية بالمدخل ، وهو المدينة لأفضليتها . يقول ابن عبد البر : "وفيه دليل واضح على تفضيل المدينة ، لأن الله ابتدأ بها ، وكان القياس أن يبتدئ بمكة ، لأنه خرج منها قبل أن يدخل المدينة . ، وأيضاً قد جعل الله لرسوله ﷺ سلطاناً نصيراً في المدينة ولم يجعله بمكة ، ويأبى الله تعالى بكرمه إلا أن ينقل نبيه إلا إلى ما هو خير"^(٣) .

٢ . يقول النبي ﷺ : " اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إلى فأسكني أحب البلاد إليك"^(٤) ففي هذا الحديث تصريح بأن المدينة أحب البلاد إلى الله تعالى ، وذلك يدل على أفضليتها .

(١) صحيح مسلم . باب فضل المدينة ج ٩ ص ١٤٦ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٠ .

(٣) الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٨٠ .

(٤) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٥ نقلاً عن البيهقي .

٣ . ذهب العلماء إلى أن الإنسان يدفن في التربة التي خلق منها .
فلقد مر النبي ﷺ على قبر فسأل : قبر من هذا ؟
قالوا : قبر فلان الحبشي يا رسول الله .
قال ﷺ : لا إله إلا الله سيق من أرضه وسمائه إلى التربة التي خلق منها^(١) .

وروى الإمام أحمد والترمذي وحسنه أن رسول الله ﷺ قال : "إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة" . قال الحكيم الترمذي : "إنما صار أجله هناك لأنه خلق من تلك البقعة وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾"^(٢) قال : فإنما يعاد المرء من حيث بدئ به"^(٣) .

وقد دفن النبي ﷺ بالمدينة ، وفي ذلك دلالة على أن تربتها أفضل من غيرها
٤ . يقول النبي ﷺ داعياً للمدينة : " اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد"^(٤) وقد استجاب الله دعوته ، حتى كان يحرك دابته إذا رأى المدينة وهو عائد إليها ليسرع إليها من حبه لها ، وفي حب النبي ﷺ للمدينة أكثر من حبه مكة دليل على أفضليتها عند الله تعالى ، لأن حبه ﷺ تابع لحب ربه والمحبوب إلى الله ورسوله أكثر من غيره كيف لا يكون أفضل ؟! ... إنه الأفضل .

٥ . بيان حقيقة أن ما بين بيته وقبره ﷺ روضة من رياض الجنة ، دليل على فضل المدينة ، يقول النبي ﷺ : " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي"^(٥) لأن رياض الجنة يفضل أرض الدنيا كلها .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٤٣٥ .

(٢) سورة طه ، الآية ٥٥ .

(٣) الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٨٠ .

(٤) صحيح البخاري - كتاب الحج ج ٣ ص ٢٨٥ ط . الأوقاف .

(٥) صحيح البخاري - كتاب الحج ج ٣ ص ٢٨٤ .

٦ . تفضيل المدينة يكون- بسبب مجاورة ساكنيها والمقيمين بها لقبره ﷺ لأن مجاورة أهل الخير خير ، ولذلك كان جزاء الصالحين في الآخرة إلحاقهم بالصالحين ، وقد حرمت الشريعة الإسلامية مس المحدث لجلد المصحف لمجاورة الجلد للمصحف نفسه ، مع أنه ليس منه ، وذلك لأن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة ، والمرضوان . وللملائكة وله عند الله من المحبة ، ولساكنه ما تقصر العقول عن إدراكه ، فكيف لا يكون أفضل الأماكن !!؟
وقد حرص عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يدفن بجوار صاحبيه رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه لينال من الجوار بعض الخير الذي لا يرجوه في غيره .
ومن المعلوم أن جمهرة من العلماء قالوا بأفضلية مكة المكرمة على المدينة المنورة نظراً لمضاعفة ثواب العمل بمكة ووجود الكعبة بها من بدء الحياة البشرية من لدن آدم عليه السلام ولضعف حديث أن المدينة أحب البلاد إلى الله تعالى إلا أن الجميع متفقون على أن البقعة التي تضم الأعضاء الشريفة لرسول الله ﷺ بعد دفنه أفضل من غيرها على الإطلاق ، تليها في الأفضلية الكعبة ببنائها المعروف .
وقد حرم الله تعالى المدينة كما حرم مكة فلا يقطع شجرها ، ولا يقتل صيدها يقول النبي ﷺ : "إنى حرمت المدينة ما بين لابتيها ، لا يقطع عضاها ، ولا يقتل صيدها" (١) .

ويقول ﷺ : المدينة حرام ، لا يختلى خلاها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمن أشار لها وعرفها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل السلاح فيها إلا لقتال ، ولا يصلح أن يقطع منها شجر إلا أن يعلف الرجل بغيره (٢) .
ويقول النبي ﷺ : "المدينة حرام ما بين عير إلى ثور" (٣) .
ويقول ﷺ : "أحد جبل يحبنا ونحبه ، اللهم إن إبراهيم عليه السلام حرم مكة ، وإنى أحرم ما بين لابتيها" أي المدينة (٤) .

(١) صحيح مسلم . باب فضل المدينة ج ٩ ص ١٣٧ .

(٢) صحيح مسلم . باب فضل المدينة ج ٩ ص ١٤١ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب الحج . باب حرم المدينة ج ٣ ص ٢٧١ .

(٤) صحيح البخارى بشرح فتح البارى باب أحد جبل يحبنا ج ٤ ص ٨٩ .

وفى المدينة المنورة قامت دولة الإسلام الأولى ، ومنها انطلق الدعاة إلى كل مكان وانتشر الإسلام فى العالم كله ، والمسلم فى كل زمان ومكان له فى نفسه حب يسوقه إلى المدينة لحب رؤيته ﷺ وللتعلم منه فى حياته ﷺ . وفى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم للإقتداء بهديهم والسلام على نبيهم ، ومن بعد ذلك للصلاة فى مسجده والسلام عليه ﷺ . والتبرك بمشاهدة آثاره ، وآثار أصحابه رضوان الله عليهم (١) .

ومن المعلوم أن شد الرحال إلى مسجد النبي ﷺ سنة مشروعة . وكل من يزور المدينة المنورة ، ويتشرف بزيارة مسجد الرسول ﷺ ويصلى على النبي ﷺ يعيش ذكريات الإسلام الأولى التى اكتمل خلالها الإيمان وتمت النعمة ، وأصبح للإسلام دولة وقوة فهى مأوى الإسلام وقوته ، يقول النبي ﷺ : "إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها" (٢) .

والمدينة المنورة هى دار الإسلام الباقية على الزمن كله ، وآخر القرى خراباً فى آخر الزمان ، يقول ﷺ : "آخر قرية من قرى الإسلام خرابا المدينة" (٣) .

- ٢ -

جغرافية المدينة المنورة

تقع المدينة المنورة شمال مكة المكرمة بثلاثمائة وخمسين ميلاً تقريباً وهى أصغر مساحة ، وأقل سكاناً من مكة ، ويذهب بعض العلماء إلى أن المدينة كانت عند الهجرة نصف مكة مساحةً وسكاناً ، وتقع المدينة بواديها الأخضر وسط جبال شاهقة ، وتلال صخرية . وأراضى حجرية فهى بذلك تمثل واحة خضراء ، بها زراعات ونخيل وسط الصخر والحجر .

(١) السيرة النبوية ج ٩ ص ١٣٧ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الحج . باب الإيمان يأرز إلى المدينة ج ٣ ص ٢٧٧ .

(٣) تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذى ج ١٠ ص ٤١٨ .

وهى قرية صغيرة تقع بين جبلى عير وثور ، لقوله ﷺ : "المدينة حرم ما بين عير إلى ثور"^(١) .

وقد حققت مجلة الأزهر فى عددها الصادر فى غرة صفر سنة ١٣٧٥ هـ وجود هذين الجبلين حول المدينة المنورة ، بعدما شكك البعض فى أن جبل ثور هو الموجود بمكة ، ولا وجود له بالمدينة .

و يقع جبل "ثور"^(٢) خلف جبل أحد شمال المدينة ، وبذلك يكون جبل أحد جزءاً من المدينة ، لأن ثوراً يحدها شمالاً .

ويقع جبل "عير"^(٣) فى جنوب المدينة وهو حدها الجنوبي .

كما يحد المدينة من الشرق حرة "واقم" .

ومن الغرب تقع حرة "الويرة"^(٤) .

وتتميز المدينة المنورة بأنها دار حق وصدق ، لقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ

مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِّىْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ۝ ﴾^(٥) .

يقول المفسرون : هما مكة التى خرج ﷺ منها والمدينة التى دخلها ﷺ^(٦) .

والمدينة أحب البلاد إلى الله تعالى ، لأن النبى ﷺ قال عند خروجه من مكة

"اللهم إنك تعلم أنهم أخرجونى من أحب البلاد إلى فاسكنى أحب البلاد إليك"^(٧) .

فأسكنه الله المدينة المنورة .

(١) صحيح البخارى . كتاب الحج . باب حرم المدينة ج ٣ ص ٢٧١ .

(٢) جبل ثور بالمدينة جبل صغير مدور يقع خلف جبل أحد ، وهو غير جبل ثور الموجود بمكة ، ولونه يميل إلى الحمرة .

(٣) عير : جبل عظيم شامخ يقع جنوب المدينة على مسافة ساعتين منها .

(٤) الحرة : بفتح الحاء وتشديد الراء المفتوحة ، وواقم رجل من العماليق ، والويرة بفتح الباء أو بسكونها أرض حجرية لونها أسود كأنها أحرقت .

(٥) سورة الإسراء ، الآية ٨٠

(٦) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٨ ، ٥٩ ، وهو أشهر الأقوال .

(٧) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٠٥ .

- ٢ -

أهمية موقع المدينة

تتميز المدينة بموقعها الحصين ، وخيرها الكثير فهي تقع في ملتقى طرق الجزيرة العربية الآتية من كل جهاتها ، كما أنها محاطة بحواجز طبيعية تمنع وصول العدو إليها إن قصدتها بسوء ، وتعتبر المدينة جزيرة خضراء محاطة بحواجز صخرية ، منيعة ، إذ تقع حرة "واقم" في الشرق ، وحرة "الوبرة" في الغرب ، وجبل ثور وأحد في الشمال ، وجبل "عير" في الجنوب .

استقر بها بعض اليهود ، وأقام فيها الأوس والخزرج منذ القدم ، وأنشأوا بها الصناعات ، وزرعوا الأرض ، واستخرجوا الثمر ولذلك يقول عنها النبي ﷺ : "إني أريت دار هجرتكم ، ذات نخل بين لابتين"^(١) ... فتميزها بالنخيل دليل الزراعة والثمر ، وإحاطتها باللابتين دليل المنعة والتحصين .

وكان العرب وعلى رأسهم أهل مكة يقدرون لأهل المدينة هذا الموقع ، ويعاملونهم بالتقدير والاحترام كسباً لودهم ، وأملاً في حماية تجارتهم وهي تغدو وتروح عليهم ، ولذلك رأينا القرشيين بعدبيعة العقبة الثانية يصبون جام غضبهم على من أسلم من أهل مكة ، ويتجنبون مخالفة أهل المدينة .

جاء في صحيح البخارى أن سعد بن معاذ ؓ كان صديقاً لأمية بن خلف ، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد ، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمراً فنزل على أمية بمكة كعادته فقال لأمية : أنظر لى ساعة خلوة لعلنى أن أطوف بالبيت فخرج به قريباً من نصف النهار .

فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان من معك ؟

فقال : هذا سعد .

(١) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٤٦٨ ، واللابة هي الحرة بفتح الحاء .

فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمناً ، وقد آويتم الصباة ، وزعمتم أنكم تنصرونهم ، وتعينونهم ؟ أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً .

فقال له سعد ، ورفع صوته عليه : أما والله لو منعني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على المدينة .
فقال له أمية : لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد الوادي .
فقال سعد : دعنا عنك يا أمية^(١) .

كما أنه واضح أن المدينة كانت ذات ثمر ، فلقد أرسل النبي ﷺ إلى عيينة بن حصن بن بدر المزاري وهو يومئذ رأس المشركين من غطفان. عند الخندق ليخذل بين الأحزاب ؟! ويصرفهم عن حصار المدينة .

فأرسل إليه عيينة وقال له : إن جعلت لي الشطر فعلت^(٢) .
لقد كان ثمر المدينة جديراً بأن يغزى رؤساء الكفر بنقض ما عزموا عليه كما كان جديراً أن يمزق جمعهم طمعاً فيه .

إن إشارة النبي ﷺ إلى أنها ذات نخل دليل على ما فيها من خير لأن النخلة كثيرة الفوائد ، عظيمة الثمر ، ووجودها دليل على وجود ثمرها ، وفيها عناصر الغذاء المطلوبة للإنسان . يقول النبي ﷺ : "أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم ﷺ ، وليس من الشجر شيء يلقي غيرها"^(٣) .
ويقول عمرو بن ميمون : "ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب"^(٤) .

إن عديداً من الصناعات تقوم على النخلة منذ القدم ، وقد استفاد بها العربى فائدة كبرى ، فمنها يصنع بيته وأدواته ، وفراشه ، بالإضافة إلى تنوع ثمرها طعماً ، ولونا ، وصورة .

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب ذكر النبي ﷺ من قتل ببدر ج ٧ ص ٢٨٢ .

(٢) السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة ص ١٥٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٨ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ١١٨ .

■ ٤ ■

خلو المدينة من الوباء

اشتهرت "يثرب" قبل الإسلام بأنها بلد موبوءة ، يكثر فيها المرض ، وتنتشر بها الحمى ، تقول عائشة رضى الله عنها : "قدمنا المدينة وهى أوبأ أرض الله ، وكان بطحان يجرى نجلاً أى ماء آجناً"^(١) وبهذا بينت السيدة عائشة رضى الله عنها السر فى كون المدينة وبيئة ، وهى أن وادى بطحان ينز ماؤه جهة المدينة فيحدث المرض والوباء ، ولذلك قال مشركو مكة حين جاء المسلمون للعمرة بعد الحديبية مع رسول الله ﷺ : "إنه يقدم عليكم وفد وهنهم حمى يثرب"^(٢) ومن هنا ندرك سر أمر النبى ﷺ أصحابه أن يرملوا فى الأشواط الثلاثة وهم يطوفون بالبيت ، وأن يمشوا. مسرعين ما بين الركنين ليرى المشركون قوتهم ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم^(٣) .

وقد تأثر أصحاب النبى ﷺ بحمى المدينة بعد هجرتهم .. تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : "لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح فى أهله .: والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عن الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبیتن ليلة .: بواد وحولى إنخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة .: وهل يبدون لى شامة وطفيل

اللهم العن شبيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمىة بن خلف ، كما

أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء .

ثم قال رسول الله ﷺ : "اللهم حبيب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم

(١) صحيح البخارى . كتاب الحج ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الحج ج ٣ ص ١٣٠ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الحج . باب الرمل فى الحج والعمرة ج ٣ ص ١٣١ .

بارك لنا فى صاعنا ومدنا ، وصححها لنا ، وأنقل حماها إلى الجحفة^(١).

واستجاب الله دعاء نبيه للمدينة ، وجعلها بلداً طيباً .

يقول الحافظ ابن حجر : "أصبحت المدينة أطيّب بلاد. الله سبحانه .، كما سماها بذلك رسول الله ﷺ إذ سماها "طابة" و "طيبة" والطاب والطيب لغتان بمعنى واحد واشتقاقها من الشئ الطيب لطهارة تربتها ، ولطيبها لساكنيها ، ومن طيب العيش بها .

وفى طيب ترابها وهوائها دليل شاهد على صحة هذه التسمية ، لأن من أقام بها يجد من تربتها وحيطانها رائحة طيبة لا تكاد توجد فى غيرها .

يقول الحافظ ابن حجر : وقرأت بخط أبى على الصدفى فى هامش نسخته من صحيح البخارى بخطه يقول : أمر المدينة فى طيب ترابها وهوائها يجده من أقام بها . يجد لطيبها أقوى رائحة ، ويتضاعف طيبها فيها عن غيرها من البلاد ، وكذلك العود وسائر أنواع الطيب^(٢) .

وهكذا خلت المدينة من الوباء ، وحسن حالها ، واستقر أمر المسلمين بها وصارت حاضرة الإسلام الأولى بعد الهجرة إليها .

- ٥ -

وسطية المدينة

تقع المدينة المنورة وسط العالم كمكة .، لأنها قريبة منها .، ولأغلب سكانها عرب ، ولغتهم هى العربية ، وقد ساعد قرب المدينة من مكة أن الرسول ﷺ كان يعرف أخبار المكيين ، أمل الدعوة ، وركيزتها ، فهم الذين يدين لهم العرب جميعاً بالسيادة ، ويتخذونهم القدوة والأسوة ، ولأنهم منذ القدم حماة بيت الله وسدنته ومقصد أهل الجزيرة حيث يأتون إليهم حاجين ومعتمرين ، وقد ترك فيهم إبراهيم عليه السلام وحى الله ودينه وقد بواهم رسول الله ﷺ منزلتهم وهو

(١) صحيح البخارى . كتاب فضائل المدينة ج ٤ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) فتح البارى على صحيح البخارى ج ٤ ص ٨٩ .

يقول : قريش ولاية هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم^(١) .

ولم تغب مكة عن فكر رسول الله ﷺ بعد الهجرة ... ولم ينس أهلها ، ولذلك حرص الرسول ﷺ على معرفة أسرارهم ، وأخبارهم ، ومعرفة نقاط الضعف لديهم وإذا كان ﷺ مكث بينهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثة عشر عاماً وعجز عن إدخالهم في الإسلام ، فإنه بعد الهجرة أخذ يحاول في إيمانهم ، لأنهم شعب كثير ، قوى يمكنه خدمة الإسلام بما يملك من إمكانيات واسعة ، وثقة كبيرة يوليها العرب لهم . وتبرز أهمية أهل مكة وإمكاناتها الدعوية ، فيما حدث للإسلام بعد فتح مكة إذ خرج من المكيين للجهاد في "حنين" آلاف ، ولم يمض على إسلامهم عام واحد ، ودخلت الجزيرة كلها في الإسلام بعدهم ، وظهر من بينهم دعاة أفذاذ حملوا راية الإسلام ، وجاهدوا في سبيل الله تعالى .

لقد كان أهل مكة تجاراً يجوبون الآفاق ، وهذا علمهم الواقعية في التفكير واستخلاص النتائج من المقدمات ، والاهتمام بالدور الفردي لخدمة الجماعة ، والاستفادة من المهارات الخاصة في تحقيق منافع محددة ، والإحاطة ببلاد العالم ومعرفة طرق الرحلة إليها .

كل هذا جعل من المدينة المنورة موطن الدعوة المثالي لما بينها وبين مكة من ترابط وصلة ولذلك هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إليها وعيونهم وقلوبهم ترنوا لمكة رجاءً وأملًا .

- ٦ -

تميز المدينة عن غيرها من المدن

لو نظرنا لسائر مدن الجزيرة العربية لرأينا تميز المدينة عنها جميعاً ، ولأدركنا سر اختيارها للهجرة ، فمدينة "الطائف" قريبة من مكة ، بل هي أقرب إليها من المدينة ، وقد حاول الرسول ﷺ أن يجعلها موئلاً للإسلام حين ذهب إليها ،

(١) مسند الإمام أحمد مسند أبي بكر الصديق ج ١ حديث رقم (١٨) ص ١٩٩ ط . الرسالة وانظر صحيح البخاري - كتاب المناقب ج ٦ ص ٨٥ .

وطلب من أهلها الحماية والنصرة^(١) إلا أنهم كانوا متأثرين بنفوذ القرشيين ، فتجنبوا مخالفتهم ، وردوا الرسول حين أتاها رداً قبيحاً ، وأعلنوا بذلك أنهم لا يصلحون مستقراً للدعوة ، أو نقطة انطلاق للعالم كله .

وكان للمسيحية تأثير قوى فى بلاد اليمن القريبة من بلاد الحبشة ، ولهذا لم يهاجر الرسول ﷺ إليها حتى لا يعيش الصدام من أول الهجرة . وكانت بلاد الشام منقسمة بين الروم والفرس فى المتبعية والمذهب ، وهذا جعلها فى صدام مع الدعوة الإسلامية قبل الهجرة . وبعد هذا ، ولذلك لم يهاجر الرسول إليها .

أما البحرين وشرق الجزيرة العربية فكانت خاضعة للنفوذ الفارسى . ولم يبق من مدن الجزيرة العربية مدينة تصلح للحركة الإسلامية ، وتصير قاعدة الإسلام إلا مدن بلاد الحجاز ، وبخاصة (مكة ، والمدينة) لعدم تأثرهما بغيرهما ، وحسن موقعهما ، ومزايا سكانهما ، فإذا ما انتفت منها مكة لم يبق إلا المدينة المنورة ، وإليها كانت الهجرة النبوية .

- ٧ -

سكان المدينة المنورة

سكن المدينة المنورة قبل الهجرة كل من قبيلتى الأوس والخزرج . ومعهم طوائف من اليهود .

وكان أول الأمر بالمدينة أن سكنها العمالقة ، ثم قدم عليهم أناس من بدو بنى إسرائيل ، فجاوروهم فيها ، فلما انهدم سد مأرب هاجر إليها الأوس والخزرج ، ونزلوا بها . وتفرقوا فى عالياتها وسافلتها^(٢) فمنهم من نزل مع بنى إسرائيل فى القرى حول المدينة ، ومنهم من أقام فى يثرب .

(١) انظر ص ٣٦٤ من الكتاب الثانى من هذه السلسلة .

(٢) يراد بالعالية ما كان فوق المدينة إلى قباء وما بعدها ، ويراد بالسافلة ما كان فى أسفل المدينة إلى أحد وقبر حمزة ﷺ .

ولما دالت دولة اليهود فى فلسطين فى الزمن القديم وقضى عليهم الرومان وهدموا الهيكل فر كثير منهم إلى الحجاز ، وأقاموا فى يثرب ، وخيبر فكان فى يثرب يهود بنى قينقاع ، وفى تخومها يهود بنى قريظة ، وبنى النضير ، وكانت هناك جماعات أخرى من اليهود تقيم بخيبر ، وفدك ، وتيماء ، ووادى القرى .

وقد اتفقت قبائل الأوس والخزرج واليهود على المسالمة ، وحسن الجوار فعدوا حلفاً يأمن به بعضهم على بعض ، ويمتنعون به عن سواهم .

وكانت الغلبة والقوة لليهود ابتداء لتملكهم مصادر الغنى والثروة ، إذ كانوا يشتغلون بالصياغة ، وصنع آلات الحرب ، وبالزراعة وفلاحة البساتين وكان لهم سوق كبيرة تقام بصورة دورية لبيع منتجاتهم لأهل يثرب والقرى المجاورة .

ولما كثر عدد الأوس والخزرج ، وزادت ثروتهم ، ولشئت ساعد أبنائهم ، وصارت لهم قوة خافت قريظة والنضير منهم فتمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى كان بينهم ... الأمر الذى جعل قبيلتى الأوس والخزرج تتحدان فى إطار واحد ، ليجعلا "مالك بن العجلان" ، أخا سالم بن عوف الخزرجى ملكا عليهم .

وهكذا انقسمت المدينة إلى قسمين ، قسم هم العرب من الأوس والخزرج ومن والاهم ، وقسم هم اليهود بمختلف قبائلهم ، وطوائفهم .

ولم يدم توحيد عرب يثرب طويلاً ، فقد لعب بهم اليهود ، وأوقعوا بينهم الفتنة ، واشتعلت الحرب بين الأوس والخزرج واستمرت وكان آخرها حرب "بعث" .

ولم يتمكن "مالك بن العجلان" الذى سوده الأوس والخزرج عليهم من إيقاف الحرب ، وإنهاء القتال ، الأمر الذى أدى إلى كثرة الضرر ، وإهمال طرق الكسب والمعاش .

وقد تطور الأمر بعد ذلك حيث مكن الله للأوس والخزرج بعد بغى اليهود ، وظلمهم لأهل المدينة .

يذكر المؤرخون أن ملك اليهود "الفطيون"^(١) كانت له السيادة على اليهود

(١) الفطيون بكسر الفاء وسكون الطاء وياء مفتوحة وسكون الواو .

والأوس والخزرج ، وكانت له فيهم سنة متبعة وهي أن لا تتزوج منهم امرأة إلا أدخلت عليه قبل زوجها حتى يكون هو الذى يفتضاها ، إلى أن خطبت أخت لمالك بن العجلان الخزرجى ، فلما كانت الليلة التى تهدى فيها إلى زوجها خرجت على مجلس قومها كاشفة عن ساقبها ، وأخوها مالك فى المجلس .

فقال لها : قد جئت بسوأة بخروجك على قومك وقد كشفت عن ساقبك !!

قالت : الذى يراد بى الليلة أعظم من ذلك لأننى أدخل على غير زوجى ثم دخلت إلى منزلها فدخل إليها أخوها وقد أرمضه قولها .

فقالت له : هل عندك من خبر ؟

قال : نعم .

قالت : فماذا ؟

قال : أدخل معك فى جملة النساء على الفطيون ، فإذا خرجن من عندك ودخل عليك ضربته بالسيف حتى يبرد .

قالت : افعل .

فتزيا بزى النساء ، وراح معها ، فلما خرج النساء من عندها دخل الفطيون عليها فشد عليه "مالك بن العجلان" بالسيف وضربه حتى قتله ، وخرج هارباً حتى قدم الشام ، فدخل على ملك من ملوك غسان يقال له "أبو جبيلة" فشكا إليه ما كان من الفطيون ، وما كان يعمل فى نسائهم ، وذكر له أنه قتله وهرب ، وأنه لا يستطيع الرجوع خوفاً من اليهود ، فعاهده أبو جبيلة أن لا يقرب امرأة ، ولا يمس طيباً ، ولا يشرب خمراً حتى يسير إلى المدينة ويذل من بها من اليهود ، وأقبل سائراً من الشام فى جمع كثير ، مظهراً أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة ، ونزل بذى حرض ، ثم أرسل إلى الأوس والخزرج أنه على المكر باليهود ، عازم على قتل رؤسائهم ، وأنه يخشى متى علموا بذلك أن يتحصنوا فى آماطهم ، وأمرهم بكتمان ما أسره إليهم ، ثم أرسل إلى وجهاء اليهود أن يحضروا طعامه ، ليحسن إليهم ، ويصلهم ، فأتاه وجوههم ، وأشرفهم ، ومع كل واحد منهم خاصته وحشمه ،

فلما تكاملوا أدخلهم فى خيامه ، ثم قتلهم عن آخرهم ، فصارت الأوس والخزرج من يومئذ أعز أهل المدينة^(١) .

وبعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة وأقاموا بها ظهر المهاجرون عنصراً جديداً فيها ، يحمل الفكر والخلق ، وينشر الهدى والدين .

وقد تغير حال المسلمين فى المدينة بعد الهجرة عن ما كانوا عليه فى مكة فلقد أصبح أمرهم بأيديهم ، وصارت القوة معهم ، وأخذوا يظهرون الإسلام بسائر نظمته فى حياتهم ، ومعاشهم .. وأصبح لزاماً عليهم أن يكونوا مجتمعاً إسلامياً ، يحمى أبنائه ، ويصون عقيدته ، وينشر دين الله فى الأرض كلها .

وليس بخاف أن تكوين هذا المجتمع يحتاج إلى جهد وإخلاص ، كما يحتاج إلى صبر شديد . وزمن مديد . وعمل جاد . رشيد . حتى يتكامل التشريع مع التطبيق ، ويتوافق التنقيف مع الحركة ، ويمتلى الوجود بنور الوحي الذى يشع فى السلوك والحياة .

وهذه الآمال الكبار المنوطة بالمسلمين فى المدينة تحتاج إلى مجتمع متماسك ، متحد الوسائل والغايات . يدرك رسالة الله . ويحمل الأمانة . ويعيش بها ، ويتحرك لها بتوجيه رسول الله ﷺ .

إن هذا المجتمع بعناصره بعد الهجرة يحتاج إلى فهم مكوناته ، والتعامل مع كل عنصر بما يكافئه .

فالمسلمون يتكونون من الأنصار والمهاجرين .

من الأنصار المقيمين فى أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، آمنين فى شئونهم عندهم قوتهم ومعاشهم . وكل ما ينقصهم هو القضاء على كل ما بينهم من منازعات وعداوات امتدت طويلاً فيما مضى من الزمان ... وقد دخلوا فى الإسلام ومن آمالهم أن تنتهى هذه المنازعات بالإسلام .

ومن المهاجرين الذين تركوا أموالهم ، وديارهم ، وقومهم نصراً لدين الله ونجاة بأنفسهم .

(١) معجم البلدان ج ٥ ص ٨٥ .

وبفضل الله تعالى انتهت المنازعات بين الأوس والخزرج ، وصاروا يداً واحدة ،
تمثل جماعة واحدة ، ومدينة واحدة ، ولما جاءهم مصعب بن عمير ؓ قادهم
جميعاً إلى الله ، وأدركوا أنهم بالإسلام مسئولون مع المهاجرين على مواجهة الوثنية
فى بلاد العرب وغيرها .

لقد كانت قبيلة الخزرج أكثر عدداً وقوة من الأوس ، وكان النقباء منهم أكثر
... ومع ذلك لم يحدث أن خص الرسول ﷺ فريقاً دون غيره بشروط ، ولم يحدث
أن اعترض فريق منهم على شئ ، وإنما أدى إقبالهم على الإسلام وصدقهم مع
رسول الله ﷺ أنهم كانوا جميعاً على مستوى واحد فى الحرص على الإيمان . ،
واتباع كل ما يأمرهم به ﷺ ... ولذلك وصفهم الله جميعاً وصفاً واحداً فقال تعالى :
﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ
يُوَفِّ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(١).

ومع المسلمين فى المدينة كان اليهود بقبائلهم الثلاث : بنو قينقاع ، وبنو
النضير ، وبنو قريظة .

وعلى الجملة ...

فإن سكان المدينة بعد الهجرة كانوا مكونين من الفئات التالية :

الفئة الأولى : الأنصار وهم أهل المدينة الذين آمنوا برسول الله ﷺ ودخلوا فى
الإسلام ، وأساس الأنصار قبيلتا الأوس والخزرج .

الفئة الثانية : المهاجرون وهم أهل مكة الذين هاجروا بدينهم إلى المدينة
ومن لحق بهم من القبائل .

الفئة الثالثة : اليهود وقبائلهم الرئيسية بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو
قريظة .

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ .

ومع هذه الفئات الثلاث وجد أفراد في المدينة تابعون لهذا الفريق أو ذاك ، ولهم مذهبهم الخاص واتجاههم المستقل ، ومنهم كان المشركون ومن لا دين لهم . ولم تكن العلاقات بين هذه الفئات طيبة ، لأن اليهود نظروا إلى الإسلام نظرة حقد وحسد ، وأملوا في إثارة العرب ضده ، وكانوا يكرهون رسول الله ﷺ ويتمنون القضاء عليه ، وعلى دينه .

نظر الميهود إلى الإسلام .، ورأوا دعوة صالحة تؤلف بين أشتات. المقلوب وتطفئ نار العداوة والبغضاء ، وتدعو إلى التزام الأمانة في الشئون كلها ، وإلى التقيد بأكل الحلال من طيب الأموال ، ولهذا تأمروا عليه .

خاف اليهود من تآلف العرب ، والتخلص من سيطرتهم الاقتصادية ، الأمر الذى قد يؤدي إلى فشل اليهود التجارى ، وحرمانهم من أموال الربا التى تدير ربح ثروتهم ، و يحتتمل أن تنبسط تلك القبائل فتفكر فى الأموال الربوية التى أخذها اليهود ، فتقوم بإرجاع أرضها وحوائطها التى أضاعتها فى تأدية الربا إلى اليهود . كان اليهود يدخلون كل ذلك فى حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار فى يثرب ، ولذلك كانوا يبتغون أشد العداوة ضد الإسلام ، وضد رسول الله ﷺ " منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين .

يظهر ذلك جلياً بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها أنها قالت : كنت أحب ولد أبى إليه ، وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف غدا عليه أبى ، حيي بن أخطب ، وعمى أبو ياسر بن أخطب ، مغلسين ، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، فأتيا كالين ، كسلانين ، ساقطين ، يمشيان. المهيونى .. فهششت إليهما كما كنت أصنع . فوالله ما المتقت إلى واحد منهما لما ما بهما من الغم ، وسمعت عمى أبا ياسر

وهو يقول لأبى ، حيي بن أخطب : أهو هو ؟

قال أبى : نعم والله .

قال عمى : أتعرفه وتثبته ؟

قال أبى : نعم .

قال عمى : فما فى نفسك منه ؟

قال أبى : عداوته والله ما بقيت (١) .

ويشهد بذلك أيضاً ما وراه البخارى فى إسلام عبد الله بن سلام ﷺ وكان حبراً من فطاحل علماء اليهود ، فإنه لما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة فى بنى النجار جاءه مستعجلاً ، وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبي ، ولما سمع ردوده ﷺ عليها آمن به من ساعته ، ومكانه ، ثم قال له : إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فأرسل رسول الله ﷺ إليهم فجاءت اليهود ، ودخل عبد الله بن سلام البيت .

فقال رسول الله ﷺ : أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟

قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا .

فقال رسول الله ﷺ : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟

فقالوا : أعاده الله من ذلك (مرتين أو ثلاثاً) .

فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول

الله .

فقالوا : شرنا وابن شرنا ، ووقعوا فيه .

فقال عبد الله بن سلام : يا معشر اليهود اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا

هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق .

فقالوا : كذبت (٢) .

وبقى المنافقون وسط الناس يثيرون الفتن ، ويحاولون زعزعة ثقة المسلمين فى

رسولهم ودينهم ، ولا يظهرون مكرهم مداراة للمسلمين ، وخوفاً من المؤمنين .

(١) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٥١٩ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المناقب ج ٦ ص ٢٣٠ ط . الأوقاف .

ـ ٨ ـ

شجاعة أبناء المدينة

تميز العرب فى المدينة بقوة البأس والشجاعة والإباء بسبب الحروب التى امتدت بينهم طويلاً ، وأشهرها حرب داحس والغبراء ، وحرب بعاث ، وقد أدت هذه الحروب إلى تخريج جيل من الرجال ، متميز بصلابة الرأى ، وقوة الشجاعة ، وكأن هذه الحروب مدرسة لتخريج جيل قوى ، يتفانى من أجل هدفه الذى آمن به ، ويتحمل الكثير لتحقيق ما يؤمن به .

لقد امتدت الحرب بين الأوس والخزرج طويلاً ، ومع ذلك لم يستسلم أحد منهم للآخر أبداً ، بعداً عن العار ، وحماية للشرف والكرامة ، فلما أسلموا واتبعوا رسول الله ﷺ اتحد هدفهم وتحولوا جنوداً مخلصين لله .

وكان العرب فى الجزيرة العربية يعرفون شجاعة أهل المدينة ، ولذلك كانوا يخطبون ودهم ليتمكنوا من شراء حاجاتهم منها ، وليحفظوا بقراهم ، وليأمنوا على أنفسهم ، وتجاريتهم عند المرور بهم ، وما سجل التاريخ اعتداء أحد على المدينة بسبب شجاعة أبنائها وقوة أهلها .

وقد تأكدت شجاعتهم فى الإسلام من خلال مواقفهم مع رسول الله ﷺ .
فى حديث كعب بن مالك ليلة بيعة العقبة الثانية قال: ﷺ لأهل المدينة :
أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .
فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعك مما
نمنع منه أزربنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحروب ، وأهل الحلقة ورثناها
كابراً عن كابر^(١) .

كما ظهرت شجاعتهم ، وجراتهم على الحروب يوم بدر ، فلقد كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة على نصرته على من يقصده وهو فى المدينة فلما سار بهم رسول الله ﷺ إلى المشركين فى بدر ، وخرج من المدينة أراد أن يعرف مدى

(١) أخرجه أحمد . الفتح الربانى ج ٢٠ ص ٢٧١ - ٢٧٥ .

حرصهم على الاشتراك فى المعركة بعيداً عن المدينة فوجد عند بدر منهم ما أسعده ، وسره .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به ، أتى المقداد النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال : يا رسول الله لا نقول كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ^(١) ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديك ، ومن خلفك . فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره ، يعنى قوله ^(٢) .

وعن علقمة بن وقاص الليثي قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر حتى إذا كنا بالروحاء خطب الناس فقال : كيف ترون ؟

فقال أبو بكر : يا رسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا .

ثم خطب صلى الله عليه وسلم الناس فقال : كيف ترون ؟

فقال عمر مثل قول أبي بكر .

ثم خطب صلى الله عليه وسلم الناس فقال : كيف ترون ؟

فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله إيانا تريد ؟ فوالذى أكرمك ، وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ، ولا لى بها علم ، ولئن سرت حتى تأتى برك الغمام من ذى يمن لنسيرن معك ، ولا نكون كالذين قالوا لموسى : ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله إليك غيره فانظر الذى أحدث الله إليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ^(٣) .

(١) سورة المائدة ، الآية ٢٤ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ ج ٦ ص ٢٣٨ .

(٣) فتح البارى ج ٧ ص ٢٨٧ بنحوه .

ومن المعلوم أن القتال يوم بدر كان قاسياً على المسلمين ، وكان شديداً وهذا يجعل لمقالة المقداد قوة في دلالتها على شجاعة أهل المدينة ، وقوة بأسهم ، يقول الله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ مُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (١) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿ (١) .

ولآيات. تصوير صريح لما كان. يتمناه المسلمون. ، فهم يكرهون. المقتال ويتصورونه سعياً إلى الموت ، ومساراً إليه .

كانوا. يتمنون. الغنيمة بلا قتال. .. وشاء. الله غير ذلك ليقطع دابر الكافرين ويعلى شأن الإسلام في الجزيرة العربية كلها ، وليحقق بالمسلمين انتصاراً لدين الله تعالى يقول الحافظ في الفتح : وكان رسول الله ﷺ يريد غنيمة مع أبي سفيان ، فأحدث الله إليه القتال .

إذا علم هذا الحال فإن موقف الأنصار من القتال دليل واضح على شجاعتهم لأنهم وجدوا أنفسهم أمام مسئولية القتال بلا استعداد مسبق ولم يترددوا أو يخافوا . وعن أنس أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه أبو بكر و عمر ، ثم قال عمر : يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا : لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ وللمذى. بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك. المغمد لا تتبعناك (٢) .

وفي غزوة الأحزاب تجلت شجاعة القوم ، وظهر حرصهم على الأفضل واستعدادهم للتضحية ، وأكدوا أنهم ليسوا ممن يفرطون في وطنهم ، وأن هذا

(١) سورة الأنفال ، من الآية ٥ : ٧ .

(٢) مسند الإمام . باب مسند أنس بن مالك .

كان شأنهم قديماً فعندما اجتمع المشركون ، وأحاطوا بالمسلمين من كل ناحية ، وأزهرهم اليهود والمنافقون ، استشار رسول الله ﷺ السعدين (سعد بن معاذ وسعد بن عباد) في أن يعطى غطفان ثلث ثمار المدينة على أن ترجع فرفض السعدان ذلك ، وأصرّا على الحرب وبيننا لرسول الله ﷺ شأنهم قبل الإسلام ، وأنهم ما ازدادوا بالإسلام إلا عزا .

عن الزهري قال : لما اشتد على الناس البلاء يوم الأحزاب بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف المري ، وهما قائدا غطفان ، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح .

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه ، فقالا : يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟

فقال ﷺ : بل شئ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ، ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك ، وبه نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم بيننا وبينهم !

فقال النبي ﷺ : أنت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال : ليجهدوا علينا^(١) .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠١ .

وولضح من هذم المنصوص. ما كان. يتمتع به الأنصار. من شجاعة وجراة
ومعرفة بفتون الحروب والقتال .

■ ٩ ■

تآلف أبناء المدينة

عاش أهل المدينة مدة طويلة فى حرب وصراع بين قبيلتى الأوس والخزرج
وكان يهود بنى قينقاع ينحازون للخزرج ، ويهود بنى قريظة ينحازون للأوس ،
الأمر الذى ساعد على اشتعال الحرب واستمرارها .

ومن أشهر هذه الحروب يوم "بعاث" وبعاث مكان حصن فى مزرعة عند بنى
قريظة على ميلين من المدينة ، وكان رئيس الأوس حضير والد أسيد ، ورئيس
الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، وفى أول هذه الحرب كان النصر للخزرج
وفى النهاية كان النصر للأوس ، وفى هذه المعركة قتل رئيسا الفريقين .

ومن حرب بعاث هذه استفاد الإسلام ، لأن أكابر الأوس والخزرج قتلوا فيها
وبذلك قضى الله على المعارضة التى تتمسك بمواريث الآباء ، يبدوا هذا جلياً من
موقف أحد هؤلاء الأكابر وقد بقى حياً وهو عبد الله بن أبى فإنه وقف فى وجه
الدعوة ، وكاد لها .

ومن آثار هذه الموقعة أيضاً أن الأوس والخزرج أدركوا مدى الدمار الذى
يلحقهم من الحروب ، وتمنوا أمراً يوحدهم ويجمعهم ، فلما جاء الإسلام أسرعوا إليه
عن عكرمة ؓ قال : قابل النبى ﷺ نفرأ من الأنصار فآمنوا به وصدقوا وأراد
أن يذهب معهم فقالوا : يا رسول الله إن بيننا وبين قومنا حرباً ، وإنا نخاف إن
جئت على حالك هذه أن لا يتهياً الذى تريد ، فواعدوه العام المقبل فقالوا : نذهب
برسول الله ﷺ فلعل الله أن يصلح به تلك الحرب ، وكانوا يرون أنها لا تصلح فلقوه
من العام المقبل سبعين رجلاً ، قد آمنوا به ، فأخذ منهم النقباء اثنى عشر رجلاً .

وعن ابن إسحاق قال : كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة

حتى قام الإسلام فأطفأ الله ذلك وألف بينهم^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " يا معشر الأنصار بم تمنون على!!! ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله ؟ ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله ؟ ألم تكونوا فقراء فأغناكم الله ؟ ألم تكونوا أعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله^(٢) .

ولسوف ندرك طبيعة القوم ، وأثر يوم بعثت فيهم بما رواه البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:.. كنا فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار .

فقال الأنصارى : يا للأنصار .

وقال المهاجرى : يا للمهاجرين .

فلما سمعهما رسول الله ﷺ قال : "ما هذا ؟ ما بال دعوى الجاهلية ؟ فقالوا : كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى يا للأنصار ، وقال المهاجرى : يا للمهاجرين . فقال النبى ﷺ : دعوها فإنها منتنة^(٣) .

تقول عائشة رضى الله عنها : كان يوم بعثت يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ فقدم رسول الله ﷺ المدينة وقد افترق ملوهم ، وقتلت سراتهم وجرحوا فقدمه الله لرسوله ﷺ فى دخولهم فى الإسلام^(٤) .

قال. الحافظ ابن حجر :.. فقتل فى حرب. بعثت. من أكابرهم من كان. يتكبر ويأنف أن يدخل فى الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره ، وقد بقى من هذا النحو عبد الله بن أبى بن سلول^(٥) وقد تولى الله تعالى إذابة شحناء أهل المدينة وألف بين قلوبهم ، وجمعهم على المودة ، والرحمة ، والحب ، والتعاون يقول الله

(١) سيرة النبى ﷺ ج ١ ص ٤٢٨ .

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى ج ٢٢ ص ١٧٥ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب التفسير . باب سورة المنافقين ج ٨ ص ٥١ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب المناقب ج ٦ ص ٢٢٥ .

(٥) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٧ ص ١١١ .

تعالى : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ تَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

وبهذا صار أهل المدينة في ألفه ، وتماسك - وهم كذلك إلى اليوم .
بكل هذه الحقائق عن المدينة وأهلها جعلها الله تعالى موئلاً للإسلام ، ومستقره ، وأمر المسلمين بالهجرة إليها ، وتأسيس دولة الإسلام الأولى فيها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، والله على كل شيء قدير .

- ١٠ -

حب أهل المدينة للإسلام

تميز أهل المدينة بطبيعة مغايرة لأهل مكة بسبب اشتغالهم بزراعة الأرض ، وفلاحة البساتين ، التي جعلتهم يعيشون بين عوامل طبيعية عديدة لا يدركون شيئاً عن سر حركتها ، وبين عمل وسعى لا يعرفون شيئاً عن نتائجه !!
إن تقلب الجو ، واضطراب الطبيعة ، ونزول المطر ، وتغير المناخ كل ذلك له تأثير مباشر في فكرهم ، ومعاشهم ، وحياتهم . لأنهم يتأكدون من وجود هذا التغيير . ويعرفون أهميته ومع ذلك لا يدركون مصدره . ويجهلون سببه . ولا يحددون بدايته أو نهايته إنه غيب بالنسبة لهم .

كما أن نتاج الزرع ، ومحاصيل الضرع ، وتغير المناخ أمور تتحرك بين يدي قدرة خافية لا يعلمون عنها شيئاً ... الأمر الذي جعل حكماءهم يتساءلون عن فاعل كل هذا ؟ ... ومدبره ؟ ... والمتصرف فيه ؟

لقد أدت إقامة اليهود بـ "يثرب" إلى تذكير أهلها بدين الله تعالى القائم على التوحيد ، فلقد كان اليهود أهل كتاب ، يؤمنون بالله الواحد ، و يدينون بدين موسى ﷺ ، وهذا أبقى في عقول أهل المدينة فكرة التوحيد ، مما جعلهم ينظرون إلى الأصنام نظرة باهتة ، فلم يحدث أن أقام أهل المدينة لها بيتاً . أو قدموها في

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٢ .

الحرب ، أو هتفوا بها فى مناسباتهم ، وأعيادهم ... وهذا الأمر ساعدهم على تقبل دعوة التوحيد حين جاءتهم ، والدخول فى دين الله تعالى حين علموا به .
كما أن فكرة بعثة نبي بدين الله تعالى صار حقيقة متوقعة بعدما نطق بها اليهود ، وخوفوا بها العرب ، الأمر الذى دفع الأوس والخزرج إلى تقبل فكرة النبوة ، والتحرك إلى رسول الله ، والإسراع فى اعتناق الإسلام .

جاء فى سيرة ابن هشام ما رواه عاصم بن عمر بن قتادة قال : لما لقي رسول الله ﷺ رهطاً من الخزرج أول مرة قال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى .

فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوه ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شئ قالوا لهم : إن نبياً مبعوثاً ، قد أظلم زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله أنه النبى الذى توعدهم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم ، فدعوههم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا

عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا^(١).

إن الوثنية التي عاشها الأوس والخزرج كانت هزيلة ، بحيث لم تتمكن من تحمل ضغوط الإيمان ، ولم يتحمس أحد من أهل المدينة ليصنع للأصنام هالة ، أو ينشئ لها مكاناً مقدساً ، ولم تجد الأصنام فريقاً يعمل لحمايتها ، والدفاع عنها ، كما هو الحال في مكة ، فلما جاءهم الإسلام أسرعوا إليه ، وتخلصوا من الأصنام تخلصاً كلياً ، وارتبطت نفوسهم بالله حتى كأنهم ولدوا في الإسلام ، وعاشوه من زمن طويل ، وما كان اتخاذهم للأصنام ، وتوجههم نحوها إلا رمزاً يتشبهون به بغيرهم ، لتكون لهم آلهة . كما كان لغيرهم . ولعل هذا الصمت التاريخي عن مصير آلهة الأوس والخزرج بعد الهجرة يفسر مدى هوان هذه الأصنام عند أهل يثرب ، وعدم الارتباط بها ، وسرعة وشمولية التخلص منها بعد دخولهم في دين الله تعالى .

إن الإسلام جاء إلى المدينة ، بعد لقاء العقبة الأول ، وحمله إليها مصعب بن عمير ؓ أول داعية أرسله رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأولى ، وقد قام مصعب بمهمته خير قيام ، فانتشر الإسلام في كل بيوت المدينة ، خلال مدة لم تدم أكثر من عام واحد ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها قرآن يتلى إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد ، وخطمة ، ووائل ، وواقف^(٢) .

إن سرعة انتشار الإسلام في المدينة كان بسبب ما فيه من الموضح والسماحة ، والعدل ، والانسجام مع تكوين الإنسان ونشاطه وأهدافه ، وبسبب همة مصعب بن عمير ؓ في الدعوة بصدق وإخلاص . حيث أخذ يحرك الأفئدة بالقرآن ويلين العواطف بتلاوته البهية ، ويقنع العقول بالحق ، ويرضيها وهو يعرض عليها آيات الله في الأنفس والآفاق ، ومن أكبر العوامل التي ساعدت على هذا الإيمان السريع وضعية أهل المدينة بالنسبة للأصنام ، فلم يحدث أن عارضوا

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٤٢٨ .

(٢) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٤٣٧ .

مصعباً ، أو دافعوا عن أصنامهم ، أو جادلوا حول ألوهيتها ، وإنما آمنوا بالله مسرعين لشعورهم بما في ألوهية الأصنام من ريب وشك .

لقد كان أغلب الأوس والخزرج يعبدون " مناة " ويصنعون على مثاله أصناماً من خشب يضعونها في دورهم ... إلا أنهم كانوا يدركون هوانها ، وعجزها ... يدل على ذلك ما روى أن عمرو بن الجموح كان قد اتخذ لنفسه صنماً من خشب يشبه " مناة " فلما أسلم فتيان من الأوس كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بنى سلمة ، وفيها فضلات الناس منكساً على رأسه ، فلما أصبح عمرو ذهب ليتمسح بالصنم فلم يجده في المكان الذي تركه فيه ، فأخذ يسأل ، ويقول : ويلكم ! ... من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟

وأخذ يلتمسه في كافة نواحي المدينة حتى إذا وجده غسله ، وظهره ، وطيبه ، ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه ! فإذا أمسى وقام عمرو عدوا عليه مرة أخرى ، وفعلوا به مثل ما فعلوا ، فيغدو عمرو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى . فيغسله ، ويطهره ، ويطيبه ثم يعدون عليه إذا أمسى ، فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله ، وظهره ، وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال : إني والله لا أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك .

فلما أمسى ، ونام عمرو. عدوا عليه ، فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أحضروا كلباً وربطوه به بحبل ، ثم ألقوه في بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر من عذر الناس ، فلما جاء عمرو في الغداة لم يجده في مكانه الذي كان فيه . فخرج يتبعه ، وابنه معاذ يحاول أن يهون له من شأن إلهه ، وأن يحببه إلى الإسلام فكان يعرض عن ابنه مغضباً ، وغدا ينقلب عن إلهه ، والمسلمون يزينون في قلبه دين الله فيثور في وجوههم ، وإن كان كلامهم ينزل بسويداء فؤاده .

واستمر عمرو بن الجموح فى بحثه عن صنمه حتى وجده فى تلك البئر
منكساً ، مقروناً بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه قال :
والله لو كنت إلهاً لم تكن .: أنت وكلب وسط بئر فى قرن
أف لملقاك إلهاً مستدن .: الآن فتشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلى ذى المنن .: الواهب الرازق ديان الدين
هو الذى أنقذنى من قبل أن .: أكون فى ظلمة قبر مستكن
بأحمد المهدى النبى المرتهن^(١)

لقد دخل أهل المدينة فى الإسلام صادقين ، وكانوا خير عون لرسول الله ﷺ فى
نشر الإسلام ، واشتركوا معه فى غزواته وجهاده .
وقد هيا الله أنفسهم لتقبل الإسلام بما كانوا يسمعون من اليهود ، فلقد كان
اليهود يقولون. للأوس. والخزرج. :. لقد أظلنا زمان نبى يدعو لدين الله تعالى
وسنسبكم إليه لننتصر به عليكم ونقتلكم قتل عاد وإرم . فلما بعث رسول الله
ﷺ سبقهم الأنصار ودخلوا فى دين الله تعالى .

لقد كانت مقالة اليهود تلك بمثابة التنبيه للأوس والخزرج ،. أدت بهم إلى
التفكير فى هذا. الدين الجديد ،. وهذم المقالة دعوة حسنة ،. قدرها الله للمدنيين
جعلتهم يفكرون ، وينظرون ، ويؤمنون .

قد يتصور البعض أن مقالة اليهود للأوس والخزرج هى دافعهم الوحيد إلى
الإسلام وهى التى جعلتهم مسلمون من غير تفكير ليكون السبق لهم !!

وهذا تصور غير صحيح حيث نلاحظ أن إسلام الأوس والخزرج تم بعد
ثلاثة لقاءات فى العقبة كثر فيها الحوار بين رسول الله ﷺ وبينهم ، ولو كانت
غايتهم السبق المجرد لآمنوا وانفقوا ، وبايعوا فى اللقاء الأول .

وأيضاً يعلم عرب المدينة (الأوس والخزرج) جيداً أن اليهود لن يتركوا دينهم
أبداً. لما اعتقدوه فيه ،. لأنهم يرون. أن. رسالتهم آخر الرسالات. ،. ونبيهم أعظم

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ . والقرن الحبل والمستدن الذليل ، والغبن السفه .

الأنبياء ، وأنهم شعب الله المختار ، ولا يعقل أن يتبعوا واحداً من العرب ... وقد ثبتت هذه الحقيقة يوم أن قبل اليهود الموت بعد غزوة الأحزاب ، وفضلوه على الإسلام ، وكان يكفيهم يومئذ أن يعلنوا إسلامهم ، ويفوزوا بعفو رسول الله ﷺ .

وقد يتصور البعض أن قبول عرب المدينة (الأوس والخزرج) للإسلام كان للحصول على مصلحة دنيوية عاجلة .، وهى البحث عن الاستقرار .، ولأمن ، وتحقيق الصلح فيما بينهم ، ووضع نهاية للحرب التى دامت طويلاً بلا هدف ، ولا غاية .

لا نتصور ذلك لأن البيعة كانت على الجهاد والحرب .، وهذا يعنى بداية النزاع مع الوثنيين فى الجزيرة العربية كلها .، وعلى رأسهم قريش ، وبذلك اتسع الصراع وتشعب .

وبعدما كان الصراع بين الأوس والخزرج صار بين أهل المدينة وبين مشركى الجزيرة كلها .، وعلى رأسهم القرشيين .، ولأعراب .، وأهل البوادي . بعدما كان منحصراً بين الأوس والخزرج .

وبعدما كان الصراع منحصراً داخل المدينة صار ممتداً بين الحق والباطل فى كل مكان .

وبعدما كان الأوس والخزرج يعملون لأنفسهم صاروا يعملون لله ورسوله ، ورفع شأن دين الله بين الناس أجمعين .

وأيضاً فإن أهل المدينة بايعوا الرسول ﷺ فريقاً واحداً ، بصوت واحد ، وعلى بنود واحدة ، بلا أدنى تنافس بينهم ، وجعلوا الأمر كله لله .

لم يتحدث التاريخ أن قبيلة الأوس وهى القليلة العدد ، الضعيفة القوة كانت هى الأسرع إلى الإسلام لضعفها ... لتتخذ نفسها .

ولم يتحدث التاريخ أن قبيلة الخزرج .. وهى الكثيرة العدد كانت هى الأبطأ فى اعتناق الإسلام لقوتها ... وعدم اقتناعها .

لم يتحدث التاريخ عن هذا ولا عن ذاك ، وإنما سجل وبين أن الخزرج كانوا هم الأسرع إلى الإسلام قبل الأوس ، مما يدل على أن إسلام أهل المدينة كان يقيناً صادقاً مع الله تعالى ، قائماً على الرضى والاقتناع .

ولم يكن هدف أهل المدينة تثبيت سلطانهم ، والمحافظة على رئاستهم ... لأن الذى حدث بعد الهجرة يشير إلى غير ذلك ، لأن أهل المدينة أسلموا أمرهم لرسول الله ﷺ وأخذ الرسول ﷺ وأصحابه المهاجرون يتصرفون فى شئون المدينة لأنهم أصحاب الحق فى إدارة المدينة ، وأصحاب الكلمة العليا بها وكثيراً ما كانت الإدارة والقيادة للمهاجرين بلا اعتراض من الأنصار .

إن إيمان أهل المدينة (الأوس والخزرج) كان بعد اقتناعهم بالإسلام ، وتقبلهم لمبادئه ، وإيماناً منهم بأنه هو الطريق الصحيح لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة ، ونشر الخير بين الناس بمنهج الله تعالى .

وبهذا المسلك ينتصر الإسلام فى أى زمان ، وفى أى مكان ، ومع أى فريق .

إنه يحتاج إلى المؤمنين الصادقين الذين يفهمون الإسلام حق الفهم ، ويلتزمون به عملاً ، وتطبيقاً ... ويؤمنون بيقين أن إسلامهم يعنى ترك ما عداه من منهج ... لأن كل ما عداه بالنسبة له ليس بشئ .

إن على هؤلاء المؤمنين التسليم بأن العبودية لله وحده هى مقصد الإسلام من أتباعه . وبدون هذه العبودية لا يكمل إسلام المؤمنين .

والتزام المؤمنين للعبودية القاننة تعنى تسليم القيادة لرسول الله ﷺ ومن يخلفه من بعده على منهج الله الذى ارتضاه للناس ، لإيمانهم بأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وأن الطاعة الواجبة هى فى طاعة الله تعالى .

لقد انتصر الإسلام فى المدينة بفضل من الله تعالى ، وبتأييد المؤمنين ، وإخلاصهم فى التوجه لله رب العالمين ، وخلوصهم من كل شئ ليس من الإسلام ، صغر أم كبير .

ويجب أن يكون واضحاً أن انتصار الإسلام في المدينة قام على دعائيتين رئيسيتين :

قام . أولاً . على الدعوة إلى الله تعالى ، وتبليغ الإسلام بمنهج حكيم سديد .
وقام . ثانياً . على مجاهدة أعداء الله الذين يعملون . على صد الناس . عن الإسلام ، وإشاعة الرعب ، ونشر الأكاذيب .

بهاتين الدعائتين انتصر الإسلام في المدينة ...
أما الدعامة الأولى وهي الدعوة إلى الله تعالى فقد باشرها ﷺ والمسلمون معه بمنهجية دقيقة وفق تعاليم الوحي ، وتوجيهات رسول الله ﷺ حيث وجدنا هذه الحقائق :

. وضوح الموضوع المراد توصيله للمدعوين بأدلته ، وبراهينه سواء كان في العقيدة ، أو في الشريعة ، أو في الأخلاق .
وقد ساعد على هذا الوضوح وحدة المصدر الموجّه ، وقصر التلقى من هذا المصدر .
. تخير الوسيلة المناسبة في التبليغ حيث .الاتصال .الفردى .، و .الجماعى ،
والجماهيرى في أشكاله المتعددة ... حيث لكل فرد ، وكل فريق وسيلة تناسبه .
. الاستفادة بالبيان العربى في الأسلوب ، وبذلك انبهر العرب بأسلوب الدعوة ،
وأقبلوا عليها معجبين بسلاسة الأسلوب ، وبرايعه الخطاب ، ودقة المعانى .
. وضوح الأهداف والغايات المقصودة ، وبيان أنها جميعها في مصلحة الناس
وقد استلزم هذا المنهج الدعوى أن يقوم به المؤمن به ، الملتزم بكل ما جاء فيه ، وحين تطابق القول والفعل كان التصديق والإيمان .
وبالنسبة للدعامة الثانية وهي مجاهدة أعداء الله ومقاومتهم فقدتم ذلك بعدة محاور باشرها الدعاة والمسلمون ... أهمها :

- ١ . بيان فساد ما عليه أعداء الله من دين ومذهب .
- ٢ . رد الشبه التي يثيرونها ضد الإسلام .
- ٣ . تتبع مزالق ومواطن السوء لأعداء الله للقضاء عليها بالحجة والبرهان .

٤ . إعداد المعدة نفسيًا ، وعلميًا ، وتربويًا لرد الأعداء ، والمقضاء على افتراءاتهم .

٥ . الاستعداد لرد عدوانهم المسلح ، وصيانة الحرية للناس ، والدعاة ، وللحق ليبقى الخير بقوته ونصاعته بين العالمين .

إن الدعوة في العصر الحديث تحتاج إلى منهج يأخذ من هذا المنهج ليعود للدين مجده ، ويعيش المسلمون حياة طيبة كريمة .



الفصل الأول
السيرة النبوية
من الهجرة حتى وفاته ﷺ

تمهيد :

أخذ كفار مكة في صد الناس عن الإسلام ، والعمل على إطفاء نور الله في قلوب المؤمنين ، واستعملوا من أجل ذلك كافة ما أمكنهم من عمل ، وأخذوا في إلحاق الأذى برسول الله ﷺ وأصحابه معه ، حتى أنهم دبّروا لقتل رسول الله ﷺ وآذوا المؤمنين إيذاءً شديداً ، وقد أحاطت عناية الله برسوله ﷺ وبدينه ، فساق إلى مكة نفر من الأوس والخزرج ، دخلوا في الإسلام ، وبايعوا رسول الله ﷺ على الجهاد ، والموت كما هو واضح في بيعة العقبة الثانية^(١) .

فكان أن أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة . وهاجر ﷺ بعدهم ولحق بهم ، . ولستقر حال المسلمين بعد تمام الهجرة وتأسيس دولة الإسلام في المدينة المنورة .

وأخذت الأحداث تتتابع ، وبدأ نصر الله لدينه وللمؤمنين يتحقق في أرض الواقع ، ووصل دين الله إلى العالم كله ، وبذلك عاشت سيرة الرسول ، وحركته الله في المعقول. وللقلوب. ، وحفظت في السطور. وللمصدور. ، وبرزت. في الأعمال والسلوك .

وقد تأسست دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة بعد الهجرة ، وصارت نموذجاً حياً لحضارة راقية ، قامت على التوحيد الخالص ، والعبودية الكاملة لله وحده والتمسك بالعمل الصالح ، والخلق الكريم .

وفي منهجنا لدراسة هذه المرحلة أحب أن أفرق بين أمرين :

الأمر الأول : أقصد بأحداث السيرة النبوية الأحداث التي عاشها رسول الله ﷺ بصورة شخصية في جانبها الأغلب ، وإن شاركه غيره فيها كهجرته ﷺ وإنشاء بيوته ، وزواجه ، وأولاده ، وتعامله مع أصحابه الخ ... إلى وفاته ﷺ .

الأمر الثاني : أعنى بأحداث حركة النبي ﷺ بالدعوة ، الأحداث التي كان النبي ﷺ يقوم بها مع سائر المسلمين في نشر الإسلام. وتبليغه للناس. ، وذلك

(١) انظر الكتاب الثاني "السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي" .

كالجهاد ، وإرسال الرسائل ، واستقبال الوفود ... الخ . مما له صلة بتبليغ الإسلام ، وإن قام به الرسول ﷺ وحده أحياناً .
إن الترابط بين الأمرين كبير ، إلا إنى فرقت بينهما منهجياً ، لأجعل الأمر الأول فى دراسة السيرة ، وأجعل الأمر الثانى فى دراسة حركة الرسول ﷺ بالدعوة ... وإن قام بهما معاً رسول الله ﷺ .
وفى هذا الفصل ستأتى دراسة السيرة النبوية فى العهد المدنى ... ولذلك أراها تتناول المباحث التالية :

- المبحث الأول : الهجرة النبوية .
 - المبحث الثانى : الاستقرار فى المدينة بعد الهجرة .
 - المبحث الثالث : تنظيم الحياة الاجتماعية فى المدينة .
 - المبحث الرابع : الحياة الأسرية لرسول الله ﷺ فى المدينة .
 - المبحث الخامس : رد ما يقال عن تعدد زوجات النبى ﷺ .
 - المبحث السادس : الحكم العامة فى تعدد زوجات النبى ﷺ .
 - المبحث السابع : حسن معاشره النبى ﷺ لزوجاته .
 - المبحث الثامن : أبناء النبى ﷺ .
 - المبحث التاسع : الحياة الشخصية لرسول الله ﷺ .
 - المبحث العاشر : أدائه ﷺ رسالة الله تعالى .
- ولأما وفاته ﷺ فسوف أجعله بإذن الله تعالى فى نهاية الحديث عن حركة الرسول بالدعوة ليكون الحديث فى هذا الموضوع خاتماً للسيرة والحركة معاً .

والله الموفق ،،،

المبحث الأول الهجرة النبوية

بعث رسول الله ﷺ إلى العالم كله فأخذ يبلغ الإسلام ، ويتحرك به وفق منهج واقعي ، فبدأ بالدعوة في مكة بعدما بدأ نزول الوحي فيها ، واستمرت الدعوة في مكة موطنها الأول ثلاثة عشر عاماً ، تنوعت فيها الوسائل ، وتعددت الأساليب ، وتحمل المسلمون مع رسول الله ﷺ مسئولية تبليغ الإسلام ونشره بين الناس .

إن الإسلام هو دين الخلق الكريم ، والمعاملات النبيلة ، والعقيدة الصافية الصادقة ، والسلوك القويم ، والمحافظة على كافة الحقوق ، وتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة ... ومع ذلك فإن أهل مكة ، وبخاصة كبارؤها وسادتها لم يؤمنوا بدعوة الله ، وأخذوا في ردها ، وصد الناس عنها حقداً ، وحسداً ، وظلماً .

وقد رأينا في دراسة العهد المكي مدى عدوانية كفار مكة ، واضطهادهم لكل من أسلم ، ووقوفهم سداً يصد الناس عن استماع دعوة الله ... وقد أخذوا يتهمون محمداً ﷺ بالكاذب المضلل حتى لا يسمعه أحد ، مستفيدين من كثرتهم ومنزلتهم في قلوب الناس ، وتحكمهم في التجارة والمال ، وقد نجحوا في عدوانيتهم إلى حد بعيد .

إن عرب الجزيرة كانوا يقولون : "أهل الرجل أعرف به" فنأوا بأنفسهم عن الصراع ، منتظرين نتائجه ليتخذوا بعد ذلك الموقف الذي يرونه .

لقد دخل في الإسلام عدد قليل في مكة ، ولو استمر إيمان الناس بالوتيرة التي سار عليها خلال العهد المكي لاحتاج رسول الله ﷺ إلى الزمن كله ليصل الإسلام إلى الناس في العالم كله ، لأن جملة من دخل في الإسلام خلال العهد المكي لم يزد عن المائتين إلا قليلاً ، على خوف من طواغيت مكة .

أمام هذا كان لابد لدعوة الله تعالى أن تتخذ منهجاً جديداً ، ومساراً آخر تحقق به انطلاقة كبرى للإسلام .

وكان قدر الله تعالى مع حاجات الدعوة وواقعها ، ومع آمال رسول الله ﷺ والمسلمين

فأمرهم بالهجرة العامة من مكة إلى بلد آخر .

وقد سبق للمسلمين أن هاجر نفر منهم إلى الحبشة مرتين ، تدريباً لهم على ترك مكة ، واكتشافاً لمعرفة حياة الآخرين ومذاهبهم ، وليعلموا أن ترك الديار والأهل والمال والولد من أجل العقيدة والدين أمر مشروع ، ولربما كان واجباً حين لا يأمن المسلم على دينه وعقيدته .

وقد بلغ عدد المهاجرين إلى الحبشة قريباً من ثمانين مسلماً ومسلمة ، ولذلك فهي هجرة خاصة في عدد المهاجرين ، وفي الأهداف المقصودة ، أما الهجرة إلى المدينة فإنها تعرف بالهجرة العامة لأن جميع المسلمين كلفوا بها ، كما تعرف بالهجرة النبوية لأن النبي ﷺ هاجر فيها مع المسلمين .

ولما اشتد عنت الكفار ، وغلظ عدوانهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين معه نزل أمر الله تعالى بالهجرة على المدينة . فهاجر إليها المسلمون جميعاً ومعهم رسول الله ﷺ .

والحديث عن الهجرة يتناول النقاط التالية :

- النقطة الأولى : تحديد موطن الهجرة .
- النقطة الثانية : أهمية الهجرة .
- النقطة الثالثة : تنظيم الهجرة .
- النقطة الرابعة : وقفات بارزة في الهجرة .
- النقطة الخامسة : ركائز دعوية من الهجرة .

وذلك في الصفحات التالية ...

والله الموفق ،،،

النقطة الأولى

تحديد موطن الهجرة

إن ترك موطن الصبا والبعد عن الأهل والأحبة إلى مكان آخر شاق على النفس يحتاج إلى تفهم تام لسببه ، واقتناع بأهميته ، والوقوف على الغايات السامية التي تقتضيه .

وكان رسول الله ﷺ يعلم صعوبة الأمر بالهجرة على أصحابه ، ولذلك تدرج في أمرهم بالهجرة ، وإخبارهم بمكانها ووجهتها .

ففي البداية قال النبي ﷺ لأصحابه : "إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين"^(١) .

فبدأهم بأنها رؤيا منامية ، ورؤيا الأنبياء حق ، ولم يحدد لهم مكان الهجرة لنتشغل نفوسهم بالبحث عنها وللتفكير في شأنهم معها ، وليعلموا أنها حصينة لوصفها بأنها بين لابتين ، وغنية لأنها ذات نخل .

وقد ظن الصحابة بعد أن أخبرهم الرسول ﷺ برؤياه تلك أنها اليمامة ، أو هجر ، أو يثرب ، أو قنسرين^(٢) لوجود الصفات التي أخبرهم بها رسول الله ﷺ ، ومع هذا الظن لم يتصرفوا من تلقاء أنفسهم وإنما انتظروا تحديد دار هجرتهم من رسول الله ﷺ . ويبدو أن هذا التحديد تم بعد مراحل تمهيدية .

ففي المرحلة الأولى أخبرهم النبي ﷺ برؤياه .

يحدث أبو موسى الأشعري أن البداية كانت في قول النبي ﷺ : " رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة (يثرب)"^(٣) .

(١) صحيح البخارى - كتاب المناقب ج ٦ ص ٢٠٨ ، واللاية الأرض الصخرية المرتفعة .

(٢) اليمامة تقع في الجنوب الغربى لجزيرة العرب . فتحها خالد بن الوليد وقتل فيها مسيلمة سنة ١٢ هـ ، وهجر بلد معروف بالبحرين يسكنها عبد القيس ، وبها كانت تصنع القلال التي كانت تباع بالمدينة ، ويثرب مدينة رسول الله ﷺ وقد سماها ﷺ بعد الهجرة طابة وطيبة ونورت بالهجرة إليها ، وقنسرين بكسر القاف وفتح النون الأولى مشددة ، وهى إحدى مدن بلاد الشام .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب مناقب الأنصار ج ٧ ص ٢٢٦ .

وبعد ذلك نزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره في الهجرة إلى واحد من أماكن ثلاث هي : المدينة ، أو البحرين ، أو قنسرين فعن جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال : "إن الله أوحى إلى أي هؤلاء الثلاث نزلت فهي دار هجرتك ، المدينة ، أو البحرين ، أو قنسرين" ^(١) . وبعد ذلك تمنى الرسول ﷺ والمسلمون تحديد دار الهجرة بدقة .

وقد حددها الله لهم بعد ذلك ، يروى الترمذى في سننه أن النبي ﷺ بعد أن أخبر أصحابه بالهجرة من مكة بأيام خرج إليهم مسروراً ، وهو يقول لهم : قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها ^(٢) .

وإنما كان المتدرج حول أمر الهجرة مراعاة لحال المهاجرين ، حتى يسهل عليهم ترك الأهل والدار ، وإذا كان لأحدهم ارتباط معين يحتاج إلى وقت لينتهي منه ويؤدي ما عليه فكان التدرج لإعطاء فرصة ينتهي كل من ارتباطاته في مكة قبل أن يهاجر ، وفي تأخير تحديد المكان صرف أذهان القرشيين عن أهمية الهجرة ، وإدراك خطورتها عليهم وعلى تجارتهم لأنهم كانوا يخافون من دخول أهل المدينة في الإسلام لتأثيرهم على أهل مكة ، وبخاصة إذا انضم الرسول ﷺ إليهم ، وقادهم بدينه الذي يدعو إليه لأن في ذلك تأثير ضار بهم ، وبتجارتهم .

ولم يتصور أهل مكة أن الهجرة هذه المرة ستكون شاملة للرسول والمسلمين جميعاً وظنوها واحدة تشبه سابقتها ، ولذا لما بدأ المسلمون في الرحيل إلى المدينة لم يتعرض لهم أحد ، مع أنهم كانوا يخرجون إرسالاً ^(٣) ظناً من أهل مكة أن الرسول ﷺ لن يلحق بهم كما فعل مع مهاجري الحبشة .

وقد رحلت عائلات بأكملها فقبيلة بنى غنم رحل منهم ، أربعة عشر رجلاً وسبع نسوة ، كما تحرك عمر بن الخطاب ، وأهله ، وعشيرته وحلفاؤه في عشرين رجلاً وامرأة .

(١) تحفة الأحوذى شرح سنن الترمذى - كتاب المناقب - باب فضل المدينة ج ١٠ ص ٢٩٢ .

(٢) سنن الترمذى - كتاب المناقب - باب فضل المدينة ج ١٠ ص ٢٩٢ .

(٣) إرسالاً . أى جماعة إثر جماعة .

واستمر رحيل المسلمين من مكة حتى لم يبق منهم إلا رسول الله ﷺ وبنوه وأبو بكر وبنوه ، وعلى بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد رضى الله عنهم حيث أبقاهم رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى ، فلما تيقن أهل مكة أن الهجرة إلى يثرب وعلموا أن الرسول ﷺ يستعد للهجرة بأهله ، وجميع أصحابه ، وخدمه خافوا من الأمر ، ووقع فى أيديهم ، فأخذوا فى التخطيط لقتل رسول الله ﷺ حتى لا يقع ما يحذرون منه وتتم الهجرة ، وتتحول المدينة إلى مركز لمحاربة أهل الفسق والضلال .

وفى تحديد الله لموطن الهجرة فى مراحل متتالية متكاملة إرشاد. لضرورة التمهّل والتأنى فى اختيار القرارات الهامة ، وضرورة مشاركة الناس فى المسائل التى تتعلق بمصائيرهم .

إن هذه المشاركة تملأ الإنسان بالمسئولية وتجعله يتحمل المشاق والمكاره لأن اختياره جزء من القرار لقج عاش المسلمون. فى مكة مرحلة ما قبل الهجرة مشغولين بمستقبلهم مستسلمين لله ، وكان الله مع قلوبهم فأرضاهم وساعدهم .

النقطة الثانية

أهمية الهجرة

الهجرة هى ترك. أمر وفعل غيرم .، وتشمل ترك. المحسوسات. وللمعنويات، ويكون. فى الخير وفى الضرر .، ولذلك فهناك ترك. المعاصى .، وترك. الأفكار الضالة وترك الخير ، وترك التعاون ، وهناك ترك الديار والبلاد والرحيل عنها إلى مكان آخر ، وكل ذلك هجرة وترك ، والفاعل لأحدهما مهاجر وتارك .

ومن الهجرة الحسية ما تقوله الملائكة للمستضعفين الذين ظلموا أنفسهم ، وبقوا تحت سيطرة الطغاة أذلاء مستعبدين ليقموا عليهم الحجة ، ويبينوا لهم أن الضعف معصية وجريمة يعاقب الله من رضى به مع قدرته على الخلاص منه وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ۖ

قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا
فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١﴾ .

ومن الهجرة المعنوية جاء قوله ﷺ : "إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما
نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت
هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه" (٢) .
وقد هاجر المسلمون إلى الحبشة تاركين مكة وما فيها من ضلال وشرك فهي
هجرة حسية ، وهجرة معنوية معاً .

والهجرة إذا أطلقت فإنها تنصرف إلى هجرة المسلمين ومعهم رسول الله ﷺ من
مكة إلى المدينة المنورة ، والذين قاموا بالهجرة هم المهاجرون الذين قال الله فيهم :
﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ
فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٣) .

ويندرج معهم كل من ترك موطنه أياً كان موقعه ، ولحق برسول الله ﷺ في
المدينة ... يقول ابن الأثير : "والمراد بالمهاجر في الشريعة من فارق أهله ووطنه ،
وجاء إلى بلد الإسلام ، وقصد النبي ﷺ رغبة فيه ، وإيثاراً له" (٤) .

وكلام ابن الأثير لا يقيد الهجرة بمكان خاص ، وإنما يجعل الهجرة شاملة لأي
مكان ما دامت تقصد الرسول ﷺ في بلد الإسلام رغبة في صحبته وإيثاراً للتعلم منه
، وابتعاداً عن أعداء الله الذين يبغونهم الفتنة والضرر .

وعلى ذلك فمن ترك دار الشرك ، ولحق بدار الإسلام فهو مهاجر ، يقول ابن
عباس ؓ : "كان رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وعمر من المهاجرين ، لأنهم هجروا
دار الشرك إلى دار الإسلام ، وكان من الأنصار مهاجرون تركوا المدينة يوم أن

(١) سورة النساء ، الآية ٩٧ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الإيمان ج ١ ص ٥٣ ، وهذه رواية الحميدى ط . الأوقاف .

(٣) سورة الحشر ، الآية ٨ .

(٤) جامع الأصول ج ١ ص ٢٤١ .

كانت دار شرك وقصدوا رسول الله ﷺ عند العقبة^(١) .

والهجرة المقصودة من الدراسة هي الهجرة العامة إلى المدينة المنورة . وترجع أهمية الهجرة إلى المدينة المنورة إلى أنها تمثل الانطلاقة الكبرى لانتشار الإسلام بعد ما وقف أهل مكة من الإسلام. وللمسلمين موقف المعنت والكبرياء ، وأخذوا يصدون الناس عن سبيل الله بكل وسيلة ممكنة ، مهما كان فيها من الكذب والغلو والبعد عن الحق والساد .

يصور القرآن الكريم موقف أهل مكة من الدعوة إلى الله تعالى . ويبين بوضوح أنهم لم يتدبروا حقيقة ما تدعوهم إليه . وإنما كانت اعتراضاتهم تنسم بالفوضوية ، واللجوء إلى السفه والجهل ، وتبتعد ابتعاداً كلياً عن المناقشة الهادفة الصحيحة .

فالرسول ﷺ يدعوهم إلى دين الله تعالى ، ويدلل على الحق بالحسنى ، ويبين الإسلام بكافة الوسائل والأساليب ، ويقدم أمامهم الآيات الواضحات ، ومع ذلك استمروا على عنيتهم وغلوهم متعللين بالحجج الواهية والأجوبة الباهتة .

فمرة يبرزون تميزهم بالغنى المادى ، والوجاهة الاجتماعية ، والسلطان القوى ، ومادروا أن ما هم فيه من فضل هو من الله ، والأولى بهم أن يشكروا الرازق المعطى ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾^(٢) .

ومرة يطالبون الرسول ﷺ بتبديل الآيات ، والإتيان بغيرها ، وكأنهم فى حفلة راقصة، تغير فيها الراقصة الملابس مع كل مقطع وأغنية، متصورين رسول الله قادراً على التغير أو التبديل ... وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتُنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ

(١) انظر ص ٤٦٨ من الكتاب الثانى .

(٢) سورة مريم ، الآية ٧٣ .

مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّايَ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ
إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ .

ومرة يشعرون بالعجز ، فيتهمون رسول الله ﷺ بما ليس فيه .، ويصفونه
بالكذب والسحر ومعاداة دين الآباء يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۚ قَالُوا مَا
هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُبِينٌ ۚ ﴿٢﴾ .

ومرة يتعنتون في المناقشة ، ويطلبون من الرسول أن يعيد لهم آباءهم من
قبورهم ليشهدوا بصدقة . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ
حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاءَنَا ۚ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ ﴿٣﴾ .

ومرة يصيبهم الحنق والغضب ، وتتبدى منهم العداوة للمؤمنين يقول الله تعالى :
﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّتِي كُنْهُمْ
يَكَادِرُونَ يَسْطُونَ ۚ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِّنْ
ذِكْرِكُمُ الْغَارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ ۚ ﴿٤﴾ .

ومرة ينكرون الحق ، الثابت مستدلين بعدم الفهم ، وجنوحهم إلى الظن
والخيال يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ
مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ۚ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا لَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ ۚ ﴿٥﴾ .

(١) سورة يونس ، الآية ١٥ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٤٣ .

(٣) سورة الجاثية ، الآية ٢٥ .

(٤) سورة الحج ، الآية ٧٢ .

(٥) سورة الجاثية ، الآية ٣٢ .

ووصل الحال بأهل مكة أنهم حاولوا قتل رسول الله ﷺ أكثر من مرة، وكان أن نجاه الله منهم .

وقد اشتد إيداء الكفار لكل من أسلم لردهم عن الإسلام، وإبعادهم عن رسول الله ﷺ ، وتخويف غيرهم من اتباع رسول الله ﷺ والدخول في الإسلام .
ولذلك كان الإذن بالهجرة نهاية لفترة مؤلمة عاشها المسلمون ، وبداية لقوة الإسلام ، وتطبيقه في حركة الحياة والناس ... وكان هذا سبب رضى المؤمنين وسعادتهم .

لقد كانت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة مرحلة طبيعية ، انطلقت فيها دعوتهم بعد حصارها الطويل ، وكانت انفراجة حاسمة لا بد منها لنشر كلمة الحق بين القاصي والداني بلا عائق أو عناد .

وكان المسلمون قد أدركوا. بعد أن استعصى عليهم الانطلاق. إلى غايتهم الكبرى أن تغيير المكان والأقوام أمر ضرورى لتحقيق النجاح المنشود .

ولم يعد ممكناً للمسلمين أن يمارسوا نشاطهم بصورة حسنة وسط قيود أهل مكة بعد صبر دام ثلاث عشرة سنة محسوبة من عمر دعوتهم ، وتيقنوا من حاجة الإسلام والمسلمين إلى منطلق أمين . يمكنهم من الوصول للناس فى العالم كله ... ولهذا كانت استجابتهم لرسول الله ﷺ حين أمرهم بالهجرة إلى المدينة المنورة .

كانت الهجرة للمدينة إذن أمراً ضرورياً ، بعد أن هيا أهلها للمسلمين المكيين الفرصة الطيبة للخلاص من مراقبة الأعداء ، والبعد عن اضطهادهم وعنتهم .

كان المطلوب آنذاك أن يهاجر من مكة جميع القادرين على تركها ، ليتخذوا المدينة مركزاً جديداً للدعوة ، وقد تحقق هذا، ولم يبق فى مكة إلا من حبس ، أو فتن ، أو منعه ضروراته فأمن ، ولم يعلن إسلامه .

ولا شك أن هجرة المسلمين كانت معروفة لأعدائهم لأنهم لم يكونوا يعيشون وحدهم فى مجتمعات منعزلة ، وإنما كانوا يعاشرون جماعات تعارضهم وتحرص على تعطيل دعوتهم، ولهم معهم كل يوم معارضات ومشاحنات ، ولذلك كان أهل مكة يدركون رحيل المسلمين من بينهم كلما غابوا عنهم .

وخرج المسلمون من مكة غير آسفين عليها ، وقدموا على المجهول تاركين أهلهم وأموالهم مرغمين ، وكانوا مع ذلك راضين بالحياة الجديدة الآمنة ، وكان طريق الهجرة مفتوحاً أمامهم فهاجر بعضهم أمام الناس ، وتسلسل بعضهم الآخر فى ظلمات الليل فى غفلة وسر .

ولم يكن فى الهجرة عند بدايتها شئ من الخطر ، ولم يقف أهل مكة ضدها ، ولعلها كانت تبدو أمام المشركين نوعاً من الهروب من ميدان العمل أو نوعاً من السلبية أمام الأخطار ، ولعلهم قاسوها على هجرة المسلمين قبل ذلك إلى الحبشة ، وظنوها مجرد رحيل فريق من المسلمين إلى غير بلادهم ليعيشوا غرباء مدة يعودون بعدها إلى مكة .

ولم يعجز القرشيون أن يوجدوا لأنفسهم بعض التعليقات المناسبة لأفهامهم بسبب عدم معارضتهم للمسلمين وهم يرحلون. عن مكة ، فلقد تصوروا أن هجرة المسلمين راحة لهم مما يرون ويسمعون ، وأملوا فى الفصل بينهم وبين رسولهم ، وبخاصة أن الرسول باق فى مكة معهم كما تصوروا .

ولم يكن المسلمون. آنذاك. قوة تؤثر بالضرر. على المنطقة أثناء الهجرة ، فتركهم أعداؤهم يهاجرون بعد أن ضحوا بكل شئ فى سبيل عقيدتهم ، ولم يكن فى الهجرة شئ من العنف أو. الإثارة .، ولذلك سمح القرشيون. لكثير من المهاجرين بالهجرة بعد أن تركوا أموالهم وبيوتهم .

وبدت هجرة المسلمين أمام المشركين كأنها نوع من الهزيمة ، أو صورة للفرار من ميدان التنافس والصراع .

إلا أن الهجرة لم تكن شيئاً من ذلك أبداً ، لأن المهاجرين ذهبوا إلى المدينة ليباشروا الأعمال الضخمة التى تخدم الدعوة ، ويتحملوا مسئوليتها أمام الناس . وقد تحول الإسلام بهم إلى مجتمع متكامل ينطق بالعمل والتطبيق فى حيوية ونشاط .، ويتوحد بأخوة العقيدة التى تربط بين القلوب. ولأرواح.، وتتجمع بين الأجساد. ولأعمال.، وتجعل الطريق والهدف .، وتزيل جميع الفوارق المادية ، وتقضى على غيبش الهوى ، ونزغات الضلال .

إن المهاجرين لم يضيعوا وقتاً يخدمون فيه دينهم ، وبخاصة بعد أن هاجر الجميع وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ... لقد بدأت المواجهات الحاسمة ، والأعمال المتتابعة في خدمة الدعوة إلى الله تعالى .

قد يتصور أحد أن الهجرة المسلمين من مكة إلى المدينة المنورة كانت من أجل الراحة والهدوء ، وإيثاراً للسلامة من اضطهاد يتعرضون له في مكة أو سترأ لضعفهم وقتلهم ... وكل هذا غير صحيح ، ومردود .

أين هي السلامة وسط السرايا والغزوات التي اشتركوا فيها ؟ والتي لم تنقطع طوال الفترة المدنية ؟! ابتداء بعد الهجرة مباشرة !!

وأين هذا الهدوء وقد تحولت حياتهم كلها إلى عبادة ، ودعوة ، وجهاد ؟
وأين هذا الضعف في المهاجرين وقد تنوعت غزواتهم في كل الجهات والقبائل المحيطة بالمدينة ؟

وأين هي الراحة ، وقد نشطوا في تبليغ الدعوة إلى الله تعالى بكل طاقاتهم ؟!!
إنهم هاجروا لله ورسوله ، واستمروا على ذلك حتى ماتوا لله ورسوله .
وقد شجع أهل مكة المسلمين بصمتهم ، وتفسيرهم أسباب الهجرة . فقد صرفهم ذلك عن ملاحقة المسلمين ، وتصوروا الهجرة فترة سوف تنتهي إلى غير نتيجة .

وربما كان القرشيون يقنعون أنفسهم بقبول هذا المفهم ، ويصدقون خيالهم ليفتخروا أمام الناس بانتصارهم على المسلمين بعد الخصومات الطويلة .
لقد تصور القرشيون صدق نظرتهم لأن المهاجرين لم يتكلموا عن شيء ، وكل ما اعتنوا به حين الهجرة هو خروجهم من مكة إلى حيث أمر رسول الله ﷺ .

وقد بقي رسول الله ﷺ في مكة ليكون آخر من يهاجر منها ، ولعله كان يخشى على أصحابه إذا هاجر قبلهم وتركهم في مكة فنصحهم بالرحيل قبله ليضمن لهم نوعاً من الأمن والسلامة ، وليكون خلف ظهورهم كالقائد الذي اضطرت ظروف الحرب للانسحاب فإنه يبقى مع آخر المتراجعين من جيشه أملاً في سلامتهم ، وتحقيقاً للغايات المطلوبة منهم .

ولعل الرسول ﷺ كان يضلل أعداءه ببقائه بينهم ليوهمهم بأنه سيكون معهم بعد ذهاب أصحابه إلى المدينة ... وبذلك تنتهي خطورته ، ويفقد أنصاره ، ويعيش صامتاً مدامناً لأن القائد بمفرده لا يفعل شيئاً، وكل قوته في تنفيذ جنوده ، وأتباعهم لأوامره وتوجيهاته .

لقد تبخرت تصوراتهم كالسراب بعد أن هاجر رسول الله ﷺ ولحق بأصحابه في المدينة ، وبدأت دولة الإسلام تتعالى بالحق ، وتتطلق في العالمين بالنور والبيان والعبودية لله رب العالمين .

النقطة الثالثة

تنظيم الهجرة النبوية

هاجر المسلمون من مكة ، ورحلوا إلى المدينة ولم يبق في مكة أحد من المسلمين مع رسول الله ﷺ وآله إلا على بن أبي طالب ﷺ وأبا بكر الصديق ﷺ وأبناء أبي بكر ، وأسامة بن زيد ، وعامر بن فهيرة فلقد بقوا مع رسول الله ﷺ بأمره ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة ليلحق بإخوانه ، ولينال شرف الهجرة ، وطاعة الله ورسوله .

فيقول له رسول الله ﷺ كلما تعجل : " لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً" ^(١) فيطمع أبو بكر أن يكونه ﷺ ، وأخذ يستعد لذلك فابتاع راحلتين وحبسهما في داره ، وأخذ في علفهما والاهتمام بهما ، واستمر الحال على هذا مدة أربعة أشهر ^(٢) حتى تمت الهجرة النبوية ، في إطار تنظيم قدره الله تعالى لرسوله ﷺ . وقد اشتمل تنظيم الهجرة على ما يلي :

- أولاً -

تأمر القرشيين على قتل رسول الله ﷺ

هاجر المسلمون إلى المدينة وبدأ أهل مكة يشعرون أن تجمع المسلمين في

(١) صحيح البخارى - كتاب المناقب ج ٦ ص ٢٠٨ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المناقب ج ٦ ص ٢٠٨ .

المدينة مع أهلها خطر عليهم ، وبخاصة إذا لحق محمد ﷺ بهم فأخذوا يتآمرون للقضاء على رسول الله ﷺ وهو بينهم قبل أن يتركهم إلى المدينة ، ويتعاضد شأنه مع أصحابه وأهلها .

يقول ابن إسحاق : ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً ، وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله ﷺ فاجتمعوا له في دار الندوة ، يتشاورون فيما يصنعون في أمره ﷺ حين خافوه ، وكان ذلك في شهر صفر من العام الثالث عشر للنبوّة .

فلما غدوا في اليوم الذي اتعدوا له اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل نجدى ، يتسم بالهدوء والوقار ، وعليه بتلة^(١) ، فوقف على باب الدار .

فلما رأوه واقفاً على بابها ، قالوا : من الشيخ ؟

قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً .

قالوا : أجل ، فادخل فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا مع من اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً .

قال قائل منهم : احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً ، والنابغة ، ومن مضى منهم ، حتى يصيبه ما أصابهم .

فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لننحبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلا وشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوهم من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا في غيره .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا

(١) فى "بت" ... والبتلة والبت : الكساء الغليظ .

أخرج عنا فوالله ما نبألى أين ذهب ، ولا حيث وقع إذا غاب عنا ، وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا ، وألفتنا كما كانت .

فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه ، حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم فى بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم دبروا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم .

فقال الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل ، هذا الرأى الذى لا أرى غيره فتفرق القوم على ذلك ، وهم مجمعون على تنفيذه^(١) .

وقد وقع اختيارهم على أحد عشر رجلاً من أكابر قريش وهم :

(١) أبو جهل بن هشام . (٢) الحكم بن أبى العاص .

(٣) عقبة بن أبى معيط . (٤) النضر بن الحارث .

(٥) أمية بن خلف . (٦) زمعة بن الأسود .

(٧) طعيمة بن عدى . (٨) أبو لهب .

(٩) أبى بن خلف . (١٠) نبيه بن الحجاج .

(١١) منبه بن الحجاج .

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٤٨ . ٤١٣ .

اجتمع هؤلاء الرجال المختارون وفيهم أبو جهل بن هشام عند بيت رسول الله ﷺ لتنفيذ المؤامرة المتفق عليها ، فقال لهم أبو جهل وهم على بابهِ ﷺ استهزاء وسخرية : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها .

استمرت هذه الجماعة في حصارها لرسول الله ﷺ لتقتله فور خروجه إليهم لكنه ﷺ خرج عليهم وأخذ حفنه من تراب. في يده وألقاها على رؤوسهم وهم في عماية وغطاء ، ثم قال ﷺ : نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدكم يا أبا جهل ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلم يروه ﷺ ، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم و يتلو هؤلاء الآيات من سورة يس ، وفيها يقول الله تعالى : ﴿ يَسْ ۖ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۚ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلَلاً فَهِيَ إِلَى الْآذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ ۙ ﴾ (١) ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من قراءة هذه الآيات، لم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب (٢) .

- ثانياً -

التخطيط للهجرة

قدرة الله غالبية، وأمره سبحانه وتعالى نافذ، وكان من اليسير أن يزيل الكفر والكافرين بـ "كن" ... لكن إرادة الله قضت بجريان أمور الدعوة على عادة البشر وسنن الحياة ، ليتولى المسلمون حركة القدرة الإلهية، وينظروا في مسار الأمور

(١) سورة يس ، من الآية ١ : ٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٨٠ .

اعتباراً ، وعظة ، ولذلك كانت الهجرة عملاً بشرياً ، راعت كافة الاحتمالات ، ورسمت منهجاً للحركة الصحيحة ، وقد أعان الله تعالى رسوله والمسلمين على النجاح ، وقدر لهم أن يتم أخطر عمل في حياة المسلمين بفكر البشر ، ليكون دليلاً للمستقبل ، ومبدأً للتأسي ، وقد عالجت الخطة جميع الجوانب التي نلاحظها في الأمور التالية :

١. الإعداد المسبق للهجرة :

أعد الرسول ﷺ للهجرة عدتها قبل أن يتحرك من بيته .
تقول عائشة رضي الله عنها : فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر^(١) الظهيرة قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ جاء متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها !

فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . تقول عائشة : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له .
فلما دخل ﷺ قال لأبي بكر : أخرج من عندك .
فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله .
قال ﷺ : فإنني قد أذن لي في الخروج .
فقال أبو بكر : الصحابة بأبي أنت يا رسول الله .
قال رسول الله ﷺ : نعم .
قال أبو بكر : فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحتي هاتين .
قال رسول الله ﷺ : بالثمن .

قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز^(٢) وصنعنا لهما سفرة في جراب .
وقد نظم رسول الله ﷺ أمر الهجرة وحدد لجميع من سيساعده دوره وعمله ، كما سيتضح ذلك من عمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعبد الله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة ، وعبد الله بن أريقط ، وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم .

(١) أي أول الزوال ، وهو أشد ما يكون في حرارة النهار .
(٢) أفعل تفضيل من الحث وهو الإسراع ، والجهاز : ما يحتاج إليه في السفر .

٢. مبيت علي عليه السلام على فراشه ﷺ :

لما عزم رسول الله ﷺ على الهجرة وعلمت قريش ذلك، وخافت على نفسها من أثر إيجاده قوة للمسلمين خارج مكة، قررت قتل رسول الله ﷺ وفق الخطة التي قرروها في اجتماع دار الندوة .

وفي الليلة التي عزم الرسول ﷺ على الهجرة فيها ، تجمع فتيان قريش حول بيت النبي ، يرصدونه حتى ينام ، فيثبون عليه، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بمؤامرة القوم ، وأمره أن لا يبيت هذه الليلة على فراشة الذي يبيت عليه ... فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب : **نم على فراشي ، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فثم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم**^(١) .

ولقد نجحت هذه الخطة نجاحاً واضحاً، فلقد رأى رجل رسول الله ﷺ وهو يخرج من بيته ، ويضع على رؤوسهم التراب . فجاء للفتيان وقال لهم : خبيكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك فيكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، **أفما ترون ما بكم ؟**

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب فظنوه بسبب الريح أو بغيره ، ولم يصدقوا الرجل في مقالته ، واستمروا على ظنهم أن رسول الله ﷺ لم يخرج لرؤيتهم رجلاً على فراش رسول الله ﷺ وكانوا ينظرون إلى الفراش بين الفينة والفينة فيجدون شخصاً مسجاً ببرد رسول الله ، فيظنونونه نائماً ولذلك استمروا في مكانهم . فلما جاء الصباح ، وقام على من نومه وخرج عليهم ، علموا أنهم قد خدعوا ، وقال بعضهم لبعض : **لقد صدقنا الذي حدثنا**^(٢) .

ونلاحظ دقة التخطيط وحسن الاختيار في مبيت علي عليه السلام مكان رسول الله ﷺ فلقد اختار رسول الله ﷺ ابن أخيه لينام مكانه لما في مبيته من تضحية ، والموت فيها وارد ، وما دام الأمر هكذا فلتكن التضحية بالأهل والأقارب أما في صحبة الهجرة فلقد اختار الرسول ﷺ أبا بكر عليه السلام ليعلم الجميع أن غاية رسول الله ﷺ تبليغ رسالته التي كلف بها، ولو كان يقصد الزعامة لأخذ نفراً من قبيلته مثل علي بن أبي طالب ، أو حمزة بن عبد المطلب أو غيرها .

(١) تهذيب السيرة ص ١١٢ .

(٢) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٤٨٣ بتصرف .

ومن قدر الله أن الرجال الذين أحاطوا ببيت النبي ﷺ انصرفوا عن اقتحامه ،
وبقوا خارج الدار حتى الصباح ، ولم يتعجل أهل مكة خبر مقتل محمد مع أن
رجالهم جاءوا واستعدوا لتحقيق هذه الغاية .

يذكر السهيلي أن الرجال حينما هموا بالدخول لقتل رسول الله ، سمعوا
صياح امرأة من داخل الدار ، فقال بعضهم لبعض : والله إنها لسبة في العرب أن
يتحدث الناس عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم ، وهتكنا ستر حرمتنا^(١) .

وهكذا جرى قدر الله ، وخرج الرسول ﷺ ليلاً إلى دار أبي بكر ، وصرف الله
أهل مكة عن حراسة الطرق المؤدية إلى بيت رسول الله ﷺ ظناً منهم أنهم أحكموا
الخطأ ، ولن يتمكن محمد ﷺ من الخروج من بيته ورجالهم يحيطون به .
ووصل محمد ﷺ إلى بيت أبي بكر فاصطحبه وذهباً سوياً إلى الغار .

٣. الوصول إلى غار "ثور" :

خرج رسول الله ﷺ من داره ليلاً وذهب مسرعاً إلى دار أبي بكر فوجده
مستعداً للرحيل ، فخرجاً سوياً من خوخة في ظهر بيت أبي بكر ، وساراً معاً في
نفس الليلة إلى الغار المتفق على الاختباء فيه ، وعندما وصلا إلى الغار طلب أبو
بكر من رسول الله ﷺ أن ينتظر حتى يدخل هو الغار ينظر ما فيه ، وذلك من
باب الحرص على سلامة رسول الله ﷺ فلربما كان في الغار حيوان مؤذ ، يتصدى
له أبو بكر فداء لرسول الله ﷺ .

عن ابن مليكة أن النبي ﷺ لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور فجعل أبو بكر
يكون أمام النبي ﷺ مرة ، وخلفه مرة ، فسأله النبي ﷺ عن ذلك فقال : إذا كنت
خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك فأتى أمامك ، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى
من خلفك فأتى خلفك حتى انتهيا إلى الغار من ثور ، قال أبو بكر : قف كما أنت
حتى أدخل يدي فأحسه ، وأقصه ، فإذا كانت فيه دابة أصابتني قبلك . قال نافع^(٢) :

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) هو نافع بن عمر الجمحي الراوى عن ابن أبي مليكة .

فبلغنى أنه كان فى الغار جحر فألقم أبو بكر رجله ذلك الجحر تخوفاً أن تخرج منه دابة ، أو شئ يؤذى رسول الله ﷺ .

وفى الوصول للغار نلحظ الأعمال التالية :

. فلقد خرج الرسول ﷺ وأبو بكر من الخوخة خلف المبيت لبيتعدا. عن أعين القرشيين الذى يعملون. على قتل رسول الله ﷺ^(١) ومن المحتمل اهتمامهم بمراقبة بيت أبى بكر فى هذه الليلة الحاسمة .

. التحرك السريع ليلاً فلقد وصل النبى وأبو بكر إلى الغار فى نفس الليلة التى خرج فيها الرسول من بيته، مع أن جبل ثور يقع جنوب مكة بخمسة أميال ، والطريق إليه وعر وشاق .

. الاتجاه نحو الجنوب جهة اليمن مع أن المدينة جهة الشمال، لأن القرشيين عندما يدركون- هرب- رسول الله ﷺ سيبحثون- عنه فى كل أنحاء مكة ، وبخاصة جهة المدينة المنورة التى هاجر إليها المسلمون .

يقول المباركفورى : ولما كان النبى ﷺ يعلم أن قريشاً ستجد فى الطلب وأن الطريق الذى ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسى ، المتجه شمالاً ، فقد سلك الطريق الذى يضاده تماماً ، وهو الطريق الواقع جنوب مكة ، والمتجه نحو اليمن ... نعم سلك النبى ﷺ هذا الطريق وسار فيه نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور وهو جبل شامخ ، وعر الطريق ، صعب المرتقى ، ذو أحجار كثيرة^(٢) .

. المكث فى الغار ثلاثة أيام ، وهى المدة التى سوف ينشط فيها القرشيون للبحث عن رسول الله ﷺ ، وفيها سيجندون الرجال ، ويبحثون فى كافة الجهات ، ومن المنتظر أنهم بعد ثلاثة أيام سيصابون بالإحباط ، ويهدأون .

(١) الخوخة وهى فتحة ضيقة كانت فى ظهر بيت أبى بكر تجهد من يخرج منها ، ويحتاج الخارج منها إلى مساعدة وعون .

(٢) الرحيق المختوم ص ١٦٤ طبع ونشر دار السلام . الرياض سنة ١٩٩٣ م .

. أمر الرسول ﷺ مولى أبى بكر عامر بن فهيرة أن. يرعى غنمه بالنهار. ،
ويسير بها حيث سار الرسول وصاحبه لتتمحى آثارهما . فلا يستطيع أحد
اقتفاء أثرهما ، وقد قام عامر بن فهيرة بما كلف به خير قيام .

٤. البقاء فى الغار :

استقر الرسول ﷺ وصاحبه أبو بكر فى الغار ، ونشط المكيون فى البحث عن
محمد ﷺ بعدما فر منهم ، ورصدوا لمن يأتى به حياً ، أو ميتاً مائة من الإبل ، ولم
يقصروا فى السعى فلقد أحضروا رجالاً يقتفون الأثر ، يقودونهم إلى الناحية التى
سار فيها محمد ﷺ ... وتتبع الأدلاء أثر الرسول وأبى بكر ، فوجدوا أنهما أخذوا
طريق اليمن ، وساروا فيه حتى وصلوا إلى غار ثور وتوقفوا ، فأخذ القرشيون
يفتشون فى جبل ثور حتى وصلوا إلى الغار ، ونظروا فيه فوجدوا على بابه نسيج
العنكبوت. ، وحمامتين مع بيضهما فى عشهما ، فقالوا: .: لو دخل محمد هاهنا
لأنهدم بيت العنكبوت و لضاع عش الحمامة وانكسر بيضها !!
ونظر أبو بكر فرأى رجلاً مواجهاً للغار فقال : يا رسول الله إنه ليرانا .
فقال رسول الله ﷺ : كلا إن الملائكة تسترنا بأجنحتها .
فجلس الرجل وبال جهة الغار ، فقال رسول الله ﷺ : لو كان يرانا ما فعل
ذلك^(١) .

واشتد خوف أبى بكر ﷺ وقال للنبي ﷺ : لو نظر أحدهم تحت أقدامه لرآنا
!! فقال له النبي ﷺ : اسكت يا أبا بكر . ما بالك باثنين الله ثالثهما^(٢).
واستمر الرسول فى الغار ثلاثة أيام بعيداً عن الناس إلا أن التخطيط الذى
وضعه الرسول ﷺ للهجرة جعله يحيط بكل ما يدور. بين المكيين . ويسهل له
وصول كل ما يحتاجه من سبل الحياة وأخبار الناس .
فلقد أمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع ما يقوله الناس فى النهار على أن
يأتى رسول الله ﷺ فى المساء بما كان فى ذلك اليوم من خبر .

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد باب الهجرة ج ٦ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب الهجرة ج ٦ ص ٢٢١ .

وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام والشراب بما يصلحهما إذا أمست .
وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى الغنم بالنهار على أن يأتي بالغنم
إلى الغار ليلاً ليسقيهما لبناً ، وليعفو أثر عبد الله وأسماء .
وبعد أن مكث رسول الله ﷺ وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام سكن الناس .
وشعروا أن محمداً فر بعيداً عن مكة ، فأتاهما عبد الله بن أريقط الذي استأجره
الرسول دليلاً للهجرة ومعه بغيرانها وثالث له ، وأنتهما أسماء بزاد السفر الذي لم
تجعل له حبلاً يعلق به ، فشقت نطاقها نصفين جعلت أحدهما حبلاً للزاد فسميت
بذات النطاقين لذلك^(١) .

٥. في الطريق إلى المدينة :

خرج رسول الله ﷺ من الغار بعد ثلاثة أيام.. وقادهما الدليل إلى حيث
يقصدون ، وسيطر الحذر على الركب الكريم في مسيرته ، وبرزت مواقف عديدة
صنعها القدر الإلهي ، وأبقاها عبرة ، وعظة للناس ... وأهم هذه المواقف ما يلي:
استفاد الرسول ﷺ في الهجرة بخبرة رجل مشرك. هو عبد الله بن أريقط
وأستأجره ليكون الدليل لمعرفته بالطرق ومساراتها ... وهذا أمر جائز شرعاً
لتعين الرجل لذلك العمل ، وعدم وجود أحد من المسلمين للقيام بهذا الدور ،
وأيضاً فإن في اختيار رجل مشرك لقيادة الرحلة من الأمور التي تعمى على
أهل مكة طريق الهجرة لأنهم لا يتصورون مشركاً يقود محمداً وصحبه في
الطريق .

لم يسلك الركب الطريق إلى المدينة بعد الخروج من الغار وإنما أمعن في
الاتجاه إلى الجنوب ، ثم اتجه غرباً نحو الساحل حتى إذا وصل إلى طريق
لم يألفه الناس اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر .
إن الطرق بين مكة والمدينة وعرة، موحشة لا يرى فيها المسافر ما يخفف
عناء السفر من زرع وماء، وأساسها طريقان :

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ بتصرف .

أحدهما شرقى محاذ لبلاد نجد .

والآخر غربى محاذ لساحل البحر الأحمر .

وقد اختار الدليل الطريق الثانى . بيد أنه لم يسلك جادة هذا الطريق طوال الرحلة بل كان يلتوى هنا وهناك تفادياً من أن يلحقهم من يقفوا أثرهم من القرشيين ممن كان يطمع فى الحصول على الجائزة التى قررتها قريش لمن يأتى بالرسول ﷺ حياً أو ميتاً .

وقد وصف ابن هشام الطريق الذى سلكه الرسول ﷺ وصحبه من جبل ثور إلى المدينة لإظهار مدى التخفى والاستتار الذى سلكه الدليل بركب الهجرة ، فقال : إن عبد الله بن أريقط سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما إلى الساحل ، حتى عارض الطريق أسفل عسفان^(١) ، التى تبعد عن مكة بستة وثلاثين ميلاً . ثم سلك بهما الدليل على أسفل أمج^(٢) ثم استجاز بهما الدليل حتى عارض الطريق بعد أن جاوز قديد ، ثم سلك الخرار^(٣) ، وهو واد يقع فى نحو منتصف الطريق بين مكة والمدينة . ثم أخذ بهما الحداجد^(٤) ، وتقع فى أرض مستوية صلبة ، ثم هبط بهما العرج^(٥) . ثم هبط وادى العتيق الذى يؤدى إلى المدينة^(٦) .

وكان أبو بكر ﷺ خير صديق يصاحب رسول الله ﷺ فى الهجرة ، فلقد قام بحراسته ، وخدمته ، ومساعدته خير قيام .

يروى البراء بن عازب حديث الهجرة فيقول ﷺ : ابتاع أبو بكر من عازب رجلاً فحملته معه ، فسأله عازب عن مسير رسول الله ﷺ .

(١) بضم أوله وسكون ثانيه ثم فاء وآخره نون وهى قرية صغيرة قريبة من ساحل البحر الأحمر على حد تهامة على طريق المدينة ، يكثر بها النخيل والمزارع ، وسميت عسفان لتعسف الطريق ، ويسمى الطريق بين عسفان وملل الساحل .

(٢) أمج بفتح الهمزة والجيم يلد صغير بين مكة والمدينة .

(٣) بفتح الخاء وتشديد الراء : موضع بالحجاز قرب الجحفة . معجم ما استعجم للبكرى ج ٢ ص ٤٩٢ .

(٤) جمع حدجد وهى الأرض المستوية الصلبة ، ويجوز أن يكون جمع حدجد وهى البئر القديمة ، ويظن ياقوت الحموى فى معجمه أنها آبار قديمة .

(٥) بفتح أوله وسكون ثانيه وجيم : منزل بطريق مكة على طريق الحاج .

(٦) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٤٩١ بتصرف .

قال له أبو بكر : أخذ علينا بالرصد ، فخرجنا ليلاً ، فأحسنا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة ، ثم رفعت لنا صخرة ، فأتيناهما ولها شئ من ظل ، ففرشت لرسول الله ﷺ فروة معي ، ثم اضطجع عليها النبي ﷺ ، فانطلقت أنفض ما حوله فإذا أنا براع قد أقبل في غنيمة ، يريد من الصخرة مثل الذي أردنا .

فسألته : لمن أنت يا غلام ؟

فقال : أنا لفلان .

فقلت له : هل في غنمك من لبن ؟

قال : نعم .

قلت له : هل أنت حالب ؟

قال : نعم .

فأخذ شاة من غنمه فقلت له : انفض الضرع .

فحلب كثة من لبن ، ومعى إداوة من ماء عليها خرقة قد رأتها لرسول الله ﷺ فصببت على اللبن حتى برد أسفله ، ثم أتيت به النبي ﷺ ، فقلت : اشرب يا رسول الله ، فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت .

ثم قلت : قد آن الرحيل يا رسول الله .

قال : بلى فارتحنا والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له .

فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله .

فقال : لا تحزن إن الله معنا^(١) .

والحديث واضح الدلالة في دور أبي بكر خلال رحلة الهجرة ، فلقد كان ﷺ يبحث لرسول الله عن ظل عند الظهيرة يأوى إليه ، ويسوى له المكان ، وكان يقوم بحراسة النبي ﷺ ، ويراقب له الطرق ، وكان يعد له الطعام ، ويبرد له الشراب ، ويسقيه اللبن ، وكان دائم الخوف على رسول الله ﷺ لأنه كان يلتفت كثيراً والرسول يقول له : لا تحزن إن الله معنا ، وكان أبو بكر شيخاً معروفاً للعرب ، مصدقاً لديهم يقابله أحدهم ويسأله : من هذا الرجل الذي معك ؟

(١) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب الهجرة ج ٦ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

فیرد۔ أبو بكر :۔ هذا الرجل يهدينى الطريق .. فيظن السائل أنه طريق المدينة ، بينما هو طريق الإسلام والرجل هو رسول الله ﷺ^(١) .
لقد قام أبو بكر ﷺ بدوره خير قيام مع رسول الله ﷺ أثناء الهجرة ، وكان حبه لرسول الله ﷺ يملك عليه جوارحه وحياته كلها ، خطب رسول الله ﷺ الناس مرة وقال : إن من أمن الناس على فى صحبتته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته^(٢) .
يذكر عمر بن الخطاب ليلة الهجرة فيقول : والذي نفسى بيده لتلك الليلة لأبى بكر خير من آل عمر^(٣) .

ـ الثالث ـ

عناية الله بنبيه فى الهجرة

امتدت رعاية الله لنبيه ﷺ فى كل أعمال الهجرة .
فلقد أعمى الله عقول وأبصار من أحاطوا ببيت رسول الله ﷺ ليلة الهجرة حتى خرج ﷺ وألقى على رأسهم التراب ، ولم يشعروا به .
وهدى الله رسوله ﷺ إلى وضع تنظيم يتحرك فيه كل من اشترك فى أعمال الهجرة وفق إمكانياته ، وبصورة لا تعطى القرشيين أى خبر عن الهجرة .
وخلق الله فى برهة وجيزة عند باب الغار ما يصرفهم عن الدخول فيه . الأمر الذى جعل كفار مكة لا يتصورون أن أحداً دخل الغار من مدة طويلة .
وبعدما خرج رسول الله ﷺ من الغار ، وأخذ طريقه إلى المدينة تجلت عناية الله ، وبرزت المعونة الإلهية للرسول ، وصاحبه فى صور عديدة منها :

١. رد سراقه بن مالك :

رصدت قريش مائة من الإبل لمن يأتى برسول الله ﷺ أو بأبى بكر حياً أو ميتاً ، وتلك ثروة يلهث وراءها الشباب والرجال فى مكة وبخاصة إذا أتت من عمل يصون قوميتهم ، ويحافظ على آلهتهم كما يتصورون .

(١) صحيح البخارى - كتاب المناقب ج ٦ ص ٢١٥ ط . الأوقاف
(٢) صحيح البخارى - كتاب فضائل الصحابة ج ٦ ص ٧٩ ط . الأوقاف
(٣) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٢٣٧ .

ومن أكبر الذين اجتهدوا فى نيل هذه الجائزة سراقه بن مالك وكان له فى هذا المجال قصة يرويها البخارى فى صحيحه بسنده عن سراقه بن مالك بعد إسلامه ﷺ .

يقول سراقه بن مالك : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره .

فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج ، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال : يا سراقه ، إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل ، أراها محمداً وأصحابه .

قال سراقه : فعرفت أنهم هم .

فقلت له : إنهم ليسوا هم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا .

ثم لبثت فى المجلس ساعة ، ثم قمت ، فدخلت ، فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى ، وهى من وراء أكمة فتحبسها على ، وأخذت رمحى ، فخرجت به من ظهر البيت ، فحططت بزجة الأرض ، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها ، فرفعتها تقرب بى ، حتى دنوت منهم فعثرت بى فرسى ، فخررت عنها فقمت ، فأهويت يدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزام فاستقسمت بها : أضرهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره ، فركبت فرسى وعصيت الأزام ، تقرب بى ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدى فرسى فى الأرض ، حتى بلغت الركبتين ، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزام فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبت فرسى حتى جئتهم .

ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتكم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزأنى ، ولم يسألانى إلا أنه ﷺ

قال : أخف عنا فسأله أن يكتب لى كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب الأمان فى رقعة من أديم^(١) .
فأخذ سراقة الكتاب ، ورجع إلى مكة ، ولم يخبر القوم بشئ ، وأعلن إسلامه بعد ذلك .

٢. شاة أم معبد الخزاعية :

فى أثناء رحلة الهجرة مر الرسول وصحبه بخيمة أم معبد، وهى امرأة بدوية كريمة تطعم وتسقى من يأتيها ، واسمها عاتكة بنت خالد الخزاعية ، تكنى باسم ولدها معبد .

وقف رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ أمام خيمة أم معبد وسألاها : هل عندك شئ ؟

فقالت : والله لو كان عندنا شئ ما أعوزكم القرى ، والشاة عازب ، والسنة سنة شهباء .

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة ، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟

قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم .

فقال ﷺ : هل بها من لبن ؟

قالت : هى أجهد من ذلك .

فقال ﷺ : أتأذنين لى أن أحلبها ؟

قالت : نعم بأبى وأمى ، إن رأيت بها حلباً فاحلبها .

فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ، وسمى الله ودعا ، فتفاجت عليه ودرت ، فدعا بإناء لها يربض الرهط ، فحلب فيه حتى علت الرغوة ، فسقاها فشربت حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانياً حتى ملأ الإناء ، ثم ارتحلوا .

(١) صحيح البخارى . كتاب المناقب ج ٦ ص ٢١٠ ، ٢١١ ط . الأوقاف .

فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعزاً عجافاً يتساوكن هزالاً ، فلما رأى اللبن عجب فقال : من أين لك هذا ؟ والشاء عازب ولا حلوبة في البيت ؟
فقالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، ومن حاله كذا وكذا .

قال لها : إني والله أراه صاحب قريش الذي تطلبه ، صفيه لى يا أم معبد فوصفته بصفته الرائعة ، بكلام دقيق كأن السامع ينظر إليه ، وهو أمامه .
فقال أبو معبد : والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً^(١) .

٣. إسلام أبي بريدة :

في أثناء رحلة الهجرة . وفي الطريق على مقربة من المدينة المنورة لقي الرسول ﷺ أبا بريدة ونفراً من قومه ، جاءوا يطلبون النبي وأبا بكر ليفوزوا بالمكافأة التي رصدتها قريش للقضاء عليهما .

كلم أبو بريدة رسول الله ﷺ فعلم صدقه ، وأمانته وأسلم لوقته ، وتبعه سبعون رجلاً من قومه ، ثم خلع أبو بريدة عمامته ، وعقدها برمح رسول الله ﷺ فاتخذها رسول الله ﷺ عمامة له ، وبذلك يعد أبو بريدة والمؤمنون معه من أوائل الأنصار الذين اتبعوا الرسول ﷺ بعد الهجرة .

وبإيمان هؤلاء القوم صار للمسلمين قوة في الطريق^(٢) ، وبدأ المسلمون في تكوين المجتمع القوى المتماسك .

٤. تأمين الزاد :

ومر ﷺ وصاحبه في الطريق على راع فاستسقىاه اللبن ، فاعتذر بأنه لا لبن في شائه ، إلا شاة جف لبنها قريباً ، وهنا ظهرت معجزته ﷺ فلقد مسح ضرعها ودعا فرزقهم الله الكثير من اللبن ، وكانت هذه آية كافية لتحويل قلب الراعى من الكفر إلى الإيمان ، وتوسم فيه ﷺ الكثير من الخير ، فأخبره بأنه رسول الله ،

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد ج ٣ ص ٥٥ - ٧٥ مؤسسة الرسالة سنة ١٩٧٩ م .

(٢) إمناع الأسماع للمقروى ج ١ ص ٤٢ .

وطلب الراعى أن يسير معه فطلب منه ﷺ أن يتمهل حتى يسمع بظهور أمره ﷺ وحينذاك يلحق بالمدينة ، ويهاجر إلى رسول الله ﷺ .

عن قيس بن النعمان قال : لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفيين مرا ... بعد يرعى غنماً ، فاستسقياه من الملبن ، فقال : ما عندي شاة تحلب غير أن هاهنا عناقاً حملت أول الشتاء ، وقد أخذت وما بقى لها لبن .
فقال ﷺ : ادع بها فدعا بها ، فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها ، ودعا حتى أنزلت .

وجاء أبو بكر ﷺ بمجن فسقى أبا بكر ، ثم حلب فسقى الراعى ، ثم حلب فشرب .

فقال الراعى : بالله من أنت ، فوالله ما رأيت مثلك قط .

قال ﷺ : أو تراك تكتم على حتى أخبرك ؟

قال : نعم .

قال ﷺ : فإني محمد رسول الله .

فقال : أنت الذى تزعم قریش أنه صابئ .

قال ﷺ : إنهم ليقولون ذلك .

قال : فأشهد أنك نبي ، وأشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي ، وأنا متبعك .

قال ﷺ : لا تستطيع ذلك يومك ، فإذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا^(١) .

٥. التبشير بالعودة إلى مكة :

ترك رسول الله ﷺ مكة وهى أحب البلاد إلى نفسه ، ولذا رأيناه ﷺ حينما ابتعد عن مكة نظر إليها ، وودعها بكلمات تؤكد حبه لها ، فعن عبد الله بن عدى بن الحمراء أنه قال : رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحزورة ، وهو يقول : **والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت^(٢) .**

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٤ .

(٢) سنن الترمذى بشرحه تحفة الأحوذى ج ١٠ ص ٤٢٦ ، والحزورة مكان مرتفع فى مكة .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ وهو ينظر إلى مكة ليلة الهجرة : ما أطيبك من بلد ، وأحبك إلي ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك^(١) .

وقد كانت عناية الله تعالى برسوله فأنزل عليه خلال رحلة الهجرة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾^(٢) .

يقول ابن عباس : والمعاد هي مكة ، وفي الآية بشرى لرسول الله ﷺ في أنه سيعود إلى مكة ساعة أن يسلم أهلها ، وتكون دار إسلام^(٣) ، وقد عاد ﷺ إليها والمسلمون معه في "فتح مكة" .

- رابعاً -

الوصول إلى المدينة

سار ركب الهجرة تحفة عناية الله تعالى حتى وصل إلى قباء في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من العام الأول للهجرة .

وكان أهل المدينة منذ أن علموا بخروج النبي ﷺ من مكة يغدون كل غداة ، ينتظرونه عند الحرة ، حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما طال انتظارهم إلى بيوتهم ، وإذا بيهودي يقف على أحد المرتفعات حول المدينة ليرى منظراً حسناً بعينه ، فإذا به يبصر رسول الله ﷺ وأصحابه في ثياب بيض ، فلم يملك اليهودي نفسه ، فأخذ يصيح بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرونه^(٤) .

يقول ابن القيم : وسمعت الرجة والتكبير في ديار بنى عمرو بن عوف وكبر المسلمون فرحاً بقدوم رسول الله ﷺ ، وخرجوا للقائه ﷺ والترحيب به ، فأحاطوا به

(١) سنن الترمذي بشرحه تحفة الأحوذى ج ١٠ ص ٤٢٧ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٨٥ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب التفسير ج ٧ ص ٣٦٥ ط . الأوقاف .

(٤) صحيح البخارى - كتاب الهجرة . باب هجرة النبي ﷺ ج ١ ص ٢١٥ ط . الأوقاف .

يملاهم الحب ، وتغشاهم السكينة، ويسمعون الوحي ينزل عليه بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾^(١) .

يقول عروة بن الزبير : فتلقوا رسول الله ﷺ ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر ظناً منهم أنه رسول الله ﷺ ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك^(٢) .

وكانت المدينة كلها قد زحفت لاستقبال ركب الهجرة الميمون ، وكان يوماً مشهوداً لم تشهد المدينة مثله فى تاريخها .

ونزل رسول الله ﷺ بقاء أولاً على كلثوم بن الهمد^(٣) ومكث على بن أبى طالب بمكة ثلاثاً ، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس ثم هاجر ماشياً على قدميه حتى لحقهما بقاء ونزل على كلثوم بن الهمد مع رسول الله ﷺ أيضاً .

وأقام رسول الله ﷺ بقاء خمسة أيام : الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة . وأسس مسجد بقاء وصلى فيه ، وكان موضع المسجد مريداً لكلثوم بن الهمد ، وقيل بل هو مكان كان يملكه بنو عمرو بن عوف وهو الأولى ، وقد صلى الرسول ﷺ الجمعة فيهم . وعلى كل فإن المكان اختيار الله تعالى^(٤) .

ومسجد بقاء هو أول مسجد أسس على التقوى بعد الهجرة ، فلما كان اليوم الخامس^(٥) وبعد صلاة يوم الجمعة ركب ﷺ ناقته ، وأبو بكر ردفه ، وأرسل إلى أخواله بنى النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم ، وسار معهم نحو المدينة .

(١) سورة التحريم ، الآية ٤ .

(٢) سيرة النبى ج ١ ص ٤٩٤

(٣) وقيل : نزل على سعد بن خيثمة والجمهور على ما ذكرته .

(٤) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٣٨١ .

(٥) اختلفت الروايات فى المدة التى مكثها الرسول ﷺ فى بقاء والمكثرون يرونها أربعة وعشرين يوماً والمقلون يرونها أربعة أيام .

وهذه أول جمعة يقيمها رسول الله ﷺ في الإسلام بعد هجرته في ديار بنى سالم بن عوف ، وألقى فيهم رسول الله ﷺ خطبة الجمعة ، وعرفهم بالله ، وحثهم على التقوى ، وذكرهم بنعيم الله في الآخرة .

يورد ابن كثير هذه المخطبة بنصها . وفيها يقول ﷺ : الحمد لله أحمدته وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ، ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله الله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً أوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى ، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ، ومخافة ، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره ، وذخراً فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك : ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(١) .

والذى صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خلف لذلك فإنه يقول سبحانه : ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾^(٢) .

واتقوا الله فى عاجل أمركم ، وآجله ، فى السر ، والعلانية فإنه : ﴿ ذَلِكَ أَمْرٌ اللَّهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾^(٣) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣٠ .

(٢) سورة ق ، الآية ٢٩ .

(٣) سورة الطلاق ، الآية ٥ .

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾^(١) .

إن تقوى الله توقى مقته ، وتوقى عقوبته ، وتوقى سخطه وإن تقوى الله تبيض الوجه ، وترضى الرب ، وترفع الدرجة .

خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا فى جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ، وليعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينه ، ويحيى من حي عن بينه ، ولا قوة إلا بالله ، فأكثرُوا ذكر الله ، واعملوا لما بعد الموت ، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس .

إن الله يقضى على الناس ، ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلى العظيم^(٢) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٧١ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢١٣ .

هذا وقد تحدث الفقهاء عن حكم هجرة المسلم من ديار الكفر إلى ديار الإسلام بعد فتح مكة ، وذهبوا إلى أن المسلمين أنواع ثلاثة ، ولكل نوع حكمه الشرعى : النوع الأول : مسلم قادر على الهجرة من ديار الشرك ، حيث لا يمكنه إظهار دينه فيها ، ولا أداء واجباته إذا أقام بين غير المسلمين ، فالهجرة عليه واجبة ، ويكون عاصياً بتركها ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ لَمْ تَكُنْ طَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء ، الآية ٩٧] . وهذا الوعيد الشديد لا يكون إلا فى ارتكاب

المحرم وترك الواجب وحينئذ لا يحل له البقاء إلا إذا كان مضطراً .
ومن أدلة السنة المشرفة ما أخرجه النسائى بسند صحيح من حديث عبد الله بن واقد السعدى قال : " وفدنا على رسول الله ﷺ فدخل أصحابى ففضى حاجتهم ، وكنت آخرهم دخولاً .

فقال ﷺ : ما حاجتك ؟

قلت : يا رسول الله ، متى تنقطع الهجرة ؟

قال رسول الله ﷺ : لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار .

النقطة الرابعة

النوع الثاني : مسلم يوجد بين المشركين ، وهو عاجز عن الهجرة ، لعذر كالأسر أو المرض أو الإكراه على الإقامة ، فهؤلاء ومن في حكمهم تجوز لهم الإقامة بين المشركين ، ولا تجب عليهم الهجرة ، فإن تحامل أحدهم على نفسه ، وتكلف الهجرة كانت له أجر ومثوبة .

ودليل ذلك قوله سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾

النوع الثالث : المسلم في غير بلاد الإسلام ، يكون قادراً على الهجرة ، لكنه يمكنه إظهار دينه ، وأداء واجباته مع إقامته بين الكفار ، فهذا لا تجب عليه الهجرة لتمكنه من دعوة الكفار وهو آمن من غدرهم ، وراحته النفسية والمادية مصانة بينهم ، ودليل ذلك أن المسلم مكلف بالدعوة لدينه قولاً ، وعملاً ، وإقامته حينئذ دعوة عملية ويؤيد ذلك ترغيب المولى عز وجل المؤمنين في الهجرة من بلادهم وحثهم عليها للدعوة في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

وقد ذكر الشافعية : أن المسلم إذا قدر على إظهار دينه في دار الحرب ، وأمكنه الاعتزال في مكان خاص يتمتع فيه من الكفار فإنه تحرم عليه الهجرة ، لأن مكان اعتزاله وتحصنه صار دار إسلام لا متناعه ، فلو هاجر لعاد ذلك المكان بسبب هجرته إلى حوزة الكفار ، وهذا أمر لا يجوز ، لأن كل مكان قدر أهله على الامتناع فيه من الكفار صار دار إسلام .

ولتأييد ما ذهب إليه الشافعية ينقل الإمام النووي قول الماوردي في كتابة الحاوي فيقول : فإن كان يرجو ظهور الإسلام هناك بمقامه فالأفضل أن يقيم ، وإن قدر على الامتناع والاعتزال وجب عليه المقام بها لأن موضعه دار إسلام ، فلو هاجر لصار دار حرب ، فيحرم ذلك ، ثم إن قدر على مجارة الكفار ودعوتهم إلى الله ، لزمته الإقامة وإلا فلا .

ويستأنس النووي لمذهب الشافعية بما كان عليه والد الأنبياء وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام حيث كان مؤمناً وحده يعلم الناس الخير ، والناس كلهم حوله كفار ، فامتدحه رب العزة بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

والناظر في أوضاع العالم المعاصرة يرى أن ديار الكفر الآن أكثر أمناً من غيرها ، لما تتضمنه من نظم تسمح بقدر وافر من حرية الحركة ، والكلمة ، والتدين ، والاعتقاد ... في الوقت الذي نرى فيه الاستبداد ، والظلم ، والاضطهاد يوجه ضد المسلمين فيما يعرف بالعالم الثالث ، وبلاد الإسلام جزء منه وحرية الدعاة في غير بلادهم أفضل وأكد .

إن دار الإسلام في العصر الحديث ليست على وجهها المطلوب لما يوجد فيها من فسق وعري ، وفن ، وانحلال وتسلط وهي بذلك تشبه ما هو موجود في بلاد غير المسلمين ، والدعاة في البلاد الإسلامية الآن محاطون بالرقابة والقيود أكثر من غيرها من البلاد . ولهذا نرى رجحان مذهب الإمام الشافعي .

وقفات بارزة فى الهجرة

تمت هجرة المسلمين إلى المدينة، وترك المسلمون ديارهم من أجل الله ورسوله ، وتحملوا مشقة السفر ، ووعثاء الطريق ، وابتعدوا بذلك عن أهل مكة ، ولم يكن ذلك أمراً سهلاً على نفوسهم ، ولا ميسراً أمامهم ، فلقد وقف القرشيون ضد ذوى الشأن منهم فمنعوا البعض من الهجرة ، واعتدوا على آخرين ، وبذلك فإنى أركز على بعض الوقفات لأبين مدى التضحيات التى بذلها جيل العظمة الإسلامية والتى تعد ركانز لكل مؤمن صادق فى تدينه ، وإيمانه ... أهمها :

١. دقة الطاعة :

التزم أصحاب النبى ﷺ بأوامره لهم ، وكان ذلك واضحاً فى كل من انتظر مع رسول الله ﷺ فى مكة ، ولقد رأينا كيف قام علي ﷺ بالمبيت على فراش رسول الله ﷺ وعرض نفسه للموت ، وكيف كان أبو بكر ﷺ فى كل مراحل الهجرة . ورأينا أبناء أبى بكر ومولاه وهم يعملون خارج الغار لتأمين السلامة للرسول وصاحبه ، ولم يأبهوا لعدوان قرشى يلحق بهم ، ولم يتأثروا بأذى يقع عليهم . يروى ابن إسحاق عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها أنها قالت : لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ إلى الغار أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبى بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟

قلت : لا أدري والله أين أبى ؟

فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشاً خبيثاً ، فلطم خدى لطمه طرح منها قرطى^(١) . وقد استمر أبناء أبى بكر فى بيته حتى علما بوجهة رسول الله ﷺ ، وأبى بكر من شاعر سمعاه يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه .: رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا .: فأفلح من أمسى رفيق محمد

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٨٧ .

ليهن بنى كعب مكان فتاتهم .: ومقعدھا للمؤمنين بمرصد
قالت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث
توجه رسول الله ﷺ ، وأن وجهته إلى المدينة ، فرحنا إليها حين جاءنا أمر من
رسول الله ﷺ^(١) .

٢. حسن التصرف :

كان أبو بكر يملك خمسة آلاف درهم ، حملها إليه ابنه عبد الله فى الغار
وجاء أبوه قحافة إلى بناته مغضباً وهو يقول : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع
نفسه ، فقالت أسماء بنت أبى بكر : كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً وأخذت
أحجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت ، كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها
ثوباً ، ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع
يده عليه ثم قال : لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم .
تقول أسماء : ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك^(٢) .

٣. تحمل الأذى :

كان من أول المهاجرين أبو سلمة، خرج وزوجته وابنه سلمة رضى الله عنهم
فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبتنا
هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ فأخذوا منه زوجته ، وغضب آل أبى
سلمة لرجلهم ، فقالوا : لا نترك ابننا معها ، إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجادبوا
الغلام بينهم فخلعوا يده ، وذهبوا به .

وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة ، وكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها ، وضياح
ابنها، تخرج كل غداة بالأبطح تبكى حتى تمسى، ومضى على ذلك نحو سنة، فرق
لها أحد ذوبها وقال : ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها ، وولدها
فقالوا لها : الحقى بزورك إن شئت، فاسترجعت ابنها من عصبته ، وخرجت
تريد المدينة، وليس معها أحد من خلق الله، حتى إذا كانت بالنتعيم لقيها عثمان بن

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٨٧ ، ٤٨٩ .

(٢) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٤ ، ٨٨ ، وكان قحافة والد أبى بكر أعمى لا يبصر ، ولم يكن
أسلم يومذاك .

طلحة ، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة ، فلما نظر إلى قباء قال : زوجك في هذه القرية فادخلها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة^(١) .

٤. التضحية بالمال :

لما أراد. صهيب الهجرة قال. له كفار. قريش :. أتيتنا صعلوكاً حقيراً. ، فكثير مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ لا والله لا يكون ذلك .

فقال لهم صهيب : رأيتم إن جعلت لكم مالى ، أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم .

قال : فإنى قد جعلت لكم مالى .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب ... ربح صهيب^(٢) .

٥. كيد قريش بالمهاجرين :

تواعد عمر بن الخطاب، وعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاصى بن وائل موضعاً يصبحون عنده ، ثم يهاجرون إلى المدينة ، فاجتمع عمر وعياش وحبس عنهما هشام .

ولما قدما المدينة ، ونزلا بقباء ، قدم أبو جهل ، وأخوه الحارث إلى عياش . وأم الثلاثة واحدة . فقالا له : إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط ، ولا تستظل بشمس حتى تراك فرق لها .

فقال له عمر : يا عياش إن القوم يريدون فتنتك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو أذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت ، فأبى عياش إلا الخروج معهما ليبر قسم أمه .

فقال له عمر : أما قد فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجبية ذلول ، فالزم ظهرها فإن رابك من القوم ريب فانج عليها . فخرج عليها معهما .

حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا ابن أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٦٨ . ٤٧٠ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٤٧٧ .

قال : بلى .

فأناخ وأناخا ليتحول عليها أبو جهل ، فلما استنوا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة نهراً موثقاً .

وقالا : يا أهل مكة ، هكذا افعلوا بسفهاكم كما فعلنا بسفيهننا هذا^(١) .

٦. الاستيلاء على الدور .

كان آخر من بقى ممن هاجر عبد الله بن جحش رضي الله عنه ، وكان قد كف بصره ، فلما أجمع على الهجرة كرهت امرأته ذلك ، وجعلت تشير عليه أن يهاجر إلى غير المدينة ، فهاجر بأهله وماله مكتتماً من قريش حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ ، فوثب أبو سفيان بن حرب على داره فباعها وملكها لغيره .

مر بها بعد ذلك أبو جهل بن هشام ، وعتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب ، وحويطب بن عبد العزى ، وفيها أهب معطونة فذرفت عينا عتبة وتمثل بببيت من شعر :

وكل دار وإن طالَّت سلامتها .: يوماً سيدركها النكباء والحبوب

فأقبل أبو جهل على العباس وقال : هذا ما أدخلتم علينا^(٢) .

هذه الوقفات السريعة مع المهاجرين تبين مدى الجهود التي بذلوها في سبيل الله تعالى ، وتوضح الطريق أمام كل متمسك بدينه ليتحمل ما يلقاه من أذى وعنت من أجل دينه ، وإيمانه .

النقطة الخامسة

ركائز دعوية من الهجرة إلى المدينة

استقر المسلمون في المدينة المنورة ، وظهرت دولتهم في قوتها ، ونظامها ، واستقامتها على منهج الله تعالى .

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٤٧٤ . ٤٧٦ ، مجمع الزوائد ج ٦ ص ٧٧ .

(٢) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ٨١ .

والمسلمون فى كل العصور ، وفى سائر الأمصار يستفيدون من ذلك دروسًا
يعتبرونها ركائز لدعوتهم ، ولحياتهم ، وتوجههم إلى الله تعالى ...
وأهم هذه الركائز ما يلى :

الركيزة الأولى

حاجة الحق إلى قوة تصونه

أنشأت الهجرة للمسلمين دولة قوية تعلى رايثها ، وتصون حقها ، وبذلك أخذ
الحق طريق الثبات ، وانطلقت الدعوة إلى الآفاق ... فبان من هذا مدى حاجة الحق
إلى من يصونه ويحميه .
وفى العصر الحديث كثر الصراع ، وتنوعت القوى ، واختلفت الاتجاهات ...
وصار من الضرورى وجود قوة تحمى الحق ، وتدافع عنه ...
إن الإسلام هو قضية الحق ، وهو أمانة لدى المسلمين ، وسيحاسبهم الله
تعالى على أى تقصير فى صيانتته وحمايته .
إن صيانة الإسلام تعنى الالتزام به ، وتطبيقه ، وإبرازه فى كافة المجالات .
وحماية الإسلام تعنى رد الشبه عنه ، واستمرارية الدعوة إليه ، والتصدى لكافة
محاولات النيل منه .

إن صراع العصر الحديث يحتاج للتخطيط ، والعلم ، والأناة ، ومعرفة غايات
الخصم ، ووسائله ، ليتم ردها بما يكافئها ، ومسئولية المسلمين كبيرة فليستعدوا لها

الركيزة الثانية

الأمر كله لله ورسوله

أقام المسلمون دولتهم فى المدينة ، وأسلموا قيادتهم لرسول الله ﷺ ، وفى ذلك
درس واضح للمسلمين يتعلمون منه أن حماية الإسلام هم المسلمون ، وأن الأمر
كله لله ، ولن يستقيم حال المسلمين إلا بالتمسك بدين الله تعالى .
لن ينصر الإسلام غير مسلم مخلص ، ولن يدافع عنه إلا المؤمنون الصادقون .

ومن هنا ...

ننادى المسلمين لينتبهوا إلى هذه المسألة الهامة .
إن الإسلام يقوم بالأمة المسلمة والأمة المسلمة لا تقوم إلا بالعمل
والنطبيق ، ولذلك فالحاجة ماسة إلى إيجاد هذه الأمة .
حتى يعرف المسلمون موقفهم من دينهم عليهم أن يسألوا أنفسهم :

(أ) أين الإسلام من حياتهم ؟

(ب) وهل تملأ عقيدة الإسلام قلوب المسلمين ؟

(ج) لماذا تكثر المخالفات والمعارضات لدين الله تعالى فى المعاملات

المالية ، والعلاقات الاجتماعية ، والنماذج الأخلاقية ... لماذا ؟

(د) هل سلوكنا يوجهنا إلى الإسلام أم يبعدنا عنه ؟

إن المسألة خطيرة ، وبعدنا عن الإسلام كبير ، ولذلك نلج ، وندعو لندرج
إلى الله ، وإلى دينه الحنيف حتى ننقذ أنفسنا من الحساب والعقاب .

الركيزة الثالثة

أهمية اتباع المنهج النبوى

دعا الرسول ﷺ الناس بالحسنى ، وحثهم على الإسلام لخيرهم وحياتهم ،
وكان زائدا بينهم فالتقوا حوله ، وأنزلوه فيهم منزلة القلب والروح .
إن هذا المنهج الحسن هو المنهج المستقيم ، ويجب أن يسلكه الدعاة حتى
يعود للأمة مجدها ، وللدين بهاؤه وعلاه .

المبحث الثانى

الاستقرار فى المدينة

مكث رسول الله ﷺ فى قباء حتى صلى الجمعة فى بنى سالم بن عوف ،
وبعدها واصل رحلته إلى المدينة التى نورت بهجرته ﷺ إليها .

وقد حزن بنو عوف لفراق رسول الله ﷺ لأنهم تصوروه هاجر إليهم وما تركهم إلا ضجراً فسألوه : أتتركنا ملالاً منا يا رسول الله ؟ أم إلى من هم خير منا ؟ فقال لهم ﷺ : "إني أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب ، وهي المدينة تنفى خبث الناس كما ينفى الكير خبث الحديد"^(١) .

وإنما كانت المدينة هكذا لأنها تغزو غيرها ، وتنتصر ، وتكون حاضرة لسائر المدن والقرى وقد تحقق ذلك بتأسيس دولة الإسلام الكبرى فيها . وفي هذا تأكيد لبنى عوف أنه ﷺ ما تركهم ضجراً أو سامة . وكان يوم وصوله ﷺ إليها يوماً سعيداً مشرقاً ، امتلأت فيه قلوب الناس بالحب ، وعمهم الفرح ، وأخذ رسول الله ﷺ يؤسس لنفسه ، وللمسلمين ما يحقق لهم الاستقرار والأمن في هذا المجتمع الجديد ، وفي هذا المبحث سنتناول الأمور التالية :

أولاً : الترحيب بقدوم الرسول ﷺ في المدينة .

ثانياً : تأسيس المسجد النبوى .

ثالثاً : هجرة أهل الرسول ﷺ .

رابعاً : تأمين سكن النبى ﷺ وزوجاته .

وهى أمور تحتاج لتفصيل نوردده فيما يلى :

(١) صحيح البخارى - كتاب الحج . باب فضل المدينة ج ٣ ص ٢٧٤ .

- أولاً -

الترحيب بقدوم رسول الله ﷺ فى المدينة

لما صلى رسول الله ﷺ الجمعة فى بنى عمرو بن عوف أرسل إلى أخواله بنى النجار. فجاءوا متقلدين السيوف. ، وتقاطر الأنصار. جميعاً خلفهم ، حتى اجتمعوا حول رسول الله ﷺ مرحبين به ، فركب الرسول ﷺ ناقته ، والناس عن يمينه وشماله وخلفه ، منهم الراكب ، ومنهم الماشى ، يهللون ويكبرون .

اجتمع بنو عمرو بن عوف وقالوا : يا رسول الله أخرجت ملالنا ، أم تريد داراً خيراً من دارنا ؟

فقال ﷺ : أمرت بقرية تأكل القرى ، فخلوها ، فإنها مأمورة .

فخرج رسول الله ﷺ من قباء يريد المدينة فوجد الناس قد ملأوا الطرق ومعهم الخدم والصبيان وهم يقولون : الله أكبر ، جاءنا محمد ، جاءنا رسول الله . يقول أنس بن مالك : إنى لأسعى مع الغلمان يقولون : محمد جاء فننطلق فلا نرى شيئاً حتى أقبل رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر فكنا فى بعض جرار المدينة ، فبعث لنا رسول الله ﷺ رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار ، فخرج الأنصار واستقبلهما زهاء خمسمائة منهم ، حتى انتهوا إليهما فقالت الأنصار : انطلقا آمنين مطاعين ، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم وخرج أهل المدينة حتى أن العواتق فوق البيوت يتراءينه ويقلن : أيهم هو ؟ أيهم هو ؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذ^(١) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا .: من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا .: ما دعا لله داع

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى ج ٢٠ ص ٢٩١ .

أيها المبعوث فينا .: جئت بالأمر المطاع^(١)

جئت شرفت المدينة .: مرحبا يا خير داع

وعن البراء رضي الله عنه قال : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشئ فرحهم برسول الله ﷺ ^(٢) .
ويقول أنس : ما رأيت يوماً قط أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر
المدينة^(٣) .

وقد تجلى الترحيب العام برسول الله ﷺ من كافة قبائل المدينة ، وكان كل
منهم يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عنده ، ويعده بالعدة ، والعدد ، والثروة ، والطاعة ،
وكان الرسول ﷺ يعرفهم بأنه سترك الناقة تبرك حيث يريد الله لها .
ويقول لهم : دعوها فإنها مأمورة^(٤) .

ولما علم الأنصار بذلك لم يتعرضوا للناقة ، وكل منهم يدعو الله أن يكون
بيته هو المكان المختار لنزول رسول الله ﷺ .

فسار رسول الله ﷺ راكباً ناقته ، حتى إذا أتت دار بنى عدى بن النجار قامت
إليه وجوههم تأمل في نزوله عندها ، ثم إن ناقته ﷺ لما أتت موضع مسجده بركت
وهو عليها وأخذها الذي كان يأخذه عند الوحي ثم وثبت فسارت غير بعيد ورسول
الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيتها به ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول
مرة ، فبركت فيه ثم تحللت ، وأرزمت ، ووضعت جرانها ، وجعل جبار بن صخر
ينخسها رجاء أن تقوم فتتنزل في دار بنى سلمة فلم تفعل ، فنزل رسول الله ﷺ عنها
وقال : هنا المنزل إن شاء الله وقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكًا
وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ^(٥) .

وجاء أبو أيوب فقال له رسول الله ﷺ : أي بيوت أهلنا أقرب ؟

فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله هذه داري وهذا بابي، وقد حططنا رحلك فيها .

(١) رحمة الله للعالمين ج ١ ص ١٠٦ . والعوائق جمع عائق وهي الفتاة التي بلغت ولم تتزوج .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب مقدم النبي ﷺ المدينة ج ٦ ص ٢٢٢ .

(٣) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى ج ٢٠ ص ٢٩٠ .

(٤) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ٧٩ .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية ٢٩ .

قال ﷺ : فانطلق فهيئ لنا مقبلاً ، فذهب فهيأ لهما مقبلاً^(١).

يروى المطبراني عن عبد الله بن المزير أنه كان هناك عريش يرشونه ، ويعمرونه ، ويتبردون فيه ، حتى نزل فيه رسول الله ﷺ عن راحلته فأوى على الظل فنزل فيه فأتاه أبو أيوب فقال : يا رسول الله منزلي أقرب المنازل إليه أنقل رحلك إليه ؟

قال ﷺ : نعم فذهب برحله إلى المنزل .

فأتاه آخر فقال : يا رسول الله أنزل عليّ .

فقال ﷺ : المرء مع رحله حيث كان .

فنزل رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب وقر قراره ، واطمأنت داره ، ونزل معه زيد بن حارثة^(٢) .

يقول عبد الله بن سلام ؓ : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه فجئت لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه علمت أنه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شيء سمعته يتكلم به أن قال : يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل ، والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام^(٣) .

ويقول أبو أيوب ؓ : لما نزل رسول الله ﷺ في بيتي ، كان في السفلى وأنا وأم أيوب في العلو .

فقلت له : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي ، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فأظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن فنكون في السفلى .

فقال ﷺ : إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفلى البيت .

يقول أبو أيوب فكان رسول الله ﷺ في سفله ، وكنا فوقه في المسكن ، وكنا نحرس على تحقيق ما يرضيه ويرحبه .

(١) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب الهجرة ج ٦ ص ٢١٦ .

(٢) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ٧٩ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٣٩١ .

حدث مرة أن انكسرت جرة لنا فيها ماء ، فقامت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف. غيرها ،. ننشف بها الماء. ، تخوفاً أن. تقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه ، ويقال : إن أبا أيوب بعد هذه الحادثة ألح على رسول الله ﷺ حتى أسكنه العلو^(١) .

وقد تكفل أهل المدينة بخدمة رسول الله ﷺ ،. وتجهيز طعامه وشرابه ، وتحقيق كل ما يحتاج إليه ، يهدونه لرسول الله ﷺ حباً ، وتقديراً .

ولقد كان أبو أيوب يصنع له الطعام ، ويقدمه ، وينتظر فضله ليأكله . يقول زيد بن ثابت : لقد كنا في بني مالك بن النجار ، ما من ليلة إلا على باب رسول الله ﷺ من بيت أبي أيوب ثلاث ، أو أربع جفان ، وما كانت تخطئه جفنة سعد بن عباد ، وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة^(٢) .

وكان الأنصار يتحرون الطعام الذي يحبه رسول الله ﷺ لإعداد له ... فبرغم أنه ﷺ لم يعيب طعاماً ، ولم يأمر بطعام ، فإنهم لا حظوا إقبال رسول الله ﷺ على نوع من المرق يسمى (الطفيشل) وعلى الهريس ولذلك كانوا يكثرون له ﷺ منهما .

وكان ﷺ لا يأكل وحده ، وإنما كان يطعم معه من أصحابه عدداً يتراوح بين خمسة إلى ستة عشر رجلاً ، حسب كمية الطعام المهدى إليه .

وهكذا عاشت المدينة حياة البهجة ، والسرور ، وقدرت الخير الذي وفد عليها وأقبلوا على الإسلام فهماً وعلماً ، وتطبيقاً ... وشعروا أن رسول الله ﷺ جاءهم بخيرى الدنيا والآخرة ، فسعدوا بهجرته ، وأنزلوه فيهم منزلة الروح والعقل ، وجعلوا حبه فوق حبهم لأنفسهم ، فهو وهم معه برسالته يعيشون الإسلام نقياً واضحاً .

وفى نفس الوقت تفوق الكفار والمنافقون واليهود في المدينة ، وأدركوا أن دولتهم قد انهارت ، ولا سلطان لهم في المدينة بعد اليوم ... وعبر بعضهم عما في قلبه من حقد وغضب ، ومن ذلك أن رسول الله ﷺ رغب في أن ينزل على سيد

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد الشيباني ج ٢٠ ص ٢٩٣ .

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٧ .

الخرزج عبد الله بن أبي بن سلول فقال له عبد الله : اذهب إلى الذين دعوك فأنزل إليهم ... ورفض أن ينزله عنده كراهية له .

ولم يأبه النبي ﷺ بهذه المعارضة من أهل الشرك. والمنفاق. فهي معارضة ضعيفة خائفة وأنى تلك المعارضة مما كان يراه في مكة !!

ولقد اعتذر الأنصار لرسول الله ﷺ عن موقف ابن أبي ، وبينوا له أن سببه ضياع المجد الذي كان يأمل فيه^(١) .

ومن الملاحظ أن رسول الله ﷺ لم يطلب من أحد أن ينزل عليه إلا ابن أبي ، ولعلها حكمة قدرها الله تعالى لرسوله ليعلم طبائع الناس ، وبخاصة هؤلاء الذين أضيروا بظهور الإسلام .

- ثانيا -

تأمين سكن النبي ﷺ وزوجاته

أقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري سبعة أشهر حتى أقام بيوتاً لزوجاته رضي الله عنهن .

وقد أخذ النبي ﷺ في تأسيس بيوته بعد الهجرة ، واحداً بعد الآخر فبنى أولاً بيتاً لسودة بنت زمعة ، كما بنى بيتاً ثانياً لعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما فهما زوجتاه حين الهجرة وبعد ذلك كان ﷺ كلما أحدث أهلاً بنى بيتاً ، واستمر هكذا حتى بنى سائر البيوت ، وعددها تسعة .

والأرض التي أقيمت فيها البيوت كانت مملوكة لحارثة بن النعمان الخزرجي رضي الله عنه وكان يتنازل لرسول الله ﷺ عن الأرض. بقدر الحاجة . فكلما بنى النبي ﷺ زوجة تنازل الحارث لرسول الله عن أرض لإقامة بيت لها فيه !!

وأول البيوت تأسيساً هو بيت سودة ، وثانيها هو بيت عائشة الذي يلي الروضة مباشرة من جهة الشرق . وفيه دفن رسول الله ﷺ وهو الذي يعرف الآن

(١) كان الأوس والخزرج يتفاوضون في جعل عبد الله بن أبي ملكاً عليهم .

بالحضرة النبوية وقد أقيم فوقها قبة خضراء بعد وفاته ﷺ وبعده كان بيت سودة بنت زمعة رضى الله عنها ملاصقاً لبيت عائشة من جهة الشرق ، وقد بنى النبي ﷺ بيتاً لابنته فاطمة رضى الله عنها حين تزوجها ابن عمها علي ﷺ فى شمال بيت عائشة عن يسار المصلى إلى القبلة فى الروضة الشريفة ، أى أنه كان خلف بيت عائشة ، وقد اتخذ النبي ﷺ طريقاً إلى بيت فاطمة يعرف بخوخة على حيث كان يأتى بابها كل يوم ، ويأخذ بعضادتيه ويقول : الصلاة ، الصلاة : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (١) .

يقول. عمر بن على بن الحسين ﷺ :. كان. فى بيت فاطمة كوة إلى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله ﷺ إذا خرج اطلع من الكوة إلى فاطمة وعلى يعلم خبرهم (٢) .

وقد توزعت بيوت أزواج النبي ﷺ حول مسجدة ، فلقد أقيم بيت زينب بنت خديجة الهلالية شرق بيت فاطمة وشمال بيت سودة ﷺ .

كما أقيم بيت زينب بنت خزيمة ، وزينب بنت جحش إلى المشرق. من بيت سودة وزينب الهلالية ، وأقيم بيت حفصة بنت عمر أمام بيت عائشة من جهة الجنوب ، وقد أقيمت الحجر الباقية خلف المسجد من الجهة الشمالية ، والشمالية الغربية المواجهة للقبلة وتعرف هذه البيوت ببيوت النبي ، أو بيوت أزواج النبي ، أو حجر النبي ﷺ .

وكان البيت مكوناً من حجرة وفناء ، حيث حوائط الحجرة من جريد النخل المغطى من الخارج بالشعر والوبر ، والمطين من الداخل ، وللحجرة باب يفتح على الفناء الموجود أمامها وللبيت باب مرتبط بالخارج .

وقد بلغت مساحة كل واحدة من الحجرة و الفناء ثمانية أذرع طولاً ، وعرضاً ، وبذلك بلغ الم طول ستة عشر ذراعاً أى. أن مجموعهما معاً كان. مائة وثمانية وعشرين ذراعاً .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .

(٢) رحلة المحبين إلى سيد المرسلين ص ١٦٢ .

ويبدو أن مساحة البيوت لم تكن واحدة لأن خمسة منها كان مكونا من فناء فقط .

يقول عمران بن أنس : ترك النبي ﷺ أربعة أبيات بلبن ، لها حجر من جريد ، وخمسة أبيات مطينة لا حجر لها . على أبوابها مسح الشعر ، أى أنها لم تكن على مساحة واحدة^(١) .

يروى ابن سعد فى طبقاته : أن حوائط بيوت النبي ﷺ كانت مكونة من جريد مطين بالطين ، وسقفها من الجريد ، وأبوابها من خشب العرعر الذى كان ينبت فى بلاد العرب ، وللباب حلقة من ساج^(٢) .

وقد استدلل بعض العلماء بما ورد من أن الصحابة كانوا ينقرون باب النبي ﷺ بأظافرهم على أن الأبواب لم تكن بها حلقة ، إلا أن الظاهر من قوله بأظافرهم أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يفعلون ذلك تأديباً مع رسول ﷺ مخافة إزعاجه إذا ضربوا بأيديهم على الحلقة .

وكانت الحجرة متوسطة الارتفاع ، ينال الواقف فيها السقف بيده ، وكانت بسيطة الفرش .

وقد أعد المنبى ﷺ مكاناً خلف بيت فاطمة من جهة الشمال. وجعله لمبيت الفقراء وهو المعروف بمكان الصفة .

أمر الوليد بن عبد الملك واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم بهدم حجر أزواج النبي ﷺ وضمها للمسجد فبكى أبناء الصحابة وقالوا : ليتها تركت ولم تهدم. حتى يطلع الناس على البناء. ، ويروى ما رضى الله لنبيه ﷺ ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده^(٣) .

ولعل فى هدم الحجرات أسباباً من أهمها عدم الحاجة إليها ، وللاستفادة بها فى توسعة المسجد ، وحتى لا يتخذها المسلمون مزاراً يعبد ، ولذلك لم يؤثر عن أحد

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٥٠٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٤٩٩ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٥٠٧ .

من التابعين إنكاراً ، ولم يحدث أن عارض عمر بن عبد العزيز الأمر إليه بالهدم وهو من هو ..؟ إنه عمر بن عبد العزيز .. وكفى !! لقد رضى بالهدم، ولم ينكر.. وعن عبد الله بن زيد الهذلي قال : رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ ، حين هدمها عمر بن عبد العزيز والى المدينة بأمر الوليد ، كانت بيوتاً باللبن وبها حجر من جريد مطروقة بالطين ، عددها تسعة بيوت ، وهى ما بين بيت عائشة رضى الله عنها إلى الباب الذى يلى باب النبي ﷺ .

ورأيت بيت أم سلمة وحجرتها من لبن فسألت ابن إبنها : من بناها ؟ فقال : لما غزا رسول الله ﷺ غزوة دومة الجندل بنت أم سلمة حجرتها بلبن فلما قدم رسول الله ﷺ نظر إلى اللبن فدخل عليها فقال : ما هذا البناء ؟ فقالت : أردت يا رسول الله أن أكف أبصار الناس .

فقال : يا أم سلمة إن شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان^(١) . وعن الحسن البصرى قال : كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ ، فى خلافة عثمان بن عفان ، فأتناول سقفها بيدي^(٢) .

وقد كان الحسن صغيراً آنذاك فإنه ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، وليس له عند المحدثين سماع من عثمان مما يدل على انخفاض السقف^(٣) .

ثم إن هذا الارتفاع لحجراته ﷺ وهو أن الواقف يتناول سقفها بيده ، هو الذى تثبته النصوص ، ولقد سبق أنه ﷺ جعل ارتفاع مسجده على هذه الوتيرة وما كان ليجعل حجراته أعلى من المسجد ، وقد قال ﷺ فى شأن البنيان النفقة كلها فى سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه^(٤) .

وقد بقيت أمهات المؤمنين ، بعد وفاة رسول الله ﷺ كل فى حجرتها على هيئته التى بنى عليها ما عدا بيت عائشة رضى الله عنها فإنها لما أذنت بدفن عمر بن الخطاب ﷺ بجوار أبيها أقامت جداراً داخلياً قسم بيتها إلى قسمين هما :

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٤٩٩ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٥٠٠ .

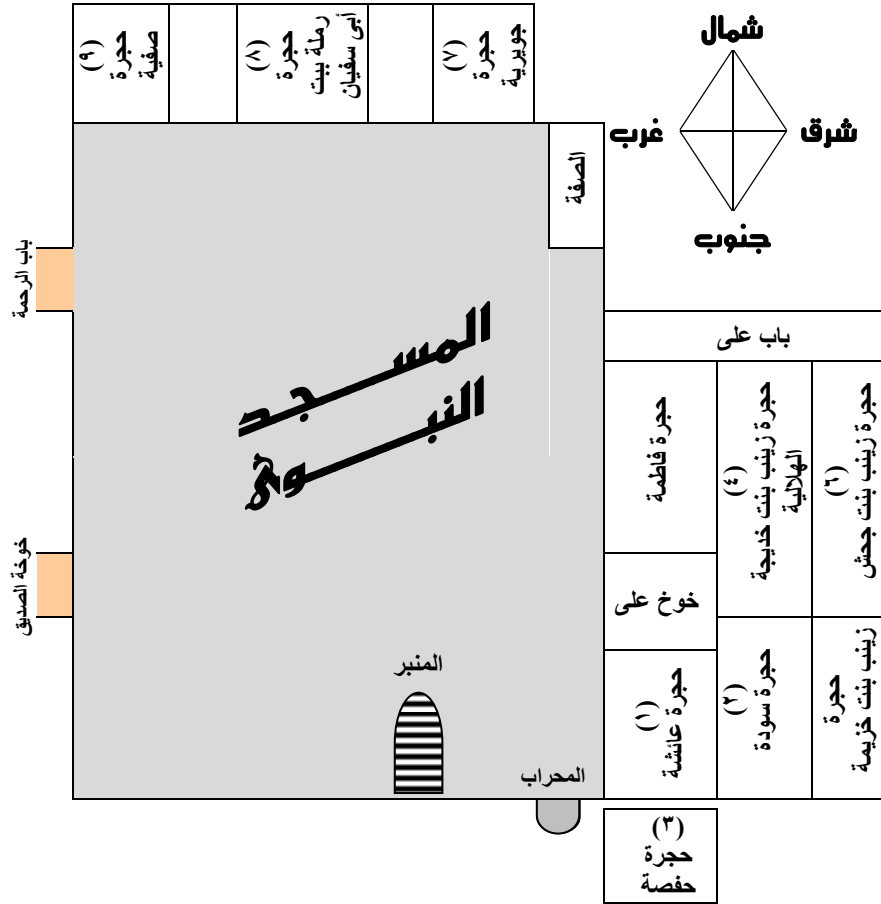
(٣) التهذيب ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٤) سنن الترمذى - كتاب صفة القيامة . باب الأربعون ج ٤ ص ٦٥٠ .

القسم الأول : هو الفناء ، ويضم القسم الجنوبي من البيت وفيه دفن النبي ﷺ وأبو بكر ، وعمر رضي الله عنهما .

القسم الثاني : وهو المحجرة ويقع شمال القسم الأول ، وهي الذي اتخذته عائشة رضي الله عنها بيتاً لها .

واستمر الحال على هذا الوضع حتى هدمت البيوت جميعاً في عهد الوليد بن عبد الملك .



"موقع الحجرات الشريفة"

حجرات زوجات النبي ﷺ واتصالهن بالمسجد النبوي

- ثالثا -

هجرة آل النبي ﷺ

لما استقر المقام برسول الله ﷺ في المدينة ونزل عند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، كلف عبد الله بن أريقط الدؤلي ، دليله في رحلة الهجرة أن يقوم برحلة ثانية يأتي فيها بأهله وأهل أبي بكر ، وأرسل معه زيد بن حارثة وأبا رافع مولى رسول الله ﷺ وزودهم بجمالين ، وخمسمائة درهم ، ليشتروا بها إبلاً من "قديد" (١) .

وكان رسول الله ﷺ قد اختبر عبد الله بن أريقط ، وعلم أمانته ، وخبرته ولذلك اختاره ليأتي بأهله ، وهي ولا شك مهمة أسهل من مهمته الأولى .

فذهب ابن أريقط ومن معه ، وجاءوا بمن كلفوا بالإتيان بهم ... وهم :

- ١ . سودة بنت زمعة زوجة النبي ﷺ وكان قد دخل بها في مكة .
 - ٢ . عائشة بنت أبي بكر زوجة رسول الله ﷺ التي لم يدخل بها إلا بعد أن بنى لها بيتا في المدينة .
 - ٣ . أم رومان زوجة أبي بكر ، وأم عائشة رضي الله عنهما .
 - ٤ . فاطمة بنت رسول الله ﷺ .
 - ٥ . أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ .
 - ٦ . أسماء بنت أبي بكر وزوجة الزبير بن العوام رضي الله عنها .
 - ٧ . عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما .
 - ٨ . أسامة بن زيد رضي الله عنهما .
 - ٩ . أيمن بن زيد أخو أسامة رضي الله عنهم .
 - ١٠ . أم أيمن ، حاضنة النبي ﷺ وأم أسامة وأيمن رضي الله عنهن .
 - ١١ . أم أبي بكر رضي الله عنها (٢) .
- وكانت عائشة تركب جملاً مع أمها ، فشرد بهما ، فأخذت أم رومان تقول واعروساه !!! وابنتاه !!!

(١) قديد تصغير قد وهو موضع قرب مكة ينسب إلى أحد الخزاعيين .

(٢) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٦٦ .

تقول عائشة رضي الله عنها : فسمعت قائلاً يقول : أرسلى خطامه ، فأرسلته ... فوقف بإذن الله تعالى ، وسلمنا الله عز وجل وسرنا حتى نزلنا بـ"السُّنْح" (١) وذهب كل إلى وليه ، وأقامت سودة وأبناء النبي ﷺ في دار أبي أيوب ، أما عائشة فقد ذهبت للإقامة مع أبيها ، ولم يدخل بها ﷺ إلا بعد إقامة بيتها بعد أن انتهى من بناء بيت سودة رضي الله عنها (٢) .

تقول عائشة رضي الله عنها : وبني بي رسول الله ﷺ في بيتي هذا ، الذي أنا فيه ، وهو الذي توفي فيه ، ودفن فيه ﷺ (٣) .

وقد تصادف أن طلحة بن عبد الله ﷺ خرج يريد الهجرة فتقابل مع آل النبي ﷺ خارج مكة فهاجر معهم وصحبهم حتى وصلوا جميعاً إلى المدينة المنورة

- رابعاً -

إقامة المسجد النبوي

استقر مقام النبي ﷺ عند أبي أيوب ﷺ قريباً من المكان الذي بركت فيه الناقة ، وكان مبارك الناقة مريداً لبنى النجار ، يدفن المشركون في جزء منه ، وفي جزء آخر نخل وشجر ، والباقي منه خراب يملأه ماء السيول والأمطار .

أرسل رسول الله ﷺ لبنى النجار . وقال لهم : ثامنوني على حائطكم هذا . فقالوا : والله لا نطلب ثمنه إلا من الله تعالى .

وكان المريد مملوكاً لغلامين يتيمين من بنى النجار هما : سهل وسهيل أبناء رافع ابن أبي عمرو ، وكانا في حجر أسعد بن زرارة ، فدعاهما الرسول وساوئهما على شراء المريد ليتخذ مسجداً .

فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ﷺ .

(١) السُّنْح بضم أوله وسكون ثانيه ، وأحد ضواحي المدينة كان به منزل أبي بكر الصديق ﷺ وبين السُّنْح وبين منزل النبي ﷺ ميل واحد .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢١ .

(٣) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٦٧ .

فأبى النبي ﷺ أن يقبله منهما هبة ، واستمر معهما حتى ابتاعه ليكون مسجداً فلما اشتراه النبي ﷺ أمر بالنخل فقطع ، وبالقبور فنبشت ، وبالعظام فغيبت ، وبالخرب فسويت ، وبما فيه من مياه فجففت ، وبذلك أصبح المكان جاهزاً للبناء فيه أخذ الصحابة في البناء ، ومعهم رسول الله ﷺ . وكان ﷺ ينقل معهم اللبن ويقول :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة .: فاغفر للأنصار والمهاجرة^(١)

وأدى اشتراك رسول الله ﷺ في العمل إلى بذل الجهد ، وتحمل مشاق العمل بنفس راضية من جميع أصحابه ﷺ .

رأى المصاحبة رسول الله ﷺ يضع رداءه ، ويحمل اللبن ، حتى أن صدره أغبر من التراب فوضعوا أرديتهم وأكسيتهم وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون :

لئن قعدنا والنبي يعمل .: ذاك إذا العمل المضلل

وفى أثناء العمل رأى الصحابة عثمان بن مظعون ﷺ يحمل لبنة ، ويبعدها عن ثوبه ، فإذا وضعها نفث كفه ، ونظر إلى ثوبه فإذا أصابه غبار نفثه ، فنظر إليه على ابن أبي طالب ﷺ وقال :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائما وقاعداً

ومن يرى عن الغبار عائداً

فسمع عمار بن ياسر ﷺ مقالة علي ﷺ ، فأخذ يرددّها ، وهو لا يدري من يعنى بها علي ﷺ فسمعه عثمان بن مظعون ﷺ فظن أنه يعرض به فقال له : يا ابن سمية ما أعرفنى بمن تعرض .

وكان مع عثمان جريدة فقال لعمار : لتكفن أو لأعرضن بها وجهك .

فسمعه رسول الله ﷺ فغضب وقال : إن عمار بن ياسر جلدة ما بين عيني وأنفى ، ووضع يده بين عينيه ، فكف الناس عن عمار إلا أنهم قالوا له : إن النبي غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا قرآن . فقال عمار : أنا أرضيه كما غضب .

(١) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب مقدم النبى المدينة ج ٦ ص ٢٢٧ .

فذهب عمار إلى رسول الله ﷺ وقال له : مالى ولأصحابك ؟

فقال ﷺ : مالك ولهم ؟

قال عمار : يريدون قتلى يحملون لبنة لبنة ، ويحملون على لبنتين لبنتين .

فأخذ النبي بيده وطاف به المسجد ، وأخذ يمسح جلد رأسه بيديه من التراب وهو ﷺ يقول : يا ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك ، تقتلك الفئة الباغية تدعوهم إلى الجنة ، ويدعونك إلى النار .

فقال عمار : أعوذ بالله من الفتن (١) .

يروى البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يحملون لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين ، فرآه النبي ﷺ فجعل ينفذ التراب ويقول ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار (٢) .

وكان الرسول يعلم حب الصحابة لعمار مما يؤكد أن قول عمار لرسول الله ﷺ إن أصحابك يريدون قتلى هى من الدعاية مع رسول الله ﷺ ليذهب عنه الغضب . وقد حاول الصحابة أن يستريح رسول الله ﷺ عن العمل فأبى .

يقول أسامة بن زيد ؓ : إن رسول الله ﷺ خرج ومعه حجر يحمله على كتفه فلقبه أسيد بن حضير فقال أسيد : يا رسول الله أعطنيه .

فأبى رسول الله ﷺ وقال له : إذهب فاحتمل غيره فإنك لست بأفقر إلى الله منى (٣) .

وكان رسول الله ﷺ يكل الأعمال التى تحتاج لخبرة إلى من يملك هذه الخبرة ، فلقد جاء طلق بن على ، وهو رجل من بنى حنيفة ، يحسن عجين الطين ، فلما رآه النبي ﷺ قال لأصحابه : إن هذا الحنفى لصاحب طين ، قربوا الحنفى من الطين ، فإنه أحسنكم له سبكاً ، وأشدكم منكباً (٤) .

(١) سبيل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الصلاة - باب الحدث فى المسجد ج ١ ص ٣٠٢ .

(٣) سبيل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٤٨٩ .

(٤) الإصابة فى معرفة الصحابة ج ٣ ص ٥٣٨ .

وكانت سعة المسجد حين بناه النبي ﷺ أول مرة سبعين ذراعاً ، فى ستين أو يزيد ، وجعل جدره من خشب ، ولم يسطح ، فلما اشتكى الصحابة الحر والمطر ، جعل ﷺ جدره من الخشب ، والسوارى من جذوع النخل ، وظلّوه بالخوص والجذوع ، فكان الظل ثم طينوه بالطين فانقطع المطر ، وابقوا وسط المسجد رحبة بلا سقف ، وقبلّة المسجد كانت أولاً إلى بيت المقدس جهة الشمال ، وكان له ثلاث أبواب فى مؤخرته هى :

- (أ) باب. أبى بكر جنوب. المسجد وهو الآن. جهة القبلة بعدما حولت إلى مكة وصار بعد التوسعة العثمانية جزءاً داخل المسجد .
- (ب) باب عاتكة وهو باب الرحمة ويقع غرب المسجد داخل توسعة الملك فهد .
- (ج) باب النبي وهو الباب الذى كان يدخل منه النبي ﷺ ويعرف بباب عثمان .
- وقد قام النبي ﷺ ببناء المسجد ليكون موضعاً للصلاة ، ومكاناً لاجتماعه ﷺ مع أصحابه ، ومقر الحكم والإدارة ، ومنطلق الدعوة والإرشاد .
- وبعد فتح خيبر أعاد النبي ﷺ بناء المسجد مرة ثانية وزاد مساحته لأن أبعاده فى البناء الثانى صارت مائة ذراع فى مائة ذراع وقد قام عثمان بن عفان ؓ بشراء المساحة الجديدة وأهداها لمسجد النبي ﷺ^(١) .
- ولم يغال النبي ﷺ فى بناء المسجد ، ولا فى زخرفته ، بل كان القصد وترك المغلو . فبنى المسجد باللبن . وسقف بالجريد . وكانت أعمدته سيقان. النخل ، وقوائم الباب من الحجارة .
- واتخذ النبي ﷺ لنفسه منبراً هو جذع نخلة حن يوم اتخذ النبي ﷺ منبراً من الخشب مكوناً من ثلاث درجات .
- واستمر المسجد على المساحة التى أقامها رسول الله ﷺ إلى أن كانت خلافة عمر ؓ فزاد مساحته ، وبناه باللبن والجريد ، فلما كان عثمان ؓ زاد فيه مساحة كبيرة ، وبنى عمده وجدره بالحجارة المنقوشة ، وسقفه بالساج .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٤٩١ .

يروى البخارى بسنده عن ابن عمر أن مسجد رسول الله ﷺ كانت سواريه على عهد رسول الله ﷺ من جذوع النخل ، وأعلاه مظل بجريد النخل .
ثم أنها نخرت فى خلافة أبى بكر فبناه بجذوع النخل ولم يزد فيه وزاد فيه عمر وبناه بمواده فى عهد رسول ﷺ باللبن ، والجريد ، وأعاد عمدته خشباً .
ثم أنها نخرت فى خلافة عثمان ، فزاد فيه زيادة كبيرة ، وبنى جدره بالحجارة المنقوشة والقصة ، وجعل عمدته من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج ، ونقل إليه الحصباء من العقيق^(١) .

وأخذ الخلفاء والولاطين يهتمون بالمسجد النبوى بناء ، ومساحة ، حتى كانت الدولة السعودية الثالثة ، فتوسع المسجد مرتين ، الأولى فى عهد الملك سعود بن عبد العزيز ، والثانية فى عهد أخيه الملك فهد بن عبد العزيز حتى بلغت مساحة المسجد مساحة المدينة كلها فى عهد رسول الله ﷺ .
وقد قام المسجد النبوى بمهام خطيرة ، ففيه بدأ رسول الله ﷺ يؤم المسلمين ، ويلتقى بهم ، وكان ﷺ يلتقى بالوفود ، والغرباء بداخله .
وقد أدرك المسلمون أهمية المسجد النبوى لما فيه من كثرة البركة ، وعظم الخير كما علمهم رسول الله ﷺ .

فعن أبى هريرة ؓ عن النبى ﷺ قال : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى^(٢) .
وعن أبى هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام^(٣) .
وعن عبد الله بن زيد ؓ قال : قال النبى ﷺ ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى^(٤) .

(١) السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة ص ١٢٥ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى . باب فضل المساجد الثلاثة ج ٣ ص ٥٤١ ط . الشعب .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى . باب فضل المساجد الثلاثة ج ٣ ص ٥٣٧ ط . الشعب .

(٤) صحيح البخارى . كتاب الحج . باب حدثنا مسدد ج ٣ ص ٢٨٤ .

والمسلمون فى كل عصر ، ومن كل مصر يشدون رحالهم إلى مسجد رسول الله ﷺ ويتشرفون بالسلام على رسول الله ﷺ تعاودهم الذكريات الخالدة ويعيشون حياة المصطفى ﷺ .

ولعل تعلق المسلمين بالمسجد الحرام ، وبمسجد رسول الله فى المدينة المنورة يذكرهم بالمسجد الأقصى الذى هو أحد المساجد التى تشد إليها الرحال وبخاصة بعد تعرضه لعداوات اليهود ، وعدوانهم .

المبحث الثالث

تنظيم الحياة الاجتماعية فى المدينة

استقر رسول الله ﷺ فى المدينة بعدما هاجر إليها المسلمون من مكة ، ومن أنحاء الجزيرة العربية ، وأصبح الرسول ﷺ أمام حال يختلف تماماً عن الحال الذى كان فى مكة.

وجد النبى ﷺ أمامه مجتمعاً يسلم أمره إليه ، مع اختلاف عناصره ، وتنوع مذاهبه و اتجاهاته ، وتباين طبقاته المادية والثقافية .

وجد النبى ﷺ أمامه المهاجرين بعدما تركوا ديارهم وأموالهم وأهاليهم ، وجاءوا بإيمانهم وثقتهم فى الله فقط ، ولم يكن عندهم تصور معين يعيشون فيه أو عمل يتوقعونه ، إنما جاءوا بفقرهم يرجون فضل الله ورحمته ، ويعبدون أنفسهم لله تعالى ، وينصرون- دعوته بصدق- وإخلاص- فهم كما قال- الله عنهم :: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ^(١) .

ووجد الأنصار وهم من آمن بالإسلام ، وبايع رسول الله ﷺ وأغلبهم من الأوس والخزرج ، وهؤلاء لم يخرجوا من ديارهم ، وعاشوا مع أموالهم وأقربائهم وأعمالهم ، وكل ما جد عليهم أنهم جعلوا الإيمان فى قلوبهم يقينا صادقاً ، وأحبوا به كل مؤمن وبخاصة من هاجر إليهم ، ورحبوا بهم ، وأنزلوهم منزلة الروح والعقل ، وتنازلوا عن كل خصيصة لهم وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الحشر ، الآية ٨ .

(٢) سورة الحشر ، الآية ٩ .

ووجد مع المسلمين اليهود بقبائلهم ، وقد هادنوا المسلمين ، وأسلموا أمورهم مؤقتاً لرسول الله بسبب شعورهم بالضعف والخوف .
ومعهم كان المشركون الذين سلكوا مسلك اليهود ، فاستسلموا ظاهراً مع امتلاء قلوبهم بالحق والحسد .

وتذبذب المنافقون بين هؤلاء وهؤلاء ، وأخفوا الكراهية للإسلام ، والمسلمين .
أمام هذا الوضع الجديد كان من الضروري تنظيم العلاقات بين سكان المدينة لتتكون منهم لأول مرة فى تاريخ المدينة دولة تملك الأرض والشعب والقيادة الواحدة والتعاليم الواحدة التى تحكم الأفراد جميعاً .

إن سكان المدينة هم الشعب ، ومعهم كان رسول الله ﷺ القائد المعلم ، يتلقى وحى الله .، ويعلمه للناس .، ويشكل الحياة بمنهج الله علماً ، وفهماً ، وسلوكاً ،
ويظهر الإسلام للعالم عقيدة ، وشرعية ، وخلقاً .
وابتدأ النبى ﷺ بتنظيم الحياة الاجتماعية بين الناس على أساس تحديد الحقوق والواجبات للجميع ، وقد اشتمل هذا التنظيم على ما يلى :

ـ ١ ـ

تنظيم الإخاء بين المسلمين

آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، إذ قال لهم : تأخوا فى الله أخوين أخوين ، ليتحقق الترابط ، والتكافل فيما بينهم .
ولم تكن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فقط ، وإنما كانت تتم أحياناً بين مهاجر ومهاجر ، فقلد آخى النبى ﷺ بينه وبين على بن أبى طالب ، وآخى بين عبد الله بن الزبير وعبد الله بن مسعود ، وآخى بين عمه حمزة وبين زيد بن حارثة . وكل هؤلاء مهاجرون^(١) .

وابتدأت المؤاخاة فى مسجد رسول الله ﷺ عند مجيئه ﷺ بعد تأسيس المسجد ، وكانت هذه الأخوة تتجدد كلما ظهر مسلم جديد ، أو جاء المدينة مؤمن مهاجر .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٥٠٥ .

يورد ابن إسحاق صوراً لهذه المؤاخاة ، ويحدد أشخاصها وعنه نقل غيره من المحدثين والعلماء .

يقول ابن إسحاق : وأخى النبي ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال : تأخوا في الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخى فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، الذى ليس له نظير من العباد وعلى بن أبي طالب ﷺ أخوين .

وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وأسد رسوله ﷺ ، وعم رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضر القتال إن حدث به حادث الموت .

وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين ، الطيار فى الجنة ، ومعاذ بن جبل ، أخو بنى سلمه أخوين ، مع أن جعفر كان يومئذ غائباً بأرض الحبشة .

وكان أبو بكر الصديق ﷺ ، ابن أبي قحافة ، وخارجه بن زهير ، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين .

وعمر بن الخطاب ﷺ وعتبان بن مالك ، أخو بنى سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخوين .

وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح ، واسمه عامر بن عبد الله ، وسعد بن معاذ ابن النعمان ، أخو بنى عبد الأشهل أخوين .

وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع أخو بلحارث الخزرجى أخوين والزبير بن العوام ، وسلامة بن سلامة بن وقش ، أخو بنى عبد الأشهل أخوين وعثمان بن عفان ، وأوس بن ثابت بن المنذر ، أخو بنى النجار أخوين .

وطلحة بن عبيد الله ، وكعب بن مالك ، أخو بنى سلمه أخوين .

وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى بن كعب ، أخو بنى النجار أخوين .

ومصعب بن عمير ، وأبو أيوب خالج بن زيد ، أخو بنى النجار أخوين ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وعباد بن بشر أخو بنى عبد الأشهل أخوين .

وعمار بن ياسر حليف بنى مخزوم ، وحذيفة بن اليمان ، أخو بنى عبد عبس حليف بنى عبد الأشهل أخوين .

وثابت بن قيس بن الشماس ، أخو بلحارث بن الخزرج ، خطيب رسول الله ﷺ وعمار بن ياسر أخوين .

وأبو ذر ، وهو برير بن جنادة الغفارى ، والمنذر بن عمرو ، أخو بنى سعادة بن كعب بن الخزرج أخوين .

وكان حاطب بن أبى بلتعة ، حليف بنى أسد بن عبد العزى وعويم بن ساعدة أخو بنى عمرو بن عوف أخوين .

وسلمان الفارسى ، وأبو الدرداء عويمر بن ثعلبة ، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين وبلال ، مولى أبى بكر رضى الله عنهما ، ومؤذن رسول الله ﷺ وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمى أخوين .

فهؤلاء من سمى لنا ، ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه^(١) . ولقد برز. خلق الأنصار. العظيم .، وهم يؤثرون. إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، وقد تجردوا من شح النفس ، وملأوا قلوبهم بحب الله ورسوله ، فكانوا قدوة مثالية فى عالم الإيثار الرائع ، والإنسانية النبيلة حتى أنهم قبلوا أخوه جعفر بن أبى طالب مع معاذ بن جبل رغم اغتراب جعفر ، وجعلوا له حق المشاركة ، والعطاء ، والولاء .

تورد كتب السنة نماذج لهؤلاء الصفوة من أتباع رسول الله ﷺ حيث نقرأ منها :
عن أبى هريرة ؓ قال : قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل .

قال ﷺ : لا .

فقالوا : تكفونا المؤونة ونشرككم فى الثمرة .

قالوا : سمعنا وأطعنا^(٢) .

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٥٠٤ ، ٥٠٧ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب مناقب الأنصار ج ٦ ص ١٤٧ ط . الأوقاف .

وروى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال للأنصار : إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم .
فقالوا : أموالنا بيننا قطائع .
فقال ﷺ : أو غير ذلك ؟
قالوا : وما ذاك يا رسول الله .
قال ﷺ : هم قوم لا يعرفون العمل . فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر .
قالوا : نعم^(١) .
وعن أنس بن مالك ؓ قال : دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين .
فقالوا : لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلاً .
قال ﷺ : أما لا فاصبروا حتى تلقوني . فإنه سيصيبكم بعدى أثره^(٢) .
وعن أنس بن مالك ؓ قال : قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلاً من كثير ، لقد كفونا المؤونة ، وأشركونا في المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .
قال : لا ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله لهم^(٣) .
وقد سجلت السنة موقف أنصاري بلغ في الإيثار مبلغاً يستجلب تمام رضى الله ﷻ ، لقد بات الرجل طاوياً وزوجته كذلك ، وفوق ذلك نوما صبيانهما دون عشاء ، وآثرا ضيف رسول الله ﷺ من المهاجرين بما كان عندهم من طعام .
والعظيم في الأمر أن الأنصاري يطلب هذا وتوافقه زوجته ، والأم على أطفالها جد حانية ، ولا تؤثر بطعامها عليهم أحداً إلا أن صنيع الإيمان في قلوب الأنصار غير المطبائع إلى أسمى ما يتصوره عقل يفهم أو يخطر ببال مفكر أريب :
﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٤) .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب المناقب . باب مناقب الأنصار ج ٦ ص ١٥٢ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٤) سورة الحشر ، الآية ٩ .

سبحان الله !!

والله لا يحدث هذا إلا بسبب صدق الإيمان .

ومحال أن يتم إلا لله سبحانه وتعالى .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن : ما معنا إلا الماء فقال رسول الله ﷺ : من يضيف هذا ؟

فقال رجل من الأنصار : أنا . فانطلق به إلى امرأته فقال لها : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ .

فقالت : ما عندنا إلا قوت صبياني .

فقال : هيئي طعامك ، وأصبحي سراجك ، ونومي صبيانك ، إذا أرادوا عشاء ، فهيات الأم طعامها ، وأصبحت سراجها ، ونومت صبيانها ، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته ، فجعل يريانه أنهما يأكلان بصوت يصدرونه ، وباتا طاويين فلما أصبح غدا الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال له ﷺ : ضحك الله الليلة . أو عجب . من فعالكما^(١) .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ولم يكن المهاجرون أقل مروءة ، وإخلاصاً ، وحباً من الأنصار ، لأنهم بعدما استقروا ، وعرفوا طرق العمل ، ووأنتهم الدنيا ردوا لإخوانهم الأنصار ما أخذوه منهم • عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر ، وانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم ، التي كانوا منحوهم إياها من ثمارهم^(٢) .

• يقول أنس : فرد رسول الله ﷺ إلى أمي عذاقها الذي أخذته من أم أيمن وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه^(٣) .

(١) صحيح البخارى - كتاب مناقب الأنصار . باب ويؤثرون على أنفسهم ج ٦ ص ١٥٤ ط . الأوقاف .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الهبة . باب فضل المدينة ج ٤ ص ٣٤٧ .

(٣) تكملة الحديث السابق .

• قال أنس : وإن أهلى أمروني أن آتى النبي ﷺ فأسأله ما كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان النبي ﷺ قد أعطاه أم أيمن .. فأتيت النبي ﷺ فأعطانيهن فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وقالت : والله لا نعطيكن قد أعطانيهن .

فقال نبي الله ﷺ : يا أم أيمن أتركيه ، ولك كذا وكذا " .
وتقول : كلا والذى لا إله إلا هو .

فجعل ﷺ : يقول كذا ثم كذا حتى أعطاه عشرة أمثاله ، أو قريباً من عشرة أمثاله حتى رضيت^(١) .

بل إن بعض المهاجرين ما قبل أن يكون عبئاً على أخيه الأنصارى ، نعم هو لا يجيد الزراعة ، ولكنه يمكن أن يعمل فى التجارة ، وفعلاً ذهب إلى السوق وتاجر ، وإذا كانت الأيام الأولى أيام تعلم ، وتعليم ، واستعداد ، وجهاد فإن فى الوقت سعة بجانب ذلك للذهاب إلى السوق ليعمل فى تجارة يتكسب من ورائها ولو قليلاً بدلاً من الاعتماد على أخيه مهما كان سخيّاً غنياً .

• قال عبد الرحمن بن عوف ؓ : لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بينى وبين سعد بن الربيع فقال سعد ابن الربيع : إني أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم لك نصف مالى ، وانظر أى زوجتى هويت نزلت لك عنها ، فإذا حلت تزوجها !!

فقال له عبد الرحمن : لا حاجة لى فى ذلك ، هل من سوق فيه تجارة ؟
قال : سوق بنى قينقاع .

قال : فغدا إليه عبد الرحمن فأتى بأقط وسمن ثم تابع الغدو .
فما لبث أن جاء عبد الرحمن إلى رسول الله ﷺ وعليه أثر صفرة من زعفران فقال رسول الله ﷺ : أتزوجت ؟

قال : نعم .

قال : ومن ؟

(١) صحيح البخارى - كتاب الهبة - باب فضل المنحة ج ٤ ص ٣٤٥ ط . الأوقاف .

قال : امرأة من الأنصار .

قال : كم سقت ؟

قال : زنة نواة من ذهب ، أو نواة من ذهب .

فقال له النبي ﷺ : أولم ولو بشاة^(١) .

يتحدث الرسول ﷺ عن فضل الأنصار والمهاجرين فيما يرويه الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول ثلثة يدخلون الجنة لفقراء المهاجرين ، الذين تتقى بهم المكاره ، إذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت منهم حاجة إلى السلطان لم تقض حتى يموت وهو في صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها ، فيقول : أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى ، وقتلوا وأوذوا فى سبيلى ، وجاهدوا فى سبيلى ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ، ونقدس لك ... من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟

فيقول الله : هؤلاء عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى فتدخل الملائكة عليهم من كل باب وهم يقولون : ﴿ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾^(٢) .

• وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبيكون ، وذلك فى مرض رسول الله ﷺ الأخير . فقال : ما يبكيكم ؟

قالوا : ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا .

فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك .

(١) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب إخوان النبي بين المهاجرين والأنصار ج ٦ ص ١٤٦ ط الأوقاف .

(٢) السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة ص ١٣٩ .

فخرج النبي ﷺ وقد عصب رأسه بحاشية برد ، فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرشى "بطانتى" وعيبتى "خاصتى" وقد قضوا الذى عليهم وبقي الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن سيئهم^(١) .

• وعن أنس قال : أن النبى ﷺ رأى صبيانا ونساءً مقبلين من عرس فقام النبى ﷺ منتصبا لهم فقال : اللهم أنتم من أحب الناس إلى ، اللهم أنتم من أحب الناس إلى ، اللهم أنتم من أحب الناس إلى^(٢) .

لقد صهرت هذه الأخوة المسلمين فى بوتقة واحدة وربطتهم بحبل الله المتين ، وخلصت نفوسهم من شهوات النفس ، وأزاحت من حياتهم وساوس الهوى والشيطان ، وشعر كل مسلم بأخوته للآخرين بلا فرق بين حر ومولى أو غنى و فقير ، أو كبير وصغير ، أو مهاجر و أنصارى وصار الجميع جنوداً لله تعالى ، يضحون بكل ما يملكون فى صدق وإخلاص .

لقد أقاموا بجهدهم وجهادهم دولة الإسلام الأولى ، فى سموها ورفعتها ، وربانيتها ، وأصبحوا مثلاً يفتخر المسلمون بهم فى كل مكان ، وصدق قول الله فيهم : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَغَارَزَهُ فَاِسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝ (٣) .

والآية تقدم صورة كريمة ، رائعة لهذا الجيل المتفرد فى حياة الأمة الإسلامية الذى اتصف وتميز بالحقائق التالية :

(١) صحيح البخارى - كتاب المناقب ج ٦ ص ١٥٥ ط . الأوقاف .

(٢) صحيح البخارى - كتاب النكاح ج ٦ ص ١٤٨ .

(٣) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

- ١ . جعلوا حياتهم لله تعالى ، فساروا بأمره واتبعوا منهجه ، وكانوا بحق خير معية لرسول الله ﷺ وخير جند الله تعالى .
 - ٢ . عاشت آمالهم وأحلامهم وأعمالهم كلها بفضل الله ورضوانه محفوظة في الدنيا بالنصر والتوفيق ، وفي الآخرة بالجنة والنعيم .
 - ٣ . كانوا عباداً لله مخلصين ، تراهم دائماً راكعين ساجدين خاشعين ، وتبرز في وجوههم سمة الخشوع والعبادة . وتنمحي من حياتهم علامات الاستعلاء والكبر .
 - ٤ . علاقتهم بالآخرين أساسها الإيمان ، فهم مع المؤمنين رحماء ، ومع الكفار أشداء ، ولو كانوا أباؤهم وإخوانهم .
 - ٥ . أكرم الله هذا الجيل العظيم بتنزيل مثله في التوراة والإنجيل ، فجعلهم صورة وضيفة في التوراة . ، وصورهم في الإنجيل بالزرع النامي القوي المضمخ المستقيم الذي يعجب زارعه ، وهو رسول الله ﷺ .
- ولك أن تتخيل أثر هذه الآية على أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم يتلقون هذا التكريم الإلهي الذي يوضح مقامهم عند الله وعند الناس . ويستمر مع الناس مادامت تلاوة القرآن الكريم ، وما دامت الحياة .

- ٢ -

وضع الميثاق العام لسكان المدينة

لم يكتف النبي ﷺ بتحقيق الإخاء بين المسلمين ، وإنما وضع ميثاقاً لكل سكان المدينة ، يوضح ما لهم ، وما عليهم ، ويعرفهم بمصدر الحكم والتوجيه ، ويحدد لهم وسائل التعامل داخل المدينة وخارجها ، حتى عد بعضهم هذا الميثاق أول دستور إسلامي شرعه الله تعالى لحكم دولة الإسلام في المدينة .

ويلاحظ أن هذا الميثاق أعلنه رسول الله ﷺ بعدما أوحى الله تعالى إليه به ولم يشاور أحدًا من سكان المدينة فيه . فهو تشريع خالص من الله تعالى . ملزم لسكان المدينة جميعاً

وقد روى ابن إسحاق. نص هذه الميثاق. ، وعنه روى العلماء. وللمؤرخون وسوف أورد هذا الميثاق مقسماً على فقرات ، ومع كل فقرة أضع رقماً مسلسلاً ، تسهيلاً للفهم وتحديداً لمبادئ الميثاق وذلك فيما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ . هذا كتاب محمد النبي رسول الله ، (وضعه) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعه ، فلحق بهم وجاهد معهم .
- ٢ . إنهم أمة واحدة من دون الناس .
- ٣ . المهاجرون من قريش على ربعتهم (حالههم) ، يتعاقلون بينهم ، وهم يقدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٤ . وبنو عوف على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٥ . وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٦ . وبنو ساعدة على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٧ . وبنو جشم على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٨ . وبنو النجار على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٩ . وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ١٠ . وبنو النبيت على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ١١ . وبنو الأوس على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

- ١٢ . وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً (مثقلاً بدين) . بينهم إلا . أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .
- ١٣ . وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه .
- ١٤ . وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .
- ١٥ . ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر مؤمن كافراً على مؤمن .
- ١٦ . وأن ذمة الله واحدة ، يجبر عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .
- ١٧ . وأنه من تبغنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصراً عليهم .
- ١٨ . وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم .
- ١٩ . وأن كل غازية (غزاة) غزت معنا ، يعقب بعضها بعضاً .
- ٢٠ . وأن المؤمنين يبيئ (يتعادل) بعضهم عن بعض ، بما نال دماءهم فى سبيل الله .
- ٢١ . وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .
- ٢٢ . وأن لا يجبر مشرك مאלاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول (يحجز) دونه على مؤمن .
- ٢٣ . وأنه من اعتبط (قتل) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود (قصاص) به ، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعفو ، وأن المؤمنين عليه كافة لا يحل لهم إلا القيام عليه .
- ٢٤ . وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً (قاتلاً) أو يؤويه ، وأن من نصره فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه عدل (فداء) ولا صرف (توبة) .
- ٢٥ . وأن أهل المدينة مهما اختلفوا فى شئ فإن مرده إلى الله وإلى محمد .

- ٢٦ . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
- ٢٧ . وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم ، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .
- ٢٨ . وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٢٩ . وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣٠ . وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣١ . وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣٢ . وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣٣ . وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .
- ٣٤ . وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .
- ٣٥ . وأن لبنى الشطبية مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن البر دون الإثم (الخبث) .
- ٣٦ . وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .
- ٣٧ . وأن بطانة يهود (اليهود خارج المدينة) كأنفسهم .
- ٣٨ . وأنه لا يخرج منهم أحد (خارج المدينة) إلا بإذن محمد .
- ٣٩ . وأنه لا ينحجز (يمنع) على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا .
- ٤٠ . وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .
- ٤١ . وأنه لا يأثم امرؤ بخليقة ، وأن النصر للمظلوم .
- ٤٢ . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
- ٤٣ . وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

- ٤٤ . وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .
٤٥ . وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .
٤٦ . وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث (أمر منكر) أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .
٤٧ . وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .
٤٨ . وأن بينهم النصر من دهم يثرب .
٤٩ . وإذا دعوا إلى صلح يصلحونهم ، ويلبسونه (يشتركون فيه) فإنهم يصلحونهم ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين .
٥٠ . على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .
٥١ . وأن يهود الأوس ، مواليتهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره .
٥٢ . وأنه لا يحول دون هذا الكتاب ظالم أو آثم ، وأنه من خرج من المدينة فهو آمن ومن قعد بالمدينة فهو آمن إلا من ظلم أو أثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله^(١) .

* * *

وهذه الوثيقة تؤكد أن رسول الله ﷺ هو رئيس الدولة ، وهو المرجع فى التفسير والحكم والتنفيذ ، وهو ﷺ المسئول عن تحقيق أمن المدينة وسلامة المقيمين فيها ، وهو ﷺ المصدر الوحيد الذى يتلقى الوحي الإلهى ، ويبلغه لهم وللناس أجمعين .

وهذه الوثيقة تبين أن مواطنى الدولة الإسلامية هم المسلمون وغيرهم ، وأن الجميع مسئولون عن ضمان الحقوق داخل المدينة ، وعدم التعامل مع المجرمين ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ من ص ٥٠١ : ٥٠٤ .

وترك التعاون مع المعتدين داخل المدينة أو خارجها ، بحيث لا يخرج أحد من المدينة إلى مكة إلا بإذن رسول الله ﷺ ولا يأوى أحداً إلا بإذنه ﷺ كذلك .

وتتظم الوثيقة العلاقة بين قبائل المدينة جميعاً ، فى إطار قبول الجميع لحكم الله ورسوله ﷺ الذى يضمن لكل دينه وكرامته وحرية .

وبوضع هذا الميثاق .، وإحاطة جميع القبائل به يكون. قد تم تحديد مسار الجميع .، ومعرفة كل فرد. فى المدينة لما له .، وما عليه .، وبهذا. الميثاق. بدأت الملامح السياسية لدولة المدينة تترسخ، وتخضع لحكم تشريع واحد هو الإسلام ويقودها إمام واحد هو رسول الله ﷺ والكل فيها مواطنون يتمتعون بحقوق المواطنة ، وعليهم واجباتها .

وبذلك تم تنظيم المجتمع فى المدينة ، وأصبح الطريق مفتوحاً لنشر دعوة الله فى كل مكان .. وبكل الوسائل الممكنة .. ولذلك بدأ. رسول. الله ﷺ جهاد. الدعوة بالسرايا والغزوات ، وهذا ما سيتضمنه مبحث حركة الرسول بالدعوة فى المدينة الذى سيأتى بعد الانتهاء من سيرته ﷺ .

المبحث الرابع

الحياة الأسرية

لرسول الله ﷺ فى المدينة المنورة

استقر رسول الله ﷺ فى المدينة ، وأحضر أبناءه ، وزوجته سودة من مكة ، وتمت هجرة المؤمنين جميعاً وصارت. الأمة مهيأة لانطلاقه للإسلام. الكبرى .، وتعددت مهمات النبى ﷺ ، فهو فى بيته مع زوجاته ، وأبنائه ، ومع سائر الناس داعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً .

وقد وفى رسول الله ﷺ بكل ما كلف به، حتى صار الأسوة الكاملة فى كل مجال يحتاج له الناس ، وفى هذا المبحث سأتناول الجانب الأسرى لرسول الله ﷺ مع رد الاقتراءات الموجهة ضد رسول الله ﷺ فى تعدد زوجاته وذلك فيما يلى :

- أولاً -

التعريف بأمهات المؤمنين

المتفق عليهن

أجمع المؤرخون وعلماء السيرة أن رسول الله ﷺ تزوج إحدى عشرة امرأة ، مات عن تسعة منهن ، واختلفوا فيما فوق هذا العدد .

وسأورد تعريفاً موجزاً بأمهات المؤمنين المتفق على أنهن زوجات رسول الله ﷺ ثم أجمل أسماء المختلف فيهن زواجاً أو خطبة فيما يلي :

الزوجة الأولى : خديجة بنت خويلد (رضى الله عنها) :

هى خديجة بنت خويلد القرشية من بنى أسد بن عبد العزى ، تلتقى مع رسول الله ﷺ فى جدة "قصي". تزوجها النبى ﷺ قبل الإسلام. مع أنها تكبره بخمسة عشر عاماً^(١) .

وكانت خديجة رضى الله عنها خير معاشر لرسول الله ﷺ ، وكانت له نعم الزوجة يصور ذلك رسول الله ﷺ وهو يقول عنها : ما أبدلنى الله خيراً منها ، آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ورزقتى الله أولادها ، وحرمنى أولاد الناس^(٢) .

يقول ابن إسحاق : كانت وفاة خديجة ، وأبى طالب ، فى عام واحد ، وتوفيت وهى بنت خمس وستين سنة ، ودفنت فى الحجون ، ونزل رسول الله ﷺ حفرتها ، ولم تكن شرعت صلاة الجنازة بعد^(٣) .

الزوجة الثانية : سودة بنت زمعه (رضى الله عنها) :

تزوجها النبى ﷺ بعد موت خديجة رضى الله عنها ، وكانت قبله زوجاً لابن عمها السكران بن عمرو ، من السابقين إلى الإسلام الذين ، ومن الذين هاجروا

(١) انظر الكتاب الثانى من السلسلة ص ٢٣٧ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٦١ .

(٣) صفوة الصفوة لابن الجوزى ج ٢ ص ٩ .

إلى الحبشة الهجرة الثانية ، جاء إلى مكة مع زوجته من الحبشة فتوفى بها ودفن بالحجون .

وتزوجها رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، ودخل بها في مكة ، والحكمة في زواجه ﷺ منها صيانتها من الشرك.. لأنها لو عادت لقومها ولحاجت لهم لأهانوها ، وعذبوها ، وفتنوها في دينها ، ولذلك صانها النبي ﷺ بالزواج وكفلها .
توفيت سودة رضي الله عنها في آخر خلافة عمر بن الخطاب ؓ ودفنت بالبقيع .

الزوجة الثالثة : عائشة بنت أبي بكر (رضي الله عنها) :

عقد النبي ﷺ عليها في مكة قبل الهجرة وهي بنت ست سنوات ، ودخل بها وهي بنت تسع سنوات ، في شوال من السنة الأولى من الهجرة . وفي زواج النبي ﷺ من عائشة تكريم لأول أصحابه ، وأعلامهم قدراً ، وأحبهم إلى قلبه ﷺ .
وكان لعائشة منزلة في قلب رسول الله ﷺ يقول ﷺ عنها : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام^(١) .

تقول عائشة : كان رسول الله ﷺ في مرضه الأخير يتفقد يومى ، ويقول : أين أنا اليوم ؟! ... أين أنا غداً ؟

استبطاء ليوم عائشة : فلما كان يومى قبضه الله بين سحرى ونحرى^(٢) .
ولم ينس الرسول ﷺ لأبى بكر سبقه للإسلام.. ونصره لدين الله تعالى ، وإعانتته للمستضعفين ، ولذا صاهره وتزوج ابنته عائشة رضي الله عنها^(٣) بأمر الله تعالى .

توفيت رضي الله عنها سنة سبع وخمسين من الهجرة .، وصلى عليها أبو هريرة ، ودفنت بالبقيع وعمرها ثمان وستون سنة .

الزوجة الرابعة : حفصة بنت عمر (رضي الله عنها) :

(١) صحيح مسلم . كتاب الفضائل . باب فضل عائشة ج ١٥ ص ٢١١ .
(٢) صحيح مسلم . كتاب الفضائل . باب فضل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .
(٣) انظر صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب تزويج النبي عائشة ج ٦ ص ٢٠٢ .

تزوج الرسول ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب. رضى الله عنها فى شهر شعبان على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة .

كانت حفصة زوجة لـ "خنيس بن حذافة السهمي" الصحابي الجليل ، الذى شهد بدرًا وأحداً ، وتوفى بالمدينة بعد أحد مباشرة بجرح أصابه فيها ، فلما انقضت عدتها فكر أبوها فى تزويجها ، يقول أبوها عمر ؓ : فلقيت عثمان بن عفان ؓ فعرضت عليه حفصة ، فقال : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر . قال : سأنظر فى أمرى .

فلبثت ليالى ثم قال : قد بدا لى أن لا أتزوج يومى هذا . قال عمر : فلقيت أبا بكر ، فقلت له : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر فصمت أبو بكر ، فلم يرجع إلى شيئاً ، فكنت عليه أوجد منى على عثمان . فلبثت ليالى ، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه . فلقينى أبو بكر فقال : لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك ؟

قلت : نعم .

قال . : فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك إلا أن. النبى ﷺ قد ذكرها ، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ ، ولو تركها لقبلتها^(١) .

نعم إن رسول الله ﷺ تزوج السيدة عائشة فى السنة الأولى من الهجرة ، فكان هذا قرّة عين لصاحبه أبى بكر ، وخير مكافأة له فى الدنيا على صدقه وإخلاصه . فلما توفى زوج السيدة حفصة بنت عمر رضى الله عنها رأى رسول الله ﷺ أن يساوى بين عمر وبين أبى بكر فى تشريفهما بمصاهرته ، ولم يكن فى الإمكان أن يكافئهما فى هذه الحياة بشرف أعلى من هذا ، فتزوج حفصة فى السنة الثالثة .

فما أجل سياسته ﷺ !!

وما عظم وفائه للأوفياء له .

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب حدثنا أبو اليمان ج ٦ ص ٢٦٢ ط . الأوقاف .

ويقابل ذلك إكرامه لعثمان ؓ ، ولعلي بن أبي طالب ؓ ، بتزويجهما ببناته (رقية وأم كلثوم وفاطمة رضى الله عنهن) .

وهؤلاء الأربعة أعظم أصحابه فى حياته ، وخلفاؤه فى أمته ونشر دعوته بعد وفاته ؓ وهم أفضل الصحابة على الإطلاق^(١) .

توفيت حفصة رضى الله عنها سنة خمس وأربعين من الهجرة فى خلافة معاوية وصلى عليها مروان بن الحكم ودفنت بالبقيع وعمرها ثلاث وستون سنة .

الزوجة الخامسة : زينب بنت خزيمة (رضى الله عنها) :

تزوج الرسول ﷺ زينب بنت خزيمة بن الحارث. رضى الله عنها ، . وهى المعروفة فى الجاهلية بأُم المساكين ، . وكانت قبله زوجة للصحابى "عبيدة بن الحارث" الذى استشهد يوم بدر ، وكان دخوله ﷺ بها فى رمضان من السنة الرابعة من الهجرة . وقد توفيت بعد زواجها من رسول الله ﷺ بثمانية أشهر ودفنت بالبقيع ، ولم يمت من أزواجه ﷺ فى حياته إلا هى وخديجة ؓ وكان عمر زينب يوم وفاتها ثلاثين عاماً^(٢) .

الزوجة السادسة : أم سلمة (رضى الله عنها) :

تزوج النبى ﷺ أم سلمة وهى هند بنت أبى أمية القرشية المخزومية ، تزوجت أولاً ابن عمها "عبد الله بن عبد الأسد المخزومى" من السابقين إلى الإسلام ، وهو ابن عمه رسول الله ﷺ ، وأخوه من الرضاع ، شهد بدرًا واستشهد يوم أحد . وكان زوجها يحبها وكانت هى تحبه قالت له مرة : بلغنى أنه ليس امرأة يموت زوجها وهما من أهل الجنة ثم لم تتزوج بعده إلا جمع الله بينهما فى الجنة ، وكذلك إذا ماتت المرأة وبقي الرجل بعدها ، فتعال أعاهدك أن لا تتزوج بعدى ولا أتزوج بعدك .

قال : أتعطينى ؟

(١) منتقى النقول ص ٤٥٠ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ١١٦ .

قالت : ما سألتك إلا لأعطيك .

قال : فإذا أنا مت فتزوجي ، ثم قال : اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى لا يحزنها ولا يؤذيها ، فلما مات أبو سلمة قلت : من هذا الذي هو خير لى من أبى سلمة فلبثت ما لبثت فجاء رسول الله ﷺ فخطبنى ثم تزوجنى^(١) .

وكانت أم سلمة وضيئة جميلة ، تقول السيدة عائشة عنها : لما تزوجها النبى ﷺ حزنت حزناً شديداً لما ذكر لى من جمالها فذكرت ذلك لحفصة فقالت : ما هى كما يقال فتلطفت حتى رأيته فرأيتها والله أضعاف ما وصفت لى فذكرت ذلك لحفصة فقالت : نعم ولكنى كنت غيرى^(٢) .

أبليت أم سلمة بلاء حسناً فى الهجرة ، و عزاها النبى ﷺ فى زوجها وقال لها : سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك ، ويخلفك خيراً .

فقالت : ومن يكون خيراً من أبى سلمة ؟

فلم ير صلوات الله وسلامه عليه عزاء ولا كافلاً لها ولأولادها ترضاه غيره صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فخطبها .

ولما خطبها لنفسه اعتذرت بأنها مسنة وأم أيتام وذات غيرة^(٣) .

فأجابها ﷺ بأنه أكبر منها سناً ، وبأن الغيرة يذهبها الله تعالى ، وبأن الأيتام إلى الله ورسوله . وكان زواجه ﷺ بها فى شهر شوال من السنة الرابعة من الهجرة^(٤) .

وتوفيت أم سلمة سنة ثلاثة وستين من الهجرة فى خلافة يزيد بن معاوية رضي الله عنه وصلى عليها والى المدينة مروان بن الحكم ، وهى آخر من مات من زوجات النبى ﷺ .

الزوجة السابعة : زينب بنت جحش (رضى الله عنها) :

تزوجها النبى ﷺ بعد زواجه من أم سلمة . سنة ست من الهجرة . وكان اسمها "برة" فسماهما النبى ﷺ بـ "زينب" .

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى ج ٢٢ ص ١٣١ .

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى ج ٢٢ ص ١٣٢ .

(٣) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٩٤ .

(٤) الطبقات الكبرى قسم النساء ج ٨ ص ٩١ .

وقد أمر الله رسوله بتزوجها بعدما كان يخشى ﷺ قاله الناس ، لأنه ﷺ هو الذى زوجها لمولاه "زيد بن حارثة" رغم معارضتها ، وقد تعود الناس أن لا يتزوج السيد مطلقة مولاه ، وحتى لا يتحدث الأفاكون عن طلاقها من زيد وزواجها من رسول الله ﷺ لجمالها وحسنها .

تحكى زينب رضى الله عنها قصتها فتقول :
خطبنى عدة من قريش ، فأرسلت أختى حمنة إلى رسول الله ﷺ تستشيريه .
فقال لها رسول الله ﷺ : أين هى ممن يعلمها كتاب ربها ، وسنة نبيها ؟
قالت : ومن هو يا رسول الله ؟
قال : زيد بن حارثة .

فغضبت حمنة غضباً شديداً وقالت : يا رسول الله ﷺ تزوج بنت عمك مولاك ؟
وجاءتنى فأعلمتنى فغضبت أشد من غضبها وقلت أشد من قولها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِينَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾^(١) .

فأرسلت إلى رسول الله ﷺ فقلت : إني أستغفر الله ، وأطيع الله ورسوله افعل ما رأيت يا رسول الله .

فزوجنى زيدا ، وكنت أرني عليه ، فشكاني إلى رسول الله ﷺ فعاتبنى رسول الله ﷺ ثم عدت ، فأخذته بلساني ، فشكاني إلى رسول الله ﷺ واستأذنه فى فراقى فقال رسول الله ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله .
فقال يا رسول الله : أنا أطلقها .

تقول زينب : فطلقتنى .
فلما انقضت عدتى لم أعلم إلا ورسول الله ﷺ قد دخل على ، وأنا مكشوفة الشعر ، فقلت : إنه أمر من السماء يا رسول الله ﷺ بلا خطبة ولا شهادة .
فقال ﷺ : الله هو المزوج وجبريل هو الشاهد^(٢) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٦ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٩٦ .

وقد بين القرآن الكريم قصة زينب فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَى لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝ ﴾ (١) .

والمراد بالذى أنعم الله عليه، وأنعمت عليه مولى رسول الله ﷺ "زيد بن حارثة" ﷺ ، الذى زوجه النبى ﷺ من زينب ، وكانت لذلك رافضة لما كانت تتمتع به من حسب ، وجمال ، ودين إلا أنها أطاعت رسول الله ، وتزوجته . وتمضى الأيام ، ويفكر زيد فى طلاق زينب لما رآه من استعلائها ، ويأتى لرسول الله يستأذنه فى ذلك ، فينهاه لعلمه بأمر الله تعالى فى هذا الشأن ... إلا أن زيدا طلق زينبا ، وزوج الله تعالى رسوله ﷺ زينب بنت جحش . والحكمة واضحة فى الآية ذلك أن العرب كانوا يعدون الإبن بالتبني مثل الابن الأصلى ، فى تحريم زوجته إذا دخل بها على والده ، ولذلك زوج الله نبيه بزينب ، قطعاً لهذه العادة التى لا سند لها فى شرع الله تعالى . وقد قطع النبى ﷺ بزواجه من زينب عادة جاهلية أخرى . وهى استعلاء السادة عن الزواج بزوجات مواليتهم كبراً وفساداً . كما بين للمؤمنين قضية عقدية هامة ، وهى أنه لا خيار لمؤمن ولا مؤمنة بعد قضاء الله وحكمه كما تفيد الآيات . وقد توفيت زينب سنة عشرين للهجرة فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وقد صلى عليها عمر ﷺ ودفنت بالبقيع (٢) .

الزوجة الثامنة : جويرية بنت الحارث (رضى الله عنها) :

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٧ .

(٢) انظر بغية الرائد باب مناقب زينب ج ٩ ص ٣٩٨ .

كانت جويرية من سبايا بنى المصطلق،. جاءت. للنبي ﷺ تستعين به فى كتابتها ، فأدى ﷺ عنها كتابتها وتزوجها بعد ذلك ، وكان قومها جميعاً سبايا عند الصحابة ، وبعد أن تزوجها رسول الله ﷺ قال الصحابة : أصهار رسول الله ﷺ يسترقون فأرسلوا ما بأيديهم من السبايا وأعتقوهم فصاروا جميعاً أحراراً .
تقول عائشة : فلا نعلم امرأة كانت أكثر بركة على قومها من جويرية .

وقد توفيت جويرية بالمدينة سنة ست وخمسين من الهجرة وصلى عليها والى المدينة مروان بن الحكم ودفنت بالبقيع وكان عمرها يوم وفاتها خمساً وستين سنة^(١)
الزوجة التاسعة : أم حبيبة (رضى الله عنها) :

هى رملة بنت أبى سفيان من السابقات للإسلام ، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى الحبشة، وهناك ارتد عبد الله عن الإسلام وتتنصر وثبتت هى على الإسلام،. فأرسل النبي ﷺ إلى النجاشى يخطبها له ،. فزوجه إياها ،. وأصدقها أربعمئة دينار .

تقول. أم. المؤمنين رملة بنت أبى سفيان. :. فارقت عبد الله بن جحش فما شعرت إلا بجارية يقال لها أبرهة كانت تقوم على ثياب النجاشى تأتينى وتقول : إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلى أن أزوجه .
قالت : بشرك الله بخير .

قالت : يقول لك الملك وكلى من يزوجه ، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته وأعطت أبرهة سوارين من فضة وخدمتين كانتا فى رجلي وخواتيم فضة سروراً بما بشرتها ، فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب والمسلمين فحضروا فخطب النجاشى فقال : الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار ، أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم ﷺ أما بعد فإن رسول الله كتب إلى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان فأحببت إلى ما دعا إليه رسول الله وقد أصدقته أربع مائة دينار ، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم .

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد . باب مناقب جويرية ج ٩ ص ٤٠٣ .

فتكلم خالد بن سعيد فقال : الحمد لله أحمدته وأستعينه وأستنصره وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أما بعد فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله وزوجته أم حبيبه بنت أبي سفيان فبارك الله رسول الله ، ودفع الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها ثم أرادوا أن يقوموا فقال النجاشي : اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا^(١) .

وقد حضرت أم حبيبة رضی الله عنها إلى زوجها رسول الله ﷺ سنة سبع من الهجرة في المدينة المنورة وتوفيت زمن أخيها معاوية سنة أربع وأربعين من الهجرة ، ودفنت بالبقيع^(٢) .

الزوجة العاشرة : صفية بنت حيي بن أخطب (رضي الله عنها) :

تزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب ، سيد بني النضير ، وكانت من أجمل نساء العالمين ، ولم تبلغ سبع عشرة سنة . وقد صارت له من سبي خيبر أمة فأعتقها ، وجعل عتقها صداقها ، فصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة أن يعتق الرجل أمتة . ويجعل عتقها صداقها فتصير زوجة حرة بذلك .

قال أنس : لما جمع ﷺ بني خيبر جاءه دحية الكلبي فقال : يا رسول الله أعطني جارية من السبي .

فقال ﷺ : اذهب فخذ جارية فذهب وأخذ صفية بنت حيي .

فجاء رجل وقال : يا رسول الله إنها سيدة قريظة والنضير ، وأنها لا تصلح إلا لك نظراً لما قد كانت فيه .

قال ﷺ : أدعو دحية إلى بها .

(١) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد . باب مناقب أم حبيبة ج ٩ ص ٤٠٢ .

فجاء دحية بها، فلما جاءت نظر إليها ﷺ وقال لدحية الكلبى : خذ جارية من السبى غيرها، ثم أعتقها وتزوجها .

يقول الحجاج : إن رسول الله ﷺ خيرها بين أن يعتقها وتكون زوجته أو تلحق بأهلها ، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته^(١) .

ويقول ابن شهاب : كانت مما أفاء الله عليه ﷺ ، فحببها وأولم عليها بتمر وسويق وقسم لها^(٢) .

وعن ابن عمر قال : كان بعينى صفية خضرة ، فقال لها النبى ﷺ : ما هذه الخضرة بعينيك ؟

قالت :. قلت لزوجى إنى رأيت فيما يرى النائم كأن قمراً وقع فى حجرى، فلطمنى وقال : أتريدى ملك يثرب ؟ ... أتريدى ملك يثرب ؟

قالت : وما كان أبغض إلى من رسول الله ﷺ قتل أبى ، وزوجى .
فما زال يعتذر إلى ويقول : يا صفية إن أباك ألب على العرب ، وفعل ... وفعل حتى ذهب ذلك من نفسى^(٣) .

وعن وحشى بن حرب : أن النبى ﷺ لما أفاء الله عليه صفية، قال لأصحابه : ما تقولون فى هذه الجارية ؟

قالوا نقول : إنك أولى الناس بها وأحقهم .
قال ﷺ : فإنى أعتقها وأستنكحها ، وجعلت عتقها مهرها .
فقال رجل : يا رسول الله الوليمة .

قال ﷺ : الوليمة حق ، والثانية معروف ، والثالثة ، فخر وخرج^(٤) .
وعن صفية رضي الله عنها قالت : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وما من أحد أكره إلى منه فقال : إن قومك صنعوا كذا وكذا فما قمت من مقعدى ومن الناس أحد أحب إلى منه ﷺ^(١) .

(١) صحيح البخارى - كتاب النكاح . باب من جعل عنق الجارية صداقها ج ٨ ص ١٣٥ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٤٠٤ .

(٣) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد . باب مناقب صفية ج ٩ ص ٤٠٤ .

(٤) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٤٠٦ .

وفى رواية عن السيدة صفية رضى الله عنها قالت : ما رأيت قط أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ ، لقد رأيته ركب بى من خيبر على عجز ناقته ليلاً ، فجعلت أنعس فيضرب رأسى مؤخرة الرجل ، فيمس بيده ويقول : يا هذه مهلاً يا بنت حبي حتى إذا جاء المصهباء قال : . أما إنى أعتذر إليك يا صفية مما صنعت بقومك إنهم قالوا لى كذا وكذا^(١) .

وكانت صفية حليلة ، عاقلة ، فاضلة ، ماتت سنة خمسين فى رمضان ، وقيل سنة اثنتين وخمسين فى خلافة معاوية ودفنت بالبقيع .

الزوجة الحادية عشرة : ميمونة بنت الحارث (رضى الله عنها) :

ثم تزوج ﷺ بعد صفية بنت حبي : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، زوجه إياها العباس عمه ، وكانت خالة ابن عباس ؓ .

وكانت فى الجاهلية عند "مسعود بن عمرو بن عمير الثقفى" ففارقها وخلف عليها "أبو رهم بن عبد العزى" فتوفى عنها ، فتزوجها رسول الله ﷺ فى شوال سنة سبع بمكة فى عمرة القضاء بعدما أحل .

وبنى بها بسرف حيث تزوج بها ، وقد ماتت سنة إحدى وستين فى خلافة يزيد بن معاوية ، وقد بلغت ثمانين سنة ، وهى آخر من تزوج ﷺ^(٢) .

وهى التى وهبت نفسها للنبي يقول السهيلي : لما جاءها الخاطب ، وكانت على بغير رمت بنفسها من على البعير ، وقالت : البعير وما عليه لرسول الله ﷺ^(٣) .

أجمع المؤرخون ، وكتاب السيرة على تزوج النبي ﷺ بأحدى عشرة امرأة ، هن أمهات المؤمنين المذكورات :

(١) المرجع السابق ج ٩ ص ٤٠٦ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٤٠٤ - ٤٠٦ .

(٣) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ١٣٢ : ١٣٤ .

(٤) الروض الأنف ج ٤ ص ٧٨ ، وفيها نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرًا مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ .

ست منهن قرشيات وهن : خديجة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة رضى الله عنهن .

وأربع عربيات. وهن : زينب بنت جحش من بنى خزيمة ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة من بنى صعصة ، وجويرية بنت الحارث من بنى المصطلق .

ومن غير العربيات : صفية بنت حيي بن أخطب من بنى النضير . وقد توفي النبي ﷺ عن تسع لوفاة خديجة وزينب بنت خزيمة فى حياته وكان يقسم لثمان . ، بعد أن تنازلت سودة عن ليلتها لعائشة رضى الله عنهن ، ولؤل أزواجه لحوقاً به زينب بنت جحش ، وآخرهن وفاة أم سلمة رضى الله عنهن جميعاً وكان للنبي ﷺ سريتان اختلفت الروايات حول زواج الرسول بهما وهما :

الأولى : مارية بنت شمعون القبطية المصرية ، أهداها له صاحب الإسكندرية واسمه جريج بن مينا ، وكانت جميلة ، بيضاء ، أعجب بها الرسول ﷺ ، وأحبها وحظيت عنده ، ولا سيما بعدما وضعت إبراهيم ولده .

ولما ولدت له إبراهيم غار نساء رسول الله ﷺ ، واشتدت عليهن الغيرة حين صارت بذلك أم ولد حرة فقال رسول الله ﷺ : أعتقها ولدها . وماتت فى المحرم سنة خمس عشرة فصلى عليها عمر ودفنها بالبقيع رحمها الله^(١) .

الثانية : ريحانة بنت زيد المقرظية نسبت لبنى قريظة لتزوجها وإلحداً منهم وليست منهم لأنها عربية وكانت فى سبى بنى قريظة ، وقد سباها النبي ﷺ فى شوال سنة أربع ، وتوفيت سنة عشر ، وصلى عليها عمر بن الخطاب ، ودفنها بالبقيع^(٢) وقيل بل أعتقها النبي ﷺ وفرض عيها الحجاب وتزوجها .

(١) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ١١٢ .

(٢) انظر الطبقات الكبرى ج ٨ ص ١٢٩ : ١٣٢ .

- ثانياً -

الزوجات المختلف فيهن

اختلف المؤرخون ، وعلماء السير فى أخريات خطبهن النبى ﷺ أو تزوج بهن غير المتفق عليهن وهن :

الأولى : أم شريك الواهبة نفسها له ﷺ طلقها قبل أن يدخل بها ، فلم تتزوج حتى ماتت .

الثانية : خولة بنت الهذيل بن هبيرة ، تزوجها ﷺ فهلكت قبل أن تصل إليه .

الثالثة : عمرة بنت يزيد الكلابية ، طلقها ، وأمر أسامة بن زيد فمتعها ثلاثة أثواب .

الرابعة : أسماء بنت النعمان الكندية ، تزوجها فلما دعاها قالت : أعوذ بالله منك ، فقال : عذت بمعاذ ، ثم سرحها إلى أهلها ، وكانت تسمى نفسها الشقية .

الخامسة : مليكة بنت كعب ، ومنهم من ينكر تزويجها .

السادسة : فاطمة بنت الضحاك ، تزوجها ثم فارقها ﷺ ، وقيل : إن أباهما قال إنها لم تصدع قط ، فقال ﷺ : لا حاجة لى بها .

السابعة : العالية بنت ظبيان بن عمرو ، تزوجها ﷺ وكانت عنده ما شاء الله ثم طلقها .

الثامنة : قتيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس الكندى ، زوجه إياها أخوها فى سنة عشر ، ثم انصرف إلى حضر موت فحملها ، فقبض ﷺ قبل قدومه عليه .

التاسعة : سنا بنت الصلت بن حبيب السلمية ، تزوجها ﷺ ، وماتت قبل أن يدخل بها ، وعند ابن إسحاق أنه ﷺ طلقها قبل أن يدخل بها .

العاشرة : شراف بنت خليفة أخت دحية الكلبي ، تزوجها ﷺ فماتت قبل دخوله ﷺ بها .

الحادية عشرة : ليلى بنت الحطيم أخت قيس ، تزوجها ﷺ ، وكانت غيوراً فاستقالته فأقالها ، فأكلها الذئب .

الثانية عشرة : امرأة من بنى غفار تزوجها ﷺ ، فأمرها فنزعت ثيابها فرأى بكشحها بياضاً ، فقال : إلقى بأهلك ، ولم يأخذ مما أتاها شيئاً^(١) .

- ثالثاً -

من خطبها ، أو وهبت نفسها

ولم يتزوجها ﷺ

هناك بعض النسوة ذكر المؤرخون أن رسول الله ﷺ خطبهن ، أو أنهن وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ولم يدخل بهن ، وهن :

الأولى : امرأة من بنى مرة بن عوف خطبها ﷺ إلى أبيها ، فقال أبوها : إن بها برصاً . وهو كاذب . فرجع فوجد البرص بها .

الثانية : امرأة قرشية يقال لها سودة خطبها ﷺ وكانت مصيبة ، فقالت : أخاف أن يضجوا ويبكوا عند رأسك ، فدعا لها وتركها .

الثالثة : صفية بنت بشامة . وكان أصابها فى سبى ، فخيرها بين نفسه الكريمة وبين زوجها ، فاختارت زوجها .

الرابعة : أم هانئ فاختة بنت أبي طالب أخت علي ﷺ ، خطبها ﷺ ، فقالت : إني مصيبة واعتذرت إليه فعذرها .

الخامسة : ضباعة بنت عامر بن قرط ، خطبها إلى ابنها سلمة بن هاشم فقال : حتى استأمرها ، فقيل للنبي ﷺ إنها قد كبرت ، فلما عاد ابنها . وقد أذنت له . سكت عنها ﷺ فلم ينكحها .

السادسة : أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب ، عرضت عليه ﷺ ، فقال : هي ابنة أختي من الرضاعة^(٢) .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ١٢٥ .

(٢) انظر زاد المعاد والطبقات الكبرى ففيهما تفصيل وتوضيح .

المبحث الخامس

رد ما يقال عن تعدد زوجاته ﷺ

يمكن تقسيم حياة النبي الأسرية إلى فترات. أربع عاشها النبي ﷺ بدءاً بزواجه من خديجة رضى الله عنها أولى زوجاته ، وانتهاء بميمونة رضى الله عنها آخر زوجاته حتى وفاته ﷺ ... وهى :

الفترة الأولى :

بدأت. حين تزوج النبي ﷺ السيدة خديجة رضى الله عنها وعمره خمس وعشرون سنة ، واستمرت هذه الفترة حتى وفاة خديجة رضى الله عنها ، وعمره ﷺ خمسون سنة ، وهذه الفترة هى مرحلة شباب النبي ﷺ ومدتها خمس وعشرون سنة

الفترة الثانية :

بدأت بوفاة السيدة خديجة وعمره ﷺ خمسون سنة حيث تزوج ﷺ السيدة سودة بنت زمعة ، وعاش معها أربع سنوات، انتهت بعد الهجرة بعام واحد ، وكان عمره ﷺ أربعاً وخمسين سنة .

الفترة الثالثة :

امتدت ست سنوات ، منذ أن كان عمر النبي ﷺ أربعاً وخمسين سنة ، إلى أن بلغ ستين سنة ، وفيها تزوج النبي ﷺ عدداً من أمهات المؤمنين ، توفى عن تسعة منهن ، وكانت ميمونة آخر من تزوجهن ﷺ .

الفترة الرابعة :

وتمتد من بلوغ النبي ﷺ سن الستين إلى أن توفى ﷺ عندما بلغ ثلاثاً وستين سنة ، وفى هذه الفترة لم يتزوج النبي ﷺ أحداً. حيث حرم الله تعالى عليه الزواج فيها ، وأمره أن لا يستبدل بإحدى زوجاته غيرها .

وحين ندقق النظر فى تعدد زوجات النبي ﷺ ، وبخاصة فى المراحل العمرية المذكورة لرسول الله ﷺ نلاحظ الآتى :

أولاً : أن النبي ﷺ تزوج خديجة رضى الله عنها ، وكانت تكبره بخمس عشرة سنة وعاش معها حتى لقيت ربها وعمرها خمسة وستون عاماً وكان عمر النبي ﷺ وقتها خمسين عاماً .

ثانياً : استمر رسول الله ﷺ مع زوجة واحدة حتى بلغ سنه أربعاً وخمسين سنة ، لأنه تزوج سودة بنت زمعة الأرملة المسنة بعد وفاة خديجة ، ولم يدخل بسواها إلا بعد أربع سنوات من الدخول بسودة ، وذلك بعد تمام الهجرة إلى المدينة المنورة **ثالثاً :** فترة التعدد كانت ستة أعوام ، بعدما بلغ عمر رسول الله ﷺ أربعاً وخمسين ، ودخل في سن الكبر والشيخوخة ، وهى الأعوام التى امتلأت بنزول القرآن ، وبيان الأحكام الشرعية وبناء الدولة المسلمة ، والحركة بالإسلام وسط الناس والقيام بالسرائيا والغزوات ، والاتصال بالعالم الخارجى واستقبال الوفود من كل جهة ، وإرسال الرسائل ، وتبليغ الدعوة عملياً إلى العالم كله .

رابعاً : أن زوجات النبي ﷺ كن ثيبات ، سبق لهن الزواج قبل رسول الله ﷺ إلا عائشة رضى الله عنها . فقد عقد عليها بأمر الله تعالى . وسنها ست سنوات ، ولم يدخل بها ﷺ إلا بعد الهجرة بسنة تقريباً ، وعمرها تسع سنوات رضى الله عنها .

خامساً : لم يعترض أحد من اليهود ، أو من المنافقين أو من كفار مكة على زواج النبي ﷺ مع أنهم كانوا يتربصون به الدوائر ، ولو وجدوا فى زواج الرسول ﷺ لعباً ، أو هوى ، أو مطعناً لأذاعوه ، ونشروه فى العالمين ، لكنهم مع عداوتهم لرسول الله لم يتكلموا فى زواجه ﷺ بل شهدوا له بالعفة والطهر .

وهذه الملاحظات تؤكد لنا حقيقة واضحة ، وهى أن رسول الله ﷺ لم يكن شهوانياً أبداً كما يدعى بعض أعداء الإسلام ، لأنه لو كان شهوانياً لاختار بكرة ، صغيرةً وجميلة فى زواجه الأول . . . ولتزوج معها غيرها وبخاصة أن المجتمع الجاهلى كان يعدد الزوجات بلا حد معين ... وكان النبي ﷺ قبل الرسالة يملك الوقت الذى يمكنه من إشباع شهوته ، بدل أن يضيعه فى الخلاء والبعد عن الناس

ولو كان النبي ﷺ شهوانياً لأوثر عنه اتصال بالغواني والبغايا ، وكان لهن يومذاك دور معروفة ، وكان المجتمع يقر هذا العمل لمن يريده .
لكنه ﷺ لم يكن كذلك وإنما عاش طاهراً عفيفاً ، لم يتهم بريبة ، ولم يرم بخطيئة ، وعاش صادقاً أميناً .

وبعد موت خديجة رضى الله عنها تزوج سودة رضى الله عنها فى مكة وهى الأرملة العجوز ، وعاش معها وحدها أربع سنوات ، وهو رسول الله ﷺ ولو رغب فى أى فتاه عذراء وجميلة ومسلمة لسعدت به ، ولرحب به قومها جميعاً ، لكنه ﷺ تزوج سودة لتعلم الدنيا كلها أن الغاية لم تكن أبداً إشباع شهوة ، أو التمتع المجرد بالأنثى ، أو الانغماس فى الملذات الحسية .

يقول الأستاذ عباس العقاد : قال لنا بعض المستشرقين : إن تسع زوجات لمحمد لدليل على فرط الميل الجنسية .

قلنا له : إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر جنسياً لأنه لم يتزوج قط فلا ينبغى أن تصف محمداً بأنه مفرط جنسياً لأنه جمع بين تسع نساء .
ونحن قبل كل شئ ، لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يتزوج ويتمتع لأنه الفطرة لا عيب فيه .

فحب المرأة وحب الزواج لا معابة فيه ما دام فى إطاره المشروع ، وفى حده المباح .

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن حده ، وحتى يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططاً فى طلابه ، فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة ، يعاب كما يعاب الجور فى جميع الطبائع !!

فمن الذى يعلم حقيقة ما صنع النبي ﷺ فى حياته ، ثم يقع فى روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير ، أو عن عمل صغير ؟!... لم يوجد هذا بعد !!
من من بناء التاريخ قد رأى فى حياته ، أو حدث وبعد مماته ، تاريخ أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية ، والدولة الإسلامية !!؟

ومن ذا الذى يقول عن تراث محمد ﷺ : هذا عمل رجل مشغول بالنساء ؟

عن أى شغلته المرأة ؟

ومتى شغلته ؟

وكيف شغلته ؟

وما هى المهام التى شغلته عنها ؟

وهل أشار أحد معاصريه إلى شئ من هذا ؟

لم يتحدث أحد من المؤرخين أن محمداً شغل المرأة عن رسالته ، ومسئوليته .

ومن ذا. المذى. تفرغ لعمل ما فبلغ فيه شأو. محمد فى مسعاه ؟! ولو كان

تخصصه فى جزئية صغيرة من تاريخ محمد ﷺ الشامل ؟

إن عظمة محمد ﷺ قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ، ويعطى المرأة حقها ،
فالعظمة حينئذ رجحان يشكر ، وليست بنقص يذكر .

وهذا الاستيفاء السليم لكل واجباته ﷺ كمال فى الرجولة ، وفى الأداء ، وفى

السلوك .

ورسالة محمد إذن هى الرسالة التى يفهمها أناس خلقوا للحياة ، ولم يخلقوا

نابذيين لها ، ولا منبوذين منها .

وشريعته إذا هى الشريعة المطلوبة لعامة الناس فى كافة العصور لما يتمتعون

فيها من حلال مشروع .

وأعجب شئ أن يقال عن النبى ﷺ إنه استسلم للذات الحس ، وقد أوشك أن

يطلق نساءه أو وقد خيرهن فى الطلاق ، لأنهن طلبن منه المزيد من النفقة ، وهو

لا يستطيعها .

نساء. محمد يشكون. قلة النفقة وللمزينة . ولو شاء. لأغدق. عليهن النعمة ،

وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات .

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ؟

أما كان يسيراً عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمون لأنهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله ؟

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء ، حتى يقال إنه كان يفرط في ميله إلى النساء ؟

هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه ؟!!

أو هل دفعه إلى نقض العظمة ويخالف ما يحمد من سيرته ؟!!

وهل ألجأه أن يتخصص فيما يرضاه أتباعه ، ولا ينكرونه عليه ؟!!

لم يكلفه شيئاً من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله ، وصغيرها ، ولم نر فيه رجلاً ﷺ تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهرون ، بل رأيناه رجلاً يغلب تلك الملذات في طعامه ، ومعيشته ، وفي ميله إلى نسائه ، فيحفظها بما يملك منها ، ولا يأذن لها أن تسومه ضربية مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسطة قد ينالها أصغر المسلمين ، ولا شك في قدرة النبي عليها لو أراد .

ويزيد في غرابة اتهام النبي بالإفراط الجنسي أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولاً قبل زواجه ولا بعد زواجه ، حتى تتخبط فيه الظنون ذلك التخبط الذريع .

فمحمد كان معروفاً بين الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة .

كان معروفاً من صباه إلى كهولته فلم يعرف عنه أنه استسلم للذات الحس في ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان ، حين كانت الجاهلية تبيح مالا يباح ، بل عرف بالطهر والأمانة ، واشتهر بالجد والرصانة ، وقام بالدعوة بعدها ، فلم يقل أحد من شائنيه والناعين عليه والمنقبين وراءه أهون الهنات .

لم يقل أحد : تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى ، الذي كان من شأنه مع النساء كيت ، وكيت ، يدعوكم اليوم إلى الطهارة ، والعفة ، ونبذ الشهوات ...

كلا لم يقل أحد هذا قط من شائئيه ، وهم عديد لا يحصى ، ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل^(١) .

وهناك من يعترض على تعدد زوجات النبي ﷺ لمجرد التعدد في ذاته ، ويرون ذلك غير لائق بعظماء الرجال .

والمذنبين يقولون- ذلك ضعيفو العقول- بسطاء- المتفكير لأنهم إن- كانوا من الإباحين الذين يعيشون بين الخليلات ، والعاشقات ، والصاحبات ، فهؤلاء لا يصح الالتفات إليهم ، لأن اعتراضهم لا مقياس له ، ولا معقولة فيه ، ولأن الزواج عندهم لا قيمة له وحديثهم هراء لا مصداقية فيه ، ولا معنى له .

وإن كانوا أصحاب دين يقول بالتعدد ، فهم قوم يحرمون على غيرهم ما أباحه دينهم ، ولذلك فإهمالهم أمر عادي ، واعتراضهم مردود عليهم ، وعليهم أن يناقشوا أنفسهم ودينهم في إباحة التعدد .

وإن كانوا من أهل الكتاب (يهود أو نصارى) فإن الحقيقة يجب أن تتضح وهى أن العهد القديم يذكر أن عدداً من الأنبياء عدداً أزواجهم حيث لا عيب في الزواج والتعدد .

إن فرط الرجولة ليس عيباً في الرجل ، بل هو كمال وقوة إذا ظهر ضمن الإطار الذى حدده الله تعالى ، وحافظ على حقوق سائر الأطراف ، وكان عامل خير للمجتمع، وتقدمه^(٢) .

وإن كان العيب في التعدد تكثير النسل ، والمساهمة في الانفجار السكاني . كما يقولون- . فإن الله تعالى قدر- لرسوله ﷺ أن- يموت- وليس له من الأبناء- إلا- فاطمة رضى الله عنها فلقد توفاهم الله تعالى جميعاً في حياة النبي ﷺ ما عدا فاطمة رضى الله عنها .

وإن تصور البعض أن التعدد يضر بالمرأة، فهو معارض بما يحققه التعدد

(١) عبقرية محمد ص ١٣٦ - ١٤٠ بتصرف .

(٢) الإسلام للأستاذ سعيد حوى ص ١٥٧ .

للمرأة من فوائد عديدة^(١) .

والخلاصة هي تأكيد حقيقة براءة النبي ﷺ من كل زيف أشاعه أعداؤه حول زواجه ﷺ .

(١) والأمثلة على فوائد التعدد للمرأة عديدة منها :

- . أن تكون الزوجة عقيماً والرجل يريد الولد ، فإن من الخير لها أن يتزوج ثانية عليها ، وتبقى في رعايته .
- . أن تكون مريضة يرعاها زوجها ، ومن الخير لها أن يتزوج أخرى وتبقى هي في عصمته .
- . أن يملك الرجل طاقة "أى شبقاً" ويحتاج لأكثر من زوجة فزواجه أفضل من ارتكابه الحرام .
- . وحينما يكثر النساء عقب الحروب فإن التعدد هو العلاج لذلك ، وإن لا فسد المجتمع كله .
- إن التعدد في هذه الحالات أكرم للمرأة لتعيش في كنف رجل يرعى حقوقها ، بدل أن تضع في معترك الحياة الضروس ، وهو أكرم للمجتمع حفاظاً على الطهر والفضيلة ، وضماناً لحقوق كل فرد فيه ، وهو أكرم للرجل ليصل ما بينه وبين الناس بذرية صالحة ، وأسرة كريمة حانية .

المبحث السادس

الحكم العامة فى تعدد

زوجات النبی ﷺ

ينطوى زواج النبی ﷺ على حكم بليغة تعم زوجاته جميعاً ، وتظهر مع كل واحدة منهن على حدة ، مما يجعل ذلك التعدد ضرورة لابد منها من عدة زوايا :

أولاً :

محمد رسول الله ﷺ ، وخاتم الرسل أجمعين .

والرسالة بصورة عامة اختيار . إلهى محض .، يختص بها الله بعض عباده ويحيطهم بعنايته ، ويصنعهم لنفسه ، وذلك أمر يؤكد أن زواجه ، وسائر حياته وحى من الله تعالى ، وحينئذ يكون التسليم بتعدد زوجات النبی ﷺ مسألة إيمانية محضة .

فالرسول ﷺ تزوج بأمر الله تعالى له ، يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّاكِ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ * تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُتَوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ (١) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٥٠ ، ٥١ .

لقد أحل الله لرسوله أن يتزوج بما يشاء ، وأن يملك بيمينه ما يشاء ، وعلى الإنسان العاقل أن يسلم بفعل رسول الله في الزواج ، لأنه قدر رباني ، وأمر إلهي ، ولن يضيع الله رسوله أبداً ، ولن يأمره بسوء أبداً .

ففي الآيات يحل الله للنبي أنواع النساء المذكورات فيها ، ولو كن فوق الأربع ، مما هو محرم على غيره ، وهذه الأنواع هي : الأزواج اللواتي أمهرهن ، وما ملكت يمينه إطلاقاً من الفئ ، وبنات أعمامه ، وبنات عماته ، وبنات خاله ، وبنات خالاته ، ممن هاجرن معه ، دون غيرهن ممن لم يهاجرن إكراماً للمهاجرات ، وأيما امرأة وهبت نفسها للنبي بلا مهر ، ولا ولي ، إن أراد النبي نكاحها نكحها .

وقد جعل الله هذه الخصوصية للنبي ﷺ ، أما سائر المسلمون فهم خاضعون لما بينه الله ، وفرضه عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم ، ذلك كي لا يكون على النبي حرج في استبقاء أزواجه ، وفي الاستجابة للظروف الخاصة بشخصه .

ثم ترك الخيار له ﷺ في أن يضم إلى عصمته من شاء.. ممن يعرضن أنفسهن عليه ، أو يؤجل ذلك ، ومن أرجأهن فله أن يعود إليهن حين يشاء ، وله أن يباشر من نسائه من يريد ، ويرجئ من يريد ، ثم يعود ... يقول الله تعالى : ﴿

تُرْجَىٰ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيَّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾^(١) فأوامر الله وتوجيهاته

تراعى الظروف الخاصة المحيطة بشخص الرسول ﷺ والرغبات الموجهة إليه ، والحرص على شرف الاتصال به ، مما يعلمه الله ويدبره بعلمه وحلمه : ﴿ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ .

وعند وصول عمره ﷺ إلى الستين منعه ربه من الزواج ، حيث نزل عليه

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٥١ .

قول الله تعالى : ﴿ لَا سِحْلُ لَكَ الْنِسَاءِ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝ ﴾^(١) .

والآية تحرم على رسول الله ﷺ صراحة أن يتزوج أحداً غير نسائه اللواتي في عصمته ، لا يستبدل بهن غيرهن ، ولم يعرف أن رسول الله قد زاد عليهن بعد هذا التحريم الذي تضمنته الآية .

إذن أمر زواج النبي ﷺ توجيه إلهي محض ، وكان هذا كافياً في الموضوع لأصحاب العقول السليمة .

وهذا يؤكد أن اتهام النبي ﷺ في التعدد هو من فلتات الهوى ، وأمراض النفس ، واعتراض قلوب وعقول لا تعطى للرسالة حقها ، ولا تقدر للرسول ما يجب أن يكون له .

ثانياً :

يريد الله تعالى في تعدد زوجات النبي ﷺ وتنوعه أصلاً ، وسناً ، وحضارة ، أن يتعلم الناس وبخاصة النساء أن الإسلام يصنع وحدة خالصة من المؤمنين ، لا تتأثر بالعوامل المادية ، أو العنصرية ، أو الثقافية ، فزوجات النبي ﷺ منهن العربية ، والقرشية ، واليهودية ، والنصرانية ، والمصرية ، ومنهن من كان أبوها مهاجراً ، ومن كان أبوها كافراً ، ومنهن الجميلة ، والدميمة ، ومنهن الغنية ، والفقيرة أراد الله تعالى أن يحيط هذا الجمع بتوجيهات نبيه ﷺ لتظهر من بينهن الأسوة والقدوة لسائر المؤمنات ، وبخاصة من ينلن الخطوة الدنيوية في بيت الخلافة ، والزعامة والرئاسة ... وحتى لا تتصور مسلمة ما أن علو المكانة يؤدي بها إلى الترفع والاستعلاء على الناس .

لهذا التجمع في بيت النبوة جاءت الأوامر الإلهية .

يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٥٢ .

أَلَدُنِّيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ فِي الْأَخْرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ .

فلقد اختار النبي ﷺ لأهل بيته جميعاً عيشة الكفاف والتقشف ، يمر الشهر والشهران لا يوقد في بيته ﷺ نار ، استعلاء على متاع الدنيا ، ورغبة خالصة فيما عند الله .

لكن نساء النبي ﷺ كن من البشر ، ورغبن في المتعة الدنيوية ، كما يتمتع البشر ، وبخاصة أن الله أفاء على رسوله بالسعة ، والرخاء ، وقد تمتع بها سائر الناس فراجعن الرسول في شأن النفقة ، فحزن الرسول لذلك ، وتألم كثيراً واحتجب عن أصحابه ، ولم يأذن لهم بالدخول لإعلان أسفه وغضبه .

يروى البخارى في صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال : أقبل أبو بكر ﷺ يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس ، فاستأذن فلم يؤذن له .

ثم أذن بعد ذلك لأبى بكر ، وعمر ﷺ فدخلا ، والنبي ﷺ جالس ، وحوله نساؤه ، وهو ﷺ ساكت .

فقال عمر ﷺ : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك .

فقال عمر ﷺ : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد . امرأة عمر . سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها ! فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه .

وقال ﷺ : هن حولى يسألننى النفقة .

فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة ليضربها .

وقام عمر إلى حفصة كذلك .

كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ؟

فنهاهما الرسول ﷺ .

فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢٨ ، ٢٩ .

وأنزل الله عز وجل آيتي الخيار المذكورتين ، فبدأ ﷺ بعائشة رضي الله عنها فقال: إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمرى أبويك .

قالت : وما هو ؟

قال : فتلا عليها الآيات .

قالت عائشة رضي الله عنها : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ، أسألك ألا تذكر لامرأة من نساءك ما اخترت .

فقال ﷺ : إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ، ولكن بعتنى معلماً ميسراً ، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها^(١) .

وفى رواية البخاري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه فبدأ بي رسول الله ﷺ ، فقال : إني أذكر لك أمراً فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمرى أبويك ، وقد علم أن أبوي ، لم يكونا يأمراني بفراقه ثم تلا على الآيات .

فقلت له : أفى هذا أستأمر أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة^(٢) .

لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية في تصور الإسلام للحياة . هذه القيم التي ينبغي أن تجد ترجمتها الحية في بيت النبي ﷺ وحياته الخاصة ولأن تتحقق في أدق صورة ، وأوضحها في هذا البيت الذي كان وسيبقى منارة للمسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ونزلت آيتا التخيير تحددان الطريق ، فإما الحياة الدنيا وزينتها ، وإما الله ورسوله والدار الآخرة . فالقلب الواحد لا يسع تصورين للحياة ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

ونحب أن نقف أمام هذا الحادث نتدبر بعض العبر:

(١) صحيح البخاري-كتاب التفسير . باب «يَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلُوبًا لَّا رُوحَ لَّهُمَا» ج ٧ ص ٣٧٦، ٣٧٥ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب النكاح ج ٧ ص ٣٧٦ ط . الأوقاف .

١ . إنه يحدد. المتصور. الإسلامى الموضح للقيم ،. ويرسم الطريق المشعورى للإحساس بالدنيا والآخرة ، ويحسم فى القلب المسلم كل أرجحة ، وكل لجلجة ، بين قيم الدنيا وقيم الآخرة ، بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء ، ويخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة تحول بينه وبين التجرد لله لأن الخلوص يجب أن يكون له سبحانه وتعالى وحده دون سواه .

٢ . يصور لنا هذا الحادث حقيقة حياة رسول الله ﷺ والذين عاشوا معه واتصلوا به ، وأجمل ما فى هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان وحياة ناس من البشر ، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم ، وسماتهم الإنسانية مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التى ارتفعوا إليها ، ومع هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه . فالمشاعر الإنسانية . والمعواطف البشرية . لم تمت فى تلك النفوس ، ولكنها ارتفعت وصفت من الأوشاب ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة ، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان .

وكثيراً ما نخطئ نحن حين نتصور للنبي ﷺ ، ولصحابته رضوان الله عليهم صورة مجردة فيها من كل المشاعر . والمعواطف البشرية حاسبين أننا نرفعهم بهذا ، وننزهم عما نعدده نحن نقصاً وضعفاً .

وهذا الخطأ يقطع الصلة البشرية بيننا وبينهم ، وتبقى شخوصهم فى أعيننا حسناً فى رقى عال بين تلك الهالات ، أقرب إلى الأطياف التى لا تلمس ، ولا تتماسك فى الأيدي ! ونشعر بهم كما لو كانوا خلقاً آخر غيرنا ... ملائكة ، أو خلقاً مثلهم ، مجردين من مشاعر البشر ، وعواطفهم على كل حال .

ومع شفافية هذه الصورة الخيالية فإنها تبعدهم عن محيطنا ، فلا نعود نتأسى بهم أو نتأثر . يأساً من إمكان التشبه بهم ، أو الاقتداء العملى بهم

فى الحياة ، لأن صورتهم تختلف فى أذهاننا عن الواقع الموجود .

ونفقد بذلك المتجاوب. المحى بيننا وبين هذم الشخصيات. المعظيمة . لأن المتجاوب. إنما يقع نتيجة لشعورنا بأنهم بشر حقيقيون. . عاشوا بعواطف

ومشاعر وانفعالات حقيقية من نوع المشاعر والعواطف والانفعالات التي نعانيها نحن ، ولكنهم ارتقوا بها ، وطهروها من الشوائب التي تخالج مشاعرنا ٣ . اختار الله تعالى رسله من البشر لا من الملائكة ، ولا من أى خلق آخر غير البشر ، كى تبقى الصلة الحقيقية بين حياة الرسل وحياة أتباعهم قائمة ، وكى يحس أتباعهم أن قلوبهم كانت تعمرها عواطف ومشاعر من جنس مشاعر البشر وعواطفهم وإن. صفت ، ورقت ، وارتفعت ، يحبونهم حب الإنسان للإنسان . ، ويطمعون. فى تقليدهم تقليد الإنسان. الصغير للإنسان. الكبير ، ويتعلمون منهم تعلم التلميذ من أستاذه ، وبذلك يكونون أتباعاً مخلصين .

٤ . وفى هذه الحادثة نقف أمام الرغبة الطبيعية فى نفوس. نساء. النبى ﷺ فى المتاع ، كما نقف أمام صورة الحياة البيتية للنبى ﷺ ونسائه رضى الله عنهن وهن أزواج يراجعن زوجهن فى أمر النفقة ! فيؤذيه هذا ، ولكنه لا يقبل من أبى بكر ﷺ وعمر ﷺ أن يضربا عائشة ، وحفصة على هذه المراجعة ، فالمسألة مسألة مشاعر وميول بشرية تظهر وترغب ، ولكنها لا تخدم ولا تكبت ! ويظل الأمر كذلك حتى يأتيه أمر الله بتخيير نسائه، فيخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، اختياراً لا إكراه فيه ، ولا كبت ، ولا ضغط ، فيفرح رسول الله ﷺ بارتفاع قلوب أزواجه إلى هذا الأفق السامى الوضى .

٥ . ونقف كذلك أمام تلك العاطفة البشرية الحلوة ، فى قلب رسول الله ﷺ وهو يحب عائشة حباً ظاهراً، ويحب لها أن ترتفع إلى مستوى القيم التى يريد لها الله له ، ولها ، ولأهل بيته ، فيبدأ بها فى التخيير ، ويريد أن يساعدها على الارتفاع والتجرد ، فيطلب إليها ألا تعجل فى الأمر حتى تستشير أبويها ، وقد علم أنهما لم يكونا يأمرانها بفراقه أبداً ... كما قالت .

وهذه العاطفة الحلوة فى قلب النبى ﷺ لا تخطئ عائشة رضى الله عنها فى إدراكها ، فتسر بها ، وتحفل بتسجيلها فى حديثها ، ومن خلال هذا الحديث يبدو النبى ﷺ إنساناً يحب زوجه الصغير ، ويحب لها أن ترتفع إلى أفقه

الذى يعيش فيه ، وتبقى معه على هذا الأفق ، تشاركه الشعور بالقيم الأصيلة فى حسه ، والتي يريها ربه له ، ولأهل بيته .
كذلك تبدو عائشة رضى الله عنها إنسانة ، يسرها أن تكون مكيئة فى قلب زوجها ، فتسجل بفرح حرصه عليها ، وحبها لها ، ورغبته فى أن تستعين بأبويها على اختيار الأفق الأعلى ، فتبقى معه على هذا الأفق الوضئ ثم نلمح مشاعرها الأنثوية كذلك ، وهى تطلب إليه ألا يخبر أزواجه الأخريات أنها اختارته حين يخيرهن ! حتى تتميز عنهن !

فى هذا المطلب ترغب عائشة رضى الله عنها فى أن يظهر تفردا فى هذا الاختيار ، ويظهر ميزتها على بقية نساءه ، أو على بعضهن فى هذا المقام !
وهنا نلمح عظمة النبوة من جانب آخر فى رد رسول الله ﷺ وهو يقول لها : إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ، ولكن بعثنى معلماً ميسراً . لا تسألنى واحدة منهن عما اخترت إلا أخبرتها .

فهو لا يود أن يحجب عن إحدى نساءه ما قد يعينها على الخير ، ولا يمتحنها امتحان التعمية والتعسير ، بل يقدم العون لكل من تريد العون ، كى ترتفع على نفسها وتتخلص من جواذب الأرض، ومغريات المتاع .
إن نساء النبى ﷺ قدوة مثالية لنساء المؤمنين أجمعين فى كمالهم البشرى وطبيعتهم الفطرية النقية ، ولذا أنزل الله تعالى عنهن فى سورة الأحزاب : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلَ صَلَاحًا تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝ يَنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنَّ أَتَقَاتْنَ فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ ١١ ۝ ١٢ ۝ ١٣ ۝ ١٤ ۝ ١٥ ۝ ١٦ ۝ ١٧ ۝ ١٨ ۝ ١٩ ۝ ٢٠ ۝ ٢١ ۝ ٢٢ ۝ ٢٣ ۝ ٢٤ ۝ ٢٥ ۝ ٢٦ ۝ ٢٧ ۝ ٢٨ ۝ ٢٩ ۝ ٣٠ ۝ ٣١ ۝ ٣٢ ۝ ٣٣ ۝ ٣٤ ۝ ٣٥ ۝ ٣٦ ۝ ٣٧ ۝ ٣٨ ۝ ٣٩ ۝ ٤٠ ۝ ٤١ ۝ ٤٢ ۝ ٤٣ ۝ ٤٤ ۝ ٤٥ ۝ ٤٦ ۝ ٤٧ ۝ ٤٨ ۝ ٤٩ ۝ ٥٠ ۝ ٥١ ۝ ٥٢ ۝ ٥٣ ۝ ٥٤ ۝ ٥٥ ۝ ٥٦ ۝ ٥٧ ۝ ٥٨ ۝ ٥٩ ۝ ٦٠ ۝ ٦١ ۝ ٦٢ ۝ ٦٣ ۝ ٦٤ ۝ ٦٥ ۝ ٦٦ ۝ ٦٧ ۝ ٦٨ ۝ ٦٩ ۝ ٧٠ ۝ ٧١ ۝ ٧٢ ۝ ٧٣ ۝ ٧٤ ۝ ٧٥ ۝ ٧٦ ۝ ٧٧ ۝ ٧٨ ۝ ٧٩ ۝ ٨٠ ۝ ٨١ ۝ ٨٢ ۝ ٨٣ ۝ ٨٤ ۝ ٨٥ ۝ ٨٦ ۝ ٨٧ ۝ ٨٨ ۝ ٨٩ ۝ ٩٠ ۝ ٩١ ۝ ٩٢ ۝ ٩٣ ۝ ٩٤ ۝ ٩٥ ۝ ٩٦ ۝ ٩٧ ۝ ٩٨ ۝ ٩٩ ۝ ١٠٠ ۝ ١٠١ ۝ ١٠٢ ۝ ١٠٣ ۝ ١٠٤ ۝ ١٠٥ ۝ ١٠٦ ۝ ١٠٧ ۝ ١٠٨ ۝ ١٠٩ ۝ ١١٠ ۝ ١١١ ۝ ١١٢ ۝ ١١٣ ۝ ١١٤ ۝ ١١٥ ۝ ١١٦ ۝ ١١٧ ۝ ١١٨ ۝ ١١٩ ۝ ١٢٠ ۝ ١٢١ ۝ ١٢٢ ۝ ١٢٣ ۝ ١٢٤ ۝ ١٢٥ ۝ ١٢٦ ۝ ١٢٧ ۝ ١٢٨ ۝ ١٢٩ ۝ ١٣٠ ۝ ١٣١ ۝ ١٣٢ ۝ ١٣٣ ۝ ١٣٤ ۝ ١٣٥ ۝ ١٣٦ ۝ ١٣٧ ۝ ١٣٨ ۝ ١٣٩ ۝ ١٤٠ ۝ ١٤١ ۝ ١٤٢ ۝ ١٤٣ ۝ ١٤٤ ۝ ١٤٥ ۝ ١٤٦ ۝ ١٤٧ ۝ ١٤٨ ۝ ١٤٩ ۝ ١٥٠ ۝ ١٥١ ۝ ١٥٢ ۝ ١٥٣ ۝ ١٥٤ ۝ ١٥٥ ۝ ١٥٦ ۝ ١٥٧ ۝ ١٥٨ ۝ ١٥٩ ۝ ١٦٠ ۝ ١٦١ ۝ ١٦٢ ۝ ١٦٣ ۝ ١٦٤ ۝ ١٦٥ ۝ ١٦٦ ۝ ١٦٧ ۝ ١٦٨ ۝ ١٦٩ ۝ ١٧٠ ۝ ١٧١ ۝ ١٧٢ ۝ ١٧٣ ۝ ١٧٤ ۝ ١٧٥ ۝ ١٧٦ ۝ ١٧٧ ۝ ١٧٨ ۝ ١٧٩ ۝ ١٨٠ ۝ ١٨١ ۝ ١٨٢ ۝ ١٨٣ ۝ ١٨٤ ۝ ١٨٥ ۝ ١٨٦ ۝ ١٨٧ ۝ ١٨٨ ۝ ١٨٩ ۝ ١٩٠ ۝ ١٩١ ۝ ١٩٢ ۝ ١٩٣ ۝ ١٩٤ ۝ ١٩٥ ۝ ١٩٦ ۝ ١٩٧ ۝ ١٩٨ ۝ ١٩٩ ۝ ٢٠٠ ۝ ٢٠١ ۝ ٢٠٢ ۝ ٢٠٣ ۝ ٢٠٤ ۝ ٢٠٥ ۝ ٢٠٦ ۝ ٢٠٧ ۝ ٢٠٨ ۝ ٢٠٩ ۝ ٢١٠ ۝ ٢١١ ۝ ٢١٢ ۝ ٢١٣ ۝ ٢١٤ ۝ ٢١٥ ۝ ٢١٦ ۝ ٢١٧ ۝ ٢١٨ ۝ ٢١٩ ۝ ٢٢٠ ۝ ٢٢١ ۝ ٢٢٢ ۝ ٢٢٣ ۝ ٢٢٤ ۝ ٢٢٥ ۝ ٢٢٦ ۝ ٢٢٧ ۝ ٢٢٨ ۝ ٢٢٩ ۝ ٢٣٠ ۝ ٢٣١ ۝ ٢٣٢ ۝ ٢٣٣ ۝ ٢٣٤ ۝ ٢٣٥ ۝ ٢٣٦ ۝ ٢٣٧ ۝ ٢٣٨ ۝ ٢٣٩ ۝ ٢٤٠ ۝ ٢٤١ ۝ ٢٤٢ ۝ ٢٤٣ ۝ ٢٤٤ ۝ ٢٤٥ ۝ ٢٤٦ ۝ ٢٤٧ ۝ ٢٤٨ ۝ ٢٤٩ ۝ ٢٥٠ ۝ ٢٥١ ۝ ٢٥٢ ۝ ٢٥٣ ۝ ٢٥٤ ۝ ٢٥٥ ۝ ٢٥٦ ۝ ٢٥٧ ۝ ٢٥٨ ۝ ٢٥٩ ۝ ٢٦٠ ۝ ٢٦١ ۝ ٢٦٢ ۝ ٢٦٣ ۝ ٢٦٤ ۝ ٢٦٥ ۝ ٢٦٦ ۝ ٢٦٧ ۝ ٢٦٨ ۝ ٢٦٩ ۝ ٢٧٠ ۝ ٢٧١ ۝ ٢٧٢ ۝ ٢٧٣ ۝ ٢٧٤ ۝ ٢٧٥ ۝ ٢٧٦ ۝ ٢٧٧ ۝ ٢٧٨ ۝ ٢٧٩ ۝ ٢٨٠ ۝ ٢٨١ ۝ ٢٨٢ ۝ ٢٨٣ ۝ ٢٨٤ ۝ ٢٨٥ ۝ ٢٨٦ ۝ ٢٨٧ ۝ ٢٨٨ ۝ ٢٨٩ ۝ ٢٩٠ ۝ ٢٩١ ۝ ٢٩٢ ۝ ٢٩٣ ۝ ٢٩٤ ۝ ٢٩٥ ۝ ٢٩٦ ۝ ٢٩٧ ۝ ٢٩٨ ۝ ٢٩٩ ۝ ٣٠٠ ۝ ٣٠١ ۝ ٣٠٢ ۝ ٣٠٣ ۝ ٣٠٤ ۝ ٣٠٥ ۝ ٣٠٦ ۝ ٣٠٧ ۝ ٣٠٨ ۝ ٣٠٩ ۝ ٣١٠ ۝ ٣١١ ۝ ٣١٢ ۝ ٣١٣ ۝ ٣١٤ ۝ ٣١٥ ۝ ٣١٦ ۝ ٣١٧ ۝ ٣١٨ ۝ ٣١٩ ۝ ٣٢٠ ۝ ٣٢١ ۝ ٣٢٢ ۝ ٣٢٣ ۝ ٣٢٤ ۝ ٣٢٥ ۝ ٣٢٦ ۝ ٣٢٧ ۝ ٣٢٨ ۝ ٣٢٩ ۝ ٣٣٠ ۝ ٣٣١ ۝ ٣٣٢ ۝ ٣٣٣ ۝ ٣٣٤ ۝ ٣٣٥ ۝ ٣٣٦ ۝ ٣٣٧ ۝ ٣٣٨ ۝ ٣٣٩ ۝ ٣٤٠ ۝ ٣٤١ ۝ ٣٤٢ ۝ ٣٤٣ ۝ ٣٤٤ ۝ ٣٤٥ ۝ ٣٤٦ ۝ ٣٤٧ ۝ ٣٤٨ ۝ ٣٤٩ ۝ ٣٥٠ ۝ ٣٥١ ۝ ٣٥٢ ۝ ٣٥٣ ۝ ٣٥٤ ۝ ٣٥٥ ۝ ٣٥٦ ۝ ٣٥٧ ۝ ٣٥٨ ۝ ٣٥٩ ۝ ٣٦٠ ۝ ٣٦١ ۝ ٣٦٢ ۝ ٣٦٣ ۝ ٣٦٤ ۝ ٣٦٥ ۝ ٣٦٦ ۝ ٣٦٧ ۝ ٣٦٨ ۝ ٣٦٩ ۝ ٣٧٠ ۝ ٣٧١ ۝ ٣٧٢ ۝ ٣٧٣ ۝ ٣٧٤ ۝ ٣٧٥ ۝ ٣٧٦ ۝ ٣٧٧ ۝ ٣٧٨ ۝ ٣٧٩ ۝ ٣٨٠ ۝ ٣٨١ ۝ ٣٨٢ ۝ ٣٨٣ ۝ ٣٨٤ ۝ ٣٨٥ ۝ ٣٨٦ ۝ ٣٨٧ ۝ ٣٨٨ ۝ ٣٨٩ ۝ ٣٩٠ ۝ ٣٩١ ۝ ٣٩٢ ۝ ٣٩٣ ۝ ٣٩٤ ۝ ٣٩٥ ۝ ٣٩٦ ۝ ٣٩٧ ۝ ٣٩٨ ۝ ٣٩٩ ۝ ٤٠٠ ۝ ٤٠١ ۝ ٤٠٢ ۝ ٤٠٣ ۝ ٤٠٤ ۝ ٤٠٥ ۝ ٤٠٦ ۝ ٤٠٧ ۝ ٤٠٨ ۝ ٤٠٩ ۝ ٤١٠ ۝ ٤١١ ۝ ٤١٢ ۝ ٤١٣ ۝ ٤١٤ ۝ ٤١٥ ۝ ٤١٦ ۝ ٤١٧ ۝ ٤١٨ ۝ ٤١٩ ۝ ٤٢٠ ۝ ٤٢١ ۝ ٤٢٢ ۝ ٤٢٣ ۝ ٤٢٤ ۝ ٤٢٥ ۝ ٤٢٦ ۝ ٤٢٧ ۝ ٤٢٨ ۝ ٤٢٩ ۝ ٤٣٠ ۝ ٤٣١ ۝ ٤٣٢ ۝ ٤٣٣ ۝ ٤٣٤ ۝ ٤٣٥ ۝ ٤٣٦ ۝ ٤٣٧ ۝ ٤٣٨ ۝ ٤٣٩ ۝ ٤٤٠ ۝ ٤٤١ ۝ ٤٤٢ ۝ ٤٤٣ ۝ ٤٤٤ ۝ ٤٤٥ ۝ ٤٤٦ ۝ ٤٤٧ ۝ ٤٤٨ ۝ ٤٤٩ ۝ ٤٥٠ ۝ ٤٥١ ۝ ٤٥٢ ۝ ٤٥٣ ۝ ٤٥٤ ۝ ٤٥٥ ۝ ٤٥٦ ۝ ٤٥٧ ۝ ٤٥٨ ۝ ٤٥٩ ۝ ٤٦٠ ۝ ٤٦١ ۝ ٤٦٢ ۝ ٤٦٣ ۝ ٤٦٤ ۝ ٤٦٥ ۝ ٤٦٦ ۝ ٤٦٧ ۝ ٤٦٨ ۝ ٤٦٩ ۝ ٤٧٠ ۝ ٤٧١ ۝ ٤٧٢ ۝ ٤٧٣ ۝ ٤٧٤ ۝ ٤٧٥ ۝ ٤٧٦ ۝ ٤٧٧ ۝ ٤٧٨ ۝ ٤٧٩ ۝ ٤٨٠ ۝ ٤٨١ ۝ ٤٨٢ ۝ ٤٨٣ ۝ ٤٨٤ ۝ ٤٨٥ ۝ ٤٨٦ ۝ ٤٨٧ ۝ ٤٨٨ ۝ ٤٨٩ ۝ ٤٩٠ ۝ ٤٩١ ۝ ٤٩٢ ۝ ٤٩٣ ۝ ٤٩٤ ۝ ٤٩٥ ۝ ٤٩٦ ۝ ٤٩٧ ۝ ٤٩٨ ۝ ٤٩٩ ۝ ٥٠٠ ۝ ٥٠١ ۝ ٥٠٢ ۝ ٥٠٣ ۝ ٥٠٤ ۝ ٥٠٥ ۝ ٥٠٦ ۝ ٥٠٧ ۝ ٥٠٨ ۝ ٥٠٩ ۝ ٥١٠ ۝ ٥١١ ۝ ٥١٢ ۝ ٥١٣ ۝ ٥١٤ ۝ ٥١٥ ۝ ٥١٦ ۝ ٥١٧ ۝ ٥١٨ ۝ ٥١٩ ۝ ٥٢٠ ۝ ٥٢١ ۝ ٥٢٢ ۝ ٥٢٣ ۝ ٥٢٤ ۝ ٥٢٥ ۝ ٥٢٦ ۝ ٥٢٧ ۝ ٥٢٨ ۝ ٥٢٩ ۝ ٥٣٠ ۝ ٥٣١ ۝ ٥٣٢ ۝ ٥٣٣ ۝ ٥٣٤ ۝ ٥٣٥ ۝ ٥٣٦ ۝ ٥٣٧ ۝ ٥٣٨ ۝ ٥٣٩ ۝ ٥٤٠ ۝ ٥٤١ ۝ ٥٤٢ ۝ ٥٤٣ ۝ ٥٤٤ ۝ ٥٤٥ ۝ ٥٤٦ ۝ ٥٤٧ ۝ ٥٤٨ ۝ ٥٤٩ ۝ ٥٥٠ ۝ ٥٥١ ۝ ٥٥٢ ۝ ٥٥٣ ۝ ٥٥٤ ۝ ٥٥٥ ۝ ٥٥٦ ۝ ٥٥٧ ۝ ٥٥٨ ۝ ٥٥٩ ۝ ٥٦٠ ۝ ٥٦١ ۝ ٥٦٢ ۝ ٥٦٣ ۝ ٥٦٤ ۝ ٥٦٥ ۝ ٥٦٦ ۝ ٥٦٧ ۝ ٥٦٨ ۝ ٥٦٩ ۝ ٥٧٠ ۝ ٥٧١ ۝ ٥٧٢ ۝ ٥٧٣ ۝ ٥٧٤ ۝ ٥٧٥ ۝ ٥٧٦ ۝ ٥٧٧ ۝ ٥٧٨ ۝ ٥٧٩ ۝ ٥٨٠ ۝ ٥٨١ ۝ ٥٨٢ ۝ ٥٨٣ ۝ ٥٨٤ ۝ ٥٨٥ ۝ ٥٨٦ ۝ ٥٨٧ ۝ ٥٨٨ ۝ ٥٨٩ ۝ ٥٩٠ ۝ ٥٩١ ۝ ٥٩٢ ۝ ٥٩٣ ۝ ٥٩٤ ۝ ٥٩٥ ۝ ٥٩٦ ۝ ٥٩٧ ۝ ٥٩٨ ۝ ٥٩٩ ۝ ٦٠٠ ۝ ٦٠١ ۝ ٦٠٢ ۝ ٦٠٣ ۝ ٦٠٤ ۝ ٦٠٥ ۝ ٦٠٦ ۝ ٦٠٧ ۝ ٦٠٨ ۝ ٦٠٩ ۝ ٦١٠ ۝ ٦١١ ۝ ٦١٢ ۝ ٦١٣ ۝ ٦١٤ ۝ ٦١٥ ۝ ٦١٦ ۝ ٦١٧ ۝ ٦١٨ ۝ ٦١٩ ۝ ٦٢٠ ۝ ٦٢١ ۝ ٦٢٢ ۝ ٦٢٣ ۝ ٦٢٤ ۝ ٦٢٥ ۝ ٦٢٦ ۝ ٦٢٧ ۝ ٦٢٨ ۝ ٦٢٩ ۝ ٦٣٠ ۝ ٦٣١ ۝ ٦٣٢ ۝ ٦٣٣ ۝ ٦٣٤ ۝ ٦٣٥ ۝ ٦٣٦ ۝ ٦٣٧ ۝ ٦٣٨ ۝ ٦٣٩ ۝ ٦٤٠ ۝ ٦٤١ ۝ ٦٤٢ ۝ ٦٤٣ ۝ ٦٤٤ ۝ ٦٤٥ ۝ ٦٤٦ ۝ ٦٤٧ ۝ ٦٤٨ ۝ ٦٤٩ ۝ ٦٥٠ ۝ ٦٥١ ۝ ٦٥٢ ۝ ٦٥٣ ۝ ٦٥٤ ۝ ٦٥٥ ۝ ٦٥٦ ۝ ٦٥٧ ۝ ٦٥٨ ۝ ٦٥٩ ۝ ٦٦٠ ۝ ٦٦١ ۝ ٦٦٢ ۝ ٦٦٣ ۝ ٦٦٤ ۝ ٦٦٥ ۝ ٦٦٦ ۝ ٦٦٧ ۝ ٦٦٨ ۝ ٦٦٩ ۝ ٦٧٠ ۝ ٦٧١ ۝ ٦٧٢ ۝ ٦٧٣ ۝ ٦٧٤ ۝ ٦٧٥ ۝ ٦٧٦ ۝ ٦٧٧ ۝ ٦٧٨ ۝ ٦٧٩ ۝ ٦٨٠ ۝ ٦٨١ ۝ ٦٨٢ ۝ ٦٨٣ ۝ ٦٨٤ ۝ ٦٨٥ ۝ ٦٨٦ ۝ ٦٨٧ ۝ ٦٨٨ ۝ ٦٨٩ ۝ ٦٩٠ ۝ ٦٩١ ۝ ٦٩٢ ۝ ٦٩٣ ۝ ٦٩٤ ۝ ٦٩٥ ۝ ٦٩٦ ۝ ٦٩٧ ۝ ٦٩٨ ۝ ٦٩٩ ۝ ٧٠٠ ۝ ٧٠١ ۝ ٧٠٢ ۝ ٧٠٣ ۝ ٧٠٤ ۝ ٧٠٥ ۝ ٧٠٦ ۝ ٧٠٧ ۝ ٧٠٨ ۝ ٧٠٩ ۝ ٧١٠ ۝ ٧١١ ۝ ٧١٢ ۝ ٧١٣ ۝ ٧١٤ ۝ ٧١٥ ۝ ٧١٦ ۝ ٧١٧ ۝ ٧١٨ ۝ ٧١٩ ۝ ٧٢٠ ۝ ٧٢١ ۝ ٧٢٢ ۝ ٧٢٣ ۝ ٧٢٤ ۝ ٧٢٥ ۝ ٧٢٦ ۝ ٧٢٧ ۝ ٧٢٨ ۝ ٧٢٩ ۝ ٧٣٠ ۝ ٧٣١ ۝ ٧٣٢ ۝ ٧٣٣ ۝ ٧٣٤ ۝ ٧٣٥ ۝ ٧٣٦ ۝ ٧٣٧ ۝ ٧٣٨ ۝ ٧٣٩ ۝ ٧٤٠ ۝ ٧٤١ ۝ ٧٤٢ ۝ ٧٤٣ ۝ ٧٤٤ ۝ ٧٤٥ ۝ ٧٤٦ ۝ ٧٤٧ ۝ ٧٤٨ ۝ ٧٤٩ ۝ ٧٥٠ ۝ ٧٥١ ۝ ٧٥٢ ۝ ٧٥٣ ۝ ٧٥٤ ۝ ٧٥٥ ۝ ٧٥٦ ۝ ٧٥٧ ۝ ٧٥٨ ۝ ٧٥٩ ۝ ٧٦٠ ۝ ٧٦١ ۝ ٧٦٢ ۝ ٧٦٣ ۝ ٧٦٤ ۝ ٧٦٥ ۝ ٧٦٦ ۝ ٧٦٧ ۝ ٧٦٨ ۝ ٧٦٩ ۝ ٧٧٠ ۝ ٧٧١ ۝ ٧٧٢ ۝ ٧٧٣ ۝ ٧٧٤ ۝ ٧٧٥ ۝ ٧٧٦ ۝ ٧٧٧ ۝ ٧٧٨ ۝ ٧٧٩ ۝ ٧٨٠ ۝ ٧٨١ ۝ ٧٨٢ ۝ ٧٨٣ ۝ ٧٨٤ ۝ ٧٨٥ ۝ ٧٨٦ ۝ ٧٨٧ ۝ ٧٨٨ ۝ ٧٨٩ ۝ ٧٩٠ ۝ ٧٩١ ۝ ٧٩٢ ۝ ٧٩٣ ۝ ٧٩٤ ۝ ٧٩٥ ۝ ٧٩٦ ۝ ٧٩٧ ۝ ٧٩٨ ۝ ٧٩٩ ۝ ٨٠٠ ۝ ٨٠١ ۝ ٨٠٢ ۝ ٨٠٣ ۝ ٨٠٤ ۝ ٨٠٥ ۝ ٨٠٦ ۝ ٨٠٧ ۝ ٨٠٨ ۝ ٨٠٩ ۝ ٨١٠ ۝ ٨١١ ۝ ٨١٢ ۝ ٨١٣ ۝ ٨١٤ ۝ ٨١٥ ۝ ٨١٦ ۝ ٨١٧ ۝ ٨١٨ ۝ ٨١٩ ۝ ٨٢٠ ۝ ٨٢١ ۝ ٨٢٢ ۝ ٨٢٣ ۝ ٨٢٤ ۝ ٨٢٥ ۝ ٨٢٦ ۝ ٨٢٧ ۝ ٨٢٨ ۝ ٨٢٩ ۝ ٨٣٠ ۝ ٨٣١ ۝ ٨٣٢ ۝ ٨٣٣ ۝ ٨٣٤ ۝ ٨٣٥ ۝ ٨٣٦ ۝ ٨٣٧ ۝ ٨٣٨ ۝ ٨٣٩ ۝ ٨٤٠ ۝ ٨٤١ ۝ ٨٤٢ ۝ ٨٤٣ ۝ ٨٤٤ ۝ ٨٤٥ ۝ ٨٤٦ ۝ ٨٤٧ ۝ ٨٤٨ ۝ ٨٤٩ ۝ ٨٥٠ ۝ ٨٥١ ۝ ٨٥٢ ۝ ٨٥٣ ۝ ٨٥٤ ۝ ٨٥٥ ۝ ٨٥٦ ۝ ٨٥٧ ۝ ٨٥٨ ۝ ٨٥٩ ۝ ٨٦٠ ۝ ٨٦١ ۝ ٨٦٢ ۝ ٨٦٣ ۝ ٨٦٤ ۝ ٨٦٥ ۝ ٨٦٦ ۝ ٨٦٧ ۝ ٨٦٨ ۝ ٨٦٩ ۝ ٨٧٠ ۝ ٨٧١ ۝ ٨٧٢ ۝ ٨٧٣ ۝ ٨٧٤ ۝ ٨٧٥ ۝ ٨٧٦ ۝ ٨٧٧ ۝ ٨٧٨ ۝ ٨٧٩ ۝ ٨٨٠ ۝ ٨٨١ ۝ ٨٨٢ ۝ ٨٨٣ ۝ ٨٨٤ ۝ ٨٨٥ ۝ ٨٨٦ ۝ ٨٨٧ ۝ ٨٨٨ ۝ ٨٨٩ ۝ ٨٩٠ ۝ ٨٩١ ۝ ٨٩٢ ۝ ٨٩٣ ۝ ٨٩٤ ۝ ٨٩٥ ۝ ٨٩٦ ۝ ٨٩٧ ۝ ٨٩٨ ۝ ٨٩٩ ۝ ٩٠٠ ۝ ٩٠١ ۝ ٩٠٢ ۝ ٩٠٣ ۝ ٩٠٤ ۝ ٩٠٥ ۝ ٩٠٦ ۝ ٩٠٧ ۝ ٩٠٨ ۝ ٩٠٩ ۝ ٩١٠ ۝ ٩١١ ۝ ٩١٢ ۝ ٩١٣ ۝ ٩١٤ ۝ ٩١٥ ۝ ٩١٦ ۝ ٩١٧ ۝ ٩١٨ ۝ ٩١٩ ۝ ٩٢٠ ۝ ٩٢١ ۝ ٩٢٢ ۝ ٩٢٣ ۝ ٩٢٤ ۝ ٩٢٥ ۝ ٩٢٦ ۝ ٩٢٧ ۝ ٩٢٨ ۝ ٩٢٩ ۝ ٩٣٠ ۝ ٩٣١ ۝ ٩٣٢ ۝ ٩٣٣ ۝ ٩٣٤ ۝ ٩٣٥ ۝ ٩٣٦ ۝ ٩٣٧ ۝ ٩٣٨ ۝ ٩٣٩ ۝ ٩٤٠ ۝ ٩٤١ ۝ ٩٤٢ ۝ ٩٤٣ ۝ ٩٤٤ ۝ ٩٤٥ ۝ ٩٤٦ ۝ ٩٤٧ ۝ ٩٤٨ ۝ ٩٤٩ ۝ ٩٥٠ ۝ ٩٥١ ۝ ٩٥٢ ۝ ٩٥٣ ۝ ٩٥٤ ۝ ٩٥٥ ۝ ٩٥٦ ۝ ٩٥٧ ۝ ٩٥٨ ۝ ٩٥٩ ۝ ٩٦٠ ۝ ٩٦١ ۝ ٩٦٢ ۝ ٩٦٣ ۝ ٩٦٤ ۝ ٩٦٥ ۝ ٩٦٦ ۝ ٩٦٧ ۝ ٩٦٨ ۝ ٩٦٩ ۝ ٩٧٠ ۝ ٩٧١ ۝ ٩٧٢ ۝ ٩٧٣ ۝ ٩٧٤ ۝ ٩٧٥ ۝ ٩٧٦ ۝ ٩٧٧ ۝ ٩٧٨ ۝ ٩٧٩ ۝ ٩٨٠ ۝ ٩٨١ ۝ ٩٨٢ ۝ ٩٨٣ ۝ ٩٨٤ ۝ ٩٨٥ ۝ ٩٨٦ ۝ ٩٨٧ ۝ ٩٨٨ ۝ ٩٨٩ ۝ ٩٩٠ ۝ ٩٩١ ۝ ٩٩٢ ۝ ٩٩٣ ۝ ٩٩٤ ۝ ٩٩٥ ۝ ٩٩٦ ۝ ٩٩٧ ۝ ٩٩٨ ۝ ٩٩٩ ۝ ١٠٠٠ ۝ ١٠٠١ ۝ ١٠٠٢ ۝ ١٠٠٣ ۝ ١٠٠٤ ۝ ١٠٠٥ ۝ ١٠٠٦ ۝ ١٠٠٧ ۝ ١٠٠٨ ۝ ١٠٠٩ ۝ ١٠١٠ ۝ ١٠١١ ۝ ١٠١٢ ۝ ١٠١٣ ۝ ١٠١٤ ۝ ١٠١٥ ۝ ١٠١٦ ۝ ١٠١٧ ۝ ١٠١٨ ۝ ١٠١٩ ۝ ١٠٢٠ ۝ ١٠٢١ ۝ ١٠٢٢ ۝ ١٠٢٣ ۝ ١٠٢٤ ۝ ١٠٢٥ ۝ ١٠٢٦ ۝ ١٠٢٧ ۝ ١٠٢٨ ۝ ١٠٢٩ ۝ ١٠٣٠ ۝ ١٠٣١ ۝ ١٠٣٢ ۝ ١٠٣٣ ۝ ١٠٣٤ ۝ ١٠٣٥ ۝ ١٠٣٦ ۝ ١٠٣٧ ۝ ١٠٣٨ ۝ ١٠٣٩ ۝ ١٠٤٠ ۝ ١٠٤١ ۝ ١٠٤٢ ۝ ١٠٤٣ ۝ ١٠٤٤ ۝ ١٠٤٥ ۝ ١٠٤٦ ۝ ١٠٤٧ ۝ ١٠٤٨ ۝ ١٠٤٩ ۝ ١٠٥٠ ۝ ١٠٥١ ۝ ١٠٥٢ ۝ ١٠٥٣ ۝ ١٠٥٤ ۝ ١٠٥٥ ۝ ١٠٥٦ ۝ ١٠٥٧ ۝ ١٠٥٨ ۝ ١٠٥٩ ۝ ١٠٦٠ ۝ ١٠٦١ ۝ ١٠٦٢ ۝ ١٠٦٣ ۝ ١٠٦٤ ۝ ١٠٦٥ ۝ ١٠٦٦ ۝ ١٠٦٧ ۝ ١٠٦٨ ۝ ١٠٦٩ ۝ ١٠٧٠ ۝ ١٠٧١ ۝ ١٠٧٢ ۝ ١٠٧٣ ۝ ١٠٧٤ ۝ ١٠٧٥ ۝ ١٠٧٦ ۝ ١٠٧٧ ۝ ١٠٧٨ ۝ ١٠٧٩ ۝ ١٠٨٠ ۝ ١٠٨١ ۝ ١٠٨٢ ۝ ١٠٨٣ ۝ ١٠٨٤ ۝ ١٠٨٥ ۝ ١٠٨٦ ۝ ١٠٨٧ ۝ ١٠٨٨ ۝ ١٠٨٩ ۝ ١٠٩٠ ۝ ١٠٩١ ۝ ١٠٩٢ ۝ ١٠٩٣ ۝ ١٠٩٤ ۝ ١٠٩٥ ۝ ١٠٩٦ ۝ ١٠٩٧ ۝ ١٠٩٨ ۝ ١٠٩٩ ۝ ١١٠٠ ۝ ١١٠١ ۝ ١١٠٢ ۝ ١١٠٣ ۝ ١١٠٤ ۝ ١١٠٥ ۝ ١١٠٦ ۝ ١١٠٧ ۝ ١١٠٨ ۝ ١١٠٩ ۝ ١١١٠ ۝ ١١١١ ۝ ١١١٢ ۝ ١١١٣ ۝ ١١١٤ ۝ ١١١٥ ۝ ١١١٦ ۝ ١١١٧ ۝ ١١١٨ ۝ ١١١٩ ۝ ١١٢٠ ۝ ١١٢١ ۝ ١١٢٢ ۝ ١١٢٣ ۝ ١١٢٤ ۝ ١١٢٥ ۝ ١١٢٦ ۝ ١١٢٧ ۝ ١١٢٨ ۝ ١١٢٩ ۝ ١١٣٠ ۝ ١١٣١ ۝ ١١٣٢ ۝ ١١٣٣ ۝ ١١٣٤ ۝ ١١٣٥ ۝ ١١٣٦ ۝ ١١٣٧ ۝ ١١٣٨ ۝ ١١٣٩ ۝ ١١٤٠ ۝ ١١٤١ ۝ ١١٤٢ ۝ ١١٤٣ ۝ ١١٤٤ ۝ ١١٤٥ ۝ ١١٤٦ ۝ ١١٤٧ ۝ ١١٤٨ ۝ ١١٤٩ ۝ ١١٥٠ ۝ ١١٥١ ۝ ١١٥٢ ۝ ١١٥٣ ۝ ١١٥٤ ۝ ١١٥٥ ۝ ١١٥٦ ۝ ١١٥٧ ۝ ١١٥٨ ۝ ١١٥٩ ۝ ١١٦٠ ۝ ١١٦١ ۝ ١١٦٢ ۝ ١١٦٣ ۝ ١١٦٤ ۝ ١١٦٥ ۝ ١١٦٦ ۝ ١١٦٧ ۝ ١١٦٨ ۝ ١١

، وإن استقم ، وأطعن ضوعف لهن ، وعليهن أن يطعن الله ورسوله فيما يوحه إليهن ، وإلى المسلمات من تشريع .

ينهاهن سبحانه وتعالى حين يخاطبن الأعراب من الرجال . أن يكن في نبراتهن ذلك الخضوع اللين ، الذى يثير شهوات الرجال ، ويحرك غرائزهم ، ويغرى مرضى القلوب ، ويهيج رغائبهم .

ونهاهن من قبل عن النبوة اللينة ، واللهجة الخاضعة ، وأمرهن مع هذه أن يكون حديثهن فى أمور معروفة ، غير منكرة ، فإن موضوع الحديث قد يطمع مثل لهجة الحديث ، فلا ينبغى أن يكون بين المرأة والرجل الغرب لحن ، ولا إيماء ، ولا هذر ، ولا هزل ، ولا دعاية ، ولا مزاح . حتى لا يكون مدخلا إلى شئ آخر وراءه من قريب ، أو من بعيد .

وأمرهن الله أيضاً بالمكث فى البيت لا يخرجن إلا لضرورة .

كما نهاهن عن تبرج الجاهلية إذا خرجن .

وأمرهن بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله ليعشن فى طهارة دائمة ، وعفه نقية تتلاءم مع بيت النبوة يقول الله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (١) .

إن بيت النبوة هو موطن نزول الوحي ، وعلى أمهات المؤمنين أن يعرفن ذلك ، ويتأهلن له ، وليذكرن ما ينزل الوحي به فى بيوتهن من قرآن ، أو من سنة ، ليأخذ من يأتى بعدهم منهن فهن القدوة ، وبهن يكون الاتباع .

ثالثاً :

لقد جاء الإسلام بنظم كاملة تحتاج إليها النسوة فى حياتهن العامة ، والخاصة ، ولا بد لهذه النظم أن تعرف ، وتهضم ، لتنتقل إلى الأجيال القادمة واضحة بينة ، ولقد قامت أمهات المؤمنين بتبليغ الإسلام بصورة حسنة ، وبخاصة لأخواتهن المؤمنات ، وإذا تأملنا فى مرويات أمهات المؤمنين ، والفتاوى التى نقلناها إلى

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .

غيرهن ، لعلنا ضرورة تعدد زوجات النبي ﷺ ليتمكن من تحمل هذه المسئولية التي كلفوا بها في قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾^(١).

لقد كان الصحابة ، والتابعون يقصدون أمهات المؤمنين لأخذ حديث ، أو تصحيح آية ، أو معرفة حكم شرعي عرفنه واحدة منهن من رسول الله ﷺ وكان البعض يقصد أزواج النبي ﷺ لمعرفة أحوال النبي ﷺ وعبادته ، ومعيشته كهؤلاء نفر الذين جاءوا إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها .

فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا فإنني أصلي الليل أبداً .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً .

فجاء رسول الله ﷺ فقال : أنت الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء تلك سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني^(٢) .

يروى الترمذي بسند صحيح . أبي موسى الأشعري : ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً^(٣) .

رابعاً :

كان زواج النبي ﷺ المتعدد حلاً لا بد منه في بعض الحالات :

فأم سلمة المخزومية بنت سيد بنى مخزوم ، المهاجرة إلى الحبشة ، وإلى المدينة ، وقد استشهد زوجها ، وليس لها أحد ، بعدما أصرت على ترك قومها ،

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٤ .

(٢) صحيح البخاري . كتاب النكاح . باب الترغيب في النكاح ج ٨ ص ١٢٥ ط . الأوقاف .

(٣) سنن الترمذي بشرح تحفة الأحوذى ج ١٠ ص ٢٥٨ ، والحديث حسن غريب .

وهاجرت إلى رسول الله ﷺ وكانت شديدة التقدير ، والتعلق بزوجها أبى سلمة فلما مات خطبها أبو بكر ، وطلبها عمر فرفضت لأنها لم تجدهما خيراً من أبى سلمة . فهل تبقى وحدها أرملة؟... وهى التى تحملت من أجل الإسلام ما تحملت . إنه ليس هناك حل أبر ، وأكرم من ضم رسول الله ﷺ لها إلى نسائه ، وقد رضيت به عوضاً .

ورملة بنت أبى سفيان زعيم قريش أسلمت ، وهجرت أباه وقومها ، وهاجرت إلى الحبشة ، مع زوجها ، ثم تنصر زوجها ، وارتد عن الإسلام ، ومات كافراً ، وثبتت هى على إسلامها ، وظلت مقيمة فى الحبشة .

أهذه تترك ؟ ولمن ؟

هل تترك لتعود لقومها مع كفرهم ؟

أترك للعزلة والشماتة ؟

أليست مكافأتها فى مكانتها أن تكون زوجة رسول الله ﷺ؟؟ وتعيش مكرمة عزيزة أما من أمهات المؤمنين؟!

وكم سيكون لهذا أثره فى نفس أبيها!!.... الذى لم يسلم بعد .

وزينب بنت جحش التى زوجها رسول الله ﷺ من متبناه ومولاه زيد ، ولم تستقم حياتهما فافترقا ، وأراد الله أن يهدم قاعدة التبني عند العرب ، التى لا تقوم على أساس معقول ، فهدمها بشكل جذرى ، يوم أن أمر رسول الله ﷺ أن يتزوج زينب مطلقة متبناه زيد .

وجويرية بنت الحارث بنت سيد قومها ، وقومها من أعز بيوت العرب شرفاً ، ومنزلة ، وقد أسر رجالهم ، وسبى نساؤهم ، فلما تزوجها رسول الله ﷺ قال الناس : أصهار رسول الله ﷺ ففرجوا عنهم ، وأعتقوا كل من له علاقة بها .

وصفية بنت حيي كان أبوها ملك اليهود. تقريباً ، وزوجها كذلك من خير ساداتهم ، وقد هلك أبوها وأخوها وزوجها ، وكان من سنته ﷺ الرحمة بعزيز قوم ذل ، فضمها إلى نسائه رحمة بها ، بدل أن تكون لرجل عادى من الصحابة ، لا

يتكافأ معها منزلة ، ونسباً ، فأعتقها النبي ﷺ ، وتزوجها ، واستل ما بفؤادها من
حقّ كان يمكن أن يعذبها مدى الحياة .

خامساً :

على المسلمين جميعاً أن يتعلموا من معاملة رسول الله ﷺ لزوجاته حسن
العشرة ، ولين المعاملة ، والمحافظة على دين الله تعالى في السر والعلن ، وأن
يلتمسوا صورة التعامل مع زوجات رسول الله ﷺ ، ليكون منهجاً متبعاً على طول
الزمن ، ومع امتداد العمران ، واختلاف الثقافات والحضارات .

المبحث السابع

حسن عشرة النبي ﷺ

لزوجاته رضوان الله عليهم

عامل الرسول ﷺ نساءه معاملة كريمة، قائمة على حسن العشرة ، ومكارم الأخلاق ، ورفعة السلوك ، وفي هذا المبحث أورد أهم جوانب هذه المعاملة .
أولاً :

كان رسول الله ﷺ يتحدث عن زوجاته ، ويعلى شأنهن ، ويقدر لهن منزلتهن .
يقول- ﷺ عن خديجة بنت خويلد : "خير نساءها مريم بنت عمران. خير نساءها خديجة"(١) .

ويقول لعائشة رضى الله عنها : أريتك فى المنام ثلاث ليال جاءنى بك الملك فى سرقة من حرير ، فيقول هذه امرأتك فاكشف عن وجهك ، فإذا أنت هى ، فأقول إن يك هذا من عند الله يمضه(٢) .

ويقول ﷺ : "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"(٣) .
ويقول ﷺ : "عن زينب إنها أطولكن يداً لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق"(٤) .
ويقول لزينب : "المزوج الله والشاهد جبريل"(٥) .

وليس ذلك بغريب على رسول الله ﷺ فلقد ألقى الله شأنهن جميعاً ، وجعلهن أمهات للمؤمنين بقوله تعالى : ﴿ أَلَنبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) صحيح مسلم . كتاب الفضائل . باب فضل خديجة ج ١٥ ص ١٩٨ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الفضائل . باب فضل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٢ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الفضائل . باب فضل عائشة ج ١٥ ص ٢١١ .

(٤) الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد الشيباني ج ٢٢ ص ١٣٤ .

(٥) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٩٦ .

وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ
مَسْطُورًا ﴿١﴾ .

فزوجات النبي ﷺ أمهات. للمؤمنين جميعاً، على طول الزمن ،. لهن ما
للأمهات من الرعاية ، والتقدير ، وحسن المعاشرة ، وعدم الزواج بهن بعد رسول
الله ﷺ ، وملازمة الأدب ، وحسن الخلق في التعامل معهن .

كما نبه المسلمين على ضرورة التمسك بآداب المدخول في البيوت. حين
التعامل مع زوجات النبي ﷺ فقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا
بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرٍ نَّظِيرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى
النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا
فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ
أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ
عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (٢) .

والآيات تنظم علاقة المسلمين ببيوت النبي ﷺ ، وبنسائه أمهات المؤمنين في
حياته ، وبعد وفاته كذلك ، ويواجه حالة كانت واقعة وهى أن بعض المسلمين كانوا
إذا دعوا إلى طعام عند رسول الله ﷺ يستأنسون الحديث فيجلسون بعد الطعام ،
فأمر الله تعالى بالانتشار بعد الطعام منعاً لإيذاء رسول الله ﷺ .

ثانياً :

كان رسول الله ﷺ يعدل بين زوجاته ، ويسوى بينهن كما أمر الله تعالى وفي
إطار وسعه ﷺ ، ولم يفرق الرسول ﷺ في حسن معاملته، بين زوجاته أبداً ، برغم

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٦ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٥٣ .

تفاوتهن في جوانب عديدة ، في الجمال ، وفي السن ، وما كان يبعده عن العدل شئ ما ، فجعل لكل واحدة منهن ليلة ، وإذا زار واحدة في غير ليلتها زارهن جميعاً ومع مراعاته للعدل الدقيق ، كان يستغفر الله في ميله القلبي لبعضهن ويقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك .

وكان ﷺ يقرع بينهن إذا أراد السفر ، فأيتهن خرجت القرعة عليها اصطحبها . تقول أم سلمة : لما تزوجني رسول الله ﷺ أقام عندي ثلاثاً ، وقال : إنه ليس بك هوان على أهلك ، إن شئت سبعت لك ، وإن سبعت لك سبعت لنسائي^(١) .

ثالثاً :

كان ﷺ يقدر لزوجاته حقوقهن الأساسية ، ويصونها لهن ، لم يتزوج واحدة إلا برضاها ، وكان يشاورهن ، ويناقشهن ، ويصبر عليهن . وقد رأينا موقفه ﷺ من النسوة اللاتي رفضن الزواج منه . وكان ﷺ يستشير زوجاته في المواقف الصعبة وينزل على رأيهن . في يوم الحديبية أمر المسلمين بأن يحلقوا ، وينحروا ، بعد الصلح ليتحللوا فبقوا واجمين ، فدخل على زوجه أم سلمة ، وهو متأثر يقول : هلك المسلمون أمرتهم بالحلق فلم يحلقوا ، وأمرتهم بالذبح فلم يذبحوا !! فقالت : يا رسول الله أخرج ولا تكلم أحداً منهم ، حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك .

فخرج ﷺ فلم يكلم أحداً منهم ، حتى فعل ذلك . فلما رأى المسلمون ما صنع النبي ﷺ انزاح عنهم الذهول ، فقاموا عجلين ينحرون هديهم ، ويحلق بعضهم بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل الآخر^(٢) . وهكذا كان رسول الله ﷺ يشاور زوجاته ، ويأخذ برأيهن في الأمور العامة والخاصة . وكن رضى الله عنهن نعم الشريكات. لزوجهن رسول الله ﷺ وبذلك نعمن بالحياة مع رسول الله ﷺ رغم ما كان في حياتهن من نقشف .

(١) من السنة أن من تزوج البكر يبقى عندها سبعاً ، وإذا تزوج الشيب يبقى عندها ثلاثاً .

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٩٤ .

رابعاً :

كان النبي ﷺ يحرص أن يكون جميلاً ، أنيقاً ، نظيفاً ، فى صورته الجسدية ، وفى سلوكه العملى ، وفى سائر معاملاته معهن .

كان ﷺ ضاحكاً بساماً^(١) .

وكان أفكه الناس مع نسائه^(٢) .

وكان ﷺ يقول : اغسلوا ثيابكم ، وخذوا من شعوركم ، وتنظفوا^(٣) .

ويقول ﷺ : إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ، ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها ، حتى تقضى حاجتها^(٤) .

ويقول ﷺ : خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى^(٥) .

إن رسول الله ﷺ لم يستتكف داخل بيته أن يقوم بحاجته ، وأن يخدم نفسه بل كان يقوم أحياناً بحاجة أهله ، ويخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويقول ﷺ : خدمتك زوجتك صدقة .

خامساً :

كان ﷺ يترفق معهن فى الحديث ، ويداعبهن ، ويلاعبهن ، فقد لاعب عائشة رضى الله عنها فسبقها فلما غضبت لاعبها وتراخى لها فسبقتها ، وقالت : هذه بتلك^(٦) وهو ﷺ القائل لعائشة : إني لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت على غضبى فقالت له : ومن أين تعرف ذلك ؟

قال ﷺ : أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين : لا ورب محمد ، وإذا كنت على غضبى قلت : ولا ورب إبراهيم .

(١) رواه ابن عساكر . انظر منتقى النقول ص ٢٩٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩ .

(٣) فيض القدير ج ٢ ص ١٩ .

(٤) فيض القدير ج ١ ص ٣٢٥ .

(٥) المرجع السابق ج ٣ ص ٤٦٦ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب فضل عائشة ج ٥ ص ٢٠٣ .

قالت : أجل والله يا رسول الله ما أهرج إلا اسمك^(١) .
سادساً :

وكان ﷺ يعرف ما جبلوا عليه كسائر المنسوبة . من غيرة وتنافس وحب الاستئثار بالرجل ، ولذلك لم يندعش لبعض تصرفاتهن ، فكان ﷺ يرفق بهن ، ويصبر عليهن .

حدث مرة أن ذبح ﷺ شاة وقال : أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة .
فغارت عائشة وقالت : خديجة خديجة ...
فما زاد ﷺ إلا أن قال لها : إني رزقت حبها^(٢) .
وقالت عائشة رضى الله عنها لفاطمة بنت رسول الله . إن رسول الله لم يرزق بكرةً غيرى : فبكت فاطمة ، وذهبت تشكو لأبيها ﷺ .
فقال لها : قولى لها إن أمى تزوجت أبى وكان بكرةً ، ولم يتزوج عليها^(٣) .
وكان ﷺ يعمل على إرضاء زوجاته ، وتهذئة خواطرهن بالمعروف .
يقول أنس بن مالك .: بلغ صفية أن حفصة قالت : بنت يهودى فبكت ، فدخل عليها النبي ﷺ وهى تبكى فقال : ما يبكيك ؟
قالت : قالت لى حفصة إنى بنت يهودى .
فقال لها النبي ﷺ : إنك لابنة نبي ، وإن عمك نبي ، وإنك لتحت نبي ، ففيم تفخر عليك ... ثم قال لحفصة : اتقى الله يا حفصة^(٤) .
وكان يقابل بعض تصرفاتهن بالصمت لينتهوا منه ، ويعلموا ما فى تصرفهن من حق أو خطأ فى رفق وهدوء ، بعيداً عن الانفعال والغضب .
يروى الإمام مسلم بسنده عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أرسل أزواج رسول الله ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى أبيها ﷺ فاستأذنت عليه ،

(١) صحيح مسلم - كتاب الفضائل . باب فضل عائشة ج ١ ص ٢٠٣ .
(٢) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب فضل خديجة ج ١ ص ١٩٩ .
(٣) الإسلام ص ١٧٥ .
(٤) سنن الترمذى بشرح تحفة الأحوذى أبواب المناقب ج ١٠ ص ٢٦٨ .

وهو مضجع معى فى مرطى، فأذن لها .

فقالت : يا رسول الله إن أزواجك أرسلننى إليك ، يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة ، وأنا ساكتة .

فقال لها رسول الله ﷺ : أى بنية أilst تحبين ما أحب ؟

فقالت : بلى .

قال : فأحبى هذه .

فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فرجعت إلى أزواج النبى ﷺ ، وأخبرتتهن بالذى قالت ، وبالذى قال لها رسول الله ﷺ .

فقلن لها : ما نراك أغنيت عنا من شئ ، فارجعى إلى أبيك ﷺ فقولى له : إن أزواجك ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة .

فقالت فاطمة : والله لا أكلمه فيها أبداً .

فأرسل أزواج النبى ﷺ زينب بنت جحش رضى الله عنها ، زوج النبى ﷺ وهى التى كانت تسامى عائشة فى المنزلة عند رسول الله ﷺ .

تقول عائشة : لم أر امرأة قط خيراً فى الدين من زينب ، وأتقى الله ، وأصدق حديثاً ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالاً لنفسها فى العمل الذى تتصدق به ، وتتقرب به إلى الله تعالى ، ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفينة .

فاستأذنت زينب على رسول الله ﷺ وهو مع عائشة فى مرطها ، على الحالة التى دخلت فاطمة عليها ، وهو بها ، فأذن لها رسول الله ﷺ .

فقالت يا رسول الله : إن أزواجك أرسلننى إليك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة .

فلم يتكلم رسول الله ﷺ .

تقول عائشة : ثم إن زينب وقعت بى ، فاستطالت على ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ ، وأرقب طرفه هل يأذن لى فيها ، فلن تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر ، فلما وقعت بها لم أنشبهها ، حتى أنحيت عليها .

فقال رسول الله ﷺ وتبسم : إنها ابنه أبى بكر^(١) .

وهو يدل. على رفق رسول الله ﷺ بزوجاته ، وصبره عليهن ، فبرغم أنهن تجمعن ، وأرسلن إليه يطلبن العدل ، وفي هذا تحامل منهن على رسول الله ﷺ رغم ذلك كان ﷺ يبتسم ، ويصمت ، ويترك لهن تقدير الموقف ولم يأخذ واحدة منهن بالظنة ، ولم يصدق ما يشاع عن إحداهن من سوء ، فلقد أشاع المنافقون الإفك حول عائشة رضى الله عنها ، واتهموها زوراً بما ليس فيها ومع ذلك لم يتغير رسول الله ﷺ ولم يغضب عائشة ، وإنما بقى صامتاً صابراً ، مع شدة ألم الإفك فى نفسه ، وذلك أكبر برهان على حسن معاملة رسول الله ﷺ لزوجاته ، وأخذه لهن بالرفق والأناة .

إن سلامة العرض .، وللمحافظة على الشرف. وللفضيلة من السمات. التى يحافظ عليها العرب ، ويدافعون عنها بكل غال لديهم ، ومع ذلك الوضع الخطير يحافظ رسول الله ﷺ على هدوءه ، ويترفق بعائشة رضى الله عنها ، ويستمر ذلك الحال شهراً كاملاً ، ولا يتعرض لها بنقد أو تأنيب أو مقاطعة أو بنظرة عاتبة .

تروى السيدة عائشة رضى الله عنها حادثة الإفك كما عايشتها فتقول : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه ، فأيهن خرج سهمها ، خرج بها رسول الله ﷺ معه ، فأقرع بيننا ، فى غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمى ، فخرجت مع رسول الله ﷺ ، بعدما أنزل الحجاب ، فكنت أحمل فى هودجى ، وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ، فلما دنونا من المدينة قافلين ، آذن ليلة بالرحيل ، فقامت حتى آذنوا بالرحيل فمشيت ، حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى ، فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه .

وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى ، فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى

(١) صحيح مسلم . باب فضائل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٥ .

الذى كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً ، لم يهبلن الطعام ، ولم يغشهن اللحم ، إنما كن يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا ، ووجدت عقدي ، بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم ، وليس بها داع . . ولا مجيب . فتيممت منزلى الذى كنت به . . وظننت أنهم سيفتقدونى فيرجعون إلى ، فبينما أنا جالسة فى منزلى ، غلبتنى عينى ، فنمت .

وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم ، فعرفنى حين رآنى ، وكان رآنى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخرمت وجهى بجلبابى والله ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها ، فقامت إليها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة ، حتى أتينا الجيش ، موغرين فى نحر الظهيرة ، وهم نزول ، فهلك من هلك ، وكان الذى تولى كبر الإفك عبد الله بن أبى ابن سلول .

فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمت شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، لا أشعر بشئ من ذلك .

وكان يريبنى فى وجعى ، أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين اشتكى ، إنما يدخل على رسول الله ﷺ ، فيسلم ، ثم يقول : كيف تيكم ، ثم ينصرف ، فذلك يريبنى ، ولا أشعر بشئ .

ثم خرجت ، حين نقهت ، فخرجت مع أم مسطح فلما فرغنا من شأننا عدنا إلى بيتى ، وعنده عثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح .

فقلت لها : بنس ما قلت ، أتسبين رجلاً شهد بداراً ؟

فقالت : أى هنتاه ، أولم تسمعى ما قال ؟

قلت : و ما قال ؟

فأخبرتني ، بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضى ، فلما رجعت إلى

بيتى دخل على رسول الله ﷺ فسلم ثم قال : كيف تيكم .

فقلت له : أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما فأذن لى رسول الله ﷺ فقلت لأمى : يا أمتاه ماذا يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن عليها .

فقلت : سبحان الله ! أو قد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرفأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى .

ودعا رسول الله ﷺ ، علي بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله . فأما أسامة ، فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم لهم فى نفسه ، وقال : أهلك ولا نعلم إلا خيراً . وأما على فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك .

فدعا رسول الله ﷺ بريرة وقال لها : أى بريرة هل رأيت من شئ يريبك ؟ قالت له بريرة : والذى بعثك بالحق ، ما رأيت عليها أمراً قط ، أغمصه غير أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن ، فتأكله . فقام رسول الله ﷺ من يومه ، فاستعذر من عبد الله بن أبى ، وهو على المنبر ، فقال : يا معشر المسلمين ، من يعذرني من رجل ، قد بلغنى عنه ، أذاه فى أهلى ؟ والله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما يدخل على أهلى إلا معى .

فبكيت يومى ذلك كله ، لا يرفأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأصبح أبواى عندى ، وقد بكيت ليلتين ويوماً ، لا يرفأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، حتى إنى لأظن أن البكاء فالق كبدى ، فبينما أبواى جالسان عندى ، وأنا أبكى ، استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى .

فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس ، ولم يجلس عندي منذ ما قيل قبلها ، وقد لبث شهراً ، لا يوحى إليه فى شأنى بشئ .

فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة ، إنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله ، وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف ، ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى ، حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبى : أجب رسول الله ﷺ عنى فيما قال .

فقال أبى : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﷺ ، فيما قال .

قالت أمى : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت وأنا جارية حديثة السن ، لا أقرأ من القرآن كثيراً : إنى والله ، لقد علمت ، لقد سمعتم هذا الحديث ، حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إنى برئية لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقننى فوالله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿﴾ ثم تحولت ، واضطجعت على فراشى ، والله يعلم إنى حينئذ بريئة ، وأعلم أن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيأ يتلى لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت ، حتى أنزل الله عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان وهو فى يوم شات ، من ثقل القول الذى أنزل عليه .

فسرى عن رسول الله ﷺ ، وهو يضحك .

فكانت أول كلمه تكلم بها أن قال : يا عائشة أما الله فقد برأك .

فقال لى أمى : قومى إليه .

فقلت والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلا الله عز وجل^(١).

وفى قصة الإفك نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [١] وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [٢] وَلَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [٣] وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٤] إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالِاسْتِنْتِمْ وَتَقُولُونَ أَفْوَهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [٥] وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ [٦] يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٧] وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [٨] إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٩] وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [١٠] * يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [١١] وللايات واضحة الدلالة على براءة السيدة عائشة رضى الله عنها ، وتعيين الأفاكين فى عدد قليل ، هم العصبة ، وتوجيه المسلمين إلى المنهج القويم ، الذى يجب إتباعه فى

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب حديث الإفك ج ٦ ص ٣٤٠ - ٣٤٨ ط . الأوقاف .

(٢) سورة النور ، من الآية من ١١ : ٢١ .

مثل هذه الحالات. ، مع ملاحظة أن إبطال هذا البهتان كان في كلمة واحدة أطلقت على كل ما جرى مسمى "الإفك" ، وبقيّة الآيات دروس تربوية وإيمانية لمجتمع يجب أن يدوم على خيريته وعظمته التي صنعها الإسلام. ، ويجب أن تستمر به .

الدروس المستفادة من حادثة الإفك ما يلي :

الدرس الأول :

إن رسول الله ﷺ عاش شهراً قبل نزول الآيات ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها ، وكانت الإشاعة الكاذبة تملأ الدنيا ، والهمس يدور بين أهل المدينة جميعاً ، وأخذ ﷺ يبحث عن الحقيقة التي ترد هذا الزيف المتكاثر فأستبان آراء أصحابه ، وسأل أسامة بن زيد ، وعلى بن أبي طالب ، كما سأل بريرة مولاته .
وقد أجابه كل من سأله إجابة تؤكد علو مقام السيدة عائشة وطهارتها ، ولم يزد أحد عن ذلك إلا علماً ﷺ فإنه حاول أن يسرى عن رسول الله ﷺ ، ويبيعه عن الحزن ، فنصحته بالزواج ، فالنساء كثير . حتى لا يتأثر بما يشاع مع تقديره لمقام عائشة رضي الله عنها .

لم يطلب منه طلاقها ، ولم يؤيد اتهامها ، وإنما وجهه إلى أخذ رأى بريرة ...
وكل ما عناه هو رفع الهم عن رسول الله ﷺ .

الدرس الثاني :

إن حادثة الإفك قدر إلهي أراد الله تعالى لتحقيق الخير للمسلمين ، به يعرفون عدوهم ، ويعلمون المنافقين من بينهم ، ولتبقى البراءة آيات قرآنية تعلى مكانة أم المؤمنين عائشة على الزمن كله .
فإذا علم أن هذا الإفك أشيع بين الناس بعد غزوة الأحزاب ، لظهر أنه كان جزءاً من مؤامرة شاملة خطط لها أعداء الإسلام وروجها لها المنافقون من أجل تقويض المجتمع الإسلامي ، وتشويه صورة القيادة المحمدية .

ومن هنا كان إثبات براءة السيدة عائشة رضي الله عنها ، وظهور طهارة

بيت النبوة فى قرآن يتلى ، ويبقى ثابتاً على طول الزمن من المبادئ الهامة التى لا بد منها لصيانة المجتمع من المشائعات. ، وبخاصة تلك التى تتصل بالريادة المؤمنة التى يتأسى بها سائر الناس ، ولتبقى القيادة المسلمة فى كل آن مثلاً عالياً للطهارة ، والخلق الكريم .

الدرس الثالث :

فى إطار الآيات التى تتحدث عن الإفك جاءت توجيهات تحدد أهمية تعاون المجتمع فى رد البهتان والزيف ، حتى لا يروجه البعض وهو لا يدرى .
فلا يصح فى المجتمع المسلم أن- ينتشر الإفك فيه وبخاصة ما يتعلق بالعرض والشرف . ، والموجب على كل من يسمع إفكاً أن لا يكرره ، وعليه أن يستعيز بالله منه ، ولا يشيعه ، تطبيقاً لقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾^(١) .
ولا يجوز فى المجتمع المسلم أن يسمع أحد أفرادَه عن إخوانه أمراً ، ويصدقَه بلا برهان يثبتَه ، أو دليل يؤكدَه .

ولا يصح لمسلم أن يضع نفسه فوق إخوانه ، أو يتميز عنهم ، وواجب على المسلم أن يقيس الأمر على نفسه وعلى أهله، وأن يضع نفسه مكان من دار الإفك حوله .، فإن استبعد على نفسه ما يسمعه فمن الأولى أن يستبعدَه على غيره ، وبخاصة من هم أفضل منه فى الكرم ، والخلق .

يروى المؤرخون أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقوله الناس فى عائشة ؟

قال : بلى وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟

قالت : لا والله ما كنت لأفعله .

قال : فعائشة والله خير منك^(٢) .

(١) سورة الحجرات ، الآية ٦ .

(٢) سيرة النبى لابن هشام ج ٢ ص ٣٠٢ .

الدرس الرابع :

إن كرامة المجتمع المسلم يجب أن تصان من دعايات السوء ولذلك نزلت الآيات لعظة المسلمين حتى لا يقعوا في مثل هذا الأمر مرة أخرى ، ولا يكونوا فريسة لتوجيهات الشيطان من الإنس أو الجن التي تحاول جر المجتمع الإسلامي إلى الهاوية ، وعلى المسلمين في مثل هذه المواقف أن لا يتعجلوا في الحكم ، وأن لا يتحدثوا إلا بعد معرفة الحقيقة الصادقة ، حتى لا يؤذوا أنفسهم ، وغيرهم بجهالة ويصبحوا نادمين .

إن من تسرع في الإفك ، وخاض فيه بلا بينه أخطأ كثيراً ويكفى لظهور خطأ هؤلاء أن نعلم أن صفوان بن المعطل كان حصوراً لا يأتي النساء^(١) ومع ذلك قيل ما قيل فيه !!

الدرس الخامس :

الله عليم بعباده محيط بأخبارهم وأحوالهم ، ولذلك أنزل عقوبته على هؤلاء الأفاكين على قدر مساهمتهم في الإفك ، وعذاب الله الأليم نازل بهم في الدنيا والآخرة .

وأيضاً فإن رحمة الله تلحق بعبادة المؤمنين في الدنيا والآخرة فيقبل توبة المسئ ، ويغفر لمن استغفر ، ويزكي عباده الصالحين .

والدرس الهام والأخير :

هو بروز خلق رسول الله ﷺ الحليم ، الرؤوف ، الرحيم ، بالمؤمنين جميعاً ، وبخاصة بأمهات المؤمنين .

فبرغم ما كان فيه من عناء يزلزل الجبال في أيام حادثة الإفك كان يسأل عن عائشة رضي الله عنها ، ويطمئن عليها ، ويقول لها : كيف تيكم ؟
وستر عنها حديث الناس حتى لا تؤذيها ، ولم يرض بإثارتها ، ومناقشتها ، وكان يذكرها بالتوبة، والاستغفار إن كان وقع منها شيء ، ويستمر الرسول ﷺ هكذا

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٤ .

شهرًا كاملاً حتى تنزل عليه آيات البراءة ، فيخبر عائشة رضى الله عنها عقب نزول الوحي عليه مباشرة ، وهو ﷺ أسعد منها بهذه البراءة .

ويتحول جو الصمت ، والحزن ، فى بيت النبوة إلى سرور ، وفرح ، وتنقلب المدينة كلها حديثاً عن طهارة أم المؤمنين عائشة وبراءتها مما أثير حولها ، وتبقى براءتها ثابتة فى القرآن الكريم على طول الزمن .

تقول أم رومان لعائشة : قومي أشكرى رسول الله .

فترد- عائشة رضى الله عنها :- إنما أشكر الله الذى برأنى من فوق- سبع سماوات^(١) وتستمر البراءة قرآناً يحفظ فى الصدور ، ويتلى على الألسنة ، شاهداً على طهارة هذا البيت العظيم .

هذا ...

وقد وقعت حادثة الإفك أثناء الرجوع من غزوة بنى المصطلق سنة ست من الهجرة .

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب حديث الإفك ج ٦ ص ٣٤٨ .

المبحث الثامن

أبناء النبي ﷺ

وهب الله نبيه ﷺ عدداً من الأبناء والبنات كلهم من خديجة رضى الله عنها ما عدا إبراهيم فإنه من مارية .
وقد مات. أبناء النبي ﷺ فى حياته ، ما عدا فاطمة رضى الله عنها فإنها توفيت بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر على الصحيح . وأبنائه ﷺ هم على ترتيب ميلادهم :

الأول : القاسم (رضى الله عنه) :

وهو أول أبنائه مولداً، وبه كان يكنى رسول الله ﷺ على عادة العرب ، وقد ولد القاسم ، ومات بمكة قبل البعثة ، وعاش سبعة عشر شهراً فقط .

الثانية : زينب (رضى الله عنها) .

وهى المولود الثانى لرسول الله ﷺ ، وأكبر بناته ، ولدت قبل النبوة فى مكة ، وتزوجت ابن خالتها أبا العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ابن أخت خديجة رضى الله عنها ، وأمه هالة بنت خويلد وكانت خديجة تحبه لما كان يتميز به ، فهو من رجال مكة المعدودين ، مالا ، وأمانة ، وتجارة ، وقد رغبت خديجة رضى الله عنها فى تزويجه زينب ، فسألت رسول الله ﷺ أن يزوجه لها وكان رسول الله ﷺ لا يخالف طلباً لخديجة وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي فزوجه ، وكانت خديجة تعد أبا العاص بمنزلة ولدها ، فلما أكرم الله رسوله ﷺ بنبوته آمنت به خديجة مع بناتها رضى الله عنهن جميعاً ، فصدقته وشهدن أن ما جاء به الحق ، ودن بدينه ، وثبت أبو العاص على شركه .

وكان رسول الله ﷺ قد زوج عتبة ، وعنتية ابنا أبى لهب رقية وأم كلثوم فلما نادى قريشاً بأمر الله تعالى بادأوه ﷺ بالعداوة ، وقالوا للأزواج : إنكم قد فرغتم محمداً من همه ، فردوا عليه بناته ، فاشغلوه بهن ، فأطاعهم أبناء أبى لهب .

فلما مشوا إلى أبى العاص وقالوا له : فارق صاحبك ونحن نزوجك أى امرأة

من قريش شئت .

قال لهم : لا والله لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

وكان رسول الله ﷺ يثنى عليه فى مصاهرته خيراً .

وكان رسول الله ﷺ لا يحل بمكة ولا يحرم فلما هاجر ﷺ إلى المدينة ونزل تحريم نكاح المشركين فرق ﷺ بين زينب ، وقال رسول الله ﷺ لزينب : إنه لا يحل لك ، ففارقت ، وبقيت مع أولادها فى مكة ، وكانت قد رزقت منه بولد سمته علياً ، وبناتاً أسمتها أمامة .

وقد تأخر إسلام العاص ، ووقع أسيراً فى يد المسلمين يوم بدر ، لأنه كان فى صف الكفار يومها ، وفد زينب بقلادة ذهبية ، أهدتها لها أمها خديجة رضى الله عنها ، يوم زواجها ... فلما رأى رسول الله ﷺ القلادة تذكر خديجة وابنته زينب رضى الله عنها ، فرق قلبه ودمعت عيناه ، فعفا عن أبى العاص ومن عليه بالحرية ، وأرسله إلى مكة ، ومعه قلادة خديجة رضى الله عنها ، واشترط عليه أن يسمح لزينب بالهجرة على أن يلحق بها إذا أسلم .

يقول ابن إسحاق : كان فى الأسرى يوم بدر أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ختن رسول الله ﷺ وزوج ابنته زينب ، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة ، وهو ابن أخت خديجة ، وكانت تعده بمنزلة ولدها ، فسألت خديجة رسول الله ﷺ أن يزوجه زينب وذلك قبل الإسلام ، وكان رسول الله ﷺ لا يخالفها فلما أكرم الله نبيه ﷺ بالنبوة ، وآمنت به خديجة رضى الله عنها ودخلت بناته فى الإسلام وصدقته وشهدن أن ما جاء به هو الحق ، وذن بدينه ، وثبت أبو العاص على شركه ، فمشت قريش إلى أبى العاص بن الربيع فقالوا : فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة شئت .

فقال : لا . هاء الله . إذا لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش فكان رسول الله ﷺ يثنى علي صهره خيراً .

وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله ﷺ وبين أبى العاص بن الربيع

إلا أن رسول الله ﷺ لم يفرق بينهما بالطلاق ، فأقامت في مكة على إسلامها ، وبقي هو على شركه ، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فلما سارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع ، فأصيب في الأسارى يوم "بدر" ، فلما بعث أهل مكة في فداء الأسرى، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت أمها خديجة قد أدخلتها بها على أبي العاص حين تزوجها ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، وقال : إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا .

قالوا : نعم يا رسول الله ﷺ ، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها .

قال : وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه العهد مشافهة ، ووعد أبو العاص سراً أن يخلي سبيل زينب إليه كما شرط عليه في إطلاقه فلما خرج أبو العاص إلى مكة ، وخلي سبيله بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار وقال لهما : كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحبانها فتأتياني بها . فخرجا مكانهما ، وذلك بعد بدر بشهر أو نحوه .

فلما قدم أبو العاص مكة أمر زينب باللحوق بأبيها ، فخرجت جهرة فتحدث بذلك رجال من قريش وكبر عليهم أن تخرج زينب علانية فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذى طوى .

فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن عبد العزى ، فروعها بالرمح وهي في هودجها ، وبرك حموها (أخو زوجها) كنانة ، ونثر كنانته ، ثم قال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهماً ، وأتى أبو سفيان في جلة من قريش فقال : أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك فكف ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال : إنك لم تصب ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذا خرجت بابتنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا ، أن ذلك على ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت ، وأن ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمري مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ومالنا في ذلك من ثار ، ولكن ارجع بالمرأة ، حتى إذا هدأت

الأصوات ، وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلها سراً ، وألحقها بأبيها ، ففعل ، فأقامت ليالى ، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه بها على رسول الله ﷺ^(١) .

ولما أسلم أبو العاص ، وهاجر إلى رسول الله ﷺ فى المدينة رد زينب إليه بنكاحها الأول وكان إسلام أبى العاص وهجرته ﷺ سنة ست ، يروى ابن سعد ذلك فيقول : خرج أبو العاص بن الربيع فى غير إلى الشام فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى سبعين ومائة راكب فلقوا العير بناحية العيص فى جمادى الأولى سنة ست من الهجرة فأخذوها وما فيها من الأثقال وأسروا ناساً ممن كان فى العير منهم أبو العاص بن الربيع ، فلم يعد أن جاء المدينة فدخل على زينب بنت رسول الله ﷺ بسحر وهى امرأته فاستجارها فأجارته ، فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر قامت على بابها فنادت بأعلى صوتها : إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع . فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟

قالوا : نعم .

قال : فو الذى نفسى بيده ما علمت بشئ مما كان حتى سمعت الذى سمعتم المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أديانهم وقد أجرنا من أجات . فلما انصرف النبى ﷺ إلى منزله دخلت عليه زينب فسألته أن يرد على أبى العاص ما أخذ منه ففعل ، وأمرها أن لا يقربها فإنها لا تحل له ما دام مشركاً ، ورجع أبو العاص إلى مكة فأدى إلى كل ذى حق حقه ، ثم أسلم ورجع إلى النبى ﷺ مسلماً مهاجراً فى المحرم سنة سبع من الهجرة فرد. عليه رسول الله ﷺ زينب بذلك النكاح الأول^(٢) .

وقد ظلت زينب رضى الله عنها وجعة حتى لقيت ربها سنة ثمان من الهجرة وقد صلى عليها عمر بن الخطاب ، ودفنت بالبقيع رضى الله عنها^(٣) .

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٦٥٤ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ٣٣ .

(٣) سيرة النبى ج ١ ص ٦٥٤ ، ٦٥٥ .

الثالثة : رقية (رضى الله عنها) :

هى الثالثة فى ترتيب أولاد النبى ﷺ ، خطبها ابن عمها "عتبة بن أبى لهب" إلا أنه تخلى عنها ، ولم يدخل بها ، وطلقها بعد بعثة رسول الله ﷺ ، نزولا على رغبة أبيه أبى لهب ، وأمه أم جميل ، فتزوجها عثمان بن عفان ﷺ ، وولدت له ولداً أسموه "عبدالله" مات صغيراً .

هاجرت رقية رضى الله عنها مع زوجها عثمان ﷺ إلى الحبشة الهجرة الأولى ، وعادت معه إلى مكة ثم هاجرت إلى المدينة المنورة بعد هجرة رسول الله ﷺ إليها ومرضت بعد الهجرة واستمرت مريضة حتى وافاها أجلها ، عند رجوع المسلمين من غزوة بدر فى رمضان سنة اثنين من الهجرة ، وبسبب ذلك لم يشترك عثمان ﷺ فى بدر ، وبقي مع زوجته رقية يمرضها ، ويرعاها بأمر رسول الله ﷺ ، وقد ضرب رسول الله ﷺ له سهمه ، وأجره .

وعند عودة بشير النبى ﷺ إلى المدينة بعد "بدر" كان عثمان ﷺ ، راجعاً من البقيع بعد أن واراها مثواها الأخير رضى الله عنها^(١) .

الرابعة : أم كلثوم (رضى الله عنها) :

خطبها ابن عمها "عتيبة بن أبى لهب" إلا أنه تخلى عنها ، وتركها بعد مبعث النبى ﷺ إرضاء لأبيه وأمه ، هاجرت إلى المدينة مع أختها فاطمة رضى الله عنها ، وعاشت مع أبيها فى بيته ، وبعد وفاة رقية تزوجها عثمان بن عفان ﷺ فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة ولذلك عرف عثمان بن عفان بـ "ذى النورين" ولم تتجب منه ، واستمرت فى كنفه حتى ماتت رضى الله عنها سنة تسع من الهجرة ، ودفنت بالبقيع^(٢) ...

الخامسة : فاطمة (رضى الله عنها) :

هى أصغر بناته ﷺ ، وكان لها دور بارز فى الهجرة النبوية ، تزوجها علي بن أبى طالب بأمر من الله تعالى ، وولدت له : الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد . باب ما جاء فى رقية ج ٩ ص ٣٤٧ .

(٢) المرجع السابق . باب ما جاء فى أم كلثوم ج ٩ ص ٣٤٨ .

، وزينب ، وهى من النساء الكاملات اللاتى أحبهن رسول الله ﷺ .
وكانت خديجة رضى الله عنها إذا ولدت ولداً دفعتة إلى من يرضعه ، فلما
ولدت فاطمة لم يرضعها غيرها ، فحظيت بعناية أبيها وأمها منذ صغرها^(١) .
أمر الله رسول الله ﷺ أن يزوج ابنته فاطمة رضى الله عنها ابن عمه علي بن
أبى طالب ؓ ولذلك توقف ﷺ عن تزويجها لغيره من كبار الصحابة بعدما ذكرنها
لأنفسهم ، يقول أنس بن مالك ؓ : إن عمر بن الخطاب ؓ أتى أبا بكر ؓ
فقال :

يا أبا بكر ما يمنعك أن تتزوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟

قال أبو بكر ؓ : لا يزوجنى .

قال عمر : إذا لم يزوجك ، فمن يزوج ، وإنك من أكرم الناس عليه ، وأقدمهم
فى الإسلام . فانطلق أبو بكر ؓ إلى بيت عائشة رضى الله عنها .
فقال : يا عائشة إذا رأيت من رسول الله ﷺ طيب نفس ، وإقبالا عليك ،
فاذكرى له أنى ذكرت فاطمة ، ففعل الله . عز وجل . أن ييسرها لى .
فجاء رسول الله ﷺ ، فرأت عائشة منه طيب نفس وإقبالا ، فقالت : يا
رسول الله إن أبا بكر ذكر فاطمة ، وأمرنى أن أذكرها .

قال ﷺ : حتى ينزل القضاء .

فرجع إليها أبو بكر فقالت : يا أبتاه ، وددت أنى لم أذكر الذى ذكرت .
فلقى أبو بكر عمر فذكر أبو بكر لعمر ما أخبرته عائشة .
فانطلق عمر إلى حفصة ، فقال : يا حفصة إذا رأيت من رسول الله ﷺ إقبالا
. يعنى عليك . فاذكرى له واذكرى فاطمة ، لعل الله أن ييسرها لى .
فلقى رسول الله ﷺ حفصة ، فرأت طيب نفس ورأت منه إقبالا ، فذكرت له
فاطمة رضى الله عنها .

فقال ﷺ : حتى ينزل القضاء .

فانطلق عمر ؓ إلى على بن أبى طالب ؓ فقال : ما يمنعك من فاطمة ؟

(١) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ٢١ .

فقال على ﷺ : أخشى أن لا يزوجنى .
قال عمر ﷺ : فإن لم يزوجك فمن يزوج وأنت أقرب خلق الله إليه ؟
فانطلق على إلى رسول الله ﷺ مباشرة ولم يكن له مثل عائشة ، ولا مثل حفصة ، فلقى رسول الله ﷺ ، فقال : إني أريد أن أتزوج فاطمة .
قال ﷺ : فافعل .

قال على : ما عندى إلا درعى الخطمية .
قال ﷺ : فأجمع ما قدرت عليه وانتى به ، فأتى على باثنتى عشرة أوقية أربع مئة وثمانين درهماً فأتى بها رسول الله ﷺ فزوجه فاطمة رضى الله عنها ، فقبض ثلاث قبضات فدفعها إلى أم أيمن وقال لها : اجعلى منها قبضة فى الطيب أحسبه قال : والباقي فيما يصلح المرأة من المتاع ، فلما فرغت أم أيمن من الجهاز ، وأدخلتهم بيتاً قال ﷺ : يا على لا تحدثن إلى أهلك شيئاً حتى آتيك . فأتاهم رسول الله ﷺ فإذا فاطمة متقنعة ، وعلى قاعد ، وأم أيمن فى البيت ، فقال : يا أم أيمن انتينى بقدر من ماء .

فأنته بقعب فيه ماء ، فشرب منه ، ثم مج فيه ، ثم ناوله فاطمة ، فشربت وأخذ منه فضرب جبينها ، وبين كتفها وصدورها .
ثم دفعه إلى على فقال : يا على اشرب ثم أخذ منه فضرب به جبينه وبين كتفيه ثم قال : أهل بيتى ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . فخرج رسول الله ﷺ وأم أيمن وقال : يا على أهلك^(١) .
وكان لفاطمة منزلة خاصة عند أبيها ﷺ :

• يروى الترمذى بسنده عن بريدة أنه قال : كان أحب النساء إلى رسول الله ﷺ فاطمة ومن الرجال على^(٢) يقول إبراهيم بن سعيد يقصد من أهل بيته .

• وعن عائشة رضى الله عنها: وكانت فاطمة رضى الله عنها إذا دخلت على

(١) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سنن الترمذى ج ٥ ص ٦٩٨ .

رسول الله ﷺ قام إليها ، فقبلها ، وأجلسها في مجلسه وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت له فقبلته ، وأجلسته في مجلسها^(١) .

• ثم إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خطب بنت أبي جهل على فاطمة ، فأنت فاطمة أباه ، غاضبة تقول له : إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك وهذا على ناكحاً ابنة أبي جهل^(٢) .

فجمع رسول الله ﷺ الناس . ثم خطبهم .. وقال : . إن فاطمة منى ، وأناى أتخوف أن تفتن في دينها ، ثم ذكر صهرأ له من بنى عبد شمس ، هو زوج زينب ، فأثنى عليه في مصاهرته إياه^(٣) وقال عنه : حدثنى فصدقنى ووعدنى فوفى لى وإنى لست أحرم حلالاً ولا أحلل حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله فى مكان احد أبداً^(٤) .

وقال ﷺ : إن فاطمة بنت محمد مضغة منى ، وإنما أكره أن يفتنوها^(٥) .

وقال ﷺ : ابنتى مضغة منى ، يرببنى ما رابها ، ويؤذبنى ما آذاها^(٦) . فترك علي رضي الله عنه ما شرع فيه^(٧) .

وقد بشرها رسول الله ﷺ أنها سيدة نساء العالمين ، كما جاء فى صحيح مسلم ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : أقبلت فاطمة تمشى ، كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ فقال ﷺ : "مرحباً بابنتى" ثم أجلسها عن يمينه ، ثم أسر إليها حديثاً ، فبكت ، ثم أسر إليها حديثاً ، فضحكت .

(١) تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذى . باب ما جاء فى فضل فاطمة ج ١٠ ص ٢٥٣ وهو حديث حسن غريب

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى . فضائل فاطمة ج ١٦ ص ٤ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى . فضائل فاطمة ج ١٦ ص ٤ .

(٤) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان . باب تفضيل فاطمة ج ٦ ص ٢٧٩ .

(٥) صحيح مسلم . باب فضائل فاطمة ج ١٦ ص ٣ .

(٦) صحيح مسلم فضائل فاطمة ج ١٦ ص ٤ .

(٧) ترجع معارضة النبي ﷺ لزواج علي رضي الله عنه على ابنته فاطمة لتأذيه من ذلك ، والمسلم مأمور بعدم إيذاء النبي ﷺ ، وأيضاً فإن رسول الله خاف على فاطمة من الفتنة بسبب الغيرة ، ويقال : إن النبي ﷺ قد اشترط على علي حين زواجه بعدم الزواج على فاطمة ، ولعل فى إعلان النبي ﷺ معارضته على المنبر ليتعلم الناس كيفية التعامل مع رسول الله ﷺ وعدم فعل شئ يؤذيه ويدل قوله ﷺ : وإنى لست أحرم حلالاً أو أحل حراماً أن علياً لو تزوج لجاز .

تقول عائشة رضي الله عنها : ما رأيت كالיום أقرب فرحاً من حزن ؟ فسألتها عما قال ﷺ ؟

فقلت : ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره .

تقول عائشة : فلما قبض ﷺ سألتها .

فأخبرتني أنه ﷺ قال : إن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة مرة ، وإنه عارضني العام مرتين ، وما أراه إلا قد حضر أجلى ، وإنك أول أهل بيتي لحوقاً بى ، ونعم السلف أنا لك ، فبكيت لذلك .

ثم إنه ﷺ سارنى فقال: .: ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين ؟ فضحكت لذلك (١) .

• وعن ابن عباس قال: .: صلى رسول الله ﷺ صلاة العصر ، فلما كان فى الركعة الرابعة أقبل الحسن والحسين ، حتى ركبا على ظهر رسول الله ﷺ فلما سلم وضعهما بين يديه وقبل الحسن فحمل رسول الله الحسن على عاتقه الأيمن والحسين على عاتقه الأيسر ثم قال : أيها الناس ألا أخبركم بخير الناس جداً وجدة ؟

ألا أخبركم بخير الناس عما وعمه ؟

ألا أخبركم بخير الناس خالاً وخالة ؟

ألا أخبركم بخير الناس أباً وأماً ؟

هما الحسن والحسين ، جدهما رسول الله ﷺ ، وجدتهما خديجة بنت خويلد وأمهما فاطمة بنت رسول الله ﷺ . وأبوهما علي بن أبى طالب رضي الله عنه ، وخالهما القاسم بن رسول الله ﷺ وخالاتهما زينب ، ورقية ، وأم كلثوم بنات رسول الله ﷺ .

جدهما فى الجنة ، وأبوهما فى الجنة ، وأمهما فى الجنة ، وعمهما فى الجنة ، وعمتهما فى الجنة ، وخالاتهما فى الجنة ، وهما فى الجنة ، ومن أحبهما فى الجنة (٢) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي . فضائل فاطمة ج ١٦ ص ٥ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٢٩٥ .

وقد عاشت فاطمة رضى الله عنها فى كنف زوجها علي بن أبى طالب ﷺ حتى لقيت ربها بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمسة أشهر ، ودفنت بالبقيع .

السادس : عبد الله (رضى الله عنه) :

ولد عبد الله فى مكة بعد البعثة ، وهو أول أبنائه الذكور الذين ولدوا بعد ظهور الإسلام . سماه النبى ﷺ باسم أبيه عبد الله ، وكناه بالطاهر ، والطيب والمطهر ، والمطيب ، وقد سمي ، وكنى بذلك لأنه ولد بعد النبوة .

ونظراً لكثرة أسماء عبد الله ، وجدنا من يقول : إن هذه الأسماء لأولاد آخرين لرسول الله ﷺ من خديجة رضى الله عنها ، حتى تصور أحدهم أن خديجة رضى الله عنها ولدت مرتين توأماً فى المرة الأولى ولدت الطيب ، والمطيب ، وفى المرة الثانية ولدت الطاهر ، والمطهر^(١) .

إلا أن هذه أقوال غير مشهورة ، ولم يجمع عليها ، والمجمع عليه أنه ﷺ أنجب عبد الله بعد البعثة وقد مات صغيراً فى مكة بعد أخيه القاسم بوقت قصير ، ودفن بالحجون .

السابع : إبراهيم (رضى الله عنه) :

ولد إبراهيم بالمدينة المنورة فى شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ... وهو الوحيد من غير خديجة ، فأمه مارية القبطية ، وأخواله مصريون .

وقد علق عنه النبى ﷺ فى يوم سبوعه . وتوفى وعمره ستة عشر شهراً فى ربيع^(٢) الأول سنة عشر ، ودفن بالبقيع بعد أن صلى عليه رسول الله ﷺ .

وقد سر النبى ﷺ بولادة إبراهيم ، وسماه باسم جده إبراهيم ﷺ ، ودفعه إلى ظئر ترضعه ، وحزن لموته كذلك^(٣) يروى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : . ولد لى الليلة غلام فسميته باسم أبى إبراهيم ، ثم دفعه إلى أم سيف ، امرأة قين يقال له أبو سيف ، فانطلق يأتيه ، واتبعته ، فانتهينا إلى أبى

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد . باب أولاد النبى ﷺ ج ٩ ص ٤٣٩ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى . باب رحمته ﷺ ج ٥ ص ١٧٤ ط . الشعب .

(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ١٧٢ .

سيف ، وهو ينفخ بكيره ، قد امتلأ البيت دخاناً ، فأسرعت المشى بين يدي رسول الله ﷺ فقلت : يا أبا سيف ، أمسك جاء رسول الله ﷺ فأمسك فدعا النبي ﷺ بالصبي فضمه إليه وقال : ما شاء الله أن يقول .

يقول أنس : لقد رأيته وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال : تدمع العين ، ويحزن القلب ، و لا نقول إلا ما يرضى ربنا ، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون^(١) .

وقد حدث أن انكسفت الشمس يوم موت إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم .

فخطب النبي ﷺ وقال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت أحد ، ولا لحياته^(٢) .

وقد ظهر حب رسول الله ﷺ لأولاده ، وحسن رعايته لهم ، ولذلك أنزل خديجة رضى الله عنها منزلة ، تليق بها ، حيث رزقه الله منها الولد .

وحينما غارت عائشة رضى الله عنها من كثرة ذكر النبي لخديجة رضى الله عنها وقالت : هل كانت إلا امرأة عجوزاً رزقك الله خير منها قال لها : ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستتنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد ولم أرزق من أحد سواها^(٣) .

وكان ﷺ يحب الأطفال عموماً ، ويحسن إليهم ويرق لهم .
وقد رأينا ما كان منه ﷺ مع أولاده جميعاً ، وكان يحبهن ، ويحب أبناءهن كحبه لهن

يروى مسلم أن الناس كانوا إذا رأوا أول الثمر ، جاءوا به إلى رسول الله ﷺ ، فإذا أخذه قال : اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا ثم يدعو أصغر وليد له ، فيعطيه ذلك الثمر^(٤) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٥ ص ١٧٢ ط . الشعب .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد . باب فضل إبراهيم ج ٩ ص ٢٥٦ .

(٣) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٦١ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي . باب فضل المدينة ج ٩ ص ١٤٦ .

المبحث التاسع

الحياة الشخصية

لرسول الله ﷺ في المدينة

النبى ﷺ هو قدوة المسلمين على الزمن كله ، وطريق الناس لتحقيق سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وكافة أنشطته تشريع متبع إلا ما بين أنه خاص به ﷺ .
ولذلك كانت الحاجة إلى تحديد ملامح حياته الشخصية ﷺ إبرازاً لسيرته ﷺ وتحديدًا لمعالم الصورة الإسلامية التى يتمناها كل مخلص ، تنفيذاً لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١) .

ومن صور حياته الشخصية نذكر ما يلى :

- أولاً -

أكله " صلى الله عليه وسلم "

كان ﷺ يبدأ طعامه بالتسمية ، ويأكل بيمينه ، ويأكل مما يليه ، وكان يعلم ذلك من يأكل معه ، فعن عمر بن أبى سلمة ؓ أنه قال : كنت غلاماً فى حجر النبى ﷺ وكانت يدي تطيش فى الصفحة ، فقال لى ﷺ : يا غلام سم الله وكل بيمينك ، وكل مما يليك ، فما زالت تلك طعمتى بعد (٢) .
وكان ﷺ يقول : إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال (٣) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الأشربة . باب آداب الطعام ج ٤ ص ٧٠٥ الشعب .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى . إجابة الدعوة ج ٣ ص ٦٠١ .

وكان ﷺ إذا دعى لطعام أجاب فإذا انتهى من الطعام قال : أكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة الأطهار وذكركم الله فيمن عنده^(١) .

وعند أبي داود أن النبي ﷺ أكل عند سعد بن عبادته ثم قال : أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة^(٢) .

وكان ﷺ لا يحبس نفسه على نوع واحد من الأغذية ، وكان لا يجمع بين حارين ، ولا باردين ، ولا سهلين ، ولا قابضين ، ولا غليظين ، ولم يأكل طعاماً قط في حال شدة حرارته ، ولا شيئاً من الأطعمة العفنة^(٣) .

ولم يكن ﷺ يملأ بطنه بالطعام ، وينصح أصحابه بذلك ، ويقول لهم ﷺ : ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه^(٤) .

وكان ﷺ يأكل على الأرض ، ويجلس على الأرض^(٥) .

يقول أنس بن مالك : ما أكل نبي الله ﷺ على خوان ، ولا سكرجة ، ولا خبز مرقق ، فقلت لقتادة : فعلام كانوا يأكلون ؟

قال : على السفر^(٦) ؟

وكان ﷺ يأكل التمر وتراً ، وكان لا يجمع بين التمر والنوى في طبق واحد ، ولا يجمع النوى في كفه ، بل يسقط النوى على ظهر كفه ثم يلقاها ، وأحياناً كان يرفع النوى ، بأصبعيه ثم يلقاها^(٧) .

(١) زاد المعاد ج ١ ص ١٤٥ .

(٢) سنن أبي داود - كتاب الأطعمة . باب ما يقول الرجل إذا طعم ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٣) زاد المعاد ج ١ ص ١٤٧ .

(٤) سنن الترمذي - كتاب الزهد . باب كراهية كثرة الأكل ج ٤ ص ٥٩٠ .

(٥) زاد المعاد ج ١ ص ١٤٧ .

(٦) صحيح البخاري بشرح فتح الباري - كتاب الأطعمة ج ٩ ص ٥٣٠ ، الخوان : المرتفع المعد للأكل مثل الخوان "الترابيزة" والسكرجة أو أن المعدة للمشهيات ، والسفر ما يمد

ويبسط على الأرض ، كالمفرش وهذا من تواضعه ﷺ .

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب الأطعمة . باب وضع النوى ج ٤ ص ٧٣٤ الشعب .

وكان ﷺ يحب أكل التمر بعد غليه بالسمن ، وخلطه باللبن ، وهو المعروف بـ "الحيس" ، وكان هو الطعام الذى صنعه يوم بنى بـ "صفية بنت حيي" .
وكان ﷺ يحب الزيت بالتمر^(١) .
وكان ﷺ يأكل البطيخ بالرطب ، ويأكل القثاء بالرطب كذلك^(٢) .
وكان ﷺ يحب الحلواء والعسل^(٣) .
وكان ﷺ يأكل زيت الزيتون ، ويحث عليه ، ويقول : كلوا الزيت ، وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة .
وكان يأكل الدجاج ، ويحب الدباء^(٤) وهو القرع ويسمى اليقطين ، وكان ﷺ يحب الثريد ، ويفضله على سائر الطعام ، كما يفهم من ثنائه على أم المؤمنين عائشة يقول ﷺ : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام^(٥) .
والثريد خبز مبلى بمرق ، وعليه اللحم ، وهو الذى يعرف بـ "الفتة" .
وكان ﷺ يكتفى بالطعام القليل ، ولم يكن همه الأكل والشبع .
وكان ﷺ يبيت الليالي المتتابعة خاوياً ، وأهله لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم الشعير .
عن عروة ؓ عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : والله يا ابن أخى ، إنا كنا لننظر إلى الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار .
قلت يا خالة : فما كان يعيشكم ؟
قالت : الأسودان ، التمر ، والماء . إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار . وكانت لهم منائح ، فكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من أبياتهم ، فيسقيناه^(١) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب الأطعمة - باب وضع النوى ج ٤ ص ٧٣٤ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الأطعمة - باب أكل الرطب بالقثاء ج ٩ ص ٥٦٤ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب الأطعمة - باب الحلواء والعسل ج ٩ ص ٣٦ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب الأطعمة - باب الدباء ج ٩ ص ٣٧ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب فضائل عائشة ج ٥ ص ٣٠٢ الشعب .

وعن ابن عباس ؓ أنه قال : كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل عليه السلام على الصفا .

فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل ، والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة من دقيق ، ولا كف من سويق ... فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته .

فقال رسول الله ﷺ : هل أمر الله القيامة أن تقوم ؟

قال جبريل : لا ، ولكن أمر إسرافيل ، فنزل إليك حين سمع كلامك .

فأتاه إسرافيل فقال : إن الله سمع ما ذكرت فبعثنى إليك بمفاتيخ خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرض عليك أن تكون جبال تهامة زمرداً ، وياقوتاً ، وذهباً وفضة ، فإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً ، فأوماً إليه جبريل أن تواضع .
فقال ﷺ : بل نبياً عبداً ... ثلاثاً^(٢) .

وكان ﷺ إذا رفع الطعام من بين يديه يقول : الحمد لله حمداً كثيراً ، طيباً ، مباركاً ، غير مكفى ، ولا مودع ، ولا مستغنى عنه ربنا عز وجل .
وكان ﷺ يقول : إذا فرغ من طعامه : اللهم لك الحمد ، أطعمت وسقيت وأشبعيت ورويت ، فلك الحمد^(٣) .

وكان ﷺ يقول : الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم ، من علينا فهدانا ، وأطعمنا وسقانا ، وكل بلاء حسن أبلانا ، الحمد لله الذى أطعم من الطعام ، وسقى من الشراب وكسا من العرى ، وهدى من الضلالة ، وبصر من العمى ، وفضل على كثير ممن خلق تفضيلاً ، الحمد لله رب العالمين .

وربما قال : الحمد لله الذى أطعم وسقى ، وسوغه^(٤) .

ويقول ﷺ : إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمده عليها^(١) .

(١) صحيح البخارى - كتاب الرقاق . باب عيس النبى وأصحابه ج ١٠ ص ١٤٦ .

(٢) منتقى النقول ص ٤٠٢ .

(٣) بغية الرائد ج ٥ ص ٣٠ .

(٤) زاد المعاد ج ١ ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

ولم يعب ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه^(٢) .

- ثانياً -

شرابه "صلى الله عليه وسلم"

لم يكن من عادة النبي ﷺ الشرب على الطعام ، وكان يشرب العسل الممزوج بالماء ، تقول عائشة رضى الله عنها : كان أحب شراب النبي ﷺ الحلو البارد^(٣) وكان الصحابة يأتون بالماء لرسول الله ﷺ من بئر عرس مرة ، ومن السقيا مرة . وكان ﷺ يشرب اللبن ويقول : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه^(٤) . وكان رسول الله ﷺ يتنفس في الإناء ثلاثاً ، ويقول : إنه أبرأ ، وأروى ، وأمرأ^(٥) .

وكان النبي ﷺ يشرب واقفاً ، وقاعداً ، يقول ميسرة ، رأيت علياً يشرب قائماً ، فقلت له : أتشرب قائماً ؟

فقال : إن شربت قائماً فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائماً ، وإن شربت قاعداً فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قاعداً^(٦) .

هذا وقد روى مسلم بسنده عن أنس ؓ أن رسول الله ﷺ نهى عن الشرب قائماً^(٧) وقد تصور البعض من هذا النهي حرمة الشرب قائماً ، وهذا تصور مردود ، لأن النبي ﷺ ، شرب قائماً ، وقاعداً ، وهذا يدل على الجواز ، لأنه فعله لبيان الجواز ، وأقصى ما يفيد النهي أنه خلاف الأولى .

(١) سنن الترمذى . باب ما جاء فى الحمد على الطعام إذا فرغ منه ج ٤ ص ٢٦٥ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الأطعمة . باب ما عاب النبي ﷺ طعاماً ج ٩ ص ٣٠ .

(٣) سنن الترمذى . باب أى الشراب كان أحب إلى رسول الله ج ٤ ص ٣٠٧ .

(٤) سنن أبى داود ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب الأشربة ج ٤ ص ٧١١ الشعب .

(٦) سنن أبى داود . باب فى الشرب قائماً ج ٢ ص ٣٠٢ ط . الحلبي .

(٧) صحيح البخارى - كتاب الأشربة . باب الشرب قائماً ج ٩ ص ٩٦ .

- ثالثا -

نومه "صلى الله عليه وسلم"

كان ﷺ ينام ، إذا دعت الحاجة إلى النوم ، ينام على شقة الأيمن ، ذاكراً الله حتى تغلبه عيناه ، وكان يضطجع على الوسادة ، ويضع يده تحت خده أحياناً . وكان ﷺ ينام بعينه ولا ينام قلبه^(١) .

ومن تدبر صفة نومه ويقظته ﷺ وجده أعدل نوم ، وأنفعه للبدن ، فإنه كان ينام على الفراش تارة ، وعلى الأرض تارة ، وعلى السرير تارة ، وكان له بساط ينام عليه بعد أن يثنيه ثنتين ، وكانت وسادته جلدًا حشوها ليف ، وأنه كان ينام أول الليل ويستيقظ النصف الثاني لقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمُرْمِلُ ﴾ ﴿ قُرْ أَلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿ نَصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ .

فيحمد الله تعالى ويكبره ، ويدعوه ، ويستاك ، ثم يقوم إلى وضوءه ، ثم يقف للصلاة بين يدي ربه عز وجل خاشعاً ، راهباً ، متدبراً .

وقد حدد الله عز وجل أوقات النوم في اليوم واللييلة التي يجب فيها الاستئذان إذ قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّ نَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظُّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُوتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(٢) .

وكان من هدى النبي ﷺ النوم وقت القيلولة^(٣) .

عن أنس رضي الله عنه قال : إن أم سليم كانت تبسط للنبي ﷺ نطعاً^(١) فيقيل عندها على على ذلك النطع^(٢) .

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٨ ص ٧٨ .

(٢) سورة النور ، الآية ٥٨ .

(٣) القيلولة : وقت الظهر .

وعن أنس قال : قال ﷺ : **قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ** ^(٣) .

ورسول الله ﷺ بذلك يخبرنا بأن هذا وقت لا تهدأ فيه الشياطين ، بل تزداد ثورة في وقت الظهيرة ، لأنها خلقت من نار السموم ، فمن المستحب أن ننام ، ونريح جسدنا في وقت القيلولة ، حتى نستعد لقيام الليل ، وكان هذا دأبه ، وعمله ﷺ حتىلقى ربه ، وكان ﷺ ينام غالباً على قفاه .

يقول الشافعي رحمه الله : النوم على أربعة أنحاء :

• نوم على القفا ، وهو نوم الأنبياء عليهم السلام ، يتفكرون في خلق السماوات والأرض .

• ونوم على اليمين وهو نوم العلماء والعباد .

• ونوم على الشمال وهو نوم الملوك ليهضم طعامهم .

• ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين .

وقد نهى النبي ﷺ أن ينام الرجل على وجهه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : مر النبي ﷺ برجل مضطجع على بطنه ، فقال : **هذه ضجعة لا يحبها الله عز وجل** ^(٤) .

وعن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان إذا سكت المؤذن بالأولى من صلاة الفجر قام فركع ركعتين حفيفتين قبل صلاة الفجر بعد أن يستبين الفجر ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة ^(٥) .

وروى النبي ﷺ مستلقياً على ظهره واضعاً إحدى رجليه على الأخرى ^(٦) .

وفى ذلك إباحة الإستلقاء على الظهر ووضع إحدى الرجلين على الأخرى للراحة، ولكن هذه ليست نومة النبي ﷺ المستديمة ولكنه ﷺ نام بها ، ويمكن فعلها في

(١) نطعاً : بساط من الجلد .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي . كتاب الفضائل ج ٥ ص ١٨٤ ط . الشعب .

(٣) قاله الألباني في الجامع : رواه الطبراني وأبو نعيم . بسند حسن . حديث رقم (٤٤٣١) .

(٤) سنن الترمذي . باب ما جاء في كراهية الاضطجاع على البطن ج ٥ ص ٩٧ .

(٥) صحيح البخاري - كتاب الأذان . باب من انتظر الإقامة ج ٢ ص ١٤ .

(٦) صحيح البخاري - كتاب الصلاة . باب الاستلقاء في المسجد ج ١ ص ٣١٧ .

أوقات الراحة ، وفي غيرها لمن أراد بعدما أباحها ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ يدعو ربه قبل نومه .

عن البراء بن عازب ؓ أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشة نام على شقة الأيمن ثم قال : اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتاب الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت^(١) .
قال النووي في زاد المعاد :

معنى وضع رأسه على كفة ، .أى : .وضع راحته مع أصابعه اليمنى تحت شقه الأيمن من وجهه ، فالكف للراحة مع الأصابع ، وسميت به لأنها تكف الأذى عن البدن وتريح صاحبها لوضعها تحت خده الأيمن .
عن أبي ذر ؓ قال : كان النبي ﷺ إذا أخذ مضطجعة من الليل قال : اللهم باسمك أموت وأحيا .

فإذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور^(٢) .
وكان النبي ﷺ إذا آوى إلى فراشة يقول : اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت^(٣) .
عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبي ﷺ إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه فنفت فيهما ، وقرأ فيهما :

- سورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .
- وسورة : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ .
- وسورة : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

(١) صحيح البخارى - كتاب الدعوات ج ١٠ ص ٨٨ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الدعوات . باب وضع اليد تحت الخد اليمنى ج ١٠ ص ٨٧ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب الدعوات . باب ما يقول إذا نام ج ١ ص ٨٨ .

ثم مسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما رأسه ، ووجهه ، وما أقبل من جسده يصنع ذلك ثلاث مرات (١) .

عن جبلة بن حارثة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : إذا آويت إلى فراشك فاقرأ ﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴾ حتى تمر بآخرها فإنها براءة من الشرك (٢) .

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه قال : باسمك اللهم أموت وأحيا ، وإذا قام من نومه قال : الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور (٣) .

عن سهيل رضي الله عنه قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام ، أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : اللهم رب السماوات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، منزل التوراة ، والإنجيل ، والفرقان ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر (٤) .

وكان النبي ﷺ إذا قام من الليل يقول : اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك حق ، وقولك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ، ولا إله غيرك (٥) .

(١) سنن الترمذى . باب ما يقرأ من القرآن عند المنام ج ٥ ص ٤٧٣ ، والحديث حسن صحيح غريب .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٧٤ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب الدعوات ج ١٠ ص ٨٧ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب الدعاء ج ١٧ ص ٣٥ .

(٥) صحيح البخارى - كتاب الدعوات . باب الدعاء بالليل ج ١٠ ص ٨٩ .

- رابعاً -

سماعته "صلى الله عليه وسلم"

كان رسول الله ﷺ يتجاوب مع جلسائه ، ويتساهل معهم ، ويشاركهم الحال والقال ، فإذا تحدثوا بأمر شاركهم في حديثهم ما لم يكن إثماً .

فعن خاتجة بن زيد ؓ أن نفراً دخلوا على أبيه زيد بن ثابت ؓ فقالوا : حدثنا ببعض حديث النبي ﷺ .

فقال : وما أحدثكم ؟ كنت جاره ﷺ فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إلى قاتيه ، فأكتب الوحي ، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، كل هذا أحدثكم عنه ﷺ .

وروى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة ؓ قال : كان رسول الله ﷺ طويلاً الصمت ، قليل الضحك ، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر وأشياء من أمورهم . في الجاهلية . فيضحكون ، وربما تبسم معهم^(١) .

وروى مسلم عن سماك بن حرب قال : قلت لجابر بن سمرة ؓ : أكنت تجالس رسول الله ﷺ ؟

فقال جابر : نعم كثيراً ! كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ، ويبتسم ﷺ^(٢) .

يقول عبد الله بن زيد : ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ^(٣) ويقول عبد الله بن الحارث : ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً^(٤) .

وكان ﷺ يمزح مع أصحابه ، لإدخال السرور عليهم ، ليباسطهم ، وليهتدوا بهديه ، ويتخلقوا بخلقه ، فلوا أنه ﷺ ترك الطلاقة مع أصحابه ، والمباسة معهم ولزم العبوس ، والانقباض ، لألزم الصحابة أنفسهم بذلك ، وكذلك التابعون من بعدهم ،

(١) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد . باب في حسن خلقه ﷺ ج ٨ ص ٥٧٨ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي . كتاب الفضائل . باب تبسمه ﷺ ج ٥ ص ١٧٦ .

(٣) سنن الترمذی . باب في بشاشة النبي ﷺ ج ٥ ص ٦٠١ والحديث حسن غريب .

(٤) سنن الترمذی . باب في بشاشة النبي ﷺ ج ٥ ص ٦٠١ .

فمزح ﷺ ليمزحوا ، ولكنه ﷺ بين لهم أنه لا يقول في مزاحه إلا حقاً ، فلا يأتي بباطل ولا بعثت أو يلعب .

وفى الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : إن كان النبي ﷺ ليخالطنا . أى ليلاطفنا ويمازحنا . حتى يقول لأخ لي : يا أبا عمير ما فعل النغير ^(١) .

يروى الإمام أحمد بسنده عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً ، وكان يهدى إلى النبي ﷺ هدية من البادية ، فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى البادية إثابة على هداياه ، وكان النبي ﷺ يحبه ، ويداعبه ، ويقول : إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه وكان زاهر رجلاً دميماً ، فأتاه النبي ﷺ يوماً وهو يبيع متاعه ، فاحتضنه من خلفه ، وهو لا يبصره .

فقال زاهر : من هذا ؟ أرسلنى ... !!

فالتفت زاهر فعرف أنه النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه .

فجعل النبي ﷺ يقول : من يشتري هذا العبد ؟

فقال : يا رسول الله إذا والله تجدنى كاسداً .

فقال النبي ﷺ : لكنك عند الله لست بكاسد أنت عند الله غال ^(٢) .

ومن جملة ما ورد في مزاحه ﷺ ، ما ورد عن أنس رضي الله عنه : أن رجلاً أتى النبي ﷺ يستحمله . أى يطلب منه دابة . فقال له ﷺ : إني حاكمك على ولد الناقة .

فقال : يا رسول الله ﷺ ما أصنع بولد الناقة ؟

فقال ﷺ : وهل يلد الإبل إلا النوق ^(٣) ؟

وجاءت امرأة فقالت : يا رسول الله ﷺ إحملنى على بعير .

فقال ﷺ : أحملها على ابن بعير .

فقالت : ما أصنع به ؟ وما يحملنى يا رسول الله ؟

فقال ﷺ : وهل يجئ بعير إلا ابن بعير .

(١) سنن الترمذى . باب فى المزاح ج ٤ ص ٣٥٧ .

(٢) الفتح الربانى لتحقيق مسند الإمام أحمد الشيبانى ج ٢٢ ص ٢٣٩ .

(٣) سنن الترمذى . باب فى المزاح ج ٤ ص ٣٥٧ .

وروى ابن بكار عن زيد بن أسلم أن امرأة يقال لها أم أيمن الحبشية ، جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : إن زوجي يدعوك .
فقال : من هو ؟ أهو الذي بعينه بياض ؟
فقالت : ما بعينه بياض .
فقال ﷺ : بلى بعينه بياض .
فقالت : لا والله .
فقال ﷺ : ما من أحد إلا بعينه بياض يريد البياض المحيط بالحدقة .
ومن ذلك مما رآه للمرأة العجوز التي جاءتته ترغب الجنة . يروى الترمذى بسنده عن الحسن البصرى رحمه الله قال : أتت عجوز النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ﷺ ادع الله أن يدخلني الجنة .
فقال ﷺ : يا أم فرن إن الجنة لا يدخلها عجوز . فولت وهي تبكى .
فقال ﷺ : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز^(١) . والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ ﴿ جَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾^(٢) .
وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يبتسم في وجوه أصحابه حين يلقاهم ، وفي حديثه إليهم ، تلطفاً بهم ، وموائسة لهم .
يقول جرير بن عبد الله رحمه الله : ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ، ولا رآني إلا تبسم^(٣) .
وروى الترمذى وغيره عن هند بن أبى هالة في حديثه يصف النبي ﷺ قال فيه : جل ضحكه التبسم ، يفتر عن مثل حب الغمام ، والمعنى أنه ﷺ كان يضحك ضحكاً حسناً ، كاشفاً عن سن مثل حب الغمام . وهو البرد . فى البياض والصفاء والبريق^(٤) .

(١) سنن الترمذى .

(٢) سورة الواقعة ، من الآية ٣٥ : ٣٧ .

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٨ ص ٧٨ .

(٤) سنن الترمذى .

وعن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال : ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً وكان ﷺ يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه ^(١) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً ، رجل يخرج منها زحفاً ، فيقول : يا رب قد أخذ الناس المنازل ، فيقال له : انطلق فادخل الجنة ، فيذهب ليدخل فيجد الناس قد أخذوا المنازل ، فيرجع فيقول : يا رب قد أخذ الناس المنازل ، فيقال له : أتذكر الزمان الذي كنت فيه ؟ فيقول : نعم .

فيقال له : تمن قال : فيتمنى ، فيقال له : فإن لك ما تمنيت وعشره أضعاف الدنيا .

فيقول : أتسخر بي وأنت الملك ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ^(٢) .

وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، يؤتى برجل فيقول : سلوا عن صغار ذنوبه واخبئوا كبارها ، فيقال له : عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا ، عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا ، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول يا رب لقد عملت أشياء ما أراها هاهنا يقول أبو ذر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ^(٣) .

وأخرج الإمام أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه خرج إلى بصرى ومعه النعيان وسويبط بن حرملة رضي الله عنه وكلاهما بدرى ، وكان سويبط على الزاد ، فقال له النعيان : أطعمنى .

فقال سويبط : حتى يجئ أبو بكر .

وكان النعيان مضحاكاً ، مزاحاً ، فذهب إلى أناس جلبوا ظهراً . أى إبلاً . فقال لهم النعيان : أتبتاعون . أى تشترون . منى غلاماً . أى عبداً . عربياً فتياً ، فارها ؟

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٨ ص ٧٨ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب صفة جهنم ج ٤ ص ٧١٢ .

(٣) سنن الترمذى . كتاب صفة جهنم ج ٤ ص ٧١٣ .

قالوا : نعم .

قال : إنه ذو لسان ، ولعله يقول : أنا حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك ، فدعوني لا تفسدوه على .

فقالوا : بل نبتاعه ، فابتاعوه بعشر قلائص . أى نوق شابة . فأقبل ليسوقها وقال لهم : دونكم هو هذا .

فقال سويبط : هو . أى النعيمان . كاذب ، أنا رجل حر .

فقالوا : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل فى رقبتة ، فذهبوا به فجاء أبو بكر فأخبر ، فذهب هو وأصحابه إليهم ، فردوا القلائص وأخذوه ، ثم أخبروا النبى ﷺ بذلك فضحك هو وأصحابه حولاً أى كلما تذكروا هذه الفعلة^(١) ومن ذلك ضحكه ﷺ من الأمر العجيب يبلغه .

روى الإمام أحمد فى مسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءت سلمى امرأة أبى رافع مولى رسول الله ﷺ تستأذن رسل الله ﷺ على أبى رافع وقالت : إنه ليضربنى .

فقال ﷺ : مالك ومالها ؟

قال : تؤذينى يا رسول الله .

قال : بما آذيتيه يا سلمى ؟

قالت : ما آذيته بشئ ، ولكنه أحدث وهو يصلى ، فقلت له : يا أبا رافع إن رسول الله ﷺ قد أمر المسلمين إذا خرج من أحدهم ريح أن يتوضأ . فقام يضربنى فجعل رسول الله ﷺ يضحك ويقول : يا أبا رافع لم تأمرك إلا بخير^(٢) .

وسئل ابن عمر ؓ : هل كان أصحاب النبى ﷺ يضحكون ؟

فقال : نعم وإن الإيمان فى قلوبهم أمثال الجبال .

وقد صنع خلق رسول الله ﷺ مع أصحابه ترابطاً معهم تميز بالحب والتقدير والتعظيم ، وكانوا رضوان الله عليهم كالفرش بتجميع حول النور تعلقاً وعشاقاً .

(١) مسند أحمد .

(٢) مسند أحمد .

إن هذا الحب من أصحاب رسول الله ﷺ نابع من قوة إيمانهم ، وصدق يقينهم الذى أودع فى قلوبهم توقير صاحب الرسالة التى أخرجتهم من الظلمات إلى النور ، فأقروا بما له ﷺ من فضل عليهم .

يؤكد هذا. الحب كريم خلقه ﷺ وعظمته ، فقد استطاع ﷺ بالحب أن يجمع القلوب من حوله ، وإن يملأها بالصدق .. ولو كان بغير هذا الخلق لانفضوا من حوله يقول. الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّالْقَلْبَ لَآنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ ^(١) .

لقد رأينا كثيراً من الرؤساء والملوك تنهال عليهم الأسنة ، وتنالهم الأقسام ويتعرضون لحملات ضارية من النقد والتجريح ، والانتهاك والإشاعات ، بمجرد بعدهم عن سلطانهم وانتقال القوة إلى غيرهم وذلك لأنهم لم يعملوا بالإقناع والحب ولم ينشروا بين الناس قيم العدل والتسامح والتكريم ، وإنما اغتروا بالقوة والجاء ، وأهملوا حقوق الناس ، ولجأوا إلى البطش والإرهاب ، فلما ذهبوا ذهب كل شئ معهم .

أما محمد ﷺ فقد ملأ الدنيا بالخير ، واقنع العقول بالحق ، وفاض خلقه على الناس فتعلموا بالسماحة ، والرضى ، والحب ، والكرم ودخلوا فى الإسلام راضين وسعداء ، وبكى ما فى قلوب الملايين من أتباعه ﷺ من حب صادق ، وإخلاص كبير .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

المبحث العاشر

قيامه ﷺ بمهام الرسالة

بجانب أعمال الرسول ﷺ مع أهله وأولاده وأصحابه ، نراه ﷺ يعيش حياته كلها لدين الله تعالى ، متوكلاً على الله سبحانه وتعالى في كل أعماله .

فلقد عاش ﷺ ، قائد للجماعة ، ومبلغاً للرسالة ، ومجاهداً في سبيل الله تعالى ، ومصدر الفتوى والتعليم للأمة كلها ، ولا غرابة في هذا فلقد أدى ﷺ بذلك الأمانة وبلغ الرسالة ، وجاهد في الله حق الجهاد ، واستمر على ذلك حتى تمت النعمة ، وكمل الدين ، وأصبح الإسلام دين العالمين .

لقد كان ﷺ حركة دائمة في كل حياته بعد الهجرة كما كان قبلها ، ولقد أنجز في وقت قصير ما كان يحتاج لمدة طويلة ، . فهيأ للمهاجرين معيشتهم ، وربط المسلمين جميعاً برباط الحب ، والمودة ، والتآلف .

ونظم الحياة الاجتماعية لمواطني المدينة مسلمين وغير مسلمين ، وحدد لكل طائفة ما لها وما عليها ، واستسلم الجميع لحكم الله تعالى ، وارتضوا أن يكون الرسول ﷺ هو الحاكم فيهم .

أقام النبي ﷺ المسجد النبوي ليجتمع المسلمون فيه للعبادة ، ولإداء كافة الأنشطة التي لا بد منها للحركة بالدعوة إلى الله تعالى ، من تعليم وتنظيم ، وإعداد ... الخ .

وأخذ الوحي ينزل عليه بكافة التشريعات الدينية ، ويوضح أمامه الأخلاق النبيلة وأصبح المسلمون بما تمتعوا به قوة وضاءة في أفق الحياة ، تعمل الخير وتنتشره بين الناس ، وتواصل الدعوة إلى دين الله تعالى .

وتتابع نزول القرآن الكريم تبعاً للأحداث والوقائع والمناسبات وتربيةً لأمة أراد الله لها أن تكون خير ما أخرج للناس .

وكان ﷺ يتابع الناس بالتوجيه والإرشاد ، ويبين لهم الوحي ، ويوجههم به حتى كمل الدين ، وتم نزول القرآن ، وتعاضمت السنة خلال المرحلة المدنية .

وكان من الواضح أن الإسلام أخذ يزداد أتباعه كل يوم ، وصارت حقيقته بادية أمام غير المسلمين الأمر الذى أدى إلى زيادة حقد القرشيين على المسلمين فى المدينة .

ولم يكن عجباً أن يبدأ العدوان القرشى على المسلمين بعد نجاح الهجرة ، الأمر الذى أدى إلى بدء الجهاد القتالى ضد أعداء الإسلام واستمرت الحركة بالدعوة حتى تم الإسلام ، وكمل الدين ، ونزل قول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾^(١) .

لم تكن مدة الرسالة المدنية طويلة لكنها رغم قصرها امتلأت بالحوادث العديدة ، والمواقف الشاقة ، والمواجهات المتنوعة ، حتى أن العقل يندهش حين ينظر فى المرحلة المدنية ، ويرى ما حدث فيها .

لقد استمرت المرحلة المدنية عشر سنوات بدأت بالهجرة وانتهت بوفاء رسول الله ﷺ وخلالها عاش المسلمون بالإسلام ... وتحركوا به فى العالمين . لقد قام رسول الله ﷺ خلال هذه السنوات العشر بكل ما كلف به على خير وجه أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى .

تلقى القرآن الكريم من جبريل عليه السلام ونقله كما تلقاه إلى أصحابه الذين اهتموا به حفظاً وفهماً واتباعاً . وبين لهم بسنته ﷺ القرآن الكريم حتى صار الإسلام معلوماً ، مفصلاً ، كاملاً ، شاملاً .

وربى رسول الله ﷺ الأمة على منهج الله تعالى ، وبطريقة تتلاءم مع الواقع وتلتقى مع الخصائص البشرية للإنسان .

وحول ﷺ معاييب الجاهلية إلى محاسن دينية بعد أن تسامى بها ، وهذب حركتها وطهر غايتها ، وضبط حركتها ووجهتها بتعاليم الله ، حتى صارت عوناً للمحتاج ، وانتصاراً للعدل ، والحرية ، والكرامة .

(١) سورة المائدة ، الآية ٣ .

وعرف الناس حقوقهم وواجباتهم ، فقاموا بما عليهم ، ونالوا مالهم حتى ظهرت أمة الإسلام بحضارتها ، تباهى الدنيا بحقيقتها الرائعة التى حافظت على حقوق الفقراء والضعفاء قبل الأغنياء والأقوياء ، وأنصفت أصحاب الحقوق من المعتدين وحررت مسارات الحياة من أى غلو ، أو عدوان ، أو إهمال ، أو تفريط .

إن أمة الإسلام التى رباها رسول الله ﷺ هى النموذج الأسوة ، فقد بلغت الأوج وتميزت بكرم الخلق ، وحسن المعاملة ونبل الهدف ... مع التخلص التام من عنصرية الجاهلية ، وعدوانية الظلم والضلال ، والبعد المطلق عن الأنانية ، والأثرة ، والكبرياء والتعالى .

لقد حققت أمة الإسلام فى مدة وجيزة ما يعجز عن تحقيقه الآخرون فى مئات السنين .

لقد أوجدت على أرض الواقع العدل العام ، وأسست قوة الخير والسلام ، وحققت عملياً التوازن الدقيق بين المسؤولية والجزاء ، والتناغم الجميل بين الحقوق والواجبات ... كل ذلك وغيره بتعاليم الله تعالى التى قدمت الإسلام هدية لإسعاد العالمين .

لقد شهد الواقع بما قام به رسول الله ﷺ حيث دخل الناس فى الإسلام ، وهانت دولة الفرس والروم ... ولن يتمكن أحد من الأعداء أن يتهم محمد ﷺ بأنه ظلم إنساناً ، أو ضيع حقوقاً ، أو أهان ضعيفاً ، أو فرط فى إصلاح .

لقد حرك ﷺ أناساً نائمين ، ووضع فى قلوبهم سر الحركة والنشاط ، حتى صنع منهم الأمة الإسلامية العظيمة التى تصون حقوق رعاياها ، وتحسن تعاملها مع غيرها وأعجب ما صنعه رسول الله ﷺ إيجاد الإنسان المسلم بكل الصدق والإخلاص بعدما كان هذا الإنسان يعيش فساداً مطلقاً . فهو فى العقيدة كان يعبد الصنم والوثن ، وفى النظم والإدارة كان يعيش حياة القبيلة بعنصريتها ، واستعلائها ... وفى الخلق والسلوك لم يكن يعرف إلا البغى ، والخمر ، والفخر ، والهجاء .

وما وجد عند العرب من مزايا كانت صوراً فردية لا تمثل ظاهرة ، ولا تقدم مجتمعا كاملاً ... لكنها شواهد تشير إلى وجود الخير فى العالم ، وتوضح أن فى الناس بذوراً قابلة للنماء إذا وجد من يعتنى بها ، وينميتها .

ومبعث العجب فى هذه الصناعة أن هذا الإنسان تحول بالإسلام إلى صورة مغايرة فى تكوينه ، وتوجهه ، وكافة تصوراته ، وقد وفق الله رسوله ﷺ وقدر له الاستفادة بعناصر الخير ، وإدخالها فى دين الله تعالى .

صار هذا الإنسان عبداً ربانيا يستسلم لأمر الله ، ويجاهد فى سبيله ، ويقبل الموت سعيداً به . أملاً لنيل الجنة ونعيمها المقيم .

ترك هدم الإنسان عنصرية القبيلة ، وعصبيه الجاهلية ، وساح فى أرض الله لا يطيع إلا الله ، ولا يقر إلا بالإسلام ، ولا يخضع إلا لدينه الحنيف ، وتفاعل الجميع مع هذه الروح الجديدة ، والخلق الجديد الذى أخرجه الله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(١) .

والمسلمون اليوم عليهم أن يعودوا للسيرة الذاتية لرسول الله ﷺ ليتشبهوا بها ويقتدوا بمسلكتها لأن هذا الاقتداء واجب شرعاً ، وبخاصة أن رسول الله ﷺ مع أنه صناعة ربانية فقد نشأ وترى ، وعاش كسائر البشر .

رأيناه ﷺ يتيماً ، فقيراً ، عالة ... وشاهدناه يتاجر ويعمل للناس راعياً ... ووقفنا على حياته ﷺ مع زوجاته وأبنائه ، وإخوانه ... وعلمنا كيفيه نومه وأكله وشربه ... كل ذلك عشناه معه وتأكدنا من صدق روايته مما يؤكد أن الاتباع والاقتداء أمر سهل ممكن لمن أراد أن يكون إنساناً كاملاً يعمل للدنيا وللاخرة معاً ... يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾^(٢) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

وكما يحتاج المجتمع الإسلامى المعاصر إلى الاقتداء برسول الله ﷺ فإنه يحتاج أيضا إلى الاقتداء بكل مسلم صاحب رسول الله واتبعه ، وسلك مسلكا رضى الله به عنه .

وحين ننظر إلى المجتمع المعاصر ونقارنه بمجتمع الصحابة مع رسول الله نجد البون واسعا ، والفروق عديدة . يتخير العاقل فى أسباب هذا الانحدار الرهيب ، ويبحث عن العوامل التى بعدت بالمسلم عن إسلامه فى جوانب عديدة ... وأملا فى يقظة المسلمين ، وعودتهم إلى دينهم أشير إلى مسألتين :

المسألة الأولى : أسباب انحدار المسلمين :

ترجع أسباب الانحدار فى الحياة الإسلامية بإيجاز إلى أمور أهمها :

١ . غياب القدوة أمام المسلم :

إن الإنسان بصورة عامة يبحث عن قدوة له يتعلم منها ، ويمتثل شخصيتها ويرجع إليها حين يحتاج لأمر ، أو ليعلم ما يجهله . لقد كان النبى ﷺ وكبار الصحابة هم القدوة أمام معاصريهم ... أما اليوم فلا وجود لهذه القدوة ... وظهر فى حياة الناس قادة فى اللعب والهوى ، وحب الذات ، وارتكاب كل فساد ، وضلال ، والجرى وراء المصلحة الشخصية .

٢ . تداخل المناهج فى المجتمع المسلم :

يحيا المسلمون فى كل أوطانهم بعدد من المناهج متداخلة بفسادها وأخطائها وبذلك غابت الهوية الإسلامية ، وكل فاهم لا يستطيع تحديد المنهج الذى يعيشه المجتمع الإسلامى المعاصر ... ولذا يسأل نفسه :

. هل المنهج إسلامى خالص ؟

. هل هو مادى خالص ؟

. هل هو شرقى ، أو غربى ؟

. هل هو رياضى ، أو فنى ؟ أم ماذا ؟

إن تداخل المنهج وعدم تمسكه باتجاه واحد أفسد الحياة ، وأبعد الناس عن الإسلام ، لقد كان المنهج فى عصر رسول الله ﷺ إسلاميا خالصا ، ولذلك أنتج الإنسان المسلم ، والمجتمع المسلم .

إن المنهج الواحد مسئول عن توجيهاته ، وأعماله ، ونتائجه . ويمكن تعديله أو تركه بعد تطبيقه ، وظهور نتائجه ... وحين تتعدد المناهج تضيق المسئولية ، وتتعارض النتائج ، مع جهالة السبب ، وسقوط الحساب ، وصعوبة التعبير .

٣ تميز أعداء الإسلام وتقدمهم :

يسود العالم اليوم أمم لا تدين بالإسلام ، وتصد الناس عنه ، وتعمل على تشويهه ... وهذا أمر له أثره الضار على الحياة الإسلامية وعلى دعوة الناس للإسلام .

٤ خفوت الصوت الإسلامى :

إن الإسلام يحيا بالعلم ، ويقوم على المعرفة ، ويحتاج إلى الدعوة الدائمة للتربية ، والتذكير ، والحماية ، ومع ذلك نجد خفوت صوت الدعوة مع ظهور تنافر بين الدعاة والنظم السياسية السائدة ... وأيضا فلقد أدى تأخر الدعاة فى السلم الاجتماعى إلى عدم الاستفادة منهم ، وخف تأثيرهم فى غيرهم .

المسألة الثانية : الحاجة إلى نهضة إسلامية :

استمرار الوضع العام للمسلمين على ما هو عليه الآن ضياع للعمر ، وخسران فى الحياة ... لأن المسلم يعيش العقيدة ثقافة ظاهرة لا صلة لها باليقين ، ولا أثر لها فى الحياة العملية ... ويعرف الحلال والحرام ومع ذلك لا صلة لهذه المعرفة فى حياة الناس ، وبذلك ضاعت القيم ، وغابت الأخلاق ، ووجب على كل مسلم أن يعمل لدينه شيئا فى حدود طاقته .

المسلم الفرد مسئول عن فهم دينه ، والالتزام به ، وعدم الجرى وراء عوامل اللهو ، والعبث ، والفجور ... وبهذا الالتزام ترى الرجل المسلم ، وتشاهد الفتاة المسلمة بزيها ، وخلقها ، وسلوكها .

والمسلم فى الأسرة مسئول عن زوجته ، وأولاده . وعليه أن ينشئهم على الإسلام ، ويجيب إليهم الإيمان ، والخلوص لله رب العالمين .

والمسلم فى المجتمع عليه أن يتعاون مع كل مسلم على البر والتقوى ، ولا يتعاون على الإثم والعدوان .

وعلى أولى الأمر أن يراقبوا الله فى كل قول وعمل حتى ينالوا من الناس الحب ، والطاعة ، والتقدير ، ومن الله الرضا والغفران .

إن العالم الإسلامى اليوم فى أمس الحاجة إلى عودة قوية إلى الإسلام لينقذ نفسه من وضعه الأليم إنه محتاج إلى بروز شخصيته المستقلة بين الناس ليكون محل تقدير الآخرين .

وهو محتاج لنهضة مادية شاملة تحتاج إلى التعاون ، والأمانة ، والإخلاص ، والعمل للمصلحة العامة ، ولن يتحقق ذلك إلا بالإسلام .

إن المنهج الإسلامى كفيل بإيجاد أناس كعمر بن الخطاب ؓ ، وصالح الدين الأيوبى ؓ ، وكفيل بإخراج المسلمين من أعمال الظلم والظلام إلى عالم العدل والنور ... ويا ليت قومى يعلمون ويعملون ...

الفصل الثانى

حركة الرسول ﷺ بالدعوة فى المدينة المنورة

تمهيد :

تمت الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بأمر الله تعالى وبذلك بدأت مرحلة جديدة مع الدعوة إلى الله تعالى ، تتميز بخصائصها ، ومفاهيمها ، وأهميتها وتختلف عن المرحلة المكية بصورة كلية . وصار الأمر فيها مهياً لانطلاق الإسلام إلى العالم كله ، بصورة عملية دائمة .

ولم يعد الصراع بين مجتمع واسع وبين أفراد قلائل فيه ، كما كان الحال في مكة ، وإنما تحول إلى صراع بين مجتمع ومجتمع آخر يعادله ، ويتفوق عليه بالإيمان الحق ، وتتبع الصراط المستقيم .

وقد وصلت الدعوة الإسلامية نظرياً إلى العالم كله ، خلال المرحلة المكية ومعها وصلت أخبار ما بين رسول الله ﷺ وبين كفار مكة من عداوة وصراع ، وهذا جعل الناس ينتظرون ما تسفر عنه الأحداث بعد الهجرة ، وما ينتهي إليه الصراع بين أهل مكة وأهل المدينة وأخذ أبناء الجزيرة على الخصوص ينتظرون نتيجة هذا الصراع . ليتخذوا قرارهم بعد أن تهدأ العاصفة . ويستقر البركان .

ولرأى الله تعالى أن ينتصر دينه بمفهوم البشر وسننهم . ليشعر المؤمنون بمسئوليتهم تجاه الإسلام ، ويقوم المسلمون بالواجب المنوط بهم في مجال الدعوة إلى الله تعالى ، وليعلم سائر الناس أن الإسلام قوى بما فيه من تعاليم ، وإرشاد ، وأن الإيمان أساسه الاقتناع والرضى ، وأن الاستفادة بالإسلام تحتاج إلى الاستقامة والطاعة والانقياد والتسليم وخلوص العبودية لله رب العالمين .

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون معه خير أمة أخرجت للناس في المفهم والتطبيق والصدق والإخلاص فاستقاموا على الطريقة الحققة ، وجاهدوا في الله حق الجهاد ، وجعلوا كل أمانيتهم إرضاء الله ورسوله ، ولم يبالوا بأذى ينالهم أو بأذى يضر ينزل بهم ما داموا على المنهج القويم الذي ارتضاه الله للناس .

لقد تمتعت هذه الجماعة بالإسلام في المدينة ، وحولت الفكرة المجردة إلى عمل واقعي . وجعلت المبادئ حركة ناصعة تخاطب العقل ، وتتراءى للعين ،

ويلمسها بوضوح كل من شاهد صحابياً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلقد تحولوا رضوان الله عليهم إلى عباد ربانيين ، يعيشون لله حياتهم كلها .
لقد تمكن المسلمون . خلال . العهد المدنى بقيادة رسول الله ﷺ من إسكات صوت الباطل ، وقهر قوته ، وإيصال الدعوة إلى العالم كله ، بعدما أراحوا رموز الفساد وطواغيت الدنيا ، وجابوا العالم كله دعاء يحملون رسالة الله ، ويجاهدون فى سبيله ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وينشرون الخير بين الناس أجمعين .

وفى هذا الفصل سنعيش مع رسول الله ﷺ ، وهو يتحرك بدعوة الله ، بصور عديدة ، وأنواع كثيرة ، ومعه كان أصحابه ﷺ .
وسياتى هذا الفصل مكوناً من المباحث التالية :

- المبحث الأول : بناء المجتمع الإسلامى .
- المبحث الثانى : تشريع الجهاد وحركة الدعوة .
- المبحث الثالث : السرايا والغزوات قبل "بدر" .
- المبحث الرابع : غزوة "بدر الكبرى" .
- المبحث الخامس : أحداث ما بين "بدر" و "أحد" .
- المبحث السادس : غزوة "أحد" .
- المبحث السابع : أحداث ما بين "أحد" و "الأحزاب" .
- المبحث الثامن : غزوة "الأحزاب" .
- المبحث التاسع : أحداث ما بين الأحزاب والحديبية .
- المبحث العاشر : غزوة "الحديبية" .
- المبحث الحادى عشر : الأحداث بين صلح الحديبية وفتح مكة
- المبحث الثانى عشر : فتح "مكة" .
- المبحث الثالث عشر : الاستقرار العام فى الجزيرة ومواجهة غير العرب .
- المبحث الرابع عشر : السرايا والغزوات فى الميزان .
- المبحث الخامس عشر : وجاء نصر الله تعالى .
- المبحث السادس عشر : انتقال الرسول ﷺ إلى الله تعالى .

المبحث الأول بناء المجتمع الإسلامى

استقر المهاجرون فى المدينة المنورة ، ودخل أغلب الأوس والخزرج فى الإسلام ، وتحولت المدينة كلها إلى مجتمع متكامل ، خال من الصراع ، بعيد عن الضلال والضياع واستسلم الجميع لحكم الله تعالى ، وأنزلوا رسول الله ﷺ بينهم بما يليق به ، فحكموه فى كل ما عن لهم ، وأخذوا برأيه فى سائر ما وجههم إليه . وبذلك ظهر المجتمع الإسلامى بخصائصه . ومزاياه التى بعث الرسول ﷺ لإيجادها فى واقع الحياة ، ولقد قدم هذا المجتمع صورة فريدة فى دنيا الناس ، لم تسبق ، ولم تلحق ، لقد صنع من الضعفاء قوة ، ومن الفقر غنى ، ومن التشرذم والضياع رجالاً عرفوا الحقيقة ، وتمسكوا بها فعاش الحق لهم وسار بهم ، وصاروا أمثلة رائعة ، ومثالاً تجريبياً لمن يريد حياة الكرامة والعزة والرقى .

ومسلمو اليوم أحوج الناس إلى معرفة هذا المجتمع العظيم ليتأسوا به فهم خلفه ، وهو سلفهم .. وكل ما هم فيه من هوان وضياع يجب أن يعيدهم إلى ماضيهم الخالد عساهم أن يتذكروا ، وعساهم أن ينتفعوا .

إن عوامل صناعة المجتمع المدنى بعد الهجرة ليست أموراً فوق الطاقة ولكنها أمور. تحتاج إلى الصدق معها . ولابد فيها من إيمان يستلزم العمل بها ، وإلى معرفة واضحة لمجموعة من الأشياء التى لا بد منها فى الحياة الإسلامية ...

وهى:

. معرفة الله تعالى معرفة تؤكد حقه على العبيد ، وحق العبيد عليه ليقوم الناس بما عليهم ... وبنالوا ما لهم .

. تقرير مقام رسول الله ﷺ فى الناس . ومعرفة دور ما تركه من وحي فى النشاط ، والخلق ، والسلوك ، لأن رسول الله ﷺ لم يستقبل الوحي ليبقى فكرة مجردة ، وإنما حولها بالإيمان إلى طاقة عملية ، وحركة شاملة فى أعمال الناس وأخلاقهم ، وصبغ ﷺ بما أنزل عليه كل الحياة فى المدينة المنورة ، لتتأسى به كل المجتمعات بعد ذلك .

. ضرورة التزام الإنسان بتعاليم الإسلام ، وبخاصة الإنسان المسلم ... حتى لا يتحول الإسلام إلى فكرة للتنقيف المجرد ، وليبق الدين كما كان فى مجتمع المدينة ، قواعد للسلوك ، وضوابط للعمل ، ومنهجاً يسير الأحياء ، وينظم الحياة فى كافة جوانبها ، وحتى نستفيد بمجتمع المدينة المسلم نحاول الوقوف على ملامحه الرئيسية التى بها كان مجتمعاً إسلامياً . وصار أسوة للناس أجمعين .
وأهم العناصر التى ظهرت فى هذا المجتمع ما يلى :

- أولاً -

دين كامل

استمر الرسول ﷺ يدعو الناس فى مكة ثلاثة عشر عاماً . مكتفياً خلالها بالدعوة إلى العقيدة ، لأنها أساس البناء الإسلامى . وللمركيزة الكبرى لإقامة المجتمع المسلم .

إن. المنتشرة الصحيحة تعتمد على العقيدة لاتصالها بالجانب المباطنى فى الإنسان ... ومن المعلوم أن الإنسان يتميز عن سائر الكائنات بهذا الجانب الهام إذ به يتم التصور ويكون التصديق ... وأى عمل خارجى ظاهر يحتاج إلى قرار باطنى ... والإنسان الحر يعمل بما يؤمن به ، ويتفق ظاهره مع باطنه دائماً ... والمنافقون ... والضعفاء ... والمرضى ... والأذلاء هم الذين يفعلون عكس ما ينطقون ، ويبطنون غير ما يظهرون وهذا حال يأباه دين الله تعالى .

إن الإنسان يقوده عقله ، وهو الذى يسهل أمام صاحبه الصعب بعد اقتناعه ورضاه ، وكثيراً ما رأينا من يقدم على إفناء الجسد وهو به راض سعيد ، بصدور القرار من باطن مؤمن بفعل صاحبه .

لقد مكث رسول الله ﷺ يرى المسلمين بالعقيدة حتى صفت نفوسهم ، وسكن الإيمان قلوبهم . وصاروا عبيداً للمعبود . واستسلموا لربهم الخالق العظيم
وحينئذ أتتهم الشريعة جزءاً جزءاً حسب أحوالهم ، وحاجاتهم فأسرعوا إلى التطبيق ، والالتزام العملي الدقيق .

لم يحدث مرة أن ترددوا فى تنفيذ أمر أمروا به ، أو توقفوا عن ترك عمل أمروا بتركه ولو كان العمل هو حاجتهم ، وكل نشاطهم .
والإيمان بالعقيدة هو الذى كون الجماعة الإسلامية الأولى فى مكة قبل الهجرة .

ولم يكن عجباً أن دار القرآن المكى كله حول بيان حقيقة العقيدة ، وتوضيح أركانها ، والاستدلال عليها بمختلف الأدلة لأنه بذلك صنع الأمة ، وحقق فى عالم الناس المجتمع الإسلامى العظيم .

فلما تمت الهجرة بدأت التشريعات تنزل ، وأخذت التكاليف الإلهية تظهر والمسلمون يسارعون إلى الطاعة والتنفيذ ، ولذلك لم يكرر القرآن الكريم توجيهاته كثيراً فى أمر شرعى واحد ولم يدلل على حقيقتها ، ولم يبرهن على أحقيتها ، بل كان يكتفى غالباً بمجرد الأمر أو النهى .

وكان الصحابة رضي الله عنهم يترقبون الأمر ليتحول سريعاً إلى العمل ، وإذا تضمن التوجيه نهياً يظهر أثره قولاً ، ويختفى المنهى عنه حالاً ، وقد شملت التوجيهات الشرعية كافة الجوانب العملية فى حياة الأفراد وسائر الناس .

وكانت مسارعة المسلمين للالتقى سبباً لتوجههم نحو رسول الله ﷺ يأخذون قوله وعمله ، ويسألونه عما لا يعرفون ، ويسمعون منه ما يريد ﷺ وما ينزل عليه لقد تعلم الصحابة العقيدة ، وآمنوا بها وهم فى مكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة .

فلما تمت الهجرة بدأ الوحي يوضح الأحكام الشرعية لأفعال الناس... واستمر ذلك حتى تمت الشريعة . فتم الإسلام بذلك وكمل الدين ، ونزل قول الله تعالى : ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ^(١) .

إن الأحكام الشرعية تنقسم إلى قسمين :

(١) سورة المائدة ، الآية ٣ .

القسم الأول : الأحكام الشرعية المحددة المعروفة :

وهى المتصلة بالعبادات المشروعة كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ...
وأحكام هذه العبادات مفصلة بأدلتها الشرعية وكذلك أحكام النكاح ، والميراث ،
والفرق بين الزوجين إلى غير ذلك مما ورد مفصلاً فى شريعة الإسلام .
ومن المعلوم أن الصلاة شرعت فى ليلة الإسراء والمعراج على نحو ما سبق
ذكره .

وكان ذلك قبل الهجرة ، ولم يتمكن المسلمون من إقامتها فى جماعة ، وكانوا
يؤدونها

فى البيت الحرام ، والكعبة محاطة بالأصنام والأوثان ، فلما كانت الهجرة
تأسس مسجد قباء ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام يقول الله تعالى فيه : ﴿
لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ مُحِبُّونَ
أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾^(١) وقد صلى الرسول ﷺ والمسلمون معه
فى هذا المسجد جماعة ، وأقاموا به أول جمعة فى الإسلام .

وبالنسبة للزكاة فقد شرعت بعد الهجرة بخمسة أشهر فى إطار المؤاخاة التى
نظمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار^(٢) .

وبالنسبة للصوم فقد شرع بعد الهجرة بثمانية أشهر بعد تحويل القبلة بشهر
واحد ، ومع تشريع الصوم شرعت زكاة الفطر ، كما شرع الحج لما تيسر أدائه بعد
الحديبية ، واستمرت أحكام هذه العبادات تنزل تباعاً ، فكلما جد أمر نزل حكمه ،
وعندما يحتاج المسلمون لحكم جاء الوحي به .

القسم الثانى : الأحكام الشرعية للعبادات غير المحددة :

وهى تشمل سائر أنشطة الإنسان فى الحياة ، لأن لكل جزئية حياتيه حكم
شرعى يضبطها .

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٨ .

(٢) الفصول فى سيرة الرسول ﷺ لابن كثير ص ٥٦ .

وأُنشِطَ الإنسان ليست ثابتة ، ولكنها متغيرة متجددة ، وللايمان دخل فيها فحياة الإنسان ومعايشه فى تطور دائم ، ولذلك قضت حكمة الله تعالى أن تنزل أحكام هذه العبادات فى صورة مبادئ كلية ، وقواعد عامة ، حتى يتمكن العلماء من أخذ أحكام الحوادث الجديدة من القواعد والمبادئ وفق أصول علمية ، وتبعاً لضوابط إسلامية لا بد منها فى أى حكم مستتبط .

وفى إطار- أحكام- هذا. المقسم لا. يمكن تصور- مسألة ما بلا حكم شرعى إسلامى ، وبذلك كان صلاح الإسلام لكل زمان ومكان .

لقد تم الإسلام. فى المدينة بعد الهجرة بعناصره جميعاً ، وبرزت. الأحكام الشرعية بجانب أحكام العقيدة ، وتكامل حسنهما معاً بالأخلاق الإسلامية الكريمة .

وقد تميز الإسلام بمزايا عديدة ، من أهمها ما يلى :

١. مراعاة الفطرة البشرية :

الفطرة هى الطبيعة الأولى التى خلق الله الإنسان عليها ، والجبلة الحقيقة التى يتكون منها ، والإسلام يراعى هذه الفطرة ، وينميها ، ويمكنها من مسارها الصحيح ، وذلك ملحوظ فى دوران كافة الأحكام الشرعية فى إطار الطاقة البشرية ، فلا يأمر الإسلام بمستحيل فعله ، ولا ينهى عن فعل مستحيل تركه ، بل كل ما جاءت. به المشريعة يمكن عمله وتنفيذه . كما أن. الاستقامة عليه تريح النفس ، وترضيها .

إن الفطرة تجد راحتها حينما تصدق فى طاعة دين الله تعالى ، وتتلاءم معها وتسعد بها ، و تتشوق للعمل الإسلامى إن تركته ، وتبحث عنه إن بعد عنها .

إن الإسلام يعرف طريقه إلى النفس البشرية ... يعرف مداخلها ومخارجها ، فيسلك إليها على استقامة ، ويعرف حاجاتها ومطالبها فيلبّيها ، ويعرف طاقاتها فيطلقها للعمل والبناء ... وينمى الجوانب الإيجابية فى النفس البشرية كالميل نحو الخير ، وحب الأمن ، وغلبة العدو ، ويحارب الجوانب السلبية كسوء الخلق ، والاندفاع نحو الشهوات المحرمة .

إن الإسلام نظام كامل للإنسان الذى يعيش على سطح هذه الأرض . يضع فى اعتباره فطرته ، وخصائصه النفسية ، والعادية ، والعقلية .
إن تعاليم الإسلام تلتقى مع الفطرة السوية ، وتحقق لها سائر رغباتها ، وتوجد معها الأمن والسعادة ، وذلك لما فيها من حلول لكافة حاجات الإنسان على وجه كامل تام .

٢. الشمول :

ونعنى بالشمول فى الإسلام أنه يشرع للإنسان فى كل حالاته ، وفى مختلف قضاياهم ، يشرع له صغيراً وكبيراً ، ذكراً وأنثى ، حياً وميتاً ، قوياً وضعيفاً ، مريضاً وصحيحاً ، غنياً وفقيراً ، حاكماً ومحكوماً .
ويشرع له وهو فرد واحد ، وهو فى جماعة ، بل ويشرع لعلاقة الجماعة مع غيرها وللأمة مع سواها .

إن الإنسان أينما كان يجد فى شرع الله طلبه ، ويعرف طريقه ، وهو نوع من الإعجاز يشهد بريانية الشريعة ، وإتيانها من عند الله تعالى .
ومن روعة هذا الشمول الاستمرارية ، فهو دائم إلى يوم القيامة بلا خلل ولا نقص أبداً .

لقد عاش المسلمون فى عصر النبى ﷺ مع شريعة الله ، ولستقاموا على توجيهاتها بدقة ، فوجدوا فيها حلاً لكل قضاياهم ، وتقدماً فى حياتهم فسعدوا ، وعاشوا فى بركات الله تنزل عليهم من فوقهم ، وتأتيهم رغداً من كل مكان .
يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعَ هَذَاى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٢) .

(١) سورة طه ، الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٩٦ .

وقد تحقق للمسلمين ما وعدتهم به الآيات. ، فبعدوا. بفضل الله تعالى عن الانحراف. العقل ، والمشقاء. فى الحياة. ، وأحاطتهم بركات. الله من كل ناحية ، وعاشوا آمنين سعداء .

- ثانياً -

قيادة أمينة رائدة

أخذ رسول الله ﷺ فى قيادة المجتمع الإسلامى فى المدينة بمنهج الله تعالى بعدما صار أكثر من فيها مسلمين .

وأخذ رسول الله ﷺ يغذى أرواحهم بالقرآن. المنزل. عليه. ، ويقوى إيمانهم بالتقوى ، ويعبدهم الله رب العالمين .

وقد تجلت عظمة القيادة فى شخصية رسول الله ﷺ فهو عليه الصلاة والسلام كان. يبلغهم كل ما ينزل. عليه من ربه بمجرد. نزوله. ، ويحضهم على الاهتمام بالقرآن. الكريم ويقول. لهم ﷺ : " من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ، بل ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف" (١) .

إن إقبال القلوب على القرآن الكريم يجعلها تعيش نوره ، وتسعد بطاعته وتعزز بهدى الله ، ورضاه ، لقد بلغ الرسول ﷺ كل ما نزل استجابة لأمر الله تعالى له فى قوله ﷻ : ﴿ يَتْلُوهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

وكان ﷺ يقول للناس : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ (٣) . لم يكتفِ ﷺ أمراً كلف بتبليغه ، ولم يتقول على الله كلمة واحدة ... وكانت أمانته بارزة لكل من عاشره فهو الأمين مع نفسه ، ومع الناس ، ومع الله .

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٣٣٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٩ .

وكان ﷺ شديد الحرص على إسعاد الناس بالإسلام ، وكثيراً ما كان يتألم لانصراف البعض عن الإيمان ، والتصديق .
يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .
ويقول سبحانه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٢) .

وكان الله تعالى يخفف عن الرسول حزنه وألمه لما كان يراه من بعد فريق عن الإيمان فيقول سبحانه : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٣) .

كان ﷺ شديد الحب لأصحابه وأتباعه ، وكثيراً ما حذر من أى أذى يلحق بهم .

يقول ﷺ : "الله الله فى أصحابى فإن أحدهم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ، ولا نصيفة" (٤) .
ويقول ﷺ "لا تسبوا أصحابى" (٥) .

وكان ﷺ يركى أهل التزكية منهم ، ويصفه بما هو فيه ، ويعلى قدره بين الناس ... يقول ﷺ عن أبى بكر الصديق : "أن أمن الناس على فى ماله وصحبته أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً" (٦) .

(١) سورة المائدة ، الآية ١٢٨ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٦ .

(٣) سورة ق ، الآية ٤٥ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة ج ١٦ ص ٩٢ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة ج ١٦ ص ٩٢ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووى - كتاب فضائل أبى بكر ج ١٥ ص ١٥٠ .

ويقول ﷺ : "ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها ، ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله تعالى بها يوم القيامة ، وما نفعتني مال قط ما نفعتني مال أبي بكر وما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة إلا أبا بكر" .

ويقول ﷺ عن عمر بن الخطاب : "قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم" (١) .

ومن أقواله ﷺ : "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر .

وأشدهم في أمر الله تعالى عمر .

وأشدهم حياءً عثمان .

وأقضاهم على .

وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل .

وأفرضهم زيد بن حارثة .

وأقروهم أبي بن كعب .

ولكل أمه أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح .

وما أظلت الخضراء (يعنى السماء ، واطلالها تغطيها لما تحتها) ولا أقلت الغبراء (يعنى الأرض ، وإقلالها حملها لما فوقها) أصدق لهجة من أبي ذر .

أشبهه عيسى عليه السلام في ورعه" (٢) .

وكان ﷺ شديد الحرص على أصحابه ، رحيماً بهم ، عطوفاً عليهم ، يتمنى أن لا يصيبهم أذى ، فلم يأخذهم بظنه ، ولم يسرع بعقوبة ، أملاً في مخرج لهم .

يروى مسلم بسنده أن معاذ بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت ، وإنى أريد أن تطهرنى فرده .

فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إني قد زنيت فرده الثانية .

فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال : أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً ؟

فقالوا : ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي . فضائل عمر ج ١٥ ص ١٦٦ .

(٢) الفتح الرباني . باب فضل أبي بكر وعمر ج ٢٢ ص ٣٧٠ .

فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله .
فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم .
فجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله إني قد زينت فطهرني وإنه ردها
فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردني ؟ ... لعلك أن تردني كما رددت
ماعزاً فوالله إني لحبلى .
قال لها : أما لا فاذهبي حتى تلدى فلما ولدت أتنه بالصبي في خرقة قالت :
هذا قد ولدته

قال لها : اذهبي فأرضعيه حتى تفتطيه ، فلما فطمته أتنه بالصبي في يده
كسرة خبز فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام .
فدفع ﷺ الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ،
وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على
وجه خالد ، فسبها ، فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها فقال : مهلاً يا خالد فوالذي
نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى
عليها ودفنت^(١) .

وكان ﷺ لا يسمح بالشفاعة في الحدود أبداً بعد ثبوتها ، والتأكد من وقوعها
ولذلك لما أتهم قريش شأن المخزومية التي سرقت ، وكلمه أسامه بن زيد ﷺ .
كطلبهم . قال له ﷺ : أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟
ثم قام فاخطب ثم قال ، إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق
فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف ، أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو
أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها^(٢) .

وكان نبينا ﷺ يحب مع هذا درء الحدود عن المسلمين ما استطاعوا ،
ومن أقواله ﷺ : ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له

(١) صحيح مسلم - كتاب الحدود . باب حد الزنا ج ١١ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الحدود . باب كراهية الشفاعة في الحد ج ١٠ ص ٢٧٣ .

مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام أن يخطئ في العفو ، خير من أن يخطئ في العقوبة^(١) .

وكان ﷺ يلتزم بفعل كل ما يأمر به ، ويترك كل ما ينهى عنه ، ويتحرك في مقدمة الجيش حين الغزو ، ويقول لأصحابه ما قاله الله تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾^(٢) .

عاش ﷺ بين أصحابه يريهم بالقرآن ، ويدعوهم إلى الله تعالى ، وقد هداه الله إلى مفاتيح القلوب بالحسنى ففتحها ، واستمر يغذى نفوسهم بعظمة الإسلام ، ونور الموحى حتى خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، وصاروا رجالاً يعملون لله ، ويوجهون الدنيا لسعادة الآخرة .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي : لقد كان هذا الانقلاب الذي أحدثه ﷺ في نفوس المسلمين أغرب ما في تاريخ البشر ، وقد كان هذا الانقلاب غريباً في كل شيء : كان غريباً في سرعته ، وكان غريباً في عمقه ، وكان غريباً في سعته وشموله ، وكان غريباً في وضوحه وقربه إلى الفهم . فلم يكن غامضاً ولم يكن مدهشاً ، ولم يكن شاذاً . ككثير من الحوادث المارقة للعادة ، ولم يكن لغزاً من الألغاز يصعب إدراكه ، والوقوف على أسرارهِ وإنما كان انقلاباً قائماً على فهم واع ، وقناعة كاملة ، وحب صادق متجذر في الوجدان ، والضمير .

إنه حب لرسولهم الذي جاءهم من الله بدين الله يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٣) .

(١) نفحات الحبيب الشفيع ص ١٥٦ .

(٢) سورة هود ، الآية ٨٨ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٦٤ .

إنه ﷺ لم يدعهم لملك شخصي ، أو مجد قومي ، أو دنيا زائلة ... وإنما هداهم الله إلى الصراط المستقيم وعرفهم بطرق الخير ، ووضعهم أمام حجة الله خالصة نقية ، فكان منهم ما استحقه ﷺ^(١) .

- ثالثا -

مؤمنون صادقون

صدق. مجتمع المدينة في إيمانه بالله ،. وقدم أفرادهم صورة صحيحة عن الإسلام ، وبدأوا يتلقون تعاليم الله تعالى التي جاء بها الوحي تلقيا صحيحاً .
فلقد كانوا يهتمون بالقرآن الكريم والسنة النبوية حفظاً وفهماً ، ويحيطون بكل ما ينزل ، ويعلمون ما يحمله من توجيه وأحكام ، وإن غاب عنهم معنى سألوا عنه رسول الله ﷺ .

وكانوا يتلقون ما يأتيهم من الوحي بالعمل والتطبيق والتنفيذ ، وبذلك كانوا صورة عملية للوحي المنزل ، أحلوا حلاله ، وحرموا حرامه بكل دقة وإخلاص .
وكان عملهم وفق تعاليم الله مصاحباً للحب والمرضى ،. لأنهم بهذا العمل يعيشون مع الشرع المحكم ، ومع الله العزيز ، ومع الحق المطلق الذي أنزله العليم الخبير .

وكان من إخلاصهم مع تعاليم الله أنهم طرحوا ما عداه فلم يأخذوا من مواريث فارس أو الروم ، وإن تلاقى في بعض جزئياته مع تعاليم الله .
إن ما جاء من عند الله يكفيهم ، وهم به سعداء ، فلم يتركوه وهو الكامل إلى غيره وهو الناقص !!؟

ولم يتركوه وقد التزموا بإسلامهم وعليهم أن يتمسكوا به !!؟
ولم يتركوه ، والترك يمثل خلاً في إيمانهم ، ونقصاً في تدينهم !!؟
ولم يتركوه ؟ وقد ثبت فضله ، وتأكدت نتائجه !!؟
إن تلقى هذه الجماعة المؤمنة للوحي المنزل كان قائماً على معرفتهم

(١) نفحات الحبيب الشفيع ص ١٥٩ .

بحقيقته ، وإيمانهم بالواجب معه ، وفهمهم لضرورة وضعه فى المقام الذى هو جدير به .

إن الوحى هو كلام الله الذى نزل للناس ليكون دستور الحركة ، وقانون الحياة ، وهو يصور علامة فارقة بين حياة الجاهلية والحياة الإسلامية .
ولقد تلقى الصحابة الوحى بعقولهم ، وأعمالهم ، وسلوكهم ، وأحوالهم ، وصاروا به صناعة جديدة .

لم يتلفتوا معه إلى غيره مما صنعه البشر ، ولو أتاهم من ممالك الأرض المشهورة (فارس والروم) لأنهم لا يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، ولم يخلطوا الوحى بغيره لأنهم لو فعلوها لكانوا ظالمين لأنفسهم ولدينهم لأنهم حينئذ يساؤون تعاليم البشر بتعاليم الله تعالى .

إنهم كانوا مع الله صادقين ، وكانوا يعلمون أن أهل الباطل يعملون على إضلالهم ، ولبعادهم عن الحق ، فى جرأة على الخير ، وليستهتار بالحقيقة ، واستدلال قبيح يعتمد على البهتان والسوء .

إن منطق أعداء الله واضح فى قيامه على الإفك ، وبعده عن مسلمات العقل وبداهة الحكمة ، إنها جرأة تقلب الأمور ، وتجعل الحقائق أباطيل ، بلا أدنى إحساس بالخجل والأسف مثل قوله تعالى عن قوم لوط إذ قال بعضهم لبعض : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ۖ ﴾^(١) فلقد جعلوا المطهارة والعفة تهمة يعاقب فاعلها بالطرد والنفى .

ومثل فرعون ، وهامان ، وقارون ، إذ قالوا : ﴿ قَالُوا إِن هَذَا نِ لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ۖ ﴾^(٢) .
ومثل قول فرعون إذ قال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ ۖ ﴾^(٣) ومثل قوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۗ ۖ ﴾

(١) سورة النمل ، الآية ٥٦ .

(٢) سورة طه ، الآية ٦٣ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٣٨ .

إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ^(١) حيث نرى الآيات تبرز كلمات فرعون وهو يثبت أنه الإله ، وأنه واضع الطريقة المثالية ، وأن موسى عليه السلام داعية فساد ، وأنه يعمل على صرف الناس عن دينهم الصحيح !!! علمت الجماعة المؤمنة في المدينة المنورة كل هذا ، وفهمت الإسلام حق المفهم ولذلك اقتصررت. على الأخذ من وحى الله . وتركت ما عداه ولن تزين وتزخرف .

ولقد قدموا من أعمالهم وأخلاقهم المثاليات العوالى التى نتمنى أن نراها فى دنيا المسلمين اليوم ... ومن هذه الروائع :

بايع الرسول ﷺ بعض أصحابه أن لا يسأل الناس ، فكان السوط يسقط من أحدهم ، فينزل عن دابته فيأخذه ولا يقول لأحد : ناوئنيه .

وكان من شدة حبهم وطاعتهم له ﷺ أنه ﷺ نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فما كان من الناس إلا أن أطاعوه ﷺ وأصبحت المدينة لهؤلاء الثلاثة غريبة ، عجيبة ، كأنها مدينة الأموات ليس بها من يكلمهم ، أو يجيبهم ، كأنها لا تعرفهم ، وكأنهم فى خصومة مع الجميع ، وضافت عليهم الأرض بما رحبت .

يقول كعب بن مالك ؓ : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، فاجتبتنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى نفس الأرض ، فما هى الأرض التى أعرف . ولقد مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام .

فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟؟؟ فسكت ، فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيني وتوليت حتى تسورت الجدار .

وكان من صدق طاعة كعب بن مالك وهو فى المحنة أن رسول الله ﷺ يأتيه ويقول له : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فيسأله : أطلقها أم ماذا أفعل ؟

(١) سورة غافر ، الآية ٢٦ .

فيقول له الصحابي : لا ، بل اعتزلها فلا تقربنها .
فيقول كعب لامراته : إلهي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر وكان من حبه ﷺ ، للرسول ﷺ وإيثاره على كل أحد في الدنيا ، أن ملك غسان يخطب وده ، ويستلحقه بنفسه ، (وتلك محنة عظيمة) ولكنه يرفض ذلك .

يقول كعب : بينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام لبيعه بالمدينة يقول : من يدلني على كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاعني فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته ، فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، ولا مضیعة ، فالحق بنا نواسك .

فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها^(١) .
ومن دقتهم ﷺ في طاعة شرع الله تعالى ، ومسارعتهم في الامتثال أنه لما نزلت آية تحريم الخمر حرموها على أنفسهم للحظتها ، يقول بريدة : بينما نحن قعود على مجلس شراب وعندنا باطية (إناء خمر) لنا ونحن نشرب الخمر حلالاً ، إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر بقوله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٢) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطٰنُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾^(٣) .

يقول بريدة : فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم ، وبعض القوم شربته في يده ، شرب بعضاً ، وبقي بعضاً في الإناء ، فألقوا بالآنية ، ورموا ما في باطيتهم وقالوا : انتهينا ربنا ... انتهينا ربنا^(٣) !!

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب حديث كعب بن مالك ج ٨ ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٩٠ ، ٩١ .

(٣) انظر سنن النسائي ج ٨ ص ٢٥٣ .

يقول أنس بن مالك : إني لقائم أسقى أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال : وهل بلغكم الخبر ؟ فقالوا : وما ذاك . قال : حرمت الخمر . قالوا : أحرق هذه القلال يا أنس . فما سألوا عنها ، ولا راجعوها بعد خبر الرجل^(١) .

وعن أبي هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات ، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾^(٢) فقال الناس ما حرم علينا إنما قال فيهما إثم كبير ، وكانوا يشربون الخمر حتى إذا كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم الصحابة في المغرب خلط في قراءته فأنزل الله فيها آية أغلظ منها : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾^(٣) وكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق ، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٤) إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوة^(٥) فهل أنتم متنبهون^(٤) فقالوا : انتهينا ربنا .

(١) صحيح البخارى - كتاب التفسير . باب إنما والخمر والميسر ج ٧ ص ١٩٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٩ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٤٣ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٩٠ ، ٩١ .

ووصل الصدق في التسليم والخضوع إلى أن الواحد منهم كانت تنتابه لحظة ضعف فيأتي لرسول الله مقرأً بفعله لينال العقاب الذي حدده الله تعالى ، وقد يكون في العقاب إزهاق روحه ، وذلك كما فعل ماعز والغامدية إذ جاءا للرسول وأقرا بالزنى وهما محصنان فرجمهما عليه الصلاة والسلام^(١) .

إن هذا المجتمع الذي أسسه رسول الله ﷺ بالعقيدة الإسلامية كان صورة صادقة لتعليم الإسلام وتطبيقاته ، فكل من فيه صدق إيمانه ، وقويت عقيدته ، وعبد نفسه للمعبود العظيم .

إن الأمة الإسلامية التي أخرجت للناس قد بلغت الأوج . كانت تعمل لله وتجاهد الله ، وتسعى إلى غايتها المرموقة في حب وثقه ، التفت حول نبيها التقاف التلامذة بالمعلم ، والجند بالقائد ، والأبناء بالوالد الحنون .

وتساندت فيما بينها ، بالأخوة المتبادلة المتناصرة ، فهم نفس واحدة في أجسام متعددة ، ولبنات مشدودة ، في بناء منسق صلب .

وأدارت علاقتها بالآخرين على العدل والبر ، فليس يظلم في جوارهم برئ ، أو يحرم من ألطافهم عان ، أو يؤاخذ أحدهم بذنب غيره ، أو يعطى لواحد ما يستحقه غيره من ثواب .

وبرغم ما وقع على المؤمنين من بغى قديم ، فقد جب الإسلام ما قبله ، فمن تطهر من جاهليته ، وتاب إلى ربه لا ينظر أحد إلى ماضيه ، بل يصير في الجماعة المسلمة عضواً كريماً ، يملأ بصالح عمله كتابه الجديد .

أما المذنب بقوا. يكفرون. ويصدون. ، فلا بد من الإعداد. لهم ، حتى تخلص الأرض من كفرهم وصددهم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾^(٢) .

(١) الفتح الرباني ج ١٨ ص ٨٥ وانظر تفصيل ذلك في ص ٢١٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٦٨ ، ١٦٩ .

كانت هذه الأمة تكدح لله ، وتصل مساءها بصباحها في عبادته ، وقد حُزمت أمرها على واحد من اثنين ، أما أن تحيا لله ، وإما أن تموت فيه . ولو ذهبت توازن بين المسلمين يومئذ وبين سائر أمم العالم لرأيت عناصر الغلب والامتياز تتجمع لديهم صاعدة ، على حين تفور في كيان الأمم الأخرى زلازل عنيفة ، فلا غرو إذا صاروا بعد سنوات معدودات دولة فتية تقضى لربها ولنفسها ما تشاء .

وقد وضع ﷺ من سلوكه مبادئ للعلاقات بين الناس لتحقيق المصلحة للجميع ، وتأکید الأمن لكل فرد .

إن التزام الأمة بتطبيق الإسلام تطبيقاً كاملاً واعياً أبرز كافة عناصر الخير في الإسلام . فلقد حول المسلمين من جماعة همجية إلى أمة متماسكة تسير بالعدل . وتصون الحقوق . وتحفظ الكرامة الإنسانية . وتوجد الأمن والسلام والسعادة ، بصورة أصيلة ثابتة

وهذا الحال للأمة المسلمة جعل غير المسلمين ينظرون بحب وإعجاب إليهم ، ويتمنى أن يكون مثلهم ، ولذلك سارع الناس إلى اعتناق الإسلام رغبة واقتناعاً بعدما شاهدوه تطبيقاً عملياً بآثاره ونتائجه .

إن الجماعة المؤمنة التي صاحبت رسول الله ﷺ عاشت حياتها مجاهدة في سبيل الله متحركة إلى سائر الآفاق ومعها المصحف والسيف ... واستمرت على ذلك حتى تمكنت من صناعة أمة عظيمة تنشر العدل ، وتحمي السلام ، وتصون الحقوق ، وتضمن الكرامة لكل الناس ... وقد اعترف الجميع بما نشرته من خير وإصلاح للعالمين .

- رابعاً -

التفاعل التام بين المسلمين والإسلام

لما تمت الهجرة إلى المدينة المنورة ، صار للإسلام دولة تؤمن به ، وتؤازره ، وتدعو إليه وصدق المسلمون فيما عاهدوا الله عليه ، فتحوّلت مظاهر الحياة ، وكل الأنشطة وسائر المؤسسات إلى شريعة إسلامية تتحرك مع الناس وبهم في

صورة عملية تعبر عن دين الله تعالى ، وتؤكد التفاعل العظيم بين تعاليم الله و بين المؤمنين الصادقين .

وكان المسجد هو أول المؤسسات الدينية التي أقامها المسلمون في المدينة ، فلقد أسس الرسول ﷺ مسجد قباء وهو في الطريق إلى المدينة . ولما وصل إليها ونزل في دار أبي أيوب الأنصاري أسس المسجد الحرام بالمدينة ، ولتأخذ المسلمون دار عبادتهم ، وسياستهم ، ففيه كان ينزل الوحي وفيه يجتمع الأصحاب برسول الله ﷺ ، وعنده تلتقى الوفود برسول الله ﷺ ، ومنه تتحرك الرسائل ، وينطلق الدعاة ، وتجهز الجيوش .

لقد أصبح المسجد هو بيت الإسلام في المدينة ، وبخاصة بعد أن شرع الله الآذان يدوي في الأفق خمس مرات في اليوم واللييلة ، ويتردد صده في الأفق البعيد ويعلم المقاصي وللداني أن أمة الإسلام عزيزة كريمة تعلن حقيقتها بصوت جهوري مكرر. ولضح المعالم بين ، معروف . ، فالله ربههم وهو الكبير المتعال ، ومحمد هو رسولهم ، والمبعوث بدين الله فيهم ، وهو رائدهم إلى الفوز والفلاح ، وإمامهم في الصلاة ، وحياتهم هي الإسلام كله .

يقول ابن إسحاق : كان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة ، إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، فهُمَّ رسول ﷺ حين قدمها أن يجعل لها بوقاً كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم ثم كرهه ، ثم أمر بالنافوس ليضرب به للمسلمين للصلاة ، فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه ﷺ أخو بلحارث بن الخزرج النداء ، فأتى رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله ، إنه طاف بي هذه اللييلة طائف مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده فقلت له : يا عبد الله أتبيع هذا النافوس ؟

قال : وما تصنع به ؟

قلت : ندعو به إلى الصلاة .

قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟

قلت : وما هو ؟

قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال : إنها لرؤية حق ، إن شاء الله فقم مع بلال فألقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتا منك .

فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب ، وهو فى بيته فخرج على رسول الله ﷺ ، وهو يجر رداءه ، وهو يقول : يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله ﷺ قلله الحمد على ذلك^(١) .

لقد آخى النبى ﷺ بينهم فصارت الأخوة رباطاً يربط المسلم بأخيه ، ويلزمه بواجبه نحوه . ويجعل العلاقة بينهما كلها حب . وبر . وتكريم . وعملت أخوة العقيدة على أخوة النسب والمصاهرة ، وخلا المجتمع من أى صورة غير إسلامية فى أى ناحية من نواحي الحياة . وأصبح الكل يحافظ على دين الله تعالى بلا مخالفة ، أو تردد ، ويكتفى به كفاية يعيش بها ، ويعمل لها حتى أن أهل الذمة أقرروا بحق الله عليهم ، واستسلموا لحكم رسول الله ﷺ وعاشوا بعهد الذمة آمنين فى الدولة المسلمة ولم يتمردوا على المسلمين إلا . بعد أن لعب بهم الهوى ، وأضلهم شيطانهم . وكان الله لهم بالمرصاد . فدل رسول الله ﷺ على خبيثة أنفسهم ، فكان أن طهر الرسول ﷺ المدينة منهم حتى صارت مدينة خالصة لله ورسوله .

وأخذت عناصر تنظيم المجتمع تتفاعل ، وتؤدى دورها فى إطار منهج الله تعالى :

- فالإسلام هو المحرك للحياة ، والأحياء .
- والرسول هو رائد الخير ، وقائد الناس .
- والمسلمون هم الصورة العملية لدين الله تعالى .

(١) السيرة النبوة ج ١ ص ٨٠٥ .

وبذلك قام المجتمع الإسلامى ، وظهرت معالمه ، واستحق أن ينزل فى وصفه قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(١) .

واطلع الله على قلوب وأعمال الجماعة المؤمنة فكان معهم بالنصر ، والتأييد ، ويسر لهم بقدرته أمر الحياة وللمعاش . ، وخصهم بما استحقوه من المعون . ، والتوفيق ، والسداد .

المبحث الثانى

تشريع الجهاد وحركة الدعوة

لم يرض القرشيون بما آل إليه شأن المسلمين ، ولم يقبلوا أن يعيش المسلمون فى مجتمع آمن مستقر .

كان المظنون أن تهدأ ثائرة كفار مكة ، وعباد الأوثان بعدما هاجر المسلمون إلى المدينة ، وتركوا ديارهم وأموالهم عندهم ، وابتعدوا عن مقابلتهم ، وتخلصوا من مضايقاتهم وعدوانهم المتكرر على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين .

كان المظنون ذلك لكن الواقع شهد بغير هذا . لأن أهل مكة درسوا موقف المسلمين بعد الهجرة ، وتصوروا أن تواجدهم فى مجتمع خاص بهم سوف يؤدى إلى بروز الإسلام ، ووصله إلى الأماكن البعيدة لعلمهم أن الإسلام هو دين الحق ، وأنه يتلاءم مع الإنسان السوى ، ويرضى العقل السليم .

ومن أجل هذا التصور وضعوا خطة حصار المسلمين . وحاولوا القضاء عليهم فى مستقرهم الجديد .

علم كفار مكة ما كان من عبد الله بن أبى سلول من كراهيته للإسلام فكتبوا إليه ومن كان يعبد معهم الأوثان قائلين لهم : إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

بِالله لتقاتلنه أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم^(١) .

فجمع ابن أبي أشياحه لقتال رسول الله ﷺ والمسلمين معه ، فلقبهم رسول الله ﷺ وقال لهم : لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم ، وإخوانكم ، فلما سمعوا ذلك من النبي تفرقوا^(٢) .

كما عملوا على منع المسلمين من زيارة البيت الحرام بمكة ، وقد حدث أن سعد بن معاذ دخل مكة معتمراً ، ونزل على أمية بن خلف ، فقال لأمية : انظر لى ساعة خلوة لعلنى أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريباً من لقف النهار . فلقبهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، من معك ؟ فقال : هذا سعد .

فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آوitem الصباة ، وزعمتم أنكم تنصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً .

فقال له سعد ورفع صوته عليه : أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على أهل المدينة^(٣) .

وحاولوا أهل مكة العدوان على المسلمين فى المدينة ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يبيت ساهراً ، ويتخذ لنفسه حرساً .

ففى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سهر رسول الله ﷺ حين مقدمه المدينة ليلة ، فقال ﷺ : ليت رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة تقول عائشة : فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح .

فقال ﷺ : من هذا ؟

قال : سعد بن أبى وقاص .

(١) سنن أبى داود باب خبر النصير ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٠ ط . الحلبي .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) صحيح البخارى بشرح فتح البارى - كتاب المغازى . باب ذكر النبى من قتل بـ "بدر" ج ٧ ص ٢٨٢ .

فقال له رسول الله ﷺ : ما جاء بك ؟
فقال : وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ ، فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله ﷺ ، ثم نام^(١) .

ووجد الرسول ﷺ والمسلمون معه أنهم أمام عدو لا يريد السلام ، ولا يفكر إلا في القضاء على الإسلام ، ورأوا ضرورة التصدي لهذا الطاغوت الظالم الذي يعمل على إفساد الحياة ، والقضاء على دين الله تعالى .
وشاءت إرادة الله تعالى أن ينصر جنده ، فكلفهم بالجهاد ، وأذن لهم فيه .
ودرستنا للجهاد هنا نتناول النقاط التالية :

- أولاً -

تعريف الجهاد

الجهاد في اللغة مشتق من الجهد وهو بذل الوسع ، والطاقة ، قولاً وعملاً ، ويعرفه العلماء بأنه بذل الوسع والطاقة مع أعداء الله بالكلمة ، والمال ، والقتال ، لتحقيق غايات عليا .

والجهاد شامل لكل جهد يبذل لترقية الروح ، وتهذيب النفس ، ونشر الإسلام ، ومقاتلة الأعداء إلا أنه عند الإطلاق ينصرف إلى مقاتلة الأعداء ودعوتهم ، وهو مرادنا في هذه الدراسة .

ويعد تعريف صاحب الفتاوى الهندية للجهاد أو في تعاريف الفقهاء وفيه يقول: إن الجهاد هو الدعاء إلى الدين الحق، والقتال مع من امتنع، وتمرد عن القبول إما بالنفس ، أو بالمال ، أو بالكلمة ، أو بغير ذلك^(٢) .

وهذا التعريف الفقهي للجهاد يشتمل على الحقائق التالية :

١ . اشتمل هذا التعريف على سائر العناصر التي تضمنتها أقوال الفقهاء ، وهم يتحدثون عن حقيقة الجهاد ، إذ فيه الدعوة إلى الدين الحق ، والقتال الموجه ضد الممتنعين ، والمتمردين ، والطغاة الذين يصدون عن دين الله تعالى ، ويقفون سداً بين الحق والناس .

(١) صحيح مسلم .

(٢) الفتاوى الهندية ج ٢ ص ١٧٤ .

٢ . قدم هذا التعريف الدعوة بالحسنى قبل القتال ، وهو الترتيب الطبيعي لشريعة الإسلام في الجهاد ، كما أن هذا الترتيب هو واقع ما فعله النبي ﷺ وأصحابه ، حيث مكث ثلاثة عشر عاماً في مكة يدعو بالحجة ، والبرهان ، مع الصبر على ما وقع عليهم من الكفار وتحمل الأذى ، ولم يلجأ النبي وأصحابه إلى القتال. إلا بعد استفاد كافة الوسائل السلمية التى ينشرون بها دعوة الله ، ويصونون حياتهم معها .

٣ . قيد التعريف القتال بأنه ضد من امتنع عن القبول . ، وتمرد. على الأدلة ، صادراً عن سبيل الله ليخرج من الجهاد قتال المستأمن ، والمعاهد ، والذمى ، لأن قتالهم لا يسمى جهاداً ، ولا تقره شريعة الإسلام .

٤ . ذكر التعريف وسائل الجهاد وأشار إلى أنها تكون بالمال ، وبالنفس ، دعوة أو قتالاً ، وبذلك فحصر الجهاد فى القتال أمر غير مستساغ فى دين الله تعالى .

وصف التعريف الدعوة فى الجهاد بأنها الدعوة إلى الدين الحق ، فأغلق بذلك الأبواب فى وجه دعاة الهوى ، الذين يلتصقون بالدين زوراً للكيد له أو التكسب به ، ومنع التعريف بهذا القيد وصف دعاة الوثنية ، ودعاة الأديان المحرفة بالمجاهدين ، لأن دعوة هؤلاء وأمثالهم ، ليست إلى الدين الحق ، لأن الدين الحق هو الإسلام يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾^(١) . ويقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٢) .

٥ . يتفق هذا. التعريف مع القرآن. الكريم فى تقييد الجهاد. بأنه فى سبيل الله ، وسبيل الله هو دينه جاء فى "الفتوحات الإلهية" أن المراد بالسبيل دين الله لأن السبيل فى الأصل الطريق فتجوز به عن الدين لما كان طريقاً إلى الله بعلاقة المجاورة^(٣) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٨٥ .

(٣) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين ج ١ ص ١٥٣ .

يقول الرازى : سبيل الله أى طاعته وطلب رضوانه ، وهذا لا يكون إلا باتباع دين الله وتطبيق تعاليمه^(١).

ومن الملاحظ أن لفظ "سبيل الله" الذى هو اتباع الدين ، كما جاء فى القرآن الكريم قيّداً للقتال لإعلاء دين الله ، جاء أيضاً قيّداً للإنفاق لتقوية دين الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٢).

وجاء قيّداً لأى عمل يؤدى إلى الهدف المذكور كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِقًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾^(٣) حيث جعلت الآية الهجرة من أجل الدين فى سبيل الله .

وبهذا. نذكر. شمول. الجهاد للدعوة ،. وللقتال. ،. بالنفس ،. وللمال ،. ولللسان وتكثير السواد ، وعمل الخير ، وإعداد الناس بالعلم ، وتقويتهم بالعمل والسلوك القويم ، ما دام ذلك لإعزاز الدين ، وإعلاء كلمة الله ، وهذا ما عناه جمهور الفقهاء عند تعريفهم للجهاد بمعناه الشامل .

والحق مع هؤلاء الفقهاء لأن الجهاد الإسلامى يعنى بذل الجهد لتبليغ الدعوة بالوسائل السلمية ، وبلوغ الغاية المرجوة فى ذلك ، ولا يلجأ إلى القتال إلا عند حدوث مقتضاه كاعتداء على الدعوة ، أو على الدعاة ، أو على الوطن . إنه باختصار لنشر العقيدة الإسلامية ، ولحمايتها من الفتنة ، ولحماية دعائها فى ديارهم وبين سائر الناس .

وإذا تبين الجهاد بهذا المعنى الشامل فإن من الخطأ فهم الجهاد على أنه اعتداء ، أو إيذاء ، أو قهر ، أو جبر على الدخول فى الإسلام .

(١) تفسير الرازى ج ٢ ص ٢٥٥ ط. دار الفكر .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٤١ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١٠٠ .

إن الجهاد فى سبيل الله كما اتضح من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية لا يصادر الحرية ، بل هو صيانة لها .

وليس الجهاد وسيلة لاندلاع نيران الحروب ، لأنه فى الواقع يضع النهايات السلمية للصراع ويريح البشرية من شرور الحروب .

وليس الجهاد نهباً للأموال ، بل هو الوسيلة لحماية الإيمان ، والإيمان هو العاصم الحافظ للمقدسات ، والأعراض ، والأموال .

ليس الجهاد لقهر الناس وإخضاعهم مهما كانت الغاية ، لأنه إفساح الطريق للدخول فى دين الله ، وهو الدين الذى ينشر لواء العزة ، ويحمى الذمار ، ويصون الكرامات ، ويعتمد على الاختيار الحر ، والافتناع السليم والله تعالى يقول : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(١) .

إن المجاهد يتقرر فى الإسلام. حماية للحرية .، وصيانة للفكر ، ليحول بين الناس وبين من يصددهم عن اختيارهم للدين القيم .

إن. الأمر فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(٢) يحدد الوسائل المشروعة وهى تعنى أن تكون الدعوة فى الإسلام بالحجة والبرهان لا بالسيف والمعارك ، وأن التاريخ ليسجل دائماً أن العقائد لا تتحقق بالطغيان ، إذ هى اعتقاد يحل فى القلب ، وتتبوأ فى الضمير ، وتسكن فى الباطن الأمين .

ولم يدع الله أمر القلوب للكشف ، والبروز ، والظهور ، حتى لا تكون هدفاً يدركه الطغاة ، ويحركونه تبعاً لأهوائهم بضربات الأيدي ، أو برشقات السيوف ،

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

أو بما شاكلها من أدوات الحديد والنار .
إن القلب غيب عن الناس . لا تدرك مشاعره إلا بالإحساس الروحي . أو
المعنوي . ولا سبيل للسلاح إلى هزم المعاني حتى تفتح بالضرب . وتغلف
بالضرب .

وما دام شأن القلب هكذا ، فإنه من المحال أن يوجه السيف إليه ، أو يغير
بقوة وإرهاب ... وذلك يؤكد سمو غايات الجهاد ، وبعده عن أى عنت أو ظلم ، أو
عدوان .

لقد أمضى النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً وهو يتلقى مع أصحابه كل
يوم منذ أن جهر بالدعوة صنوفاً من العذاب. تحملوها صابرين ، وصمدوا لكل
مكروه ، فلم يفتنهم عن دينهم عذاب مهما طال ، ولا إيذاء مهما عظم ، بل اعتزوا
بالله ورسوله ، وكفوا حتى عن مقابلة الإساءة بمثلها .

وعلى كل حال فإن الجهاد في سبيل الله لم يمتن كرامة ، ولم يبدأ بعدوان ،
ولم يلجأ المجاهدون في سبيل الله إلى أموال الوادعين لنهبها ، وإن كانت ظروف
القتال قد ألقت إليهم أموال العدو ، ووضعت في أكفهم الغنائم فأحلها الله لهم .
وهكذا كان الجهاد ، وعلى هدى ذلك يجب أن يستمر^(١) .

- ثانياً -

مراحل تشريع الجهاد

يتصور بعض المستشرقين ، ومن يشايعهم من أعداء الإسلام أن الجهاد شرع
لقهر الناس ، وإجبارهم على الدخول في دين الله تعالى ، وهذا افتراء مردود ، لا
دليل له، وكل الوقائع تشهد بكذبه .

إن الجهاد في جملته يخضع للمبدأ العام الذي يتفق مع الفطرة ، القائم على
أساس مدافعة العدوان ، والتصدي للظلم ، وحماية حق الإنسان في الحرية والكرامة

(١) الجهاد في الشريعة ص ٤١ رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الدراسات الإسلامية للبنات
القاهرة تأليف الدكتورة نعمات محمد على الهانسي .

، وهو مبدأ ثابت ، يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ فَأَعْتَدُوا عَلَيْكُمْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(١) .

والعقوبة بكافة صورها في الإسلام نوع من مدافعة الجريمة على قدرها وهو مبدأ حق وعدل ، لأن الظلم لو ترك لعم الفساد ، ولو تجرد الحق والعدل من قوة الحماية لأصبحت الشئون للطغاة ، وساد في الناس البغى ، والفساد . وللمجتمعات. على اختلافها تتمنى مدافعة الأعداء. ليعتدوا بها الأمر ، وتصلح الحياة ، والجهد هو الذي يحول هذه الأمانى إلى حقيقة يسعد بها الناس . ولا لوم مطلقاً على من يدفع ظلماً ويرده ، بل إن رد الظلم هو سر البقاء يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٢) .

وقد تمسك المؤمنون منذ البداية بحقهم في الانتصار ، ورد الظلم والبغى مع المحافظة على العدل وصيانة حقوق الناس - يشير الله إلى هذا في القرآن المكي ولصفاً المؤمنين فيقول. الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾^(٣) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾^(٤) وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾^(٥) .

يقول الرازى : إن الانتصار. يجب أن يكون. بالمثل ، فإن النقصان. حيف والزيادة ظلم ، والتساوى هو العدل ، وبه قامت السماوات والأرض ، ويقول : إنه لا يصح العفو إلا إذا كان سبباً لتسكين الفتنة ورجوع الجانى عن جنايته^(٦) . وللجهد. الإسلامى حق وعدل. كله وذلك يتضح من المراحل التى مر بها تشريعه ... وهى :

(١) سورة البقرة ، الآية ١٩٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥١ .

(٣) سورة الشورى ، من الآية ٣٩ : ٤١ وهذه الآيات مكية .

(٤) تفسير الرازى ج ٢٧ ص ١٧٩ ط . دار الفكر .

المرحلة الأولى

مرحلة التحمل والصبر

أمر الله تعالى المسلمين بالصبر والتحمل وكف الأيدي عن غيرهم ، وهم فى مكة قبل الهجرة لأنهم كانوا ضعفاء لا يمكنهم رد الإيذاء ، ومواجهة العدوان .
فى هذه المرحلة كان الأمر بالصبر والتحمل ، مع المحافظة على الدين ، وعدم التسليم للطغاة ، وإباحة الانتصار للنفس بصورة فردية ، أمانة .
والسلبية فى هذه المرحلة ضرورة اقتضتها ظروف المسلمين ، فهم فى مكة قليلو العدد. مستضعفون. ، يخافون. أن. يتخطفهم الناس. ، يقول. ابن كثير . " إن المسلمين لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً منهم ، فلو أمر المسلمون بقتالهم وهم أقل من العشر لشق عليهم^(١) .

وتطبيقاً لتتفيذ فكرة المقاومة السلبية كانت الآيات تأمر فى هذه المرحلة بالمصابرة والتحمل وعدم إطاعة الحاقدين .

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا حَمِيلًا ﴾^(٢) .

ويقول تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٣) .

ومن المعلوم أن الأمر الموجه للرسول ﷺ هو أمر لأمتة .
حتى يكون التحمل أمراً مسلماً به وسهلاً عرف الله المؤمنين بأنه يدافع عنهم فقال : ﴿ إِيَّاكَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾^(٤)
ويجب أن يكون واضحاً أن سلبية هذه المرحلة كانت فى ترك المقاتلة ، وتحمل الأذى منعاً لضرر أعلى، وما عدا ذلك فالإيجابية ثابتة موجودة ، والجهد بالكلمة تشريع مقرر. ، يقول. الله تعالى فى سورة الفرقان. : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) سورة المزمل ، الآية ١٠ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .

(٤) سورة الحج ، الآية ٣٨ .

وَجَهَدَهُمْ بِهِمْ جِهَادًا كَبِيرًا^(١) وسورة الفرقان سورة مكية ، وفى هذه الآية أمر بعدم طاعة الكفار وهم يعارضون القرآن الكريم ، وفيها كذلك الجهاد بآيات القرآن لأن الضمير فى "به" يعود عليه .

فهذه آية مكية أمر الله فيها بالجهاد ، ولذلك استمرت الدعوة فى كافة صورها ، فى مجال إبلاغ الدعوة ، وتبيينها ، وشرح أهدافها لم يحدث أبداً توقف وفى مقابلة شبه القوم. كانت الحجج المقنعة والمواجهة الفكرية ، ولأمام اتهامات المعاندين للرسول ﷺ وتشككهم فى الوحي كان التصدى بالرد. والمحاور. وإثبات. ضلال المعاندين ، وخطأهم ، وكان الوحي خير نصير فى المواجهة .

ويجب أن يتضح كذلك أن هذه السلبية فى المقاتلة لم تكن مبدأ ، وإنما كانت ضرورة عاشها المسلمون ، وعليهم أن يتذكروا حقوقهم خلالها ، ويتربوا لأنفسهم وينتظروا الوقت الذى يتمكنون فيه من استرجاعها ، عساهم يأخذون حقهم الذى سوف ينتصر حتماً .

وكان النبى ﷺ فى خلال هذه المرحلة يشير لأصحابه إلى الفرج ، والمخرج حيث قال للمسلمين قبيل الهجرة إلى الحبشة : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه^(٢) .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٥٢ .

(٢) سيرة النبى ج ١ ص ٣٢٣ .

المرحلة الثانية

مرحلة الإذن بالقتال

بدأت مرحلة الإذن بالقتال بعد الهجرة مباشرة لتنتهى مرحلة المقاومة السلبية ، وذلك بنزول قوله تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾^(١) .

فالله سبحانه وتعالى حين أذن لهم فى الذى كفهم عنه بين السبب فى الإذن وهو أنهم ظلموا خلال المرحلة المكية التى انتهت بإخراجهم ، والاستيلاء على أموالهم ، يقول الزمخشري : هم أصحاب رسول الله ﷺ كان يؤذيهـم المشركون أذى شديداً ، فيأتون الرسول ﷺ ما بين مضروب ، ومشجوج ، يتظلمون إليه ، فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أؤمر بقتال حتى هاجر^(٢) .

وقد بدأت ملامح هذا الإذن خلالبيعة العقبة الثانية حيث بايع رسول الله ﷺ الأنصار على حمايته بما يحمون به أنفسهم وذرائعهم ، وجرت خلال مفاوضات البيعة كلمات تشير إلى ضرورة الاستعداد للتصدى لعدوان من يعتدى على رسول الله ، وعلى دينه وعلى المسلمين إذا قصد المعتزون المدينة المنورة . ولما تمت الهجرة بدت القوة الإسلامية ، وأصبح المسلمون مستعدين لملاقاة أعدائهم وفى إطار هذا الوضع نزل الإذن للمهاجرين بالقتال لاسترداد بعض حقهم والاقتصاص من الظلم الذى لحق بهم .

وهكذا. أذن. الله للمهاجرين بالقتال. بعد الهجرة .، وبدأت. مرحلة المواجهة الإيجابية ، وهى المرحلة الثانية ، وفيها نرى المهاجرين يتصرفون خلالها على أساس أنهم أصحاب حق مهان يجب أن يهاب ، ومن حقهم أخذه بالظفر إن تمكنوا منه ، ولذلك قاموا بعدد من السرايا والغزوات عقب الهجرة لإرهاب من ظلموهم ،

(١) سورة الحج ، الآية ٣٩ .

(٢) تفسير الزمخشري ج ٣ ص ١٥ ط . دار المعرفة .

واستولوا على أموالهم ، وحرموهم من ديارهم ، وقد صحبهم رسول الله ﷺ في بعض هذه الحملات الصغيرة التي حدثت بعد الهجرة ، وقبل غزوة بدر الكبرى .
ولعل ما يؤكد ارتباط الإذن بالقتال بالمهاجرين وحدهم أن جميع المشتركين في هذه السرايا كانوا من المهاجرين فقط .، يؤكد ابن إسحاق. أنهم جميعاً من المهاجرين فيذكر عقب حديثه عند كل سرية قوله : وليس من الأنصار معهم أحد ، ويبين أن رسول الله ﷺ خرج مع أصحابه من المهاجرين في أربع غزوات قبل بدر^(١) .

وما ذكره ابن إسحق يؤكد أن سلبية المرحلة الأولى كانت ضرورة ، فلما زال سببها أذن الله للمسلمين بالقتال . لاسترداد حقوقهم ، في إطار المحافظة على حقوق الآخرين .

وإنما كان الإذن لازماً في بداية المرحلة الثانية ليكون المسلمون في حل من الدفاع القتالي ، وحتى لا يتخللوا أن أوامر المصابرة وحدها هي أوامر هذه المرحلة أيضاً .

إن الإذن بالقتال لم ينسخ العفو والمصابرة. حيث لا مناقضة بينهما ، لأن الصبر طريق إعانة ، والقتال يحتاج إليه ، والعفو أسلوب دعوة ، وتبليغ دين الله يقوم عليه .

والإذن بالقتال غير الأمر به ، ولذا لم يشعر المؤمنون بفرضية القتال بعد هذا الإذن فكان خروجهم في بدر اختيارياً ، بعدما علموا أن من خرج للقتال أثيب ، ومن تخلف لم يحاسبه رسول الله ﷺ وهذا. ملاحظ في قلة عدد المسلمين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى بدر .

ولما كان الخروج اختيارياً في "بدر" وكان الإذن خاصاً بالمهاجرين فقد اهتم النبي ﷺ بأخذ رأى الأنصار في ميدان المعركة قبيل الاشتباك ، لأنهم عنصر لم يكلف بالقتال لأنه لم يفرض. بعد .، ولم يظلم كالمهاجرين ، وأيضاً فإنهم بايعوا رسول الله ﷺ على الدفاع عنه ضد من يهاجمه في المدينة ، وهو الآن خارجها ،

(١) انظر سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٥٩١ وما بعدها بتصرف .

وكان اشتراكهم مع المهاجرين ، وخروجهم مع رسول الله ﷺ تبرعاً محضاً ، رداءً
لرسول الله ﷺ ، ومساعدة للمهاجرين ، وحباً للجهاد فى سبيل الله تعالى .

وكان القرشيون فى بدر يعلمون أن المهاجرين وحدهم هم غرماؤهم ، امتداداً
للحوادث القديمة ، ولذلك حينما بدأت الحرب بالمبارزة خرج من المسلمين أنصار
فأبى الكفار مقاتلتهم ، وطلبوا أن يكون المبارزون من بنى عمومتهم .

وقد استمرت هذه المرحلة الثانية مدة عاش. المسلمون. خلالها فترة التمهيد
للمرحلة الثالثة ، ومن هذا التمهيد أن الله حثهم على الثبات فى الحرب وأخبرهم
بذلك ضمناً فى قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا
فَلَا تُولُوهُمْ الْآدْبَارَ ﴾^(١) فقد شبه لهم الفرار بصورة مؤلمة وكأن من يفر من القتال
يسلم دبره إلى أعدائه الزاحفين .

ومن هذا التمهيد أن الله تعالى أمرهم أمراً صريحاً بالثبات حين المواجهة فى
قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ فِتْنَةً فَاقْبِثُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ
كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٢) كما أمرهم بضرورة إحكام الضرب والنزال ، وتقبيد
الأسرى ، وحبسهم حتى ينتهى اللقاء ، وعلى المؤمنين أن يتقوا فى نصر الله تعالى
ومعونته ما داموا على الحق سائرين فقال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَضْرِبْ الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَخْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا آلَوتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى
تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَتْخَرْتُمْ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ
بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ ۖ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ
وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ۖ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنصَرُوتُمْ إِلَى اللَّهِ يَنْصُرْكُمْ
وَيُنَزِّلْ أَقْدَامَكُمْ ﴾^(٣) .

(١) سورة الأنفال ، الآية ١٥ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٤٥ .

(٣) سورة محمد ، من الآية من ٤ : ٧ .

ومن هذا التمهيد قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ^(١) لأن الإعداد المسبق ، وتجهيز شئون القتال يخوف الأعداء ، ويدخل الرعب فى قلوبهم ، الأمر الذى يكفهم عن القتال .

ومن التمهيد كذلك قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ^(٢) أَلْفَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(٣) .

وفى هذه الآية أمر الله المسلمين بالتحريض على القتال ، والثبات أمام العدو ، ولو كان الأعداء أكثر عدداً منهم ، لأن الله يؤيد القلة المؤمنة الصابرة على عدوها الكافر ، كما هو واضح من الآيات .

المرحلة الثالثة

مرحلة القتال المقيد

احتاج المسلمون إلى الأمر بالقتال بعد الإذن به ، لأن منهم من أسلم حديثاً ولم يقع إيذاء عليه ، ومنهم من طبع على ضعف فطرى ، ومنهم من بينه وبين أهل مكة قرابة وصلة وهؤلاء لا يكفى معهم الإذن بالقتال ، وإنما لابد لهم من الأمر به ليشعروا بوجوبه ، ويطبقوا مخافة الإثم من ترك فرض .

وهذه المرحلة لم تخرج هى الأخرى عن التزام الحق ، ومقاومة الباطل ورد العدوان كما يستفاد من آيات تشريعها .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٦٥ ، ٦٦ .

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٢) .

وفى هذه الآيات أمر الله تعالى بالقتال المقيد وعرف بأنه موجه لقتال المعتدين الذين يقاتلون المسلمين وحدهم ، مع الالتزام بعدم العدوان ، وعلى المسلمين أن يعرفوا جيداً أنه لا عدوان إلا على الظالمين .

وقد بدأت هذه المرحلة الثالثة بعد بدر مباشرة حيث بدأت قريش تعمل للحرب وأخذت تستعد للانتقام من هزيمتهم في بدر ، جاء في أسباب النزول للنيسابورى أنه لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجعوا إلى مكة ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، فى رجال من قريش ، أصيب آباؤهم ، وأبناءؤهم ، وإخوانهم فى بدر فقابلوا أبا سفيان ، ومن كان له فى ذلكم العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا^(٣) ، فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْشَرُونَ ﴾^(٤) .

وكان الله مع المؤمنين فوجههم بعد بدر مباشرة إلى وجوب الاستعداد للحرب ولزوم الثبات فيها ، ثم كانت قمة المعية الإلهية أن وجه المسلمين إلى أن مرحلة

(١) سورة البقرة ، الآية ١٩٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٣ .

(٣) أسباب النزول ص ١٦٣ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية ٣٦ .

الإذن المجرد قد انتهت ، لتبدأ مرحلة أوسع منها هي مرحلة فرضية القتال فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١) وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١) .

والآية تؤكد خاصية المرحلة الثالثة ، وهي الأمر بقتال من يقاتل المسلمين من أهل مكة ، ومن ظاهرهم وقصر العدوان على من يعتدى .

المرحلة الرابعة

مرحلة الأمر بالقتال العام

وأخيراً كان تشريع المرحلة الرابعة حيث أمر الله المسلمين بالحرب العامة ضد كل المشركين أيا كان نوعهم ، وجنسهم ، ومكانهم ، وزمانهم ، فقال الله تعالى : ﴿ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) ودلالة الآية ظاهر ، لأن المشركين فى مكة وفى قبائل العرب ، وفى البوادر أجمعوا أمرهم على محاربة المسلمين للقضاء عليهم ، وأخذوا فى الإعداد لتحقيق غاياتهم قبل غزوة الأحزاب ، فكان أن نزل تشريع الجهاد العام للتصدى لكافة المشركين .

ويقول سبحانه : ﴿ يَتَأَيُّمُ النَّبِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُئَسُّ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) .

والأمر واضح فى قتال أعداء الله لأنهم بسبب كفرهم ونفاقهم تمكنت العداوة منهم فأصبحوا خطراً يجب الخلاص منه بالجهاد .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٣٦ .

(٣) سورة التحريم ، الآية ٩ .

وقد أمر الله تعالى بالقتال العام لأعداء الله بعدما اتضح إصرار أحزاب الكفر على إطفاء نور الله في الأرض باذلين كل ما يمكنهم لتحقيق ذلك ، ولهذا كان الأمر بالجهاد العام مناسباً للوضع الموجود الذي يقول الله تعالى عنه: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾^(١) .

ومع هذا التعميم في الحرب لا نسخ في أوامر المرحلة الثالثة لاندراجها في سعة هذا العموم من باب أولى .

والحرب في المرحلة الرابعة لا تعارض مبدأ مقاومة الباطل ، ورد العدوان ، لأن الأمر فيه : ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ فقتالهم لكم هو المشبه ، به وهو السبب ، لأن الكاف زادت هنا عن مجرد التشبيه فتضمنت معنى المقابلة والعقوبة ، وقتالكم يجب أن يشبهه ، وذلك يستلزم أن وجه الشبه في قتالهم أوضح وأسبق . وأيضاً فإن المشركين هم اللذين بدأوا. في المعام الخماس الهجرى بالمقاتلة العامة ساعة أن تجمعوا في عدد هائل ، ضم قريشاً وأحابيشها ، ومن تبعها من بنى كنانة وأهل تهامة ، ومعهم غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، يعاونهم يهود بنو قريظة .

يقول ابن إسحاق في حديثه عن هذا التجمع : فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها عيينه بن حصن بن حذيفة بن بدر في بنى فزارة ، والحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى في مرة ، وسعد بن رخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعة من قومه بنى أشجع .

وقد بلغ تجمع المشركين في الأحزاب عشرة آلاف ، وكان أملهم القضاء على المسلمين أجمعين كما يوضحه قول حيي بن أخطب لكعب بن أسد المقرضى :

(١) سورة الصف ، الآية ٨ .

عاهدنى المقوم. وعاهدونى على أن. لا يبرحوا. المدينة حتى نستأصل محمداً ومن معه^(١).

فكان لزاماً أمام اتجاهات هذا التجمع الشامل أن يأمر الله المسلمين بالمقاتلة العامة لتبدأ المرحلة الرابعة قبيل غزوة الأحزاب التى وقعت فى الخامس من شوال من العام الخامس الهجرى ، ومن يومها والمسلمون مكلفون بقتال من قاتلهم من سائر الفئات المشركة ، ومن ظاهريهم من بقية الناس .

وإذا نظرنا إلى وقائع الجهاد ، وأعمال المجاهدين ، والتزامهم بأخلاق الإسلام لظهر جلياً براءة الجهاد الإسلامى من أى اتهام يوجه إليه ، لأنه فى كل صورته يحقق الحرية ، ويضمن الكرامة ، ويحفظ للإنسان حقوقه وكل ما هو ضرورى له ... كما سيتضح عند دراسة الغزوات .

(١) سيرة النبى ج ٢ ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

المبحث الثالث

السرايا والغزوات قبل "بدر"

استقر المسلمون في المدينة ، وأخذوا يحيون الإسلام المنزل عليهم قولاً وعملاً ، وظهرت قوتهم في دولة للإسلام ، واجتهدوا بقيادة رسول الله ﷺ في تبليغ الإسلام ، والدعوة لدين الله تعالى .

ولم يتوقف القرشيون عن محاولاتهم في صد الناس عن دين الله ، وإعداد العدة للقضاء على المسلمين في المدينة ، فأخذوا في تحريض أعراب البوادي وتأليب قبائل العرب ، وتهيج اليهود ليكونوا جميعاً معهم فيما يعملون له .

وشعر المسلمون أن قريشاً تتعامل مع القبائل المحيطة بالمدينة ، والتي تسكن الطريق إلى مكة ، لتتحرك في أمان ويسر ، وتتنقل بقوافلها التجارية في طمأنينة واستقرار ، وفي نفس الوقت تحرم المسلمين من الخروج من المدينة ، ودعوة هؤلاء الناس .

واستفادت قريش بما أشاعته كذباً في أن محمداً وأصحابه فروا من مكة خوفاً وضعفاً ، وبذلك تعاون الأعراب معها ، وتصوروا الأمر كما زعم القرشيون .

وأخذ القرشيون يتفاخرون بالاستيلاء على أموال المهاجرين ، بلا رادع يردعهم أو أناس يخافون منهم ، ويعلنون أن قوتهم غالبية ، ودينهم صحيح .

وهذه أمور تؤثر في نفوس العرب ، وتدفعهم بعيداً عن تصور الحق ، أو البحث عنه ما دام الوضع كما سمعوا وتصوروا .

ولم يغب هذا الأمر عن رسول الله ﷺ فرأى أن الحركة بالدعوة في هذه الظروف تحتاج إلى تصرف عملي ، يصحح مفاهيم الناس . ، ويظهر القوة الإسلامية ، ويبعد الأعراب والقبائل المحيطة بالمدينة عن أكاذيب قريش ، ويبين لقريش أن حقوق المهاجرين لن تضيع ، وأن قوة المدينة ثابتة بموقعها وبرجالها المؤمنين ، وبصدق ما تدعو إليه ، وفوق ذلك بمعية الله لها .

وصار من الضروري إظهار الإسلام بصفائه ، ونقاؤه ، وإنقاذه من غيش الطغاة ، وأكاذيب المفتريين .

وقد اقتضى هذا الوضع حتمية القيام بما عرف بـ " السرايا والغزوات " وهى عبارة عن دوريات ، أو مفارز مكونة من عدد من الرجال ، ومعهم سلاحهم البسيط للقيام بعمليات الاستطلاع ، والتعرف على الطرق ، و اكتشاف المسالك المؤدية إلى المدينة ، وإلى مكة ، والتعرض للقوافل المكية الذاهبة إلى الشام ، أو إلى اليمن ، أو العائدة منهما لنيل بعض حقوقهم المغتصبة ، وعقد المعاهدات مع من يقبل من العرب وسكان البوادي ، وإبراز قوة المسلمين أمام مشركى العرب ، ويهود المدينة ، ولـأعراب . ، ليعلموا جميعاً أن المسلمين أقوياء . . وأنهم تخلصوا من السكون الذى عاشوه فى مكة وأيضاً لإنذار أهل مكة ليفيقوا من غفلتهم ، وليدعوا إيذاء المسلمين ، ويتركوا العدوان عليهم ، وينتهوا عن صد الناس عن دين الله تعالى ، ويمتنعوا عن نشر الأكاذيب وتضليل الناس .

والغزو : هو السير إلى القتال فى عدد قليل أو كثير بصورة ظاهرة ، والغزوة المرة الواحدة ، وجمعها غزوات^(١) .

والسرية : عدد مسلح من الرجال لا يقل عن خمسة ولا يزيد عن أربعمئة ، يسبقون الجيش للحصول على معلومات . . ولأخبار . . وسميت المسرية بالسرية لتحركها خفية وسراً ، أما الغزوة فإنها تخرج ظاهرة غالباً^(٢) .

يقول ابن الإثير : المسرية من الجيش المطائفة يبلغ أقصاها أربعمئة من المقاتلين الأشداء وتخرج خفية وسراً^(٣) .

(١) لسان العرب مادة غزا ، سرا .

(٢) لسان العرب مادة غزا ، سرا .

(٣) البداية والنهاية لابن الأثير ج ٢ ص ١٥٩ وعدد الخارجين إن كان أقل من عشرة يسمى "بعثاً" وإن كان أقل من أربعين يسمى "حضيرة" و "عصبة" والأربعمئة "سرية" فإن زاد فهو "كثيبة" والخمسمئة "منسر" والثمانمئة "جيش والآلاف" جحفل" وقد تنوب الأسماء عن بعضها مجازاً .

وقد اصطلح علماء السيرة على أن الجماعة التي يقودها رسول الله ﷺ تسمى "غزوة" والجماعة التي يقودها أحد الصحابة تعرف بـ "السرية".

وقد غزا النبي ﷺ غزوات عدة منها :

غزوة الأبواء ، ويقال لها " ودان " ، ثم غزوة بواط ، ثم غزوة سفوان ، وهي بدر الأولى ، ثم غزوة العشيرة ، ثم غزوة بدر الكبرى ، ثم غزوة بنى سليم ، ويقال لها قرقرة الكدر ، ثم غزوة السويق ، ثم غزوة غطفان ، وهي غزوة ذي أمر ، ثم غزوة الفرع ، ثم غزوة بنى قينقاع ، ثم غزوة أحد ، ثم غزوة حمراء الأسد ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة بدر الأخيرة ، وهي غزوة بدر الموعد ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة بنى المصطلق وهي المريسيع ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بنى قريظة ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة الحديبية ، ثم غزوة ذي قرد ، ثم غزوة خيبر ، ثم غزوة ذات الرقاع ، وهي غزوة محارب وبنى ثعلبه ، ثم غزوة عمرة القضاء ، ثم غزوة فتح مكة ، ثم غزوة حنين ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تبوك وفي بعض ذلك تقديم وتأخير عند الرواة والمحدثين .

والغزوات الكبار الأمهات ثمان ... هي :

بدر ، وأحد ، والخندق ، وخبير ، والحديبية ، والفتح ، وحنين ، وتبوك .
وفي شأن هذه الغزوات نزل القرآن الكريم ، ففي بدر نزل قرآن كثير من سورة الأنفال وفي "أحد" نزلت سورة آل عمران من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(١) إلى قبيل آخرها بيسير .
وفي قصة الخندق وقريظة نزل صدر سورة الأحزاب .
وفي بنى النضير نزلت سورة الحشر .
وفي قصة الحديبية وخبير نزلت سورة الفتح ، وأشار فيها إلى الفتح وهو الحديبية .
وفي فتح مكة نزلت سورة النصر .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٢١ .

وذكرت تبوك في سورة براءة .
وجرح رسول الله ﷺ في غزوة "أحد" فقط .
وقاتلت معه الملائكة في بدر ، وحنين ، وأحد على خلاف في الثالثة .
ونزلت الملائكة يوم الخندق . ، فزلزلوا المشركين . وهزمهم . ورمى ﷺ
بالحصباء في وجوه المشركين فهربوا ، وكان الفتح في غزوتين : بدر ، وحنين .
وقاتل المسلمون بالمنجنيق في غزوة واحدة وهي المطائف . ، وتحصن
المجاهدون بالخندق في واحدة هي الأحزاب ، وهو الخندق الذي أشار به سلمان
الفارسي ﷺ (١) .

- أولاً -

أسباب وقوع السرايا والغزوات قبل "بدر"

أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال بعد الهجرة . ، وشرع لهم المقيم بالسرايا
والغزوات على نحو ما ذكرت ، وكان ذلك من صميم حركة النبي ﷺ بالدعوة إلى
الله تعالى .

وبيان ذلك أن أهل مكة نشطوا بعد الهجرة في صد الناس عن سبيل الله تعالى
واستغلوا وضعيتهم عند العرب في عداوتهم ، وعدوانهم على الإسلام والمسلمين .
وقد ألف العرب في كل الجزيرة تقدير أهل مكة ، لأنهم حماة البيت ، وأصل
العرب . ، وإلى بلادهم (أم القرى) . يأتي الجميع حاجاً ومعتمرين . ، وزوابعاً ،
ومتاجرين ... الأمر الذي مكن لهم في قلوب العرب ، ومكنهم في الوقت نفسه من
الاتصال بهم ، وكثرة مقابلتهم في الأسواق ، والمناسبات ، والأحداث ... ولقد رأينا
مدى تقدير العرب لأهل مكة أثناء مجيئ أبرهة بجيشه قبل الإسلام يريد هدم الكعبة
حيث وقف العرب ضد حملة أبرهة ، وتمنوا لها البوار والهزيمة .
استغل أهل مكة هذا الوضع وأخذوا يشيعون بين الناس أن محمداً ﷺ وصحبه
فروا هاربين من مكة ، وتركوا وراءهم كل شيء ليستمر ضعفهم ، وهوانهم الذي كان
معهم في مكة .

(١) أوصل الحاكم النيسابوري عدد غزوات رسول الله وسراياه إلى ما فوق المائة .

إن المسلمين وهم فى مكة كانوا عدداً قليلاً ضعيفاً خائفاً من طغيان المكيين وظلمهم يقول- الله تعالى ولبصفاً هذا- المحال- : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(١).

ومن هنا تمكن أهل مكة من عقول الناس .، وليستمرول. فى إذاعة إفكهم ، وبهتانهم ، وفى هذا صرف للناس عن استماع الدعوة ، وعدم إقبالهم على رسول الله ﷺ .

والله عليم بخلقه ، حكيم فى تشريعه وتعاليمه .، رحيم بعباده .، حافظ لدينه ورسوله ، ولذا كان تشريع الجهاد ، والإذن بالسرايا والغزوات ، بعد الهجرة مباشرة لتصحيح بعض المفاهيم التى يجب أن تصحح ، وإحاطة الناس بالحقيقة المجردة بعيداً عن غوغائية أهل مكة ، ورد البهتان الذى أذاعوه بين الناس .

لقد أدى تشريع الجهاد إلى نفي كل ما قيل عن ضعف المسلمين وهوانهم وبين أنهم بعد الهجرة صاروا قوة تزد الظلم ، وتعيد الحق ، وتحمى الدين ، ولذلك أذن الله لهم بالقتال والحرب ، وحقق بالجهاد ما عجز عنه الحوار الطيب ، والجدال الحسن .

ولنا أن. نتصور الحال إذا استمر على ما كان فيه .، وبقي المقرشيون. على عتوهم ، وعدوانهم .

إن الضعيف لا يتعامل مع الجبابة ، والعاجز لا يقدر على المواجهة !!

والخائف لا يمكنه إمساك الرمح والسيف !!

والمهين يضعف فى مواقف العزة والكرامة !!

والقوة الغاشمة لا تسمع إلا لأمثالها لأنه لا يفيل الحديد إلا الحديد !!

ولقد كان أقصى ما يتمناه أهل مكة أن يتوقع المسلمون حول أنفسهم فى المدينة ويتركوا دعوة غيرهم إلى الإسلام ، ويستمروا مقيمين فيها كما فعل

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٦ .

إخوانهم الذين هاجروا إلى الحبشة ، ولو تحققت هذه الأمنية للقرشيين لسعدوا بها وعاشوا في حياتهم الجاهلية آمنين .

ولكن الله تعالى قضى لدينه أن ينتشر ، وقضى للناس أن يسعدوا بالإسلام ولذا كان ضرورياً أن يتحرك الإسلام وسط الناس بالأسلوب المناسب لهم ، ويتعامل مع الواقع بما يكافئه ولذا كانت السرايا والغزوات .

ولم يقف أمر الإسلام عند التعاليم المجردة ، وإنما باشرها المسلمون عملياً خلال الغزوات والسرايا ، فتحركوا بأعداد مسلحة لملاقاة القوافل المكية التي كانت تفر منهم ، ولما رأى العرب التحرك السريع والمتكرر من السرايا الإسلامية سالموهم ، وولدعوهم ، وبعدوا عن دعايات أهل مكة ، ولنتظروا تغيير الحال . وتبدل الوضع ، ليقرروا ما يرونه حينئذ ، وكان رسول الله ﷺ خير معلم ، وأعظم مرب ، وهو يقود الجماعة المسلمة بعد الهجرة ، إذ رأيناه ﷺ يقود أكثر هذه السرايا ، ويخرج لملاقاة القرشيين ، ويعاهد العرب على السلم والإسلام ، حتى لا يتصور أحد من أعدائه أنه سكن المدينة ، ورضى بالمكث فيها معتمداً على حركة أصحابه وحدهم . وحتى في السرايا التي لم يخرج فيها كان ﷺ يرسل عمه " حمزة " أو أبناء عمومته ليكونوا في مقدمة الخارجين ... وبذلك كان ﷺ القدوة الحسنة ، والسراج المنير للناس أجمعين .

إن المسلمين الذين خرجوا في السرايا وللغزوليت كانوا يؤدون مناسكهم ، ويحافظون على شعائر دينهم ، ويطبقون الصلاة ، ويلتزمون بالعدل والخلق الكريم ، مع البعد التام عن كل ما نهى الله عنه ، وبذلك قدموا دعوة عملية ، ظهر أثرها بعد غزوة بدر الكبرى ، حيث دخل الناس في الإسلام وهم عارفون بنسكه وتكاليفه ، التي رأوها تطبيقاً عملياً أمامهم .

ومن آثار هذه السرايا في الدعوة إلى الله تعالى إظهار أكاذيب قريش ، وفتح العقول لسماع الحق ، وتخليصها من استبداد المطغاة ، وتحقيق الحرية أمام الأعراب بعيداً عن أى إكراه ، لتكون عقيدتهم مرتبطة بالرشد الصادق ، والبيان الأمين .

كما أدت السرايا إلى تفرق العرب عن أهل مكة بعدما علموا أكاذيبهم ، وفقدوا الثقة فيهم ، وبذلك فشل المكيون في تكوين كتلة واسعة معادية لرسول الله ﷺ ، تشمل قبائل العرب في البوادي ، وفي القبائل التي تقيم على جوانب الطريق بين مكة والمدينة ومعهم اليهود والمنافقون ، وبذلك كان الجهاد ... وكانت السرايا تحركا في خدمة الدعوة لدين الله تعالى .

- ثانيا -

السرايا والغزوات قبل "بدر"

وقد بلغ عدد السرايا والغزوات قبل بدر ثمان منها أربع غزوات ، وأربع سرايا بيانها كالاتي :

١. سرية "سيف البحر" :

كانت في رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة . وقد أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية عمه حمزة بن عبد المطلب ﷺ ، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين كي يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل ، فبلغوا سيف البحر^(١) من ناحية العيص^(٢) ، وللتقوا بقافلة المشركين ، فلما شعر بهم القرشيون دافعوا عن تجارتهم ، واصطفوا للقتال ، فمشى "مجي بن عمرة الجهني" وكان حليفاً للفريقين جميعاً ، بين هؤلاء وهؤلاء ، حتى حجز بينهم ، فلم يقتتلوا .

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ ، وكان أبيضاً ، وحمله أبو مرثد كنان بن الحصين الغنوي^(٣) .

(١) سيف البحر مكان في بلاد بني سليم قرب العيص .

(٢) العيص بالكسر فسكون موضع ببلاد بني سليم به ماء على ساحل البحر ، وفيه عسكر أبو بصير .

(٣) سيرة النبي ج ١ ص ٥٩٥ .

يقول ابن هشام : إن سرية حمزة هذه كانت في وقت واحد مع سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ ، ولذلك اختلف المؤرخون في أيهما كان أولاً ... والحقيقة أنهما كانا معاً في وقتين متقاربين .

٢. سرية "رابغ" :

حدثت في شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة ، حيث بعث رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين راكباً من المهاجرين ، فلقى أبا سفيان وهو في مائتين عند بطن رابغ^(١) ، وقد ترامي الفريقان بالنبل ولم يقع قتال ، ولم تسل السيوف .

وفي هذه السرية انضم رجالان من جيش مكة إلى المسلمين ، وهما المقداد بن عمرو البهراني حليف بني زهرة ، وعتبة بن غزوان المازني ، وكانا مسلمين ، خرجا مع الكفار ، ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين ، وكان لواء عبيدة أبيضاً ، وحامله مسطح بن أثاثه بن عبد المطلب بن عبد مناف^(٢) .

٣. سرية "الخرار" :

كانت في شهر ذي القعدة على رأس تسعة أشهر من الهجرة . حيث بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين راكباً ، يعترضون عيراً لقريش ، وعهد إليه أن لا يجاوز "الحراز"^(٣) فخرجوا مشاة ، يكمنون بالنهار ويسيروا بالليل ، حتى بلغوا الخرار بأرض الحجاز صبيحة خمس من ذي القعدة ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس وكان لواء سعد ﷺ أبيضاً ، وحمله المقداد بن عمرو^(٤) .

٤. غزوة "ودان" :

حدثت في صفر من السنة الثانية على رأس اثني عشر شهراً من الهجرة حيث خرج رسول الله ﷺ بنفسه ، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة ﷺ في سبعين

(١) رابغ بعد الألف باء مكسورة واد يقع بين الجحفة وودان .

(٢) سيرة النبي ج ١ ص ٥٩١ ، ٥٩٢ .

(٣) الخرار بفتح الخاء وتشديد الراء المفتوحة موضع بالحجاز قريبة من الجحفة .

(٤) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٦٠٠ .

رجلاً من المهاجرين خاصة ، يعترض عيراً لقريش حتى بلغ "ودان" ^(١) فلم يلق كيداً.

وفى هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمرى ، وكان سيد بنى ضمرة فى زمانه على أن لا يغزوهم ، ولا يغزوه ، ولا يكثرأ عليه جميعاً ، ولا يعينوا عليه عدواً وكتب معهم كتاباً ، وهاك نص المعاهدة :

هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبنى ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا فى دين الله ، ما بل بحر صوفه ، وإن النبى إذا دعاهم لنصره أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله ، وذمة رسوله ، ولهم النصر على من بر منهم واتقى .

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، غاب خلالها عن المدينة خمس عشرة ليلة وكان اللواء أبيضاً ، وحامله حمزة بن عبد المطلب ﷺ ^(٢) .

٥. غزوة "بواط" :

حدثت فى شهر ربيع الأول فى العام الهجرى الثانى على راس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة ، حيث خرج رسول الله ﷺ فى مائتين من أصحابه المهاجرين ، يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحى ، ومعه مائة رجل من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير تحمل تجارة المكيين إلى الشام ، فبلغ ﷺ بطاً ^(٣) من ناحية رضوى . ولم يلق كيداً. ولم يقع قتال. فأقام فيها ﷺ مدة ثم رجع بعدها إلى المدينة.

واستخلف ﷺ فى هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ ﷺ ، وكان اللواء أبيضاً وحمله سعد بن أبى وقاص ﷺ ^(٤) .

(١) ودان بواد مفتوحة ودال مشتقة من الود والمحبة وهى قرية جامعة قريبة من نواحي الفرع تقع بين الأبواء والجحفة .

(٢) سيرة النبى ج ١ ص ٥٩١ .

(٣) بطاء بفتح الباء وضم الواو جبل فى جهينة من ناحية رضوى .

(٤) سيرة النبى ج ١ ص ٥٩٨ .

٦. غزوة "سفوان" :

حدثت في شهر ربيع الأول سنة في العام الثاني الهجري على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة ، حيث أغار "كرز بن جابر الفهري" في قوات خفيفة من المشركين على مراعى المدينة ونهب بعض المواشى ، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته ، حتى بلغ وادياً يقال له "سفوان"^(١) من ناحية بدر ، ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه ، فرجع من دون حرب ، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى لقربها من بدر .

واستخلف رسول الله ﷺ هذه الغزوة على المدينة "زيد بن حارثة" وكان اللواء أبيضاً ، وحمله علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢) .

٧. غزوة "ذى العشيرة"^(٣) :

حدثت في جمادى الأولى وجمادى الآخرة في العام الثاني الهجري على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة ، حيث خرج رسول الله ﷺ في خمسين ومائة ، ويقال: في مائتين ، من المهاجرين ، ولم يكره أحداً على الخروج ، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يتعقبونها ، ليعترضوا عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام وقد جاء الخبر بخروجها من مكة ، وفيها أموال كثيرة لقريش ، فبلغ ﷺ ذا العشيرة ، فوجد العير قد فانتتة بأيام ، وهذه العير هي التي خرج رسول الله ﷺ في طلبها حين رجعت من الشام ، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى .

وكان خروجه ﷺ في أواخر جمادى الأولى ، ورجوعه في أوائل جمادى الآخرة كما جاء في سيرة ابن إسحاق ، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير في تعيين شهر هذه الغزوة^(٤) لأن بعضهم يراها في جمادى الأولى . والبعض يراها في جمادى الآخرة .

(١) سفوان بفتح أوله وثانية وآخره نون واد في ناحية بدر .

(٢) سيرة النبي ج ١ ص ٦٠١ .

(٣) العشيرة : بضم العين وفتح الشين تصغير عشرة مكان قرب ينبع .

(٤) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٥٩٩ .

وفى هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بنى مدلج وحلفائهم من بنى ضمرة ، وادعه رئيسهم مجدى بن عمرو الضمرى ، ورجع إلى المدينة بغير قتال^(١) .

ولستخلف على المدينة فى هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى وكان اللواء فى هذه الغزوة أبيضاً ، وحامله حمزة بن عبد المطلب ﷺ^(٢) .

وفى هذه الغزوة كنى رسول الله ﷺ علياً بأبى تراب ، وقصة ذلك أنه أرسله وعمار ابن ياسر عيونا على بنى مدلج . فنظروا إليهم ساعة ، ثم غشيهم النوم .

يقول عمار :. فانطلقت أنا وعلى حتى اضطجعنا فى صور . ، من النخل ، وفى دقعاء من التراب قمنا ، فوالله ما أهبنا إلا رسول الله ﷺ يحركنا برجله ، وقد تتربنا من تلك الدقعاء التى نمنا فيها فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلي بن طالب : ما لك يا أبا تراب لما يرى عليه من التراب

وكان على ﷺ إذا عتب على فاطمة فى شئ لم يكلمها ، ولم يقل لها شيئاً تكرهه إلا أنه يأخذ تراباً فيضعه على رأسه ، قال : فكان رسول الله ﷺ إذا رأى عليه التراب عرف أنه عاتب على فاطمة ، فيقول له : مالك يا أبا تراب^(٣) ؟

٨. سرية "نخلة" :

وقعت فى رجب سنة فى العام الثانى الهجرى على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة حيث بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدى إلى نخلة^(٤) فى اثنى عشر رجلاً من المهاجرين كل اثنين يعتقبان على بغير .

وكان رسول الله ﷺ قد كتب لعبد الله كتاباً ، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه "إذا

(١) فتح البارى ج ٧ ص ٥٧٩ .

(٢) فتح البارى ج ٧ ص ٢٨١ .

(٣) سيرة النبى ج ١ ص ٥٩٩ ، ٦٠٠ .

(٤) نخلة بفتح النون وسكون الخاء موضع بالحجاز قريب من مكة فيه نخل وكروم .

نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها عير قريش ، وتعلم لنا من أخبارهم".

فقال : سمعاً وطاعة ، وأخبر أصحابه بذلك ، وبين لهم أنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كرة الموت فليرجع ، وأما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم ، غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيداً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه .

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرت عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة ، وفيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان ، ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة ، والحكم بن كيسان ، مولى بني المغيرة ، فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب ، الشهر الحرام ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اجتمعوا على اللقاء ، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله . وأسروا عثمان . والحكم وأفلت نوفل ثم قدموا بالعين ، والأسيرين ، إلى المدينة ، وقد عزلوا من غنيمتهم الخمس ، وهو أول خمس كان في الإسلام ، وبعد عمرو الحضرمي أول قتيل في الإسلام ، وعثمان والحكم أول أسيرين في الإسلام .

وقد أنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه لأنهم اعتدوا في شهر حرام . وقال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام . ومنع التصرف في المعير ولأسيرين ثم ردها لأصحابها^(١) .

إن توجه هذه السرايا كان لجهات متعددة ولقبائل مختلفة ، ولأماكن تنوعت بين البداوة ، والتقدم مما يؤكد دقة التخطيط ويقظة القيادة ، والعمل الدءوب لخدمة الإسلام والمسلمين .

(١) سيرة النبي ج ١ ص ٦٠٢ .

- ثالثاً -

السرايا وحركة الدعوة

أدت السرايا والغزوات إلى تغيير كثير من المفاهيم التي سارت بين العرب قبلها ، لقد تصور العرب أن المسلمين خرجوا من مكة فارين لا شأن لهم وأن أمر الإسلام سيبقى حبيساً في المدينة ، وأن سلطان المكيين سيبقى عالياً ولذلك لم يدخل أحد من العرب في الإسلام بعدما صدقوا ما يشيعه أهل مكة عن الإسلام والمسلمين ، وبخاصة أن المكيين يفاخرون دائماً بأمجادهم ، ويظهرون قوتهم وسلطانهم .

وقد أدت السرايا إلى تغيير كل هذه الأفكار لأنها تمت بطريقة سديدة ، فقد تحركت السرايا إلى سائر القبائل المنتشرة في البوادي ، وتعددت النواحي التي قصدها حيث اتجهت كل واحدة منها لجهة ما ، ولقوم معينين . كما أن كل واحدة منها قصدت في توجيهها أهل هذه النواحي أولاً مع محاولة الإمساك بأموال تجارة قريش التي تمر في هذه الناحية ثانياً ، لأنها في الحقيقة أموالهم ، وذلك لإحداث تأثير مزدوج في نفوس القبائل ، وعند أهل مكة . وهذا الأمر يمثل ما عرف حديثاً بالحرب الاقتصادية التي يقصد بها تحقيق النصر بلا قتال ، كما تعرف بالحرب النفسية لإدخال الرعب والهزيمة في نفس الأعداء أيضاً .

وحين نعلم أن السرايا والغزوات بدأت بعد الهجرة بسبعة أشهر ، واستغرقت عشرة أشهر تقريباً يظهر لنا ولكل عاقل مدى شجاعة المسلمين ، ومدى استعدادهم للبذل من أجل نيل حقوقهم ، ومدى طاعتهم لرسول الله ﷺ .

إن هجرة الرسول ﷺ كانت في محرم من العام الأول للهجرة ، ووقعت السرية الأولى في شهر رمضان من السنة الأولى ، ووقعت السرية الأخيرة في شهر رجب من العام الثاني .. حين نعلم ذلك (وهو حق) ندرك مدى حيوية المسلمين ومدى نشاطهم ، وحركتهم التي أذهلت قبائل العرب في الجزيرة كلها ، وأظهرت قوة المسلمين واستعدادهم لمواجهة أهل مكة ومن يشايعهم بعد أشهر قليلة من الهجرة ،

مما جعل أهل مكة لا يهناؤون بما اغتصبوا من أموال وديار ، فبدأوا يعيشون الواقع الجديد وبعدها كانت قوافلهم تسافر بعدد قليل من الحرس والرعاة أصبحت تسافر بمئات من الرجال المسلحين .

وقد أفصحت هذه السرايا عن شجاعة المسلمين ، لأنهم خرجوا بأعداد قليلة للتصدى للقوافل المكية ، وهى فى حراسة مئات من الرجال المسلحين .

ولم يحدث قتال فى هذه السرايا ، ومع ذلك فقد قامت بدورها فى الاستطلاع ، والمعرفة ، وإرهاب كفار مكة ، وتحييد سكان البوادي والأعراب ، واختيار المكان المناسب للنزال والحرب ... الأمر الذى جعل المسلمين يخرجون لبدر حيث وقع القتال بينهم وبين أهل مكة وحدهم ، من غير أن يساعد المكيين أحد .

وأيضاً فقد أدت هذه السرايا إلى تفتح أذهان الناس ، وتطلعهم لمعرفة شئ عن الله الذى يدعو محمد ﷺ إلى الإيمان به ، بعدما كانوا عنه منصرفين وقد أدى ذلك إلى دخول كثير من الناس فى الإسلام عقب غزوة "بدر" ، لسابق علمهم به .

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى القول بظفر صاحب المال المغصوب إن تمكن منه ، وبخاصة إن كان المغتصب متمرداً على الشرع ، والقانون ، مستدلاً بخروج المسلمين لأخذ أموالهم المغصوبة من القوافل حين يظفرون بها وقد أباحها الله تعالى لهم .

ويرى المعارضون للظفر أن هذا الخروج كان فى إطار سلطة شرعية ، وكان استثناء للرسول ﷺ وصحابته .

ولقد اشترك فى هذه السرايا المهاجرون وحدهم لأنهم أصحاب الحق ، وعليهم وحدهم أن يعملوا لاسترداده ، والظفر به ، أما غيرهم فلا حق لهم ، ولو قاموا به لعد عدواناً منهم ، الأمر الذى يأباه الله ورسوله ﷺ .

المبحث الرابع

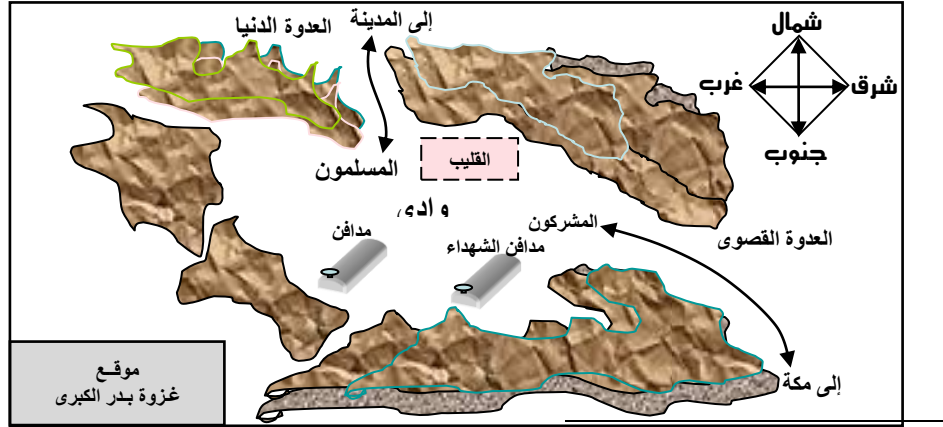
غزوة "بدر الكبرى"

تعرف غزوة "بدر"^(١) بأنها الغزوة الكبرى في الإسلام لآثارها المادية مع أنها كانت قليلة العدد بالنسبة لمن اشترك فيها ... ومع ذلك فهي الغزوة الكبرى لنتائجها المعنوية ، وتأثيرها في العرب ، وفي العالم كله .

وقعت غزوة "بدر" هذه في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة . لقد تصور العرب وغيرهم أن المسلمين ضعاف لا يقدرّون على المواجهة ، وأنهم خرجوا من مكة هرباً من قوة المكيين ، ولأن الإسلام سيبقى معزولاً مع أصحابه في المدينة المنورة .

ولم تغير السرايا والغزوات التي وقعت قبل غزوة بدر هذا التصور تماماً لانتهائها جميعاً بلا قتال ، واستمر الأمر على ذلك حتى وقعت الغزوة ، وتغير كل شيء ، تغيرت المفاهيم ، وتغيرت التصورات ، وانمحت كل الآمال التي صنعها الكفار افتراءً وكذباً ، وبدأ عهد جديد للدعوة إلى الله تعالى ... ولهذا كانت بدر هي الغزوة الكبرى .

وحين نتناول الغزوة بالدراسة أرى ضرورة دراسة ما يلي :



(١) "بدر" اسم بئر حفرها رجل من غفار اسمه بدر ، وقيل هو بدر بن قريش الذي سميت قريش به ، وهي على بعد مائة ميل جنوب المدينة في طريق الذهاب إلى مكة وهي قريبة من ساحل البحر وسميت بدرأً لتمامها وكمالها (معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٧) .

- أولاً -

أسباب الغزوة

ترك المسلمون مكة ، وتركوا فيها أموالهم ، وديارهم ، ليحافظوا على دينهم ، ويتحركوا به للناس فى أمن واستقرار .. ولم يرتض القرشيون ذلك ، فاستولوا على الأموال ، واغتصبوا الدور ، وحرمو المهاجرين من اصطحاب نسائهم ، وذرائعهم ، ومنعواهم من دخول المسجد الحرام .

وحاولوا قتل رسول الله ﷺ وتعقبوه أثناء هجرته ، وأخذوا يؤلبون أعراب البوادي ضد رسول الله ﷺ حتى أن "كرز بن جابر الفهري" أغار على المدينة^(١) واستاق بعض إبلها استهانة بقوة المسلمين

وحاول القرشيون تأليب غير المسلمين من سكان المدينة فأخذ اليهود وعبدة الأصنام ، والمنافقون يجهرون بعداوتهم لرسول الله ﷺ .

ووجد المسلمون أنفسهم أمام عداوة ظاهرة ، وحرب موجهة إليهم من كل جانب ، ورأوا أن قريشاً تعمل بلا كلل فى تكثير أعداء الإسلام ، وتوحيد أنشطتهم ، وأعمالهم لمحاصرة المسلمين فى المدينة ، والقضاء عليهم .

رأى المسلمون ذلك ، فتيقنوا من ضرورة العمل لحماية دينهم ، وموطنهم ، وأنفسهم ، وتأكدوا من أهمية التأهب ، والاستعداد لمواجهة هذا الإجرام المتنامى من أعداء الله تعالى .

إن للمسلمين حقوقاً تركوها فى مكة ، فعملوا للوصول إليها ولأخذها ليفيق المكيون من غيهم ، ويتعلموا أن الأمن لن يتحقق لهم إلا بأداء حقوق الآخرين وليعرفوا أن المهاجرين ليسوا هملاً لا حقوق لهم ، وليسوا جماعة خائفة لا تقدر على المواجهة .

وكان الله تعالى مع حق المسلمين العادل ، فأمرهم بالاستعداد ، والتهيؤ ، للتصدى لأعدائهم ، وأنزل قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

(١) فتح البارى ج ٧ ص ٨٥٠ .

وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ (١) .

والآيات واضحة الدلالة في أن إعداد القوة ، والتهيئة للقتال ، وقبول التضحية ، يضمن الحقوق ، ويمنع الحرب ، لأن العدو المعتدى إذا رأى أمامه قوة تخيفه ، وترهبه يمسك عن الظلم ، ويخشى عاقبة عدوانه على غيره .

وإعداد القوة يرهب عدو المسلمين الظاهر ، وهم أهل مكة ، ويرهب كذلك العدو المستتر وهم المنافقون ، واليهود ، ومن على شاكلتهم من الأعراب والرعاة . وكانت السرايا والغزوات قبل بدر جزءا من هذا الاستعداد ، والمواجهة وقد اشترك في هذه السرايا المهاجرون وحدهم لأنهم أصحاب حق مسلوب يبحثون عنه ، ولذلك قصدوا القوافل التجارية لأهل مكة الذاهبة إلى الشام ، أو العائدة منها ... وفي نفس الوقت لإظهار قوتهم وعزيمتهم ، وشجاعتهم أمام أعدائهم .

ونلاحظ حكمة التوجيه النبوي لأصحابه في هذه السرايا والغزوات ، فلقد تم توجيهها إلى أماكن عديدة ، وإلى قبائل مختلفة تقطن الطرق بين مكة والمدينة .

كما نلاحظ أن السرايا كما قصدت القوافل المتجهة إلى الشام قصدت القوافل المتجهة إلى اليمن أيضاً في مكان وزمان لم يتوقعه القرشيون ، ذلك أن سرية عبد الله بن جحش اتجهت إلى "نخلة" وهي مكان بين مكة والطائف في الطرق المتجهة إلى الجنوب وكان هدف هذه السرية هو المراقبة والاستطلاع .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٨٤ .

وقضى الله تعالى بنجاة كل قوافل قريش ، . وعدم. وقوع. إحداها فى يد المهاجرين ولذلك بقى الأمر على ما كان عليه ، واستمر الإذن بالقتال للمظلومين الذين أخرجوا من ديارهم ، وسلبت أموالهم .

وفى غزوة العشيرة خرج عدد من المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ للتصدى لقافلة قرشية أثناء ذهابها إلى الشام ، ولكنها أفلتت منهم ، فأخذ المسلمون يتربصون رجوعها ، وأرسل النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله ، وسعد بن زيد إلى شمال المدينة لاكتشاف القافلة حين رجوعها ، فقبعا فى "الحوراء" (١) حتى مرت بهم راجعة ، فأسرعا إلى المدينة ، وأخبرا رسول الله ﷺ برجوعها (٢) .

كانت القافلة مكونة من ألف بعير محملة بثروات ضخمة ، وكان يحرسها أربعون قرشياً بقيادة أبى سفيان بن حرب (٣) .

إن الاستيلاء على هذه القافلة فرصة طيبة للمهاجرين ، وضربة قاصمة لأهل مكة ، وإعلان واضح يظهر قوة المسلمين ، ويبين حرصهم على نيل حقوقهم ، ومدى عزتهم وشجاعتهم .

أخذت الأحداث تجرى بقدر الله إلى حيث يشاء وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **هذه غير قريش فيها أموالهم ، فأخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها (٤)** .

فخرج عدد قليل بأسلحة عادية ظناً منهم أنها ولحده من السرايا السابقة ، وبخاصة أن الرسول لم يأمر بقتال ، ولم يكلفهم به ، وكانت الحالة التى تصورها المسلمون أن الخروج خاص بالمهاجرين ليأخذوا أموال القافلة عوضاً عن أموالهم ، والذين خرجوا من الأنصار خرجوا لمساعدة إخوانهم ، نظراً لضخامة القافلة ، ومصاحبة لرسول الله ﷺ .

(١) الحوراء بفتح الحاء وسكون الواو مكان يقع شمال المدينة .

(٢) المغازى ج ٢٠ ص .

(٣) سيرة النبي ج ١ ص ٦٠٦ .

(٤) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ٦٧ .

- ثانياً -

مواقف الفريقين قبل المعركة

فهم القرشيون غاية المسلمين من محاولة التعرض لقوافلهم التجارية ، فأخذوا حذرهم للإفلات والهرب ، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد ، يؤكد ذلك ما أشار أبو جهل به لأبي سفيان قبل رحيله من مكة قائلاً له : "يا معشر قريش إن محمداً قد نزل بيثرب وأرسل طلائعه وإنما يريد أن ينال منكم شيئاً ، فاحذروا أن تمروا طريقه أو أن تقاربوه"^(١) وكانت آخر محاولات المسلمين خروجهم للاستيلاء على قافلة أبي سفيان بعد أن جاء خبر رجوعها من الشام وهي التي فرت منهم حين ذهابها إلى الشام ، وأراد الله تعالى أن تقع غزوة "بدر" هذه المرة حيث نشب القتال . وكان ما كان. من أحداث. . ولأحكام. ويمكن توضيح موقف كل من المسلمين والقرشيين قبيل المعركة فيما يلي :

أ . موقف المسلمين :

بعدما علم رسول الله ﷺ بعودة القافلة من الشام . وفيها ألف بعير محملة بتجارايت. قبائل مكة . تحت حراسة ثلاثين أو أربعين رجلاً . أخبر رسول الله أصحابه وندبهم للخروج وهو يقول لهم : "هذه عير قريش فاخرجوا لعل الله أن ينفلكموها" .

انتدب الرسول أصحابه للخروج ولم يأمرهم ، وترك الأمر لاختيارهم فخف بعضهم ، وقعد الأكثرون ، ظناً منهم أنها واحدة من الغزوات السابقة التي أفلتت فيها القوافل ، وتمكنت من الهرب ، وعاد الذين خرجوا بعدها إلى المدينة المنورة . ورأوا كذلك أن العدد الذي خرج مع رسول الله ﷺ كاف في أداء المهمة ، ولم يتأهب الذين خرجوا للحرب ، فلم يصطحبوا معهم كامل أسلحتهم وخيلهم^(٢) .

(١) سيرة النبي ج ١ ص ٦٠٢ .

(٢) سيرة النبي ج ١ ص ٦٠٧ .

وقد استعمل النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ولما بلغ "الروحاء"^(١) رد أبالبابة إلى المدينة وولاه أمرها^(٢) .

وقد بلغت قوات المسلمين ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً ، معهم فرسان ، وسبعون بعيراً ، فأخذ الرجال يتعاقبون على الإبل "كل ثلاثة على جمل"^(٣) وكان النبي ﷺ يتعاقب معهم^(٤) وساروا للقاء القافلة قرب "بدر" التي تبعد عن المدينة بمائة ميل تقريباً في الجهة الجنوبية ، في الطريق الذاهب إلى مكة .

وكان خروج النبي ﷺ من المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان على رأس تسعة عشر شهراً من مهاجره ، وضرب النبي ﷺ عسكره في بئر أبي عنبه^(٥) وهي على ميل جنوب المدينة .، فعرض أصحابه ورد المصغار منهم ، وبعدها واصل السير نحو بدر^(٦) .

وعندما اقترب الركب الإسلامي من "الذفرأ" وهي قرية قريبة من "بدر" أرسل المسلمون عيونهم لمعرفة أخبار القافلة فجاءهم الخبر بما لم يتوقعوه .

جاءهم الخبر بأن أبا سفيان بن حرب اكتشف خروج المسلمين لملاقاة القافلة ، فغير طريقه إلى الساحل ، تاركاً بدرأ إلى يساره ، وأسرع في سيره حتى بعدت القافلة عن المسلمين ، وفي نفس الوقت أرسل أبو سفيان لأهل مكة يستجد بهم لإنقاذ تجارتهم من محاولة استيلاء المسلمين عليها .

وصل المسلمون إلى "بدر" وعسكروا فيها يومين ليستريحوا من وعثاء السفر وليرى الأعراب وغيرهم من تواجدهم في بدر. مدى شجاعتهم وقوتهم ، ويعرفوا استعدادهم للقتال من أجل حماية الحقوق ، وصيانة المبادئ والخلق الكريم .

(١) الروحاء بفتح الراء مشددة وسكون الواو وآخرها ألف ممدودة تقع جنوب المدينة وهي تابعة لإقليم الفرع سميت بذلك لاتخاذها مكاناً للراحة والسكون (معجم البلدان ج ٢ ص ٧٦) .

(٢) سيرة النبي ج ١ ص ٦١٢ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب عدة أصحاب بدر ج ٦ ص ٢٣٩ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ١٢ (إمتاع الأسماع ج ١ ص ٦٢)

(٥) بئر في جنوب المدينة على بعد ميل واحد .

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ١٢ .

ولما استقر رسول الله ﷺ وجنده في "بدر" علم أن أهل مكة خرجوا لملاقاة المسلمين في تحد سافر ، واستعداد تام للقضاء على المسلمين والإسلام .
وبرغم علم القرشيين أن القافلة التجارية نجت إلا أنهم أصرّوا على الحرب
آملين تلقين المسلمين درساً يمنعهم من التصدي لقوافلهم بعد ذلك ، وحتى يعلم
أهل الجزيرة قوة أهل مكة وشدتهم في الحرب واللقاء ، وكان رأس الداعين إلى
ضرورة محاربة المسلمين أبا جهل لعنه الله .

وجد رسول الله ﷺ نفسه والمسلمين معه أنهم أمام حرب فرضت عليهم بلا
استعداد لها ، ورأوا أن القتال أصبح ضرورة ، وبخاصة أن الله تعالى وعدهم إحدى
الطائفتين العير أو النفير ، وما دامت العير قد فرت ، فإن النفير أصبح قدر الله
فيهم .

نظر الرسول ﷺ إلى الموقف العام وتأمل في موقف أصحابه الذين خرجوا
معه من المهاجرين والأنصار ، ورأى أن المهاجرين أصحاب حق ، وقد أذن الله
لهم بالقتال ... ورأى ﷺ أن الأنصار لم يبايعوه يوم العقبة على القتال خارج المدينة
، وإنما بايعوه على حمايته داخل المدينة وها هو القتال قد أتى وهم خارجها .
رأى النبي ﷺ ذلك فبدأ يستشير أصحابه ، ويأخذ رأيهم ، فأدلى أبو بكر
وعمر برأيهما ، ثم قام المقداد بن عمر الأسود فقال : يا رسول الله امض لما
أمرك الله فنحن معك والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك
فقاتل إنا ها هنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون ،
فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى
تبلغه^(١) .

وسكت الناس بعد مقالة المقداد فقال رسول الله ﷺ : أشيروا علي أيها الناس
، وكان ﷺ يريد بكلمته هذه الأنصار .

(١) الدرر ج ٣ ص ١٦٣ ، وعزاه إلى ابن أبي شيبه ، وبرك الغماد موضع في هجر يكنى به عن
المكان البعيد .

فلما أحس الأنصار أن الرسول يريد سماع رأيهم ، قام سعد بن معاذ وقال :
كأنك تريدنا يا رسول الله ؟
فقال ﷺ : أجل .

قال سعد : لقد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ،
وأعطيناك على ذلك عهدنا ، ومواثيقنا ، على السمع ، والطاعة ، فامض لما
أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه
معك ، وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً : إنا لصبر في
الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على
بركة الله^(١) .

وبعد أن اطمأن رسول الله ﷺ إلى رأى الأنصار أخذ في التأهب للقتال الذى
أصرت عليه قريش ، واستعد جميع من معه ﷺ من المهاجرين والأنصار على قدر
استطاعتهم ، لهذا اللقاء الذى فرض عليهم ، وكان أملهم أن لا يقع قتال .
وقدر الله أن يتم اللقاء ، وتقع هذه الحرب لتكون فارقة بين الحق والباطل وقد
سبق أن وعدهم سبحانه وتعالى بتحقيق أحد أمرين " الغنيمة بعد القتال ، أو الظفر
بما تحمله القافلة من مال . ومتاع وفى ذلك يقول . الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ
إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ
أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢) فلما نجت القافلة وسقط الخيار
الأول لم يبق إلا القتال الذى وعدوا بالنصر فيه والغنيمة منه .
وقد رحب الجميع بالقتال . ، وساروا . مع رسول . الله ﷺ نحو بدر . ، ولأخذوا .
يستعدون للقاء .

ومن أهم أعمال الاستعداد للقتال فى المعسكر الإسلامى ما يلى :

١. معرفة مكان القرشيين :

بدأ النبى ﷺ وأبو بكر الصديق ﷺ فى البحث عن المكان الذى نزل فيه جيش

(١) بلوغ الأمانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى ج ٢١ ص ٢٩ ، ٣٠ وانظر شرح
النووى على صحيح مسلم ج ١٢ ص ١٢٤ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٧ .

قريش وأخذوا. يتجولان. في منطقة "بدر". فإذا. هما بشيخ من العرب. ، فسأله رسول الله ﷺ عن مكان جيش قريش ، وعن مكان محمد وأصحابه : وإنما سأله عن مكان المسلمين حتى لا يعرف من هما .

قال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما ؟

فقال له رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك .

قال : أو ذاك بذلك ؟

قال ﷺ : نعم

قال الشيخ : فإنه قد بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا . للمكان الذي به جيش المدينة . وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش مكة .

ولما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟

فقال له رسول الله ﷺ : نحن من ماء ، ثم انصرفا عنه .

وبقى الشيخ يتفوه ويقول : من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ أم ماذا^(١) ؟

وبذلك علم النبي ﷺ مكان جيش قريش فنظم جيشه ، وأخذ يعده للقاء .

٢. معرفة قوة العدو :

كلف النبي ﷺ أربعة من قادة المهاجرين على رأس نفر من أصحابه ، لتحري عدد العدو ، ومدى قوتهم ، والأربعة هم : علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، وبسبب بن عمرو ، فذهبوا إلى ماء بدر ، فوجدوا سقاة قريش عندهم فلما اقتربوا. منهم حاولوا الفرار. ، فقبض الصحابة على ثلاثة هم : أبو يسار غلام أبي العاص بن سعيد ، وأسلم غلام منبه بن الحجاج ، وأبو رافع غلام أمية بن خلف ، وجاءوا بهم إلى الرسول ﷺ وهو في الصلاة ، فاستخبرهم القوم فقالوا :. نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم قولهم ،

(١) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٦١٦ .

ورجوا أن يكونوا لأبى سفيان ، فضربوهم ضرباً موجعاً ، حتى اضطر الغلمان أن يقولوا : نحن لأبى سفيان ، فتركوهم .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة قال لهم كالعاتب : إذا صدقوكم ضربتموهم وإذا كذبوكم تركتموهم ، صدقوا والله إنهم لقريش .

ثم خاطبهم قائلاً : أخبروني عن قريش .

قالوا : هم وراء الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى .

فقال لهم ﷺ : كم القوم ؟

قالوا : كثير .

قال ﷺ : ما عدتهم ؟

قالوا : لا ندرى .

قال ﷺ : كم ينحرون كل يوم ؟

قالوا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً .

قال ﷺ : القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف .

ثم قال لهم ﷺ : فمن فيهم من أشرف قريش ؟

قالوا : عتبة ، وشيبة ، ابنا ربيعة ، وأبو البحتري بن هشام ، وحكيم بن

حزام ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدي والنضر بن

الحارث ، وزمعة ابن الأسود ، وأبو جهل عمرو بن هشام ، وأميرة بن خلف فى

رجال سميأهم .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس ، فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها^(١) .

٣. النزول فى مكان حيوى :

تحرك النبى بجيشه نحو بدر ، ونزل ليلاً عند أدنى مياه فى بدر مما يلى

جهة المدينة ، وهنا قال الحباب بن المنذر لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أرأيت هذا

(١) بلوغ الأمانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى ج ٢١ ص ٣٤ ، تاريخ الطبرى ج ١ ص ٤٣٦ .

المنزل، أُنزلَ أنزلَ الله ، ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال ﷺ : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال الحباب : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزلهم ونغور . أى نخرّب ما وراءه من القلب . ثم نبني عليه حوضاً فَنَمْلأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأى .

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش ، حتى وصل عند أقرب ماء من العدو ، فنزل عليه شطر الليل ، ثم صنعوا الحياض ، وغوروا ما عداها من القلب^(١) .

٤. تحديد المهام القتالية :

جهز الرسول ﷺ جيش المسلمين للقتال وصف الصفوف ، وعقد الألوية وحدد لكل لواء شعاره .

يقول ابن سعد : وعقد رسول الله ﷺ يومئذ الألوية ، وكان لواء رسول الله ﷺ يومئذ الأعظم ، ولواء المهاجرين مع مصعب بن عمير ، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ولواء الأوس مع سعد بن معاذ ، وجعل رسول الله ﷺ شعار المهاجرين : يا بني عبد الرحمن ، وشعار الخزرج : يا بني عبد الله ، وشعار الأوس : يا بني عبيد الله ، ويقال: بل كان شعار المسلمين جميعاً يومئذ : يا منصور أمت ، ومن الممكن أن يكون هناك شعار خاص لكل فريق ، وشعار واحد لهم جميعاً .

وبنى لرسول الله ﷺ عريشاً ، وقام سعد بن معاذ على بابيه يحرسه . ونزل النبي ﷺ إلى الصفوف ، فلما رأى القرشيين يتجهون إلى وادي بدر قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها ، وفخرها ، تحاربك ، وتكذب رسولاك ، اللهم فنصرك الذى وعدتني اللهم احنهم الغداة "أى أمتهم"^(٢) .

(١) سيرة النبي ج ١ ص ٦٢٠ .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ١٧٦ .

ولما قرب اللقاء وقف النبي ﷺ وخطب في أصحابه وقال لهم : بعد حمد الله والثناء عليه : أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالحق ، ويحب الصدق ، ويعطى على الخير أهله ، على منازلهم عنده ، به يذكرون ، وبه يتفاضلون وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق ، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه ، وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم ، وتدركون النجاة فى الآخرة ، فيكم نبى الله يحذركم ، ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شئ من أمركم يمقتكم عليه ، فإن الله يقول : ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ انظروا الذى أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وأعزمكم به بعد ذلة ، فاستمسكوا به يرضى به ربكم عنكم ، وأبلوا ربكم فى هذه المواطن أمراً تستوجبون الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم نستعين بالله الحى القيوم ، إليه ألقانا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، يغفر الله لى وللمسلمين^(١) .

وقد بلغ عدد الذين خرجوا مع رسول الله ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً ، أغلبهم من الأنصار مع أنهم كانوا يعلمون أن الإذن بالقتال لم يكن لهم^(٢) .
وجملة من خرج من المهاجرين أربع وثمانون صحابياً ، ومن الأوس واحد وستون ومن الخزرج مائة وسبعون .

٥. الجيش الإسلامى فى رعاية الله :

أرض وادى بدر رملية ناعمة ، تؤذى من يسير عليها ، ويتحرك فوقها ، وقد شعر المسلمون- بالتعب لطول- المسفر ، وعدم- النوم- ، وسيطر عليهم قلق الانتظار والترقب .. وهنا تحوطهم رعاية الله تعالى فينزل عليهم المطر ، وتتلبد

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٨١ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب عدة أصحاب بدر ج ٦ ص ٢٣٩ .

الأرض ، ويسهل عليهم السير ويغشاهم نعاس ألقاه الله عليهم لتهدأ خواطرهم ، ويذهب تعبهم ، وذلك من فضل الله عليهم يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (١) .

وقد احتلم عدد من الصحابة فلما أصبحوا وجدوا الماء فاغتسلوا وتطهروا وبذلك دخلوا المعركة أطهاراً ، ناجين من رجس الشيطان ، ثابتى الأقدام ، مطمئنى القلوب .

ومكث الرسول ﷺ هذه الليلة فى صلواته ، ودعائه ليصبح يوم اللقاء والمعركة وهو يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة حيث كان نصر الله تعالى .

وفى صباح يوم الجمعة تراءى الجمعان . فقال رسول الله ﷺ : اللهم هذه قریش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك ، وتكذب رسولك ، اللهم نصرک الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة (٢) .

وعدل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين ، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب ، فقد كان فى يده قدح يعدل به ، وكان "سواد بن غزية" خارجاً عن الصف فدفع النبى ﷺ القدح فى بطنه ليتساوى مع الصف ، فاشتكى سواد وجع القدح إلى رسول الله ﷺ .

فقال له ﷺ : استقد منى .

وهنا اعتنق سواد النبى ﷺ وقبل بطنه .

فقال ﷺ : ما حملك على هذا يا سواد ؟

قال سواد : يا رسول الله قد حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير (١) .

(١) سورة الأنفال ، الآية ١١ .

(٢) سيرة النبى ج ١ ص ٦٢١ ، زاد المعاد ج ٣ ص ١٧٦ .

ولما أتم ﷺ تعديل الصفوف ، أصدر أوامره إلى جيشه ، بأن لا يبدأوا القتال. حتى يتلقوا. منه الأولمر .الأخيرة ، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص. فى أمر الحرب فقال : "إذا أكثبوكم ، يعنى كثروكم . فارموهم ، واستبقوا نبلكم ، ولا تسلبوا السيوف حتى يغشوكم"^(٢) ثم رجع إلى العريش ومعه أبو بكر ، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش .

وبعد أن سوى ﷺ الصفوف ، وتهيأ الجميع للقتال أرسل إلى القرشيين عمر بن الخطاب. ﷺ فى فرصة أخيرة يقول. لهم :. ارجعوا فإنه إن يلى هذا الأمر منى غيركم أحب إلى من أن تلوه منى ، وأن آليه من غيركم أحب إلى من أن آليه منكم .

فقال حكيم بن حزام : قد عرض نصحاً فاقبلوه ، فوالله لا تنتصرون عليه بعدما عرض من النصح ، فأبوا النصيحة ، وأصروا على القتال^(٣) .

وهكذا يبدو الخلق الإسلامى من توجيهات رسول الله ﷺ بعدم البدء فى القتال وعدم استعمال سلاح إلا إذا استعمله الأعداء أولاً ، فإن كان الرمى بالنبال يكون الرد بالنبال ، وإن سلوا السيوف فلا مانع من الرد بها ، وفى إرسال عمر لهم بيان تام لرغبة المسلمين فى السلام الكريم الذى لا يضيع الحقوق .

ب . موقف القرشيين :

أرسلت قريش غيرها إلى الشام ، فى قافلة ضخمة ، بقيادة أبى سفيان بن حرب وكانت القافلة مكونة من ألف بعير ، فيها أموال عظام ، ولم يبق بمكة قرشى ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به فى هذه العير ، فأدركهم رجل من جذام بـ "الرزقاء"^(٤) من ناحية "معان"^(٥) . وهم منحدرين إلى مكة . فأخبر أبى سفيان أن محمداً ﷺ كان قد عرض لعيرهم فى بدأتهم ، وأنه تركه مقيماً ينتظر رجعتهم، وقد

(١) سيرة النبى ج ١ ص ٦٢٦ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب غزوة بدر ج ٦ ص ٢٠٥ .

(٣) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ج ٤ ص ٥٣ .

(٤) الزرقاء تأنيث الأزرق موضع جنوب الشام جهة معان .

(٥) معان بفتح الميم أو ضمها وهى مدينة فى طرف بلاد الشام الدنيا .

حالف أهل الطريق ، ووادعهم ، فخرجوا خائفين الرصد ، وبعثوا "ضمضم بن عمرو" حين فصلوا من الشام، وأمره أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية أن يخبر قريشاً أن محمداً قد عرض لعيرهم ، وأمره أن يجدع بعيره إذا دخل مكة ، ويحول رحله ، ويشق قميصه من قبله ودبره ، ويصيح الغوث ... الغوث ...

فلم يرع أهل مكة إلا وضمضم يقول : يا معشر قريش ، يا آل لؤى بن غالب اللطيمة ... اللطيمة ، قد عرض لها محمد في أصحابه ، الغوث ... الغوث ، والله ما أرى أن تتركوها ، وقد جدع أذنى بعيره ، وشق قميصه ، وحول رحله ، فلم تملك قريش من أمرها شيئاً حتى نفروا على الصعب والذلول ، وتجهزوا للحرب في ثلاثة أيام ، وأعان قويعهم ضعيفهم ، وقام سهيل بن عمرو وزمعة بن الأسود ، وطعيمة بن عدي ، وحنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان ، يحضون الناس على الخروج .

فقال سهيل : يا آل غالب ، أتركون أنتم محمداً والصبابة من أهل يثرب يأخذون عيراتكم وأموالكم ؟ من أراد مالاً فهذا مالي ، ومن أراد قوة فهذه قوتي ، فمدحه أمية بن أبي ، وأيده في تهيج أهل مكة .

ومشى نوفل بن معاوية الديلمي إلى أهل القوة من قريش ، فكلّمهم في بذل النفقة والحملان ، لمن خرج ، فقال عبد الله بن أبي ربيعة : هذه خمسمائة دينار فضعها حيث رأيت وأخذ من حويطب بن عبد العزى مائتي دينار ، وثلاثمائة دينار لتقوية السلاح ، والظهر .

وحمل طعيمة بن عدي على عشرين بعيراً ، وقواهم ، وخلفهم في أهله بمعونة ومال .

ولم يتخلف أحد من قريش إلا بعث مكانه بعيثاً ، فلما مشوا إلى أبي لهب أبي أن يخرج ، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان مديناً له بأربعة آلاف درهم .

قال أبو لهب للعاص : أخرج ، ودينى لك فخرج عنه وتحمل أبو لهب ما وعد به .

واستقسم أمية بن خلف ، وعتبة ، وشيبة . عند هبل بالآمر بالخروج ،
والناهي عنه فخرج القدح الناهي ، وأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل واستقسم
زمعة بن الأسود فخرج الناهي أيضاً ، وكذلك خرج لعمير بن وهب وخرج حكيم بن
حزام وهو كاره لمسيره ، بعدما خرج له القدح الناهي مثل غيره ، فلما نزلوا مر
الظهران نحر أبو جهل جزرا وزعها عليهم ، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا
أصابه من دمها ، وأخذ عداس يخذل شيبة ، وعتبة ابني ربيعة ، والعاصي بن منبه
بن الحجاج ، وأبا أمية بن خلف فأثاه عقبة بن أبي معيط ، وأبو جهل فعنفاه .

فقال عداس : ابتاعوا لي أفضل بعير في الوادي ، فابتاعوا له جملاً بثلاثمائة
درهم من نعم بني قشير ، فخرج بها مع الجيش ، أملاً في أن يفر بها حين الهزيمة
التي يتوقعها ، وأقبل القرشيون في تجمل عظيم ، وحنق زائد على رسول الله ﷺ
وأصحابه لما يريدون من أخذ عيهرهم وتجريهم على قوافلهم ورجالهم^(١) .

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل مجئ ضمضم بثلاث ليال ،
رأت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا
انفروا يا لغدر لمصارعكم في ثلاث ، فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد
والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله قام به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ بمثلها ، ثم
قام به على رأس جبل أبي قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذت صخرة فرماها فتفتت
ودخلت كل بيوت مكة ... وشاعت الرؤيا في مكة ... وخاف منها الكثير غير أبي
جهل فإنه سخر منها^(٢) .

فكان عمرو بن العاص يحدث فيقول : لقد رأيت كل هذا ، ولقد رأيت في
دارنا فلقة من الصخرة التي انفلقت من أبي قبيس ، فلقد كان ذلك عبرة ، ولكن
الله لم يرد أن نسلم يومئذ فأخر إسلامنا إلى ما أراد .

ولم يدخل داراً ولا بيتاً من دور بني هاشم ولا بني زهرة من تلك المصخرة
شيئاً^(٣) .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٦٦ .

(٢) سيرة النبي ج ١ ص ٦٠٧ .

(٣) المغازي ج ١ ص ٢٩ .

تمكن أبو سفيان من الإفلات بالقافلة ، لأنه علم بخروج المسلمين للاستيلاء عليها فلما اقترب من بدر أخذ طريق الساحل ، بعد أن علم بوصول المسلمين إليها ، ذلك أنه كان يسير على الطريق الرئيسي حذراً متيقظاً ، وقد ضاعف حركاته الاستكشافية .

ولما اقترب من بدر تقدم غيره ، حتى لقي "مجدى بن عمرو" وسأله عن جيش المدينة ، فقال : ما رأيت أحداً أنكره ، إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا النل ، ثم استقيا فى شن لهما ، ثم انطلقا .

فبادر أبو سفيان إلى مناخهما ، فأخذ من أبعاد بغيرهما ، ففته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، فرجع إلى غيره سريعاً ، وضرب وجهها محولاً اتجاهها نحو الساحل غرباً ، تاركاً الطريق الرئيسي الذى يمر ببدر على اليسار ، وبهذا نجا أبو سفيان بالقافلة من الوقوع فى قبضة جيش المدينة ، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التى تلقاها القرشيون عند وصولهم إلى الجحفة^(١) .

وخرج الجيش القرشى ، بعدته ، وعتاده ، وقد بلغ عدده تسعمائة وخمسون رجلاً ، بقيادة عدد من صناديد مكة ، وكان معهم مائتا فرس ، وعدد كبير من الإبل لركوبهم ، وحمل أمتعتهم ومئونة طعامهم ، وليتاجروا فيها وفى أحمالها ، بعد تحقيق النصر الذى تصوره مؤكداً .

وقبل أن يتحرك جيش الشرك أخذ القرشيون لأنفسهم الأمان من "كنانة" بعدما قال لهم مالك بن جشعم المدلجى ، وهو من أشرف كنانة : "أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشئ تكرهونه" .

وقد كره أهل الرأى أن يخرجوا للقتال بعد نجاة القافلة ، ومشى بعضهم لبعض فى ذلك إلا أن دعاة الحرب ، وعلى رأسهم أبو جهل (عمرو بن هشام) جعلوا يحرضون على الخروج ، ويحضون على القتال ، حتى تمكنوا من غايتهم ، ولم يخالفهم إلا بنو زهرة ، وبنو عدى ، ونفر من بنى هاشم .

(١) المغازى ج ١ ص ٣٠ .

أما بنو زهرة فقد قال لهم الأخنس بن شريك حليفهم : يا بنى زهرة قد نجى الله أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وأنما نفرتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بى جنبها وارجعوا فإنه لا حاجة لكم أن تخرجوا فى غير منفعة لا كما يقول هؤلاء فرجعوا ، وكانوا نحو المائة ، ويقال ثلاثمائة ، فما شهدها زهرى إلا رجلين هما عما مسلم بن شهاب الزهرى ، وقتلا كافرين ببدر .

واغتبطت بنو زهرة برأى الأخنس ، وحمدوا له رأيه هذا ، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً .

وأما بنو عدى بن كعب فقد خرجوا مع الجيش حتى وصلوا إلى ثنية "لفت" (١) وهى مكان بين مكة والمدينة ، فعدلوا فى السحر إلى الساحل منصرفين إلى مكة ، فقابلهم أبوجهل فقال لهم : يا بنى عدى كيف رجعتم ؟ لا فى العير ولا فى النفير؟؟

قالوا : أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، فرجعنا .

وأما بنو هاشم : فإنهم لما أزمعوا التخلف قال لهم أبوجهل : لا تفارقنا هذه العصابة منكم حتى نرجع .

ولم يترك أبو جهل شخصاً فى مكة ، كارهاً للخروج ، أو مسلماً يعلمون إسلامه ولا أحداً من بنى هاشم إلا وأشخصوه معهم بما بذلوه من جهد وحيلة وكان على رأس من أخذوهم معهم : العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، وطالب بن أبى طالب وعقيل بن أبى طالب ، وأبو العاص بن الربيع .

وقد حاول أبو سفيان صرف قريش عن الخروج ، فأرسل إليهم رسالة حملها قيس بن أمروء القيس ، وجاء فيها : "إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا" (٢) .

فلما علم أبو جهل بالرسالة قال : . والله لا نرجع حتى نرد. بدرأ. فنقيم ثلاثاً فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا

(١) لفت بفتح أوله وسكون ثانية موضع بين مكة والمدينة .

(٢) المغازى ج ١ ص ٤٣ .

العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .
وواصل جيش قريش مسيرته نحو بدر حتى وصل إلى العدو القصوى فبات عندها .

وقد قام القرشيون بعدد من العمليات عند بدر استعداداً للقتال ، إلا أن الله تعالى أخزاهم ، وجعل تخطيطهم وسعيهم وبالاً عليهم ، يتضح ذلك من أعمالهم التالية :

١. اختيار المكان :

اختار القرشيون لأنفسهم مكاناً حيواً نزلوا فيه عند العدو القصوى في بطن الوادي حيث قربه من الماء ، وأرضه صخرية لا تسيح فيه الأقدام ، بينما نزل المسلمون في أرض رملية ، بعيداً عن الماء وذلك يمنعهم من الحركة ، ويوقع بهم الظماً .

اشتد الأمر بالمسلمين وأصابهم التعب والظماً ، بينما كان الماء وفيراً لدى القرشيين ، والأرض تحت أقدامهم صلبة وأراد الله تعالى بقدرته وحكمته أن يبدل الأمر ويغير الحال فأنزل في ليلة المعركة مطراً كثيراً ألحق الأذى بالكفار ، ومنعهم من التقدم ، وشق عليهم أن يتحركوا فوق الصخر المبلل بالماء أما المسلمون فقد تطهروا ، وتصلب الرمل تحت أقدامهم وسهل المشى ، وثبتت الأقدام ، وملأوا أسقيتهم وشربوا ، وسقوا إبلهم

وهكذا تحولت مزية المكان الذي اختاره القرشيون إلى سواة ألمت بهم .

٢. محاولة تخريب معسكر المسلمين :

نظر القرشيون إلى معسكر المسلمين فوجدوا أن المسلمين قد بنوا حوضاً وملأوه ماءً وخربوا ما عداه فأرسلوا نفرأ منهم لهدم الحوض ، وإسالة مائه فحاول المسلمون طردهم ، ومنعهم من الاقتراب ، فقال ﷺ : **دعوهم يشربون فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل سوى حكيم بن حزام ، فإنه لم يقتل وأسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان إذا اجتهد في اليمين فيما بعد يقول : لا والذي نجاني من يوم بدر .**

وهكذا ضلت محاولة القرشيين فى تخريب حوض المسلمين .

٣. معرفة عدد المسلمين :

اطمأنت قريش لمنزلتها فى بدر فبعثت "عمير بن وهب الجمحى" للتعرف على مدى قوة جيش المدينة ، فدار عمير بفرسه حول المعسكر ، ثم رجع إليهم فقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر للقوم كمين ، أو مدد ؟

فضرب فى الوادى حتى أبعد ، فلم ير شيئاً فرجع إليهم ، فقال : ما وجدت شيئاً ، ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلىا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ، ولا ملجأ ، إلا سيوفهم والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادكم ، فما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم ... وأنى لهؤلاء القوم أن يفكروا ويتدبروا ، ودعاة الحرب فيهم تنذر وتحرض وتحول بينهم وبين التعقل والفهم السليم !!

٤. مقاومة معارضى القتال :

قامت معارضة ضد أبى جهل . المصمم على المعركة . تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال ، فقد مشى حكيم بن حزام فى الناس ، وأتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر؟

قال : وما ذاك يا حكيم ؟

قال : ترجع بالناس وتحمل دية حليفك عمرو بن الحضرمى . المقتول فى سرية النخلة .

فقال عتبة : قد فعلت ، أنت ضامن على بذلك ، إنما هو حليفى فعلى عقله ، وديته وما أصيب من ماله .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام : فأت ابن الحنظلية (أبا جهل) فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره .

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال : يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تقتلوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لنن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته فأرجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل - وهو يهيب درعاً له .

فقال له : يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني بكذا وكذا .

فقال أبو جهل : انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه (وهو أبو حذيفة بن عتبة ، كان قد أسلم قديماً ، وهاجر) فتخوفكم عليه .

ولما بلغ عتبة قول أبي جهل "انتفخ والله سحره" ، قال عتبة : سيعلم مصفر أسته من انتفخ سحره ، أنا أم هو (١) ؟

وتعجل أبو جهل الحرب مخافة أن تقوى هذه المعارضة ، فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمي - أخى عمرو بن الحضرمي المقتول في سرية عبد الله بن جحش - فقال : هذا حليفك (أي عتبة) يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت تأرك بعينك ، فقم فانشد خفرتك ، ومقتل أخيك ، فقام عامر فكشف عن أسته ، وصرخ : واعمره ... واعمره فحمى القوم ، واشتد أمرهم وانفعلوا لثأرهم ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر (٢) .

وبذلك أفسد أبو جهل على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة ، وتغلب الطيش على الحكمة ، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٨٣ بتصرف .

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٨٣ .

- ثالثا -

أحداث المعركة

التقى الجمعان وجهاً لوجه ، وفى صباح يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان فى العام الثانى من هجرة النبى ﷺ بدأ القتال وكان الجو حاراً . وكانت بدايته عدواناً قرشياً ضد المسلمين ، فلقد جاء الأسود بن عبد الأسد المخزومى ، ودنا من حوض ماء المسلمين ، وقال : .أعاهد الله لأشرب من حوضهم ، أو لأهدمته ، أو لأموتن دونه ، فاستقبله حمزة بن عبد المطلب فضربه فقطع قدمه ، فزحف الأسود حتى وقع فى الحوض . فهدمة برجله المصححة ، وشرب منه ، وحمزة يتبعه فضربه فى الحوض ، فقتله^(١) .

وجاء عمير بن وهب فناوش المسلمين ، فثبتوا على حقهم ، ولم يزولوا ، وشد عليهم عامر بن الحضرمى ، ونشبت الحرب ، فكان أول من خرج من المسلمين مهجع بن عائش بن عريف مولى عمر بن الخطاب ، قتله عامر بن الحضرمى ، ومهجع هو أول شهيد قتل من المهاجرين^(٢) .

وكان أول قتيل قتل من الأنصار حارثة بن سراقة ، ويقال قتله حبان بن عرقة ويقال عمير بن الحمام قتله خالد بن الأعلم العقيلي^(٣) .

دنا الجيشان بعضهم من بعض ، وخرج عتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ودعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثة فتيان من الأنصار وهم ، معوذ ، وعوف ابنا عفراء ، ثالثهم عبد الله بن رواحة ، فاستحيا رسول الله ﷺ ، وكره أن يكون أول قتال لقى فيه المسلمون المشركين من الأنصار ، وأحب أن تكون الشوكة بين بنى عمه وقومه ، فأمرهم فرجعوا إلى مصافهم ، وقال لهم خيراً .

ثم نادى منادى المشركين : يا محمد أخرج إلينا الأكفاء من قومنا .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٨٣ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٧ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٨ .

فقال ﷺ : يا بني هاشم قوموا فقاتلوا بحقكم الذى بعث نبيكم به ، إذ جاعوا بباطلهم ليطفئوا نور الله .

فقام على ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث . بن عبد المطلب ، فمشوا إليهم ، وكان على رضى الله عنه معلماً بصوفة بيضاء . فقال عتبة لابنه : قم يا وليد ، فقام فقتله على . ثم قام عتبة فقتله حمزة .

ثم قام شيبه فقام إليه عبيدة فضربه شيبه ضربة فقطع ساقه ، فكر حمزة وعلى فقتلا شيبه واحتملا عبيدة إلى الصف فنزلت فيهما هذه الآية : ﴿ هَذَا خِصْمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ ﴾ (١)(٢) .

واستفتح أبو جهل يومئذ القتال فقال : اللهم اقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا يعلم ، فأحنه الغداة اللهم أينما كان أحب إليك ، وأرضى عندك فانصره اليوم (٣) فأنزل الله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَن تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ (٤) . وبذلك حكم أبو جهل على نفسه .

وأخذ أبو جهل يصيح فى قومه ويقول : لنا العزى ولا عزى لكم . فنادى منادى رسول الله ﷺ : الله مولانا ولا مولى لكم ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار (٥) .

وتصور إبليس فى صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى يذمر المشركين ، ويخبرهم أنه لا غالب لهم من الناس ، فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على

(١) سورة الحج ، الآية ١٩ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب غزوة بدر ج ٦ ص ٢٤٣ .

(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ١٨٤ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية ١٩ .

(٥) سورة الأنفال ، الآية ١٩ .

عقبيه ، وقال : ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ﴾^(١) فتشبهت به الحارث بن هشام وهو يظنه سراقاً ، فضرب صدر الحارث فسقط ، وانطلق إبليس لا يرى حتى وقع في البحر^(٢) .

وأقبل أبو جهل يحض المشركين على القتال بكلام كثير ، ويهون عليهم ما شاهدوه من صورة سراقه بن مالك وقال لهم : يا معشر الناس لا يهمنكم خذلان سراقه فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهمنكم قتل عتبة ، وشيبة ، فإنهم قد عجلوا ، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقيد محمداً وأصحابه ونربطهم بالحبال ، ولا ألفين رجلاً منكم قتل رجلاً واحداً منهم فقط ولكن خذوهم أخذاً حتى نعرفهم سوء صنيعهم^(٣) .

اتسع نطاق المعركة ، وأجهد المسلمون أعداءهم ، والنبي في العريش يدعو على أعداء الله ، ويحرض المسلمين على القتال ، يقول لهم ﷺ : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة.

تعلق أمل المسلمون في معونة الله ، وبذلوا للنصر كل طاقتهم ، وأخذوا في الاستغاثة والدعاء حتى أتاهم المدد الإلهي العظيم ، وعنه يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ ﴾^(٤) وهكذا جاءت الملائكة في صورة متابعة استجابة لاستغاثة المجاهدين في بدر .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٤٨ .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ٨١ .

(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ١٨٤ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية ٩ .

يقول ابن إسحاق : خفق النبي ﷺ خفقة في العرش فقال : أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده ثنايا النقع ^(١) .

وأخذ ﷺ ينادى ربه ويقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد في الأرض ، فما زال ﷺ يهتف بربه ، ماداً يديه ، مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه وأبو بكر ﷺ يقول له : يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك ^(٢) .

يقول ﷺ : إن الملائكة قد سومت فسوموا ، فأعلموا بالصوف في مغازهم وقلانسهم ، وكان أربعة معلمون في الزحوف ، فكان حمزة معلماً بريشة نعامة ، وعلى معلماً بصوفة بيضاء ، والزبير معلماً بعصابة صفراء ، وأبو دجانة معلماً بعصابة حمراء ^(٣) .

يقول سهيل بن عمرو : ولقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً ، على خيل بلق ، بين السماء والأرض ، معلمين ، يقتلون ، ويأسرون ^(٤) .

ويقول أبو أسيد الساعدي ، (بعد أن ذهب بصره) : لو كنت معكم الآن ببدر (ومعى بصرى) لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك فيه ولا أتمارى ^(٥) .

وكان ابن عباس يحدث أن أبا رهم الغفاري قال : أقبلت أنا وابن عم لي يوم بدر حتى أضعنا في جبل (ونحن مشركان) ننتظر الواقعة على من تكون الدبرة ، فننتهب مع من ينتهب (فبينما نحن في الجبل) إذ رأيت سحابة دنت منا فسمعت فيها حممة الخيل وقعقة الحديد ، وسمعت قائلاً يقول : أقدم حيزوم ، فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت ، وأتبع البصر حيث تذهب السحابة ، فجاءت إلى النبي ﷺ وأصحابه ، ثم رجعت وليس فيها شيء مما كنت أسمع ^(٦) .

(١) سيرة النبي ج ١ ص ٦٣٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي . باب الإمداد بالملائكة في بدر ج ١٢ ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) المغازي ج ١ ص ٧٦ .

(٤) زاد المعاد ج ٥ ص ١٨٣ .

(٥) سيرة النبي ج ١ ص ٦٣٣ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي . باب الإمداد بالملائكة يوم بدر ج ١٢ ص ٨٧ .

يقول رسول الله ﷺ : ما روى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ، ولا أحقر ولا أذحر ولا أعيظ منه في يوم عرفه وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، وما رأى يوم بدر .

قيل : وما رأى يوم بدر ؟

قال ﷺ : أما إنه قد رأى جبريل يزعم الملائكة .

وقال ﷺ يومئذ : هذا جبريل يسوق الريح كأنه دحية الكلبي ، إني نصرت بالصبا وأهكلت عاد بالدبور^(١) .

وقال عبد الرحمن بن عوف ؓ : رأيت يوم بدر رجلين ، عن يمين النبي ﷺ أحدهما وعن يساره أحدهما ، يقاتلان أشد القتال ، ثم يليهما ثالث من خلفه ، ثم رابعهما أمامه^(٢) .

وعن صهيب ؓ : ما أدرى كم يد مقطوع ، أو ضربة جائفة لم يدم كلمها يوم بدر قد رأيتها^(٣) .

وعن أبي بردة بن نيار ؓ قال : جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس فوضعتهن بين يدي رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أما رأسان فقتلتهما ، وأما الثالث فإني رأيت رجلاً أبيض ، طويلاً ، ضربه ، فتدهده أمامه فأخذت رأسه . فقال ﷺ : ذاك فلان من الملائكة .

وعن ابن عباس : كان الملك يتصور في صورة من يعرفون من الناس تثبيناً للمسلمين فيقول : إني قد دنوت منهم فسمعتهم يقولون : لو حملوا علينا ما ثبتنا ، ليسوا بشيء ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾^(٤) .

(١) المغازي ج ١ ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٧٨ .

(٣) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٨٨ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية ١٢ .

وعن حكيم بن حزام : لقد رأيتنا يوم بدر ، وقد وقع بوادى خُلص بجَاد من السماء قد سد الأفق ، فإذا الوادى يسيل نملاً ، فوقع فى نفسى أن هذا شئ من السماء أيد الله به محمداً ﷺ ، فما كانت إلا الهزيمة لحقت بجيش الكفر وما كان النمل إلا الملائكة^(١) .

وعن ابن عباس ؓ يقول : إن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ بعنان فرسه وعليه أداة الحرب^(٢) .

وعن ابن عباس ؓ قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشدد فى إثر رجل من المشركين أمامه فإذا به يسمع ضربة السوط ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، فينظر إلى المشرك أمامه مستلقياً وقد خطم أنفه ، وشق وجهه ، من ضربة السوط ويخضر ذلك الموضع أجمع ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال ﷺ : صدقت ، ذلك مدد من السماء الثالثة^(٣) .

وروى البيهقى عن السائب بن أبى حبيش ؓ وكان مع المشركين فى بدر أنه كان يقول : والله ما أسرني أحد من الناس . فيقال له : فمن ؟

فيقول : لما انهزمت قريش انهزمت معها ، فيدركنى رجل أبيض طويل على فرس أبلق بين السماء والأرض ، فأوثقنى رباطاً^(٤) .

وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدنى مربوطاً ، فنادى فى العسكر : من أسر هذا؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني ، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أبى حبيش من أسرك ؟

فقلت : لا أعرفه ، وكهرت أن أخبره بالذى رأيت .
وهنا قال ﷺ : أسرك ملك من الملائكة^(٥) .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٨٩ ، وخُلص واد بين مكة والمدينة ، والبجَاد الكساء .

(٢) المغازى ج ١ ص ٨٠ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي . باب الإمداد بالملائكة ج ١٢ ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) مسند أحمد ج ٢ ص ١٩٤ تحقيق أحمد شاكر .

(٥) المغازى ج ١ ص ٧٩ .

وروى ابن سعد وأبو الشيخ عن عطية بن قيس قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال بدر جاء جبريل على فرس أنثى أحمر ، عليه درعه ، ومعه رمحه ، فقال : يا محمد ، إن الله بعثني إليك وأمرني ألا أفارقك حتى ترضى ، هل رضيت؟ قال ﷺ : نعم ، رضيت فانصرف^(١) .

وروى أبو يعلى عن جابر قال : كنا نصلى مع رسول الله ﷺ فى غزوة بدر إذ تبسم فى صلاته ، فلما قضى صلاته قلنا يا رسول الله : رأيناك تبسمت ، قال مر بى ميكائيل وعلى جناحه أثر الغبار ، وهو راجع من طلب القوم ، فضحك إلى فتبسمت إليه^(٢) .

وروى البخارى عن رفاعه بن رافع الزرقى قال : جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟

قلنا : من أفضل المسلمين ، أو كلمة نحوها .

قال جبريل : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة^(٣) .

وروى ابن سعد عن عكرمة قال : كنا يومئذ يندر رأس الرجل لا يدرى من ضربه ، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربه^(٤) .

ونهى رسول الله ﷺ يومئذ عن قتل بنى هاشم ، فقال : من لقي منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله^(٥) .

ونهى عن قتل العباس بن عبد المطلب .

ونادى مناديه : من أسر أم حكيم بنت حزام فليخل سبيلها فإن رسول الله قد أمنها وكان قد أسرها رجل من الأنصار ، وكثفها بذوائبها فلما سمع المنادى خلى سبيلها .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ١١١ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب شهود الملائكة بدرًا ج ٦ ص ٢٥٦ .

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٥) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٨٨ .

ونهى ﷺ أيضاً عن قتل أبى البختري فقتله أبو داود المازنى ، ويقال قتله المجذربن زياد ونهى عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل فقتله خبيب بن يساف ولا يعرفه .

ونهى عن قتل زمعة بن الأسود فقتله ثابت بن الجذع ولا يعرفه^(١) .

ولما التحم القتال كان رسول الله ﷺ رافعاً يديه يسأل الله النصر ، وما وعده ، وأمر ﷺ فأخذ من الحصا كفاً فرماهم بها وقال : "شاهت الوجوه اللهم أرعب قلوبهم ، وزلزل أقدامهم"^(٢) فانهزم أعداء الله لا يلوون على شئ وألقوا دروعهم ، والمسلمون يقتلون ، ويأسرون ، وما بقى منهم أحد إلا امتلاً وجهه وعيناه ، ما يدرى أين يتوجه والملائكة يقتلونهم وذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَئِنْ أَلَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَئِنْ أَلَّهَ رَمَىٰ وَلِئَلَّيَ الْيَوْمَ مِنَ بَلَاءٍ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٣) .

وجمع بعقبة بن أبى معيط فرسه ، فأخذه عبد الله بن سلمه العجلانى ، فأمر النبى ﷺ عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح فضرب عنقه صبراً ، وصدق الله رسوله ﷺ فى قوله لعقبة : إن وجدتك خارج جبال مكة قتلتك صبراً .

وبينا عبد الرحمن بن عوف ؓ يجمع أدرعاً ، بعد أن ولى الناس ، إذا هو بأمية بن خلف ، وابنه على ، فأخذ يسوقهما أمامه فأبصره بلال فنادى : يا معشر الأنصار ، أمية بن خلف رأس الكفر ، لا نجوت إن نجا ! فأقبلوا حتى طرح أمية على ظهره ، وقطع الحباب بن المنذر أرنبة أنفه ، وضربه خبيب بن يساف حتى قتله^(٤) .

وقتل عمار بن ياسر ؓ على بن أمية بن خلف .

(١) وسبب قتل من نهى النبى ﷺ عن قتلهم عدم وصول النهى إلى الصحابى القاتل ، أو أنه لم يعرف الشخص الذى نهى النبى ﷺ عن قتله (إمتاع الأسماع ج ١ ص ٨٩) .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ١٨٥ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية ١٧ .

(٤) زاد المعاد ج ٣ ص ١٨٥ .

وقتل الزبير بن العوام ؓ عبيدة بن سعيد بن العاص .
وقتل أبو دجانة ؓ عاصم بن أبي عوف بن ضبيرة السهمي .
وقتل على ؓ عبد الله بن المنذر بن أبي رفاعه ، وحرملة بن عمرو وهو
يراهما أبا جهل .

وقتل حمزة ؓ أبا قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وهو يراه أبا جهل .
وكان أبو جهل في مثل الحرجة (هى الشجر الملتف) والمشركون يقولون :
أبو الحكم لا يخلص إليه ، فصمد معاذ بن الجموح إلى أبي جهل فضربه ضربة ،
وطرح رجله من الساق ، فأقبل عليه عكرمة بن أبي جهل فضربه على عاتقه فطرح
يده من العاتق ، وبقيت الجلدة ، فوضع معاذ عليها رجله ، وتمطى بها عليها حتى
قطعها ، وضربه مع معاذ ، ومعوذ وعوف ابنا العفراء فنفل رسول الله ﷺ معاذ
سيف أبي جهل ودرعه وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم والأموال ، ويأخذون الأسرى
، فرحين بنصر الله تعالى .

- رابعاً -

نتائج المعركة

لم تغرب شمس يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من العام الثانى
للهجرة إلا وقد تم النصر لجند الله في بدر ، وتأكد المسلمون المجاهدون من نصر
الله تعالى ، بعدما رأوا الملائكة تنزل عليهم في صورة بشرية ، معونة ، وتنبيهاً ،
وأُسفرت المعركة عن هزيمة ساحقة لكفار مكة ، وانتصار كبير للمسلمين ، وكان
لهذا النصر صدى واسع في الجزيرة العربية كلها .

وقد لقي سبعون من صناديد مكة مصرعهم في بدر ، وعلى رأسهم أبو
جهل ، وأمّية بن خلف ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وعبيدة ، والعاص ابنا سعيد
بن العاص ، وعقبة بن أبي معيط ... وغيرهم من القادة والزعماء كما أسر منهم
سبعون آخرون^(١) .

(١) انظر صحيح البخارى - كتاب المناقب . باب في غزوة بدر ج ٦ ص ٢٥٠ .

وفر الباقيون إلى مكة تاركين وراءهم الأموال وكثيراً من الإبل ، والخيول التي كانت في صحبتهم .
وقد حفر المسلمون قليلاً ، دفنوا فيه قتلى المشركين ، بعدما أمرهم ﷺ بإلقائهم فيه دفعة واحدة .

ذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا مر بجيفة إنسان أمر بدفنه ، لا يسأل عنه ، مؤمناً كان أو كافراً ، احتراماً لإنسانيته ، وإلقاء القتلى في القليب من هذا الباب ، إلا أنه ﷺ كره أن يشق على أصحابه بكثرة جيف الكفار أن يأمر بدفنهم ، واحداً ، واحداً ، فرأى أن دحرجتهم إلى القليب جملة أيسر عليهم وعلى المسلمين فأمر به ، وبخاصة أن نتن الجيف قد انتشرت لبقائها في العراء مدة ليست قليلة .

وقد أمر النبي ﷺ بإلقاء القتلى جميعاً في القليب بأجسادهم ، إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملأها ، فذهبوا ليحركوه ، فتزائل جسده وتقطع ، فأهالوا عليه التراب حيث هو ، ووقف الرسول ﷺ على القليب ثم قال : يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ؟

بنس القوم كنتم لنبيكم ، كذبتُموني وصدقني الناس ، وأخرجتُموني وآواني الناس ، وقاتلتُموني ونصرني الناس .

قال المسلمون : يا رسول الله تنادي قوماً قد ماتوا ؟

قال ﷺ : قد علموا أن ما وعدهم ربهم حق^(١) .

وقال السدي عن مقسم عن ابن عباس : وقف رسول الله ﷺ على قتلى بدر فقال : جزاكم الله عنى من عصابة شراً فقد خونتُموني أميناً ، وكذبتُموني صادقاً ، ثم التفت إلى أبي جهل فقال : هذا أعتى على الله من فرعون ، إن فرعون لما أيقن بالهلكة وحد الله ، وإن هذا لما أيقن بالهلكة دعا باللات والعزى .

وأما الأسرى والجرحى فقد اهتم بهم رسول الله ﷺ وأخذهم إلى المدينة ، وفرق الأسرى على أصحابه لإعالمتهم ، ورعايتهم ، وقال لهم : استوصوا بالأسارى خيراً ،

(١) انظر صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب غزوة بدر ج ٦ ص ٢٤٩ .

وكان. أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى.

يقول أخو مصعب : وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غذاءهم ، وعشاءهم خصوني بالخبز ، واطعموني التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا . ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا. نفحنى بها ، فأستحي فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسه .

وقد استشهد من المسلمين خمسة عشر شهيداً وهم ﷺ :

- (١) عبيدة بن الحارث ﷺ .
- (٢) عمير بن أبي وقاص ﷺ .
- (٣) عمير بن الحمام من بنى سلمة ﷺ .
- (٤) سعد بن خيثمة من بنى عمرو بن عوف من الأوس ﷺ .
- (٥) ذو الشمالين بن عبد عمرو بن نضلة الخزاعي حليف بنى زهرة ﷺ .
- (٦) مبشر بن عبد المنذر من بنى عمرو بن عوف ﷺ .
- (٧) عاقل بن البكير الليثي ﷺ .
- (٨) مهجع مولى عمر حليف بنى عدى ﷺ .
- (٩) صفوان بن بيضاء الفهري ﷺ .
- (١٠) بيضاء الفهري ﷺ .
- (١١) يزيد بن الحارث من بنى الحارث بن الخزرج ﷺ .
- (١٢) رافع بن المعلى ﷺ .
- (١٣) حارثة بن سراقي وهو ابن عمة أنس بن مالك خرج نظاراً ، وهو غلام ، فأصابه سهم فقتله ﷺ .
- (١٤ ، ١٥) عوف ، ومعوذ ابنا العفراء وكان سنهما أربعة عشرة سنة^(١) رضى الله عنهما .

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٧٠٦ ، ٧٠٨ .

وهؤلاء الشهداء منهم ستة من المهاجرين ، وستة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

وقد أحاط الله شهداء المسلمين بالخير ، وميزهم بالفضل ، وأحاطهم بالنعيم .
يروى البخارى عن رفاعه ابن رافع الزرقى رضي الله عنه ، وكان من أهل بدر قال :
جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟
قال ﷺ : من أفضل المسلمين ، أو كلمة نحوها .
قال جبريل : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة ^(١) .

وروى البخارى بسنده ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
اطلع الله تعالى على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ^(٢) .
وروى مسلم بسنده عن جابر رضي الله عنه أن عبدًا لحاطب جاء إلى رسول الله ﷺ يشكو
حاطبًا إليه فقال : يا رسول الله ﷺ ليدخلن حاطب النار ، فقال : كذبت لا يدخلها
، فإنه قد شهد بدرًا والحديبية ^(٣) .

وفى الصحيح عن على رضي الله عنه فى قصة كتاب حاطب : وأن عمر بن الخطاب
قال : يا رسول الله أضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ أليس من أهل بدر ؟ ولعل
الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، أو قال فقد
وجبت لكم الجنة ^(٤) .

وروى البخارى عن أنس رضي الله عنه قال : أصيب حارثة بن زيد ببدر فجاءت أمه
إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة منى فإن يك فى
الجنة أصبر وأحتسب ، وإن تكن الأخرى فترى ما أصنع ؟
فقال ﷺ : ويحك أو هبلت أو جنة واحدة هى ؟ إنها جنان كثيرة ، وإنه فى
الفردوس ^(٥) .

(١) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب شهود الملائكة بدرًا ج ٦ ص ٢٥٦ .

(٢) صحيح البخارى . باب شهود الملائكة بدرًا ج ٦ ص ٢٥٧ .

(٣) صحيح مسلم . باب فضائل حاطب ج ١٩ ص ٥٦ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب غزوة بدر ج ٦ ص ٢٤٩ .

(٥) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب غزوة بدر ج ٦ ص ٢٤٨ .

وإنما استحق أهل بدر كل هذا الفضل ، لأنهم قدموا أنفسهم لنصر دين الله تعالى ، فجعل الله ذنوبهم بعد ذلك تقع مغفورة ، كما أنهم لصفاء أرواحهم وصدق إيمانهم لا يقع الذنب منهم إلا خطأ ، وبصورة نادرة .

والمغفرة المذكورة تتعلق بأحكام الآخرة ، وبحقوق الله تعالى ، أما أحكام الدنيا وحقوق الناس فلا بد من استيفائها ، وأدائها لأصحابها أو عفو أصحابها عنها . ومن مواقف المسلمين في بدر ما حدث من عمير بن الحمام الأنصاري فلقد روى الإمام أحمد في مسنده أنه ﷺ قال: لأصحابه يوم بدر: : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض .

فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ فقال ﷺ : نعم .

فقال عمير : بخ بخ .

فقال ﷺ : ما يملكك على قولك بخ بخ ؟

قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها .

قال ﷺ : فإنك من أهلها .

فأخرج تمرات من قرته ، فجعل يأكل منهن ثم قال : لنن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، ثم رمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل .

- خامساً -

قريش والهزيمة

تقهقرت فلول جيش مكة ، وولوا الأدبار في الظلام ، وأسرعوا فارين راجعين إلى مكة ، وشربوا من الكأس التي أذاقوه لغيرهم كثيراً . وقد أخذ المتخلفون في مكة يتحسسون أخبار المعركة ، وكان أول خبر أتاها من "الحيسمان بن إياس الخزاعي" الذي وصل إلى مكة . فقالوا له : ما وراءك ؟

فقال لهم : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام وأمّية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، ونبيه ، ومنبه ابنا الحجاج ، وأبو البحتري بن هشام .

فلما جعل يعدد أشراف قريش ، قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر ، والله إن يعقل هذا لقد طار قلبه ، فسلوه عني .

فقالوا : ما فعل صفوان بن أمية ؟

قال : ها هو ذاك قاعد في الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

يروى ابن إسحاق عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ، فكان يكتنم إسلامه ، وكان ذا مال كثير ، متفرق في قومه ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش ، (كبتة الله تعالى وأخزاه) ووجدنا في أنفسنا قوة ، وعزة ، وكنت أعمل الأقداح في حجرة زمزم ، فوالله إنني جالس فيها أنحت أقداحي ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذا أقبل أبو لهب يجر رجلية بشر ، حتى جلس على طنب الحجرة ، فطان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم .

فقال أبو لهب : هلم إلي يا ابن أخي فعندك لعمري الخبر .

فجلس إليه والناس قيام عليه فقال : يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ، فقال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمحنناهم أكتافنا ، يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تليق شيئاً ، ولا يقوم لها شيء .

قال أبو رافع فرفعت طنب الحجرة بيدي ، ثم قلت : تلك والله الملائكة .

فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة ، وثاورته فاحتملني ، وضرب بي الأرض ثم بكى على يضريني ، وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى

عمود من عمد الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربة فلقت في رأسه شجة منكرة ، وقالت ، استضعفته أن غاب عنه سيده ، فقام مولياً ذليلاً فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعدسة فقتلته^(١) .

وكانت نهاية أبي لهب على نحو يعادل جريمته لأن العدسة قرحة كانت العرب تتشائم بها ويرون أنها تعدى أشد العدوى ، فلما أصابت أبا لهب تباعد عنه بنوه ، وبقي بعد موته ثلاثة أيام ، لا يقترب أحد من جثته ، ولا يحاول أحد دفنه ، فلما خاف بنوه السبة في تركهم له دفعوه بعصا في حفرة ، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى تغطت جثته^(٢) .

يروى بن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : ناحت قريش على قتلها بمكة شهراً ، وجز النساء شعورهن ، وما أن يؤتى براحلة الرجل منهم ، أو بفرسه ، إلا وتوقف بين أظهر النساء ، ويسترنها بالستور حولها ، وينحن حولها ، ويخرجن إلى الأزقة صائحين ثم قالوا : لا تفعلوا. ذلك فيبلغ محمداً. وأصحابه فيشمتوا. فيكم . ولا تبعثوا. في أسراكم حتى تستأنوا. بهم . حتى لا يتعالى عليكم محمد وأصحابه في الفداء .

وشعر القرشيون بعد هزيمتهم في بدر بهوان شديد عملوا على التخلص منه ، فلما عادوا إلى مكة وجدوا أن أبا سفيان أوقف غير القافلة والأموال التي عاد بها من الشام في دار الندوة ، ولم يحركها ، ولم يوزعها على أصحابها ، فاتفق كبارهم على أن يجهزوا بها جيشاً كثيفاً لقتال محمد ﷺ والأخذ بنأر هزيمتهم في بدر ، فباعوا الإبل التي بلغت ألف بغير ، وضموها إلى الأموال التي بلغت خمسين ألف دينار ، بعد أن أخذوا أرباحهم ، وقدرها خمسون ألفاً أخرى ، وكان الدينار يربح مثله^(٣) .

كما قاموا بتشكيل مجموعة من رجالهم ، لتدور على العرب في البوادي تؤلبهم على رسول الله ﷺ وتحضهم على قتال المسلمين في المدينة ، وقد تكونت هذه

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٦٢ ، والعدسة قرحة قاتلة مثل الطاعون .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٣) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١١٣ .

المجموعة من عمرو بن العاص ، وهبيرة بن أبي وهب ، وابن الزبير وأبى غرة عمرو بن عبدالله الجمحي ، وقد استمع العرب لهؤلاء ونفروا مع قريش في غزو أحد^(١) . وبذلك أشعلت قريش نار الحرب في الجزيرة كلها ، وأخذت تعد عدتها لحرب شاملة ، وكان من الضروري أن يكلف المسلمون بقتال من يعتدى عليهم ، وهنا كان فرض الجهاد مقيداً بقتال المعتدى ، وهو المرحلة الثانية في تشريع الجهاد .

- سادساً -

المسلمون في إطار انتصار "بدر"

تحقق المنصر للمسلمين في بدر . ، وقد استشهد منهم أربعة عشر شهيداً . ، وغنموا ما كان مع القرشيين من عتاد ، وأموال ، وقد أقام النبي ﷺ والمسلمون بعد المعركة في بدر ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع أخذوا في الرجوع إلى المدينة بعد أن انتهوا من دفن الشهداء ووضع قتلى المشركين في القليب . وقد عاش المسلمون بعد النصر الحقائق التالية :

١. الاختلاف في توزيع الغنائم :

عندما أتم النبي ﷺ تسوية الصفوف يوم بدر قال للمجاهدين : من قتل قتيلاً فله سلبه ، من أسر أسيراً فهو له ، فلما انهزم المشركون تفرق المجاهدون إلى أعمال متعددة ... فمنهم من وقف عند خيمة النبي ﷺ يحرسه ، ومنهم من أغار على الأعداء ليهزمهم ، ويقتلهم ، ومنهم من اتجه للأسر والغنيمة . وقد غنم المسلمون مائة وخمسين بعيراً ، وعشرة أفراس ، وأداما كثيراً حمله القرشيون معهم للتجارة بعد النصر الذي أملوا فيه . وقد اختلف المسلمون في الغنائم ، لأن الذين كانوا حول النبي ﷺ لم يأخذوا شيئاً ، وقالوا : ما منعنا أن نطلب العدو زهادة في الأجر ، ولا جبنا عن لقاء العدو ، ولكن خفنا على رسول الله ﷺ من أن يميل عليه خيل المشركين ، ورجالهم .

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ٦١ ، ٦٢ .

وقد أقام عند رسول الله ﷺ وجوه المهاجرين ، والأنصار ولم يغنم أحد منهم شيئاً ... ومتى أعطى الشباب لا يبقى للشيوخ شئ ، وبخاصة أن الغنيمة قليلة فنزل قول الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(١) .

وهكذا لم يترك الله أمر الغنائم لعقولهم واجتهادهم ، وإنما جعلها لحكم الله ورسوله جاء في تفسير ابن كثير عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا ، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ، ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ، ويجمعونه ، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ حتى لا يصيب العدو منه غرة ، فلما كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض .

قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب .
وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق به منا نحن منعنا عنكم العدو ، وهزمناهم .

وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به^(٢) .
فأمر رسول الله ﷺ برد الغنائم حتى يقضى الله فيها ، فرد أصحابه ﷺ الغنائم التي جمعوها من أعدائهم ، أما ما أخذ بغير قتال فقسمه ﷺ بينهم .

وجمعت الغنائم ، واستعمل عليها رسول الله ﷺ عبد الله بن كعب بن عمرو المازني وسار بها حتى وصل إلى "سير" وهناك قسمها على المجاهدين ، وقيل بل استعمل عليها خباب بن الأرت ، وكان فيها إبل ، ومتاع ، وأنطاع ، وثياب^(٣) .

وأنزل الله تعالى قوله في شأن الغنيمة : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَاقُ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٤)

(١) سورة الأنفال ، الآية ١ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٨٣ .

(٣) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٩٣ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية ٤١ .

وقد جعل النبي ﷺ الغنيمة أسهماً ، بعد أن أخذ خمسها ، فأعطى للراجل سهماً ، ولل فارس سهمين ، وضرب لثمانية من الصحابة رضي الله عنهم ، تخلفوا عن الغزوة لعذر ألم بهم ... وهم :
من المهاجرين :

(١) عثمان بن عفان ، خلفه رسول الله ﷺ على ابنته رقية ، ليعودها في مرضها ، وقد ماتت يوم قدوم زيد بن حارثة نبأ النصر ، وعند عودة النبي ﷺ إلى المدينة كانوا عائدين من دفنها في البقيع .

(٢) طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه .

(٣) وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه ، بعثه رسول الله ﷺ مع طلحه بن عبيد الله يتحسسان العير تلقاء "الحوراء" فلم يلحقا بالجيش .

ومن الأنصار :

(٤) أبو لبابة بن عبد الله رضي الله عنه ، خلفه على المدينة .

(٥) عاصم بن عدي رضي الله عنه ، خلفه رسول الله ﷺ على قباء ، وأهل العالية .

(٦) الحارث بن حاطب رضي الله عنه ، أمره ﷺ بأمر في بني عمرو بن عوف .

(٧) خوات بن جبير رضي الله عنه ، كسر بالروحاء .

(٨) الحارث بن الصمة رضي الله عنه ، كسر بالروحاء^(١) .

وضرب النبي ﷺ كذلك لمن استشهد ببدر - ، وسلم غنائمهم لأبنائهم ، واصطفى النبي ﷺ لنفسه من الغنيمة جمل أبي جهل ، فجعل يغزو ﷺ عليه حتى ساقه هدياً في الحديبية .

٢. الاختلاف في مصير الأسرى :

لما وصل رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة اهتم بأمر الأسرى ، فبدأ يأخذ رأى أصحابه في كيفية التعامل معهم .

يروى أبو الحسن النيسابوري بسنده إلى عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٩٤ .

لما جئ إليه بالأسرى يوم بدر ، جمع أصحابه وقال لهم : ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ؟

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله قومك وأصلك ، استبقهم ، وأستأن بهم لعل الله عز وجل يتوب عليهم .

وقال عمر : كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله أنظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ، ثم أضرم عليهم نارا .

فقال العباس : قطعت رحمك .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبههم ، ثم دخل فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر .

وقال ناس : يأخذ بقول عمر .

وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله .

ثم خرج عليهم صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله عز وجل ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(١) .

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال : ﴿ إِن تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢) .

ومثلك يا عمر كمثل موسى قال : ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾^(٣) .

ومثلك يا عمر كمثل نوح قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾^(٤) .

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٣٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١١٨ .

(٣) سورة يونس ، الآية ٨٨ .

(٤) سورة نوح ، الآية ٢٦ .

ثم قال رسول الله ﷺ : أنتم اليوم عالة ... ! أنتم اليوم عالة ... ! فلا ينقلبون منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق ؟

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر ، وأخذ منهم الفداء ، فلما كان الغد جاء عمر إلى رسول الله ﷺ وأبى بكر ، فوجدهما فى حزن وألم لما نزل فى شأن الأسرى من عتاب لرسول الله ﷺ .

يقول عمر : فغدوت إلى النبى ﷺ وأبى بكر ، وهما يبكيان ، فقلت : يا رسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما .

فقال رسول الله ﷺ "أبكى للذى عرض على أصحابك : من أخذهم الفداء فقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة"^(١) شجرة قريبة ، وعندها أنزل الله قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخَبَّرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٢) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٣) . والكتاب الذى سبق من الله هو قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَثًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾^(٤) .

وفى الكتاب المشار إليه إذن بأخذ الفدية من الأسارى ، ولذلك لم يعذب الله بأخذ الفدية ، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يتخبروا فى الأرض ، وكان على المجاهدين أن يجهزوا على أعدائهم فى ميدان المعركة جزاءً وفاقاً لما جاءوا من أجله ...

وكان على ﷺ يقول : أتى جبريل إلى النبى ﷺ بعد انتهاء القتال يوم بدر فخيرته فى الأسرى ، بين أن تضرب أعناقهم ، أو يؤخذ منهم الفداء ، أو يستشهد منهم فى قابل عدتهم واستقر رأى على رأى الصديق مع العتاب ، والعفو فأخذ ﷺ

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) سورة محمد ، الآية ٤ .

منهم الفداء ، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم ، إلى ثلاثة آلاف درهم ، إلى ألف درهم ، وكان بعض الأسرى يكتبون فجعل رسول الله ﷺ فداء من يكتب تعليم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة ، فإذا حذقوها فهو فداء لهم ، وممن تعلم في بدر زيد بن حارثة .

ومن رسول ﷺ على عدد من الأسارى ، فأطلقهم بغير فداء منهم : المطلب بن حنطب ، وصيفى بن أبى رفاعه ، وأبو عزة الجمحى .

ومن على خنته أبى العاص بشرط أن يخلى سبيل زينب ، وكانت قد بعثت في فداءه بقلادة لها كانت عند خديجة رضى الله عنها ، أهدتها لها حين أدخلتها به على أبى العاص فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، واستأذن أصحابه في إطلاق أبى العاص ففعلوا ، واشترط رسول الله ﷺ على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب ، فخلاها ، فهاجرت إلى أبيها في المدينة بعد ذلك ، وقد بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، ورجلاً من الأنصار ، وقال لهما : كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباهما ، فخرجا حتى رجعا بها .

وكان في الأسرى سهيل بن عمرو ، وكان خطيباً مصقلاً ، قال عمر : يا رسول الله ، انزع ثيبتى سهيل بن عمرو يدلع لسانه ، فلا يقوم خطيباً عليك في موطن أبداً ، بيد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب ، احترازاً عن المثلة وعن بطش الله يوم القيامة .

ومن أحداث الأسرى ما روى أنه بعد أسر عمرو بن أبى سفيان بن حرب ، قيل لأبى سفيان : ألا تقدى عمرو ؟

فقال أبو سفيان : حنظلة قتل ، وأفتدى عمرو ! فأصاب بمالى وولدى ؟ لا أفعل ولكن أنتظر حتى أصيب منهم رجلاً فأفديه ، فأصاب سعد بن النعمان بن زيد بن أكال أحد بنى عمرو بن عوف ، جاء معتمراً مع المنذر بن عمرو فلما قضيا عمرتهما طلبهما أبو سفيان ، فأدرك سعداً فأسرته ، وفاته المنذر ، ففي ذلك يقول ضرار بن الخطاب :

تداركت سعداً عنوة فأسرته . : وكان شفاء لو تداركت منذراً

وهنا تمكن أبو سفيان من بغيته وتبادل مع المسلمين في الأسر ، فأفدى ابنه عمرو بسعد بن النعمان .

٣. الابتهاج بنصر الله تعالى :

أشاع اليهود والمنافقون في المدينة أكاذيب وتحدثوا عن هزيمة المسلمين ولذلك عجل رسول الله ﷺ برد. هذا الافتراء. ، وإخبار أهل المدينة بانتصار المسلمين في بدر ، فأرسل رسولان هما عبد الله بن رواحه بشيراً لأهل العالية وزيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة فنادى عبد الله : يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ ، وقتل المشركين وأسروهم ، ثم أتبع دور الأنصار فبشروهم .

وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة ، فلم يصدق المنافقون ذلك ، وشنعوا ، وقدم شقران بالأسرى وهم سبعون رجلاً ، وتلقى الناس رسول الله ﷺ بالروحاء يهنتونه بفتح الله ، فقدم المدينة ﷺ مؤيداً ، مظفراً ، منصوراً قد أعلى الله كلمته ، ومكن له ، وأعز نصره ، ودخلها من ثنية الوداع في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من رمضان ، فتلقاه الولائد بالدفوف وهن يقلن :

طلع البدر علينا .: من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

فأذل الله بوقعة بدر رقاب المشركين والمنافقين واليهود ، ولم يبق بالمدينة بهودى ولا منافق إلا وشعر بالخزى ، وأسلم حينئذ بشر كثير من أهل المدينة ومن ثم دخل عبد الله بن أبى سلول وجماعته من المنافقين في دين الإسلام تقيّة .

وقد عم السرور ، والفرح قلوب المسلمين جميعاً ، وشكروا الله تعالى على ما أنعم عليهم من نصر . حتى أن النجاشي ملك الحبشة لما جاءه خبر انتصار رسول الله ﷺ وهو في الحبشة أرسل إلى جعفر وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت قديم عليه ثياب رثة . جالس على التراب. فأخذ يبشروهم بالنصر ويهنتهم بالفوز والفلاح .

يقول جعفر ؓ : فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلما أن رأى ما في وجوهنا قال : إني أبشركم بما يسركم ، إنه جاءني من نحو أرضكم عين لى

فأخبرني أن الله قد نصر نبيه ﷺ ، وأهلك عدوه ، وأسر فلان ، وفلان وقتل فلان ، وفلان ، التقوا بواد يقال له "بدر" كثير الأراك كأنى أنظر إليه ، كنت أرعى لسيدى رجل من بنى ضمرة إبله .

فقال له جعفر : ما بالك جالس على التراب ليس تحتك بساط ، عليك هذه الأخلاط ؟

قال له النجاشي : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى أن حقا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعا عندما يحدث لهم من نعمة ، فلما أحدث الله لى نصر نبيه ﷺ أحدثت له هذا التواضع^(١) .

٤. تشريع زكاة وعيد الفطر :

كان من تمام نصر الله للمسلمين فى شهر رمضان أن فرض الله عليهم زكاة الفطر يتعاطونها فيما بينهم جميعاً ، غنيهم وفقيرهم ، من يملك ، ومن لا يملك فقام ﷺ فيهم قبل نهاية رمضان بيومين ، وعلمهم زكاة الفطر ، وعرفهم بتشريع صلاة العيد فى نهاية رمضان. وخرج ﷺ إلى المصلى صباح يوم عيد الفطر فصلى بالناس صلاة العيد لأول مرة .

فلما كان شهر ذى الحجة من نفس العام ضحى ﷺ وصلى صلاة عيد الأضحى وأخذ ﷺ يضحى كل عام بكبشين حتى لقي ربه . وهكذا عاش المسلمون فى المدينة فرحة النصر ، وفرحة الصوم ، وفرحة العيد فى ترابط وائتلاف ، وفى تميز ورفعة .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠٧ .

المبحث الخامس

أحداث ما بين "بدر" و "أحد"

انتصر المسلمون في "بدر" انتصاراً باهراً ، تحدث به أبناء الجزيرة العربية جميعاً ، وجعلهم يخططون لمستقبلهم إزاء هذه القوة الإسلامية التي ظهرت في المدينة المنورة .

ولهم هذه القوى التي تأثرت بانتصار بدر . ، وسارعت إلى اتخاذ مواقف تتناسب مع هذا الوضع الجديد هي :

١. القرشيون في مكة :

وهم الذين تحملوا مذلة الهزيمة ، وفقدوا قادتهم ، وأئمتهم في بدر ، وأجبروا على فداء أسراهم ، وقد أخذوا يستعدون للثأر بعد "بدر" مباشرة ، وحاولوا إيذاء المسلمين ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ فاحتفظوا بمال القافلة التي كانت سبباً في حرب "بدر". ليشتروا به السلاح ، ويعيدوا المعدة . ، وكونوا جماعات منهم تقوم بتحريض المشركين على ضرورة الثأر لهزيمتهم ، وتطهير الطريق التجاري إلى الشام من أعدائهم ، حتى لا تنقطع تجارتهم التي هي حياتهم فأرسلوا إلى القبائل والأعراب لجمع الأموال والرجال وإعداد العدة للثأر من هزيمتهم في "بدر" .

٢. اليهود في المدينة :

سكن اليهود المدينة ، وحولها ، وقد رأوا أن انتصار المسلمين في بدر زادتهم قوة ، ومنعه ، . وأكدت سيطرتهم على سائر شئون المدينة . ، ولزدياد نفوذهم الاقتصادي . ، وبخاصة بعدما شاهدوا المسلمين ينشطون في السعي والعمل ، ويعيشون كافة حاجات الحياة ، ويحرمون الربا ، ويمنعون الاستغلال ويحققون التعاون التام بينهم ... الأمر الذي أضعف قوة اليهود ، وأفقدتهم صور الكيد التي كانوا يعيشون بها بين المسلمين وغيرهم ، وشعروا أن الأحداث تتحرك في غير ما يأملون ، ولذلك أخذوا يعملون ضد المسلمين بخبث ودهاء .

٣. المنافقون :

المنافقون أفراد من الأوس والخزرج ، ومن غيرهم كانوا يسكنون المدينة ولم يدخلوا في الإسلام ، وبقوا على الشرك بعد الهجرة ، إلا أن هؤلاء الأفراد بعد انتصار المسلمين في "بدر". دخلوا في الإسلام. تقية ، . وهم يبطنون. المداوة ، ويتعاونون مع أعداء الإسلام سرّاً ليتحقق لهم ما يتمنون .

٤. أعراب البوادي :

وهم الأعراب الذين يسكنون حول المدينة ، وعلى الطرق التجارية بين مكة والمدينة وهؤلاء الأعراب كانوا يعيشون على السلب والنهب ، والقنص والإغارة ، وفرض الإتاوات على المارة ، فلما ظهرت قوة المسلمين في بدر رأوا دولة قوية سوف. تتحكم في كل الخارجين على النظام. وللعدل . ، ولذلك وجدوا أنفسهم في مواجهة عدائية مع المسلمين في المدينة المنورة .

وأخذت هذه القوى على اختلاف مقاصدها تعمل لإضعاف المسلمين ، وإسقاط ما تحقق لهم بنصر بدر ، بكل ما أمكنهم من مؤامرات خفية ، وتحركات ظاهرة ، وعقد تحالفات من أجل تكوين قوة واحدة في مواجهة المسلمين في المدينة .

واستمر عون الله تعالى للحق وأهله ، فأمد المسلمين بالرشاد والهدى وأضل أعداءهم ، وأخزاهم في كل ما خططوا له ، وعملوا من أجله .

وفي هذا. المبحث سأورد. (بإذن. الله تعالى). أهم الأحداث. التي وقعت بين غزوتي بدر ، وأحد ، وكيف تعامل معها رسول الله ﷺ وذلك فيما يلي :

- أولاً -

محاولة قتل النبي ﷺ

عمير بن وهب الجمحي من تجار مكة ، وأحد قادتها المعدادين ، وكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ قبل الهجرة ، اشترك وابنه "وهب" مع المشركين في بدر ، ووقع ابنه "وهب" في الأسر فشعر بالذل لأسر ابنه ، وقتل أصحابه صناديد قريش.

جلس عمير مع صاحبه صفوان بن أمية في حجر إسماعيل ، وتذاكرا بذكراً ، فقال صفوان : والله ما في العيش بعدهم خير .

فرد عليه عمير : صدقت ، أما والله لولا دين على ليس له قضاء . عندي وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة ، ابني أسير عندهم .

فقال له صفوان : على دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما عاشوا ، لا يسعنى شئ ، وأعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكنتم عنى شأنى وشأنك .

قال صفوان : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحنه له ، وسممه ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة ، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب ؓ - وهو فى نفر من المسلمين يتحدثون بما أكرمهم الله به يوم بدر - فقال عمر : هذا عدو الله عمير ما جاء إلا لشر .

ثم دخل على النبى ﷺ فقال : يا نبى الله هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه .

قال ﷺ : فأدخله على .

فلما أقبل عمير لبيه عمر بحمالة سيفه ، وقال لرجال من الأنصار : أدخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا . عندهم ، واحذروا . عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به ، فلما رآه رسول الله ﷺ - وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه .

قال لعمر : أرسله يا عمر ، أدن يا عمير ، فدنا وقال : أنعموا صباحاً .

فقال النبى ﷺ قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام ، تحية أهل الجنة .

ثم قال ﷺ : ما جاء بك يا عمير ؟

قال عمير : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فاحسنوا فيه .

قال ﷺ : فما بال السيف فى عنقك ؟

قال عمير : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟

قال ﷺ : أصدقتى ما الذى جئت له ؟

قال عمير : ما جئت إلا لذلك .

قال ﷺ : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القلب من قريش ، ثم قلت لولا دين على ، وعيال عندي ، لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل صفوان بدينك ، وعيالك على أن تقتلنى ، والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وسأقتى هذا المساق ثم تشهد شهادة الحق .

فقال رسول الله ﷺ : ففهموا أحاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره ، ففعلوا .

ثم قال عمير : يا رسول الله : إنى كنت جاهدا فى إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله ، وإنى أحب أن تأذن لى فأقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله ، وإلى الإسلام ، لعل الله أن يهديهم ! وإلا آذيتهم فى دينهم ، كما كنت أؤذى أصحابك فى دينهم .

فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة ، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول لقريش : أبشروا بوقعة تأتكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه ، فحلف ألا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه بنفع أبداً ، فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذى شديداً ، فأسلم على يديه أناس كثير ، وسبحان مقلب القلوب ، ومغير الأحوال ، وييده الأمر كله^(١) .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠٩ .

- ثانياً -

غزوة "بنى سليم" (١)

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من (بنى سليم ، وغطفان) يوجد عند ماء يقال له "قرقرة الكدر" (٢) ويقع في وسط الطريق بين مكة والشام جهة نجد ، وأن هذا الجمع يريد مهاجمة المسلمين في المدينة ، فبادر رسول الله ﷺ بالخروج إليهم قبل أن يستفحل أمرهم .

وكان خروج رسول ﷺ إلى بنى سليم في مائتين من أصحابه في أوائل شوال عقب "بدر" بسبعة أيام فقط وحمل اللواء على بن أبي طالب ﷺ (٣) .
وقد فر بنو سليم عندما علموا بخروج المسلمين إليهم ، وتركوا خلفهم خمسمائة بعير ، غنمها المسلمون . ، وقسمها رسول الله ﷺ على المشتركين وفق حكم الله تعالى .

ووجد الرسول ﷺ في الديار غلاماً اسمه "يسار" فسأله ﷺ عن الناس فقال يسار: لا علم لي بهم ، فأخذه النبي ﷺ وأعتقه حينما رآه يصلي .
وقد خلف الرسول ﷺ على المدينة سبأ بن عُرْفُطَةَ الغفاري ، وقيل عبد الله بن أم مكتوم ، وأقام الرسول ﷺ في ديار بنى سليم ثلاثة أيام ، ثم عاد إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسة عشر يوماً (٤) .

- ثالثاً -

غزوة "السويق"

امتلاً قلب أبي سفيان حقداً ، وغيظاً بسبب هزيمة قريش في بدر ، ونذر أن لا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً ، ويثأر لهزيمة المكيين ، فجمع رجالاً ،

(١) سليم بضم السين وفتح اللام مصغرة سُلِّم .
(٢) قرقرة الكدر قرقرة بفتح القاف وسكون الراء الأرض الملساء ، والكدر بضم الكاف وسكون الدال لون .
(٣) وقيل : أن غزوة بنى سليم كانت في منتصف المحرم من العام الثالث للهجرة والرأى المذكور أعلاه أولى لتسلسل الغزوات بعده .
(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢١ .

وخرج فى مائتين راكب وفاء لنذره ، وشفاء لمرض نفسه ، وسار برجاله حتى نزل عند قناة قرب جبل "نيب" قريباً من المدينة ، وعسكر فى هذا المكان حتى جاء الليل ،. ودخل المدينة مستخفياً تحت جناح المظلام . فأتى حى بن أخطب ، فاستفتح بابه ، فأبى .

ثم أتى إلى سلام بن مشكم "سيد بنى النضير". وصاحب كنزهم آنذاك . فاستأذن عليه فأذن له ، وقراه وسقاه الخمر ، وبطن له من خبر الناس . ثم خرج أبو سفيان فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث مفرزة منهم ، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها "العريض"^(١) فقطعوا أشجاراً ، وأحرقوا أسواراً من المنخل . ووجدوا رجلاً من الأنصار. وحليفاً له معه فى حرث. لهما فقتلوهما ، وفروا راجعين إلى مكة .

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فجمع أصحابه ، وسارع لمطاردة أبى سفيان ومن معه ولكن رجال أبى سفيان فروا سراعاً . وطرحوا سويقاً كثيراً من أزولدهم ، وتمويناتهم على الطريق ، يتخفون به منه ، وتمكنوا من الإفلات ، وبلغ رسول الله ﷺ إلى "قرقرة الكدر" ثم انصرف راجعاً ، وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم ، وسموا هذا الخروج بغزوة السويق نسبة إلى الغنائم التى طرحها أبو سفيان ورجاله ، وقد وقعت الغزوة فى ذى الحجة بعد بدر بشهرين ، واستعمل الرسول ﷺ خلالها على المدينة " أبا لبابة بن عبد المنذر " ^(٢) .

- رابعاً -

غزوة "غطفان"

كانت غطفان تسكن ناحية نجد ، حول ماء يعرف بـ "ذى أمر" (بفتح الهمزة والميم) ، وقد غزاها النبى ﷺ من شهر المحرم فى العام الثالث الهجرى وسبب هذه

(١) المغازى ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) المغازى ج ١ ص ١٨١ .

الغزوة أن بطنين من غطفان ، وهما بطنا ثعلبة ومحارب ، تجمعوا يريدون الإغارة على أطراف المدينة بقيادة "دعثور بن الحارث المحاربي" الذي تميز في قومه بالشجاعة ، وحب الإغارة علم النبي ﷺ ما يعد له "دعثور" بواسطة عيونه ، فندب المسلمين . وخرج معهم إلى بطني ثعلبة ومحارب. في أربعمئة وخمسين مقاتلاً ، ما بين راكب وراجل ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان ؓ .

فوجئ دعثور وجنوده بمقدم رسول الله ﷺ ففروا في رؤوس الجبال ، ووصل المسلمون إلى مكان الماء ، وعسكروا به ، وأخذوا يبحثون عن دعثور ورجاله ، فأصابوا رجلاً منهم يقال له "جبار بن ثعلبة" فجاءوا به إلى رسول الله ﷺ ، فلما دعاه إلى الإسلام أسلم فضمه الرسول ﷺ إلى بلال ... وجعله دليلاً للمسلمين في أرض غطفان .

ويقال أن السماء أمطرت فابتل ثوب رسول الله ﷺ فنزل ﷺ تحت شجرة هناك ونشر ثيابه لتجف ، واضطجع بمرأى من المشركين ، واشتغل المسلمون في شئونهم ، وأعمالهم ، فبعث المشركون " دعثور بن الحارث " ومعه سيف متقلد به ، فبادر "دعثور" وأقبل نحو رسول الله ﷺ بسلاحه ، حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف مشهوراً ، فقال : يا محمد ، من يمنعك مني اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : الله .

ودفع جبريل عليه السلام في صدر "دعثور" فوقع السيف من يده . فأخذ رسول الله ﷺ السيف ، وقال له : يا دعثور من يمنعك مني ؟ فقال دعثور : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً ، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه .

ثم أتى " دعثور " قومه فقالوا : مالك ؟ ويلك !! فقال لهم: نظرت إلى رجل طويل، فدفع في صدري، فوقعت لظهري، فعرفت أنه ملك، وشهدت بأن محمداً رسول الله، والله لا أكثر عليه جمعاً، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام وأنزل الله تعالى قوله : ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ

اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ^ع وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ^(١) .

وقد تكررت هذه الحادثة في غزوة "ذات الرقاع" وكان الذي حمل السيف فيها "غورى بن الحارث" وقد بقى على شركه ، وعاهد النبي ﷺ على عدم مقاتلته أبداً .
وقد أقام الرسول ﷺ وجيش المسلمين في غطفان قريباً من شهر ليعلم الناس قوة المسلمين ، وشجاعتهم ، وحسن أخلاقهم ، وبخاصة أنهم انسحبوا من غطفان بلا عدوان على إنسان ، أو مال ، أو بغير ذلك من صور الظلم والعدوان^(٢) .

- خامساً -

غزوة "بحران"^(٣)

وتسمى غزوة بنى سليم نسبة إلى جماعة من بنى سليم كانت تقطن ناحية الفرع (بضم الفاء والراء) وهى قرية قرب المدينة فى طريق الذهاب إلى مكة على بعد عشرين ميلاً تقريباً وسببها أن رسول الله ﷺ بلغه أن بها جمعاً يريد مهاجمة المدينة ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى شهر ربيع الأول من العام الثالث الهجرى ، فى ثلاثمائة مقاتل ... فلما وصل إلى مكانهم وجدهم قد تفرقوا فى واديهم فأقام بينهم عشرة أيام ، عاد بعدها إلى المدينة وكان قد ولى على المدينة عبد الله بن أم مكتوم^(٤) .

(١) سورة المائدة ، الآية ١١ .

(٢) المغازى ج ١ ص ١٩٥ .

(٣) بحران بباء مضمومة ، وقيل بفتحها ، وسكون الحاء .

(٤) المغازى ج ١ ص ١٩٦ .

- سادساً -

سرية زيد بن حارثة

توقفت تجارة قريش إلى الشام بعد "بدر" وتملك القرشيون الخوف على تجارتهم فلما جاء الصيف ، وحان موعد خروج القوافل اختارت قريش "صفوان بن أمية" لقيادة قافلتها إلى الشام فقال لهم : إن محمداً وصحبه عوروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه ؟ ... وهم لا يبرحون الساحل ؟ ...

وأهل الساحل قد وادعهم ، ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ؟ ... وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف ، وإلى اليمن في الشتاء . فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان : تتكب الطريق على الساحل ، وخذ طريق العراق ، وهي طريق طويلة جداً تخترق نجداً إلى الشام ، وتمر في شرقي المدينة على بعد كبير منها ، وكانت قريش تجهل هذه الطرق كل الجهل ، فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فرات بن حيان . من بني بكر بن وائل . دليلاً له ، يكون رائده في هذه الرحلة .

وخرجت غير قريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديد ، إلا أن أنباء هذه القافلة ، وخطة سيرها طارت إلى المدينة ، وذلك أن سليط بن النعمان ، وكان قد أسلم ، اجتمع في مجلس شرب ، وذلك قبل تحريم الخمر ، مع نعيم بن مسعود . الأشجعي ولم يكن أسلم إذ ذاك . فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير ، وخطة سيرها ، فأسرع سليط إلى النبي ﷺ وروى له القصة .

جهز رسول الله ﷺ لوقته حملة قوامها مائة راكب بقيادة زيد بن حارثة الكلبى فأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة ، وهي تنزل على ماء في أرض نجد يقال له قرده . بالفتح فالسكون . فاستولى عليها كلها ، ولم يكن في القافلة من يحرس القافلة فلاذ قادتها بالفرار دون أى مقاومة .

وأسر المسلمون دليل القافلة ، فرات بن حيان ورجلين غيره ، وحملوا غنيمة كبيرة من الأواني ، والفضة ، كانت تحملها القافلة ، قدرت قيمتها بمائة ألف فقسم رسول الله ﷺ هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس ، ثم جاء فرات بن حيان إلى رسول الله ﷺ وأسلم على يديه .

وقد مثلت هذه الغزوة مأساة شديدة ، ونكبة كبيرة أصابت القرشيين بعد بدر ، اشتد بها قلقهم ، وزادتهم همًا وحزنًا ، ولم يبق أمامهم إلا طريقين : إما أن تمتنع عن غطرتها وكبريائها ، وتأخذ طريق المودعة والمصالحة مع المسلمين .

أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد ، وعزها القديم ، وتقضى على قوات المسلمين ، بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك .

وقد اختار المكيون الطريق الثانية ، فأخذوا يعدون. المدة ، ويضاعفون الأعمال التي بدأتها بعد بدر وازداد إصرارهم على المطالبة بالتأثر ، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة ، وتصميم على الغزو ، فكان ذلك وما سبق من أحداث مقدمات واضحة لمعركة أحد .

وقد كان لسرية زيد أثرها الكبير على القرشيين ، فقد فقدوا كثيراً من أموالهم ، وشعروا بأن المسلمين قد أحكموا حصارهم ، ولذلك نشطوا في إعداد العدة لمهاجمة المسلمين ، وحصارهم في المدينة ، وتلقينهم درساً يعوضهم عن كل ما فقدوه في "بدر" وفيما بعدها

وكانت سرية زيد بن حارثة ﷺ في جمادى الآخرة من العام الثالث الهجري^(١).

- سابعاً -

غزوة "بنو قينقاع"

بنو قينقاع بطن من يهود المدينة ، وهم قوم عبد الله بن سلام ، عاهدتهم رسول الله ﷺ بعد تمام الهجرة مع سائر اليهود ، وحدد لهم الحقوق التي لهم ،

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ٥٠ ، ٥١

والواجبات التي يلتزمون بها ، في إطار واضح أساسه "لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين" .

لكن اليهود وبخاصة يهود بنى قينقاع هالهم توحيد الأوس والخزرج في إطار الإسلام فازدادوا حقداً ، وحاولوا الإيقاع بينهم ليعودوا لجاهليتهم ، وتتول السيادة لهم مرة أخرى ، يروى ابن إسحاق أن شاس بن قيس ، وكان شيخاً (يهودياً) عظيم المكفر ، شديد المضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاضه ما رأى من ألفتهم ، وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم بالإسلام وعلى الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم حياة إذا اجتمع ملؤهم واتحدوا ، وتماسكوا ، فأمر فتى شاباً يهودياً كان معه ، وقال له : إعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعثت ، وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار .

ففعل الغلام ، وتأثر القوم ، وعادتهم ذكريات الماضي عند ذلك ، وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتى تواتب رجالان من الحيين على الركب فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة ، وغضب الفريقان جميعاً وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة ، السلاح ، السلاح ، فخرجوا إليها (وكادت أن تنشب الحرب) .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين ، حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟

فعرف القوم أنها نزغة شيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس^(١) .

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ .

وكان بنو قينقاع من أشد الميهود عداوة الله ورسوله ، وكانوا يسكنون وسط المدينة ، ويشغلون بصناعة الذهب والحديد ، فلما انتصر المسلمون في "بدر" بدأوا يظهرهم حقدهم ، ويثيرون المشاحنات مع المسلمين ، فذهب إليهم ﷺ في سوقهم وقال لهم : يا معشر يهود ، أسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله ﷺ ، يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة فأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أني مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم ، وعهد الله إليكم قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً .

قالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرأ من قريش ، كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلاً فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ بَلْ يَرَوْنَ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْيَوْمِ أَتَيْنَهُمْ مِنْكُمْ بَيِّنَاتٌ وَمِنْهُمْ شُرَكَاءُ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْتَدَوْا وَمَا نَكْنُزُ الْوَيْلَ وَالْوَيْلَ الْبَاسُ يَوْمَ الْقِيَامِ يَكُونُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ولم ينته بنو قينقاع بعد هذا اللقاء . فأخذوا يتحرشون بالمسلمين في جراءة واستهتار ، حتى أنهم أخذوا في التعدي على نساء المسلمين .

يروى ابن هشام أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته في سوق بنى قينقاع . وجلست إلى صائغ . فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها . وهي غافلة . فلما قامت انكشفت سواتها ، فضحكوا بها فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . وكان يهودياً . فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وأنزل الله سبحانه وتعالى قوله : ﴿ وَإِذَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴾ (١) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٢ ، ١٣ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٥٨ .

فقال ﷺ : إنما أخاف من بنى قينقاع ، فسار إليهم رسول الله ﷺ لهذه الآية ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، وكان اللواء أبيض اللون .
قال ابن سعد : ولم تكن الرايات يومئذ قد حدثت ، ولذلك لم تكن هناك راية للمسلمين ، واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا لبابه بن عبد المنذر .
تحصن اليهود فى حصنهم فحاصروهم أشد الحصار ، فأقاموا على ذلك خمس عشرة ليلة ، حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، على أن لرسول الله ﷺ أموالهم . ولئن لهم النساء . وللذرية . فأمر بهم فكتفوا . واستعمل على كتافهم المنذر بن قدامة السلمى .
ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان لهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أبى سلول ، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله تعالى ورسوله من حلفهم ، وقال : يا رسول الله :
أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الرجال .
فقام إلى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبى بن سلول حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد أحسن فى موالى ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ .
فقال ابن أبى : يا محمد أحسن فى موالى ، فأعرض عنه ، فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه ، وكان يقال لها ذات الفضول .
فقال له رسول الله ﷺ : ويحك أرسلنى ، وغضب رسول الله ﷺ حتى رآوا لوجهه ظللا ثم قال : ويحك أرسلنى .
قال : والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى : أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة إني والله امرؤ أخشى الدوائر .
فقال ﷺ : خلوهم لعنهم الله ، ولعنه معهم ، وتركهم من القتل ، وأمر بهم أن يجلووا عن المدينة ، فخرجوا بعد ثلاث ، وتولى إخراجهم عبادة بن الصامت وقيل : محمد بن مسلمة ، فلحقوا "بأذرعات" ^(١) فما كان أقل بقائهم بها ^(٢) .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المغازى ج ١ ص ١٧٩ .

ووجد المسلمون فى منازلهم سلاحاً كثيراً ، وآلة للصياغة ، فأخذ رسول الله ﷺ صفية والخمس ، وقسم أربعة أخماسه على أصحابه ، فكان أول خمس وزع بعد "بدر" وكان الذى قبض أموالهم محمد بن مسلمة ، وأنزل الله تعالى فى شأن عبد الله بن أبى ، وفى شأن عبادة بن الصامت قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فترى الذين فى قلوبهم مرض ^(١) أى عبد الله بن أبى وقوله : إني أخشى الدوائر ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ ﴾ .

أما المؤمنون الصادقون فهم أولياء المؤمنين ، يفضلون ولاية الله ورسوله على أى ولاية سواها ، وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ ^(٢) وذلك لتولى عبادة بن الصامت الله تعالى ، ورسوله والذين آمنوا وتبرؤه من بنى قينقاع ، وحلفهم ، وولايتهم يقول تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

- ثامناً -

قتل النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط

رجع المسلمون بالأسرى بعد غزوة "بدر" حتى وصلوا إلى "الصفراء" ^(٣) قرب المدينة ، فأمر رسول الله ﷺ بقتل النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط من بين الأسرى ، جزاء وفاقاً لما ارتكبه من جنایات ضد رسول الله ﷺ والمسلمين

(١) سورة المائدة ، الآية ٥١ ، ٥٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٥ .

(٣) الصفراء واد قرب المدينة كثير الماء والزرع والخير .

والإسلام ، يقول ابن إسحاق : حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث فقتله على بن أبي طالب ؓ ثم خرج حتى كان بعرق الظبية فأمر ﷺ بقتل عقبة بن أبي معيط .

فقال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله : فمن للصبيّة يا محمد؟ قال ﷺ : " النار " وكان الذى قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح . ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت : قال يا معشر قريش علام أقتل من بين من ههنا ؟

فرد عليه عاصم وقال : على عداوتك الله ورسوله . وقال للرسول ﷺ : أتقتلنى يا محمد من بين قريش ؟ قال ﷺ : نعم ! أتدرون ما صنع هذا بى ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقى ، وغمزها ، فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران ، وجاء مرة أخرى بسلا شاة على رأسى وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى^(١) .

كان هذان الرجلان من شر عباد الله ، وأكثرهم كفراً ، وعناداً ، وبغياً ، وحسداً وهجاء للإسلام ، وأهله ، وأقواهم عداوة لرسول الله ﷺ لعنهما الله (وقد وقع) .

- - تاسعاً - -

قتل كعب بن الأشرف

انتصر المسلمون فى بدر ، وقدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ، وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية ، يبشران بالنصر ، ويوضحان مدى توفيق الله تعالى ، فلما سمع كعب بن الأشرف نبأ انهزام قريش ، وقتل رءوسهم قال : أحق هذا ؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يذكرهم هذان الرجلان ؟ هؤلاء أشرف العرب ،

(١) سيرة النبى ج ١ ص ٦٤٤ .

وملوك الناس ، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها^(١) .

فلما أيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة ، فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي ، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار ، ويبكى على أصحاب القليب ، ثم رجع إلى المدينة فشيب بنساء المسلمين حتى آذاهم .
ثم انبعث يهجو رسول الله والمسلمين ، ويمدح عدوهم ، ويحرض عليهم ولم يكتف بموقفه العدائي في المدينة فركب إلى قريش في مكة واستعداهم على رسول الله ﷺ .

فقال له أبو سفيان والمشركون : أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأى ديننا أهدى في رأيك ، وأقرب إلى الحق ؟

فقال كعب لأبي سفيان : أنتم أهدى منهم سبيلاً ، وأفضل .
فقال رسول الله ﷺ : ما لنا بآبن الأشراف ، فقد استعلن بعداوتنا ، وهجائنا ، وقد خرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا ، وقد أخبرني الله بذلك^(٢) ثم قرأ على المسلمين ما أنزل الله فيه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاتِ وَالطَّعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾^(٣) .

يروى البخاري في الصحيح عن جابر بن عبد الله قصة كعب بن الأشراف وفيها يقول قال رسول الله ﷺ : من لكعب بن الأشراف ، فإنه قد آذى الله ورسوله؟ فقام محمد بن مسلمة فقال : يا رسول الله أتحب أن أقتله ؟

قال ﷺ : نعم .

قال : فأذن لي أن أقول شيئاً .

قال ﷺ : قل .

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ٥١ .

(٢) سيرة النبي ج ٢ ص ١٩٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٥١ .

فأتاه محمد بن مسلمة ومعه أبو نائلة وقال له : إن هذا الرجل يعنى محمداً
قد سألنا الصدقة ، وإنه قد عنانا وإنى قد أتيتك أستسلفك .
قال كعب : وأيضاً لثملنه .

قال :. فإننا قد أتبعناه فلا نحب أن ندعه ، حتى ننظر إلى أى شئ يصير
شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين^(١) .

فقال كعب : نعم ، ارهنونى .

فقالوا : أى شئ تريد ؟

قال كعب : ارهنونى نساءكم .

قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟

قال كعب : فارهنونى أبناءكم .

قالوا : نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال له : رهن بوسق أو وسقين ؟ هذا
عار علينا ، ولكننا نرهنك اللأمة - يعنى السلاح - فواعداه أن يأتياه ، فجاءه
ليلاً ومعه أبو نائلة ، وهو أخو كعب من الرضاعة ، فدعاهم إلى الحصن فنزل
إليهم .

فقال له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟

قال كعب : إنما هو محمد بن مسلمة ، وأخى ورضيعى أبو نائلة ، إن
الكريم إذا دعى إلى طعنة بليل لأجاب .

فدخل محمد بن مسلمة برجال معه هم : أبو عبس بن جبر ، والحارث بن
أوس ، وعبادة بن بشر وقال لهم : إذا ما جاء فإنى قائم بشعره (أى آخذه) فأشمه
، فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه ، فدونكم فاضربوه ، فنزل إليهم متوشحاً وهو
ينفخ ريح الطيب فقال لهم : ما رأييت كاليوم ريحاً ، عندى أعطر من نساء العرب
، وأكمل العرب .

فقال محمد بن مسلمة : أتأذن لى أن أشم رأسك ؟

قال : نعم .

(١) الوسق ستون صاعاً ، والصاع قدح وثلاث بالكيل المصرى .

فشمه ثم أشم أصحابه .
فلما استمكن منه قال : دونكم ، فاقتلوه ، فلما قتلوه ساروا إلى النبي ﷺ
وحينما بلغوا بقيع الغرقد كبروا ، وقد قام عليه السلام تلك الليلة يصلى فلما سمع
تكبيرهم كبر ، وعرف أنهم قد قتلوه ، فلما انتهوا إليه قال : أفلحت الوجوه .
قالوا : ووجهك يا رسول الله ، ورموا برأسه بين يديه فحمد الله على قتله^(١) .
ويقال إن الذى قام على شعره أبو نائلة ؓ .

- عاشر -

أهم التشريعات

والأحداث المجتمع الإسلامى

وقعت أحداث عديدة ، عاشها المجتمع الإسلامى فى المدة ما بين "بدر" و
"أحد" ... ومن أهمها :

- (١) زيدت صلاة الحضر ركعتين ، وكانت قبل ذلك كصلاة السفر ركعتان .
- (٢) فرض الله صوم شهر رمضان .
- (٣) شرعت زكاة الفطر فى نهاية شهر رمضان .
- (٤) شرع عيد الفطر بصلاته فى آخر شهر رمضان وشرع عيد الأضحى كذلك .
- (٥) بنى النبي ﷺ بعائشة فى شهر شوال من السنة الأولى ، وكان قد عقد عليها فى مكة قبل الهجرة بثلاث سنوات .
- (٦) تزوج علي بن أبى طالب ؓ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ودخل بها فى ذى الحجة من السنة الأولى رضى الله عنها .
- (٧) تزوج عثمان بن عفان ؓ أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى جمادى الآخرة من السنة الثالثة بعد موت رقية رضى الله عنها ودفنها بالقيع أثناء غزوة بدر .

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب قتل كعب بن الأشرف ج ٦ ص ٢٧٧ . ٢٧٩ .

(٨) تزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ فى شهر شعبان من السنة الثالثة .

(٩) وفى شهر رمضان من السنة الثالثة تزوج رسول الله ﷺ زينب أم المساكين وكان ذلك قبل "أحد" بشهر واحد .

(١٠) فى منتصف رمضان من السنة الثالثة ولد الحسن بن على ﷺ .

(١١) ولد عبد الله بن المزير فى شوال من السنة الثانية ، وهو أول مولود للمهاجرين كما ولد النعمان بن بشير قبله بستة أشهر ، وهو أول مولود للأَنْصَار ، وكان لهذين المولودين فرح بين المسلمين ، لأن اليهود أشاعوا أنهم سحرُوا المسلمين ، حتى لا تكون لهم ذرية .

(١٢) وفيها شرعت عقوبة الجنايات ، وحدد رسول الله ﷺ المعاقل ، وللمديات وكتب كتابها ، وعلمه للمسلمين وبدأ تطبيق أحكام الجنايات كما شرعها الله تعالى .

تلك أهم أحداث المجتمع الإسلامى التى حدثت بين بدر وأحد^(١) .

- - حادى عشر - -

حركة الدعوة بين بدر وأحد

تحركت سائر القوى بعد انتصار بدر ، وشعر أعداء الإسلام أن الدائرة آتية عليهم لا محالة ، فنشطوا فى عدولهم عساهم يحققون. لأنفسهم شيئاً من المهابة والقوة .

وأدرك رسول الله ﷺ كل ما يحيط به ، وبالمسلمين ، فارسل عيونه إلى كل الجهات التى يوجد فيها أعداء الله ، ليحيط بكيدهم عند بدء ظهوره . وقد رأينا جدوى هذه العيون ، حيث كان رسول الله ﷺ ومعه بعض أصحابه يفاجئون الأعداء وهم فى مرحلة التجميع، والإعداد لمهاجمة المسلمين، الأمر الذى

(١) انظر إمتاع الأسماع والبداية والنهاية وسيرة النبى ﷺ فى مواضع متعددة .

جعلهم يتفرقون ، ويفرون فى الجبال والوديان .
وكان من أهداف القرشيين ضم كافة الأعراب إلى صفهم ، وتحويل كافة
اليهود ليتحركوا معهم بعد بدر ، لكنهم لم يحققوا كل ما يأملون بسبب ما قام به
الرسول ﷺ من غزوات بعد بدر .

وكان الرسول ﷺ خلال هذه المدة يهتم بنشر الدعوة ، وتعليم أصحابه ما
ينزل عليه من وحى الله تعالى ، ومن أهم ما عرفهم به ، وعاشه معهم صوم
رمضان ، والفرحة بعيد الفطر ، وصلاة السفر والحضر ، وما يتصل بكل ذلك من
أحكام ، كما شرع للمسلمين فى هذه المدة أحكام المعاقل والملاذات . حيث دعت
الحاجة لمعرفة حكم الله تعالى فيها .

وكان ﷺ يدعو من يلقاه إلى الإسلام ويهتم بتعليم من يدخل الإسلام ، ويكمله
إلى بعض إخوانه ليفقهه فى الدين .

وبرغم قصر المدة بين بدر وأحد فإنها امتلأت بالنشاط والحيوية ، والعمل
لخدمة الدعوة ، وتطبيق شرع الله فى الحياة الشخصية ، والاجتماعية .

لقد كان حرص رسول الله ﷺ واضحاً فى إبراز قوة المسلمين ، وإدخال الهيبة
والخوف فى قلوب الأعداء ، ولذلك كان ﷺ يذهب بنفسه قائداً للمسلمين ويقوم مدة
فى ديار القوم ، إعلاناً لقوة المسلمين ، وإظهاراً لشريعة الله تعالى ، وتبليغاً للدين
بطريقة عملية .

لقد تعلم المسلمون خلال هذه الغزوات أحكام قصر الصلاة أثناء السفر ،
واستفادوا ضرورة الطاعة لله ورسوله ، وعلموا أحكام الفئ كما تعلموا أحكام الغنيمة
من قبل ، وتعامل رسول الله ﷺ مع يهود بنى قينقاع بما يستحقون . فقاتلهم ،
وأجلاهم إلى "أذرعاء" ... وأمر بقتل كعب بن الأشرف لظهور عداوته ، وإصراره
على إيذاء المسلمين ، ومهاجمة الإسلام ، والعدوان على الأعراس ، والأموال .

ومع كل هذه الأحداث باشر الرسول ﷺ والمسلمون معه حياتهم ، ومعاشهم
بصورة طبيعية فدخل رسول الله ﷺ بعائشة رضى الله عنها ، وتزوج حفصة بنت

عمر رضى الله عنها كما تزوج ﷺ زينب أم المساكين خلال هذه المدة مما يدل على أن الزواج كان لغايات سامية تخدم الدعوة ، وتنشر القيم والأخلاق .
كما زوج ابنتيه فاطمة وأم كلثوم لعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ؓ وبذلك قرب إليه أربعة من مستشاريه الكبار ، وهم : أبو بكر والد عائشة ، وعمر والد حفصة ، وعثمان زوج أم كلثوم ، ورقية من قبلها ، وعلى بن أبي طالب زوج فاطمة رضى الله عنهم أجمعين .

ولقد ساهمت هذه الغزوات فى تعريف المسلمين بأعدائهم وأماكن تواجدهم ، وطريقتهم فى الكر والفر ، كما أكدت لهم أن الأعداء لم يهدأوا بعد بدر ، وإنما أخذوا فى العمل للتغلب على القوة الإسلامية بكل ما أمكنهم من حيلة وعمل ...
ولذلك لم يتمكن الأعداء من نيل غرة فى المسلمين ، يفاجئونهم خلالها بالعدوان وبخاصة أن القضاء على الإسلام والمسلمين فى المدينة أصبح هدفاً أساسياً لسائر الأعداء ، الأمر الذى جمع بينهم ، وجعلهم يأتون إلى المدينة محاربين حيث كانت غزوة أحد .

(١) "أحد" جبل مشهور يقع على بعد خمسة أميال من المدينة ، وسمى بذلك لظهوره جبلاً واحداً ، منفطعاً عن جبال آخر موجودة قريباً منه ، ويقال له : ذو عينين بكسر العين وفتحها ، مثني عين .

- أولاً -

أسباب الغزوة

عاد أهل مكة إلى موطنهم من غزوة "بدر" بعدما رأوا ذل الهزيمة ، وعار الانكسار وعز عليهم أن يحدث ذلك لهم من جماعة خرجت فارة من بينهم منذ أقل من عام ، فأخذوا يعدون العدة للتأثر ، وهزيمة المسلمين .

كما أنهم رأوا أن المسلمين أخذوا يسدون منافذ كل طرقهم إلى الشام ، المارة في الحجاز ، أو في نجد ، وهذا بوار لهم ، ولتجارتهم التي هي أهم أسباب حياتهم ... وتصوروا أن استمرار هذا الحال يمثل موتاً بطيئاً لأبناء مكة كلهم .

وقف صفوان بن أمية في قريش بعد بدر ، وقال لهم : إن محمداً وأصحابه قد عوروا. علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه . وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ، ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسكن ؟ ... وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا ... فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء .

قال له الأسود بن المطلب : تنكب طريق الساحل . . . وخذ طريق العراق . فخرج منهم تجار . فيهم أبو سفيان بن حرب . ومعه فضة كثيرة . وهي أعظم تجارتهم ، واستأجروا رجلاً من بنى بكر بن وائل ، يدلهم على ذلك الطريق الجديد الذي دلهم عليه الأسود .

وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة . فلقى بهم . فأصاب تلك المعير وما فيها وأعجزه الرجال ، فقدم بها على رسول الله ﷺ^(١) .

وبهذا فقدت قريش طريق العراق كما فقدوا من قبله طريق الساحل . وأدرك القرشيون من غزوة رسول الله ﷺ لغطفان وسليم حينما هموا بمهاجمة المدينة وفرارهم حين علموا بسيره ﷺ إليهم أن قوة المسلمين لا يستهان بها ،

(١) المغازي ج ١ ص ٢٠٢ .

وأن طرقهم التجارية إلى الشام أصبحت غير مأمونة ، وأن القبائل المتحالفة معهم أصبحت غير قادرة على حمايتهم ، وبدأت تشك في قوتهم وصمودهم .
ورأى المكيون كذلك أن الوثنيين ، وأعراب البوادي ، واليهود يشاركونهم في كراهية الإسلام ، والعداوة لرسول الله ﷺ فاتصلوا بهم ، وتصوروا أن اتحادهم في الهدف سبب رئيسي لتوحيد صفوفهم أمام المسلمين الأمر الذي يؤدي إلى قهر المسلمين ، والقضاء عليهم وعلى دعوتهم ... ولذلك نشطوا في الإعداد للحرب ، وأسرعوا في مهاجمة المسلمين ... وجمعوا ما أمكنهم من العتاد والعدة ، وتحركوا لحرب المسلمين فكانت وقعة "أحد" .

- ثانياً -

موقف أطراف

معركة "أحد" قبل القتال

علم رسول الله ﷺ بنوايا القرشيين ، فأخذ يعد للأمر عدته ، واجتهد القرشيون في تحقيق غاياتهم في محاربة المسلمين ، والقضاء عليهم ، وعلى دينهم ، وتأمين حركتهم التجارية ، وتأديب أي خارج عليهم ، ولينطلقوا بجمعهم إلى المدينة ، ف وقعت الوقعة المعروفة في "أحد" ... وكان لكل فريق موقفه ، وخطته ، ولذلك لزم معرفة موقف كل طرف قبل المعركة :

- ١ -

موقف المشركين

اتخذ القرشيون- صوراً- عملية عديدة بعد هزيمة "بدر"- مباشرة ، ولستمرت جهودهم على نشاطها حتى وقعت المعركة ، فلقد نشطوا في جمع الأموال ، وتكثير الجنود والتأثير على القبائل ، وخططوا لتحركهم بدقة عالية ، لكن الله غالب على أمره ... ومن أهم مواقفهم ما يلي :

أ . الإعداد المالي :

بدأ القرشيون يعدون للحرب عقب "بدر" مباشرة ، وبدأوا فى جمع أموال يستعدون بها ، فلما رجعوا إلى مكة من "بدر" وجدوا العير التى عاد بها أبو سفيان موقوفه عند دار الندوة ، لم توزع لأصحابها بعد ، فمشى إلى أبى سفيان مجموعة من أشرف مكة هم : الأسود بن المطلب بن أسد ، وجبير بن مطعم ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، والحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، وحويطب بن عبد العزى ، وحجير بن أبى إهاب ، فقالوا : يا أبا سفيان انظر هذه العير التى قدمت بها فاحتبسها ، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ، ولطيمة قريش ، وهم طيبو الأنفس ، يجهزون بهذه العير جيشاً كثيفاً إلى محمد وأنت ترى من قتل من آبائنا وأبنائنا وعشائرننا وأهالينا .

قال أبو سفيان : وهل طابت أنفس قريش بذلك ؟

قالوا : نعم .

قال : فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معى ، فأنا والله الموتور الثائر قد قتل ابنى حنظلة وأشرف قومي ببدر فلم تزل العير موقوفة حتى تجهزوا ، واقترب موعد الخروج إلى أحد .

قالوا : يا أبا سفيان ، بع العير ثم اعزل أرباحها ، وكانت العير ألف بعير وكان المال خمسين ألف دينار ، وكانوا يرجون فى تجارتهم للدينار ديناراً ، وكان متجرهم من الشام غرة لا يعدونها إلى غيرها ، وكان أبو سفيان قد حبس عير بنى زهرة لأنهم رجعوا من طريق بدر ولم يقاتلوا ، وسلم ما كان لمخرمة بن نوفل ، ولبنى أبيه ، وبنى عبد مناف بن زهرة ، فأبى مخرمة أن يقبل عيره حتى يسلم إلى بنى زهرة جميعاً .

وتكلم الأخنس فقال : ما لعير بنى زهرة من بين عيرات قريش ؟

قال أبو سفيان : لأنهم رجعوا عن قريش .

قال الأخنس : أنت أرسلت إلى قريش أن ارجعوا فقد أحرزنا العير ، لا تخرجوا في غير شيء ، فرجعنا ، فأخذت زهرة عيرها ، وأخذ أقوام من أهل مكة كل ما كان لهم في العير^(١) .

وهكذا. اجتمعت قريش على حرب رسول الله ﷺ ، ودفعوا أموالهم للإعداد وجلب العدد ، وأخذوا يحرضون غيرهم معهم ، فوافقهم الأحباش وهم أقوام من غير العرب ، وقبائل كندة ، وأهل تهامة ، وغيرهم .

ب . التعبئة العامة للمشركين :

نشط المكيبون في جمع أكبر عدد لقتال المسلمين ، فأخذوا يمرون على القبائل ويدورون. على سائر المبادي . مستفيدين في ذلك بشعرائهم . ومشاهيرهم ، وخطبائهم وكلفوا أربعة منهم لهذه المهمة ، وهم عمرو بن العاص وهبيرة بن أبي وهب ، وابن الزبيري ، وأبو عزة الجمحي واشترك معهم مسافح بن عبد مناف .

وكان أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي من الشعراء المشهورين ، المعروفين عند الناس ، وكان رسول الله ﷺ قد منَّ عليه يوم "بدر" وأطلق سراحه بلا فداء لأنه كان فقيراً ذا عيال وحاجة ، فلما عرضوا عليه أن يشترك معهم في التحريض على قتال المسلمين عرفهم بأنه مدين لرسول الله ﷺ حين من عليه ، وأطلق سراحه يوم "بدر" ، بلا فداء بسبب عوزه وبنيه ، ورفض أن يشترك معهم .

فقال له صفوان بن أمية : يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فاخرج معنا

فقال له أبو عزة : إن محمداً ﷺ قد منَّ على فلا أريد أن أظاهر عليه . قال صفوان : فأعنا بنفسك ، فلك الله إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل نباتك مع بناتي ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، وما زال به حتى وافق على الخروج معهم .

فخرج أبو عزة في تهامة يحرضهم ويهيجهم بشعره وخطبه .

وخرج مسافح بن عبد مناف. بن وهب إلى بني مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ .

(١) المغازي ج ١ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له :. وحشى .، يقذف بحربة له قذف الحبشة ، قلما يخطئ بها ، فقال له : اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق .

وقصد المكيون كل من أصيب ببدر فى ماله أو أهله ، ودفعوهم إلى المشاركة بالمال أو بالنفس ، أو بالتحريض لقتال المسلمين ، ورحبوا بكل قادم غريب ليكون معهم فى حربهم ضد المسلمين .

ولحق أبو عامر الفاسق بالمكيين وخرج إليهم من المدينة فى خمسة عشر رجلاً من الأوس ، وتابع قريشاً وسار معها ، وهو يعدها أن قومه يؤازرونها .

واسم أبى عامر هذا : عبد عمرو بن صيفى الراهب ، وكان رأس الأوس فى الجاهلية وكان مترهباً ، فلما جاء الإسلام لم يدخل فيه ، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة فدعا عليه ﷺ فخرج من المدينة إلى مكة ولم يرجع إليها إلا مع جيش المكيين يوم أحد .

وقد اجتمع العرب على ما دعتهم إليه قريش .، غير أنهم رفضوا. الخروج بالنسوة ، وقالوا : إننا نخشى أن تكون الدائرة علينا ، ونعيش العار والفضيحة^(١) .

ج . اصطحاب قريش للنسوة :

خرجت قريش بحدھا ، وجدھا ، وحديدها ، وأحابيشها ، ومن تابعها من بنى كنانة ، وأهل تهامة ، ثم أمر أبو سفيان باصطحاب عدد من النسوة ليباشرن عملية التحريض ، ويقمن بشحن المقاتلين ، ومنعهن من الفرار حرصاً على الكرامة وحماية للعرض ، فلما وجه أبوسفيان قومه لذلك خرج كبارهم بالظعن معهم التماس الحفيظة والحماسة ، وبذل أقصى الجهد لحماية العرض والشرف ، وقد بلغ عدد الخارجات خمس عشرة امرأة كلهن من قريش بعد أن رفض الأعراب والأحابيش خروج النساء وقد خرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس بهند بنت عتية زوجته .

وخرج عكرمة بن أبى جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة .

وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة .

(١) المغازى ج ١ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية ، وهى أم عبد الله بن صفوان بن أمية .

وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج ، وهى أم عبد الله بن عمرو وخرج طلحة بن أبى طلحة ، وأبو طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية وهى أم بنى طلحة مسافع ، والجلال ، وكلاب وقد قتلوا يومئذ مع أبيهم .

وخرجت خناس بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بنى مالك بن حسل مع ابنها أبى عزيز بن عمير ، وهى أم مصعب بن عمير .

وخرجت عمرة بنت علقمة إحدى نساء بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة . وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى أو مر بها قالت : **ويها أبا دسمة اشف واستشف ، وكان وحشى يكنى بأبى دسمة**^(١) .

وكان لهؤلاء النسوة دور بارز خلال المعركة ، فكن ينشدن الشعر ، ويحمسن الرجال ويخوفونهم من عار الهزيمة وذل الانكسار ، الأمر الذى ظهر أثره فى سير القتال يوم "أحد" .

د . التحرك نحو المدينة :

تابع جيش مكة سيره على الطرق الغربية الرئيسية المعتادة ، ولما وصل إلى "الأبواء"^(٢) .

اقترحت هند بنت عتبة . زوج أبى سفيان . أن ينبش القرشيون قبر أم رسول الله ﷺ آمنة رضى الله عنها ، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب ، وحذروا من العواقب الوخيمة التى تلحقهم لو فتحوا هذا الباب ، فلعل الدائرة تكون عليهم ، ولأنه عمل يجلب الخزي والعار لفاعله^(٣) .

ولصل جيش مكة سيرة حتى اقترب من المدينة فاستراح عند مدينة تسمى "الصمغة" وأطلق الإبل والخيول ترعى ، وبعدها تابع الجيش مسيرته ، فسلك وادى

(١) سيرة الرسول ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) الأبواء بفتح الهمزة وسكون الباء قرية صغيرة قرب المدينة .

(٣) المغازى ج ١ ص ٢٠٦ .

العقيق ، ثم انحرف. منه إلى ذات اليمين ، حتى نزل قريباً من جبل "أحد" فى مكان يقال له عينين^(١) ، فى بطن السبخة ، من قناة على شفير الوادى ، الذى يقع شمالى المدينة ، فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة^(٢) .

هـ . التعبئة النفسية :

أدى اصطحاب النسوة إلى بعث روح الحماس فى جيش قريش . فقد كن يولولن ويذكرن بقتلى "بدر" ، ويدرن على المقاتلين محرضات حتى لا يضعفون . وقد أخذ أبو سفيان يحرض رجاله كذلك على الثبات والقتال بوسائل ماهرة ، فقال لأصحاب اللواء من بنى عبد الدار : يا بنى عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهموا به وتواعدوه وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا ، ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع ! وذلك الذى أراده أبو سفيان .

وشاركت هند زوجها أبا سفيان فى هذه المهمة مع باقى النسوة . فإنه لما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قامت هند بنت عتبة فى النسوة اللاتى معها ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ، ويحرضنهم على القتال ، فقالت هند فيما تقول :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضرباً بكل بتار

وتقول :

إن تقبلوا نعانق .: ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق .: فراق غير وامق

(١) عينين (بفتح العين تثنية عين) اسم من أسماء جبل أحد ، أو اسم جزء منه .

(٢) المغازى ج ١ ص ٢٠٧ .

و . الحرب المغنوية :

قبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع المفرقة وللنزاع داخل صفوف المسلمين فأرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم : خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم ، فلا حاجة لنا إلى قتالكم ، ولكن أين هذه المحاولة أمام إيمان الأنصار الراسخ ؟ ... ولذا رد عليه الأنصار رداً عنيفاً ، وأسمعوه ما يكره .

واقتربت ساعة الصفر ، وتدانست الفتتان ، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض ، فقد خرج إليهم عميل خائن يسمى أبو عامر الفاسق ، واسمه عبد عمرو بن صيفى ، وكان يسمى الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق ، وكان رأس الأوس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ، ويحرضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معه ، فكان أول من خرج إلى المسلمين فى الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى قومه وتعرف عليهم ، وقال : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر .

فقالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق .

فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر ، وقاتلهم قتالاً شديداً ، ورماهم بالحجارة .

وهكذا فشلت قريش فى محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان مما جعلهم يزدادون خوفاً من المسلمين ، ويمتلئون هيبه من لقاءهم^(١) .

ز . عدة الجيش المكى وتنظيمه :

تجمع مشركو مكة ، والأحباش ، وأعراب البوادرى ، وبنو ثقيف لحرب رسول الله ﷺ وحصار المدينة حتى بلغ عددهم ألفين وتسعمائة مقاتل ، منهم سبعمائة دارع ، والباقيون رماة ، وكان مع الجيش مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير بالإضافة إلى ما كان معهم من نساء .

سار الجيش المكى حتى قرب من المدينة وعند "أحد" نظم القرشيون جيشهم للقتال فاصطفوا صفاً واحداً ، وأمنوا الميمنة ، والميسرة ، فجعلوا على الميمنة خالد

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ٦٧ .

بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، وحمل اللواء طلحة بن أبى طلحة من بنى عبد الدار ، وولوا قيادة الخيل لـ "صفوان بن أمية" وجعلوا قيادة الرماة لـ "عبد الله بن أبى ربيعة"^(١) .
وتولى القيادة العامة أبو سفيان بن حرب لهلاك أكابرهم فى "بدر" .

- ٢ -

موقف المسلمين

تأهبت قريش لقتال المسلمين ، وأخذت عدتها لتتأثر لهزيمتها فى "بدر" وسارت نحو المدينة فى قوات ضخمة ، وأسلحة عديدة ، دفعت المحبين لرسول الله ﷺ أن يرسلوا له بخبر القوم حتى لا يؤخذ والمسلمون معه على غرة .
وسارت الأمور على نحو يحتم ضرورة القتال والمواجهة كما يتضح من النقاط التالية :

أ . العلم بموقف العدو :

أول من أرسل إلى رسول الله ﷺ يخبره بما عزم عليه القرشيون العباس عم النبي ﷺ حيث كتب كتاباً إلى رسول الله ﷺ مع رجل من بنى غفار ، يخبره بذلك ، فقدم عليه الرجل وهو فى قباء ، فقرأه عليه أبى بن كعب ، فطلب النبي ﷺ من أبى أن يكتب الخبر .
وقال له : لا تطلع عليه أحداً .
ونزل رسول الله ﷺ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس .
فقال : والله إنى لأرجو أن يكون فى ذلك خير^(٢) .
وقدم عمرو بن سالم الخزاعى فى نفر وقد فارقوا قريشاً من ذى طوى ، فأخبر النبي ﷺ بخبر أهل مكة وانصرفوا^(٣) .

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) المغازى ج ١ ص ٢٠٦ .

(٣) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١١٤ .

وبعث رسول الله ﷺ أنساً ومؤنساً ابني فضالة ليلة الخميس عينين ، فرأوا الجيش القرشي بالعقيق ، فعادا إلى النبي ﷺ وأخبراه بما رأوا^(١) .
وبعث رسول الله ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح فنظر إليهم ، وعاد وقد حزر عددهم وما معهم ، فقال ﷺ : لا تذكروا من شأنهم حرفاً ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم بك أجول ، وبك أصول^(٢) .
وطلب رسول الله ﷺ من أصحابه الاستعداد لملاقاة الكفار ، بعدما أشار إليهم وعرفهم .

وبانت وجوه الأوس والمخزرج ليلة الجمعة لست مضين من شوال ، عليهم السلاح في المسجد ، بباب النبي ﷺ ، خوفاً من بيات المشركين ، وحرس المدينة حتى أصبحوا .

ب . رؤيا رسول الله ﷺ :

رأى رسول الله ﷺ رؤيا ، فلما أصبح يوم الجمعة ، واجتمع الناس خطب على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إني رأيت في منامي رؤيا رأيت كأنى في درع حصينة ، ورأيت كأن سيفى ذا الفقار انقصم ، من عند ظبته (أى انكسر وتلثم من عند طرفه) ورأيت بقرأ تذبج ، ورأيت كأنى مردف كبشاً .
فقال الناس يا رسول الله ، فما أولتها ؟

قال ﷺ : أما الدرع الحصينة فالمدينة ، فامكنوا فيها ، وأما انقصام سيفى من عند ظبته فمصيبة فى نفسى ، أو قتل رجل من أهل بيتى ، وأما البقر المذبج فقتلى فى أصحابى ، وأما أنى مردف كبشاً فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله ويراد به طلحة بن أبى طلحة ، وقد حدث^(٣) .

ج . المشاورة فى خطة المواجهة :

جمع رسول الله ﷺ أهل المرأى من الصحابة ليشتركوا معه فى وضع خطة للجهاد ، والمقاومة ، فقال ﷺ : أشيروا على أيها الناس .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١١٥ .

(٢) سيرة النبى ج ٢ ص ٦٣ .

(٣) فتح البارى ج ٧ ص ٣٤٦ .

فتكلم الصحابة ، واختلفوا فى رأى ، حيث رأى أغلبهم الخروج لملاقاة الكفار خارج المدينة ، ورأى القليل غير ذلك .

وكان رأى رسول الله ﷺ ألا يخرج من المدينة ، ووافق عبد الله بن أبى والأكابر من الصحابة مهاجرهم ، وأنصارهم .

وقال ﷺ : امكثوا فى المدينة ، واجعلوا النساء والذرائى فى الآطام ، فإن دخلوا علينا قاتلناهم فى الأزقة ، فنحن أعلم بها منهم ، ونرميهم من فوق الصياصى والآطام ، وكان هذا هو رأى وبخاصة أن الصحابة قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية حتى صارت كالحصن .

وقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدرأ وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو : اخرج بنا إلى عدونا .

وقال حمزة ، وسعد بن عباد والنعمان بن مالك بن ثعلبه ، فى طائفة من الأنصار : إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أننا كرهنا الخروج إليهم جينا عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر فى ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به ، فساقه الله إلينا فى ساحتنا .

وقال حمزة : والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً ، حتى أجالدهم بسيفى خارجاً من المدينة .

وتكلم مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى ، والنعمان بن مالك بن ثعلبه ، وإياس بن أوس بن عتيك ورأوا الخروج للقتال .

فلما رأى ﷺ ذلك ، وأشار الكثيرون بالخروج من المدينة ، ولم ينزل وحى محدد فى هذا الأمر صلى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس فوعظهم ، وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن النصر لهم ما صبروا ، وفرح الناس بالخروج من المدينة لقتال عدوهم ، وكره ﷺ ذلك المخرج إلا أنه وافقهم ونزل على رأيهم ما دام لم ينزل فيه وحى من الله تعالى^(١) .

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ٦٣ ، ٦٤ .

صلى رسول الله ﷺ المعصر بالناس. وقد حشدوا. ، وحضر أهل المعالى ، ورفعوا النساء فى الآطام ، ودخل ﷺ بيته ، ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فعمماه ولبساه ، واصطف الناس له ما بين حجرته إلى منبره ، فجاء سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا للناس. :. قلت لرسول الله ﷺ ما قلتم ، وليستكرهتموه على الخروج ، والأمر ينزل عليه من السماء فردوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم فيه له هوى أو رأى فأطيعوه .

فبينما هم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ قد لبس لأمته ولبس الدرع فأظهرها ، وحزم وسطها بمنطقه من حمائل سيف ، واعتم وتقلد السيف .

فقال الذين يلحون : يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك .

فقال ﷺ : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتكم ، ولا ينبغي لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم^(١) .

د . رد الغلمان :

عسكر الجيش الإسلامى بالشيخين ، وفيها طلب النبى ﷺ رؤية صغار من خرج مع الجيش للجهاد. ، فعرضوا. جميعاً عليه ﷺ وهم :. عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأسامة بن زيد بن ثابت ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن أرقم والبراء بن عازب ، وعمر بن حزم ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس ، وأبو سعيد الخدرى ، وسعد بن حبة الأنصارى ، وسمرة بن جندب ورافع بن خديج ، فردهم ، ثم أجاز رافع بن خديج لأنه رام ، فقال سمرة بن جندب لزوج أمه مرى بن سنان : أجاز رسول الله ﷺ رافع بن خديج وردنى وأنا أصرعه ، فأعلم بذلك رسول الله ﷺ فقال : تصارعا ، فصرع سمرة رافعاً فأجازه^(٢) .

هـ . تنظيم الحراسة الليلية :

لما فرغ العرض ، وغربت الشمس ، أذن بلال بالمغرب فصلى رسول الله ﷺ

(١) سيرة النبى ج ٢ ص ٦٦ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٩ .

بأصحابه ثم أذن بالعشاء فصلى بهم ، واستعمل على الحرس محمد بن مسلمة في خمسين رجلاً يطوفون بالعسكر ، وقال ﷺ حين صلى العشاء : من يحفظنا الليلة؟

فقام رجل فقال : أنا يا رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ : من أنت ؟

قال : ذكوان بن عبد قيس .

قال ﷺ : اجلس ثم قال ﷺ : من رجل يحفظنا هذه الليلة ؟

فقام رجل فقال : أنا .

فقال ﷺ : من أنت ؟

قال : أنا أبو سبيع .

قال ﷺ : اجلس ، ثم قال ﷺ : من رجل يحفظنا الليلة ؟

فقام رجل فقال : أنا .

فقال ﷺ : من أنت ؟

قال : ابن عبد قيس .

قال ﷺ : اجلس ، ومكث رسول الله ﷺ ساعة .

ثم قال : قوموا ثلاثكم .

فقام ذكوان بن عبد قيس .

فقال رسول الله ﷺ : أين صاحبك ؟

فقال ذكوان بن عبد القيس : أنا الذي كنت أجبتك الليلة .

قال ﷺ : فاذهب ، حفظك الله .

فقام ذكوان بن عبد قيس فلبس درعه ، وأخذ درقته ، فكان يطيف بالعسكر ليلته ويقال بل كان يحرس رسول الله ﷺ ولم يفارقه ، وبذلك نام المسلمون ليلتهم آمنين استعداداً للقاء عدو الله وعدوهم^(١) .

و . تنظيم الجيش الإسلامي في "أحد" :

نام ﷺ حتى إذا كان السحر قال : أين الأدلاء ؟

فلما جاءوا إليه قال لهم ﷺ : من رجل يدلنا على طريق يخرجنا على القوم من كئيب؟

(١) المغازي ج ١ ص ٢١٧ .

فقام أبو حثمة الحارثي فقال : أنا يا رسول الله .
فخرج ﷺ فركب فرسه ، فسلك به في حرة بنى حارثة ، فذب فرس أبي بردة
بن نيار بذنبه فأصاب كلاب سيفه فسل سيفه ، فقال رسول الله ﷺ : يا صاحب
السيف ، شم سيفك ، فإنني إخال السيوف ستسل فيكثر سلها^(١) .
دعا رسول الله ﷺ بثلاثة أرماح لعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيد
بن حضير ، ولواء الخزرج إلى حباب بن المنذر بن الجموح ، ويقال إلى سعد بن
عبادة ودفع لواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير^(٢) .
ثم ركب فرسه ، وتقلد القوس ، وأخذ قناة بيده ، والمسلمون عليهم السلاح
فيهم مائة دارع .
وخرج سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ^(٣) أمامه يعدوان والناس عن يمينه ،
وشماله حتى انتهى إلى رأس الثنية ، عند مكان يقال له الشيخان ، نسبة إلى شيخ
وشیخة عمیوان كانا یجلسان فی الجاهلیة فوقه یتتاجیان .
وهناك رأى ﷺ كتيبة خشناء لها جلبة وضجيج فقال ﷺ : ما هذه ؟
فقالوا : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول من اليهود .
فقال ﷺ : لا نستتصر بأهل الشرك على أهل الشرك وردهم^(٣) .
ومضى فعسكر بالشيخين قريباً من أحد ، ولبس درعه الأول ، وبعد استراحة
الجيش أخذ سيره إلى أحد .
وفى الطريق عند "الحائط" رجع عبد الله بن أبي ومن معه من أهل النفاق وهم
ثلاثمائة رجل وهو يقول : عصاني وأطاع الولدان ، ومن لا رأى له ، ما ندري
علام نقتل أنفسنا ؟ ارجعوا أيها الناس ، فرجعوا .
فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام (وكان خزرجياً كابن أبي) .
فقال ﷺ : أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ، ونبيكم بعدما حضر عدوهم .
قالوا : لو نعلم قتالا ما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أن يكون قتال .
فلما أبوا قال : أبعدكم الله ، فسيغنى الله عنكم نبيه .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٢٠ .

(٢) الطبقات ج ٢ ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) سيرة النبي ج ٢ ص ٦٤ .

ولما رأى بنو سلمة من الأوس ، وبنو حارث من الخزرج عبد الله بن أبي قد خذل ، هموا بالانصراف ، وكانوا جناحين من المعسكر ، ثم عصمهما الله ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

فعن جابر رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية فينا : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ والطائفتان هما بنو سلمه وبنو حارثة ، وقد عصمهما الله فثبتا : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ۗ ﴾ .

وقالت طائفة من الأوس لرسول الله ﷺ لما رجع ابن أبي : يا رسول الله ألا تستعين بحلفائنا من يهود بنى قريظة ، وذلك لأن بنى قريظة من حلفاء سعد بن معاذ ، وهو سيد الأوس ؟! فقال ﷺ : لا حاجة لنا فيهم .

وتحرك الجيش الإسلامي إلى أحد ، فبلغها عند صلاة الفجر يوم الخامس عشر من شوال . وهو (يوم المعركة) فأذن بلال . وأقام . وصلى ﷺ بأصحابه الصبح صفوفاً .

وهكذا أراد الله تعالى للمسلمين أن يكونوا وحدهم حماة دينهم ، ليعيشوا المسؤولية كاملة ، ولينتفعوا بما في الجهاد من خير في الدنيا والآخرة ، ولذا تطهر الصف الإسلامي من المنافقين وغيرهم ، ورفض رسول الله ﷺ أن يستعين بغير المسلمين .

ونزل رسول الله ﷺ الشعب من "أحد" ونظم جيشه في عدوة الوادي إلى الجبل وجعل ظهره وعسكره إلى "أحد" ، ولبس درعه الثانية فوق الأولى ، ومغفراً فوقها ، وبيضة فوق المغفر ، ثم قال : لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٢٢ .

وقد سخرت قريش الظهر والكراع ، فى زروع كانت بالصمغة ، من قناة المسلمين ، فقال رجل من الأنصار حين نهى رسول الله ﷺ عن القتال : أترعى زروع بنى قيلة ، ولما نضارب^(١) .

وتعباً رسول الله ﷺ للقتال ، ومعه سبعمائة رجل ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، وهو معلم يومئذ بثياب بيضاء ، وكان الرماة خمسين رجلاً فقال لهم ﷺ : انضحوا عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبتوا مكانكم لا نؤتين من قبلكم ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ،. أخى بنى عبد الدار .

وكان المسلمون سبعمائة مقاتل فيهم مائة دارع ، وفرسان أحدهما لرسول الله ﷺ والآخر لأبى برد بن نيار .

وصف رسول الله ﷺ أصحابه ، وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام وعلى الأخرى المنذر بن عمرو الغنوى .

ثم قام ﷺ فخطب الناس فقال : "يا أيها الناس : أوصيكم بما أوصانى به الله فى كتابه من العمل بطاعته ، والتناهى عن محارمه ، ثم إنكم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذى عليه ثم وطن نفسه على الصبر واليقين ، والجد ، والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد ، كربه ، قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله له رشده ، فإن الله مع من أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه ، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذى أمركم به ، فإنى حريص على رشدكم ، وإن الاختلاف ، والتنازع ، والتثبيط ، من أمر العجز ، والضعف ، وهو مما لا يحب الله ، ولا يعطى عليه النصر ، ولا الظفر .

يا أيها الناس : حدد (تأكد) فى صدرى أن من كان على حرام فرق الله بينه وبينه ورغب له عنه غفر الله له ذنبه ، ومن صلى على صلاة صلى الله عليه وملائكته عشراً ، ومن أحسن من مسلم أو كافر وقع أجره على الله فى عاجل دنياه أو آجل آخرته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١١٥ .

الجمعة إلا صبيّاً ، أو امرأة ، أو مريضاً أو عبداً مملوكاً ، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنى حميد .

ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه .

وأن الروح الأمين نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها ، لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم ، وأجملوا في طلب الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية ربكم ، فإنه لا يقدر على ما عنده إلا بطاعته .

إن الله تعالى قد بين لكم الحلال والحرام ، غير أن بينهما شبهاً من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عصم الله ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه ومن وقع فيها كان كالراعي إلى جنب الحمى أوشك أن يقع فيه ، وليس ملك إلا وله حمى ألا وإن حمى الله محارمة ، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده ، والسلام عليكم ^(١) .

وهكذا وجه رسول الله ﷺ أصحابه إلى عوامل النصر ، والغلبة ، وأساسها إعداد العدة ، والصبر ، واللجوء إلى الله ، وحسن الطاعة والانقياد ، وأداء الواجبات ، وصدق التوكل ، وإخلاص التقوى ، وتقدير محارم الله تعالى والإيمان التام بقدرة سبحانه وتعالى .

- ثالثاً -

أحداث المعركة

بدأت قريش بالهجوم حيث قام أبو عامر عبد عمرو بن ضيفى الأوسى مع مجموعة بلغ عددها خمسين مقاتلاً بالهجوم على المسلمين ، فنشبت الحرب بعدها . وكان أبو عامر قد ترك المدينة ، ورحل إلى مكة بعد "بدر" واصطحب معه

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٢١ ، ١٢٢ .

خمسة عشر رجلاً من الأوس ، وكون بهم قوات خاصة ، بعدما انضم إليهم خمسة وثلاثون رجلاً من عبيد أهل مكة .
وكان أبو عامر يزعم لأهل مكة أنه إذا نادى الأوس جميعاً ، وهم يحاربون في صف المسلمين يستجيبون له وينحازون لقريش .
فلما بدأ القتال نادى قومه وقال : يا معشر الأوس أنا أبو عامر .
فأجابه الأوس : لا مرحباً بك ، ولا أهلاً ، يا فاسق .
فقال أبو عامر : لقد أصاب قومي بعدى شر^(١) .
وتراموا بالحجارة ساعة حتى ولى .
وقد مرت المعركة بثلاث مراحل ، كانت الأولى مرحلة انتصار . كاسح للمسلمين ، وكانت الثانية خسارة للمسلمين ، وكانت الثالثة مرحلة صمود المسلمين ومقاومتهم ، وبيان هذه المراحل فيما يلي :

المرحلة الأولى للقتال

انتصار المسلمين

اشتد وطيس المعركة ، وكان أول البشائر فيها مقتل حامل لواء قريش طلحة بن أبي طلحة بعدما نادى بالمبارزة ، فخرج إليه الزبير بن العوام رضي الله عنه ووثب على جملة ، وأمسك به وأنزله على الأرض ، وذبحه بسيفه ، فكبر المسلمون ، وسر رسول الله ﷺ لمقتل طلحة الذي كان يعرف بـ "كبش الكتيبة" لشجاعته ، وقوته^(٢) .
واندلع القتال بعد مقتل طلحة في كل أرض المعركة ، وشد المسلمون على لواء المشركين لأهميته في هزيمتهم ... وقد تمكن المسلمون من حملة اللواء منهم حتى أفنؤهم جميعاً ، لأنه بعد مقتل طلحة حمل اللواء أخوه عثمان بن طلحة فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه حتى وصلت إلى سرتة ، فبانث رثته .
ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٢٥ .

أصاب حنجرته فأدلع لسانه ومات لحينه ، وقيل : بل خرج أبو سعد يدعو إلى
المبارزة ، فتقدم إليه على بن أبي طالب فاختلفا ضربتين فضربه على فقتله .
ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة فرماه عاصم بن ثابت بن أبي
الأقلح بسهم فقتله .

فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ، فانقض عليه الزبير
بن العوام وقاتله حتى قتله .

ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة ، فطعنه طلحة
بن عبيد الله طعنة قضت على حياته ، وقيل : بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي
الأقلح بسهم فقتله عليه .

ثم حمل اللواء من بني عبد الدار أرطأة بن شرحبيل ، فقتله علي بن أبي طالب
وقيل حمزة بن عبد المطلب .

ثم حمله شريح بن قارظ فقتله قزمان ، وكان منافقاً قاتل مع المسلمين حمية ،
وقتلته دفاعاً عن نفسه حتى لا يقتل هو .

ثم حمله أبو زيد بن عبد مناف العبدي فقتله قزمان أيضاً .

ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدي فقتله قزمان أيضاً .

فتقدم غلام حبشى - اسمه صُواب - فحمل اللواء . ، ولأبدي من صنوف
الشجاعة والثبات ، ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله ، فقد قاتل
حتى قطعت يده ، فبرك على اللواء ب صدره وعنقه ، لئلا يسقط حتى قتل وهو يقول
: اللهم هل أعذرت ، يعنى هل أعذرت ؟ أمام ساداته المكيين .

وبعد أن قتل هذا الغلام . صواب . سقط اللواء على الأرض ، ولم يبق أحد
يحميه فبقى ساقطاً^(١) .

وأخذ المسلمون يهتفون بشعار يوم أحد (أمت ، أمت) ، وينزلون بأعدائهم
الضرب والمقتل . ويشدون عليهم فى كل ناحية ، ويبرزون من ضروب المبدأ
والتضحية ما يعده المؤرخون أمثلة خالدة فى إطار الجهاد ، وحب الله ورسوله .

(١) المغازى ج ١ ص ٢٢٥-٢٢٨ بتصرف .

ومن هذه الأمثلة :

١. قتال أبي دجانة ؓ :

أقبل أبو دجانة ؓ معلماً بعصابته الحمراء. ، آخذاً بسيف رسول الله ﷺ ،
مقبلاً على الجهاد. وللنصر ، فقاتل حتى أمعن في المشركين ، وكان لا يلتقي
بمشارك إلا وقتله ، وأخذ يهد صفوف المشركين هداً ويفرقهم بدهاء .

يقول الزبير بن العوام ؓ : وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف
فمنعني ، وأعطاه أبا دجانة ، وقلت في نفسي : أنا ابن صفيّة عمتي ، ومن قريش
، وقد قمت إليه ، فسألته إياه قبله ، فاتاه إياه ، وتركني ، والله لأنظرن ما
يصنع ؟

فاتبعته فرأيت أنه قد أخرج من جيبه عصابة له حمراء ، فعصب بها رأسه .
فقال الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، فلبسها وخرج وهو
يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي .: ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول .: أضرب بسيف الله والرسول
فجعل لا يلقي أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا
أجهز عليه ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع
بينهما فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه أبو دجانة
بدرقته ، فعضه بسيفه ، فضربه أبو دجانة فقتله .
ثم أمعن أبو دجانة في هد الصفوف ، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش
وهو لا يدري بها .

قال أبو دجانة : رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فصمدت له ، فلما
حملت عليه السيف ولول فإذا هو امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن يضرب
به امرأة ، وكانت تلك المرأة هي هند بنت عتبة .

يقول الزبير بن العوام : رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق

رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها ، فقلت : الله ورسوله أعلم (١) .

٢. قتال حمزة بن عبد المطلب ﷺ :

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث الأبطال ، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين في شجاعة منقطعة النظير ، ففر من أمامه أبطال قريش ، وتطايروا كما تتطاير الأوراق أمام الرياح العاتية ، واستمر في اندفاعه ﷺ حتى صرعه "وحشى" ، وهو مختبئ في مكانه . أملاً في الحرية التي وعدهم بها سيده جبير بن مطعم ، ولينال رضى هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان .

يروى البخارى بسنده قصة استشهاد حمزة كما رواها "وحشى" بعدما أسلم فيقول: إن حمزة قتل طعيمة بن عدى بن الخيار ببدر ، فقال لى مولاي جبير بن مطعم : إن قتلت حمزة بعمى فأنت حر .

فلما خرج الناس عام عنين خرجت مع الناس ، إلى القتال ، فلما اصطفوا للقتال ، خرج سباع فقال : هل من مبارز ؟

فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال : يا سباع يا ابن أم أنمار ، مقطعة البظور أتحاد الله ورسوله ﷺ ؟

ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب ، وكمنت لحمزة تحت صخرة ، فلما دنا منى رميته بحربتي ، فوضعتها في ثنيته ، حتى خرجت من بين وركيه ، فكان ذاك العهد به .

فلما رجع الناس رجعت معهم ، فأقمت بمكة ، حتى فشا فيها الإسلام ، ثم خرجت إلى الطائف ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسولاً ، فقبل لى : إنه لا يهيج الرسل ، فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ .

فلما رآنى قال ﷺ : أنت وحشى ؟

قلت : نعم .

قال ﷺ : أنت قتلت حمزة ؟

قلت : قد كان من الأمر ما بلغك .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٥ ، ١٦ .

قال : فهل تستطيع أن تغيب وجهك عنى ؟
قال : فخرجت^(١) .

وبهذه الطريقة استشهد حمزة ؓ يوم "أحد" ، وجاءت هند إلى جسده فمثلت به ، وأخرجت كبده ، ولاктеه فى فمها لعلها الدفين ، وحقدتها الكامن ، ولكنها لم تتمكن من أكله ، فلفظته ، وقد حزن النبى ﷺ كثيراً لموت حمزة ؓ ، ولذلك أبعد وجهه عن رؤية وحشى رغم أن وحشياً كان قد أسلم ، وحسن إسلامه .
وقد غسلت الملائكة حمزة بعدما احتلم فى نومه ، أثناء النعاس الذى رزقه الله للمؤمنين أثناء المعركة .

ومن العجيب أن وحشياً لم يشترك فى القتال ولم يقتل غير حمزة يوم أحد لأنه لم يأت مع الجيش إلا. لهذه الغاية . ولما أسلم اشترك فى حرب الردة بعد وفاة رسول الله ﷺ وقتل مسيلمة الكذاب. وجاهد فى الله حق الجهاد. ، والله فى خلقه شئون^(٢) .

٣. تعدد البطولات :

برغم هذه الخسارة الفادحة التى لحقت بالمسلمين بقتل أسد الله ، وأسد رسوله ﷺ ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله ، فقد قاتل يومئذ أبو بكر ، وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن جحش ، وسعد بن معاذ وسعد بن عباد ، وسعد بن الربيع ، وأنس بن النضر ، وأمثالهم ؓ قتالاً فل عزائم المشركين ، وقتت أعضادهم . وفرق. جمعهم . ودفعهم إلى ترك ميدان. المعركة ففروا. إلى قمم الجبل^(٣) .

٤. بطولة حنظلة الغسيل :

وكان من أبطال الجهاد يومئذ حنظلة الغسيل . وهو حنظلة بن أبى عامر وأبو عامر هذا هو الذى سمي بالفاسق ، كان حنظلة حديث عهد بالعرس ، فلما سمع

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب قتل حمزة ج ٦ ص ٣٠٣ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب قتل حمزة ج ٦ ص ٣٠٢ ، ٣٠٤ .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢١ .

هواتف الحرب ، وهو على امرأته ، انخلع من أحضانها ، وقام من فوره إلى الجهاد ، فلما التقى بجيش المشركين فى ساحة القتال ، أخذ يشق الصفوف ، حتى خلص إلى قائد المشركين أبى سفيان ابن حرب ، وكاد يقضى عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة . فقد شد على أبى سفيان . فلما استعلام . وتمكن منه رآه شداد . بن الأسود فضربه بالسيف حتى قتله ، فغسلته الملائكة ولذلك سمي بجنظله الغسيل ، أو غسيل الملائكة^(١) .

٥. جهاد الرماة :

وكان للفصيصة التى عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء فى إدارة دفعة القتال لصالح الجيش الإسلامى ، فقد هجم فرسان من جيش مكة بقيادة خالد بن الوليد ، يساندهم أبو عامر الفاسق ، ثلاث مرات على الرماة ليحطموا جناح الجيش الإسلامى الأيسر ، ويتسربوا منه إلى ظهور المسلمين فيحدثوا البلبلة والارتباك فى صفوفهم ، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة ، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم^(٢) .

وهكذا ظهرت البطولات الإسلامية ، وانهارت مقاومة المكيبين فولوا الأدبار ، وفروا هاربين فوق الجبل ، وكادت أن تنتهى المعركة بهذا النصر الحاسم ، لولا خطأ وقع فيه الرماة ، أدى إلى تغير الوضع ، وتحول النصر إلى هزيمة وانكسار ، وهو ما حدث فى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية للقتال

هزيمة المسلمين

لما انهزم المشركون ، وولوا الأدبار ، أقبل المسلمون على الغنائم والأسلاب وهنا جاء خطأ الرماة حين تركوا الجبل ، وخالفوا أمر رسول الله ﷺ الذى ذكره لهم وهو ينظم المعركة ، وغرتهم الأسلاب والغنائم ، وقال بعضهم لبعض : **تقيمون ها هنا**

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٢ .

(٢) انظر الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى ج ٢١ ص ٥٣ ، ٥٤ .

فى غير شئ ؟ قد هزم الله العدو ، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ! فادخلوا
عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم !!

فقال بعضهم : ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم : احموا ظهورنا ، ولا
تبرحوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن غنمنا فلا تشاركونا .
فقال الآخرون : لم يرد رسول الله هذا ، وانطلقوا ، فلم يبق منهم مع أميرهم عبد الله
ابن جبير إلا دون العشرة ، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون^(١) .

انتهز خالد بن الوليد فرصة ترك الرماة لمكانهم ، وكان قريباً منه على ميمنة
خيل المشركين ، فهجم على موضع الرماة ، واحتله بفرسانه ، وتمكن وجنوده من
قتل قائد الرماة عبد الله بن جبير رضي الله عنه ، وجرح من بقى معه ، ولم يفتن المسلمون لهذه
المباغته .

وصاح خالد فى قریش ليعودوا إلى الميدان مرة أخرى ، ويلتقوا وراء المسلمين
، فعادت قوات قریش المهزومة للقيام بهجوم جديد ، بينما خالد وفرسانه يحكمون
قبضتهم على جبل الرماة . الموجود خلف المسلمين ، وبذلك أصبح المسلمون
محاطين من كافة جوانبهم ، وتخرج موقفهم وصاروا عرضة للسهم تأتيهم من كل
جانب ، فانهارت مقاومتهم ، وبخاصة أن صفوفهم لم تكن ثابتة فى مواضعها ،
لستطيع الصمود بعد تبعثر أفرادها لجمع الغنائم .

تفككت صفوف المسلمين وقام إبليس بمهمته فنادى عند جبل عينين وظهر
للناس فى صورة جعال بن سراقة وصرخ فى الناس - إن - محمداً قد قتل ثلاث
صرخات دوت فى الوادى^(٢) .

وبهذه الصورة تحول الموقف بسرعة كبيرة ، وعاد المشركون من هزيمتهم إلى
انتصار يتحقق ، وبعدما كان المسلمون يعيشون فرحة الانتصار صاروا إلى هزيمة
مؤلمة ، وتخبط حالهم ، واختلط توجههم ، وتداخل المسلمون ، وصاروا يقتتلون

(١) انظر صحيح البخارى - كتاب المغازى ج ٦ ص ٢٨٧ .

(٢) المغازى ج ١ ص ٢٣٢ وهذا ابتلاء نزل بجعال لأنه كان يقاتل فى صفوف المسلمين
فظن المسلمون أنه ارتد حين صاح إبليس فيهم .

فيما بينهم ، ويضرب بعضهم بعضاً ولا يشعرون بسبب ما هم فيه من العجلة ، والدهشة ، والمفاجأة .

وجرح أسيد بن حضير جرحين .، ضربه أحدهما أبو بردة بن نيار. وهو لا يدرى .

وضرب أبو زعنة أبا بردة ضربتين وما يشعر .

والتقت أسياف المسلمين على اليمان حسيل بن جابر وهم لا يعرفونه حين اختلطوا ، وحذيفة يقول أبى ، أبى حتى قتل ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فزادته مقالته هذه عند رسول الله ﷺ خيراً ، وأمر رسول الله ﷺ بديته أن تخرج ، فتصدق حذيفة بن اليمان بديته على المسلمين ويقال إن الذى أصابه عتبة بن مسعود .

وَأَقْبَلَ الْحَبَابُ. بن المنذر. بن الجموح يصيح : يا آل سلمة !!! فأقبلوا. إليه جماعة واحدة : لبيك داعى الله ! فيضرب يومئذ جبار بن صخر فى رأسه وما يدرى ^(١) .

ولم ينقذهم من هذا الاضطراب. إلا. ظهور. صيحتهم التى تميز المسلم من المشرك فأظهروا الشعار بينهم ، فجعلوا يصيحون : أمت أمت ! فكف بعضهم عن بعض .

وأصاب الوهن المسلمين ، وتصوروا أن دولتهم قد زالت ، وأن كيانهم تهدم ، وبخاصة بعدما سمعوا صيحة إبليس المؤذنة بقتل رسول الله ﷺ .

لقد زعزعت صيحة إبليس المعسكر الإسلامى كله ، وفى نفس الوقت قوت عزيمة المشركين لشعورهم بقرب تحقيق أمانهم ، ولم يدم ذلك الحال طويلاً ، فلقد جاء الخبر بسلامة رسول الله ﷺ ونجاته .

وكان أول من بشرهم بسلامة رسول الله ﷺ كعب بن مالك ، فجعل يصيح ورسول الله ﷺ يشير إليه بإصبعه على فيه : أن اسكت ودعا بلأمة كعب فلبسها ، ونزع لأمته فلبسها كعب ، وقاتل كعب حتى جرح سبعة عشر جرحاً لشدة قتاله .

(١) المغازى ج ١ ص ٢٣٤ .

وأخذ أبو سفيان فى البحث عن حقيقة خبر مقتل رسول الله ﷺ لتهداً نفسه ، ويتيقن من تحقق هدف المشركين الأول ، فأخذ يسأل من يقابله ، ويقول : يا معشر قريش أيكم قتل محمداً ؟ فقال ابن قميئة : أنا قتلته .

قال أبو سفيان : نسورك كما تفعل الأعاجم بأبطالها .
وأخذ أبو سفيان يطوف بأبى عامر فى أرض المعركة عساه يرى محمداً ويتأكد من قتله ؟

ولما تصفح أبو سفيان القتلى قال : ما نرى مصرع محمد ؟ كذب ابن قميئة .
ولقى أبو سفيان خالد بن الوليد فقال : هل تبين عندك قتل محمد ؟
قال خالد : رأيته قبل قليل فى نفر من أصحابه ، مصعدين فى الجبل .
قال أبو سفيان : هذا حق ، كذب ابن قميئة ، زعم أنه قتله ^(١) .
وهنا تغير الأمر ثانية وانكسرت شوكة الحماس القرشى وفترت حدتهم ، وثبتت فئة مع رسول الله ﷺ ، وأخذ المسلمون يفيئون إلى رسول الله ﷺ فتماسكت قوتهم ، وتمكنوا من الصمود حتى انتهت المعركة .

المرحلة الثالثة للقتال

الصمود الإسلامى

أدت مخالفة الرماة للأوامر التى تلقوها من رسول الله ﷺ إلى انكسار الجيش الإسلامى وتفكك صفوفه ، وفرار المسلمين إلى الجبل فى كل جوانبه .
ولما انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ لم يبق منهم معه ﷺ إلا نفر يسير ولم يبق للمسلمين لواء قائم ولا فئة ثابتة ، وأخذت خيل المشركين تجوسهم مقبلة ومدبرة ، فى جنبات الوادى ، وتجمع المشركون ، يلتقون ولا يتفرقون ، ما يرون أحداً من الناس يردهم بعدما فر المسلمون ، وصعدوا إلى الجبل ، وقد استشهد من

(١) المغازى ج ١ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

المسلمين من أكرمهم الله تعالى بالشهادة ولولا ثبات النبي ﷺ وشجاعته لكانت النكسة الماحقة ، ولوقعت الهزيمة التي لا انتصار بعدها .

روى البيهقي عن المقداد بن عمرو ﷺ قال : أوجع المشركون والله فينا قتلاً ذريعاً ، ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا ، ألا والذي بعثه بالحق ما زال رسول الله ﷺ شبراً واحداً ، وإنه لفي وجه العدو ، ويفئ إليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفترق عنه مرة ، فربما رأيته قائماً يرمى عن قوسه ويرمى بالحجر حتى تحاجزوا ، وثبت رسول الله ﷺ في عصابة ثبتت معه^(١) .

وقال محمد بن عمر : ثبت رسول الله ﷺ مكانه ، ما يزول قدماً واحداً ، بل وقف في وجه العدو ، وما يزال يرمى عن قوسه ، حتى تقطع وتره ، وبقيت في يده منه قطعة تكون شبراً في سية القوس ، فأخذ القوس عكاشة بن محصن ليوتره له . فقال عكاشة ﷺ : يا رسول الله لا يبلغ الوتر .

فقال ﷺ : مده فيبلغ .

قال عكاشة ﷺ : فوالذي بعثه بالحق لمددته حتى بلغ ، وطويت منه لبتين أو ثلاثاً على سية القوس^(٢) .

ثم أخذ رسول الله ﷺ قوسه ، فما زال يرمى به ، وأبو طلحة يستتره منترباً عنه ، حتى تحطمت القوس وصارت شظايا ، وفنيت نبلة ، فأخذ القوس قتادة بن النعمان فلم تزل عنده ، ورمى رسول الله ﷺ بالحجارة وكان أقرب الناس إلى العدو .

وثبت معه ﷺ خمسة عشر رجلاً ، ثمانية من المهاجرين هم : أبو بكر وعمر ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ، وسبعة من الأنصار هم : الحباب بن المنذر ، وأبو دجانة ، وعاصم بن ثابت ، والحارث بن الصمة ، وسهل بن حنيف ، وسعد بن معاذ ، وقيل : سعد بن عباد ، ومحمد بن مسلمة ﷺ ويقال : ثبت بين يديه يومئذ ثلاثون رجلاً

(١) المغازي ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) المغازي ج ١ ص ٢٤٢ ، بلوغ الأمان ج ٢٢ ص ٣٢٧ .

كلهم يقول: .. وجهى دون وجهك ، ونفسى دون نفسك ، وعليك السلام غير مودع^(١) !

وصان الله رسوله من كيد أعدائه فى هزم المحنة القاسية فشنت رميهم ، وأفسد سهامهم وأرسل ملائكته لحفظ رسوله ﷺ .

روى الطبرانى عن ابن عباس : أن ابن مسعود ثبت يومئذ مع رسول الله ﷺ وجعل رسول الله ﷺ لما انكشف الناس عنه إلى الجبل لا يلوون عليه ، يدعوهم فى أخراهم ويقول: إلى يا فلان ، أنا رسول الله ، فما يعرج عليه أحد ، هذا و النبل يأتيه ﷺ من كل ناحية ، والله تعالى يصرف ذلك عنه^(٢) .

وروى محمد بن عمر الأسلمى عن نافع بن جببر قال: .. سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أحداً فنظرت إلى النبل من كل ناحية ، ورسول الله ﷺ وسطها ، كل ذلك يصرفه الله عنه ، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ : دلونى على محمد ، لا نجوت إن نجا ، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه ولم يره فعاتبه صفوان بن أمية فى ذلك ، فقال له : والله ما رأيته ، أكلف بالله أنه منا ممنوع أما والله لقد خرجنا فتعاهدنا ، وتعاهدنا على قتله ، فلم نخلص إليه^(٣) .

وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا ، وتعاهدوا على قتل رسول الله ﷺ ، وعرفوا المشركين بذلك ، وهم : عبد الله بن شهاب ، وعتبة بن أبى وقاص ، وعمرو بن قميئة ، وأبى بن خلف ، وزاد بعضهم عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد عبد العزى ابن قصي .

قال ابن سعد : قال أبو النمر الكنانى وهو جد شريك بن عبد الله بن أبى نمر : شهدت أحداً مع المشركين ، ورميت يومئذ بخمس رميات ، فأصبت منها بأسمهم ، وإنى لأنظر إلى رسول الله ﷺ ، وإن أصحابه لمحققون به ، وإن النبل لتمر عن

(١) المغازى ج ١ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠ ، المغازى ج ١ ص ٢٣٨ .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠ .

يمينه ، . وعن شماله ، . وتقصر بين يديه ، وتخرج من ورائه ، . ثم هداني الله للإسلام^(١) .

وروى عبد المرازق . عن الزهري قال . : ضرب وجه رسول الله ﷺ يوم "أحد" سبعين ضربة بالسيف ، وقاه الله شرها كلها .

وبايعه يومئذ على الموت ثمانية : ثلاثة من المهاجرين وهم : علي ، والزبير وطلحة وخمسة من الأنصار : أبو دجانة ، والحارث بن الصمة ، والحباب بن المنذر ، وعاصم بن ثابت ، وسهل بن حنيف ، فلم يقتل منهم أحد^(٢) .

وروى أبو يعلى بسند حسن ، عن علي رضي الله عنه قال : لما انجلي الناس عن رسول الله ﷺ يوم "أحد" نظرت في القتلى ، فلم أر رسول الله ﷺ فقلت : والله ما كان ليفر وما أراه في القتلى ، ولكن أرى أن الله تعالى غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيه ﷺ ، فما لي خير من أن أقاتل حتى أقتل ، فكسرت جفن سيفي ، ثم حملت على القوم فأفرجوا لي ، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم أي يقاتلهم ﷺ^(٣) .

وتكاثر المشركون على رسول الله ﷺ ، وأرادوا قتله ، رمى عتبة بن أبي وقاص . لعنه الله . رسول الله ﷺ بأربعة أحجار فكسر حجر منها رباعيته اليمنى السفلى ، وجرح شفته السفلى^(٤) .

وشجه عبد الله بن شهاب الزهري في وجهه ، وسال الدم من الشجة حتى أخضل الدم لحيته الشريفة^(٥) .

ورماه عبد الله بن قميئة (بفتح القاف وكسر الميم وبعدها همزة) فشح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته وعلاه بالسيف ، وكان عليه درعان ، فوقع ﷺ في حفرة أمامه على جنبه ، وهي من الحفر التي عملها أبو عامر الفاسق ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون ، فأغمى عليه ﷺ ، فأخذه علي بن أبي طالب

(١) الطبقات ج ٢ ص ٤٢ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩ .

(٣) المغازي ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٤) صحيح البخاري - كتاب المغازي . باب ما أصاب النبي ﷺ يوم أحد ج ٦ ص ٢٠٣ .

(٥) المصدر السابق ج ٦ ص ٢٠٤ .

بيده ورفع طلحة حتى استوى قائماً فجحشت ركبته ، ولم يصنع سيف ابن قميئة شيئاً إلا وهن الضربة بنقل السيف ، ومكث ﷺ يجد وهن الضربة على عاتقه شهراً أو أكثر من شهر ، ورمته جماعة كثيرة بالحجارة حتى وقع لشقه^(١) .

لقد دبت روح الإيمان في نفوس المسلمين ودفعتهم إلى قوة المجابهة ، وطلب الشهادة في سبيل الله صادقين ، مخلصين عندما رأوا الأعداء يقصدون رسول الله ﷺ .

وقد أدى ثبات رسول الله ﷺ أمام هاتيك الضربات الموجعة ، وهذا الحصار المحكم وتلك الرميان المتتابعة ، أدى إلى عودة الروح إلى قلوب المؤمنين ، فاندفعوا لحماية دينهم الذي تحملوا مسؤوليته مع رسول الله ﷺ ، ولم يرتضوا لأنفسهم الحياة الذليلة المهينة ، وبخاصة أن استشهادهم في سبيل الله يحقق لهم الحياة عند الله فرحين مستبشرين .

ذلك أن فريقاً من الصحابة حينما سمعوا صائحاً يقول : قتل محمد طار صوابهم ، وانهارت عزيمتهم ، فمر بهم أنس بن النضر ، وقال لهم : ما تنظرون ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ .

قال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعني المسلمين ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ، ثم تقدم فلقبه سعد بن معاذ ، فقال أين يا أبا عمر ؟

فقال أنس : واهي لريح الجنة يا سعد ، إني أجده دون أحد ، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل ، فما عرف حتى عرفته أخته بعد نهاية المعركة ببنايه وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم^(٢) .

ونادى ثابت بن الدحداح أنس بن النضر ، وهو يتشطح في دمه فقال له : يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل !!؟

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٣٢ .

فقال أنس : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم ^(١).

وبمثل هذا الاستبسال. وللفداء. عادت. إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية ورجع إليهم رشدهم وصوابهم ،. وأخذوا سلاحهم ،. وانطلقوا. يهاجمون. تيارات المشركين ، الذين يحاولون الوصول إلى رسول الله بعدما بلغهم أن خبر مقتل النبي ﷺ كذب مختلق .

ولما تأكد المسلمون من حياة رسول الله ﷺ ازدادوا قوة ، وتمكنوا من الإفلات من التطويق ، وتجمعوا حول رسول الله ﷺ بعد أن باشروا القتال المرير ، وجالدوا بضراوة بالغة ، وثبتوا

ثبوت الجبال الرواسي ، ولم يتمكن المشركون من زحزحتهم ، وإبعادهم عن رسول الله ﷺ .

أبدى المسلمون بعد تجمعهم حول رسول الله ﷺ شجاعة نادرة ، وأصرروا على الصمود. حتى الموت ،. ولم يرضوا. لأنفسهم المذل. والهوان. ، ولم يقبلوا. أن. يؤتى الإسلام من قبلهم ، وجاهدوا مخلصين ، وفدوا رسول الله ﷺ بأرواحهم ... **وهؤلاء :**

١ . **سعد بن أبي وقاص :** فقد نزل له رسول الله ﷺ كنانته ، وقال : إرم فداك أبي وأمي ولم يجمع النبي ﷺ أبويه فداء لأحد في يوم أحد لغير سعد ﷺ ^(٢) .

٢ . **طلحة بن عبيد الله :** يروى ابن حيان. في صحيحه عن جابر بن عبد الله يقول : أدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال ﷺ : من للقوم ؟ فقال طلحة : أنا .

فلما قتل الأنصار. كلهم ،. تقدم طلحة فقاتلهم كقتال الأحد عشر ، حتى ضربت يده وقطعت أصابعه ، فقال : حس .

فقال النبي ﷺ لو قلت : بسم الله لرفعتك الملائكة ، والناس ينظرون .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣١ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب المغازي . باب غزوة أحد ج ٦ ص ٢٩٣ .

وقد جرح طلحة يوم. "أحد" تسعاً وثلاثين جرحاً ، أو خمساً وثلاثين ،
وشلت إصبعه السبابة والتي تليها^(١) .

وروى الترمذى أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ : "من نظر إلى شهيد يمشى على
وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله"^(٢).

وروى أبو داود الطيالسي عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم "أحد"
قال : هذا يوم طلحة .

وكان ﷺ يقول إذا رأى طلحة ﷺ : هذا سلفى فى الدنيا وسلفى فى الآخرة^(٣) .
وقال فيه أبو بكر أيضاً :

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت .: لك الجنان وبوأتم المهاد العينا
يقول أبو بكر الصديق : لما كان يوم "أحد" انصرف الناس كلهم عن النبي
ﷺ فكننت أول من فاء إلى النبي ﷺ فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه ،
قلت : كن طلحة ، فذاك أبى وأمى ، كن طلحة فذاك أبى وأمى ، فلم أنشب
أن أدركنى أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقتى ،
فدفعنا إلى النبي ﷺ ، فإذا طلحة بين يديه صريعاً ، فقال النبي ﷺ "دونكم
أخاكم فقد أوجب" .

وقد رمى النبي ﷺ فى جبهته ووجنته ، حتى غابت حلقتان من حلق المغفر
فى وجنته فذهبت لأنزعهما عن النبي ﷺ فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا
أبا بكر ألا تركتني .

فأخذ بفيه ، فجعل ينفضه كراهية أن يؤذى رسول الله ﷺ ثم استل السهم
بفيه فندرت ثنية أبى عبيدة ، قال أبو بكر : ثم ذهبت لآخذ الآخر فقال أبو
عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فأخذ بفيه ، فجعل ينفضه حتى
استله فندرت ثنية أبى عبيدة الأخرى ، ثم قال رسول الله ﷺ دونكم أخاكم ،
فقد أوجب .

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ١ ص ٢٨٦ .

(٢) سنن الترمذى - كتاب المناقب . باب مناقب طلحة ج ٥ ص ٦٤٤ .

(٣) فتح البارى ج ٧ ص ٣٦١ .

يقول أبو بكر : فأقبلنا على طلحة نعالجه ، وقد أصابته بضع وثلاثون بين ضربة وطعنة ورمية .
وهذا أيضا يدل على مدى كفاءة طلحة ذلك اليوم . وتفانيه في المكفاح والنضال^(١) .

٣ . ومن المسلمين الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ وصدوا أعداءه عنه أبو دجانة . ومصعب بن عمير ، وعلى بن أبي طالب ، وسهيل بن حنيف ، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، وقتادة بن النعمان ، وعمر بن الخطاب ، وحاطب بن أبي بلتعة ، وسهل بن حنيف ، وأبو طلحة .

٤ . كان أبو طلحة ﷺ يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ، ويرفع صدره ليقيه من سهام العدو ، يقول أنس : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بحجفه له ، وكان رجلاً رامياً شديداً النزع ، كسر يومئذ قوسين . أو ثلاثاً . وكان الرجل يمر معه بجعبة من المنبل ، فيقول " انثرها لأبي طلحة " ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة ، بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك .

يقول أنس : كان أبو طلحة يتترس مع النبي ﷺ بترس واحد ، وكان أبو طلحة حسن الرمي ، فكان إذا رمى تشرف النبي ﷺ فينظر إلى موقع نبله .

٥ . حاطب بن أبي بلتعة ﷺ تعقب حاطب ﷺ عقبة بن أبي وقاص . الذي كسر الرباعية الشريفة لرسول الله ﷺ فضربة بالسيف حتى طرح رأسه ثم أخذ فرسه وسيفه ، وكان سعد بن أبي وقاص ﷺ شديد الحرص على قتل أخيه عتبة هذا إلا أنه لم يظفر به ، بل ظفر به حاطب .

٦ . وكان سهل بن حنيف ﷺ أحد الرماة الأبطال ، بايع رسول الله ﷺ على الموت ، ثم قام بدور فعال في رد المشركين .

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٦ ص ٢٨٦ .

- ٧ . وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهتم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، بعضها فى رجله فعرج .
- ٨ . وامتنص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه ، فقال : "مجه" .
- فقال ﷺ : والله لا أمجه أبداً ، ثم أدبر يقاتل .
- فقال النبى ﷺ : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا ، فقتل شهيداً .
- ٩ . وكانت أم عمارة (نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف) قد شهدت أحداً هى وزوجها وابنها ، ومعها شن تسقى به المجرى ، فقاتلت وأبلت بلاء حسناً يومئذ ، وهى حازجة ثوبها على وسطها ، حتى جرحت اثنى عشر جرحاً ، بين طعنة برمح ، أو ضربة بسيف : وذلك أنها كانت بين يدى رسول ﷺ هى وابناها عبد الله ، وحبيب ابنا زيد بن عاصم ، وزوجها غزية بن عمرو ، يذبون عنه ﷺ .
- فلما انهزم المسلمون أخذت أم عمارة تباشر القتال ، وتذب عن رسول الله ﷺ بالسيف ، وترمى بالقوس ، ولما أقبل ابن قميئة . لعنه الله . يريد النبى ﷺ كانت فيمن اعترض له ، فضربها على عاتقها ضربة صار لها فيما بعد ذلك غور أجوف ، وضربته هى ضربات فقال رسول الله ﷺ : لمقام نسيبه بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان .
- وقال ﷺ : ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى .
- وقال ﷺ : لابنها عبد الله بن زيد : بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك (يعنى زوج أمه) خير من مقام فلان ، وفلان ، ومقامك خير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل بيت .
- قالت أم عمارة : ادع الله أن ترافقك فى الجنة .
- قال ﷺ : اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة .

قالت : ما أبالي ما أصابني من الدنيا^(١) .

١٠ . وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة ، يدافع عن النبي ﷺ هجوم ابن قميئة وأصحابه ، وكان اللواء بيده ، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ، وصمد في وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى ، ثم برك عليه ب صدره وعنقه حتى قتل ، وقتله ابن قميئة ، وهو يظنه رسول الله ﷺ . لشبهه به . فانصرف ابن قميئة إلى المشركين وصاح : . إن محمداً قد قتل^(٢) .

١١ . وخرج محمد بن مسلمة يطلب من النساء ماء ، وكن قد جئن أربع عشرة امرأة مسلمة منهن فاطمة وأم سليم بنت ملحان ، وعائشة أم المؤمنين وحمنة بنت جحش ومنهن أم أيمن رضي الله عنهن ، . وكن يسقين المعطشى ، ويداوين الجرحى ، ويناولن الطعام ، ويحملن على ظهورهن ما يحتاج إليه المقاتلون من طعام ، وشراب ، وسلاح .

خرج إليهم محمد بن مسلمة فلم يجد عندهم ماء . . وكان رسول الله ﷺ قد عطش عطشاً شديداً ، فذهب محمد إلى قناة بها ماء فشرب وأتى بماء عذب ، فشرب رسول الله ﷺ ودعا له بخير ، وجعل الدم لا ينقطع من رسول الله ﷺ .

فلما رأت فاطمة الدم لا يرفأ ، وهى تغسله وعلى يصب الماء عليها بالمجن ، أخذت قطعة حصير فأحرقتة حتى صار رماداً ، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم ، ويقال إن فاطمة رضي الله عنها داوته بصوفه محترقة ، وكان ﷺ بعد ذلك يدواى الجرح فى وجهه بعظم بال حتى يذهب أثره ، ومكث يجدوهن ضربة ابن قميئة على عاتقه شهراً أو أكثر من شهر^(٣) .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٤٨ ، والمغازى ج ١ ص ٢٦٩ ، ٢٧٣ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب غزوة أحد ج ٦ ص ٢٨٨ .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠ .

١٢ . وكان شماس بن عثمان بن الشريد المخزومي لا يرمى رسول الله ﷺ ببصره ميمناً وشمالاً إلا رآه في ذلك الوجه يذب بسيفه ، حتى غشى رسول الله ﷺ فترس. بنفسه دونه حتى قتل رحمه الله ،. فذلك قول النبي ﷺ : ما وجدت لشماس شبيهاً إلا الجنة^(١) .

١٣ . ولقى رشيد الفارسي مولى بنى معاوية رجلاً من المشركين قد ضرب سعداً مولى حاطب ، فضربه على عاتقه فقتله ، فاعترض له أخوه فقتله أيضاً فقال رسول الله ﷺ : أحسنت يا أبا عبد الله وكناه يومئذ ولا ولد له^(٢) .

١٤ . وقال مخيريق من أحبار اليهود لقومه : يا معشر يهود ! والله إنكم لتعلمون أن محمداً لنبي ، وأن نصره عليكم لحق ! ثم أخذ سلاحه ، وحضر أحداً مع النبي ﷺ فقتل ، وقال حين خرج : إن أصبت فأموالي لمحمد يضعها حيث أريد. الله ،. فهي عامة صدقات. رسول. الله ﷺ وقال. فيه ﷺ :. مخيريق خير يهود^(٣) .

في ذلك الظرف الدقيق ، والساعة الحرجة ، أنزل الله نصره على رسول ﷺ وأرسل ملائكته لحمايته والدفاع عنه ، وتخذيّل المشركين وصرفهم من أن ينالوه ﷺ بسوء ، وقد كان هدفهم الأول قتل رسول الله ﷺ ففي الصحيحين عن سعد قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم "أحد" ، ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعنى جبريل وميكائيل^(٤) .

وقد نزلت الملائكة يوم أحد ، إلا أنها لم تقايل لعدم صبر المؤمنين ، الذي جعله الله تعالى شرطاً لاشتراك الملائكة في القتال ، وقيل بل نزلوا فرادى دفاعاً عن رسول الله ﷺ .

ومن الله على المجاهدين ، الذين أحاطوا برسول الله ﷺ وتكاتفوا في الدفاع والصمود من عليهم سبحانه وتعالى بنعاس، فناموا وذهب ما بهم من حزن وتعب.

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٦ .

(٣) المغازي ج ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٤) صحيح البخاري - كتاب المغازي . باب غزوة "أحد" ج ٦ ص ٢٩٢ .

يقول طلحة بن عبيد الله : غشنا النعاس حتى كان جحف القوم تتناطح .
ويقول الزبير بن العوام : غشنا النعاس ، فما منا رجل إلا وذقنه في صدره
من النوم فأسمع متعب بن قشير يقول ، وإنى لك الحالم : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ
شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا 》^(١) . فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ
الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ
وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ 》^(٢) .

يقول أبو اليسر : لقد رأيتني يومئذ في أربعة عشر رجلاً من قومي إلى جنب
رسول الله ﷺ وقد أصابنا النعاس أمانة منه ، ما منهم رجل إلا يغط غطيماً حتى
إن الجحف لتتناطح ، ولقد رأيت سيف بشر بن البراء بن معرور يسقط من يده وما
يشعر به ، وأخذه بعدما تتلم وإن المشركين لتحتنا^(٣) .

ويقول أبو طلحة : ألقى علينا النعاس ، فكنت أنعس حتى سقط سيفي من
يدي ، ولم يصب النعاس أهل النفاق والشك يومئذ ، فكل منافق يتكلم بما في
نفسه ، وإنما أصاب النعاس أهل اليقين والإيمان^(٤) .

وقعت هزم الأحداث. كلها بسرعة هائلة .، في لحظات. خاطفة .، وأدرك
المصطفون. الأخيار. من صحابته ﷺ الذين كانوا. في مقدمة المسلمين عند بدء
القتال خطورة الموقف ، وضرورة الصمود ، والتصدي لأعداء الله ، وأعداء رسوله
، وزاد حماسهم لما سمعوا صوته ﷺ فأسرعوا إليه ، لئلا يصل إليه شيء يكرهونه ،
إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ﷺ ما لقي من الجراحات وسعد وطلحة يكافحان
أشد الكفاح ، فلما وصلوا أقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم ، وبالغوا في
وقايته من ضربات العدو ورد هجماتهم .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٤ .

(٣) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٥٩ .

(٤) المغازي ج ١ ص ٢٩٦ .

وانتهت الجولة الثالثة بتكافؤ الفريقين ، بعدما أصابهما التعب والإرهاق فلقد عاشوا اليوم كله بين الكر والفر ، وكثرت الجراحات ، وتكسرت الرماح وقل النبل ، وعقرت الخيل ، ورأت قريش ضرورة الانسحاب والرجوع إلى مكة قبل أن يتغير الأمر

سئل عمرو بن العاص عن كيفية افتراق المشركين والمسلمين يوم أحد ، وكان وقتها في معسكر المشركين ... فقال : لما كررنا عليهم أصبنا من أصبنا منهم ، وتفرقوا في كل وجه وفاءت لهم فئة بعد ، فتشاورت قريش فقالوا : لنا الغلبة ، فلو انصرفنا فإنه بلغنا أن ابن أبي انصرف بثلاث الناس وقد تخلف ناس من الأوس والخزرج ، ولا نأمن أن يكروا علينا ، وفيينا جراح^(١).

وبدأ القرشيون في الانسحاب ، والرجوع إلى مكة ، وأقبل أبو سفيان يفاخر بانتصار المشركين ، وسار حتى أشرف على المسلمين ، وهم في عرض الجبل ، فأخذ يصيح بأعلى صوته : أعل هبل ... أين ابن أبي كبشة ؟ ... أين ابن أبي قحافة ؟ ... أين ابن الخطاب ؟ ... يوم بيوم بدر ، ألا إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال وحنظلة بحنظلة .

فقال عمر ؓ : ألا أجيبه يا رسول الله ؟

فقال ؓ : بلى فأجبه .

فقال أبو سفيان : أعل هبل !

فقال عمر ؓ : الله أعلى وأجل !

قال أبو سفيان : إنها قد أنعمت فعلا ، أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي

قحافة ؟

أين ابن الخطاب ؟

فقال عمر ؓ : هذا رسول الله ، وهذا أبو بكر ، وهذا عمر .

فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، ألا إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال .

فقال عمر : لا سواء ! قتلنا في الجنة ، وقتلناكم في النار .

(١) المغازي ج ١ ص ٢٩٩ .

قال أبو سفيان : إنكم لتقولون ذلك ، لقد خبنا إذا وخسرنا ! لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال عمر : الله مولانا ، ولا مولى لكم .

قال أبو سفيان : إنها قد أنعمت يا ابن الخطاب علينا ، قم إلى يا ابن الخطاب أكلمك .

فقام عمر فقال أبو سفيان : أنشدتك بدينك هل قتلنا محمداً ؟

قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

قال أبو سفيان : أنت أصدق عندي من ابن قميئة .

ثم قال أبو سفيان ورفع صوته : إنكم واجدون في قتلاكم عنناً ومثلاً ، ألا إن ذلك لم يكن عن رأي سراتنا ، أما إذا كان ذاك فلم نكرهه ثم نادى : ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول .

فقال رسول الله ﷺ : قل نعم !

فقال عمر رضي الله عنه : نعم .

وانصرف أبو سفيان إلى أصحابه ، وأخذوا في الرحيل^(١) .

أشفق رسول الله ﷺ والمسلمون من أن يغير المشركون على المدينة فتهلك الذراري والنساء ، فبعث رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص لينظر وقال له : إن ركبوا الإبل ، وجنبوا الخيل فهو الظعن ، وإن ركبوا الخيل ، وجنبوا الإبل فهي الغارة .

ثم قال ﷺ : والذي نفسى بيده لئن ساروا إليها لأسيرن إليهم ، ثم لأناجزنهم . فذهب سعد يسعى إلى العقيق ، فإذا هم قد ركبوا الإبل ، وجنبوا الخيل بعدما تشاوروا حول نهب المدينة ، فأشار عليهم صفوان بن أمية ألا يفعلوا ، فإنهم لا يدرون ما يغشاهم ، فعاد فأخبر النبي ﷺ^(٢) .

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب غزوة أحد ج ٦ ص ٢٨٧ .

(٢) فتح البارى ج ٧ ص ٣٤٧ .

وقدم أبو سفيان مكة ، ولم يصل إلى بيته حتى أتى هبل فقال : قد أنعمت ونصرت ، وشفيت نفسي من محمد وأصحابه ، وحلق رأسه .

وكان أول من قدم مكة بخبر أحد ، وانصراف المشركين عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فكره أن يأتيهم بهزيمة أهلهم ، فقدم الطائف وأخبر أن أصحاب محمد قد ظفروا وانهزمنا ، وانسحبنا بلا غنائم ، أو أسرى ، أو دخول المدينة .

ثم قدم وحشى مكة فأخبرهم بمصاب المسلمين ، ووقف على المثنية التي تشرف على الحجون فنادى : يا معشر قريش ! أبشروا ، قد قتلنا أصحاب محمد مقتلة لم يقتل مثلها فى زحف قط ، وجرحنا محمداً فأثبتناه بالجراح ، وقتل حمزة ، فسروا بذلك .

وبعد انتهاء القتال أخذ المسلمون يتفقون قتلهم ، ليقفوا على مدى مصابهم يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه : بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لى : إن رأيته فأقرئه منى السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدك ؟ فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بأخر رمق ، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمج ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فقلت : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرنى كيف تجدك ؟

فقال سعد : وعلى رسول الله السلام ، قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص عدوكم إلى رسول الله ﷺ ، وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته ، فجاء زيد إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبره^(١) .

يقول ابن إسحاق : وخرج رسول الله ﷺ . فيما بلغنى . يلتمس حمزة بن عبد المطلب وجعل يقول : ما فعل عمى ؟ ويكرر ذلك ، فخرج الحارث بن الصمة يلتسمه فأبطأ ، فخرج على فوجد حمزة ببطن الوادى مقتولاً ، فأخبر النبى ﷺ فخرج الرسول يمشى حتى وقف عليه ، فوجده قد بقر بطنه عن كبده ، ومثل به ، فجدع أنفه ، وأذناه ، فنظر إلى شئ لم ينظر إلى شئ قط كان أوجع لقلبه منه .

(١) المغازى ج ١ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

فقال ﷺ : أحسبك عند الله ، رحمة الله عليك يا عمى ، فإنك كنت كما علمتك فعولاً للخير ، وصولاً للرحم ، ولولا حزن من بعدى عليك ، وتكون سبة من بعدى لترككتك ، حتى تحشر فى بطون السباع ، وحواصل الطير^(١) .

ثم قال ﷺ لمن حوله : أبشروا جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة مكتوب فى أهل السموات السبع ، حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وأسد رسوله ﷺ . وقال ﷺ : لئن أظهرنى الله تعالى على قريش فى موطن من المواطن لأمتلن ثلاثين رجلاً منهم^(٢) .

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ ، وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا : والله لئن ظفرنا الله تعالى بهم يوماً من الدهر لنمتلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب .

وفى توعده ﷺ وتوعد أصحابه لكفار مكة مخالفة للعقوبة الشرعية المقررة، ولذلك نزل جبريل والنبي ﷺ واقف عند "أحد" بعد مقالته بخواتيم سورة النحل وفيها يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾^(٣) .

فكفر النبى ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذى أراد وصبر ، وفعل أصحابه مثل ما فعل^(٤) .

يقول ابن إسحاق أيضاً : وأقبلت صفيه بنت عبد المطلب رضى الله عنها لتتنظر إلى حمزة، وكان أخاها لأمها وأبيها، فكره رسول الله ﷺ أن تراه ، فقال ﷺ : المرأة ... المرأة .

فقال الزبير بن العوام: فتوسمت أنها أمى صفية .

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ١٦٤ .

(٢) سيرة النبى ج ٢ ص ٩٦ ، بغية الرائد ج ٦ ص ١٧٣ وفيه سبعون بدل ثلاثين .

(٣) سورة النحل ، الآية ١٢٦ .

(٤) أسباب النزول ص ١٦٤ .

فقال ﷺ له : ألقها فأرجعها لا ترى ما بأخيها ، فخرج الزبير يسعى فأدركها ، قبل أن تنتهي إلى القتلى ، فردها فلكت صدره ، وكانت امرأة جلدة وقالت : إليك عني لا أرض لك^(١) .

فقال الزبير لها : يا أمه إن رسول الله يأمرك أن ترجعي .
قالت : ولم ؟ وقد بلغني أنه قد مثل بأخي ؟ وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك فلأصبرن ، وأحتسبن إن شاء الله .
فجاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره .
فقال ﷺ : خل سبيلها .

فأنته فنظرت إليه ، واسترجعت ، واستغفرت له^(٢) .
وروى الإمام أحمد وأبو يعلى والبزار عن الزبير والطبراني بسند رجاله ثقات ، عن ابن عباس : أن صفيه رضي الله عنها أتت بثوبين معها فقالت : هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة ، فقد بلغني مقتله فكفونوه فيهما .

يقول ابن عباس ؓ : فجئنا بالثوبين لنلغه فيهما ، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار ، فعل به مثل ما فعل بحمزة ، فوجدنا غضاضة وحياء أن نكفن حمزة في ثوبين ، والأنصارى لا كفن له .

فقلنا : لحمزة ثوب ، وللأنصارى ثوب ، فكان أحدهما أكبر من الآخر ، فأقرعنا بينهما فكفنا كلا منهما في الثوب الذي صار^(٣) .

وأراد أبو قتادة الأنصارى ؓ أن ينال من قريش ، لما رأى من غم رسول الله ﷺ في قتل حمزة وما مثل به ، ورسول الله ﷺ يشير إليه أن اجلس وكان قائماً .
ثم قال ﷺ له : يا أبا قتادة ، إن قريشاً أهل أمانة من بغاهم العواثر أكبه الله تعالى لفيه ، وعسى إن طالت بك حياة أن تحقر عملك مع أعمالهم ، وفعالك مع فعالهم ، ولولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله تعالى^(٤) .

(١) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٧٠ .

(٢) سيرة النبي ج ٢ ص ٩٧ .

(٣) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٧٠ .

(٤) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٤٥ .

فقال أبو قتادة : يا رسول الله ، ما غضبت إلا لله عز وجل ، ولرسوله ﷺ حين نالوا من حمزة ما نالوا .

فقال رسول الله ﷺ : صدقت ، بئس القوم كانوا لنبيهم .

ووجد المسلمون في الجرحى الأصيرم . عمرو بن ثابت . وبه رمق يسير ، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه ، فقالوا: إن هذا الأصيرم ما جاء به؟ لقد تركناه وأنه لمنكر لهذا الأمر ، ثم سألوه : ما الذي جاء بك ؟ أحرِباً على قومك أم رغبة في الإسلام ؟

فقال : بل رغبة في الإسلام ، آمنت بالله ورسوله وأسلمت ثم أخذت سيفي فغدوت إلى رسول الله ﷺ ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون ومات من وقته ، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال : هو من أهل الجنة^(١) .

ووجدوا في الجرحى قزمان . وكان قد قاتل قتال الأبطال ، قتل وحده سبعة ، أو ثمانية من المشركين . وجدوه قد أثخنه الجراح ، فاحتملوه إلى دار بني ظفر .

وبشره المسلمون فقال: والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت ، فلما اشتد به الجراح نحر نفسه ، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر له : إنه من أهل النار^(٢) .

- رابعاً -

نتائج المعركة

اختلفت نتيجة معركة "أحد" عن نتيجة معركة "بدر" فقد استشهد من المسلمين عدد كبير ما بين السبعين إلى خمسة وسبعين شهيداً ، ولحقت الجراح بسائر أفراد الجيش الإسلامي ، ولم يقتل من المشركين إلا أربعة وعشرون رجلاً ، ولم يؤسر منهم أحد .

يروى الإمام أحمد والشيخان والنسائي عن البراء بن عازب ؓ أنه قال : أصاب المشركون منا يوم أحد سبعين^(١) .

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد الشيباني ج ٢٢ ص ٢٠٣ .

(٢) المغازي ج ١ ص ٢٢٤ .

وروى ابن حبان والحاكم والبيهقي عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : أصيب يوم أحد من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة يقول الحافظ : وكان الخامس سعد مولى حاطب بن أبي بلتعة ، والسادس ثقف بن عمرو الأسلمي حليف بنى عبد شمس^(٢) .

ونقل الحافظ محب الدين الطبري عن الإمام مالك رحمه الله : أن شهداء "أحد" : خمسة وسبعون من الأنصار ، أو أحد وسبعون .

وعن الإمام الشافعي رحمه الله أنهم اثنان وسبعون شهيداً^(٣) .
وقد دفن الشهداء بملابسهم التي كانوا يلبسونها ، بلا غسل ما عدا حمزة وأبا حنظلة فقد غسلتهم الملائكة لما كام عليه من جنابة .

وأما الصلاة عليهم فقد روى ابن إسحاق عن من لايتهم عن مقسم عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أمر بعمه حمزة فسجى ببردة ، ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى ببقية الشهداء ، ووضعهم بجوار حمزة ، وصلى عليهم واحداً بعد واحد ، فصلى عليه وهو مع كل منهم ثنتين وسبعين صلاة^(٤) .
ولم يأخذ بهذا الحديث فقهاء الحجاز ولا الأوزاعي ، وذكروا أن النبي ﷺ لم يصل على أحد من الشهداء ، واستدلوا على رأيهم بوجوه :

الوجه الأول :

ضعف إسناد هذا الحديث ، لأن ابن إسحاق قال : حدثني من لا يتهم ، يعني : الحسين بن عمار . فيما ذكروا . ولا خلاف في ضعف الحسين بن عمار عند أهل الحديث ، وأكثرهم لا يرونه شيئاً ، وإن كان الذي عناه ابن إسحاق في قوله :

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني ج ٢١ ص ٥٣ .

(٢) فتح الباري ج ٧ ص ٣٥١ .

(٣) يرجح المفسرون أن عدد الشهداء سبعون شهيداً ويستدلون بقوله : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ

مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلَهَا ﴾ لأن المسلمين أصابوا المشركين يوم "بدر" بمائة وأربعين

مابين قتل وأسير ، والآية تشير إلى أن إصابة المشركين في "بدر" ضعف إصابة المسلمين في "أحد" .

(٤) سيرة النبي ج ٢ ص ٩٨ .

حدثني من لا أتهم غير الحسين ، فهو مجهول ، والجهل يضعف الحديث ، وكل الروايات الواردة في هذا الموضوع تعتمد على رواية ابن إسحاق وبذلك تكون كل الروايات ضعيفة .

الوجه الثاني :

حديث الصلاة على شهداء أحد لم يصحبه العمل بما دل عليه ، لأن الثابت أن رسول الله ﷺ لم يصل على شهيد آخر في شئ من مغازيه كلها ، ولم ترد رواية في هذا الشأن إلا هذه الرواية التي رواها ابن إسحاق في شهداء أحد . وكذلك لم يثبت ولم يرو أن الخليفين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما صليا على شهداء أبداً وحكمة عدم الصلاة على الشهداء والله أعلم ، تحقيق حياة الشهداء ، ومعاملتهم معاملة الأحياء تصديقاً لقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾^(١) فالتعامل معهم على اعتبار هذه الحياة التي ذكرتها الآية .

والقائلون بأن رسول الله ﷺ لم يصل على الشهداء يؤولون ما رواه الشيخان من أنه ﷺ صلى على قتلى أحد ، ويذكرون أن ذلك كان بعد ثمانى سنوات حيث صلى عليهم ﷺ كالمودع للأحياء والأموات ، فيكون المراد بالصلاة حينئذ الدعاء ، وكان النبي ﷺ يدعو للموتى عموماً بلا تكبير ، ولا نية^(٢) .

يروى البخارى بسنده عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : صلى على قتلى "أحد" بعد ثمانى سنين ، كالمودع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر ، فقال : إني بين أيديكم فرط ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإني لأنظر إليه من مقامى هذا ، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها^(٣) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ .

(٢) الروض الأنف ج ٣ ص ١٧٨ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة أحد ج ٦ ص ٢٨٦ .

يؤيد ذلك ما رواه البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله : كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ، فى ثوب واحد ثم يقول : أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإذا أشير له إلى أحد ، قدمه فى اللحد وقال ﷺ : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يصل عليهم ولم يغسلوا^(١) .

الوجه الثالث :

إن المسلمين حملوا قتلاهم إلى المدينة ، ودفنهم بالبقيع ، ولم يتمكنوا من إعادتهم إلى "أحد" ... ولو كان النبي ﷺ صلى عليهم لدفنهم عقب الصلاة .
ومما يذكر هنا أن الناس ، أو عامتهم قد حملوا قتلاهم إلى المدينة ، ودفنهم بالبقيع ، فلما أمر الرسول ﷺ بردهم إلى أحد لم يتمكنوا من ذلك ، ولم يردوا إلا رجلاً واحداً أدركه المنادى قبل أن يدفن ، وهو شماس بن عثمان المخزومي رضي الله عنه الذى حمل إلى المدينة وبه رمق فأدخل على عائشة رضى الله عنها زوج النبي ﷺ .
فقالت أم سلمة زوج النبي ﷺ : ابن عمى يدخل على غيرى !
فقال رسول الله ﷺ : إحملوه إلى أم سلمة ، فحمل إليها فمات عندها .
فأمر رسول الله ﷺ برده إلى "أحد" ، فرد إليها ، ودفن هناك كما هو فى ثيابه التى مات فيها بلا غسل ولا صلاة ، وكان قد مكث يوماً وليلة فى المدينة ولكنه لم يذق شيئاً .

وما ذهب إليه فقهاء الحجاز . أقرب للفضل لأن . ترك الصلاة عليهم إقرار باستمرار حياتهم ، وفى ترك الغسل محافظة على أثر عبادة قاموا بها لأن الشهيد يأتى يوم القيامة وجرحه يثغب دماً اللون لون الدم ، والريح ريح المسك فكيف نزيل عنه هذا الطيب ، ونحرمه من أثر العبادة المشرق .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء جمع أصحابه ، وقال لهم : تعالوا ننتى على الله ، وصفهم صفين ، وجعل النساء خلفهم ، ثم دعا ﷺ فقال : اللهم لك الحمد كله .

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب من قتل من المسلمين يوم أحد ج ٦ ص ٣٠٦ .

اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت !

اللهم ابسط علينا من بركاتك ، ورحمتك ، وفضلك ، وعافيتك ، ورزقك !
اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول !
اللهم إني أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، والغناء يوم الفاقة .
اللهم إني أعوذ بك من شر ما أعطيتنا ، ومن شر ما منعت منا !
اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ، ولا مفتونين !

اللهم حبيب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين !
اللهم عذب الكفرة الذين يكذبون رسولك ، ويصدون عن سبيلك !
اللهم أنزل عليهم رجسك وعذابك ! اللهم اقتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق ! آمين^(١) .

وبعدها أخذ رسول الله ﷺ سيره إلى المدينة فى جو من الألم والأسف .
وامتلأت بيوت الأنصار والمهاجرين بالحزن على قتلاهم ، فلما رجع الرسول ﷺ إلى المدينة سالماً وجد الجميع العزاء فى سلامته ﷺ فواساهم رسول الله ﷺ ، وبشرهم بأن ذوبهم فى الجنة وأنهم سيشفعون لهم ، فرضوا بما قدر لهم ، وصبروا على ما أصابهم ، وهو أليم شديد
لقد قتل من بنى عبد الأشهل اثنا عشر رجلاً ، وجاءت أم سعد بن معاذ فعزاها رسول الله ﷺ فى ابنها عمرو بن معاذ ، وقال لها : يا أم سعد أبشرى ، وبشرى أهليهم أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعاً ، وقد شفّعوا فى أهليهم .
قالت : رضينا برسول الله ﷺ ، ومن يبكى عليهم بعد هذا .
ثم قالت : ادع يا رسول الله لمن خلفوا .

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٧٧ . يقول الهيثمى ورجاله رجال الصحيح .

قال ﷺ : اللهم أذهب حزن قلوبهم ، وأجبر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلفوا^(١) .

ثم قال ﷺ : لأبى عمرو سعد بن معاذ : يا أبا عمرو ، إن الجراح فى أهل دارك فاشية ، وليس منهم مجروح ، إلا يأتى يوم القيامة وجرحه كأعرز ما كان ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، فمن كان مجروحاً ، فليقر فى داره ، وليداوى جرحه ، ولا يبلغ معى بيتى ، عزمة منى ، وكان فى بنى عبد الأشهل وحدهم ثلاثون جريحاً يوم "أحد" .

فنادى فيهم سعد : عزمة من رسول الله ألا يتبعه جريح من بنى عبد الأشهل .

فتخلف الجرحى ، وباتوا يوقدون النيران ، ويداؤون الجراح ، ومضى سعد مع رسول الله ﷺ حتى جاء بيته ، فما نزل ﷺ عن فرسه إلا حملاً ، واتكأ على سعد بن عباد ، وسعد بن معاذ ، حتى دخل بيته ، فلما أذن بلال ﷺ بصلاة المغرب خرج ﷺ على مثل تلك الحال ، يتوكأ على السعدين فصلى ، ثم عاد إلى بيته .

وأراد رسول الله ﷺ أن يسرى على بنى عبد الأشهل ، ونسأؤهم ليكون على قتلهم فقال لهم : "أما حمزة فلا بواكى له"^(٢) عسى أن يكون ذلك قدوة للنسوة فيدعن النواح والعيول ، إلا أن سعد بن معاذ ﷺ مضى إلى نسائه فساقهن ، حتى لم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ ، فبكين حمزة ﷺ بين المغرب والعشاء ، والناس فى المسجد يوقدون النيران ، يتكمدون بها من الجراح ، وأذن بلال ﷺ حين غاب الشفق فلم يخرج ﷺ فجلس بلال عند بابهِ ﷺ حتى ذهب ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة ، يا رسول الله فهب ﷺ من نومه وخرج ، فإذا هو أخف فى مشيته منه حين دخل .

وسمع ﷺ البكاء فقال : ما هذا ؟

فقيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة .

(١) المغازى ج ١ ص ٣١٦ .

(٢) بغية الرائد بتحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٧٥ .

فقال ﷺ : رضى الله عنكن ، وعن أولادكن ، وأمر أن ترد النسوة إلى منازلهن ، فرجعن بعد ليل مع رجالهن ، وصلى رسول الله ﷺ العشاء ثم رجع إلى بيته ، وقد صف له الرجال ما بين بيته إلى مصلاه ، يمشى وحده حتى دخل ، وباتت وجوه الأوس والخزرج على بابه فى المسجد يحرسونه ، فرقاً من قریش أن تكرر .

وبادر الصحابة ﷺ فأحضروا نساءهم ليبيكين حمزة ﷺ فجاء معاذ بن جبل ﷺ بنساء بنى سلمه : وجاء عبد الله بن رواحة ﷺ بنساء بلحارث بن الخزرج ولم يرض بذلك رسول الله ﷺ فقال ﷺ لهم : ما أردت هذا ونهاهن الغد عن النوح أشد النهى^(١) .

وكان لنجاة رسول الله ﷺ أثر كبير فى تسلية أهل الشهداء ، لأنهم رضوان الله عليهم رأوا فى نجاة رسولهم خير عوض عما فقدوه .

مر ﷺ بامرأة من بنى دينار ، وقد أصيب زوجها ، وأخوها ، وأبوها بأحد ، فلما نعوا لها أقاربها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟

قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين .

قالت : أرونيهِ حتى أنظر إليه ، فأشير إليها ، حتى إذا رآته قالت : كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله^(٢) .

ومن ابتلاءات يوم "أحد" ، وتغلب روح الإيمان على المصائب ما حدث من حمنة بنت جحش زوجة مصعب بن عمير ﷺ فإنها أصيبت بعدد من أهلها ، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقال لها : يا حمنة احتسبى .

قالت : من يا رسول الله ؟

قال : خالك حمزة .

قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ورحمه هنيئاً له الشهادة .

ثم قال لها : احتسبى .

قالت : من يا رسول الله ؟

قال : أخوك .

(١) بغية الرائد بتحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٧٥ .

(٢) نفس المرجع ج ٦ ص ١٦٥ .

قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ورحمه هنيئاً له الشهادة .
ثم قال : لها احتسبي .
قالت : من يا رسول الله ؟
قال : مصعب بن عمير .
قالت : واحزنانه !! ... وفي رواية أنها قالت : واعقره !!
فقال ﷺ : إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد .
ثم قال لها : لم قلت هذا ؟
قالت : يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراعنى^(١) .
فدعا رسول الله ﷺ لولده أن يحسن الله عليهم الخلف ، فتزوجت طلحة فولدت
له محمد بن طلحة ، وكان أوصل الناس لأولادها^(٢) .
وقد قتل من المشركين في "أحد" أربعة وعشرون قتيلاً ، وأسر منهم رجل واحد
هو أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب من بنى جمح وكان أسره في
اليوم الثاني للمعركة والمسلمون في طريقهم إلى حمراء الأسد .
لقد عاد المكيون من "أحد" منتصرين ، وقد تصوروه نصراً دائماً يحقق لهم
ما يبيغون لكن الأيام أثبتت أنهم لم يحققوا شيئاً من الأهداف التي حاربوا لتحقيقها
... لأن روج الإيمان في قلوب المسلمين لم تهن ، ولم تضعف ... ولذلك بادر
المسلمون باتخاذ عدد من الأعمال بعد أحد أجهضت كل أحلام أعداء الإسلام من
اليهود ، والمنافقين والأعراب وأهل مكة كما سيتضح من أحداث ما بعد "أحد" .

- خامساً -

الآيات الربانية الخارقة في "أحد"

استمر عون الله تعالى لرسوله ﷺ والمسلمين معه خلال معركة "أحد" وظهرت
آيات بينات ، خارقة للعادة ، تبرز هذه المعونة ، وتؤكد لها للناس وقد سبق إيرادها
في سياق ذكر أحداث غزوة أحد ... ومن أهمها :

(١) المغازي ج ١ ص ٢٩١ .

(٢) المغازي ج ١ ص ٢٩٢ .

١. إمداد المسلمين بالملائكة :

يروى البخارى وأحمد بسندهما عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال : رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم "أحد" رجلين عليهما ثياب بيض ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعنى جبريل وميكائيل يقاتلان عنه كأشد القتال^(١) .
وروى الطبرانى وابن منده أنه ﷺ سأل الحارث بن الصمة عن مكان عبد الرحمن بن عوف فقال: هو بجنب الجبل .
فقال ﷺ : إن الملائكة تقاتل معه .
قال الحارث : فذهبت إليه فوجدت بين يديه سبعة فقلت له: ظفرت يمينك أكل هؤلاء قتلت ؟

فقال : أما هذا وهذا فأنا قتلتهم ، وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره .
فقلت : صدق الله ورسوله ﷺ^(٢) .

وروى ابن سعد أن مصعباً لما قتل أخذ اللواء ملك فى صورته ، فجعل ﷺ يقول : تقدم يا مصعب ، فالتفت الملك إليه وقال : لست بمصعب فعرف ﷺ أنه ملك أيده الله به^(٣) .

وهناك من ذهب إلى أن الملائكة لم تقاتل يوم "أحد" عن المسلمين .
ولا تعارض بين هؤلاء الذين قالوا بأن الملائكة لم تقاتل ، وهؤلاء الذين قالوا : إن الملائكة قاتلت لأن من قال بالمدد بالملائكة يريد نزول أفراد قلائل منهم للدفاع عن رسول الله ﷺ أو عن أحد من الصحابة ومن ينفى المدد يقصد نزول الآلاف للقتال كما حدث فى "بدر" وهذا لم يحدث لأن المسلمين لم يصبروا ، ولم يتقوا الله على النحو الذى وجب عليهم .

٢. مد عكاشة بقية وتر قوسه ﷺ بعدما قصر :

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة أحد ج ٦ ص ٢٩٢ ، الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى ج ٢١ ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٦٤ .

(٣) المغازى ج ١ ص ٢٤٥ .

وذلك أنه ما زال ﷺ يرمى عن قوسه حتى تقطع وتره ، وبقيت في يده منه قطعة صغيرة تكون شبراً في سية القوس فأخذ القوس عكاشة بن محصن رضي الله عنه ليوتره له .

فقال : يا رسول الله لا يبلغ الوتر .

فقال ﷺ : مده فيبلغ .

قال عكاشة : فوالذي بعثه بالحق ، لمددته حتى بلغ ، وطويت منه لفتين ، أو ثلاثاً على سية القوس^(١) .

٣. رد عين قتادة رضي الله عنه :

عن قتادة رضي الله عنه قال : كنت أتقى السهام بوجهي دون وجه النبي ﷺ فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي ، وسالت على خدي ، فأخذتها بيدي ، وسعيت بها إلى رسول ﷺ فلما رآها ﷺ في كفي دمعت عيناه ، فقال ﷺ اللهم ق عين قتادة كما وقيت وجه نبيك فاجعلها أحسن عينيه وأحدهما نظراً ، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى ، وصارت لا تعرف ولا يدرى أيتهما التي سألت على خده^(٢) .

٤. شفاء نحر أبي رهم ببصاقة النبي ﷺ :

رمى أبو رهم الغفاري بسهم فوقع في نحره ، فبصق ﷺ عليه فبرئ^(٣) .

٥. انقلاب العرجون سيفاً في يد عبد الله بن جحش رضي الله عنه :

انقطع سيف عبد الله بن جحش ، فأعطاه ﷺ عرجوناً فعاد في يده سيفاً فقاتل به ، وكان ذلك السيف يسمى العرجون ، ولم يزل يتوارث حتى بيع لبغاء التركي من أمراء المعتصم بالله في بغداد بمائتي دينار ، وهذا السيف غير سيف عكاشة يوم "بدر" فسيف عكاشة أصله جذر من حطب ، والجذر أصل الشجرة ، وسيف عبد الله بن جحش أصله عرجون نخلة^(٤) .

(١) المغازي ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) المغازي ج ١ ص ٢٤٢ .

(٣) المغازي ج ١ ص ٢٤٣ .

(٤) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٥٥ .

٦. غسل الملائكة لحنظلة ﷺ :

النقى حنظلة وأبو سفيان فعلاه حنظلة ، فجاء شداد بن أوس وضرب حنظله فقتله .

فقال ﷺ : إن حنظلة لتغسله الملائكة بماء المزن ، في صحاف الفضة ، بين السماء والأرض فسألوا امرأته جميلة أخت عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان ابنتى بها تلك الليلة . وكانت عروساً عندهم ، فرأت في المنام تلك الليلة كأن باباً من السماء قد فتح له فدخله ثم أغلق دونه فعلمت أنه ميت من غده ، فدعت رجالاً حين أصبحت من قومها ، فأشهدتهم على الدخول بها خشية أن يكون في ذلك نزاع ، فلما سألوها عن حالته وقت خروجه .

قالت : خرج وهو جنب ، حين سمع الهاتقة .

فقال ﷺ : لذلك غسلته الملائكة^(١) .

٧. إلقاء النعاس على المؤمنين :

وألقي الله النعاس على المؤمنين حين اشتد عليهم الخوف مع أن الخائف لا ينام عادة فعن الزبير بن العوام ؓ قال : لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ يوم "أحد" حين اشتد علينا الخوف وأرسل علينا النوم فما منا أحد إلا ذقنه في صدره^(٢) .

وروى البخارى عن أبى طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم "أحد" حتى سقط سيفى من يدي مراراً يسقط ، وأخذه ، ويسقط ، وأخذه .

والآيات كثيرة وقد ذكرت بعضها للدلالة على العون الإلهي الذي أمد الله به رسول الله ﷺ والمؤمنين معه وفي أثناء الحديث من الغزوة أشرت إلى كثير منها

- سادساً -

"أحد" وحركة الدعوة

حين ننظر إلى معركة "أحد". نرى تقلب أحداثها ، وتبدل أحوالها في كل أطرافها فلقد عاش كل فريق الغلبة والانكسار ، مرة بعد أخرى ، إلا أن محصلة

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢١ .

(٢) المغازى ج ١ ص ٢٩٦ .

المخسائر فى المسلمين كانت أكبر منها فى معسكر المشركين ،. وهذا. ما جعل بعض المؤرخين يرى أن المسلمين قد انهزموا فى أحد ، باعتبار عدد القتلى ، وكثرة الجرحى ، ورجوع المشركين بقتلاهم دون أن يؤسر منهم أحد رغم أن القتال كان بجوار المدينة بعيداً عن موطنهم مكة

والأمر بمقياس ذاك الزمان يشير إلى هزيمة المسلمين ، لأن المعارك كانت عبارة عن تشابك بالأيدي ، وتلاحم بالسيوف ، ومواجهة مباشرة بالدروع والنبال ... وكانت الحرب تستمر يوماً أو بعض يوم ، كما حدث فى "بدر" وفى "أحد" وفى غيرهما من السرايا والغزوات. وبعدها يقف المقتال. ، ويعود. كل فريق لموطنه ، والنصر حينئذ يكون لمن ألحق بخصمه خسائر أكبر .

وبهذا المقياس يظهر انتصار القرشيين كما فهمه معاصرو "أحد" ولذلك أتى أبو سفيان حين قدم مكة هبل وقال له : **قد أنعمت على ونصرتنى ، وشفيت نفسى من محمد ، وأصحابه ، وحلق رأسه ... وما فعل أبو سفيان ذلك إلا لشعوره بانتصار المكيين على المسلمين .**

وبسبب هذا الفهم أخذ الأعداء يجاهرون بعداوتهم لرسول الله ﷺ وللإسلام . لكن بعض العلماء ينظر لأحداث "أحد" من ناحية أخرى ، ويرى أنها كانت صقلاً للمسلمين ، وتقوية لإيمانهم ، وتجلية لما يجب أن يلتزموا به فى إطار حركة الدعوة ، وهم يعملون للإسلام ، ويسلم هؤلاء العلماء بانتصار القرشيين ظاهراً ، ويرونه انتصاراً مؤقتاً لا يلبث أن يزول ، وأن خسائر المسلمين جزء من الإعداد والتدريب ، ويقولون : إن انكسار المسلمين يوم "أحد" كان عاملاً قوياً لهم أدت بهم إلى انتصارات لاحقة ، بعدما استفادوا من دروس "أحد" ... وتمكنوا بالانتصارات اللاحقة من نشر الإسلام ، وإيصال الدعوة إلى العالم كله ، وعملوا على إبراز ما فى دينهم من قوة ذاتية معنوية ، بجوار استعدادهم لبذل أموالهم وأرواحهم لخدمة دين الله تعالى ، وهؤلاء المتفائلون يبنون نظرتهم تلك على معطيات واقعية أهمها ما يلى :

١ . بروز بطولة النبي ﷺ وشجاعته ، وثباته في وجه أعدائه ، وإصراره على مقاتلتهم وحده مع أن الصحابة فروا عنه وتركوه ، وتلك مسألة لا بد من وضوحها لبيان ما قام به رسول الله ﷺ وتحمله في سبيل دين الله تعالى .

وتظهر شجاعة النبي ﷺ من ثباته وحيداً أمام جيش قريش ، وحرصه على قتل ابن الأشرف ، بعدما أصيب وبقي وحده ، وكان ﷺ في حالة يفر فيها الأبطال المغاوير ، وكان أبي بن خلف يتصور نفسه قادراً على قتل رسول الله ﷺ بعدما جاءه فوجده جريحاً ووحيداً .

فلقد أقبل أبي بن خلف يركض بفرسه حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ اعترض له ناس من المسلمين ليقتلوه ، فقال ﷺ : استأخروا عنه .

وقام ﷺ وحرثته في يده فرماه بها بين سابية البيضة والدرع فطعنه ﷺ في هذا الموضع فوق عن قوسه ، وكسر ضلعاً من أضلاعه ، فاحتلموه فمات لما ولوا قافلين بالطريق ... وتحقق بذلك ما أنبأ به ﷺ قبل "أحد" .

وقصة ذلك النبأ أن أبي بن خلف قدم المدينة في فداء ابنه حين أسر يوم "بدر" ، فقال : يا محمد إن عندي فرساً أعلفها كمية كبيرة من ذرة كل يوم حتى أقتلك عليها .

فقال له رسول الله ﷺ : بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله .

وكان ﷺ في القتال لا يلتفت وراءه وكان يقول لأصحابه : كأني أخشى أن يأتي أبي بن خلف من خلفي ، فإذا رأيتموه فاذنوني ، فإذا بأبي يركض على فرسه ، وقد رأى رسول الله ﷺ فعرفه ، فجعل يصيح بأعلى صوته : يا محمد لا نجوت إن نجوت .

فقال القوم : يا رسول الله ! ما كنت صانعاً حين يغشاك فقد جاءك ! وإن شئت عطف عليه بعضنا .

فأبى ﷺ ودنا أبي فتناول ﷺ الحربة من الحارث بن المصمة . ويقال من المزير بن المعوام . ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير فتطأير عنه

أصحابه ولم يكن أحد يشبه رسول الله إذا جد الجد ، ثم أخذ الحربة فطعن أبى بن خلف بها فى عنقه ، وهو على فرسه فجعل يخور كما يخور الثور . يقول له أصحابه : يا أبا عامر ! والله ما بك بأس ، ولو كان هذا الذى بك بعين أحدنا ما ضره .

فيقول لهم : لا والللات والعزى ، ولو كان هذا الذى بى بأهل "ذى المجاز" لماتوا أجمعون^(١) .

وهكذا تحققت النبوءة المحمدية ، وقتل أبى ابن خلف ، وتأكدت شجاعة النبى ﷺ .

وبهذه الصورة المشجاعة لرسول الله ﷺ تعلم الأمة ضرورة وجود القائد الشجاع الذى يقود الأمة نحو تحقيق شرع الله تعالى ، وحماية دينه فى الأرض كلها ، وبخاصة فى الأوقات الصعبة ، ووسط الظروف الحاسمة ويبين للمسلمين ولغيرهم أهليته ﷺ لتحمل الرسالة وأعبائها ، وتفرد له ليكون الأسوة والقُدوة لكل عاقل أريب .

وقد استوعب المسلمون هذا الدرس ، وأحاطوا برسول الله ﷺ ، ولاموا أنفسهم على ما فرطوا فيه ، وبخاصة ما فعله الرماة منهم ، وحرصوا بعد رسول الله ﷺ على بيعة الراشدين من الخلفاء . وتولية الرجال المقادرين على حمل الأمانة ، وتقرير المسئولية .

٢ . التسليم بضرورة وقوع الابتلاء لتمييز الخبيث من الطيب ، ولذلك كان ابتلاء الأنبياء والرسل ، فلم يحدث لهم انتصار دائم ، أو هزيمة دائمة ، وإنما تفاوت أمرهم بين هذا وذاك .

يقول الحافظ بن حجر : والحكمة فى ذلك أنهم لو انتصروا دائماً لدخل فى المؤمنين من ليس منهم ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين ، حتى يتميز الصادق من الكاذب وقد ظهر المنافقون ، وعرفهم المؤمنون فى "أحد"

(١) المغازى ج ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ، زاد المعاد فى هدى خير العباد ج ٣ ص ٢٠٩ ، ٢١٠

وذلك أن باطن المنافقين كان مخفياً عن المسلمين فلما جرت أحداث "أحد" وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول ، عاد التلويح تصريحاً ، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم ، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم^(١) . ولذلك كانت هزيمة "أحد" بعد انتصار "بدر" ، وكانت "أحد" سبباً في إقبال المسلمين بعد ذلك ، والتزامهم بطاعة الله ورسوله حتى نصرهم الله تعالى .

إن الابتلاء بصورة عامة يمحس الجبهة الإسلامية من عدة نواح . فهو يظهر القلوب ، ويخلصها من شوائب المادة ، وثقل الغرائز ، لأن القلوب تخالطها الشهوات ، وتؤذيها الخواطر النفسية ، وتحكمها العادات وتستولى عليها المغفلة ، ويلعب بها الشيطان- . وهى فى حاجة مستمرة للمجاهدة والتوجيه والإنداز . ولذلك اقتضت حكمة العزيز الرحيم أن يقيض لها من المحن والمبلاء ما يكون كالدواء الكريه مذاقه وفيه الشفاء . فكانت نعمته سبحانه وتعالى عليهم بهذه الكسرة والهزيمة ، وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأبيدهم ، وظفرهم بعدوهم ، فله عليهم النعمة التامة فى هذا وذلك .

كما أنه سبحانه لو نصرهم دائماً لطغت نفوسهم ، شأن طغيانها لو بسط لهم الرزق قال تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾^(٢) فدارت حياة المؤمنين بين السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والقبض والبسط فإن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغناء طغياناً وركوناً إلى العجلة ، وذلك مرض يعوقها عن جدها فى سيرها إلى الله والدار الآخرة ، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قبيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض المعائق عن المسير الحثيث إليه . فيكون ذلك المبالء . وتلك المحنة بمنزلة

(١) فتح البارى ج ٧ ص ٣٤٧ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ٢٧ .

الطبيب يسقى العليل الدواء. الكريه ،. ويقطع العروق. المؤلمة ،. لاستخراج
الأدواء منه ، ولو تركه لغلته الأدوية حتى يكون فيها هلاكه .
كما أنه سبحانه قد هيا لعباده المؤمنين منازل. فى دار. كرامته لم تبلغها
أعمالهم ، ولم يكونوا بالغيا إلا بالبلاء والمحنة ، فقيض لهم الأسباب التى
توصلهم إليها من ابتلائه وليمتحانه قال. تعالى : ﴿ أَمْرٌ حَسْبُكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

كما أن فى هذه المحن استخراج عبودية أوليائه ، وبروز معدن. حزيه فى
أحوال يظهر فيها الإنسان على حقيقته فى السراء والضراء ، وفيما يحبون
ويكرهون ، وفى حال ظفرهم ، وظفر عدوهم بهم ، فإذا ثبتوا على العبودية
فيما يحبون ويكرهون فهم عبيده حقاً ، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد
من السراء ، والنعمة ، والعافية .

وهناك تمحيص خارجى للمؤمنين ، لتمحيص صفوفهم ممن كان يظن أنه
منهم وهو عدو. لهم ،. وقد أشار. إليه الله تعالى بقوله : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ
الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وذلك حتى يتميز المؤمن الصادق. من المنافق الكاذب. :
﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فإن المسلمين لما أظهرهم الله تعالى بـ
"بدر.." ، دخل معهم جمهور. كبير ممن لم يدخل الإيمان. فى قلوبهم من
المنافقين ،. فاقتضت حكمته تعالى أن. يسبب لهم محنة "أحد." حتى يميز
الخبث من الطيب بتمييز المنافق من المؤمن ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ
لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (٢) .

إن من أخطر الأمور على بنيان أمة الإسلام أن يعيش بين صفوفها من لا
يؤمن بمبادئها وأهدافها ، ومن يمالئ العدو ساعة الشدة عليها ، يعيش بينهم

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٤٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٧٩ .

مجهولاً. منهم فلا يأخذون. حذرهم منه ،. يظنونه معهم وهم عليهم : ﴿ هُمْ
الْعَدُوُّ فَأَحْذَرَهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾^(١).

إن المنافقين جرثومة فساد في جسم الأمة ، وبؤرة خبيثة في كيانها ، يعيشون
بين صفها الواهن ، ويبلبلون الأفكار ، ويشككون في المواقف ، وهم فوق هذا
وذاك طابور خامس للعدو الخارجي ، من هنا كان عذابهم أشد قال الله تعالى
: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾^(٢).

وقد يتمنى البعض أن يُطلع الله تعالى المؤمنين على غيبه حتى يعلموا هؤلاء
المنافقين فيتقوا شرورهم بلا محن وابتلاء ؟ والله قادر على إظهار ما عليه
المنافقون ، وإزهاق ما يقومون به من أباطيل ، لكل الحكمة الإلهية اقتضت
غير ذلك .

إن هذه الأمنية لا تلتقى مع حكمة الله العليا ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ
اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾^(٣) ذلك أن المنافقين وإن كانوا متميزين في علمه
وغيبه ، لكن ذلك شئ وتمييزهم تميزاً مشهوداً مطلب آخر ، فيه تكمن حكمة الله
تعالى ، حتى يقع غيبه شهادة ، فيجازيهم على واقع مشهود ، لا على غيب
معلوم له تعالى وحده .

وقد قدر سبحانه وتعالى للمسلمين محنة يوم "أحد" ليتحول الغيب المجهول إلى
واقع معلوم ، وليعلم المسلمون درساً في سياسة الحياة ، وهي أن العدو يداجي
خططه ، ويخفيها ويلبسها بلباس غيرها ، ليصل إلى ما يريد ، وعليهم أن
يحذروا ، ويعملوا على تجنبه مهما تزين ، وتزخرف .

وبذلك حصل للمسلمين تمحيصان. : تمحيص داخلي ، وتمحيص خارجي
وفى كل خير جليل ، ونفع للمسلمين عظيم . وبهذا. كشف الله قناع الخير
وأسفر ليل المحنة عن نهار. النعمة .، ولأشرققت النفوس. بعد فيض الدروس

(١) سورة المنافقون ، الآية ٤ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٤٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٧٩ .

وتهللت الأرواح بعد زوال الأشباح ، وخرجت نفوس المؤمنين من المحنة أنقى ما كانت ، وأصفى وأرضى بقضاء الله وأغبط ، بعد تجلية القرآن لما منحوهم من خير عميم ، خصوا به دون غيرهم من المنافقين الذين لا يحبهم الله ، ولذا حال بينهم وبين ما ابتلى به المؤمنين ، حتى لا يتخذ منهم شهداء مع عصيانهم كما اتخذ من أوليائه شهداء ، يشير الله تعالى إلى إثارة المؤمنين بالشهادة دون المنافقين في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) وفي هذا دلالة صريحة على أن اتخاذ الشهداء نعمة يهبها الله لمن أحب من عباده المؤمنين .

٣ . تلقى المسلمون درساً في ضرورة دقة الطاعة ، وعدم الاجتهاد فيما فيه نص فلقد أتى المسلمون من قبل الرماة الذي تركوا أماكنهم لجمع الغنائم ، وعصوا بذلك أمر رسول الله ﷺ الصريح بعدم ترك الجبل مهما كانت الظروف ، وقد أفاد هذا الدرس المسلمين في المعارك التي حدثت بعد ذلك ، وتأكدوا من نتائج المخالفة ، وآثارها السيئة فلم يقعوا فيها ، واستمروا يعملون بمقتضى الأمر الصريح ، والنص الفصيح ، والتزموا حدود الاتباع ودقة والطاعة .

٤ . لم تحقق قريش شيئاً من أهدافها التي جاءت من أجلها ، فلا هي قضت على رسول الله ﷺ ، ولم تستول على المدينة ، ولم تمنع المسلمين من الحركة بدينهم ، وتطبيق شريعة الله تعالى ، ولم تحرر طرقها التجارية إلى الشام ، ولذلك عد نصرها نصراً حزيناً مؤقتاً .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : لا أتفق مع المؤرخين في اعتبار نتيجة غزوة "أحد" نصراً للمشركين ، ولندحاراً للمسلمين ، لأن مناقشة المعركة عسكرياً تظهر انتصار المسلمين على الرغم من خسائرهم الفادحة بالأرواح في هذه المعركة ونبدأ المناقشة من الوجهة العسكرية البحتة ، لإظهار حقيقة نتائج غزوة أحد .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٤٠ .

لقد انتصر المسلمون في ابتداء المعركة حتى استطاعوا طرد المشركين من معسكرهم ولإحاطة بنسائهم ولأموالهم ، وتعفير لوائهم في التراب . ، ولكن التقاف خالد بن الوليد وراء المسلمين ، وقطع خط رجعتهم ، وهجوم المشركين من الأمام جعل قوات المشركين تطبق من كافة الجوانب على قوات المسلمين ، هذا الموقف في المعركة جعل خسائر المسلمين تتكاثر ، ولكن بقي النصر بجانبهم إلى الوقت الأخير .

إن نتيجة كل معركة عسكرية لا تقاس علمياً ، وواقعياً ، بعدد الخسائر في الأرواح فقط بل تقاس بالحصول على هدف القتال الحيوى ، وهو القضاء المبرم على العدو مادياً ومعنوياً ؟؟

فهل استطاع المشركون القضاء على المسلمين مادياً أو ومعنوياً ؟!!

إن حركة خالد كانت مباغتة للمسلمين بلا شك ، ، وقيام المشركين بالهجوم المقابل وإطباقتهم على قوات المسلمين من كافة الجوانب وهم متفوقون بالعدد إلى خمسة أمثال المسلمين ، كل ذلك كان يجب أن تكون نتائجه القضاء الأكيد على كافة قوات المسلمين ، لكن ذلك لم يحدث ، ولا يمكن أن يعد التقاف قوة متفوقة تفوقاً ساحقاً على قوة صغيرة من جميع جوانبها ثم نجا تلك القوة الصغيرة بعد خسائر العشر فقط من عددها هزيمة ، لا يعد ذلك إلا انتصاراً لتلك القوة الصغيرة ، ولا يمكن اعتبار فشل القوة الكبيرة في القضاء على القوة الصغيرة مادياً في مثل هذا الموقف الحرج للغاية ، انتصاراً بل هو الفشل والانكسار لهذه القوة الكبيرة .

ولم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين أيضاً ، وإلا لما استطاع المسلمون الخروج لمطاردتها بعد يوم فقط من يوم "أحد" دون أن تتجراً قريش على لقائها بعيداً عن المدينة ، خاصة وأن الرسول قد خرج للقاء قريش بقوته التي اشتركت (فعلاً) بمعركة أحد ، دون أن يستعين بغيرهم من الناس .

إن نجاة المسلمين من موقفهم الحرج الذى كانوا فيه بأحد نصر عظيم لهم لأن أول نتائج إطباق المشركين على المسلمين من كافة الجهات فى التصور العقلى هو الفناء التام، لكن ذلك لم يحدث^(١) .

إن المكيين لم يسيطروا على معسكر المسلمين ، ولم يتمكنوا من أسر مسلم واحد ولم يغنموا شيئاً ، ولو يقطعوا رابطة الاتصال بين المسلمين وقيادتهم ، وذلك يؤكد النظرة القائلة بأن ما حدث فى "أحد" لم يكن هزيمة مطلقة ... وإن لا لما انسحب المشركون فى نهاية النهار خوفاً من ظلال الليل ... وشجاعة المؤمنين .

٥ . تعلم المسلمون من معركة "أحد" دروساً استفادوا بها . ومن هذه الدروس ضرورة الطاعة ، وتنفيذ توجيهات القيادة ، وأهمية مفاجأة العدو وعدم تركه يتخير زمان ومكان وكيفية المعركة ... وعلموا كذلك ضرورة مطاردة العدو حين انكساره، وعدم تركه لتجميع صفوفه مره أخرى، كما ظهر فى السرايا ، والغزوات بعد "أحد" .

ولو قدر الله للمسلمين أن يطاردوا أعداءهم فى المرحلة الأولى التى انهزم فيها الكفار لقضوا عليهم ، وألحقوا بهم الخسائر الكثيرة لكنهم لم يفعلوا ذلك ، وانشغلوا بجمع الغنائم فكانت الجائزة عليهم .

٦ . علم المسلمون ما يناله الشهداء من فوز . ، وبذلك عد من قتل منهم فائزاً منتصراً فأسرعوا إلى الجهاد رجاء نيل الشهادة .

يروى البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : جاء رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يوم "أحد"

وقال له : رأيت إن قتلت فأين أنا ؟

قال صلى الله عليه وسلم : فى الجنة .

فألقي تمرات كن فى يده ، ثم قاتل حتى قتل^(٢) .

(١) الرسول القائد ص ١٢ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة أحد ج ٦ ص ٢٨٨ .

وروى الإمام مسلم بسنده من حديث أنس : أن عمير بن الحمام أخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ثم قاتل حتى قتل ، والقصتان مختلفتان ، قد وقعتا لرجلين مختلفين ، حيث وقع التصريح في حديث أنس أن ذلك كان يوم "بدر" كما صرح في حديث جابر أن ذلك كان في يوم "أحد" .

وهذان. شيخان. كبيران. من الصحب الكرام. رخص لهما رسول الله ﷺ في التخلف لسنهما ، غير أن الرغبة في الشهادة قد دفعتهما إلى اللحاق بالمسلمين ليحرزاها ، يروى ابن إسحاق بسنده قائلًا : كان اليمان والد حذيفة وثابت بن وقش شيخين كبيرين ، فتركهما رسول الله ﷺ مع النساء والصبيان ، فتذاكرا بينهما ، ورغبا في الشهادة ، فأخذا سيفيهما ، ولحقا بالمسلمين بعد الهزيمة ، فلم يعرفوا بهما ، فأما ثابت فقتله المشركون ، وأما اليمان فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه^(١) .

يوضح لنا رسول الله ﷺ ما أنعم الله به عليهم فيقول ﷺ : لما أصيب إخوانكم "بأحد" جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قتاديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ، ومشربهم ، وحسن مقيلهم ، قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهّدوا في الجهاد ، ولا يتركوا عن الحرب ، فقال الله : أنا أبلغهم عنكم^(٢) فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾^(٣) .

وما لهم لا يفرحون بالشهادة ويستبشرون بها ، والمولى عز وجل يحدثنا عنهم ويبين أنهم

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ٨٧ ، وقد أراد رسول الله ﷺ دفع دية اليمان ﷺ لكن ولده حذيفة عفا وتصدق بديته على المسلمين .

(٢) أسباب النزول ص ٧٣ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ .

أحياء فى رحاب فضله ، وكرمه ، ومستقر رحمته ، وواسع جناته ينعمون بالنعيم الدائم فى خير جوار ، قد أبيحت لهم أنهار الجنة وثمارها ، طعام لا كالطعام ، وشراب لا كالشراب ، فستان بين طعام الأرض وطعامهم وشراب الأرض وشرابهم ، وهيئت لهم مساكن لا فى جبال الأرض ، وهجيرها ، وزمهريرها ، ولكن فى ساق العرش ، قناديلها من ذهب وملاطها من فضة ، فطاب المثلوى ، وكرم المأوى .

فجمع الله لهم بذلك إلى الحياة الدائمة ، منزلة القرب منه ، ومعيشة لهم ، وجريان الرزق المستمر عليهم ، وفرحهم بما آتاهم من فضله إنهم يعيشون عنده بالرضا ، بل هو كمال الرضا ، وفرحهم التام بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم ، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته .

وعلى هذا فإن الآثار التى تركتها "أحد" فى المسلمين ، محصت إيمانهم ، وجعلتهم يقبلون على الله دائماً ، ويتمنون الحياة لله والموت فى سبيله سبحانه وتعالى .

المبحث السابع

أحداث ما بين "أحد" و "الأحزاب"

بدأت الأحداث تأخذ مجرى جديداً بعد "أحد" حيث اتخذ جميع الفرقاء مواقف عديدة بناء على نظرتهم لأحداث "أحد" .

فمشركو مكة رأوا فيما حدث في "أحد" فرصة لن تعود ، لعلمهم أن انكسار المسلمين جاء بسبب خطأ مجموعة الرماة ، وجراً خالد ، وبراعته في الاستفادة من انسحاب الرماة من موقعهم ، ولذلك انسحبوا سريعاً إلى مكة ومكنوا فيها ، ولم يخرجوا لملاقاة المسلمين بعد ذلك وحدهم ، واكتفوا بالفخر الكاذب ، وإدعاء النصر ، ونشر الأكاذيب ، وتحريض القبائل على رسول الله ﷺ .

ورأى الأعراب ، وأهل البادية أن انكسار المسلمين في "أحد" موقف لا بد أن يستفيدوا به ، ولذلك فكروا في الإغارة على المدينة للسلب والنهب ، ولإظهار قوتهم أمام المسلمين لتكون لهم مهابة ومنزلة ، وتصوروا أن حالة المسلمين تمكنهم من ذلك .

ورأى اليهود أن المسلمين أصيبوا. إصابة تؤدي إلى ضعف قوتهم وهمتهم ولينهم في حاجة إلى وقت طويل لتعود لهم إرادتهم القوية ، وشجاعتهم الموثابة وقدرتهم على مواجهة خصومهم .

ورأى المنافقون إن وضعهم قد عرف بعودتهم من "أحد" وعدم اشتراكهم في القتال ، وتأكدوا أن النفاق لم يعد خطة تحقق لهم الحياة ، وليس هناك ما يمنع حينئذ من إظهار العداوة ، والبغضاء لرسول الله ﷺ وللمسلمين .

لكل هذا كثرت التحركات ، وتعددت الأعمال في المدة ما بين غزوتي "أحد" و "الأحزاب" ولم تقف أفكار الأعداء عند حد القول والأمانى ، وإنما ظهرت في خطط ، ومعاهدات ، ومواجهات .

يروى الواقدي حال اليهود ، والمنافقين بعد "أحد" فيقول : أخذ عبد الله بن أبي المنافقون معه يشمتون بالمسلمين ، ويسرون بما أصابهم ، ويظهرون أقبح القول

لهم ، فلما رجع الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى المدينة وهو جريح ، وبات يكوى الجراحة بالنار حتى ذهب الليل ، جعل أبوه المنافق يقول له شامتاً : ما كان خروجك مع محمد إلى هذا الوجه برأي ! عصاني محمد وأطاع الولدان ، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا !!!

فيقول له ابنه : الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير . وأظهرت اليهود القول السيئ فقالوا : ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هكذا. نبي قط .، أصيب في بدنه .، وأصيب في أصحابه !. ولأخذوا يخذلون. عن رسول الله ﷺ أصحابه ! ويأمرونهم بالتفرق عن رسول الله ﷺ .

وجعل المنافقون يقولون لأصحاب رسول الله ﷺ : لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل ، حتى سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك في أماكن عدة ، فمشى إلى رسول الله ﷺ ليستأذنه في قتل من سمع ذلك منه من اليهود ، والمنافقين ، فقال له رسول الله ﷺ : يا عمر: إن الله مظهر دينه ومعز نبيه ، ولليهود ذمة فلا أقتلهم .

قال عمر رضي الله عنه : فهؤلاء المنافقون يا رسول الله ﷺ ! فقال رسول الله ﷺ : أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول

الله ؟

قال عمر رضي الله عنه : بلى يا رسول الله ، وإنما يفعلون ذلك تعوذاً من السيف فقد بان لنا أمرهم ، وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة .

فقال رسول الله ﷺ : نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ يا ابن الخطاب : إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن^(١).

وحتى تستمر حركة الدعوة ، ويعيش المسلمون حياة العزة والكرامة ، ويحافظوا على حقوق الإنسان التي شرعها الله تعالى ، وحفظها للناس أجمعين كان لابد من مواجهة الواقع الذي عاشه أعداء الإسلام بعد "أحد" بما يليق به ، ولذلك وقعت أحداث عدة ، بدأت بعد "أحد" مباشرة ، واستمرت إلى قبيل غزوة "الأحزاب" أوردها هنا إتماماً لترتيب أحداث تاريخ الدعوة ، وإبرازاً للجهد الذي أداه المسلمون صادقين مخلصين .

(١) المغازي ج ١ ص ٣١٧ .

- أولاً -

غزوة "حمراء الأسد"

انسحب القرشيون من ميدان. معركة "أحد". وأخذوا. طريقهم إلى مكة . فلما وصلوا إلى "الروحاء" على بعد ست وثلاثين ميلاً من المدينة ، استراحوا بها وأخذ قادتهم يتأملون في نتائج معركة "أحد" وفي تدبير أمورهم بعدها . فقال بعضهم لبعض : لا محمداً أصبتم ، ولا الكواعب أردفتم ، فبئس ما صنعتم . وقال عكرمة بن أبي جهل : ما صنعنا شيئاً ، أصبنا أشرافهم ، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، وقبل أن يكون لهم وفر وقوة^(١) .

ولما رجع المسلمون إلى المدينة بجراحهم ومصابهم باتوا ليلتهم بين الحزن والألم ، وبات رسول الله ﷺ يفكر في الأمر ، ويتأمله ، ورأى ضرورة ملاحقة كفار مكة ، وطلبهم ، ومفاجأتهم حتى لا يفكروا في الرجوع إلى المدينة .

فلما صلى رسول الله ﷺ في اليوم التالي لـ"أحد" ، أمر بلالاً ؓ أن ينادى في الناس أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ، فهب المسلمون رغم ما بهم من جراح ، طاعة للنداء وطمعاً في الثأر ، وأملأ في إدخال الرعب في قلوب أعداء الله حتى لا يظنوا بالمسلمين ضعفاً وخوراً. جاء سعد بن معاذ. ؓ إلى قومه بنى عبد الأشهل . وللجراح في جميعهم فاشية ، فقال لهم : إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تطلبوا عدوكم فيجيبه أسيد بن حضير ، وبه سبع جراحات تحتاج للعلاج : سمعاً وطاعة لله ورسوله ! فأخذ سلاحه ، ولم يعرج على دواء جراحه ، ولحق برسول الله ﷺ .

وجاء سعد بن عبادة قومه بنى ساعدة فأمرهم بالمسير ، فتلبسوا ولحقوا . وجاء أبو قتادة أهل خربى ، وهم يداوون الجراح ، فقال : هذا منادى رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، فوثبوا إلى سلاحهم ، وما عرجوا على جراحاتهم ، فخرج من بنى سلمه أربعون جريحاً ، بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً ، وبقطبة بن عامر بن حديدة تسع جراحات ، حتى وافوا النبي ﷺ عند بئر أبي عذبة

(١) المغازى ج ١ ص ٣٣٨ .

إلى رأس الثنية وهى على الطريق الرئيسى بين مكة والمدينة ، وعليهم السلاح ، فاصطفوا لرسول الله ﷺ ، فلما نظر رسول الله ﷺ إليهم والجراح فيهم فاشية قال : اللهم ارحم بنى سلمة^(١) .

وكان حرص المسلمين على الخروج واضحاً ، لدرجة أن جابر بن عبد الله ﷺ جاء إلى النبي ﷺ وبين له عذره فى عدم الخروج لـ "أحد" واستأذنه فى الخروج هذه المرة ، وقال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، إن منادياً نادى ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس وقد كنت حريصاً على الحضور بالأمس فى "أحد" ، ولكن أبى خلفنى على أخوات لى وقال : يا بنى ، لا ينبغي لى ولك أن ندعهن ، ولا رجل عندهن ، وأخاف عليهن ، وهن بنات ضعاف ، وأنا خارج مع رسول الله ﷺ ، لعل الله يرزقنى الشهادة ، فتخلفت عليهن فاستأثره الله على بالشهادة ، وكنت رجوتها لنفسى ، فأذن لى يا رسول الله أن أسير معك ، فأذن له رسول الله ﷺ . يقول جابر : فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيرى^(٢) .

وولى النبي ﷺ على المدينة الصحابى عبد الله بن أم مكتوم . ومن نواذر الطاعة خروج عبد الله ، ورافع ابنى سهل بن عبد الأشهل فلقد رجعا من "أحد" وجراحهما ثقيلة ، فلما سمعا النداء عزموا على الخروج ، وليس لهم دابة ولا يقدران على السير ، فخرجا يزحفان على بطونهما ، فلما عجز رافع عن الزحف حملة أخوه عبد الله على ظهره ، حتى أتيا رسول الله ﷺ عند العشاء ، فلما علم أمرهما قال لهما ﷺ : لو طالت لكم المدة كانت لكم مراكب من خيل ، وبغال ، وإبل ، وليس ذلك بخير لكم^(٣) .

وخرج مع رسول الله كل من خرج فى أحد فبلغ عددهم ستمائة وسبعين رجلاً وخرج معهم جابر بن عبد الله بإذن رسول الله ﷺ ، وجاء رسول الله باللواء وهو على حاله يوم "أحد". لأنه لم يحل ولم يتغير . وأعطاه لعلى بن أبى طالب ووصل

(١) المغازى ج ١ ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

(٢) المغازى ج ١ ص ٣٣٦ ، سيرة النبي ج ٢ ص ١٠٠ .

(٣) المغازى ج ١ ص ٣٣٥ .

الجيش الإسلامي سيره إلى "حمراء الأسد" على بعد ستة أميال من المدينة ، حتى بلغها ، وعسكر بها ^(١) .

وأخذت الأحداث تتفاعل في كلاً المعسكرين .

المشركون يفكرون في الرجوع إلى المدينة ، ليدركوا ما للقضاء على المسلمين والمسلمون يفكرون في إرهاب العدو ، وطرده ، وإبعاده عن المدينة حفاظاً على الذراري والنساء ، وإعادة هيبته التي فقدوها في "أحد" .

وهنا نجد دقة التحركات الإسلامية الرشيدة ، والتي من أهمها :

١ . أرسل رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من أسلم ليأتوه بخبر القوم ، فلحق الثلاثة بالقوم عند "حمراء الأسد" فأبصرهم القرشيون. وقتلوا اثنين منهم وهما سليط ، ونعمان ، ابنا سفيان بن خالد من بني سهم ، وأما الثالث فقد تخلف لبطئة في السير ونجا فلما وجدهما المسلمون في " حمراء الأسد " قبروهما في قبر واحد ، فعرفا بالقرنينين ^(٢) وقد أدى ذلك إلى زيادة خوف العدو لأنه علم ملاحقة المسلمين لهم .

٢ . لما عسكر المسلمون في "حمراء الأسد" أمرهم رسول الله ﷺ بجمع الحطب في النهار على أن يوقد كل رجل منهم ناراً مستقلة ، فبلغت النيران خمسمائة ، تبدو عالية من البعد ^(٣) ، وتحدث الأعراب بهذا فأصيبوا بالذعر والخوف ، وتوقعوا أن القوة الإسلامية أضعاف أضعاف ما هي عليه وأبلغوا رؤيتهم لأهل مكة .

٣ . جاء معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وكانت خزاعة سلماً لرسول الله والمسلمين ، وقال : يا محمد لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله أعلى كعبك ، وأن المصيبة كانت بغيرك ... فطلب منه ﷺ أن يخذل الأعداء ، فذهب إلى القرشيين وهم بالروحاء فقال له أبو سفيان : ما وراءك ؟ قال : تركت محمداً وأصحابه خلفي ، يتحرقون عليكم بمثل النيران ، وقد أجمع معه من تخلف عنه بالأمس ، من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا ألا

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٦٨ .

(٢) المغازي ج ١ ص ٣٣٨ .

(٣) سيرة النبي ج ٢ ص ١٠٢ .

يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ، ولمن أصبتم من أشرافهم .

قالوا : ويلك ! ما تقول !؟

قال : والله ما أرى إلا أن نرتحل حتى نرى نواصي الخيل .

وأرسل معبد إلى رسول الله ﷺ رجلاً من خزاعة يعلمه بانصراف القرشيين إلى مكة خائفين ، مذعورين^(١) .

٤ . علم الله تعالى إخلاص أصحاب رسول الله ﷺ وهم حزبه وجنده ، فجعل من بين المشركين من يخذلهم ، ويصرفهم عن مهاجمة المدينة مرة أخرى ، وذلك أن أبا سفيان حينما فكر مع بعض رفاقه في العودة إلى المدينة ومهاجمتها ، قال له صفوان بن أمية وهو واحد من جيش القرشيين : يا قوم لا تفعلوا !! فإن المسلمين قد حزنوا على ما أصابهم ، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلف من الخزرج ، فعودوا إلى مكة ، والدولة لكم ، فإنى لا آمن إن رجعت أن تكون الدولة عليكم^(٢) .

وأدخل الله الرعب في قلوب القرشيين فأسرعوا بالرحيل إلى مكة ، وأراد أبو سفيان أن يخيف المسلمين ، فانتهاز مرور نفر من عبد القيس يريدون المدينة ، فطلب منهم أن يخبروا محمداً وأصحابه بأن قريشاً اجتمعت على الرجعة إليهم ... فلما ذكر الوفد ذلك للمسلمين قال رسول الله ﷺ : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقويت عزائم المسلمين للقاء العدو ، ورغبوا في إلحاق الأذى بالمشركين ، رغم ما بهم من جراح ، وفي ذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ^(٣) .

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ١٠٤ .

(٢) سيرة النبي لابن هشام ج ٢ ص ١٠٤ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٧٢ ، ١٧٣ .

ومكث النبي ﷺ والمسلمون في "حمرأ الأسد" ثلاثة أيام عادوا بعدها إلى المدينة المنورة ، وقد استفاد المسلمون من غزوة "حمرأ الأسد" عدة فوائد :

(أ) تجديد روح التضحية ، وإظهار حب المسلمين للجهاد ، والاستشهاد في سبيل الله تعالى ، فلقد خرجوا مع رسول الله للجهاد بعد أقل من يوم من هزيمتهم في "أحد" رغم الجراح ، والآلام ، وكانوا على شوق للحرب ، والقتال .

(ب) إبراز القوة الإسلامية ، وإعلام الآخرين بها ، حتى يكونوا على حذر في عداوتهم ، ولا يستهينوا بالقوة الإسلامية ، ولذلك أمرهم رسول الله ﷺ بإظهار ملامح القوة ، وإرهاب العدو ، وعمل على تخذيل الكفار وتخويفهم .

(ج) ضرورة الاهتمام بالتخطيط ، والتنفيذ ، والالتزام بالطاعة ، ليعزز العمل في وقته وزمانه ، وليعود بالفائدة المأمولة لدين الله تعالى ، وللمسلمين ، ولهذا كان الخروج بعد أقل من يوم ، مع الاستعداد للتضحية والفداء .

(د) ضرورة أخذ الحذر ، وعدم تصديق من غدر وخان ، فلقد أسر المسلمون أبا غرة ، الجمحي بـ "حمرأ الأسد" فطلب أن يمن رسول الله ﷺ عليه وقال له : لا تقتلني ، فأبى النبي ﷺ وقال له : لن تقول خدعت محمداً مرتين ، وكان قد من عليه وفك أسره في "بدر" وقال ﷺ : "إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين" .

- ثانياً -

سرية أبي سلمة ؓ

بعد شهرين من غزوة "أحد". علم رسول الله ﷺ أن طلحة ، وسلمة ، ابني خويلد أخذوا في تحريض قومهما بنى خزيمة لحرب المسلمين والإغارة على المدينة المنورة لسلب الأموال ، وإثبات كيان قوى لهم أمام المسلمين ، بعدما تصوروا أن هزيمة المسلمين في أحد فرصة تساعد على ما أرادوه من بغى وعدوان .

يروى الواقدي حال بني خزيمة وهم يستعدون. ، ويتشاورون. في مهاجمة المسلمين ويقول بعضهم لبعض : نسير إلى محمد في عقر داره ، ونصيب من أطراف المسلمين ، فإن لهم سرحا يرعى جوانب المدينة ، نخرج على متون الخيل ، ونخرج على النجائب المخبورة فقد أربعنا خيلنا وإبلنا ، فإن أصبنا نهباً لم ندرك ، وإن لاقينا جمعهم كنا قد أخذنا للحرب عدتها ، معنا خيل ولا حيل معهم ، ومعنا نجائب أمثال الخيل ، والقوم منكوبون قد أوقعت بهم قريش حديثاً ، فهم لا يستبلون دهرأ ، ولا يثبتون على أمر .

فقام فيهم رجل منهم يقال له قيس بن الحارث بن عمير ، فقال : يا قوم والله ما هذا برأى ! ما لنا قبلهم وتر ، وما هم نهبة لمنتهب ، إن دارنا لبعيدة من يثرب. ، وما لنا جمع كجمع قريش . مكثت قريش دهرأ. تسير في العرب تستنصرها ، ولهم وتر يطلبونه ثم ساروا وقد امتطوا الإبل ، وقادوا الخيل ، وحملوا السلاح مع العدد الكثير . ثلاثة آلاف مقاتل سوى أتباعهم . وإنما جهدكم أن تخرجوا في ثلاثمائة رجل إن كملوا ، فتغرون بأنفسكم وتخرجون من بلدكم ، ولا آمن أن تكون الدائرة عليكم ، فكاد ذلك أن يشككهم في السير^(١) .

وقد سمع هذا النقاش رجل من طيء^(٢) فقدم على صهره ، الذي هو من صحابة رسول الله ﷺ بالمدينة وأخبر بما عزم عليه بنو خزيمة فجاء الصحابي إلى رسول الله ، وأخبره خبر بني خزيمة فأرسل رسول الله إلى أبي سلمة رضي الله عنه وهو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشي المخزومي وولاه على سرية قوامها مائة وخمسون رجلاً وأوصاه بتقوى الله وأمره بالإسراع في الخروج فخرج رضي الله عنه مع السرية ، وكان معهم الطائي يدلهم على الطريق وواصلوا السير ليلاً ونهاراً ، في طريق غير مألوف ، حتى وصل بجيشه إلى أدنى ماء. لبنى أسد بن خزيمة . فوجد عند الماء إبلأ ، وغنماً مع الرعاة ، فاستولوا عليها ، وهرب الرعاة إلا ثلاثة ، وحذروا بنى أسد من جمع أبي سلمة ، وكثروهم عندهم ، ففروا في كل وجه هلعاً ، وخوفاً .

(١) المغازي ج ١ ص ٣٤٢ .

(٢) هو الوليد بن زهير بن طريف من بني طيء .

فلما ورد أبو سلمة مكان تجمع القوم لم يجد أحداً فعسكر فيه ، وفرق أصحابه في طلب النعم والشاه ، فجعلهم ثلاث فرق - فرقة أقامت معه ، وفرقتان أغارتا في ناحيتين مختلفتين ، وأوعز إليهما ألا يمنعا في طلب ، وألا يبيتوا إلا عنده إن سلموا ، وأمرهم ألا يفترقوا ، واستعمل على كل فرقة عاملاً منهم ، فأبوا إليه جميعاً سالمين .، قد أصابوا. إيلاً وشيماً. ولم يلقوا. أحداً. فرجع أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة راجعاً .، ورجع معه الطائي فلما ساروا. ليلة قال. أبو سلمة :. اقتسموا غنائمكم ، فأعطى أبو سلمة الطائي الدليل رضاه من المغنم ، وأخرج صفيّاً لرسول الله ﷺ عبداً ، ثم أخرج الخمس ، ثم قسم ما بقى بين أصحابه ، فعرفوا سهمانهم ، وأقبلوا بالنعم والشاه يسوقونها حتى دخلوا المدينة^(١) .

وكانت سرية أبي سلمة^(٢) في مستهل شهر المحرم من العام الرابع الهجرى .

- ثالثا -

بعث عبد الله بن أنيس

في الخامس من شهر المحرم من العام الرابع للهجرة جاءت الأخبار إلى رسول الله ﷺ أن. خالد بن سفيان. المهذلي يحشد الجموع لحرب. رسول الله ﷺ ، ويحرض على مهاجمة المدينة ، وقد نزل بـ"عوانة" فأرسل رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس ﷺ إليه ليقضى عليه وينهى الفتنة التي يعمل لإشعالها .

قال عبد الله بن أنيس : يا رسول الله ! انعته لى حتى أعرفه .

قال ﷺ : إذا رأيته هبته ، وفرقت منه ، وذكرته الشيطان ، وآية ما بينك وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته ، وأذن له أن يقول ما بدا له .

(١) المغازى ج ١ ص ٣٤٣ .

(٢) أبو سلمة من بنى مخزوم شهد "أحداً" وجرح بها ، وقد استمر في مداواة الجرح شهراً حتى دمل على فساد ، واشترك في "حمرء الأسد" فلما استعمله النبي ﷺ على السرية عاوده ألم الجرح ، واشتد عليه بعد رجوعه إلى المدينة ، فمات بها ، فهو من شهداء "أحد" وقد خلفه الرسول ﷺ على زوجته أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها .

وكان أنيس لا يهاب الرجال ، فأخذ سيفه وخرج ، حتى إذا كان ببطن عرنة لقي ابن سفيان يمشى ، وراءه الأحابيش فهابه ، وعرفه بالنعت الذى نعت له رسول الله ﷺ ، وقد دخل وقت العصر فصلى ، وهو يمشى يومئ إيماء برأسه ، فلما دنا منه قال : من الرجل ؟

قال : رجل من خزاعة ، سمعت بجمعك لمحمد فجئتُك لأكون معك عجباً لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث ، فارق الآباء وسفه أحلامهم .
فصاحبه ابن سفيان معه ، وأكرم قراه ، فلما تفرق عنه أصحابه ، قال : هلم يا أخا خزاعة فدنا منه ، وجلس عنده حتى نام الناس فقتله ، وأخذ رأسه ، واختفى فى غار ، والخييل تطلبه فى كل وجه ، ثم سار الليل ، وتوارى فى النهار إلى أن قدم المدينة^(١) ... الذى ظل غائباً عنها ثمانى عشرة ليلة بدءا من السبت لسبع بقين من المحرم . وقد قتل خالدًا . وجاء برأسه فوضعه بين يدي رسول الله ﷺ^(٢) ، فأعطاه ﷺ عصاه ، وقال له ﷺ : " هذه آية بينى وبينك يوم القيامة " فلما حضرت بن أنيس الوفاة أوصى أن تجعل معه فى أكفانه وكانت غيبته ﷺ عن المدينة ثمانية عشر يوماً^(٣) .

- رابعا -

بعث الرجيع

والرجيع بفتح الراء المشددة وكسر الجيم اسم ماء لهذيل يقع بين مكة وعسفان بأرض الحجاز ، وسمى البعث به لحدوث الوقعة عنده .
وسبب هذه الوقعة أن نفرًا من القارة ، وعضل^(٤) ، وهما بطنان من بطون الهون بن خزيمة ابن مدركة قدموا على رسول الله ﷺ ، وذكروا أن فيهم إسلاماً ، وطلبوا منه ﷺ أن يبعث معهم من يعلمهم القرآن الكريم ، ويفهمهم الإسلام ، فبعث لهم الرسول ﷺ سرية مؤلفة من عشر رجال . وأمر عليهم عاصم بن ثابت ؓ

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٥٣ .

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٥٤ .

(٣) زاد المعاد فى هدى خير العباد ج ٣ ص ٢٤٤ .

(٤) القارة بتخفيف الراء وعضل بضم العين وفتحها وفتح الضاد .

فانطلقوا بهم فلما كانوا بين عسفان ومكة غدر القوم بهم ، ولستصرخوا عليهم النضر وحيّاً من هذيل ليغدروا بهم معهم فأتوهم بقريب من مائة ولحقوا بهم عند "قدفد" التي عاصم ومن معه إليها .

وجاء الرماة فأحاطوا بعاصم ومن معه وقالوا لهم : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً .

فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا رسولك ، فقاتلوهم ولم يستسلموا . واستمر المرمى حتى قتل عاصم مع سبعة نفر من أصحابه .

وبقى خبيب ، وزيد ، ورجل آخر ، فأعطوهم العهد والميثاق ، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم وربطوهم بها .

فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، وأبى أن يصحبهم فجروه ، وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه .

وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة .

فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان خبيب هو الذي قتل أباهم الحارث يوم بدر ، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله خرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال : دعوني أصلي ركعتين ، فتركوه فصلاهما فلما سلم قال : والله لولا إن تقولوا أن ما بي جزع من الموت لزدت ، وكان أول من سن الركعتين عند القتل ، ثم قال : اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بديداً ، ولا تبق منهم أحداً^(١) ...

ولما صلبوه ، وأرادوا قتله قال له أبو سفيان : أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه ، وأنتك في أهلك ؟

(١) قال السهيلي : وإنما صارت سنة لأنها فعلت في زمنه ﷺ واستحسن من صنيعه ، وقد صلاها زيد بن حارثة في حياة النبي ﷺ ، كما صلاها حجر بن عدى بن الأديب حين حمل إلى معاوية من العراق ، ومعه كتاب زياد ابن أبيه يشهد عليه أنه خرج عليه ، وأراد خلعه ، وفي الكتاب شهادة جماعة من التابعين منهم الحسن ، وابن سيرين ، فلما دخل حجر بن عدى على معاوية قال له : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : أو أنا للمؤمنين أمير ؟ ثم أمر بقتله ، فصلى ركعتين قبل قتله يرحمه الله وقد عاتبت عائشة معاوية في قتله ، فقال : إنما قتله من شهد عليه ، ثم قال : دعيني وحجراً ، فإني سألقاه على الجادة يوم القيامة .
قالت : فأين ذهب عنك حلم أبي سفيان ؟ قال : حين غاب مثلك من قومي (الروض الأنف ج ٣ ص ٢٣٥) .

فقال : لا والله ما يسرنى أنى فى أهلى وأن محمداً فى مكانه الذى هو فيه
تصبيه شوكة تؤذيه .

ثم صلبوه ووكلوا به من يحرسه . جثته ، فجاء عمرو بن أمية الضمري ،
فاحتمله بخدعة ليلاً فذهب به فدفنه ، وكان الذى تولى قتل خبيب هو عقبة بن
الحارث^(١) .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه أمية بن خلف^(٢) .
وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشئ من جسده يعرفونه ، وكان عاصم قتل
عظيماً من عظمائهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر (الزنابير)
فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شئ ، وكان عاصم أعطى الله عهداً أن لا
يمسه مشرك ولا يمس مشركاً ، وكان عمر لما بلغه خبره يقول : يحفظ الله العبد
المؤمن بعد وفاته كما يحفظه فى حياته^(٣) .

- خامساً -

سرية عمرو بن أمية الضمري لقتل أبى سفيان

كان أبو سفيان بن حرب قد قال لنفر من قريش بمكة : أما أحد يغتال محمداً
فإنه يمشى فى الأسواق فندرك ثأرنا !!؟
فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله بمكة وقال له : يا أبا سفيان إن أنت
وفيتنى خرجت إليه حتى أغتاله ، فإنى هاد بالطريق ومعى خنجر مثل خافية
النسر .

قال أبو سفيان : أنت صاحبنا ، وأعطاه بغيراً ، ونفقة ، وقال له : اطو أمرك
، فإنى لا آمن أن يسمع هذا أحد فينميه إلى محمد .

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) السيرة النبوية ج ٢ ص ١٧٢ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الرجيع ج ٦ ص ٣١٠ - ٣١٢ ، زاد المعاد ج ٣
ص ٢٤٤ - ٢٤٦ .

قال الرجل : العربى لا يعمله ، فخرج ليلاً على راحلته فسار خمساً ، ووصل المدينة فى اليوم السادس ، ثم أقبل يسأل عن رسول الله ﷺ حتى أتى المصلى ، فعقل راحلته ، ثم أقبل يؤم رسول الله ﷺ فوجده فى جماعة من أصحابه يحدث فى مسجده ، فلما دخل ورآه رسول الله ﷺ قال لأصحابه : إن هذا الرجل يريد غدراً ، والله حائل بينه وبين ما يريد .

فوقف وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال له رسول الله ﷺ : أنا ابن عبد المطلب ، فذهب ينحنى على رسول الله ﷺ كأنه يساره ، فجبذه أسيد بن حضير وقال : تنح عن رسول الله ﷺ ، وجذبه بداخل إزاره ، فإذا الخنجر يظهر فقال : يا رسول الله هذا غادر .
فأسقط فى يد الأعرابى وقال : دمي دمي يا محمد ، وأخذ أسيد بن حضير يلبيه فقال له النبى ﷺ اصدقنى من أنت ، وما أقدمك ، فإن صدقتنى نفعتك الصدق ، وإن كذبتنى فقد اطلعت على ما هممت به .

قال العربى : فأنا آمن ؟!!

قال ﷺ : وأنت آمن .

فأخبره بخبر أبى سفيان ، وما جعل له فأمر به فحبس عند أسيد بن حضير ، ثم دعا به من الغد وقال له ﷺ : قد أمنتك فإذهب حيث شئت ، أو خير لك من ذلك ؟

قال : وما هو ؟

فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله .

فقال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، والله يا محمد ما كنت أفرق بين الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلى وضعفت ، ثم اطلعت على ما هممت به ، فما سبقت به الركبان ، ولم يطلع عليه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وأنت على حق ، وأن حزب أبى سفيان حزب الشيطان فجعل النبى ﷺ

يبتسم، وأقام الرجل أياماً بالمدينة ، ثم استأذن النبي ﷺ فخرج من عنده ، ولم يسمع له ذكر بعد ذلك^(١) .

وقد أدى هذا التصرف العدواني من أبي سفيان أن أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري مع رجل من الأنصار إلى مكة لقتل أبي سفيان إن أصابا فيه غرة ، فلما رأى أهل مكة ابن أمية عرفوه وأدركوا شراً وراءه ، وتجمعوا له ... فرجع مع صاحبه إلى المدينة ، يقول عمرو بن أمية : بعثني رسول الله ﷺ وبعث معي جبار بن ضمير الأنصاري إلى أبي سفيان بن حرب وقال : إن أصبتما فيه غرة فاقتلاه .

فخرجتا حتى قدمنا مكة وحبسنا جملينا بشعب من شعاب يأجج ثم دخلنا مكة ليلاً فقال جبار لعمرو : لو أنا طفنا بالبيت وصلينا ركعتين .

فقال عمرو : إن القوم إذا تعشوا جلسوا بأفئيتهم ، وإنهم إن رأوني عرفوني فإنني أعرف بمكة من الفرس الأبلق .

فقال جبار : كلا إن شاء الله فأبى أن يطيعني فطفنا بالبيت وصلينا ثم خرجنا نريد أبا سفيان ، فوالله إنا لنمشي بمكة إذ نظر إلى معاوية بن أبي سفيان فعرفني فقال معاوية : عمرو بن أمية فوالله ما قدمها إلا لشر ، فأخبر قريشاً بمكاني فخافوني وطلبوني وقالوا : لم يأت عمرو بخير ، فحشدوا وتجمعوا .

قال عمرو : فقلت لصاحبي : النجاء ، فخرجنا نشدد حتى سعدنا في جبل وخرجوا في طلبنا حتى إذا علونا الجبل يؤسوا منا ، فرجعنا فدخلنا كهفاً في الجبل فبتنا فيه وقد أخذنا حجارة فرفضناها دوننا ، فلما أصبحنا غدا عبيد الله بن مالك بن عبيد الله التيمي يقود فرساً له فغشنا ونحن في الغار ، وكان معي خنجر قد أعدته فخرجت إليه وضربته ضربة فصاح صيحة فأسمع أهل مكة وجاءه الناس يشتدون وهو بآخر رمق فقالوا : من ضريك ؟

فقال : عمرو بن أمية وغلبه الموت. فمات مكانه ولم يدل على مكاننا ، فاحتملوه فقلت لصاحبي لما أمسينا : النجاء ، فخرجنا ليلاً من مكة نريد المدينة

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٦ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

فمررنا بالحرس وهم يحرسون جيفة خبيب بن عدى ، فقال أحدهم : والله ما رأيت كالميلة أشبه بمشية عمرو ابن أمية لولا أنه بالمدينة لقلت هو عمرو بن أمية فلما حاذينا الخشبة شددنا عليها وحملناها وخرجنا بها شداً حتى أتينا جرفاً بمهبط مسيل يأجج فدفناها فى الجرف فغيبه الله تعالى عنهم فلم يقدروا عليه وعدنا بعدها إلى المدينة^(١) .

- سادساً -

وقعة "بئر معونة"

بئر معونة موضع ببلاد هذيل بين مكة وعسفان ، قريب من الرجيع ، وفيه حدثت الواقعة المشهورة ، التى استشهد فيها سبعون من القراء . حفظة القرآن الكريم .

يروى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعث أصحابه إلى بئر معونة فى شهر صفر على رأس أربعة أشهر من "أحد" بعدما جاء أبو براء عامر بن مالك بن جعفر المعروف بـ "ملاعب الأسنة" إلى المدينة فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، ودعاه إلى دين الله تعالى فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام ، وقال : يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد ، يدعونهم إلى أمرك ، فإنى أرجو أن يستجيبوا لك .

فقال رسول الله ﷺ : إنى أخشى عليهم أهل نجد .

قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم ، فليدعوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو ، أخا بنى ساعدة فى سبعين رجلاً من الصحابة منهم : الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان أخو بنى عدى بن النجار وعروة بن أسماء بن الصلت السلمى ، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعى وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق ، فى رجال من خيار المسلمين الحفظة فساروا حتى نزلوا بـ "بئر معونة" وهى بين أرض بنى عامر ، وحرّة بنى سليم ، كلا البلدين منها قريب ، وهى إلى حرّة بنى سليم أقرب .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٦ ص ١٩٥ ، ١٩٦ بتصرف .

فلما نزلوا "بئر معونة" بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل . فلما أتاه لم ينظر في الكتاب . وعدا . على الرجل فقتله . ثم استصرخ عليهم بنى عامر . فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه . وقالوا : لن ننقض عهد أبى براء ، وقد عقد لهم عقداً وجواراً ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم ، وهم : غُصَيَّة ، ورِغْل ، ودُكَّوَان^(١) فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأهم القراء أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ، "يرحمهم الله " إلا كعب بن زيد ، أخا بنى دينار بن النجار ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فحمل من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً ، رحمه الله^(٢) .

وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ، ورجل من الأنصار ، أحد بنى عمرو ابن عوف ، و هو المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح . يقول ابن إسحاق :- فلم ينبئهما بمصاب . أصحابهما إلا . المطير تحوم . على العسكر فقالا : والله إن لهذه الطير لشأناً ، فأقبلا لينظرا فإذا القوم فى دمائهم ، وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة .

فقال الأنصارى لعمرو بن أمية : ما ترى ؟

قال عمرو : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ ، فنخبره الخبر .

فقال الأنصارى : لكنى ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو وما كنت لتخبرنى عنه الرجال ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً

فلما أخبرهم أنه من مضر ، أطلقه عمرو بن الطفيل ، وجز ناصيته ، وأعتقه عن رقبته زعم أنها كانت على أمه .

فخرج عمرو بن أمية ، حتى إذا كان بـ "قرقرة الكدر" من صدر قناة أقبل رجلان من بنى عامر^(٣) حتى نزلا معه فى ظل هو فيه .

(١) غُصَيَّة بضم العين وفتح الصاد وتشديد الياء المفتوحة ورِغْل بكسر الراء وسكون العين ، ودُكَّوَان بفتح الذال وسكون الكاف أسماء قبائل .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الرجيع ج ٦ ص ٣١٢ ، زاد المعاد ج ٣ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٣) وقيل : إنهما من بنى كلب ، والراجح ما ذكرته وقرقرة الكدر موضع قريب من المدينة .

وكان مع العامريين عقد من رسول الله ﷺ وجوار ، لم يعلم به عمرو بن أمية وقد سألهما حين نزلا : ممن أنتما ؟

فقالا : من بنى عامر ، فأمهلهما ، حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأرة ، من بنى عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ .

فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ ، فأخبره الخبر ، قال رسول الله ﷺ : لقد قتلت قتيلين ، لأدينهما^(١).

وقد تألم النبي ﷺ لأجل مأساة "بئر معونة" ولأجل مأساة "الرجيع" اللتين وقعتا خلال أيام معدودة تألماً شديداً ، ودعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه ، ففي البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحاً ، يدعو في صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية ، ويقول : "عصية عصت الله ورسوله"^(٢) فأنزل الله تعالى على نبيه قرآناً قرأناه حتى نسخ بعد "بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه" فترك رسول الله ﷺ قنوته^(٣) .

وأورد البخاري في صحيحة رواية أخرى تحدد محل القنوت ضمن أعمال الصلاة حيث ذكر بسنده عن عاصم الأحول أنه قال : سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن القنوت في الصلاة .

قال : نعم .

فقلت كان قبل الركوع أو بعده ؟

قال : قبله .

قلت : فإن فلاناً أخبرني أنك ، أنك قلت بعده .

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ٢ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب المغازي . باب غزوة الرجيع ج ٦ ص ٣١٧ .

(٣) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٣١٨ .

قال : كذب ، إنما قنت رسول الله ﷺ بعد الركوع شهراً ، أنه كان بعث ناساً يقال لهم القراء ، وهم سبعون رجلاً إلى ناس من المشركين ، وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهد قبلهم ، فظهر هؤلاء الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ، فقنت رسول الله ﷺ بعد الركوع شهراً يدعو عليهم^(١) .

وقد بين الحافظ ابن حجر في الفتح أن المراد بالقنوت الدعاء ، وأورد حديث أئمة الحديث والفقهاء الذين بينوا أن القنوت يجوز في صلوات الليل والنهار ، وأولاهها صلاة المغرب دبر صلاة النهار ، وصلاة الفجر دبر صلاة الليل .

وبينوا أن رسول الله ﷺ قنت قبل الركوع قليلاً ، وأكثر قنوته كان . بعدم ، وذكروا أن قول أنس في الرواية "كذب" يعني أخطأ بلغة أهل الحجاز .

وقد أجمع الفقهاء والمحدثون أن رسول الله ﷺ قنت في صلاة الصبح . فلا عبرة لمن أنكر القنوت أمام هذا الإجماع ، لأن الدليل لا ينقض إلا بما يساويه ، أو بما يزيد عليه في القوة .

والحكمة في جعل القنوت جهراً ، وأثناء القيام هو اشتراك الإمام والمأموم في الدعاء وهم في حالة نشاط وإقبال على الله تعالى ... ولذلك أجمعوا على الجهر بالقنوت. لتحقيق هذه المشاركة بين الإمام يدعو ، وللمأمومين يؤمنون. ولا خلاف في الجهر بالقنوت بين الأئمة في أوقات الصلاة ما عدا صلاة الصبح فإنهم اختلفوا في محله ، وفي الجهر به^(٢) .

- سابعاً -

غزوة "بنى النضير"

فرح اليهود بهزيمة المسلمين في "أحد" وأخذوا يعلنون قوتهم وبأسهم ، والحقيقة أنهم لم يكونوا أصحاب قتال وحرب ، بل كانوا أصحاب خداع وتآمر ، وكانوا يتعاونون خفية مع المنافقين ، ومع كل من يعادى رسول الله ﷺ ولم ينس يهود بنى

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب غزوة الرجيع ج ٦ ص ٣١٨ .

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى . كتاب الوتر . باب القنوت ج ٢ ص ٤٩٠ ، ٤٩١ .

النضير ما لحق بإخوانهم من بنى قينقاع ، وبكعب بن الأشرف ، فأخذوا يتحينون الفرص للغدر برسول الله ﷺ ، وبالمؤمنين .

فلما وقعت غزوة "أحد"^(١) وخدع المشركون المسلمين فى "الرجيع" ، وفى "بئر معونة" فكر يهود بنى النضير فى الغدر برسول الله ﷺ ، وانتهزوا فرصة ذهابه إلى ديارهم لمطالبتهم بالمساهمة فى دية الرجلين من بنى عامر اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري تطبيقاً للعهد الذى قطعه الرسول ﷺ معهم عند مجيئهم إلى المدينة . وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلفاً وعهداً ... فلما طالبهم الرسول ﷺ بالاشتراك فى المدية قالوا: .. نعم يا أبا القاسم : نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟

فانتدبوا لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى على رسول الله ﷺ صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه ، هم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان وعلي ، والزبير ، وطلحة ، وسعد بن معاذ ، وأسيد بن الحضير ، وسعد بن عباد .

فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فلما استلبث النبی ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه . فلحقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخل المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ ، فأخبرهم الخبر ، وعرفهم أن اليهود أرادت الغدر به ، وأمرهم بالتهيؤ لحربهم ، والسير إليهم ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم^(٢) .

وحاول ابن أبى إشعال الفتنة فذهب إلى بنى النضير ، ومناهم بأن قريظة وغطفان ، وألفين معه سيكونون معهم إن قاتلوا المسلمين ، فلما اشتد الأمر نكص على عقبه كما فعل مع بنى قينقاع ، فتنبه بنو النضير ، وأعدوا للأمر عدته .

(١) ذهب البعض إلى أن غزوة بنى النضير كانت بعد بدر ، وقبل أحد ، والحق أنها كانت بعد "أحد" وبعد بئر معونة لأن سببها كان غدر بنى النضير برسول الله ﷺ حين ذهب إليهم ليدفعوا ما عليهم من دية الرجلين من بنى عامر اللذين قتلهم عمرو بن أمية بعد نجاته فى بئر معونة ، وأيضاً فإن فكرة التآمر لاغتيال رسول الله ﷺ تواترت بين اليهود وبين أبى سفيان كما دلت الأحداث عما ذلك بعد "أحد" .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٤٨ .

وسار النبي ﷺ بالناس ، حتى نزل بهم ، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة ، فحاصروهم ست ليال ، فتحصنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها ، فنادوه : أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على من يصنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج منهم (عدو الله) عبد الله بن أبي بن سلول ، ووديعة مالك بن أبي قوئل ، وسويد ، وداعس ، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم ، إن قوتلتهم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فتريصوا بذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وانخذل المنافقون وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الدروع ففعل فاحتلموا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته ويحمل الأبواب والشبابيك فيضعها على ظهره فينطلق بها ، فخرج أكثرهم إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام^(١) .

وممن سار منهم إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وحيى بن أخطب فلقد نزلوها ، وصار لهم فيها شأن وقوة ورأى . حمل اليهود معهم النساء والأبناء وبعض الأموال وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ يضعها حيث يشاء . فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك ابن خرشة ذكرا فقرا فأعطاهما رسول الله ﷺ .

ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمير ، أبو كعب بن عمرو بن جحاش ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها . يقول ابن إسحاق وقد حدثني بعض آل يامين : أن رسول الله ﷺ قال ليامين : ألم تر ما لقيت من ابن عمك ، وما هم به من شأني ؟ فجعل يامين بن عمير لرجل جعلاً على أن يقتل له عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون^(٢) . وقد أنزل الله سورة الحشر تتحدث عن بنى النضير ، ولذلك سماها ابن عباس سورة بنى النضير^(١) .

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ١٩١ .

(٢) سيرة النبي ج ٢ ص ١٩٢ .

- ثامناً -

غزوة "نجد"

بعد هزيمة بنى النضير ، وطردهم من المدينة تخاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم وغدرهم ، ورأى رسول الله ﷺ أن عدداً من القبائل البعيدة عن المدينة تحتاج لعملية تأديبية ، فخرج رسول الله ﷺ لتأديب هؤلاء الأعراب الخارجين المخادعين الذين يقيمون في الأماكن البعيدة عن المدينة في "نجد" وغيرها ، وبخاصة بعدما علم أن جموعاً من بنى محارب ، وبنى ثعلبة من غطفان تحتشد لمهاجمة المسلمين في المدينة .

أسرع رسول الله ﷺ للخروج إليهم في أربعمئة من أصحابه بعدما ولى على المدينة أبا ذر الغفاري رضي الله عنه فلما وصل إلى ديارهم بنجد فروا في رؤوس الجبال فلم يقابل منهم أحداً وقد وقعت هذه الغزوة في ربيع الثانية وأوائل جمادى الأولى من العام الرابع للهجرة^(١) .

وأهمية هذه الغزوة تتجلى في مساهمتها في القضاء على العداوات المختلفة الموجودة عند الأعراب والبدو ، وبخاصة هؤلاء الذين يقطنون بعيداً عن المدينة ، ليتفرغ المسلمون لملاقاة المكيين الذين كانوا يتوعدون المسلمين ، ويهددونهم مستعينين بهؤلاء الأعراب .

ويلاحظ أن هذه الغزوة كانت في بلاد نجد البعيدة عن المدينة ، وهذا يؤكد قوة المسلمين ويعرف الجميع أن يد المسلمين طويلة ، وأنها تستطيع الوصول إلى الأعداء في كل مكان لإبطال كيدهم ، ومنعهم من العدوان أو التفكير فيه .

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب حديث بنى النضير ج ٦ ص ٢٧١ .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٥٠ ، والبعض يسمي هذه الغزوة بذات الرقاع وهو غير صحيح لأن غزوة "ذات الرقاع" شهدها أبو هريرة وأبو موسى الأشعري اللذان أسلما وقدا إلى رسول الله ﷺ قبل خيبر بأيام وبذلك فزمنها بعد خيبر على الأرجح .

- تاسعاً -

غزوة "بدر الثانية"

بعد تأديب الأعراب ، والقضاء على شوكتهم أخذ المسلمون يتهيأون لملاقاة كفار مكة فى الموعد الذى ضربوه لهم بعد "أحد" .

وسبب هذه الغزوة أن أبا سفيان بن حرب لما أراد أن ينصرف يوم أحد نادى المسلمين وقال لهم جهراً وعلانية : موعد ما بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول ، نلتقى فيه فنقتل .

فقال رسول الله ﷺ ، لعمر بن الخطاب : قل نعم إن شاء الله (١) .

فافترق الناس على ذلك ، ورجعت قريش وأخبروا من قبلهم بالموعد .

وكانت بدر الصفراء مجمعاً للعرب ، وسوقاً تقوم لهلال ذى القعدة إلى ثمان

ليال خلون منه ، فإذا مضت ثمانى ليال تفرق الناس إلى بلادهم .

فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ ، وأحب ألا يوافى رسول الله ﷺ الموعد حتى يدعى أن التخلف عن اللقاء بسبب المسلمين لا بسببه .

ولستعمل أبو سفيان سلاح المضغط النفسى فكان يظهر أنه يريد أن يغزو رسول الله ﷺ فى جمع كثيف . ويتحدث فى ذلك حتى يصل الخبر إلى أهل

المدينة ، ويعلموا أنه يجمع الجموع ويحشد العرب ، فيخافون ويقعدون .

قدم نعيم بن مسعود الأشجعى مكة . وأسلم بعد ذلك . فأخبر أبا سفيان وقریشاً أن المسلمين يتهيأون لحربهم فأعلمه أبو سفيان بأنه كارم للخروج إلى لقاء

المسلمين ، واعتل بجذب الأرض ، وجعل لنعيم عشرين فريضة توضع تحت يد سهل بن عمرو ، على أن يخذل المسلمين عن المسير لموعده ، وحمله على بغير

فقدم نعيم المدينة ، وأرجف بكثرة جموع أبى سفيان حتى أربع المسلمين ، وتمنوا عدم الخروج فى الموعد واستبشر المنافقون واليهود وقالوا : لن يفلت محمد

من هذا الجمع .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، حتى خشى ألا يخرج معه أحد .

(١) انظر غزوة "أحد" .

وجاءه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وقد سمعا ما سمعا فقالا : يا رسول الله ﷺ إن الله تعالى مظهر دينه ، ومعز نبيه ، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحب أن نتخلف عنه ، فيرون أن هذا جبن فسر لموعدهم ، فوالله إن في ذلك لخيرة .
فسر رسول الله ﷺ بذلك ، ثم قال : "والذى نفسى بيده لأخرجن ، وإن لم يخرج معي أحد" ^(١) فنصر الله تعالى المسلمين ، وأذهب عنهم الرعب الذى غرسه الشيطان فى نفوسهم .

وكان اللقاء ضرورياً لتتضح حقيقة كل طرف ، وتظهر قوته ، ويعلم أهل مكة أن المسلمين لن يستكينوا أبداً ، وأن هزيمتهم فى " أحد " كانت خطأ لن يتكرر .
ففى شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة خرج رسول الله ﷺ لموعده فى ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه علي بن أبى طالب واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، وقيل إنه استخلف عبد الله بن عبد الله بن أبى رضي الله عنه وانتهى إلى " بدر " فأقام بها ينتظر المشركين ^(٢) .

وأما أبو سفيان ، فخرج فى ألفين من مشركى مكة ، ومعهم خمسون فرساً ، حتى انتهى إلى " مر الظهران " على بعد مرحلة من مكة فنزل بـ " مجنة " (ماء فى تلك الناحية) .

خرج أبو سفيان من مكة متناقلاً وهو خائف من عقبى القتال مع المسلمين فلما نزل بمر الظهران خار عزمه ، فاحتال للرجوع ، وقال لأصحابه : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ، ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا جذب ، وإنى راجع فارجعوا ^(٣) .

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر أفراد الجيش المكي أيضاً ، ولذلك أسرعوا فى الرجوع إلى مكة بمجرد إشارة أبى سفيان بلا اعتراض من أحد ولم يبدوا أى مصادمة لهذا رأى ، أو يظهروا أى إصرار على القتال ،

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) سيرة النبى ج ٢ ص ٢١١ .

(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٥٥ .

ولم يلحوا على مواصلة السير للقاء المسلمين وبدا منهم أن الرجوع أمل تمنوه فلما رآه أبو سفيان رحبوا به .

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ، ينتظرون العدو ، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بكل درهم درهمين ، ثم رجعوا إلى المدينة ، وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم ، وتوطدت هيبتهم في النفوس وسادوا على الموقف ، ولجأ الأعداء إلى المسالمة ^(١) .

وتعرف هذه الغزوة "ببدر الموعد" و "بدر الثانية" و "بدر الصغرى" و "بدر الأخيرة" .

- عاشرًا -

غزوة "دومة الجندل"

ودومة الجندل (بضم الدال) مدينة بعيدة ، تقع قرب الشام بينها وبين دمشق ست ليال وبينهما وبين المدينة ست عشرة ليلة ^(٢) .

تقع "دومة الجندل" في الشمال بعيداً عن المدينة ، وبذلك فهي تكمل مع "نجد". عملاً متكاملًا لأن. "نجد". تقع في أقصى المشرق. ، وهذه تقع في أقصى الشمال .

إن الاقتراب من بلاد الشام بهذه القوة بعد تحذيراً للرومان الذين يحتلونها حتى يتركوا الحرية للناس ، ولا يقفوا ضد حركة الدعوة إلى الله تعالى .
وكان سبب هذه الغزوة المباشر أنه بلغه ﷺ أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مر بهم ، فخرج ﷺ لخمس ليال بقين من ربيع الأول في العام الخامس الهجري بعد "بدر الأخيرة" بستة أشهر .

وقد خرج في ألف من أصحابه ومعه دليل من بنى غدره يقال له "مذكور" فكان يسير الليل ، ويكمن النهار ، ويغايير في الطريق ، واستخلف على المدينة "سباع بن عُرْفُطَة الغفاري" .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٥٦ .

فلما دنا رسول الله ﷺ من "دومة الجندل" قال له الدليل : يا رسول الله إن سوائهم ترعى عندك فأقم لى ، حتى أطلع لك .

قال رسول الله ﷺ : نعم .

فخرج العذرى طليعة وحده ، حتى وجد آثار النعم والشاء وهم مغربون ، ثم رجع إلى النبی ﷺ فأخبره ، وقد عرف مواضعهم ، فسار رسول الله ﷺ حتى هجم على ماشيتهم ، ورعاتهم ، فأصاب رسول الله ﷺ منها ، وفر باقيهم ، فتفرق أهل "دومة الجندل" وهربوا بعيداً عن ديارهم .

ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد بها أحداً ، فأقام بها أياماً ، وبث السرايا فعادت كل سرية بإبل ولم تلق أحداً ، إلا أن محمد بن مسلمة أخذ رجلاً منهم ، فأتى النبی ﷺ ، فسأله عن أصحابه فقال : هربوا أمس لما سمعوا أنك أخذت نعمهم ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، فأسلم .

ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فى العشرين من ربيع الآخر ، ووادع ﷺ فى طريقه عيينة بن محصن الفزراى على أن يرعى أنعامه بـ "تغلمين" وما والاها إلى "المراض" وكانت بلاده قد أجذبت^(١) .

- حادى عشر -

أهم الأحداث الاجتماعية

بين "أحد" و "الأحزاب"

برغم كثرة السرايا والمغزولات. التى وقعت خلال. هذه المفترة. نرى المسلمين يعيشون حياتهم الاجتماعية بصورة عادية ، ومن أهم الأحداث الاجتماعية التى عاشها المسلمون ما يلى :

١. تزوج عثمان بن عفان ؓ أم كلثوم بنت النبی ﷺ التى عقد عليها فى ربيع الأول ودخل بها فى شهر جمادى الأخرى من السنة الثالثة من الهجرة وذلك بعد أن توفيت "رقية" يوم بدر من العام الثانى .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، زاد المعاد ج ٣ ص ٢٥٦ .

- ومما يذكر أن عبد الله بن عثمان بن عفان من زوجته رقية مات في جمادى الأولى وهو ابن ست سنوات ، ودفنه أبوه بالبقيع .
٢. ولد الحسن بن علي بن أبي طالب في السنة الثالثة وحملت أمه فاطمة عليها السلام بالحسين عليه السلام .
٣. ولد الحسين بن علي في أول شهر شعبان من السنة الرابعة .
٤. في شهر رمضان من السنة الرابعة تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة بنت الحارث الهلالية وهي المعروفة بأُم المساكين لكثرة صدقاتها لهم ، وبرها بهم ، وإحسانها عليهم ، وكانت قبله ﷺ زوجة لـ "عبد الله بن جحش" وماتت رضى الله عنها بعد شهرين أو ثلاثة من زواجها به ﷺ وقد صلى عليها النبي ﷺ ودفنها بالبقيع .
٥. في شهر شوال من السنة الرابعة تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة وكانت قبله عند زوجها أبي أولادها ، أبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه الذي شهد "أحداً" وجرح بها فداوى جرحه شهراً حتى برئ ، ثم خرج في سرية فغنم منها نعماً ، ومغنماً جيداً . ثم أقام بعد ذلك سبعة عشر يوماً ، ثم انتقض عليه جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، فلما حلت أم سلمة في شوال خطبها رسول الله ﷺ إلى نفسها بنفسه المكرمة ، . وبعث إليها عمر بن الخطاب في ذلك مراراً ، فتذكر أنها امرأة غيرى أى شديدة الغيرة ، وأنها مصيبة أى لها صبيان يشغلونها عنه ، ويحتاجون إلى مؤنة تحتاج معها أن تعمل لهم في قوتهم . فقال ﷺ : أما الصبية فألى الله وإلى رسوله ، أى نفقتهم ليس إليك ، وأما الغيرة فأدعوا الله فيذهبها فأذنت في ذلك ، وقالت لعمر آخر ما قالت له : قم فزوج النبي ﷺ تعنى قد رضيت وأذنت .
- يروى الإمام أحمد بسنده عن أم سلمة أنها قالت : أتانى أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به قال : "لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ، ثم يقول اللهم أجرنى في مصيبتي واخلف لى خيراً منها إلا فعل به" فحفظت ذلك منه . فلما توفى أبو سلمة استرجعت . . وقلت : . اللهم أجرنى في مصيبتي

واخلف لى خيراً منها ، ثم رجعت إلى نفسى فقلت : من أين لى خير من أبى سلمة ؟

فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله ﷺ ، وأنا أدبغ إهاباً لى ، فغسلت يدى من القرظ ، وأذنت له فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف فقعد عليها ، فخطبني إلى نفسى ، فلما فرغ من مقالته ، قلت : يا رسول الله ما بى أن لا تكون بك الرغبة ، ولكنى امرأة بى غيرة شديدة فأخاف أن ترى منى شيئاً يعذبني الله به ، وأنا امرأة قد دخلت فى السن وأنا ذات عيال فقال ﷺ : أما ما ذكرت من الغيرة فسيذهبها الله عنك ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال ، فإنما عيالك عيالى فقالت : فقد سلمت لرسول الله ﷺ فقالت أم سلمة : فقد أبدلنى الله بأبى سلمة خيراً منه رسول الله ﷺ^(١) .

٦. وفى السنة الرابعة أمر النبى ﷺ زيد بن ثابت ؓ أن يتعلم اللغة السريانية ليتمكن ﷺ من معرفة ما فى كتب أهلها ، ويرسل إليهم كتبه بلغتهم بواسطة أصحابه الدعاة .

قال ﷺ لزيد بن ثابت ، يا زيد أحسن السريانية أنه تأتيني كتب بها ؟؟؟ فقال زيد : لا يا رسول الله .

فقال له ﷺ : تعلمها .

يقول زيد ؓ : فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً^(٢) .

وعلم المسلمون بذلك أهمية معرفة لغة من سيدعونهم لأن الدعوة لا تصح إلا بلغة المدعويين ليفهموا المراد ، وبطلعوا على حقيقة الإسلام .

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى ج ٢٢ ص ١٣٢ ، بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٩٤ .

(٢) الفتح الربانى بشرح مسند الإمام أحمد الشيبانى . كتاب العلم والعلماء ج ١ ص ١٤٥ .

- ثانى عشر -

حركة الدعوة بين "أحد" و "الأحزاب"

المدة بين "أحد" و "الأحزاب" عامان على الصحيح ، ومع ذلك وقعت فيها أحداث جسام ، ذكرت أهمها ، مما يدل على الجهد الكبير الذى بذله رسول الله ﷺ ، والمسلمون معه ، فى خدمة الإسلام ، والحركة بالدعوة إلى دين الله تعالى .

لقد وصلت القوات الإسلامية خلال هذا العام إلى بلاد نجد فى أقصى الشرق ، وإلى أطراف الشام فى الشمال ، والاقتراب من مكة فى حملات تأديبية هادفة .

ذلك أن الشيطان زين لغير المسلمين قوتهم ، وغرهم بما حدث يوم "أحد" ودفعهم إلى التطاول على المسلمين ، وإعداد العدة لمهاجمة المدينة .

ولولا فطانة النبى ﷺ وإخلاص المسلمين معه لأوتى المسلمون ، ولأصابهم من الأذى الكثير ، وكانت المعونة الإلهية مع عباده فألهمهم الرشد ووجههم نحو الطريق المستقيم .

لقد اهتم النبى ﷺ بجمع المعلومات عن طريق المعيون. التى بثها فى هذه الأماكن البعيدة ، وبذلك وضع سياجاً من الأمن حول المدينة ، ولم يترك أعداءه يتخيرون. مكان. وزمان. مقاتلة المسلمين وهذا هو المسبب فى كثرة المسرايا والغزوات خلال الزمن الفاصل بين "أحد" و "الأحزاب" .

واستفاد النبى ﷺ من عنصر المفاجأة ، والمباغطة ، ولذلك كان المجاهدون يسكرون بالليل ، ويكمنون بالنهار ... واستفاد الرسول من سلاح الضغط المعنوى ، وإرهاب العدو حتى يتحقق السلام بلا قتال ، وتضان الحقوق بلا دماء ... ولهذا كان تحركه فى حمراء الأسد ، وإشعاله النيران الكثيفة والمتعددة ليلاً ليشعر العدو أن الجيش الإسلامى كثير العدد قوى العدة .

وكان ﷺ يرسل لكل جماعة ما يكافئها من الرجال عدداً ، واستعداداً ، حتى لقد بلغ عدد المسلمين فى بعض الغزوات ألفاً وخمسمائة مقاتل . وفى بعضها الآخر كانت السرية مكونة من رجل واحد فقط .

وفى خضم الصراع بين المسلمين وأعداء الإسلام لم تغب الدعوة إلى الله تعالى ، وإنما كان ﷺ يعلم أصحابه ما نزل من القرآن الكريم ، ويفهمهم أحكام الإسلام. التى جاء الوحي بها . ويتابع تحفيظهم الوحي المنزل . وترسيخه فى حياتهم وسلوكهم ، وإن العقل يندهش لاستيعاب المسلمين لكل الوحي الذى تتابع نزوله مع كثرة السرايا وتعدد المهام .

وكان التوجيه النبوى مرتبطاً بالأحداث والوقائع ، فكلما حدث أمر ظهر حكمه ولذا. احتاج المسلمون لمسألة وسألوا. عنها كان. الجواب. الشافى يأتيهم من الله ورسوله ﷺ فتعلموا بذلك ضرورة التلقى من الوحي ، وملازمة الطاعة والاتباع ، وعلموا أن الالتزام بحكم الله أساس الإيمان ، وطريق الفوز والفلاح وكانوا بحق نعم الرجال ، ونعم المؤمنين ، وخير أمة أخرجت للناس .

ومن خلال السرايا والغزوات تعلم المسلمون أحكام الفئ وفهموا أن الفئ هو المال. الذى يقع فى أيديهم من أعدائهم بلا قتال . أو مواجهة . وقد فصل لهم الرسول ﷺ حكم الله فيه ، يوزعه على ذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل حتى لا يبقى المال فى أيدي الأغنياء وحدهم ولذلك وزع أموال بنى النضير على المهاجرين وحدهم ، ولم يشاركهم من الأنصار إلا رجلين شكوا الفقر والعالة لرسول الله ﷺ .

وتعلم المسلمون كذلك مشروعية القنوت ، والدعاء على الأعداء فى صلواتهم ، وعلموا كيفيتها ، وترتيبها فى أعمال الصلاة ... وبذلك وقفوا على سلاح قوى يساعدهم فى النصر على أعداء الله تعالى .

وكان الرسول ﷺ إذا خرج فى غزوة يولى على المدينة أحد أصحابه ، وإذا أرسل سرية عين أميراً لها ... وكان يعطى الراية لرجل يختاره ﷺ ليتعلم أصحابه فى حياته ﷺ سلوك القيادة ، ويتحملوا مسئولية الحكم والإمارة ويتدربوا على استنباط رأى ، والقدرة على اتخاذ القرار ، وحسن التصرف فيما يجد من شئون الحياة .

ولم تخل تحركاته ﷺ من دعوة الله تعالى في كل حال ، كان ﷺ يعلم أصحابه ما نزل من القرآن الكريم وكان يؤمهم في الصلاة ، ويعرفهم أحكام شرع الله تعالى ، ويعيش حياته الاجتماعية بصورة إنسانية عادية ، فتزوج ، وزوج ، وولد له . ولم يجعل هذه المرحلة رغم كثرة الغزوات والسرايا تدور في إطار إجراءات طارئة خاصة بها ، وإنما عاشها ﷺ ومعه أصحابه بصورة عادية . يجاهدون ويستريحون ، يعبدون الله ويتمتعون بالدنيا ، ولذلك تعجب أعداء الإسلام مما رأوا من المسلمين ، وانعكس هذا العجب على سلوكهم وأعمالهم ولذلك لم يفكروا مرة في مواجهة المسلمين وقتالهم حين أتوا إليهم ، بل كانوا يفرون ويهربون لسابق معرفتهم بشجاعتهم ورجولتهم .

وقد تعرض المسلمون للخداع من أعدائهم كما حدث في الرجيع ، وبئر معونة ، ولم يضعف حالهم بذلك ، وإنما تصوروا الأمر على حقيقته ، وتيقنوا أن طريق الإسلام طريق شاق ، يحتاج للمجاهدة والتضحية ، وعلى المسلمين أن يستعدوا لتجاوز هذا الطريق ، وعليهم أن يؤمنوا بأن الآخرة خير من الأولى ، وأن كل ما يصيبهم في سبيل الله هو خير لهم وإن الإيمان الحق يحتاج لدماء تحميه من أعدائه المتربصين الذين يريدون إطفاء نور الحق ، والقضاء على منهج الله القويم ... ولذلك كانوا وقود النور ، ومشعل الخير للناس أجمعين .

ولعل أهم ما في هذه المرحلة هو الترابط التام بين المسلمين بعدما اندمج المهاجرون والأنصار في أخوة تامة وترابط شامل للظاهر والباطن . وعاش المسلمون جميعاً أخوة الإيمان والعقيدة ... ولذلك لم يكن غريباً عليهم أن يواجه المسلم أباه أو أخاه ، أو ابنه أثناء الغزوات لأن ما عدا رباط العقيدة بين الناس زال وانتهى .

المبحث الثامن

غزوة "الأحزاب"

أدت. تحركات. المسلمين قبل الأحزاب. إلى إعادة المهية لرسول الله ﷺ وصحابته ، وأخذ أهل مكة وأعراب البوادي وقبائل العرب المنتشرة في أرجاء الجزيرة العربية يميلون إلى السلام مع المسلمين ، ويهربون من عدم مواجهتهم كما رأينا من أبي سفيان في بدر الآخرة .

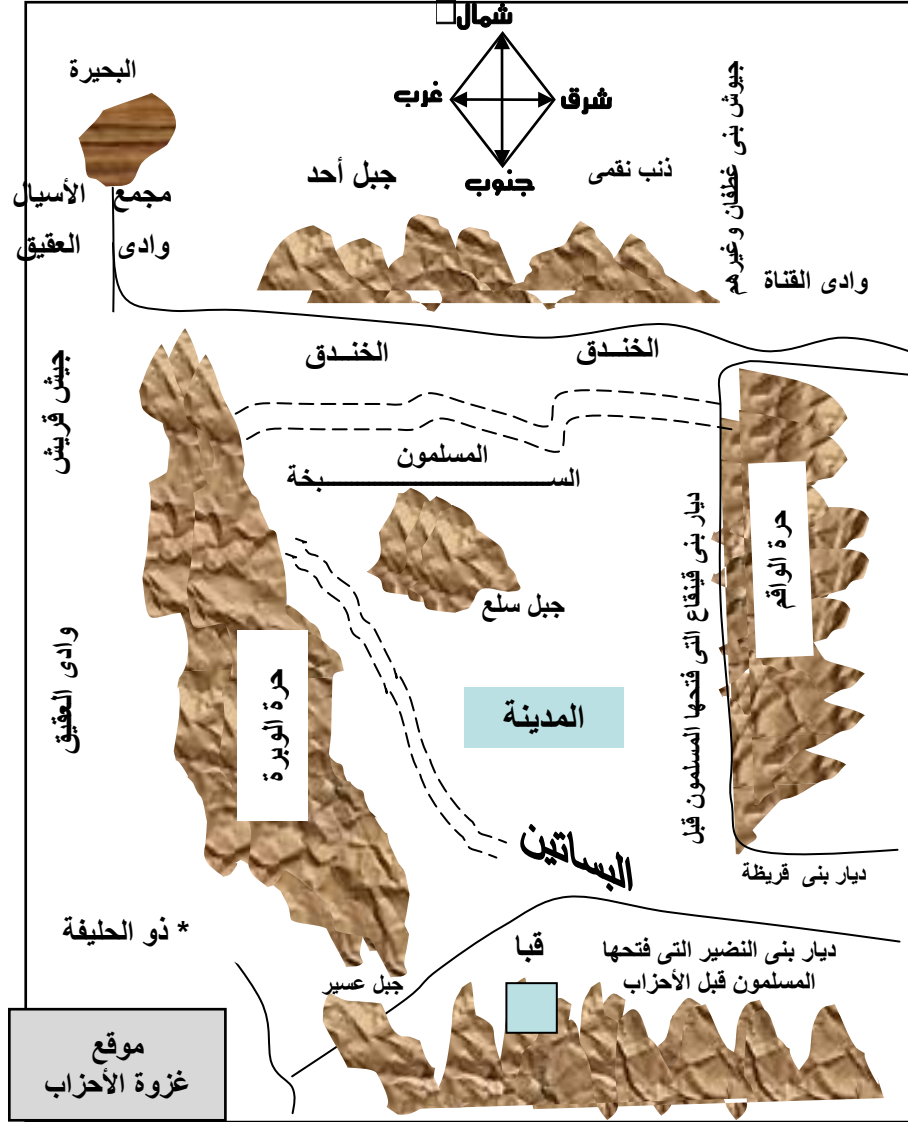
ونظر يهود بنى النضير إلى حالتهم فوجدوا أنهم أخرجوا من ديارهم ، وفقدوا أموالهم وشق عليهم أن يستقر المسلمون في المدينة ، وينتشر الإسلام بين الناس فعملوا على القضاء على المسلمين ليعودوا إلى المدينة مرة أخرى ... ورأوا أنه لا قبل لهم بالمسلمين فأخذوا يؤلبون الناس ، ويجمعون الأحزاب لمقاتلة المسلمين .

وتولى كبر هذا التحريض نفر من اليهود على رأسهم سلام بن مشكم بن أبي الحقيق النضري ، وحبي بن أخطب في نفر من بنى النضير ، وهوذة بن قيس الوائلي من الأوس في بضعة عشر رجلاً حيث خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعاهم إلى حرب رسول الله ، وقالوا لهم : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت لهم قريش : يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بالدين الذي أصبحنا نختلف فيه ، نحن ومحمد ، أديننا خير أم دينه ؟ فنحن عمار البيت ، ننحر الإبل ، ونسقى الحجيح ، ونعبد الأصنام ؟!

فقالوا لهم : بل دينكم خير من دينه ، وإنكم أولى بالحق منه .
فأنزل الله فيهم قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبَتِ وَالطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤَلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ ﴾^(١) .

(١) سورة النساء ، الآية ٥١ .

يقول المفسرون : خرج كعب بن الأشرف فى سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على غدر برسول الله ﷺ وينقصوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله ﷺ فنزل كعب على أبى سفيان ، ونزلت اليهود فى دور قريش ، فقال أهل مكة :



إنكم أهل كتاب. ومحمد صاحب كتاب. ، ولا نأمن أن يكون. هذا. مكر منكم فإن أردت. أن. نخرج معك فاسجد لهذين المصنمين وآمن بهما فذلك قوله ،. يؤمنون بالجبب والطاغوت .

ثم قال كعب لأهل مكة : ليجئ منكم ثلاثون ، ومنا ثلاثون فنلزم أكبادنا بالكعبة ، فنعاهد رب البيت لنجهدن على قتال محمد ، ففعلوا ذلك . فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق ؟ أنحن أم محمد ؟ فقال كعب : اعرضوا على دينكم .

فقال. أبو سفيان. : نحن ننحر للحجيج الكوماء. ، ونسقيهم الماء. ، ونقرى الضيف ، ونفك العاني ، ونصل الرحم ، ونعمر بيت ربنا ونطوف به ، ونحن أهل الحرم ، ومحمد فارق دين آبائه ، وقطع الرحم ، وفارق الحرم ، وديننا القديم ودين محمد الحديث .

فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه . فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما سمعوا ، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا لذلك ، واتعدوا له . وقال لهم أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد .

ثم خرج ذلك النفر حتى أتوا غطفان من قيس عيلان ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأنهم سيعطونهم ثمر خيبر سنة إن هم نصرهم ، وأخبروهم أن قريشاً تابعوهم على ذلك .

ثم ذهبوا إلى بنى سليم فوعدوهم المسير معهم إذا خرجت قريش^(١) . وأخذ المنافقون- فى المدينة يبتعدون- عن رسول- الله ﷺ ،. ولا- يشاركون المسلمين فى المحافظة على المدينة ، ويتحايلون فى عدم الالتزام بالعهود الموجودة وصاروا يعملون ضد الإسلام فى لؤم وخفاء .

(١) المغازى ج ٢ ص ٤٤٣ .

وتمكن يهود بني النضير من التأثير على بني قريظة كذلك وضموهم إلى معسكر المقاتلين لرسول الله وصحابته .

وظن الأحزاب بهذا التجمع أن الأمور دالت لهم ، وإن انتصارهم بكثرتهم حق ثابت ، ولذلك تحركوا جماعات نحو المدينة ، وتواعدوا اللقاء حولها ، وقدموا من كل صوب بعددهم ، وعدتهم ، وعداوتهم ، لينالوا من دين الله تعالى ، ومن رسوله ﷺ ، ويستأصلوا المسلمين من المدينة .

ولكن الله ناصر لدينه ، ومظهر للحق ، ومعين لجنده الذين يعملون في إخلاص ، وصدق فأيدهم ، ونصرهم ، وخذل عدوهم ، وهزمهم بقدرته سبحانه وتعالى .

ودراسة غزوة الأحزاب تحتاج إلى دراسة ما يلي :

- أولاً -

وقت الغزوة

تعرف غزوة الأحزاب بغزوة "الخنق" لأنها الغزوة الوحيدة التي حفر فيها المسلمون خندقاً يفصل بينهم وبين أعدائهم .

يروى ابن إسحاق أن هذه الغزوة حدثت في شهر شوال من العام الخامس الهجري . ونص على ذلك غير واحد من العلماء كعروة بن الزبير ، وقتادة ، والبيهقي ، والذهبي ، وابن القيم ... وقال آخرون ، إنها وقعت في شوال سنة أربع للهجرة مستدلين بحديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي قال فيه: عرضت على رسول الله ﷺ يوم "أحد" ، وأنا ابن أربع عشرة سنة فردني ، وعرضت عليه يوم "الخنق" وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني^(١) .

ولا خلاف بين الرايين في الحقيقة ، لأن مرادهم أنها كانت بعد مضي أربع سنوات كاملة وقبل استكمال السنة الخامسة ، وأن حديث ابن عمر يشير إلى أنه

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب غزوة الخندق ج ٦ ص ٣١٩ .

عرض على النبي ﷺ فى "أحد" وهو فى أول الرابعة عشرة ، وعرض يوم "الأحزاب" وهو فى نهاية الخامسة عشرة ويمكن فهم قول ابن عمر ؓ على أنه فى يوم الخندق بلغ سن القتال وتجاوز عمره الخامس عشرة ولو بأكثر من سنة .

ومن المعلوم أن غزوة بنى قريظة كانت بعد الخندق مباشرة ، والجمهور يرى أن الخندق كانت فى اليوم السابع من ذى القعدة فى السنة الخامسة فدل ذلك على أن الأحزاب كانت فى الخامسة كذلك .

ولا شك أن المشركين لما انصرفوا من "أحد" واعدوا الرسول بداراً فى العام القابل فذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى "بدر" بعد عام من "أحد" وجاء ، أبو سفيان مع قريش فى شعبان من العام الرابع ، إلا أنه رجع إلى مكة لجذب ذلك العام كما زعموا . وهذا يؤيد أن "الأحزاب" . لم تقع فى العام الرابع لأن كفار مكة بعد رجوعهم لضعفهم ما كان لهم أن يأتوا إلى المدينة بعد شهرين من رجوعهم وضعفهم الذى تعللوا به ^(١) .

- ثانياً -

تجمع الأحزاب

نشط يهود بنى النضير فى خطتهم للأخذ بثأرهم ، والقضاء على المسلمين حتى يعودوا إلى المدينة مرة أخرى ، فجمعوا الجموع ، وحرصوا الأحزاب حتى جاءوا جميعاً لحصار المدينة وقتال المسلمين فى وقت وقتوه ، ومكان بينوه ، وانضم إليهم المنافقون ويهود بنى قريظة .

داخل المدينة ، وبذلك وجد المسلمون أنفسهم محاطين بالأعداء من كل جانب .
يقول ابن كثير : إن كفار مكة لما سمعوا مقالة يهود بنى النضير سروا وفرحوا ، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس ، وعيلان ، فدعوهم

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٧٠ .

إلى حرب النبي ﷺ وأخبروهم أنهم يكونون معهم عليه ، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك ، واجتمعوا معهم فيه .

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب في أربعة آلاف ، وحمل اللواء عثمان ابن طلحة ، وقادوا معهم ثلاثمائة فارس ، وألفا وخمسمائة بعير ، والتقت بهم سليم بمر الظهران ، في سبعمائة مقاتل يقودهم سفيان بن عبد شمس السلمي . وخرجت غطفان في ألف يقودهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في بني فزارة .

وخرج الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري بألف من بني مرة . وخرج مسعر بن رخلة بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان فيمن تابعة من قومه من أشجع^(١) . ووصلت القبائل إلى مشارف المدينة ، وعسكرت بها ، فنزلت قريش ومن تبعهم من الأحابيش ، وبني كنانة ، وأهل تهامة بـ "مجمع الأسيال" المعروف بـ "وادي العقيق" ونزلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، والأعراب بـ "ذنب نقي" . ومجمع الأسيال وذنب نقي موقعان متجاوران عند "أحد"^(٢) وهما الموضعان اللذان نزل فيهما الأحزاب .

ولما عسكر الأحزاب حول المدينة قاطعهم بنو قريظة ، ودخلوا حصونهم ، وأغلقوها عليهم ... فخرج إليهم حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقدهم وعهدهم ، فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دون حيي فاستأذن عليه حيي ، فأبى أن يفتح له .

فناداه حيي وقال : **ويحك يا كعب ، افتح لي .**

قال له كعب : **ويحك يا حيي ، إنك امرؤ مشئوم ، وإني قد عاهدت محمداً َ فلست بناقض ما بيني وبينه ، فإنني لم أر منه إلا وفاء وصدقاً .**

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٧١ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٢ ، وذنب نقي بفتح الذال والنون في ذنب ، وفتح النون والقاف في نقي .

قال حيي : ويحك افتح لى أكلمك .

قال : ما أنا بفاعل .

قال : والله ما أغلقت دونى إلا خوفاً على جشيتك أن آكل معك منها ، فأحفظ الرجل بهذه المقالة ففتح له فقال : ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر ، ومجد الدنيا .

قال : وما ذاك .

قال حيي : جئتك بـ "قريش" على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بـ "مجمع الأسيال" من رومة ، ويغطفان على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بـ "ذنب نقي" إلى جانب أحد قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا المدينة حتى نستأصل محمداً ومن معه .

فقال كعب : جئتنى والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماؤه^(١) يرعد ويبرق وليس فيه شئ ، ويحك يا حيي فدعنى وما أنا عليه فإنى لم أرمن محمد إلا وفاء وصدقا فلم يزل حيي بكعب يناقشه ، ويحاوره ، ويمنيه حتى سمع له ، ونقض عهد رسول الله ﷺ ووافقه على محاربتة مع الأحزاب بعد أن أعطاه حيي عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه فى حصنه حتى يصيبه ما ينزل ببنى قريظة فنقض كعب بن أسد زعيم بنى قريظة العهد، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ^(٢) .

وأمر كعب بن أسد ، وبنو قريظة حيي بن أخطب أن يأخذ لهم من قريش وغطفان رهائن تكون عندهم لئلا ينالهم ضيم ، إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمداً على أن تكون الرهائن تسعين رجلاً من أشrafهم، فوافقهم حيي على ذلك فعند ذلك نقضوا العهد ومزقوا الصحيفة التى كان فيها العقد إلا بنى سعة أسد ، وأسيد ، وثعلبة فإنهم خرجوا إلى رسول الله ﷺ ، ولم ينقضوا عهدهم .

(١) الجهام هو السحاب ، والمعنى أنه سحاب لا ماء فيه .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٧٢ .

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين بعث الزبير بن العوام رضي الله عنه لينظر الأمر فعاد إلى رسول الله ﷺ ، وأخبره أن بنى قريظة يصلحون حصونهم ، وطرقهم^(١) فبعث النبي ﷺ سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد ، وأسيد بن حضير ، وعبد الله بن رواحة ، وخوات بن خبيب رضي الله عنهم ليؤكدوا للنبي ﷺ خبر القوم .

وقد قال لهم ﷺ : انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم ، فتتظروا أحق ما بلغنا عنهم فإن كان حقاً فالحنوا لى لحنا أعرفه ، ولا تقتوا فى أعضاء المسلمين ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم فدخلوا معهم حصنهم فدعاهم إلى المودعة وتجديد الحلف فقالوا : الآن وقد كسر محمد جناحنا ، وأخرجه من بيننا (يريدون بنى النضير) ونالوا من رسول الله ﷺ فجعل سعد بن عباد يشاتمهم فأغضبوه . فقال له سعد بن معاذ : إنا والله ما جئنا لهذا ، والذي بيننا أكبر من المشاتمة . ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال : إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يا بنى قريظة وأنا خائف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمر منه . فاستهزأوا به وردوا عليه رداً قبيحاً .

فقال : غير هذا القول كان أجمل بكم وأحسن ، ثم نالوا من رسول الله ﷺ ساخرين وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد !!! فشاتمهم سعد بن معاذ ، وشاتموه ، وكان رجلاً فيه حدة .

فقال له سعد بن عباد : دع عنك مشاتمهم ، الذى بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ، ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا : عضل ، والقارة أى غدروا هؤلاء بأصحاب الرجيع .

فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين^(٢) .

وتلك نبوءة من رسول الله ﷺ كان الواقع يشير لغيرها ، لأن الأحزاب جاءوا بأعداد كثيفة ، وأحاطوا بالمسلمين من كل جانب ، وجندوا جنودهم خارج المدينة ،

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الخندق ج ٦ ص ٣٢٧ .

(٢) سيرة النبى ج ٢ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، زاد المعاد ج ٣ ص ٢٧٢ .

وداخلها حتى سيطر الخوف على المسلمين ، وزلزلت نفوسهم وزاغت أبصارهم وظنوا أن الهزيمة بهم لاحقة ، فاتجهوا إلى الله بالدعاء ، والرجاء ليعينهم بأمره ، وينصرهم بقدرته ، والله على كل شيء قدير .

وظهر النفاق من بعض المنافقين ، فقال معتب بن بشر : كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر وأن أموالهما تنفق في سبيل الله وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط وقالوا ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾^(١) وقال رجال ممن كانوا مع معتب : ﴿ يَتَأَهَّلَ يَثْرَبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾^(٢)

وهمت بنو قريظة بالإغارة على المدينة ليلاً ، وأرسلوا إلى الأحزاب ليمدوهم بألف من قريش ، وألف من غطفان ، فبلغ ذلك المسلمين فعظم الخطب واشتد البلاء ثم كفهم الله تعالى عن ذلك لما بلغهم أن رسول الله ﷺ أرسل سلمة بن أسلم بن حريش الأشهلي في مائتي رجل ، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة يحرسون المدينة ، ويظهرون. التكبير . ومعهم خيل المسلمين وكان. المسلمون. يبيتون. بالخندق خائفين ، فإذا أصبحوا أمنوا .

وبعث رسول الله ﷺ خوات بن جبير لينظر غرة في بني قريظة ، لأن رسول الله ﷺ خاف على الذراري منهم ، لكن النوم غلب خوات ، فحملة يهودى فلما استيقظ خوات تمكن من قتل اليهودى وتمكن المسلمون من هزيمة عشرة من اليهود جاءوا يريدون المدينة فأدى ذلك إلى خوف اليهود من ورائهم .

واجتمعت جماعة منافقة من بني حارثة فبعثوا أوس بن قيطى إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن بيوتنا عورة ، وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا ، وليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا فنمنع ذراريها ونساعنا فأذن لهم رسول الله ﷺ وفرحوا بذلك ، وتهيأوا للانصراف .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ١٢ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ١٣ .

فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله : لا تأذن لهم إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلا صنعوا هكذا .

ثم أقبل سعد عليهم فقال : يا بني حارثة ، هذا لنا منكم أبداً ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا فردهم رسول الله ﷺ .

وقد بلغت حشود المشركين عند المخندق أكثر من عشرة آلاف مقاتل منهم أربعة آلاف من قريش ، والباقيون من بني سليم ، وأسد ، وفزارة ، وغطفان ومع هؤلاء كان بنو قريظة وأشجع^(١) .

- ثانياً -

استعداد المسلمين للأحزاب

نشط يهود بني النضير في التحريض على قتال المسلمين ، وتمكنوا من تجميع أحزاب عدة ، وتعاهدوا معهم على القتال ولم يكتفوا بالاتفاق مع القرشيين ، وغطفان ، وعرب نجد ، وغيرها ، وإنما ظلوا بيهود بني قريظة والمنافقين حتى ضموهم إليهم وكونوا بذلك قوة ضخمة تحيط بالمسلمين من ظاهر المدينة ، ومن داخلها ، بلغ عددها أكثر من عشرة آلاف من خيرة رجال القبائل وفرسانها ، يصور الله تعالى هذا الحال في قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ^(٢) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ^(٣) .

ولو تمكن هذا الجمع الغفير من مفاجأة المسلمين ولأخذهم على غرة لأتوا عليهم وللقضوا على المدينة قضاءً كلياً لكن معونة الله كانت مع عباده المؤمنين فألهمهم الحق ، ووفق رسوله ﷺ في تتبع أخبار أعدائه ، فبث العيون لمعرفة ما يعدون له ، ولذلك لما جاءت الأخبار بتجمع الأحزاب وتأليب القبائل

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ١١ ، ١٢ .

قرر رسول الله ﷺ وكبار الصحابة عدم الخروج من المدينة ، وتحصين كافة الطرق الموصلة إليها ، وسد جميع المسارات التي تمكن قاصدها من الدخول فيها ، ورأوا أن المدينة من الشرق والجنوب والغرب محصنة بحصون طبيعية ، تتكون من البساتين الكثيفة ، والموانع الطبيعية التي تحول دون إجراء قتال فيها بين قوات كثيرة ما عدا جانبها الشمالى فإنه منطقة مكشوفة واسعة يسهل القتال فيها والولوج منها إلى المدينة .

ولى رسول الله ﷺ عبد الله بن أم مكتوم على المدينة ، وبدأ يستعد لملاقاة الأحزاب فجعل شعار المسلمين "هم لا ينصرون" ثم أخذ رأى أصحابه العالمين بشأن الحرب والقتال فى تحصين الجانب الشمالى للمدينة ، وتنظيم المجاهدين ، والاستعداد للقتال والمواجهة فأشار عليه سلمان الفارسى ﷺ بحفر خندق عميق ، واسع ، يغطى المنطقة الشمالية ، المفتوحة بطولها ، الممتد من الحرة الشرقية إلى جبل سلع .

ولم يكن للعرب معرفة بالخندق فى حروبهم السابقة ، لأنهم تعودوا المواجهة المباشرة ، والتلاحم اللصيق كما حدث فى "بدر" و "أحد" ولذلك فوجئ الأحزاب حين مجيئهم بهذا الخندق الذى حفره المسلمون بعدما أخذوه من أساليب الفرس القتالية وكما ذكره لهم سلمان الفارسى ﷺ ولذلك قال المشركون حين رأوا الخندق : والله إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها^(١) .

رحب رسول الله ﷺ بفكرة الخندق . وأمر أصحابه بالحفر . وأشار لهم ﷺ بأهميته فعمل المسلمون فيه بجد ونشاط ورسول الله ﷺ يحثهم ، ويساعدهم فى عملهم هذا بعدما قسم الحفر على المهاجرين والأنصار ، وجعل لكل عشرة من الصحابة أربعين ذراعاً يحفرونها ويسوونها ، على الطريقة الفارسية ليكون الحفر قائماً ، عمودياً على بطن عريض مستقيم .

وقد بلغ طول الخندق خمسة آلاف متر فى عرض بلغ ستة أمتار ، وعمق بلغ خمسة أمتار ، وتم الحفر فى مدة تقل عن نصف شهر عمل خلالها المسلمون بكل جد ، واشتغل النبى ﷺ معهم ، ففى البخارى عن سهل بن سعد قال : كنا مع

(١) سيرة النبى ﷺ ج ٢ ص ٢٢٤ .

رسول الله ﷺ فى الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتافنا فقال رسول الله ﷺ :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة .: فاغفر للأنصار والمهاجرة^(١)
وعن أنس ؓ قال : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :
اللهم إن العيش عيش الآخرة .: فاغفر للأنصار والمهاجرة
فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً .: على الجهاد ما بقينا أبداً^(٢)
وعن البراء بن عازب قال : لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعتُه يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل من التراب ويقول :
اللهم لولا أنت ما اهتدينا .: ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا .: وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا .: وإن أرادوا فتنة أبينا
قال : ثم يمد بها صوته بآخرها^(٣) ويردها ، ويقول أبينا ، أبينا ، أبينا .
واستمر المسلمون يعملون بهذا النشاط ، وهم يقاسون من شدة الجوع الذى يفتت الأكباد ، ويقعد عن العمل .
يقول أنس ؓ : كان أهل الخندق يؤتون بملء كفى من الشعير ، فيصنع به إهالة سخنة توضع بين يدي القوم ، والقوم جياع ، وهى بشعة فى الحلق ، ولها ریح منتن .

ويقول أبو طلحة : شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ، فرفعنا أمامه بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين .

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الخندق ج ٦ ص ٣١٩ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الخندق ج ٦ ص ٣٢٠ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الخندق ج ٦ ص ٣٢٤ .

وأثناء حفر الخندق عرض الرسول ﷺ الغلمان فأجاز منهم عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب لبلوغهم خمسة عشر عاماً كاملة ... ورد من هم دون ذلك ، إلا إنه ﷺ سمح لهم بالاشتراك فى حفر الخندق ، وعادوا بعدها إلى المدينة .

واصل المسلمون عملهم فى الحفر ، فكانوا يعملون بالنهار ، ويذهبون للمبيت فى بيوتهم ليلاً حتى أتموا الحفر .

وعندما وصل الأحزاب قرب المدينة فوجئوا بالخندق يمنعهم من دخول المدينة ، فأخذوا يدورون حوله ليعثروا على نقطة ضعف ، أو مكان ضيق يجتازونه فلم يجدوه . فأسقط فى أيديهم فوقفوا. على شاطئ الخندق . . مكتفين بالحصار. بدل القتال .

- رابعاً -

سير القتال

عسكر الأحزاب فى الجهة الشمالية من الخندق ، ووقف المسلمون قبالتهم من الجهة الجنوبية ، وجعلوا ظهورهم إلى جبل "سلع" وبذلك تمكن المسلمون من منع الأحزاب من القفز على الخندق ، أو بناء قنطرة يعبرون فوقها إلى المدينة ، وقد بلغ عدد المسلمين أربعة آلاف مقاتل .

وفى أثناء ذلك أعلن بنو قريظة انضمامهم إلى معسكر الأحزاب ، وكانوا يسكنون فى ضواحي المدينة من الناحية الجنوبية ، وبإمكانهم التسلل إلى داخل المدينة . . لمعرفتهم السابقة بمسالكها وأهلها . . ولو قدر لليهود أن. ينجحوا. فى مهاجمة المدينة وإتيان المسلمين من ظهورهم لكانت ضربة أليمة للمسلمين .

لقد عمل اليهود على مهاجمة تجمع نساء المسلمين وأطفالهم فأرسلوا رجلاً منهم يحدد مكانهم ، ويعرف غرتهم ، ويكتشف الطريق إليهم ، لكن هذا اليهودى لم يتمكن من القيام بمهمته لأن. امرأة مسلمة رأته يستطلع المواضع التى يوجد فيها النساء والأطفال ففاجأته بضربة فوق رأسه بخشبة كانت معها فقتلته .

تقول : كانت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها كان حسان معنا فى الحصن مع النساء والصبيان فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم ، ولا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إذ أتانا آت فقلت : يا حسان إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود ، وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه ، فأنزل إليه فاقتله فاعتذر حسان لمرضه ، فاحتجرت .

ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحصن إليه فضربتة بالعمود حتى قتلتها^(١) . وعندما وجد يهود "بنى قريظة" أن دسيستهم لم تعد إليهم ظنوا وجود حراس ورجال مع النساء والأطفال فقبعوا فى بيوتهم ، وانصرفوا عن مهاجمة المدينة ، ولم يخرجوا إلى قتال ، واكتفوا بمد الأحزاب بالمؤن والطعام .

ولما علم المسلمون وهم عند الخندق ، بمقتل هذا اليهودى ملكهم الخوف على نسائهم وذرائعهم ، ووجدوا أنفسهم أمام عدو يواجهونه فى الخندق ، وآخر يأتيهم من خلف ظهورهم ، فزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر وتوقعوا هزيمة مفاجئة .

وهنا فكر رسول الله ﷺ فى هذا الموقف ، وأراد أن يضع له حلاً فبعث إلى عيينه بن حصن ، والحارث بن عوف المرى ، وهما قائدا غطفان ، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهم المصلح حتى كتبوا الكتاب . ولم تقع الشهادة . ولا عزيمة المصلح إلا المروضة .

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين (سعد بن معاذ ، وسعد ابن عباد) فذكر لهما ذلك ، واستشارهما فيه . فقالا : يا رسول الله هل هذا أمر أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم أنه شئ تصنعه لنا ؟؟

(١) سيرة النبى ج ٢ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

فقال ﷺ : بل شئ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم .
فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ، ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة ، إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟
مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فقال النبي ﷺ : أنت وذاك .

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال ليجهدوا علينا^(١) .

فأقام النبي ﷺ وأصحابه عند الخندق ، ولم يكن بينهم وبين عدوهم قتال إلا أن بعض رجال من قريش - منهم عمرو بن عبد ود بن أبى قيس أحد بنى عامر بن لوى ، وعكرمة بن أبى جهل ، وهبيرة بن أبى وهب المخزوميان ، وضرار بن الخطاب بن مرداس. أحد بنى محارب. بن فهر تحمسوا. للقتال. ، ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة فقالوا: تهيأوا يا بنى كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان اليوم ، ثم أقبلوا بخيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ثم تيمموا مكاناً من الخندق ضيقاً ، فضربوا خيلهم ، فاقتحمته فجالت بهم فى السبخة بين الخندق ، وسلع .
وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى سدوا الثغرة التى أقحم الفرسان منها خيلهم .

وأقبل الفرسان فى عزيمة وقوة وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم "بدر" حتى ثبتته الجراحة ، فلم يشهد "أحدا" فلما كان يوم "الخندق" خرج معلماً ليرى مكانه فلما خرج هو وخيله قال : من يبارز ؟

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٧٣ ، سيرة النبي ج ٢ ص ٢٢٢ .

فبرز له على بن طالب رضي الله عنه ، وقال له : يا عمرو إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .

قال : أجل .

قال له على : فإني أدعوك إلى الله ، وإلى رسول الله ، وإلى الإسلام .

قال : لا حاجة لي بذلك .

قال : فإني أدعوك إلى النزال .

قال له : لم يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك .

قال له علي : لكني والله أحب أن أقتلك .

فحمى عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعفره ، وضرب وجهه ، ثم أقبل على علي رضي الله عنه فتنازلا ، وتجاولا ، فقتله علي رضي الله عنه ، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت الخندق وولت هاربة إلى حيث يوجد الأحزاب^(١) .

ثم أقبل علي رضي الله عنه نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه يتهلل ، فقال له عمر بن الخطاب : هلا استلبته درعه فإنه ليس للعرب درع خير منا ؟

فقال علي رضي الله عنه : ضربته فاتقاني بسوءته ، فاستحييت من ابن عمي أن أسلبه ، وبعث المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشترون جيفته بعشرة آلاف ، فقال هو لكم لا نأكل ثمن الموتى ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ادفعوا إليهم جيفته ، فإنه خبيث الجيفة ، خبيث الدية ، ولم يقبل منهم شيئاً^(٢) .

تقول عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يختلف إلى ثلثة في الخندق يحرسها حتى إذا آذاه البرد جاءني فأدفأته في حضني ، فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلثة ، ويقول : ما أخشى أن يؤتى الناس إلا منها ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في حضني قد دفئ وهو يقول : ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلثة الليلة ، فسمع صوت السلاح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ فقال سعد بن أبي وقاص : سعد يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : عليك هذه الثلثة فاحرسها .

(١) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٤ .

تقول عائشة : فنام رسول الله ﷺ ، حتى سمعت غطيته .
وكان عباد بن بشر ، والزبير بن العوام ، على حرس رسول الله ﷺ .
وروى محمد بن عمر عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : كنت مع رسول
الله ﷺ فى الخندق ، وكنا فى قر شديد ، فإنى لأنظر إليه ليلة قام فصلى ما شاء
الله أن يصلى فى قبته ، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول : هذه خيل المشركين
تطيف بالخندق ، ثم نادى عباد بن بشر .
فقال عباد : لبيك !
قال : أمعك أحد ؟
قال : نعم ، أنا فى نفر من أصحابى نحرس قبتك .

قال ﷺ : خذ أصحابك فأطف بالخندق . فهذه خيل المشركين تطيف بكم
يطمعون أن يصيبوا منكم غرة ، اللهم فادفع عنا شرهم ، وانصرنا عليهم واغلبهم
فلا يغلبهم أحد غيرك .

فخرج عباد فى أصحابه فإذا هو بأبى سفيان بن حرب فى خيل المشركين
يطوفون بمضيق من الخندق ، وقد نذر بهم المسلمون فرموهم بالحجارة والنبل حتى
أدلقهم المسلمون بالرمل ، فانكشفوا منهزمين إلى منازلهم .

قال عباد : ورجعت إلى رسول الله ﷺ ، فوجدته يصلى فأخبرته .
قالت أم سلمة : يرحم الله عباد بن بشر ، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله
ﷺ لقبته يحرسها أبداً .

وكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدوا أبو سفيان بن حرب فى أصحابه
يوماً ، ويغدو خالد بن الوليد يوماً : ويغدو عمرو بن العاص يوماً ، ويغدو هبيرة بن
أبى وهب يوماً ، ويغدو عكرمة بن أبى جهل يوماً ، ويغدو ضرار بن الخطاب يوماً ،
حتى عظم البلاء ، وخاف الناس خوفاً شديداً ، وكان معهم رماة يقدمونهم إذا غدوا ،
متفرقين أو مجتمعين بين أيديهم : وهم حبان بن العرقعة ، وأبو أسامة الجُشمى فى
آخرين ، فتناوشوا يوماً بالنبل ساعة ، وهم جميعاً فى وجه واحد وجاه قبة رسول الله ﷺ
ورسول الله ﷺ قائم بسلاحه على فرسه ، فرمى حبان بن العرقعة سعد بن معاذ بسهم
فأصاب أكحله ، وقال : خذها وأنا ابن القرقعة .

فقال رسول الله ﷺ : عرق الله وجهه في النار .

ثم إن الأحزاب عبأوا قوتهم ، واشتدوا في القتال بدءاً من السحر إلى هوى من الليل حتى شغل النبي والمسلمون معه عن صلاة الظهر ، والعصر ، ولم يتمكنوا من صلاتهما إلا بعد أن كشف الله الأحزاب^(١) .

واستمر الحصار مدة طويلة قاربت شهراً فتأثر جيش المشركين ، وخارت معنوياته وأصيب بالألم من الوضع الذي وجد فيه نفسه .

فهو لم يفعل شيئاً طوال هذه المدة ، ولم يحقق نتيجة تذكر وهو يعيش في جو شديد البرودة ، وبدأت المؤتة وطالت الحرب ، ونشأ وضع لم يستعد الكفار له لأنهم جاءوا للقتال يوماً أو بعض يوم ، وليس من خبرتهم التعامل من وراء الخندق والبقاء في مكان واحد مدة طويلة .

وبدأت علاقات خيل وإبل القرشيين تنفد فاستعانوا باليهود فأعانوهم بما طلبوا غير أن الله جعلها للمسلمين ، ذلك أن أبا سفيان قال: لحبي بن أخطب : قد نفدت علاقاتنا فهل عندكم من علف ؟

فقال: حيي : نعم مالنا مالك فاصنع ما رأيت ، فأرسلوا عشرين بعيراً ، فحملوها شعيراً ، وتمراً ، وتبناً ، وخرجوا بها إلى قريش حتى إذا كانوا بـ "صَفْنَة"^(٢) وهم يريدون أن يسلكوا "العقيق" قابلوا جمعاً من بني عمرو بن عوف وهم عشرون رجلاً ، فيهم أبو لبابة بن عبد المنذر ، وعويم بن ساعدة ، ومعن بن عدي ، خرجوا لميت مات منهم في حصنهم ليدفنوه فناهضوا الحمولة وقتلهم القرشيون ساعة وكان فيهم ضرار بن الخطاب فمنع الحمولة ثم جرح فغلبهم المسلمون وأخذوا الإبل بحمولتها ، وانصرفوا بها يقودونها إلى رسول الله ﷺ بعدما دفنوا ميتهم ، فكان أهل الخندق يأكلون منها ، فتوسعوا بذلك وأكلوه حتى نفذ ، ونحروا من تلك الإبل أبخرة في الخندق ، وبقي منها ما بقي حتى دخلوا به المدينة . فلما رجع ضرار بن الخطاب إلى القرشين أخبرهم الخبر .

(١) المغازي ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٢) صفنه بفتح الصاد وسكون الفاء .

فقال أبو سفيان : إن حياً لمشئوم ، ما أعلمه إلا قطع بنا ، ما نجد ما نتحمل عليه إذا رجعنا^(١) .

ثم إن الله عز وجل . وله الحمد . صنع أمراً من عنده خذل به العدو ، وهزم جموعهم ، وفل قوتهم ، فكان مما هياً من ذلك أن رجلاً من غطفان يقال له : "نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي ؓ" جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني ما شئت . فقال رسول الله ﷺ : "إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة" .

فذهب من فوره إلى بنى قريظة . وكان عشيراً لهم في الجاهلية . فدخل عليهم وقال : قد عرفتم ودي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا : صدقت .

قال : فإن قريشاً ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم ، وأبناؤكم ، ونسأؤكم لن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونسأؤهم بغيره ، فإن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا لحقوا ببلادهم ، وتركوكم ومحمداً فينتقم منكم .

قالوا : فما العمل يا نعيم ؟

قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن .

قالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش ، وقال لهم : تعلمون ودي لكم ونصحي لكم ؟

قالوا : نعم .

قال : إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه وإنهم قد أرسلوه ليأخذوا منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يوالونه عليكم ، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ، ثم ذهب إلى غطفان ، فقال لهم مثل ذلك .

(١) المغازي ج ٢ ص ٤٧٠ .

فلما كانت ليلة سبت من شوال بعث الأحزاب إلى اليهود وقالوا لهم : إنا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً فأرسل إليهم اليهود أن اليوم هو يوم سبت ، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع هذا فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن ، فلما جاءتهم رسلهم بذلك ، قالت قريش وغطفان : صدقكم والله نعيم ، فبعثوا إلى اليهود : إنا والله لا نرسل إليكم أحداً ، فأخرجوا معنا حتى نناجز محمداً^(١) .

قالت قريظة : صدقكم والله نعيم .

فتخاذل الفريقان ، ودبت الفرقة بين صفوفهم ، وخارت عزائمهم ، وسرى بينهم التخاذل ، ثم أرسل الله عليهم جنداً من الريح ، فجعلت تقوض خيامهم ، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها ، ولا طنباً إلا قلعته ، كما أرسل الله سبحانه وتعالى جنداً من الملائكة يزلزلونهم ، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف فلم يقر لهم قرار ، وشعروا بالهزيمة ، وبدأوا في الرحيل إلى مكة^(٢) .

يروى ابن كثير صورة الساعات الأخيرة للمشركين عند الخندق فيقول : ذكر حذيفة أحوال المشركين مع رسول الله ﷺ يوم الخندق فقال جلساؤه : أما والله لو كنا شهدنا ذلك لكننا فعلنا ، وفعلنا .

فقال حذيفة : لا تتمنوا ذلك ، لقد رايتنا ليلة الأحزاب ، ونحن صافون قعود ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا ، نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ، ولا أشد ريحاً منها في أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه فيها .

فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ، ويقولون : إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، وحين يأذن لهم يتسللون ويرجعون .

وأخذ رسول الله ﷺ يستقبلنا رجلاً رجلاً ، حتى أتى على وما على جنة من العدو ولا من البرد ، إلا مرط لأمرأتى ما يجاوز ركبتى فأتانى وأنا جاث على ركبتى .

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٢) سيرة النبي ج ٢ ص ٢٣١ .

فقال ﷺ : من هذا ؟

فقلت : حذيفة !!

فقال : حذيفة .

فتقاصرت للأرض فقلت : بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم .

فقال ﷺ : إنه كائن في القوم خبر فأتى بخبر القوم ، وأنا من أشد الناس فزعاً وأشدهم قرأً فخرجت .

فقال رسول الله ﷺ : اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته .

يقول حذيفة : فوالله ما خلق الله فزعاً ، ولا قرأً في جوفى ، إلا خرج من جوفى ، فلم أجد فيه شيئاً .

فلما وليت قال ﷺ : يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني .

فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم ، فنظرت ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم ، يشير بيديه على النار ، ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل ... الرحيل .

ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهماً من كنانتي ، أبيض الريش فأضعه في كبد قوسى لأرمي به في ضوء النار ، فذكرت . قول رسول الله ﷺ لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني فأمسكت ، ورددت سهمي إلى كنانتي .

ثم إنى شجعت نفسى حتى دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون : يا آل عامر الرحيل ... الرحيل ، لا مقام لكم .

وإذا الريح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً ، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم ، وفرشهم ، الريح تضرب بها .

ثم إنى خرجت نحو رسول الله ﷺ ، فلما انتصفت بى الطريق ، أو نحو من ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً ، أو نحو ذلك معتمين ، فقالوا : أخبر صاحبك أن الله قد كفاه ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، وهو مشتمل فى شملة يصلى فوالله ما عدا أن رجعت راجعنى القر وجعلت أقرقف ، فأومأ إلى رسول الله ﷺ بيده وهو يصلى ،

فدنوت منه فأسبل على شملته ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم وأخبرته أنى تركتهم يرحلون^(١) .

فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظهم ، لم ينالوا خيراً وكفاه الله قتالهم ، فصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ولما رحل المشركون. رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة . . وكان رجوعه ﷺ وللمسلمون. معه من الخندق. فى يوم. الأربعاء. السابع من ذى القعدة. من العام الخامس الهجرى ، وسر المسلمون برجعهم منتصرين ، وأسرعوا إلى المدينة هرباً من القر والجوع ، وكره رسول الله ﷺ هذه السرعة حتى لا يظن المنافقون والأحزاب بهم ضعفاً .

وقد استشهد من المسلمين ستة شهداء وهم: سعد بن معاذ ، وأنس بن أوس بن عتيك وعبد الله بن سهل ، والطفيل بن النعمان ، وثعلبة بن عتبة وكعب بن زيد النجارى رضى الله عنهم ، ورحمهم وقتل من المشركين ثلاثة وهم: منبه بن عثمان ، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة ، وعمر بن عبدود ، ولم يشترك المنافقون فى قتال ، لأنهم كانوا بادين فى الأعراب خارج المدينة^(٢) .

إن معركة الأحزاب كانت هجمة شرسة من كافة مشركى الجزيرة العربية ، وعلى رأسهم القرشيون الذين جاءوا إلى المدينة ، ومعهم خبرة الغزوات السابقة ، فكثروا العدد ، وقصدوا اقتحام المدينة ، والقضاء على أهلها ، وإعادة اليهود إليها مرة أخرى .

لكن الله تعالى وفق المسلمين بحفر الخندق ، ووضع النساء والأطفال فى أماكن حصينة وسط المدينة فانقلب الأمر ، ولم يحقق المشركون شيئاً من أهدافهم بل إنهم شعروا بضعفهم وتأكدوا من أن رسول الله ﷺ والمسلمين معه فى رعاية الله

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١١٤ ، ١١٥ ، وانظر الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى ج ٢١ ص ٨٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١١٥ ، ١١٦ ، وقد عاش سعد بن معاذ بجراحة حتى انتهى المسلمون من بنى قريظة .

تعالى، بعدما عجزوا بهذا الجمع الذى لن يتمكنوا من جمعه مرة أخرى، وقد رأوا كيف أيد الله سبحانه وتعالى رسول الله ﷺ بما لم يتوقعوه من ريح عاتية ، وأعاصير مدمرة ، وجدت حول الخندق فقط وملائكة رأوا آثارهم .
ولذلك قال النبى ﷺ بعد انصراف الأحزاب "الآن نغزوهم، ولا يغرؤنا، نحن نسير إليهم" (١) .

وقد كتب أبو سفيان كتاباً أرسله إلى رسول الله ﷺ جاء فيه "باسمك اللهم فإنى أخلف باللات والعزى ، لقد سرت إليك فى جمعنا ، وأنا نريد ألا نعود أبداً حتى نستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمك هذا ؟ فإن نرجع عنكم" فلكم منا يوم كيوم أحد" (٢) .

فلما قرأها أبى بن كعب على رسول الله ﷺ فى قبته كتب إليه رسول الله ﷺ "من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب ، أما بعد ، فقدima غرك بالله الغرور ، أما ما ذكرت إنك سرت إلينا فى جمعكم ، وأنت لا تريد أن تعود حتى تسأصلنا ، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك : من علمك الذى صنعنا من الخندق ؟ فإن الله ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى ، وأساف ، ونائلة ، وهبل ، حتى أذكرك ذلك" (٣) .

ـ خامساً ـ

الآيات الربانية الخارقة فى يوم "الخندق"

أحاط الله المسلمين بالعون ، ونصرهم على عدوهم ، وأكرمهم فى وقت شدتهم وعاشوا هذه المعونة فى أعمال خارقة للعادة أتتهم من قبل الله تعالى ومنها :

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب الخندق ج ٦ ص ٣٢٦ .

(٢) المغازى ج ٢ ص ٤٩٢ .

(٣) وفاء الوفاء ج ٢ ص ٣٤٤ ، المغازى ج ٢ ص ٤٩٣ .

١. ظهور عوامل النصر :

لما اشتد الأمر بالمسلمين كانت عناية الله بهم ، فهزم عدوهم بأمر خارقة حيث جاءت العواصف ، والسيول ، والرعب وملائكة الله تعالى ، وانقسام الأحزاب على أنفسهم وتلك كلها أهم عوامل انتصار المسلمين على نحو ما سبق ذكره .

٢. كسر الكدية الصخرية :

لما بدأ المسلمون فى حفر الخندق وواجهتهم بعض الصخور الصلبة ، حاولوا تفتيتها مدة ثلاثة أيام فعجزوا ، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وشكوا إليه الأمر فكسرها من ضربة واحدة .

يروى البخارى بسنده عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال : أتيت جابراً ﷺ فقال : "إنا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كدية شديدة ، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق .

فقال ﷺ : أنا نازل ، ثم قام ، وبطنه معسوب بحجر ، فأخذ النبي ﷺ المعول فضربه فعادت الكدية كثيباً أهيل ، أو أهيم^(١) .

يقول ابن إسحاق : بلغنى أن جابر بن عبد الله كان يحدث : أنه اشتدت عليهم فى بعض الخندق كدية ، فشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فدعا بإناء من ماء ، فتقل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فيقول من حضرها : فوالذى بعثه بالحق نبياً لانهالت حتى عادت كالكتيب لا ترد فأساً ، ولا مسحاة^(٢) .

٣. تكثير الطعام :

عاش الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم عند الخندق بلا طعام مدة ثلاثة أيام فأصابهم الجوع ، فرزقهم الله تعالى من حيث لا يتوقعون ، يروى البخارى بسنده أن جابر بن عبد الله قال .: لما حفر الخندق ، رأيت بالنبي ﷺ خمصاً شديداً

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب غزوة الأحزاب ج ٦ ص ٣٢٠ .

(٢) سيرة النبي ﷺ ج ٢ ص ٢١٧ .

فانكفأت إلى امرأتى ، فقلت : هل عندك شئ ؟ فإنى رأيت برسول الله ﷺ ، خمصاً شديداً . فأخرجت لى جراباً فيه صاع من شعير . ولنا بهيمة داجن فذبحتها ، وطحنت الشعير ، ففرغت إلى فراغى ، وقطعتها فى برمتها ، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت : لا تفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه ، فجنته فساررته ، فقلت : يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعاً من شعير ، كان عندنا ، فتعال أنت ، ونفر معك . فصاح النبى ﷺ فقال : يا أهل الخندق ، إن جابراً قد صنع سوءاً فحى هلاً بكم .

فقال رسول الله ﷺ : لا تنزلن برمتكم ، ولا تخبزن عجينكم حتى أجي فجئت وجاء رسول الله ﷺ ، يقدم الناس ، حتى جئت امرأتى فقالت : بك وبك . فقلت : قد فعلت الذى قلت ، فأخرجت له عجينا ، فبصق فيه ﷺ وبارك ثم عمد إلى برمتنا ، فبصق وبارك ، ثم قال : ادع خابزة فلتخبز معى ، واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها ، وهم ألف ، فأقسم بالله ، لقد أكلوا ، حتى تركوه ، وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى ، وإن عجينا ليخبز كما هو^(١) .

ويروى ابن إسحاق بسنده عن أخت النعمان بن بشير قالت : دعتنى أمى عمرة بنت رواحة ، فأعطتنى حفنه من تمر فى ثوبى ، ثم قالت : أى بنية ، إذهبي إلى أبيك ، وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما .

قالت : فأخذتها ، فانطلقت بها ، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبى ، وخالى .

فقال ﷺ : تعالى يا بنية ، ما هذا معك ؟

فقالت : يا رسول الله ، هذا تمر ، بعثتنى به أمى إلى أبى بشير بن سعد وخالى عبد الله ابن رواحة يتغديانه .

قال ﷺ : هاتيه .

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب غزوة الخندق ج ٦ ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

قالت : فصبته في كفى رسول الله ﷺ فما ملأها ، ثم أمر بثوب فبسطه ثم دحا بالتمر عليه ، فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده : اصرخ في أهل الخندق : أن هلم إلى الغداء ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه ليسقط من أطراف الثوب^(١) .
٤. إظهار غيب المستقبل :

تنبأ النبي ﷺ في يوم "الخندق" بانتشار الإسلام في العالم ، يقول البراء بن عازب : لما كان يوم "الخندق" عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فشكونا ذلك لرسول الله ﷺ ، فجاء فوضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة وأخذ المعول فقال ﷺ : بسم الله ثم ضرب ضربة كسرت ثلث الصخرة وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة من مكاني هذا ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر ، فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر صنعاء من مكاني هذا^(٢) .

ـ سادساً ـ

حركة الدعوة خلال أيام "الخندق"

تعتبر غزوة " الخندق " اختباراً قاسياً للمسلمين في المدينة ، وقد وفقهم الله تعالى للصمود في هذا الامتحان الشديد ، فساهموا جميعاً في حفر الخندق وقد شجعهم على النشاط والعمل ، مشاركة الرسول ﷺ لهم في المحفر ، وقد قسم الرسول ﷺ العمل على أصحابه بالتساوي ، ولم يميز بعضاً منهم بمزايا وجمع ﷺ أمهات المؤمنين مع سائر المسلمات في المساكن الحصينة التي اختارها لهن ، ولأطفالهن وسط المدينة .

(١) سيرة النبي ﷺ ج ٢ ص ٢١٨ .

(٢) الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد الشيباني . باب ما جاء في غزوة الخندق ج ٢١ ص ٧٨ .

وحرص رسول الله ﷺ على أن يلزم المسلمون بالعمل وفق الخطة الموضوعة ، بحيث لا يترك العمل أحد من المسلمين إلا بإذن رسول الله ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ يتعامل مع المسلمين بحكمة ومودة ، إذ تراه ﷺ حين اختلف المهاجرون والأنصار في معية سلمان الفارسي أثناء الحفر ، فلقد رغب كل من المهاجرين ، والأنصار أن يكون معهم ، وقالوا : إنه منا قال لهم ﷺ : "سلمان منا آل البيت"^(١) ووضعه مع مجموعة من الصحابة ضمت ثلاثاً من المهاجرين ، وستة من الأنصار. على أن يكون سلمان. ﷺ أمير المجموعة ،. فرضى بذلك الجميع .

وكان ﷺ يتعامل برفق ، ويحافظ على إرضاء نفوس المؤمنين فإنه ﷺ لما رد الغلمان في بداية حفر الخندق رضى منهم أن يشاركوا في الحفر تطييباً لخواطرهم ، وحفاظاً عليهم .

وكان ﷺ رحيماً بأصحابه ،. إذ نراه لما اشتد البرد. كان يضم بعضهم إليه ويعطيه مرطاً يلبسه ، بعد أن أخذه من بعض نسائه ﷺ ، وكان يداعب أصحابه ، ويتلطف معهم في الحديث.

يروى مسلم بسنده أن رجلاً قابل حذيفة فقال له : لو أدركت رسول الله ﷺ لقاتلت معه ، وأبليت .

فقال. حذيفة :. إنا كنا تفعل ذلك لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة ، وقر .

فقال. رسول الله ﷺ : ألا رجل يأتيني بخبر القوم ، جعله الله معي يوم القيامة ، فسكتنا فلم يجبه منا أحد .

ثم قال ﷺ : ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة، فسكتنا فلم يجبه أحد .

فقال ﷺ : قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم ، ولا تدعهم على ، فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي ، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام ، حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره النار ، فوضعت سهماً في كبد القوس فأردت أن

(١) المغازي ج ٢ ص ٤٤٦ .

أرميه ، فذكرت قول رسول الله ﷺ ولا تذعرهم على ، ولو رميته لأصبتَه فرجعت ، وأنا أمشي في مثل الحمام ، فلما أتيتَه من فأخبرته بخبر القوم وفرغت قرت فألبسني من شدة البردِ فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها ، فلم أزل نائماً حتى أصبحت قال : قم يا نومان^(١) .

فلم يفزعه ﷺ وإنما كناه وسرى عنه ، وغطاه من البرد حتى استيقظ . ونظراً لاشتغال المسلمين بالمعركة أذن لهم ﷺ بالصلاة حيث يعسكرون ولذلك تأسست سبعة مساجد على الخندق ، نسبت إلى من كان يوم الصحابة بها ويقودهم في موقعه مثل مسجد أبي بكر ، ومسجد عمر ، ومسجد عثمان ، ومسجد على ، ﷺ وبذلك استمرت حراسة الخندق ليلاً ونهاراً ، رغم البرودة الشديدة وأذن لهم ﷺ بتعدد الجماعات مراعاة للحال وبخاصة أن صلاة الخوف لم تكن شرعت بعد .

وكان ﷺ يمر على المسلمين في مواقعهم ليشرف عليهم ويوجههم إلى ما يجب أن يكون .

وقد تعلم المسلمون من فنون الحرب أهمية اكتشاف الأساليب المناسبة للتعامل مع العدو عدداً ، وعدة ... إذ لولا الخندق الذي حفره المسلمون لأصيبوا بهزيمة منكرة ، ولا مانع من اكتساب خبرة الآخرين المفيدة للإسلام وللمسلمين . واهتم رسول الله ﷺ بتضليل أعدائه وخداعهم وفك وحدتهم ونشر الشائعات بين صفوفهم ، وذلك من أهم طرق هزيمة العدو وانكساره .

وكان ﷺ يعمل على المحافظة على روح القتال ، وحب الشهادة بين المسلمين . وكان ﷺ يبشر أصحابه بالنصر ، وينبئهم بأخبار الوحي ، وكان يمر على أصحابه يطمئن عليهم ، ويجلب الطعام والمؤونة لهم ، ويطمئنهم على نسائهم ، وذراريهم .

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد الشيباني . باب ما جاء في استجابة الله دعاء نبيه ج ٢١ ص ٨٠ .

وكان ﷺ يناجى ربه ، ويكثر من الدعاء على المشركين ، ومن دعائه ﷺ على الأحزاب فى يوم الخندق ما رواه البخارى فى صحيحه : عن إسماعيل بن أبى خالد أنه قال : سمعت عبد الله بن أبى أوفى ؓ يقول : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب ، فقال : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم^(١) .

وعن عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من الغزو ، أو الحج ، أو العمرة ، يبدأ فيكبر ثلاث مرار ، ثم يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، آييون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده^(٢) . دعا النبى ﷺ على المشركين لأنهم شغلوا المسلمين عن صلاة العصر ، وهى الصلاة الوسطى فعن على بن أبى طالب ؓ أن رسول الله ﷺ قال- يوم الخندق : "مأ الله عليهم بيوتهم ، وقبورهم ناراً ، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس^(٣) .

ولم يكن اهتمام رسول الله ﷺ بأصحابه مقتصرًا على ميدان المعركة عند الخندق ، بل رأيناه ﷺ يهتم بنساء المسلمين وذرائعهم ، فلقد كلف فريقاً بحراستهم ، وللدفاع عنهم ، . وكان دائم الحذر من بنى قريظة :. حينما خافهم على نساء المسلمين وأبنائهم .

وكان ﷺ كثير المشاورة لأصحابه فلقد أخذ برأى سلمان فى حفر الخندق وحينما فكر فى إعطاء بنى غطفان ثلث ثمار المدينة على أن يتركوا قريشاً ويرجعوا أخذ برأى الأنصار ، ونزل على رأيهم حين رفضوا ما اتفق عليه رسول الله ﷺ .

وخلال الغزوة تعلم المسلمون أحكام الصلاة إذا فات وقتها لعذر ، فلقد أمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن وأقام للظهر ، وأقام بعد ذلك لكل صلاة إقامة ، فصلى

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الخندق ج ٦ ص ٣٢٧ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب غزوة الخندق ج ٦ ص ٣٢٨ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب غزوة الخندق ج ٦ ص ٣٢٦ .

كل صلاة كأحسن ما كان يصلّيها في وقتها وبذلك كان للفوائت آذان واحد ، وإقامة لكل صلاة .

وهكذا عاش رسول الله ﷺ أيام الأحزاب ، قائداً للمسلمين ، وداعياً إلى الله تعالى ، ومعلماً حكيماً ، ومرجعاً في الحكم والتشريع ، وكان قدوة صالحة للمسلمين كما هو شأنه ﷺ إلى يوم القيامة .

المبحث التاسع

أحداث ما بين "الأحزاب" و "الحديبية"

حاول أعداء الإسلام القضاء عليه لتستمر وضعيتهم الظالمة القائمة على استعباد الناس ، واستغلال الضعفاء ، والاستغراق فى شهواتهم المادية رغم ما فيها من جور وعدوان .

وقد تجلت هذه المحاولات فى التضيق على المسلمين قبل الهجرة ، والإصرار على القتال فى "بدر" ، والمجئ إلى المدينة لمقاتلة المسلمين فى "أحد" و "الأحزاب" لقد اعتمدت محاولات أعداء الإسلام على إشاعة الأكاذيب ، وتضليل العامة ، وتوجيه القبائل لكراهية الإسلام ، والعمل على القضاء على المسلمين وصدهم عن دينهم الذى يعيشون به وله

ولا يمكن لعاقل أن يسلم بأحقية هذه المحاولات الظالمة ، لأن الإسلام فى جوهره دين يخلص الناس من العبودية لغير الله ، ويربطهم بقيم نبيلة ، وأخلاق عالية ، ويحدد الحقوق والواجبات لكل مخلوق ، ويضع منهجاً ينظم كافة جوانب الحياة ، ويصون الكرامة الإنسانية للبشر أجمعين .

إن الإسلام دين يحقق السعادة ، وينشر السلام ، ويحفظ النفس ، والعقل ، والولد ، والمال ، والعقيدة ... ولذلك فهو دين يتوافق مع العقل السوى ، والمصلحة الحقيقة لسائر الأحياء ، ولكافة جوانب الحياة ... وكل من يتدبر تعاليم الإسلام ينكر أى عدوان فيها ولا يصدق أى كلام يقال عن الإسلام مهما تزين ، وتزخرف . رأى المسلمون محاولات الأعداء ضد دينهم فرفضوها ، وكان الله معهم فشرع

الجهاد على مراحل متعددة ، ليتفق التشريع مع كل جديد يحتاج إليه .

لقد بدأ تشريع الجهاد بالإذن فيه بعد الهجرة ثم كان الأمر بقتال من يعتدى عند "أحد" وأخيراً كان الأمر بالقتال العام بعد الخندق لأن الأحزاب حين تجمعوا ، وأتوا من كل صوب وحذب ، كانوا يقصدون القضاء على المسلمين والإسلام ، وبهذا بلغوا قمة التحدى ، ومثلوا غاية العدوان فى استهتار واضح بالقوة الإسلامية .

ولما تجمع الأحزاب حول المدينة بانت حقيقة اليهود ، والمنافقين ، وقبائل الجزيرة جميعاً وتأكد المسلمون أن وجود اليهود ، والمنافقين فى المدينة ، أو فى ضواحيها ، يمثل خطورة بالغة لأنهم على علم بأحوال المسلمين وأخبارهم ، ويمكنهم مفاجأة المسلمين ، والغدر بهم فى أى وقت ، كما أن لهم صلات بأهل مكة وبالقبائل العربية يستغلونها فى إشاعة الأكاذيب وصرف الناس عن التفكير فى حقيقة الإسلام .

إن المسلمين عباد الله ، وهبوا أنفسهم للحق ، وجعلوا أرواحهم فى خدمة دينهم ، ولذلك عز عليهم تصرفات أعدائهم ، وصددهم الناس عن دين الله تعالى ... فلما فرض القتال العام بعد الأحزاب أخذ رسول الله ﷺ ، فى توجيه أصحابه للتصدى للطغاة المعتدين لأن إمهالهم يعطيهم فرصة للإعداد ، والتجهيز ، وإعادة مهاجمة المدينة مرة أخرى .

لقد صدق الله وعده للمسلمين فى يوم الأحزاب ، فأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأرسل عليهم ريحاً ، وجنوداً من الملائكة ، وأدخل الرعب فى قلوبهم حتى تمكن المسلمون منهم ففروا هاربين كل إلى موطنه الذى جاء منه .

وقد فهم الأحزاب ، وكل من والاهم نتيجة معركة الخندق على غير وجهها الصحيح الأمر الذى أدى بهم إلى اتخاذ مواقف خاطئة ، ذلك أنهم ربطوا هزيمة الأحزاب بأسباب بعيدة عن الحقيقة ، حيث أرجعوها إلى تغير المناخ ، وهبوب الرياح ، وشدة الأعاصير ، وتصوروا أن ما حدث أمر طبيعى رأوا مثله فى فيافى الجزيرة كثيراً ، وليس بلزم أن يتكرر مرة أخرى فى أى لقاء لهم مع المسلمين ... وفسروا فى انقسام الأحزاب على أنفسهم ، وشك كل فريق فى غيره بأنه بسبب طول مقامهم عند الخندق ، عندما تصور .

وأدى بهم هذا الفهم إلى استمرار استهانتهم بالمسلمين ، فتصوروهم ضعافاً لا يمكنهم الخروج من المدينة ، ولذلك استمروا فى إعداد العدة ، وتجهيز السلاح لمهاجمة المسلمين ، كل قبيلة على حدة . مبتعدين عن تكتل القبائل . وتجمع الأحزاب مرة أخرى ، بعدما أصيبوا بهذا التجمع عند الخندق .

وحقيقة الواقع تؤكد هذا التحليل ، لأن ما حدث قدر إلهى نصر الله به عباده المؤمنين ، وهو سبحانه قادر على إعادته وغيره لنصر المسلمين إن نصرنا الله ، وأخلصوا له فى الجهاد والنية وما تفكك الأحزاب ، وإحداث الوقعة بينهم إلا قدر إلهى قضى به ليتم نصره ، ويؤيد جنده .

وكما تأمل المشركون فى نتائج معركة الخندق تأمل المسلمون فيها أيضاً
وأدركوا أن الله معهم ، وأن جند الله لا ينحسرون فى صورة ، أو عدد ، أو جهة ، أو فى شئ ، لأن الله جنود السماوات والأرض ، وما يعلم جنود ربك إلا هو .
وصل المسلمون إلى نتيجة هى الحق حيث رأوا أن القبائل لن تسكت عن مهاجمة المسلمين ، وستحاول كل قبيلة أن تفعل كل ما تقدر عليه ، وبخاصة أن المسلمين حوصروا ولم يفعلوا شيئاً ، ولولا الخندق لقضى الكفار عليهم .
لكل هذا حرص رسول الله على تتبع إخبار القبائل ، فأرسل عيونهم فى الجزيرة العربية كلها ، فعادوا إليه بتأكيد ما توقعه المسلمون ، ولذلك كانت الغزوات والسرايا إلى هذه القبائل منعاً لغدرهم ، وحتى لا يتمكنوا من الهجوم على المدينة مرة أخرى وكان الوحي الكريم مع رسول الله ﷺ يوجهه إلى ما يجب عمله . وبذلك تحددت معالم الحركة . ولتضح السبل المؤدية لحماية الإسلام وللمسلمين ، وشرعها الوحي للناس لتبقى درساً عملياً ، وخطة واقعية ، أمام المسلمين إلى يوم القيامة .

لقد كان من الضرورى مواجهة المعادوات التى بثها المشركون بين القبائل العربية والإسراع فى منعهم من الإعداد والهجوم ، ولذلك تعددت الغزوات ، وكثرت السرايا بعد الأحزاب ، ووصلت إلى الأماكن البعيدة فى "تجد" وفى "الشام" .
وقام المسلمون بواجبهم الذى كلفوا به . وقادهم رسول الله ﷺ فى غزواته وأعانهم فى سراياه . وبذلك لم يتركوا ظالماً يعتدى . ولم يدعو طاغوتاً يستبد ويفترى ، وصانوا حرية الدعوة وحرية الناس وكانوا بقيادة رسول الله ﷺ حركة إيجابية دائمة بالإسلام ، وسيفاً مسلطاً على رقاب كل معتد أثيم .
إن العدل بالمسلمين صار له رجاله ، والدعوة إلى الله وجدت فى الجهاد خير من يحميها ، وأصبح الطريق المستقيم صافياً ، نقياً .

لقد تعددت الأحداث ، وتنوعت بعد الأحزاب ، واستمرت حتى صلح الحديبية
وجرت فى مسارها المشروع الذى قدره الله لها ، وكما أمر به رسول الله ﷺ .
وفى هذا المبحث سأتناول أهم هذه الأحداث ... وذلك فيما يلى :

- أولاً -

غزوة "بنى قريظة"

نقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ فى وقت عصيب ، وانضموا إلى
الأحزاب ، وأخذوا فى إمدادهم بالمؤن والطعام وعلف الدواب ، وعاش المسلمون
بسببهم لحظات. عصبية . خافوا. خلالها على أطفالهم ونسائهم فلما أتم الله
نصره ، ورجع الأحزاب إلى ديارهم ، عاد المسلمون متعبين إلى دورهم يريدون أن
الدفء من القر ، والشبع من الجوع ... لكن الله أمرهم بمواصلة الجهاد .
لما علم يهود بنى قريظة بانصراف الأحزاب ملكهم الخوف ، وتوقعوا أن يكر
المسلمون عليهم لما كانوا يعرفون من تصرف الرسول ﷺ مع بنى قينقاع ، وبنى
النضير ، وحدث ما توقعوه فإنه لما رجع النبى ﷺ من الخندق واغتسل أتاه جبريل
عليه السلام وقال : قد وضعت السلاح يا محمد ؟ والله ما وضعناه فاخرج إليهم .

قال ﷺ : فإلى أين ؟

قال جبريل عليه السلام : ها هنا وأشار إلى ديار بنى قريظة .
فخرج ﷺ إليهم وقال لأصحابه : لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ،
فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال
بعضهم : بل نصلى ، لم يرد منا ذلك (وفعل كل ما فهمه) وذكروا ذلك للنبي ﷺ
حين رؤيته فلم يعنف واحداً منهم^(١) .

وتقدمت الملائكة زحف الجيش الإسلامى ، يقول أنس رضي الله عنه كأنى أنظر إلى
الغبار ساطعاً فى زقاق بنى غنم ، موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بنى
قريظة^(٢) .

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب ج ٦ ص ٣٢٨ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب ج ٦ ص ٣٢٩ .

واستعمل الرسول ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ؓ ، ودفع اللواء إلى على ابن أبي طالب ؓ ، وكان اللواء على حاله الذي كان عليه عند الخندق لم يتغير .

وأخذت الملائكة تدعو المسلمين إلى الخروج لبنى قريظة ، فعن محمد بن إسحاق أن رسول الله ﷺ مر بنفر من بنى النجار فيهم حارثة بن النعمان قد صفوا صفين عليهم السلاح فقال : " هل مر بكم أحد ؟ "

قالوا : نعم ، دحية الكلبي ، مر على بغلة ، عليها رحاله ، عليها قطيفة من استبرق ، وأمرنا بحمل السلاح ، فأخذنا سلاحنا وصففنا ، وقال لنا : هذا رسول الله ﷺ يطلع عليكم الآن .

فقال رسول الله ﷺ ذاك جبريل بعث إلى بنى قريظة لينزل حصونهم ، ويقذف الرعب في قلوبهم ^(١) .

وكان خروج النبي ﷺ إلى بنى قريظة لسبع بقين من ذى القعدة في العام الخامس الهجري ، وتبعه المسلمون في ثلاثة آلاف مقاتل ، معهم ستة وثلاثون فرساً ، وعسكر الجيش الإسلامي عند بئر لبنى قريظة يعرف ببئر "أنا" بأسفل حرة بنى قريظة ^(٢) .

وتكامل تجمع المسلمين عند البئر ، واجتمعوا مع رسول الله ﷺ عشاء وغدا رسول الله ﷺ على حصونهم ، وعبأ أصحابه ، ونظمهم حول الحصون وأمرهم أن يرموهم بالنبال ، وأن يتعاقبوا في الرمي ، حتى لا يتركوا لهم وقتاً يستريحون فيه

جاء في صحيح المسلم أن حديث الرسول ﷺ تناول صلاة الظهر ، مخالفاً ما رواه البخاري في صحيحة ، والجمع بين الروایتين في كونها الظهر أو العصر محمول على أن هذا الأمر كان بعد دخول وقت الظهر ، وقد صلى الظهر بالمدينة بعضهم دون بعض ، فقبل للذين لم يصلوا الظهر لا تصلوا الظهر إلا في بنى قريظة ، وللذين صلوا بالمدينة لا تصلوا العصر إلا في بنى قريظة .

ويحتمل أنه قيل للجميع : لا تصلوا العصر ولا الظهر إلا في بنى قريظة ، ويحتمل أنه قيل للذين ذهبوا أولاً لا تصلوا الظهر إلا في بنى قريظة وللذين ذهبوا بعدهم لا تصلوا العصر إلا في بنى قريظة والله أعلم .

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٢) المغازي ج ٢ ص ٤٩٦ ، ٤٩٩ .

وفى آخر النهار أيقن اليهود بالهلكة ، فأمسكوا عن الرمي ، وأرسلوا نباش بن قيس فكلّم رسول الله ﷺ على أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من الأموال والسلاح ، وتحقن دماؤهم ، ويخرجوا من المدينة بالنساء والذراري ، ولهم ما حملت الإبل إلا الحلقة .

فأبى رسول الله ﷺ .

فقال نباش : تحقن دماءنا ، وتسلم لنا النساء والذرية ، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم الله . وعاد نباش إليهم بذلك .

فلما أتاها نباش برفض رسول الله ﷺ لما اقترحوه ، قال كعب بن أسد : يا معشر بنى قريظة والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبي الله ، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب ، حيث لم يكن نبياً من بنى إسرائيل فهو حيث جعله الله ، ولقد كنت كارهاً لنقض العهد والعقد ، ولكن البلاء وشؤم حيي بن أخطب فاتبعوه وكونوا أنصاره وأولياءه ، وقد آمنتم بالكتابين كليهما الأول ، والآخر فتعالوا فلنتابعه ، ولنصدق به فنؤمن به فنأمن على دماننا وأبنائنا ونسائنا وأموالنا .

فردوا عليه : لن نكون تبعاً لغيرنا نحن أهل الكتاب والنبوة ، ونكون تبعاً لغيرنا !! فجعل كعب يرد عليهم الكلام بالنصيحة لهم .

قالوا : لا نفارق التوراة وندع ما كنا عليه من أمر موسى ﷺ .

قال كعب : فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج في أيدينا السيوف إلى محمد وأصحابه فإن قتلنا قتلنا وما وراءنا أمر نهتم به ، وإن ظفرنا فلعمري لنتخذن النساء والأبناء .

قالوا : ما فى العيش من خير بعد هؤلاء .

قال : فواحدة قد بقيت من الرأى- لم يبق غيرها .- الليلة المسبوت ومحمد وأصحابه آمنون لنا فيها .

فنخرج فلعلنا أن نصيب منه غرة .

قالوا : نفسد سبتنا وقد عرفت ما أصابنا فيه ؟

فصاحت اليهود : لا نكسر السبت .

فقال لهم كعب : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة حازماً^(١) .
إلا أن فريقاً من بنى هدل خالف قومه اليهود ، فهدى إلى الحق ، ودخل في
الإسلام ، ونجا بنفسه ، وأمواله ، وأولاده ، وهم : ثعلبة ، وأسيد ابنا سعية ،
وأسيد بن عبيد وأبناؤهم^(٢) ...

واشتد الأمر على اليهود ، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل لهم أبا لبابة
بن المنذر ، وكان لهم نصيحاً ، لما بينهم وبينه من حلف ، ولأن أمواله وأهله بينهم
فلما أتاهم أبو لبابة قال له كعب بن أسد : يا أبا لبابة إنا قد اخترناك على
غيرك ، إن محمداً قد أبى إلا ننزل على حكمه أفترى أن ننزل على حكمه ؟
قال : نعم وأشار بيده إلى حلقة أي إنه الذبح .

ثم نزلت بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ فأمر بأسراهم فكتفوا رباطاً
وجعل على كتافهم محمد بن مسلمة ، ونحوا ناحية ، وأخرج النساء والذرية من
الحصون فكانوا ناحية ، واستعمل عليهم عبد الله بن سلام ، وجمعت أمتعتهم وما
وجد في حصونهم من الحلقة والأثاث فوجد فيها ألف وخمسمائة سيف ، وثلاثمائة
دارع ، وألفا رمح ، وألف وخمسمائة ترس وحجفة ، وأثاث كبير ، وآنية كثيرة ،
وخمر وجرار سكر فهريق ذلك كله ، ولم يخمس ، ووجد من الجمال النواضح
عدة ، ومن الماشية شئ كثير فجمع هذا كله^(٣) .

وطلبت الأوس من رسول الله ﷺ أن يهب لهم بنى قريظة فإنهم حلفاؤهم كما
وهب لابن أبي بنى قينقاع حلفاءه .

فقال ﷺ : أما ترضون أيها الأوس أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم ؟
قالوا : بلى .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٢٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٢١ ، وبنو هدل ليسوا من بنى النضير ، ولا من بنى قريظة
فهم بنو عمومته .

(٣) المغازي ج ٢ ص ٥٠٩ ، ٥١٠ .

قال ﷺ :. فذلك إلى سعد بن معاذ..... وسعد يومئذ في المسجد في خيمة "رفيدة بنت سعد الأسلمية" منذ جرح ، فخرجت الأوس فحملوه على حمار ، والتفوا حوله ، وأخذوا يقولون له : يا أبا عمرو ! إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحسن فيهم فأحسن ، فقد رأيت ابن أبي وما صنع في حلفائه ، وأكثروا في هذا وشبهه وهو لا يتكلم .

ثم قال سعد : قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم .
فقال الضحاك بن خليفة بن عبد الأشهل الأنصاري : واقوماه .
وقال غيره منهم : نحو ذلك ، ثم رجع إلى الأوس فنعى لهم قريظة .
فلما جاء سعد إلى رسول الله ﷺ والناس حوله قال : قوموا إلى سيدكم ! فقاموا له على أرجلهم صفين يحييه كل منهم .
وقالت الأوس الذين حضروا : يا أبا عمرو ! إن رسول الله ﷺ قد ولاك الحكم فأحسن فيهم ، واذكر بلاءهم عندك .

فقال سعد : أترضون بحكمي لبنى قريظة ؟
قالوا : نعم .

فاخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم .
ثم قال : إني أحكم فيهم أن يقتل من جرت عليه موسى ، وتسبى النساء والذرية ، وتقسم الأموال .

فقال رسول الله ﷺ : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات^(١) .
فنفذ رسول الله ﷺ حكم الله تعالى ، فقتل من بلغ منهم ، وضرب رسول الله ﷺ عنق كعب بن أسد وهو بين يديه ، وأمر لـ "نُبَّانة" امرأة الحكم القرظي ، وهي من السبي ، فقتلت لأنها أَلقت من حصن الزبير بن باطا رحي بإشارة زوجها على نفر من المسلمين كانوا يستظلون في فيئة ، فشحذت رأس خلاد بن سويد فمات ، وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت منهم بعدما وزعهم على المهاجرين والأنصار

(١) المغازي ج ٣ ص ٥١١ ، ٥١٢ .

، كما أمر بترك من لم ينبت ، وتمادى القتل فيهم إلى الليل فقتلوا. على شغل السعف ، ثم رد عليهم التراب في الخنادق ، وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة والخمسين ، ولما قتلوا صاحت نساؤهم ، وشقوا جيوبهم ، ونشروا شعورهم ، وضربوا خدودهم ، وملأوا المدينة عويلاً وصراخاً^(١) .

وأمر النبي ﷺ بتقسيم الأموال ، وللنساء والمذاريى قسمة المفئ حيث كان الخمس لله ، ورسوله ، والأربعة أخماس الباقية للناس يسهمها عليهم ، وقد أعطى رسول الله الفارس ثلاثة أسهم ، والراجل سهماً واحداً^(٢) .

ووصى رسول الله ﷺ بالرفق بالأسارى ، وأمر بأن لا يفرق بين الأم وأولادها ، ولا بين الأخوات ... وعرض رسول الله ﷺ الإسلام على الأسرى فمن أسلم باعه إلى صحابى مسلم ، ومن أبى أمر ببيعه فى الشام إلى يهودى وإذا كان الأسير لا أم له ولا أخوة فإنه يباع لرجل مسلم فى المدينة .

وأرسل النبي ﷺ طائفة من الأسرى فبيعت فى نجد ، وطائفة أخرى بيعت فى الشام وأوصى ﷺ بشراء أسلحة بثمنها .

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه ربحانه بنت زيد ، فلما أسلمت ملكها ، ودخل بها^(٣) .

وتخلص المسلمون من بؤرة خطيرة ، هددت أمن المسلمين ، كانت دائمة التآمر للفتك برسول الله ﷺ وأصحابه ، وقد أعدوا عدتهم بالسلاح الضخم الذى استولى عليه المسلمون .

وقتل رسول الله ﷺ مع بنى قريظة حى بن أخطب بعدما دخل معهم فى حصنهم ، وفاء لما عاهدهم عليه يوم أن ضمهم إلى الأحزاب .

وقال له رسول الله ﷺ قبل مقتله : ألم يمكن الله منك يا عدو الله ؟

فقال : بلى والله ما لمت نفسى فى عداوتك ، ولقد التمسست العز فى مظانه ، وأبى الله إلا أن يمكنك منى ، ولقد قلقت كل مقلقل ، ولكنه من يخذل الله

(١) المغازى ج ٣ ص ٥١٦ ، ٥١٧ بتصرف .

(٢) سيرة النبي ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٣) المغازى ج ٣ ص ٥٢١ .

يخذل ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس : لا بأس بأمر الله قدر وكتاب ، ملحمة كتبت على بنى إسرائيل^(١) .

ولم يقتل من النساء إلا ولحده هي زوجة الحكم القرظي ، . وليستشهد من المسلمين يوم بنى قريظة ، رجلان هما : خلاد بن سويد من الخزرج ، وأبو سفيان بن محصن ، ودفن الأول في البقيع ، ودفن الثاني في ديار بنى قريظة^(٢) ولما تم أمر بنى قريظة استجاب الله دعوة سعد بن معاذ الذي جرح يوم أحد وحكم في بنى قريظة بحكم الله ثم قال : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهد فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه ، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقي من حرب قريش شئ فأبقتي له حتى أجاهدكم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتى فيها فقد أقررت عيني من بنى قريظة^(٣) .

وكان رسول الله ﷺ قد وضعه بعد أحد يعالج في المسجد ، في خيمة أقامها لعلاج الجرحى ، وهي الخيمة المعروفة بخيمة "رفيدة بنت سعد الأسلمية" ، وقد أتى به الأوس من الخيمة ، وأركبوه حماراً ليحكم في بنى قريظة ، فلما تم الأمر وعاد سعد إلى الخيمة انفجر جرحه ومات. ﷺ ، فحمل إلى بيته ، فغسل وكفن وصلى عليه رسول الله ﷺ ومشى أمام جنازته ، ويعد سعد ﷺ من شهداء أحد^(٤) . يروى الواقدي بسنده عن جابر بن عبد الله قال : لما انتهى رسول الله ﷺ وصحابته إلى قبر سعد نزل فيه أربعة نفر : الحارث بن أوس بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وأبو نائلة وسلمة بن سلامة ، ورسول الله ﷺ واقف على قدميه عند قبره ، فلما وضع في لحده تغير وجه رسول الله ﷺ ، وسبح ثلاثاً ، فسبح المسلمون ثلاثاً حتى ارتج البقيع بتسبيحهم ، ثم كبر رسول الله ﷺ ثلاثاً ، وكبر أصحابه ثلاثاً حتى ارتج البقيع بتكبيرهم ، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فقل : يا رسول الله رأينا لوجهك تغيراً وسبحت ثلاثاً وكبرت ثلاثاً .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٤٨ .

(٢) الفتح الرباني بترتيب مسند أحمد الشيباني ج ٢١ ص ٨٥ .

(٣) صحيح البخاري - كتاب المغازي . باب مرجع النبي من الأحزاب ج ٦ ص ٢٣١ .

(٤) المغازي ج ٣ ص ٥١٣ .

قال. ﷺ : تضايق على صاحبكم قبره ،. وضم ضمة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد ، ثم فرج الله عنه^(١) .

وجاءت أم سعد ، وهي كبشة بنت عبيد ، تنتظر إلى سعد ولدها في اللحد فردها الناس .

فقال رسول الله ﷺ : دعوها .

فأقبلت حتى نظرت إليه ، وهو في اللحد قبل أن يبني عليه اللبن والتراب ثم قالت : أحتسبك عند الله ، وعزاها رسول الله ﷺ على قبره ، وجعل المسلمون يردون تراب القبر ويسوونه ، وتتحنى رسول الله ﷺ فجلس حتى سوى على قبره ورش عليه الماء ، ثم أقبل فوقف عليه فدعا له ، ثم انصرف .

يقول أبو سعيد الخدري رحمه الله : كنت مع من حفر قبر سعد بن معاذ ، وكان يفوح علينا المسك كلما حفرنا تراب قبره^(٢) .

يروى البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : اهتز عرش الرحمن لموت سعد^(٣) ... وفى الترمذى عن أنس بن مالك : إنه لما حملت جنازة سعد قال المنافقون ما أخف جنازته ، وفسروا ذلك بسبب قتله بنى قريظة . فقال ﷺ لهم : إن الملائكة كانت تحمله^(٤) .

== ثانياً ==

قتل ابن أبى الحقيق

وابن أبى الحقيق هو سلام بن مشكم بن أبى الحقيق ، ويكنى بـ "أبى رافع" ويعرف بـ "عبد الله بن أبى الحقيق" والذي سماه عبد الله هو قاتله عبد الله بن عتيك وهو أحد زعماء بنى النضير الذين خرجوا إلى خيبر بعد أحد ، وكان من

(١) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٩٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٩٥ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب مناقب الأنصار . باب مناقب سعد ج ١ ص ١٥٦ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب ج ٦ ص ٢٣١ .

الأعداء الألداء لرسول الله ﷺ وللإسلام ، وقد بدت عداوته بعدما علم بمقتل مقاتلة بنى قريظة حيث قال : هذا كله عمل حيي بن أخطب ، لا قامت يهودية بالحجاز أبداً .

وصاح نساء بنى قريظة وأقمن المآتم وفزعت اليهود إلى سلامٍ ليروا رأيهم ، فأشار عليهم بأن يسيروا معه ، ومعهم يهود تيماء ، وفدك ، ووادي القرى ، ولا يجلبوا معهم أحداً من العرب ، حتى يغزوا محمداً في عقر داره ، فوافقوه على ما رأى ، وأخذ يعد العدة لذلك .

يقول ابن إسحاق : لما قتلت الأوس كعب بن الأشرف ، رغب الخزرج في قتل ابن أبي الحقيق لينالوا ثواب قتله ، وحتى لا يسبقهم الأوس في فضل ، ولأنه أشد عداوة لرسول الله من كعب ، وحتى لا تستمر مؤامراته على محاربة المسلمين ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فأذن لهم^(١) .

يروى البخارى بسنده قصة مقتله فيقول : . بعث رسول الله إلى أبي رافع اليهودى رجلاً من الأنصار ، وأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع يؤذى رسول الله ﷺ ويعين عليه ، وكان في حصن له بأرض الحجاز ، فلما دنوا منه ، وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرهم ، فقال عبد الله لأصحابه ، اجلسوا مكانكم ، فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلنى أن أدخل .

فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل ، فإنى أريد أن أغلق الباب .

يقول عبد الله : فدخلت فكمنت ، فلما دخل الناس أغلق الباب ، ثم علق الأغاليق على وتد ففقت إلى الأقاليد فأخذتها ، ففتحت الباب .

وكان أبو رافع يسمر عنده ، وكان في علالي له ، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت باباً أغلقته على من داخل ، فقلت إن القوم إذا نذروا بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله .

فانتهيت إليه ، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا أدري أين هو من البيت ، فقلت : أبا رافع ، حتى أعرف مكانه من صوته .

(١) سيرة النبى ج ٢ ص ٢٧٣ .

قال : من هذا ؟

فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة بالسيف ، وأنا أدهش فما أغنيت شيئاً ، وصاح ، فخرجت من البيت ومكثت غير بعيد ، ثم دخلت إليه فقلت بصوت آخر : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟

فقال : لأمك الويل ، إن رجلاً فى البيت ضربنى قبل بالسيف ، فعلمت إنى ضربته ضربة أثخنه ولم تقتله ، فوضعت ضبيب السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره ، فعرفت أنى قتلتته .

فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً ، حتى انتهيت إلى درجة السلم ، فوضعت رجلى ، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت فى ليلة مقمرة ، فانكسرت ساقى ، فعصبتها بعمامة ثم انطلقت ، حتى جلست على الباب فقلت لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته أم لا ؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور ، فقال : أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز .

فانطلقت إلى أصحابى فقلت : النجاء ... النجاء ... فقد قتل الله أبا رافع فلما انتهيت إلى النبى ﷺ فحدثته ، فقال لى : ابسط رجلك ، فبسطت رجلى فمسحها ، فكأنها لم أشتكها قط^(١) .

وكان مقتل ابن أبى الحقيق فى ذى الحجة سنة خمس من الهجرة ... وقد أدى مقتله إلى تفرق الجمع الذى كان يعده للهجوم على المدينة ، وعلم اليهود فى خبير أن المسلمين لهم بالمرصاد ، ولن يتركوهم فى تأمرهم على الإسلام وعلى المسلمين .

- ثالثاً -

سرية محمد بن مسلمة

أعد النبى ﷺ سرية من أصحابه بلغ عددها ثلاثين راكباً. ووجههم إلى "الْقُرْطَاء" فى أرض نجد ، ناحية خيرية البكرات^(١) ، وذلك لعشر ليال خلت من

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب قتل أبى رافع ج ٦ ص ٢٨١ . ٢٨٢ .

المحرم سنة ست من الهجرة ... لتأديب بنى بكر أحد بطون بنى كلاب. بعدما تأمروا على قتل رسول الله ﷺ وأعدوا لذلك رجالاً منهم ، فلما وصلت السرية إلى ديار بنى بكر ، وشعر القوم بها هربوا ، وتركوا أنعامهم وأموالهم فغنم المسلمون منها ما استطاعوا. . وعادوا إلى المدينة فى آخر المحرم. ، وتمكنوا. عند رجوعهم من أسر رجل من بنى حنيفة يقال له "ثمامة بن أثال " وأحضروه معهم إلى المدينة

يروى أبو هريرة ؓ قصة ثمامة فيقول : بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد ، فجاءت برجل من بنى حنيفة ، يقال له ثمامة بن أثال ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبي ﷺ فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال : عندي خير يا محمد ، إن تقتلني تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فاسأل منه ما شئت . فتركه حتى كان الغد ثم قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاكرك . فتركه حتى كان بعد الغد فقال له : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : عندي ما قلت .

قال ﷺ : أطلقوا ثمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك فأصبح دينك أحب دين إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إلى ، وإن خيلك أخذتني ، وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر . فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت .

قال : لا ، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ، ولا الله لا تأتیکم من الیمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ ، وكانت الیمامة ریف مكة ، فانصرف إلى

(١) موضع جهة نجد قريبة من مكة .

بلاده ، ومنع الحمل إلى مكة ، حتى جهدت قريش ، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى لهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ (١) .

وهكذا. توجه المسلمون. إلى نجد لرفع كلمة الحق ، ولإشعار. قادة الكفر ، والضلال أن صدهم الناس عن دين الله أمر مرفوض ... والواجب حماية حق الناس. ، في الاعتقاد. وللمتدين ، ومعاملة الذين يصدون. عن سبيل الله معاملة المعتدى على حق غيره ، المحارب لحرية الإنسان وكرامته .

- رابعاً -

غزوة "بنى لحيان"

بنو لحيان. هم المذنب غدروا. بعشرة من أصحاب. رسول. الله ﷺ بالرجيع ، وتسببوا في إعدامهم ، ولكن لما كانت ديارهم مجاورة لحدود مكة ، والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب ، رفض رسول الله ﷺ أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو. الأكبر في مكة ، فلما تخاذلت الأحزاب. ، واستوهنت عزائمهم ، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما ، رأى رسول الله ﷺ أن الوقت قد حان لأن يأخذ من بنى لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع ، فخرج إليهم في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ست في مائتين من أصحابه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام ، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى "بطن غُرَّان" واد بين أمج وعُسفان ، حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم ، وسمعت بنو لحيان بالمسلمين فهربوا في رؤوس الجبال ، ولم ير المسلمون منهم أحداً ، فأقام رسول الله ﷺ يومين بأرضهم ، وبعث السرايا إلى جهات عديدة ، ثم سار بالقوم إلى عُسفان وبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش بقيادة أبي بكر الصديق ﷺ ثم رجع إلى المدينة وهو يقول : آييون ، تائبون ، عابدون ، لربنا

(١) مختصر السيرة ص ٢٩٣ .

حامدون ! اللهم أنت صاحب فى السفر ، والخليفة على الأهل ! اللهم أعوذ بك من وعشاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل ، والمال ! اللهم بلغنا بلاغاً صالحاً يبلغ إلى خير ، مغفرة منك ورضواناً^(١) . وكانت غيبته ﷺ عن المدينة أربع عشرة ليلة^(٢) .

- خامساً -

غزوة "الغابة"

وقعت هذه الغزوة عند ماء يعرف بماء "قرد" قريباً من المدينة المنورة ، وسببها أنه كان لرسول الله ﷺ عشرون ناقة ذوات لبن ، ترعى بالغابة حول الماء ، ومعها راع وزوجته ، فأغار عليها عيينة بن محصن الفزاري فقتل الراعى ، وسبى المرأة ، واستولى على اللقاح العشرين ، فلما رأهم سلمة بن الأكوع السلمى عاد ، وأخبر رسول الله ﷺ وصاح فى المسلمين بما وقع .

فلما وقعت الصيحة بالمدينة كان أول من أتى إلى رسول الله ﷺ من الفرسان المقداد بن عمرو ، ثم عباد بن بشر الأشهلى ، وأسيد بن حضير أخو بنى حارثة ، وعكاشة بن محصن ، ومحرز بن نضلة الأسدى الأخرم ، وأبو قتادة الحارث بن ربيع ، وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت الزرقى ، فلما اجتمعوا أمر رسول الله ﷺ عليهم سعيد بن زيد من بنى عبد الأشهل ، وأعطى ﷺ فرس أبى عياش معاذ بن معاص ، وكان أحكم للفروسية من أبى عياش وسار النبى ﷺ معهم حتى واجه المشركين .

وكان أول من واجه المشركين محرز بن نضلة الأخرم فقتلوه رحمه الله ولحق أبو قتادة بقاتله فقتله ، وولى المشركون منهزمين ، وتركوا خلفهم لقاح رسول الله ﷺ ولما بلغ رسول الله ﷺ ماء يقال له "ذو قرد" استرد إبله، ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة ، وأقام ﷺ يوماً وليلة ، ثم رجع إلى المدينة ، وصلى النبى ﷺ بالمسلمين

(١) المغازى ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٢١ .

صلاة الخوف لأول مرة عند "ذى قرد" يقول ابن عباس ؓ : قام رسول الله ﷺ إلى القبلة ، وصف طائفة خلفه ، وطائفة مواجهة العدو ، فصلى بالطائفة التى خلفه ، ركعة وسجدتين ، ثم انصرفوا فقاموا مقام أصحابهم ، وأقبل الآخرون فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة وسجدتين فكان لرسول الله ﷺ ركعتان ولكل رجل من الطائفتين ركعة ، فلما سلم رسول الله ﷺ أقبلت كل طائفة وصلت الركعة الباقية لتتم صلاتهم جميعاً ، وأقبلت امرأة الغفارى على ناقة رسول الله ﷺ ، فلما أتت المدينة نذرت أن تنحرها ، فأخبرها رسول الله ﷺ أنه لا نذر لأحد فى معصية الله ، ولا فيما لا يملك ، وأخذ ﷺ ناقته^(١) .

وقد استشهد من المسلمين مُحَرَّر بن نُضَلَّة ؓ ، وقتل من المشركين مسعدة بن حكمة ، وأوثار ، وابنه عمرو بن أوثار ، وحبيب بن عيينة .

- سادساً -

سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر

بعث رسول الله ﷺ عكاشة بن محصن فى أربعين رجلاً من الصحابة فى شهر ربيع الأول سنة ست إلى "الغمر" وهو ماء لبني سعد .
أسرع عكاشة ورجاله إلى الغمر ، فلما علم القوم به تركوا ماءهم ، وفروا إلى الجبال وتركوا بعض نعمهم ، فأخذ منها المسلمون مائتين ، وعادوا إلى المدينة .

- سابعاً -

السرايا إلى ذى القصة

أخذ بنو ثعلبة يغيرون على سرح المسلمين فى المدينة فأرسل رسول الله ﷺ إليهم محمد بن مسلمة ؓ . أولاً . فى عشرة رجال من الصحابة ، فى ربيع الأول سنة ست ، فكمّن لهم القوم عند مائهم "ذى القصة" حتى ناموا فأحدقوا بهم وكان عددهم

(١) مختصر السيرة ص ٢٩٣ .

مائة ، فما شعر المسلمون إلا والنبال تأتيهم من كل جانب ... واستمر الرمي حتى قتل المشركون المسلمين جميعاً ما عدا محمد بن مسلمة ، فإنه أفلت ، وتمكن من الرجوع إلى المدينة وأخبر الرسول ﷺ بما حدث له ، ولأصحابه .

فأرسل الرسول ﷺ . **ثانياً** . سرية أخرى إلى بنى ثعلبة في "ذى القصة" في ربيع الآخر مكونة من أربعين صحابياً بقيادة عبيدة بن الجراح .

ونظراً ليقظة بنى ثعلبة ، وتتبعهم لأخبار المسلمين صلى أفراد السرية المغرب بالمدينة المنورة حتى لا يشعر بهم أحد ، ثم أخذوا في المسير بعد المغرب متجهين إلى "ذى القصة" واستمروا في السير طوال الليل ، فوافوها قبيل طلوع الشمس ، وفاجأوا القوم بالإغارة عليهم ، ففر القوم هاربين إلى التلال والجبال ، وتركوا إبلهم وغنمهم ، فغنم المسلمين إبلًا وغنماً وأسروا رجلاً واحداً ، ثم عادوا إلى المدينة بما غنموا ، وقد أسلم الرجل عند رسول الله ﷺ فتركه .

- ثامناً -

سرايا زيد بن حارثة ؓ

تميز زيد بن حارثة بالشجاعة والإقدام ، والإخلاص في طاعة الله ورسوله ولذلك اختاره الرسول ﷺ لقيادة عدد من السرايا ، خلال فترة ما بعد الخندق ، وهي:

١. سرية زيد إلى الجموم :

والجموم ماء لبنى سليم في مر الظهران ، قرب مكة ، خرج زيد إليها في عدد من أصحاب النبي ﷺ فأصاب امرأة من مزينة دلتهم على محلة "بنى سليم" فذهبوا إليها ، وأخذوا منها غنماً ، وإبلًا ، وبعض الأسرى ، وعادوا إلى المدينة^(١) وقد أسلمت المرأة وزوجها النبي ﷺ من أحد أصحابه^(٢) .

(١) فتوح البلدان ج ١ ص ١٦٤ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٦ .

٢. سرية زيد إلى العيص^(١) :

بعث النبي ﷺ في جمادى الأولى سنة ست زيد بن حارثة في مائة وسبعين رجلاً من أصحابه لمقاتلة قافلة لقريش راجعة من الشام بتجارته لهم فالتقت بهم عند العيص ، واستولت على الأموال ، وأسروا بعض الرجال منهم أبو العاص بن الربيع ، زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ، وكان الرسول قد فرق بينهما .

وكان أبو العاص رجلاً مأموناً ، يتاجر لقريش في مالها ... فلما قدم المدينة أسيراً دخل على زينب سحراً فاستجارها فأجارتها ، فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر قامت زينب على بابها ، فنادت بأعلى صوتها وقالت : إني قد أجرت أبا العاص . فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟

قالوا : نعم .

قال ﷺ : فوالذي نفسي بيده ، ما علمت بشئ مما كان حتى سمعت الذي سمعتم المؤمنون يد على من سواهم ، يجير عليهم أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت .

فلما انصرف النبي ﷺ إلى منزلة دخلت عليه زينب فسألته أن يرد إلى أبي العاص ابن الربيع ما أخذ منه من المال ، ففعل وأمرها ألا يقربها ، فإنها لا تحل له ما دام مشركاً ، ثم كلم رسول الله ﷺ أصحابه ، وكان مع أبي الربيع بضائع لغير واحد من قريش ، فأدى إليه الصحابة إليه كل شئ ، حتى إنهم ليردون الإداوة ، والحبل ، حتى لم يبق شئ ، ورجع أبو العاص إلى مكة فأدى إلى كل ذي حق حقه ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم شئ ؟ قالوا : لا والله .

قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، لقد أسلمت بالمدينة ، وما منعني أن أقيم بالمدينة إلا أنني خشيت أن تظنوا أنني أسلمت لأذهب بالذي لكم ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فرد عليه زينب بالنكاح الأول^(٢) .

(١) العيص واد بين مكة ، والمدينة .

(٢) سنن أبي داود . باب إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها ج ٣ ص ١٥٠ ، ١٥١ ، والمغازي ج ٣ ص ٥٥٣ ، ٥٥٤ .

٣. سرية زيد إلى الطرف :

والطرف ماء لبنى ثعلبه يقع على بعد ستة وثلاثين ميلاً عن المدينة ، بعث الرسول ﷺ إلى أهله زيدا في خمسة عشر رجلاً من الصحابة ، فهرب الناس لما علموا بمقدم المسلمين ، وأصاب منهم زيد بعض الإبل ، ورجع إلى المدينة في جمادى الآخرة سنة ست بعد أن غاب عنها أربع ليال^(١) .

٤. سرية زيد إلى وادى القرى :

في رجب سنة ست خرج زيد إلى وادى القرى ومعه اثنا عشر رجلاً من الصحابة ، لاستكشاف حركات الأعراب فهجم عليهم سكان وادى القرى ، وقتلوا منهم تسعة وعاد الناجون إلى المدينة ، وفيهم زيد بن حارثة^(٢) .

- - - - - تاسعاً - - - - -

غزوة "بنى المصطلق"

وتعرف بغزوة "المريسيع"^(٣) وكان وقوعها في شعبان سنة ست للهجرة بعد الخندق على الصحيح ، ودليل ذلك أن آية الحجاب نزلت في شأن زينب بنت جحش رضى الله عنها بعد زواجها من رسول الله ﷺ ، ولذلك سألها ﷺ عن الإفك الذى دار حول عائشة رضى الله عنها فقالت : احمى سمعى وبصرى ... وقالت عنها عائشة رضى الله عنها ، وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ .
وحادثة الإفك كانت أثناء العودة من غزوة بنى المصطلق ونزول آية الحجاب كان بعد زواج زينب ، وزواج زينب كان فى ذى القعدة من السنة الخامسة فإذا ما علم أن حادثة الإفك كانت بعد نزول آية الحجاب ، إذا علم ذلك صح أن "غزوة المريسيع" كانت فى السنة السادسة بعد الخندق^(٤) .

(١) المغازى ج ٣ ص ٥٥٤ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٩ .

(٣) المريسيع : بضم الميم ، وفتح الراء مصغرا اسم لماء خزاغة بينه وبين المدينة ما يقرب من سبعين ميلاً .

(٤) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٩ .

وسبب هذه الغزوة أن الحارث بن ضرار زعيم بنى المصطلق سار في قومه ، ومن قدر عليه من العرب ، يريدون حرب رسول الله ﷺ في المدينة ، وأخذوا في إعداد العدة لذلك ... فبعث رسول الله ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي ليعلم خبرهم فلما رأى تجمعهم واستعدادهم عاد لرسول الله ﷺ وأخبره بما رأى ، فندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم ، فأسرعوا بالخروج مع رسول الله ﷺ بعد أن أُمّر على المدينة زيد بن حارثة .

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع فنزله ، وضرب قبة من آدم ، وكان معه من نسائه عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما .

اجتمع المسلمون على الماء ، وأعدوا وتهيأوا للقتال . ، وصف رسول الله ﷺ أصحابه ، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر ﷺ ، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة ﷺ ، ويقال كان مع عمار بن ياسر ﷺ راية المهاجرين .

ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ أن ينادى فنادى في الناس : قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم ، وأموالكم ، ففعل عمر ﷺ فأبوا الإذعان فرماهم وكان عمر أول من رمى من المسلمين ثم إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا عليهم فحملوا حملة رجل واحد ، فما أفلت إنسان من بنى المصطلق وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم ، وسبى رسول الله ﷺ الرجال ، والنساء والذرية ، وغنمت النعم والشاء ، وما قتل أحد من المسلمين إلا رجل واحد يقال له هشام بن صباية ^(١) وكان من جملة السبى جويرية بنت الحارث بنت سيد القوم ، وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها ، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها .

- عاشر -

مواجهة المنافقين

شعر المنافقون بافتضاح أمرهم في غزوة الأحزاب ، فجمعوا جموعهم وأرادوا خلعة الصف الإسلامي بالإشاعات ، وزرع جذور الوهن ، وأخذوا يتحينون الفرص

(١) المغازي ج ١ ص ٤٠٧ .

لبث أكاذيبهم ، وكان أول هذه الفرص بعد غزوة الأحزاب في زواج رسول الله ﷺ "زينب بنت جحش" رضى الله عنها حيث أخذوا يذكرون للناس أنها الزوجة الخامسة لرسول الله ﷺ وهذا لا يجوز ، وقالوا : إن محمداً أحبها وهى تحت زيد ، فأمر ﷺ زيدا أن يطلقها ليتزوجها ، وهذا كذب وضحناه قبل^(١) ورد الله عليه فى قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتِّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(٢) .

وانتهز المنافقون خروج المسلمين إلى بنى المصطلق فخرجوا معهم فى أعداد كبيرة ، وتظاهروا بانصهارهم فى المصف الإسلامى ، ولأخذوا يتحينون. الفرصة لتحقيق ما خرجوا له .

يقول المقرئى : وبينما المسلمون على ماء المريسيع إذ أقبل "سنان بن وبر الجهنى" حليف الأنصار ومعه فتیان من بنى سالم يستقون ، وعلى الماء جمع من المهاجرين ولأنصار. فأدلى دلوهم ، وأدلى "جهجاه بن مسعود". أجبر عمر بن الخطاب ﷺ دلوهم ، فالتبست دلو سنان ودلو جهجاه ، وتنازعا فضرب جهجاه سناناً فسال دم سنان فنادى: يا للخزرج ، وثارت الرجال ، فهرب جهجاه إلى قومه وجعل ينادى فى العسكر: يا لقريش ، يا لكنانة ، فأقبلت قريش وأقبلت الأوس والخزرج ، وشهروا السلاح حتى كادت أن تكون فتنة عظيمة ، فقام رجال فى الصلح فترك سنان حقه

وانتهز عبد الله بن أبى الموقف وكان جالسا فى عشرة من المنافقين فغضب وقال : والله ما رأيت كاليوم مذلة ، والله إنى كنت لكارهاً لوجهى هذا ولكن قومى قد غلبونى قد فعلوها ، قد نافرونا ، وكاثرونا فى بلدنا ، وأنكروا منتنا ، والله ما صرنا وجلاليب قريش هذه إلا كما قال القائل : "سمن كلبك يأكلك" والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما هتف به جهجاه ، وأنا حاضر لا يكون

(١) انظر ص ١٢٨ - ١٣١ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ١ .

لذلك منى غير : ﴿ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا
الْأَذَلَّ ﴾^(١) .

ثم أقبل ابن أبي على من حضر من قومه فقال: . هذا ما فعلتم بأنفسكم ،
أحللتموهم بلادكم ، وأنزلتموهم منازلكم ، وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا أما
والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم ، ثم لم ترضوا ما فعلتم
حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونهم ، فأيتمت أولادكم ، وقللتم عددكم
وكثرُوا^(٢) .

أخبر زيد بن أرقم رسول الله بما رأى وسمع فتغير وجه رسول الله واستوثق منه
وأبى على أصحابه قتل ابن أبي حتى لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه .
وجاء ابن أبي ينفى صدور ما ذكر عنه فنزل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ
الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ۚ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾^(٣) .

وقطعاً لهذه الفتنة ، ومنعاً للخوض فيها بادر رسول الله ﷺ بالعودة إلى
المدينة أثناء الحر الشديد ، وكان ﷺ لا يروح حتى يبرد الجو .
وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي ﷺ لرسول الله ﷺ وقال له : إن كنت تريد
أن تقتل أبى فيما بلغك عنه فمرنى به ، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من
مجلسك هذا ، والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالده منى ، وإنى
لأخشى يا رسول الله أن تأمر غيرى فيقتله فتدعونى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى
فاقتله فأدخل النار وعفوك أفضل ، ومنك أعظم .
فقال رسول الله ﷺ : ما أردت قتله ، وما أمرت به ، ولنحسن صحبته ما كان
بين أظهرنا .

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨ .
(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٩٩ .
(٣) سورة المنافقون ، الآية ١ .

فقال عبد الله : إن أبى كانت هذه البحيرة قد اتسقوا عليه ليتوجوه ،
فجاء الله بك فوضعه ورفعنا بك ، ومعه قوم يطيفون به يذكرونه أموراً قد غلب
الله عليها^(١) .

وانتهز المنافقون حادثة أخرى وقعت حين رجوع المسلمين من المريسيع
هى "حادثة الإفك" التى ظهرت بين المسلمين فتلقفها ابن أبى ، وتولى كبر
إذاعتها ونشرها وكما أخزاه الله تعالى بنزول القرآن الكريم فى تأكيد كذبه فى
المرّة الأولى ... أخزاه مرة أخرى بنزول براءة السيدة عائشة رضى الله عنها من
فوق سبع سماوات^(٢) .

وسجل القرآن الكريم هذين الموقفين ليعلم المؤمنون طبائع المنافقين ،
ولياخذوا حذرهم الدائم منهم .

وزاد الله خزى المنافقين مرة أخرى ، فإنه لما نزل المسلمون عند ماء يقال له
"بَقْعَاء" أخذتهم ريح شديدة ، استمرت إلى أن زالت الشمس ثم هدأت ، وخاف
المسلمون أن تكون هذه الرياح لمواجهة "عبيدة بن حصين" ظناً منهم أن يهاجم
ظهورهم فى المدينة ، فقال لهم ﷺ : ليس عليكم بأس منها فما بالمدينة من نقب
إلا عليه ملك يحرسه ، وما كان ليدخلها عدو حتى تأتوها ، ولكنه مات اليوم
منافق عظيم النفاق وهو "رفاعة بن زيد بن التابوت" وكانت هذه الرياح أيضاً
بالمدينة حتى دفن عدو الله فسكت.

وقال عبادة بن الصامت يومئذ لابن أبى : مات خليلك .

قال : أى أخلائى .

قال : من موته فتح للإسلام وأهله ، رفاعة بن زيد بن التابوت .

قال : يا ويلاه ، كان والله وكان وكان ، وجعل يذكر .

فقال له عبادة : اعتصمت والله بالذنب الأبتى .

(١) سيرة النبى ج ٢ ص ٢٩٣ .

(٢) هذه الحادثة هى حادثة الإفك التى سبق ذكرها فى ص ١٦٢ - ١٦٥ عند الحديث عن
حسن معاملة رسول الله ﷺ لزوجاته رضى الله عنهن .

قال : من خبرك يا أبا الوليد بموته ؟

قال : رسول الله أخبرنا الساعة ، أنه مات هذه الساعة ، فأسقط في يديه ، وانصرف كئيباً حزيناً ، فلما دخلوا المدينة وجدوا عدو الله مات في تلك الساعة^(١) .

وهكذا انتهت مؤامرات المنافقين في المدينة كما انتهت ألعايب اليهود .

- حادى عشر -

السرايا بعد غزوة "بنى المصطلق"

واصل النبى ﷺ إرسال السرايا بعد غزوة بنى المصطلق تأمينا للحركة داخل الجزيرة العربية ، وإرهاب القلوب المتناثرة التى تتحرك بتأثير اليهود و المنافقين ... وأهم هذه السرايا ما يلى :

(أ) سرية عبد الرحمن بن عوف ؓ إلى ديار بنى كلب فى دومة الجندل. فى شعبان سنة ست للهجرة لدعوتهم إلى الإسلام بسبب إظهارهم العداوة لرسول الله ﷺ ، وصد الناس عن الإسلام. ... وقد أسلم فريق منهم . وتزوج عبد الرحمن بن عوف ؓ تماضر بنت الأصبع بعد أن أذن له رسول الله ﷺ .

(ب) سرية على بن أبى طالب ؓ إلى بنى سعد بن بكر بفدك. فى شعبان. من نفس السنة ومعه مائة صحابى وسببها أن. بنى سعد حاولوا. إمداد. الميهود بالموئ والسلاح على أن يأخذوا منهم بعض تمر خبير .

(ج) سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرينيين فى شوال سنة ست ، وسببها أن رهطاً من عكل ، وعرينة أظهروا. الإسلام. وأقاموا بالمدينة فمروضوا فبعثهم رسول الله ﷺ مع الرعاة لرعى الإبل ، فلما صحوا قتلوا الراعى وأخذوا الإبل ، فأرسل الرسول ﷺ كرز بن جابر فى عشرين من الصحابة حتى أدركوهم ، وأحضروهم إلى المدينة فأقام عليهم رسول الله ﷺ حد الحراية ، فقطعت أيديهم

(١) إمتاع الإسماع ج ١ ص ٢٠٤ .

وأرجلهم من خلاف ، جزاء وفاقاً على عداوتهم ، وعدوانهم وقتلهم الراعى ، وأخذهم الإبل^(١) .

- ثانى عشر -

حركة الدعوة خلال مرحلة

ما بين "الأحزاب" و "الحديبية"

أخذت الحركة بالإسلام بعد الأحزاب تنتشط وتتسع ، فوصلت إلى كل قبائل الجزيرة العربية ، لأنهم جميعاً تأثروا بهزيمة الأحزاب ، وشعروا بضعف وضعهم فأخذوا يعملون بعصبية يملكهم الخوف ، ويسيطر عليهم الفزع وقد رأيناهم يتآمرون ولا يصمدون يتعاونون ويتفرقون ، يقتلون ولا ينتظرون ... فكان لابد من مواجهتهم ، والذهاب إليهم لينتصروا لرسولهم ، ويعرفوا حجمهم وقوتهم ، ويبتعدوا عن العدوان والفساد ، ويلتزموا بمراعاة حق الآخرين ، ويبتعدوا عن همجيتهم السابقة . وتعد سرايا ما بعد الأحزاب حملات تطهير للفساد الموجود فى الجزيرة العربية ، وتخلص من عدوان الطغاة ، وإسكات صوت البغى ، وقهر العدوان قبل ظهوره . وقد أدت هذه الغزوات والسرايا دورها ، وقامت بتحقيق الهدف منها . صحيح أن القبائل لم تدخل فى الإسلام ، لكن الحركة صارت آمنة ، وأصبح صوت الإسلام عالياً ، وأخذ الناس يشعرون بحرية القول ، وحرية الاستماع ، وحرية التفكير ، وحرية اتخاذ القرار ، وهذا هو المطلوب فقط .

فى هذه المدة تزوج النبى ﷺ أربعاً من زوجاته هن :

- ١ . زينب بنت جحش رضى الله عنها تزوجها ليبطل عادة العرب فى نكاح زوجة الابن المتبنى بعد طلاقها .
- ٢ . أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنها لتعويضها بعد فراق زوجها ، ولتطيب نفس أبيها وقومها ، ومما يدل على وقع زواج النبى ﷺ من أم حبيبة

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٦٠٢ .

رضى الله عنها على أبى سفيان أن أبا سفيان بعد إسلامه عرض على النبي ﷺ أن يزوجه أختها لسروره بذلك فعرفه النبي ﷺ حرمة الجمع بين الأختين ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الأثر فى قوله سبحانه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

٣ . جويرية بنت الحارث رضى الله عنها من بنى المصطلق وكانت خيراً على أهلها جميعاً حيث صاروا أحراراً بسببها .

٤ . صفية بنت حيي بن أخطب رضى الله عنها بنت زعيم يهود بنى قريظة لتأكيد صلة المسلمين بأهل الكتاب ، وليبيان ما فى الإسلام من خير للجميع .
ومن هذا الباب دخوله ﷺ بـ"ريحانة بنت زيد" القرظية ، وزواجه من مارية القبطية أم ولده إبراهيم ؓ .

وفيما فعله النبي ﷺ درس. للدعاة من بعدم ﷺ ليوسعوا. صدورهم فى تقبل الآخر ، وعدم الإنغلاق على الذات ، والنظر إلى غير المسلمين على أساس أنهم أرض. خصبة لانتشار. الإسلام. ، وعليهم أن. يحسنوا. فهم الإسلام. ، ولأن. يحسنوا عرضه بمنهج رسول الله ﷺ .

وخلال هذه المرحلة تعلم المسلمون من وحى الله ، ومن عمل رسول الله ﷺ الأحكام التالية :

. ضرورة قضاء الصلاة إن فات وقتها مرتبة بأذان واحد وإقامة لكل صلاة كما فعل رسول الله ﷺ فى قضاء ما فات المسلمين من صلاة يوم الخندق حيث صلاها فى ديار بنى قريظة .
. تعلموا. أحكام. صلاة. المخوف. ، وأدوها خلف رسول. الله ﷺ .وعلموا. كيفيتها وشروطها ، وكل ما يتعلق بها من أحكام ، وقد صلاها النبي وأصحابه عند "ذى قرد" فى غزوة الغابة .
. أدوا صلاة القصر فى سراياهم وغزواتهم البعيدة كما تعلموها من النبي ﷺ .

(١) سورة الممتحنة ، الآية ٧ .

. نزلت آية التيمم حين رجوع المسلمين من بنى المصطلق لأن رسول الله ﷺ لما افتقد عائشة رضى الله عنها ، ونزل. منزلاً. شحيج الماء. ضجر الناس فنزلت آية التيمم بعد طلوع الفجر^(١) وهى قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٢) .

. تعلم الصحابة الجمع بين الصلاتين أثناء السفر جمع تقديم ، أو جمع تأخير .
. حمى رسول الله ﷺ النقيب لفقراء المدينة لما فيه من سعة وكلاء ، وقد أمر رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعه ؓ يحفر بئر فيه، وبتجديد جهاته الأربع بمدى وصول صوت المؤذن .
. أقام النبى ﷺ حد المحاربة على هؤلاء. المدين دخلوا. فى الإسلام. وغدروا. بالمسلمين فقتلوا الراعى واستاقوا الإبل^(٣) بعد نزول قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٤) .

(١) إمتاع الإسماع ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٦ .

(٣) إمتاع الإسماع ج ١ ص ٢٠٤ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٣٣ .

وقد أقيم الحد فقطعت الأيدي والأرجل من خلاف فلم تشمل عين ، ولم تحدث مثله ولم يقطع لسان .

وفرض الحج في هذه المدة على قول .

وبرغم قصر المدة بين الأحزاب . ، وللحديبية ، وشغلها بالسرايا والغزوات العديدة ، فإنها لم تخل من تعليم النبي ﷺ لأصحابه وتوجيههم إلى مكارم الأخلاق ، ومعالي الأمور ومن ذلك :

. أمرهم بالمحافظة على الصلاة في وقتها ، . وحين سأله رجل من بني عبد القيس خلال معركة المريسيع عن أحب الأعمال إلى الله .

قال له ﷺ : الصلاة في أول الوقت .

. أمر رسول الله ﷺ أصحابه بدعاء الله تعالى في الحضر والسفر ، وعلمهم دعاء السفر الذي سبق ذكره .

. وجههم إلى أن المسلمين إخوة ، وأنهم يد على من سواهم ، . وهم جميعاً يجيرون من أجاره أحدهم ، فلقد أجازوا جميعاً أبا العاص بن الربيع بعدما أجارته زينب رضي الله عنها .

. أباح ﷺ للمحارب الزواج أثناء الغزوة كما تزوج عبد الرحمن بن عوف لما في الزواج من فوائد عديدة للرجل ، وللدعوة وللأمة كلها .

. نهى صلى الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً إذا عاد من سفر ، ذلك أن عبد الله ابن رواحه طرق أهله فإذا مع امرأته إنسان ، فظن أنه رجل فرفع سيفه يريد أن يضربهما ثم فكر وادكر ، فغمز امرأته برجله فاستيقظت وصاحت . فقال : أنا عبد الله ، فمن هذا ؟

قالت : رحيلة ... سمعنا بقدومكم ، فدعوتها تمشطني فباتت عندي ، فبات وأصبح فرجع يلقي رسول الله ﷺ وهو سائر بين أبي بكر الصديق وبشير بن سعد ﷺ فالتفت ﷺ إلى بشير فقال : يا أبا النعمان ، إن وجه عبد الله ليخبرك أنه كره طروق أهله فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : خبرك

يا ابن رواحة ، فأخبره فقال ﷺ لا تطرقوا النساء ليلاً ، فكان ذلك أول ما نهى عنه رسول الله ﷺ^(١) .

. عاش رسول الله ﷺ أثناء غزواته حياته العادية ، فكان يصطحب زوجاته وكان يلاعبهم ، ويسابقهم ، وكثيراً ما سبق عائشة وكان ﷺ يداعبها ويتلف معها ، . حدث. أن المسلمين أخذوا حوات. بن جبير أسيراً. إلى رسول الله ﷺ فأبقاه الرسول عند عائشة وقال لها : احتفظي بهذا الأسير ... فلهت عنه فهرب ... فلما جاء النبي ﷺ قال لها : أين الأسير ؟

قالت : غفلت عنه فخرج .

فقال ﷺ : قطع الله يدك .

ودخل رسول الله ﷺ على عائشة فوجدها تقلب يدها ، وتنظر إليها .

فقال لها : مالك .

فقالت : أنظر كيف تقطع يدي .

فقال ﷺ : اللهم إنما أنا بشر أغضب وآسف ، كما يغضب البشر ، فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه بدعوة فاجعلها له رحمة .

وفى وسط الجو الملى بالأعمال والآمال اهتم المسلمون بكل ما ينزل من الوحي فحفظوا القرآن الكريم ودرسوا السنة ، واعتنوا بتربية أبنائهم وبناتهم على منهج الله تعالى وبذلك كانت الحركة الجادة بالإسلام شاملة للداخل والخارج فى انسجام وتكامل ... ولم يحدث تقصير ما فى نصح وتوجيه ، أو يقع خلل فى عمل وسلوك ... وإنما كان المجتمع الإسلامى يشبه خلية النحل كل ما فيه يؤدى واجبه على الوجه المطلوب .

وهكذا ...

كانت السرايا والغزوات مدرسة لتخريج الرجال ، وتعليم الإسلام وتطبيق أحكام الإسلام ، ودعوة إلى الله تعالى^(١) .

(١) سنن الترمذى . باب ما جاء فى كراهية طروق الرجل أهله ليلاً ج ٥ ص ٦٦ .

المبحث العاشر

غزوة "الحديبية"

أدت الغزوات ، والسرايا العديدة التي وقعت بعد الأحزاب إلى لجوء القبائل إلى المسكون . ، ولانكفاء على الذات . ، وترك ما كان. الشيطان. يزينه لهم لمهاجمة المسلمين ، والعمل للقضاء على محمد ﷺ وصحبه ... وعلموا أنه لا قبل لهم في تنفيذ ما أملوا. فيه ... ولذلك بدأت مرحلة جديدة للحركة بدعوة الله تعالى وهي مرحلة العمل خارج الجزيرة العربية ... وترك القبائل في سكونهم الذين يعيشون فيه ، لأنه وسيلتهم للتفكير في الإسلام ومحمد ﷺ وهو طريقهم إلى اعتناق الإسلام . في هذا الجو حدثت "غزوة الحديبية" (٢) .

والحديبية مكان. قريب من مكة يقع في شمالها بمقدار. ثلاثين ميلاً تقريباً ، وهي قرية متوسطة سميت باسم بئر فيها ، وفيها مسجد المشجرة . ، وبعضها في الحل وبعضها في الحرم عند الجمهور (٣) .

وتسميتها بـ "الغزوة" هو من قبيل المجاز ... لأن المسلمين لم يخرجوا من المدينة للقتال ، وإنما خرجوا يريدون العمرة ، كما وعدهم رسول الله ﷺ ... ولذلك ساقوا الهدى أمامهم ، ولبسوا إحرامهم ، ولم يأخذوا سلاحهم ، وما أخذوه من سيوف وضعوه في أغمادها .. وشبه الحديبية بالغزوة ينحصر فقط في قيادة رسول الله ﷺ وخروجه معهم .

وأكثر العلماء يرون أن الحديبية كان في العام السادس من الهجرة وهو قول الزهري وقتادة وموسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحاق وابن كثير وغيرهم (٤) .
والحديث عن غزوة الحديبية يحتاج إلى دراسة النقاط التالية :

(١) إمتاع الإسماع ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) الحديبية بضم الحاء وفتح الدال وسكون الياء قرية صغيرة سميت ببئر فيها وفيها أقام المسلمون مسجد الشجرة في المكان الذي بايع فيه الرسول ﷺ أصحابه .

(٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٦٤ .

- أولاً -

سبب الغزوة

رأى رسول الله ﷺ أنه دخل وأصحابه مكة معتمرين فدخلوا المبيت ، وأدوا عمرتهم ، وحلقوا وقصروا رؤوسهم ، ورأى أنه أخذ مفتاح الكعبة ودخلها ، ووقف بعرفة^(١) ، فلما أخبر أصحابه بما رأى سرّوا وفرحوا لأنهم يعلمون أن رؤيا رسول الله ﷺ وحى لا يكذب ، فأخذوا يستعدون لهذه الرحلة المحبوبة ، حيث بها يعبدون ربهم ، ويرون موطنهم ، ويقابلون أهلهم ، عسى أن يهديهم الله تعالى .
وأخذ رسول الله ﷺ يعد العدة لأداء العمرة ، فلما جاءه "بسر بن سفيان بن عمرو الكعبي الخزاعي" مسلماً في شهر شوال سنة ست هجرية ... قال له ﷺ : يا بسر لا تبرح حتى تخرج معنا ، فإننا إن شاء الله معتمرون^(٢) .
فأقام بسر بالمدينة وأخذ يشتري البدن لرسول الله ﷺ ويضعها في "ذى جدر"^(٣) ترعى حتى يحين موعد سوقها للهدى .

وقد سر المسلمون لبدء حركتهم لدخول مكة لما فى ذلك من أثر معنوى وهم يدخلون مكة بعدما طردوا منها ، وشعورهم بالنصر أمام الجميع ، وإظهار الإسلام لمن يحضر مكة فى الموسم على أساس حقيقته القائمة على تحقيق السلام ، ونشر العدل ، وصيانة حرية الإنسان فى الاعتقاد ، والعمل ... ولذلك بشر رسول الله أصحابه برؤياه .

- ثانياً -

التحرك للعمرة

استخلف رسول الله ﷺ على المدينة "عبد الله بن أم مكتوم" ونادى أصحابه

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٨٦

(٢) بسر بضم الباء وسكون السين ، وقيل هو بسر بباء مكسورة وشين ساكنة بعدها .

(٣) واد قريب من المدينة على بعد ستة أميال ، به عشب وكأ كانت ترعى فيه إبل رسول الله ﷺ .

للخروج لأداء العمرة ، واستتفر العرب وأهل البوادي ليخرجوا معه ، وأمر بالبدن فأخذت إلى "ذى الحليفة"^(١) وتجهز الجميع لأداء العمرة ، إلا أن كثيراً من الأعراب أبطأوا فى الخروج معتذرين بعلل واهية^(٢) .

وخرج المسلمون فى يوم الاثنين أول ذى القعدة عام ست للهجرة وبلغ عددهم ألفاً وأربعمائة فى أصح الأقوال^(٣) ومعهم أربع نسوة هن أم سلمة ، وأم عمارة وأم منيع أسماء بنت عمر ، . ولم عامر الأشهلية^(٤) ، . وليس معهم سلاح فقال عمر بن الخطاب ﷺ : يا رسول الله ألم تخش علينا من أبى سفيان بن حرب ؟ وأصحابه ولم نأخذ للحرب عدتها ؟

فقال ﷺ : ما أدرى : ولست أحب أن أحمل السلاح معتمراً .
وقال سعد بن عباد : لو حملنا يا رسول الله السلاح معنا ، فإن رأينا من القوم ريباً كنا معدين لهم .
فقال ﷺ : لست أحمل السلاح ، إنما خرجت معتمراً^(٥) .

ونوى المسلمون السفر إلى مكة فدخلوا المسجد النبوى ، وصلى رسول الله ﷺ ركعتين ثم أحرم ، وركب راحلته ، وأخذ يلبي بأربع كلمات هى "لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك" ، وأحرم عامة المسلمين بإحرامه ﷺ ومنهم من أخر إحرامه فأحرم من ذى الحليفة وهى ميقات أهل المدينة^(٦) .

وقلد المسلمون الهدى بذى الحليفة ، وأحرم من لم يحرم بالعمرة ، وأشعروا البدن ... وبعث رسول الله ﷺ عيناً من خزاعة ليأتيه بخبر أهل مكة حتى كان بعسفان جاءه من أخبره بموقف قريش^(٧) .

(١) ذو الحليفة قرية قريبة من المدينة ، والمسافة بينهما ستة أميال ، وهى الميقات المكانى لأهل المدينة .

(٢) سيرة النبى ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الحديبية ج ٦ ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٤) المغازى ج ٢ ص ٥٧٤ .

(٥) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٧٥ .

(٦) المغازى ج ٢ ص ٥٧٤ .

(٧) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الحديبية ج ٦ ص ٣٥٦ .

أتاه "بسر بن سفيان الكعبي" وكان قد سبق بالهدى فقال : يا رسول الله هذه قریش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا ومعهم "العوذ المطافيل"^(١) قد لبسوا جلود النمر ، وقد نزلوا بذى طوى^(٢) يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم أبداً وهذا خالد ابن الوليد فى خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم^(٣) .

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم الذى هم فيه^(٤) .
قال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله .

فسلك الرجل بالمسلمين طريقاً وعراً بين شعاب ملتوية ، فساروا فيه محتملين المشاق ، والصعاب حتى وصلوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى وعندها أمر رسول الله ﷺ الناس فقال : اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض فى طريق يوصلنا إلى ثنية الممرار "مهبط الحديبية" من أسفل مكة ، فسلك الجيش ذلك الطريق ، فلما رأَت القرشيون أن المسلمين قد خالفوا طريقهم ركضوا راجعين إلى قریش ، وخرج رسول الله ﷺ حتى وصل المسلمون إلى ثنية الممرار ، وعندها بركت ناقته ﷺ فقال الناس : خلأت .

فقال ﷺ : ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة لا تدعونى قریش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها^(٥) .
ثم قال للناس : انزلوا .

قيل له : يا رسول الله ﷺ ما بالوادى ماء ينزل عليه .
فأخرج سهماً من كنانته فاعطاه رجلاً من أصحابه ، فنزل به فى قلب من تلك القلب فغرز فى جوفه ، فجاش بالروء حتى ضرب الناس عنه بعطن ، وعسكر المسلمون فى الحديبية منتظرين أن يأذن رسول الله ﷺ لهم لأداء العمرة^(٦) .

(١) العوذ الإبل والظباء ، والمطافيل التى معها أطفالها وذرايرها وهذه استعارة تشير إلى خروج المكيبين بنسائهم وأطفالهم .

(٢) موضع عند مكة .

(٣) المغازى ج ٢ ص ٥٨٠ .

(٤) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ٢١٠ .

(٥) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى . باب غزوة الحديبية ج ٢١ ص ٩٦ .

(٦) المرجع السابق .

- ثالثاً -

المفاوضات مع قريش

بعد استقرار رسول الله ﷺ وأصحابه في الحديبية ، وإشارته ﷺ إلى تمنى أن يخلي أهل مكة بينه وبين سائر العرب ، جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه في مبادرة منه نصحا لرسول الله ﷺ وقال : إني تركت كعب بن لؤى ومعه نفر من قريش نزلوا عند مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .

قال رسول الله ﷺ : إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جننا معتمرين ، وإن قريشاً قد أنهكتهم الحرب وأضررت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم^(١) ويخلوا ما بيني وبين الناس ، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فهو خير وإلا قد جموا ، وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره^(٢) .

قال بديل : سأبلغهم ما تقول .
وانطلق حتى أتى قريشاً وقال لهم : إني قد جئكم من عند الرجل ، وسمعته يقول قولاً فإن شئتم عرضته عليكم .
فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشئ .

وقال ذو الرأي منهم : هات ما سمعته .
قال : سمعته يقول كذا كذا وحدثهم بما سمعه من رسول الله .
فلما انتهى بديل من مقالته لقريش .

قال عروة بن مسعود : إن بديلاً جاءكم بخطة رشد لا يردها أحد إلا أخذ شراً منها فاقبلوها منه ، وابعثوني حتى آتيكم بمصداقيتها ، وأكون لكم عيناً^(٣) أستم الولد وأنا الولد ؟

قالوا بلى !!

قال : هل تتهموني ؟

(١) مادتهم أى أعطيتهم مدة يفكرون فيها ويتدبرون على مهل .

(٢) الفتح الرباني بترتيب مسند أحمد الشيباني . باب غزوة الحديبية ج ٢١ ص ٩٧ .

(٣) المغازي ج ٢ ص ٥٩٧ .

قالوا : لا .

ورأى القرشيون أن يبعثوا لرسول الله ﷺ رجلاً منهم لإيجاد حل يمنع المسلمين من الدخول هذا العام ، وحتى لا يقع قتال في الشهر الحرام ، وحتى لا يتحدث الناس أن أهل مكة يصدون عن البيت من يقصده معتمراً أو حاجاً ، ولذلك تعددت بعوثهم إلى رسول الله ﷺ وهي :

البعث الأول :

أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي ، ليعرف غاية رسول الله ﷺ ويأتى القوم بخبر المسلمين . فذهب عروة إلى المسلمين وقال : يا محمد إنى تركت قومك على إعداد وأعداد عند ماء الحديبية قد استنفروا لك ، وهم يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم ، وإنما أنت من قتالهم بين أحد أمرين : إما أن تجتاح قومك ، فلم نسمع برجل اجتاح أصله قبلك ، أو بين أن يخذلك من نرى معك .

فلما فرغ عروة من كلامه ، ورد رسول الله ﷺ كما قال لبديل بن ورقاء عاد إلى قريش فقال ، يا قوم قد وفدت على كسرى ، وهرقل ، والنجاشي ، وإنى والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرائيه من محمد فى أصحابه ، والله ما يحدون إليه النظر ، وما يرفعون عنده الصوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى امرئ فيفعل ، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم ، والله لقد رأيت نسوة معه ، إن كن ليسلمنه أبداً على حال ، فردوا رأيكم ، وقد عرض عليكم خطة فاقبلوها ما عرض فإنى لكم ناصح ، مع أنى أخاف ألا تتصروا عليه ، رجل أتى هذا البيت معظماً له مع الهدى ينحره وينصرف فقالوا : لا تكلم بهذا يا أبا يعفور ولو غيرك تكلم بهذا ، ولكن نرده فى عامنا هذا ويرجع إلى قابل^(١) .

البعث الثانى :

ثم أرسلوا بعد ذلك مكرز بن حفص ، فلما رآه الرسول ﷺ قال : هذا رجل غادر وكلمه بمثل ما كلم أصحابه الذين جاءوا قبله ، فعاد للمكين ، وأخبرهم بما سمع^(٢) .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٦ ، المغازى ج ٢ ص ٥٩٨ ، ٥٩٩ .

(٢) المغازى ج ٢ ص ٥٩٩ .

البعث الثالث :

ورأت قريش أن ترسل للرسول رجلاً ليس من قريش ليظهرها قوتهم وأعوانهم ، فأرسلت الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش ورأسهم .

فلما رآه النبي ﷺ قال: .: هذا من قوم يعظمون الهدى ، ابعثوا الهدى فى وجهه فبعثوها ترعى وهى معلمة . ومشعرة فلما رأى الحليس الهدى يسيل فى الوادى ، وسمع القوم يلبون رجع ، ولم يصل إلى النبي ﷺ إعظاماً لما رأى ، فقال لقريش : أنى قد رأيت ما لا يحل صده ، رأيت الهدى معكوفاً عن محله ، والرجال قد تفلوا وشعثوا يريدون أن يطوفوا بهذا البيت ، أما والله ما على هذا حالفناكم ، ولا عاقدناكم على أن تصدوا عن بيت الله من جاء له معظماً لحرمة ، مؤدياً لحقه ، والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، والذي نفسى بيده ، لتخلن بينه وبين ما جاء به أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

قالوا : كل ما رأيت مكيدة من محمد وأصحابه فاكفف عنا حتى نأخذ لأنفسنا بعض ما نرضى به^(١).

وهذا المعسكر القرشى بعد ذلك ، وتباطأ القرشيون فى إرسال أحد بعد ذلك وأخذوا ينتشاورين. لاختيار. حل للموقف الموجود. ، وليحققوا. ضغوطاً نفسياً على المسلمين تؤدى إلى انسحابهم ، ورجوعهم عن مكة هذا العام .

رأى رسول الله ﷺ هدوءاً. وصمتاً فى الجبهة القرشية فأخذ زمام المبادرة وأرسل إليهم من قبله من يخبرهم أنه جاء معتمراً لا غازياً ، وأن البيت بيت الله لا يصد عنه من يقصده فأرسل أولاً خراش بن أمية الخزاعي ، فعقروا الجمل الذى كان يركبه . وأرادوا قتله فمنعه قومه . فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ بما حدث. معه فواصل الرسول ﷺ ببعوثه إليهم ، وأراد أن يرسل عمر بن الخطاب ؓ فأشار عمر إلى عثمان. بما له فى قومه من مودة وصلة فبعث الرسول. عثمان. فمنعه القرشيون من دخول مكة ، فأجاره سعيد بن العاص وحمله إلى مكة والتقى بالقرشيين

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٨٨ ، الطبقات ج ٢ ص ٩٦ ، المغازى ج ٢ ص ٦٠٠ .

، وأخبرهم أن المسلمين لم يأتوا لقتال ، وإنما جاءوا معتمرين يسوقون الهدى ، ويعظمون البيت ... فرفضوا السماح بدخول المسلمين وأشاعوا أنهم قتلوا عثمان رضي الله عنه ، وحبسوا أخباره عن المسلمين^(١) .

وانقطعت أخبار عثمان عن المسلمين وبقي في مكة مدة تمكن فيها من الاتصال بالمسلمين فيها ، وقال لهم : إن رسول الله ﷺ يبشركم بالفتح ، فقد كنت أرى الرجل منهم والمرأة تنتحب حتى أظن أنه يموت فرحاً بما خبرته ، فيسأل عن رسول الله ﷺ فيخفي المسألة ، ويشتد ذلك على أنفسهم ، ويقولون : اقرأ على رسول الله منا السلام ، إن الذي أنزله بالحديبية لقادر أن يدخله بطن مكة .

وشعر المسلمون أن قريشاً بقتلهم عثمان اعتدوا عليهم في الأشهر الحرم فاستعدوا لقتالهم ، وأم رسول الله ﷺ منازل بني مازن بن النجار ، وقد نزلت في ناحية من الحديبية فجلس في رحالهم ثم قال : إن الله أمرني بالبيعة ، فأقبل الناس يبايعونه حتى تداكوا ، فما بقي لهم متاع إلا وطنوه ، ثم لبسوا السلاح ، وهو معهم قليل ، وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها ، وشدت سكيناً في وسطها .

وكان رسول الله ﷺ يبايع الناس . وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ بيده ، فبايعهم على ألا يفروا .

وكان أول من بايع سنان بن وهب بن محصن ، وقال : يا رسول الله ، أبايعك على ما في نفسك ، فكان رسول الله ﷺ يبايع الناس على بيعة سنان فبايعوه^(٢) . وكان رسول الله ﷺ يبايع أصحابه وهو واقف تحت شجرة ، ولذلك سميت البيعة "بيعة الشجرة" وفيها يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾^(٣) .

(١) المغازي ج ٢ ص ٦٠١ ، الفتح الرباني ج ٢١ ص ١٠٢ .

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٩٠ .

(٣) سورة الفتح ، الآية ١٨ .

والحقيقة أن قريشاً لم تقتل عثمان رضي الله عنه وإنما أشاعت ذلك لتخذيل المسلمين وصرفهم عن دخول مكة .

وقد حدث والمسلمون في الحديبية أن بعثت قريش خمسين رجلاً بقيادة مكرز بن حفص ليصيبوا المسلمين على غرة ، وكان رسول الله قد نظم حراسة المعسكر الإسلامي ، وجعله في ثلاثة من الصحابة هم أويس بن خولى وعباد بن يشر ، ومحمد بن مسلمة ، فلما أرسلت قريش مكرز بن حفص في خمسين رجلاً منهم لينالوا من المسلمين غرة تحقق لهم بعض ما يريدون ، ظفر بهم محمد بن مسلمة ، وجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر صلى الله عليه وسلم بوضعهم في الأسر ، فجاء بعض القرشيين لتخليصهم بالقوة فتمكن المسلمون منهم وأسروا منهم اثني عشر فارساً ، وبذلك بلغ عدد أسرى قريش عند المسلمين اثنين وستين أسيراً^(١) .

وحدث أن عشرة من المسلمين دخلوا مكة لزيارة البيت ورؤية أقربائهم بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبسهم القرشيون ، وبذلك بلغ ما عند قريش من أسرى المسلمين أحد عشر رجلاً وهم هؤلاء العشرة وعثمان بن عفان رضي الله عنه .

- رابعاً -

”الصلح“

رأى القرشيون أن إطالة الأمر يسئ إليهم عند العرب الذين جاءوا مكة للحج والعمرة فأرسلوا رجالهم للصلح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم سهيل بن عمرو وحويطب ، ومكرز ، وجلس الثلاثة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سهيل : يا محمد ، إن هذا الذي كان من حبس أصحابك ، وما كان من قتال من قاتلك ، لم يكن من رأى ذوى رأينا ، بل كنا له كارهين حين بلغنا ولم نعلم به ، وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة والذين أسرت آخر مرة .
قال صلى الله عليه وسلم : إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابي .

(١) المغازي ج ٢ ص ٦٠٢ .

قال سهيل : أنصفتنا ، فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بالشتم بن عبد مناف التيمي فبعثوا بمن كان عندهم ، وهم : عثمان ، وعشرة من المهاجرين . وأطلق رسول الله ﷺ سراح من كانوا عنده من الأسرى وأرسلهم إلى مكة^(١) .

وبعد ذلك أخذوا في مناقشة الموضوع من كافة جوانبه ، ولأطالوا الكلام والمراجعة ثم اتفقوا على الصلح القائم على البنود التالية :

الديباجة :

باسمك اللهم هذا ما اصطاح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو اصطاحا على ما يلي :

بنود الصلح :

- ١ . وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض على أنه لا إسلال ولا إغلال ، وأن بيننا عيبة مكفوفة^(٢) .
 - ٢ . وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل ، وأنه من أحب أن يدخل في عهد قريش ، وعقدها فعل .
 - ٣ . وأنه من أتى محمداً بغير إذن قريش رده محمد إليهم ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد بغير إذن محمد لم يردوه .
 - ٤ . أن يرجع محمد ومن معه عامهم هذا على أن يدخل مكة في العام القادم فيقيم بمكة ثلاثاً بعد أن يخليها المكيون لهم .
 - ٥ . أن يدخل محمد وصحبه مكة في العام القادم بلا سلاح إلا سلاح المسافرين والسيوف توضع في القرب .
- وكتب وثيقة الصلح على بن أبي طالب ؑ ووقع عليها رسول الله ﷺ ، وسهيل بن عمرو وشهد عليها من المسلمين : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمة ... ومن المشركين : حويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص بن الأحيف .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٩١ .

(٢) الإسلال : السرقة ، الإغلال : الخيانة ، العيبة : آنية والمكفوفة أى التى تصون ما بها والمعنى بيننا صدور ملازمة للوفاء نقيه من الخداع والخيانة والغدر .

وكتبت الوثيقة من نسختين احتفظ رسول الله ﷺ بواحدة وأعطى سهيلاً الأخرى^(١) .

- خامساً -

موقف المسلمين من الصلح

لم يتوقع المسلمون الصلح بهذه السرعة ولم يتصوروا رجوعهم إلى المدينة بلا عمرة ، لأنهم خرجوا من المدينة لا يشكون في الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ ... ولم يتصوروا أبداً مقدرة المكيين على منعهم من أداء العمرة .

وقد قدموا للعمرة مستعدين للموت في سبيل الله تعالى ، ولذلك بايعوا رسول الله ﷺ على الموت. تحت الشجرة . وقد مدحهم الله لإخلاص قلوبهم ، وصدقهم فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٢) .

فلما تم الصلح داخل المسلمون أمر عظيم . وتصوروه ضعفاً ، ودنية في الدين لا تجوز ، وكادوا يهلكون لولا أنهم عند العمل أطاعوا وعملوا كعمل رسول الله ﷺ .

ذلك أنه لما تم الصلح ، ولم يبق إلا إمضاء الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب وقال : يا رسول الله : ألسنا بالمسلمين ؟

قال رسول الله ﷺ : بلى .

فقال عمر : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

فقال رسول الله ﷺ : أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولم يضيعني .

فذهب عمر إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر ألسنا بالمسلمين ؟

قال أبو بكر : بلى .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٧ .

(٢) سورة الفتح ، الآية ١٠ .

قال عمر : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟
فقال أبو بكر : الزم غرزك ، فإنني أشهد أنه رسول الله ، وأن الحق ما أمر به ، ولن يخالف أمر الله ، ولن يضيعه .
ولقى عمر رضي الله عنه في هذه القضية أمراً كبيراً ، وجعل يردد على رسول الله ﷺ تسأوله والرسول يرد عليه ، ويقول : أنا رسول الله ولن يضيعني .
فقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : ألا تسمع يا ابن الخطاب ما يقول رسول الله ﷺ يقول : تعوذ بالله من الشيطان ، واتهم رأيك ، فجعل يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حيناً وحيناً آخر يقول : يا رسول الله : ألم تكن حدثتنا أنك تدخل المسجد الحرام ، وتأخذ مفتاح الكعبة ، وتعرف مع المعرفين ؟ وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن ؟؟

فقال ﷺ : أقلت لكم في سفركم هذا ؟
قال عمر : لا .
فقال ﷺ : أما أنكم ستدخلونه ، وآخذ مفتاح الكعبة ، وأحلق رأسي ورؤوسكم ببطن مكة ، وأعرف مع المعرفين يا عمر : أنسيتم يوم أحد ، إذا تصعدون ولا تلوون على أحد ، وأنا أدعوكم في أخراكم ؟
أنسيتم يوم الأحزاب ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ؟
أنسيتم يوم كذا ؟
أنسيتم يوم كذا ؟
والمسلمون يقولون : صدق الله ورسوله ، يا نبي الله ، ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا^(١) .
وكان منطق عمر هو رأى أغلب المسلمين ، لأنهم نظروا إلى كتابة الصلح وبنوده نظرة معينة .

فلقد ساءهم أن يعترض سهيل على ديباجة الصلح التي أملاها رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه وهو يكتب حيث قال له ﷺ : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم هذا ما

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

صالح عليه محمد رسول الله ﷺ ... فرد سهيل بتغيير ذلك إلى باسمك اللهم ...
هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله ... لأن قريشاً لا تؤمن بالله الرحمن الرحيم
... ولا تصدق بأن محمداً رسول الله فنزل رسول الله ﷺ على ما رأى سهيل ...
وقال لعلى ﷺ اكتبه .

وأيضاً فلقد تصور الصحابة أن الشروط تعطى لقريش مزايا لا تصح ، وتحرم
المسلمين منها فى نفس الوقت ،. وتساءلوا. عن سبب منع المسلمين من المقدم
للمدينة إذا تركوا مكة وفى نفس الوقت تسمح لمن يكفر أن يذهب إلى قريش فى
مكة ويترك المدينة ، وغضبوا من ردهم هذا العام عن العمرة على
أن يؤدوها فى العام القادم ... وتصوروا ذلك دنية فى الدين لا يجوز قبولها .
ولو تدبر المسلمون فى الأمر لعلموا أن ما اتفق عليه رسول الله ﷺ هو الحق
وهو النصر .

لأن الديباجة التى كتبت من المسلمات التى لا تعارض حكماً إسلامياً ،
والزيادة التى حذفت لا تفيد أهل مكة ، ولا تضيف جديداً للمسلمين ، ولا ضرر فى
ترك كتابتها فهى جزء من العقيدة ثابتة فى القلوب .
وأيضاً فإن عقد الهدنة عشر سنوات يفتح الباب للإسلام ، ويجمع الناس
حوله .

وكذلك فإن المسلمين الذى يرتدون عن الإسلام وهم فى المدينة خير
للمسلمين أن يرحلوا منها حتى لا يكونوا عينا عليهم ، ويصيروا قوة للأعداء بين
المسلمين يخذل ويعبث .

أما المسلمون فى مكة فإن بقاءهم فيها دعوة عملية ، وحركة لله فى مكة ،
وبخاصة أن الصلح ينص على حرته فى الاختيار ، كما أن بقاء المسلمين فى
مكة اختبار عملى لصدق أهل مكة فى تطبيق بنود الصلح .

وأيضاً فإن تأجيل أداء العمرة هذا العام وأدائها فى العام القادم خير لهم من
دخول مكة عنوة هذا العام ... كما أن فى دعوتهم وقبولهم الصلح دليل أمام
الناس على أن الإسلام هو دين الأمن والسلام .

وقد زاد من غضب المسلمين ما رأوه من أبى جندل بن سهيل بن عمرو ... فإنه جاء إلى معسكر المسلمين في الحديبية مسلماً ، بعدما تمكن من الإفلات من قيد أبيه الذي وضعه فيه ... وقد جاء بعد كتابة الصلح وقبل توقيعه والإشهاد عليه . يقول المقرئ : خرج أبو جندل من سجن أبيه ، واجتنب الطريق وركب الجبال حتى هبط بالحديبية ففرح المسلمون به وتلقوه حين هبط من الجبل فسلموا عليه وآووه .

فرفع سهيل رأسه فإذا بابنه أبى جندل ، فقام إليه فضرب وجهه بغصن شوك وأخذ بتليبيه .

فصاح أبو جندل بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟

فزاد المسلمين ذلك شراً إلى ما بهم ، وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل . فقال حويطب بن عبد العزى لمكرز بن حفص : ما رأيت قوماً قط أشد حباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد ، أما إنى أقول لك : لا نأخذ من محمد نصفاً أبداً بعد هذا اليوم ، حتى يدخلوها عنوة . فقال مكرز : وأنا أرى ذلك .

وقال سهيل بن عمرو : هذا أول من قاضيتك عليه يا محمد ، رده . فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد . فقال سهيل : والله لا أكاتبك على شئ حتى ترده إلى فردة عليه ، ثم كلمه ﷺ أن يتركه ، فأبى سهيل وضرب وجه ابنه بغصن شوك فقال له رسول الله ﷺ : هبه لى أو أجره من العذاب إنا لم نقض الكتاب بعد . فقال سهيل : والله لا أفعل ولا أصالحك على شئ أبداً . فقال ﷺ : فأجره لى . قال : ما أنا بمجير له . فقال ﷺ : بلى فافعل . قال سهيل : ما أنا بفاعل^(١) .

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى ج ٢١ ص ١٠١ .

فقال مكرز وحويطب : يا محمد نحن نجيره لك وأجاراه ... وأما أبو جندب فقد أخذته مكرز وحويطب فأدخلاه فسطاطاً ، وأجاراه فكف عنه أبوه .
ثم رفع رسول الله ﷺ صوته فقال : يا أبا جندل ، اصبر ، واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك عهداً ، وإنا لا نغدر^(١) .

- سادساً -

موقف المسلمين بعد توقيع الصلح

بعد توقيع وثيقة الصلح ، وإشهارها بين الناس ، دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخلت بكر في عهد قريش .، وكان هذا أول اختبار لالتمزام الأطراف بالصلح الذي اتفقوا عليه .

رحب رسول الله ﷺ ببني خزاعة ، وكره ذلك القرشيون فقال حويطب لسهيل : بادأنا أخوالك بالعداوة ، وكانوا يتسترون منا ، قد دخلوا في عقد محمد وعهده .
فقال سهيل : ما هم إلا كغيرهم ، هؤلاء أقاربنا ولحمتنا ، قد دخلوا مع محمد ، قوم اختاروا لأنفسهم أمراً فما نصنع بهم ؟

قال حويطب : نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بني بكر .
قال سهيل :. إياك أن تسمع هذا. منك بنو بكر .، فإنهم أهل شؤم .، فيقعوا بخزاعة ، فيغضب محمد لحلفائه ، فينتقض العهد بيننا وبينه^(٢) .
ورجع سهيل وصاحبه إلى قريش .

وفرغ رسول الله ﷺ لأصحابه ، وقال لهم : قوموا فأنحروا ، واحلقوا ، فلم يجبه أحد إلى ذلك ، فرددها ثلاث مرات ، فلم يفعلوا ، فدخل على أم سلمة رضي الله عنها وهو شديد الغضب فاضطجع .

فقالت : مالك يا رسول الله ﷺ ؟ قالت مراراً وهو لا يجيبها .

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٩٤ ، الطبقات ج ٢ ص ٩٧ .

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٩٤ .

ثم قال : عجباً يا أم سلمة ، إنى قلت للناس انحروا وحلقوا مراراً ، فلم يجبنى أحد من الناس إلى ذلك ، وهم يسمعون كلامى ، وينظرون فى وجهى .
فقلت : يا رسول الله ﷺ انطلق أنت إلى هديك فانحره ، فإنهم سيقنتون بك .
فاضطبع بثوبه وخرج ، فأخذ الحربة ويمم هديه ، وأهوى بالحربة إلى البدنة رافعاً صوته : بسم الله والله أكبر ، ونحر .
فتواثب المسلمون إلى الهدى ، وازدحموا عليه ينحرونه ، حتى كاد بعضهم يقع على بعض وأشرك ﷺ بين أصحابه فى الهدى ، فنحر البدنة عن سبعة ، وكان الهدى سبعين بدنة وقيل مائة بدنة .

وشرد جمل أبى جهل من الهدى الذى أعده رسول الله ﷺ وهو يرعى وكان قد قلده وأشعره وكان جملاً نجيباً مهيراً فمر من الحديبية حتى انتهى إلى دار أبى جهل بمكة ووقف عنده وخرج فى إثره عمرو بن عنمة بن عدى بن نابى السلمى الأنصارى للإتيان به فأبى سفهاء مكة أن يعطوه حتى أمرهم سهيل بن عمرو بدفعه إليه تنفيذاً للصالح وحاول القرشيون شراءه بمائة ناقة فقال رسول الله ﷺ : لولا أننا سميناه فى الهدى فعلنا ونحره عن سبعة ونحر طلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف وعثمان ابن عفان بدنات ساقوها^(١) .

وكان رسول الله ﷺ مقيماً فى الحل ، ويصلى فى الحرم وحضره من يسأل من لحوم البدن فقيراً فأعطاهم من لحومها وجلودها ، وأكل المسلمون من هديهم وأطعموا المساكين ، وبعث ﷺ من الهدى بعشرين بدنة لتتحر عند المروة مع رجل من أسلم ، فنحرها عند المروة ، وفرق لحمها .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من نحر البدن ، دخل قبة له من آدم حمراء ، فيها الحلاق فحلق رأسه ، ثم أخرج رأسه من قبته وهو يقول : رحم الله المحلقين ، قيل يا رسول الله ، والمقصرين ، قال : رحم الله المحلقين ثلاثاً ثم قال : والمقصرين .
وحلق ناس ، وقصر آخرون ، وكان الذى حلقه ﷺ خراش بن الفضل الكعبى ، فلما حلقوا

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٩٤ .

بالحديبية ونحروا بعث الله تعالى ريحاً عاصفاً فاحتملت شعورهم فألقتهما في الحرم^(١) .
ثم أذن رسول الله ﷺ بالرحيل ، فلما ارتحلوا مطروا ما شاؤا وهم صائمون فنزل
رسول الله ﷺ ونزلوا معه فشربوا من ماء المطر ، وقام ﷺ فخطبهم ووعظهم فجاء
ثلاثة نفر إليه ، فجلس اثنان وذهب واحد معرضاً ، فقال رسول الله ﷺ : ألا أخبركم
خبر الثلاثة .

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : أما واحد فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فتاب فتاب الله عليه
وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه^(٢) .

وفهم الصحابة مغزى ما رأوا ، وما ذكره رسول الله ﷺ ، وعلموا أنه تم تربية لهم ،
وتوجيهاً لأهمية طاعة رسول الله ﷺ وعدم مراجعته فيما جاء به الوحي .

وأخذ عمر يحدث رسول الله ﷺ خوفاً على نفسه من موقفه يوم الصلح ،
فسأل رسول الله ﷺ فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال : ثكلتك
أمك يا عمر ، بدرت رسول الله ﷺ ثلاثاً ، كل ذلك لا يجيبك .

وحرك ﷺ بعيره حتى تقدم الناس ، وخشى عمر أن يكون نزل فيه قرآن ،
فأخذه ما قرب وما بعد لمراجعته بالحديبية وكراهته القضية ، وبينما هو يسير
مهموماً متقدماً على الناس ، إذا منادى رسول الله ﷺ ينادى : يا عمر بن الخطاب
فوقع في نفسه ما الله به أعلم ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فسلم ، فرد ﷺ
وهو مسرور ثم قال : أنزلت على سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس^(٣)
فإذا هو يقرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾^(٤) .

فأنزل الله في ذلك سورة الفتح ، فركض الناس وهم يقولون : أنزل على رسول
الله حتى توافوا عنده ، وهو يقرأها ، ويقال : لما نزلت قال جبريل : نهنك يا رسول
الله ، فلما هنأه جبريل هنأه المسلمون ، وكان نزول سورة الفتح بكراع الغميم^(٥) .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٠٤ .

(٢) مسند أحمد مسند الأنصار .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الحديبية ج ٦ ص ٣٦٣ .

(٤) سورة الفتح ، الآية ١ .

(٥) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٩٩ .

- سابعاً -

عدم رد المؤمنات المهاجرات

لم يفرق الصلح بين الرجال والنساء المسلمات اللاتي يتركن مكة إلى المدينة كما سكت عن حقوق المرأة المهاجرة التي لا بد منها .

ومن المعلوم أن رد المؤمنة إلى مكة إذا هاجرت أمر يتعارض مع حكم شرعى ، وهو حرمة بقاء المرأة المسلمة تحت عصمة زوج مشرك .

وقد أنزل الله تعالى أمره بعدم إعادة المسلمات المهاجرات إلى أزواجهن المشركين ، مع إعطاء المشركين ما أنفقوه في زواجهن ... وأحل الله للمؤمنين الزواج بالمهاجرات بعد انقضاء عدتهن ، ودفع مهرهن وكان رسول الله ﷺ هو ولى من لا ولى لها .

ومن هذا القبيل أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وكانت شابة صغيرة أسلمت بمكة ، فكانت تخرج إلى بادية أهلها فتقيم أياماً بناحية التنعيم ، ثم ترجع حتى أجمعت على المسير مهاجرة فخرجت كأنها تريد البادية على عادتها ، فوجدت رجلاً من خزاعة فأعلمته بإسلامها فأركبها بعيره ، حتى أقدمها المدينة بعد ثمانى ليال ، فدخلت على أم سلمة رضى الله عنها وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة ، وتخوفت أن يردها رسول الله ﷺ ، فلما دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة رضى الله عنها أعلمته بهجرة أم كلثوم . ووضحت له أنها تخاف أن يردها رسول الله ﷺ إلى زوجها المشرك فى مكة^(١) ، فأنزل الله فيها قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنَفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَسَّئِلُوا مَا أَنَفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنَفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ سَمَّحٌ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾^(٢) .

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الحديبية ج ٦ ص ٣٦٥ .

(٢) سورة الممتحنة ، الآية ١ .

فكان رسول الله ﷺ بعد هذه الآية يرد من جاءه من الرجال ، ولا يرد من جاءه من النساء ، فلما قدم أخوها الوليد ، وعمارة ، ابنا عقبة بن أبي معيط وقالوا : يا محمد ف لنا بشرطنا وما عاهدتنا عليه .

فقال ﷺ : قد نقض الله ذلك .

فرجعا إلى مكة ، وأخبرا قريشاً ، فلم يبعثوا أحداً ، ورضوا بأن تحبس النساء . ويقال. إن أميمة بنت الأنصاري من بنى عمرو بن عوف . كانت تحت حسان بن الدحاح أو ابن الدحاح وهو يومئذ مشرك ، ففرت من زوجها بمكة ، وأتت رسول الله ﷺ تريد الإسلام ، فهم ﷺ أن يردها إلى زوجها ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فامتحنها ﷺ وعلم إيمانها ، فأبقاها في المدينة ثم زوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف ، فولدت له عبد الله بن سهل .

- ثامناً -

فراق الكافرات

منع الله تعالى إعادة المسلمات إلى المشركين ، وحرّم على المسلمين الإبقاء على الزوجات الكافرات ، مع المعاملة بالمثل فيما أنفقوا ، فلهم أن يأخذوا ما أنفقوا ، وعليهم أن يدفعوا للمشركين ما بذلوا .

ولما أنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفِقُوا ﴾ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ ﷻ بِحُكْمِ بَيْنِكُمْ ﷻ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ طلق عمر بن الخطاب امرأتين له هما : قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة ، فتزوجها معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى أم كلثوم بنت جرويل بن مالك بن المسيب الخزاعية فتزوجها أبو جهم بن حذيفة ، وطلق عياض بن غنم الفهري أم الحكم بنت أبي

سفيان بن حرب ، فتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفي ، فولدت له عبد الرحمن ابن أم الحكم ، وكلهم يومئذ مشرك .
ولم يعلم أن امرأة من المسلمين لحقت بالمشركون مع وضوح الحكم ، وإعطاء النسوة الحرية في الاختيار .

المبحث الحادى عشر

الأحداث بين صلح الحديبية وفتح مكة

أتم المسلمون نحر هديهم ، وحلقوا رؤوسهم ، وبدأوا فى الرحيل من الحديبية بعد عشرين يوماً مكثوا فيها ، وكان الجو شديد الحرارة ، والماء لدى المسلمين قليل ، فأكرمهم الله تعالى بنزول المطر فشربوا ، وارتووا ، ونظفوا رجالهم ، وملابسهم . كان صلح الحديبية هو الفتح المبين للإسلام ، لأنه حقق ما كان يأمله النبى ﷺ حيث انفتحت المسبل أمام الدعوة ، وصارت الحركة بالإسلام آمنة . وشعر المسلمون لأول مرة أن القرشيين انكفأوا على مصالحهم ، وأخذوا يركزون على تجارتهم بعدما تأكدوا من عجزهم عن محاصرة الإسلام ، والقضاء على محمد ﷺ . وشعرت القبائل العربية ، والأعراب أنهم أمام الإسلام وجهاً لوجه ، يسمعون دعوته ، ويعلمون حقيقته ، ويقفون على محاسنه ومزاياه ... ولذلك وجدناهم لا ينتظرون مجئ الدعاة إليهم ، وإنما أخذوا يفدون على رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة .

وحين ننظر إلى مسرح الأحداث فى مجمل الجزيرة العربية نلاحظ صوراً متعددة ، حيث اتخذ كل فريق موقفاً ارتضاه لنفسه .

ففى جبهة مكة أخذ القرشيون يهتمون بمصالحهم الذاتية بعدما تيقنوا أن الأمر أفلت من أيديهم ، واتضح لهم أن تجمع الأحزاب ، وتآليب القبائل لا يفيدهم شيئاً ... وكان تعاهدهم مع المسلمين على إيقاف الحرب بينهم يوم الحديبية هو عملهم الذى أخذوا يتحركون من خلاله .

أما اليهود فى منطقة خيبر وحولها ، فقد فوجئوا بانسحاب قريش من المواجهة فبدأوا فى تكوين كتل جديد من بعض القبائل ليعملوا معاً لمحاربة الإسلام والمسلمين .

وأما أغلب القبائل فى الجزيرة العربية فقد رأت فى الهدنة بين قريش والمسلمين انتصاراً للصمود الإسلامى ، وبياناً واضحاً لما ينادى به المسلمون من حق وصواب ... ولذلك أخذوا فى تفهم الإسلام ، ومعرفة حقيقته ، وصدقه .

ولم يبق من قبائل الجزيرة إلا . عدد قليل منها ، لم ترض بالهدوء . ولأمن فأخذت توجه إمكاناتها الضعيفة ضد الإسلام والمسلمين .

ووجد المسلمون . ورسول الله ﷺ معهم أنهم أمام توجيهات مختلفة لا بد أن يتعاملوا مع كل منها بما يناسبها ... ولذلك تنوعت أعمال المسلمين ، وتضاعفت حركاتهم بدين الله تعالى .

لم يكن صلح الحديبية فرصة يستريح فيها المسلمون . من شدة الجهاد . وصعوبة الحركة بدين الله تعالى .

وإنما كان الصلح بداية لجهد شاق ، وعمل دءوب عاشه المسلمون جميعاً انتصاراً للحق ، وتأبيداً لدين الله تعالى .

لقد بدأ المسلمون . فى المدينة يتصلون . بإخوانهم فى مكة . يشدون . أزربهم وينصحونهم بما يحتاجون إليه ، ويدلونهم على كثير مما يحتاجون إليه .

وأخذوا كذلك فى الذهاب . إلى أطراف العالم كله يبلغون . دين الله تعالى ، ويحملون رسائل الرسول ﷺ إلى شيوخ القبائل ، وملوك العالم ، وسلاطين الدنيا .

واستمروا فى التصدى لليهود الذين اتخذوا من خيبر منطقة معادية للمسلمين ، فأقاموا فيها حصونهم ، وجمعوا الناس حولهم ، وأخذوا يبيثون فى قبائل الأطراف التمرد على المسلمين ، ويستعدون الرومان وأعوانهم للعمل ضد محمد ودينه .

وقد عاشت المدينة المنورة نشاطاً واسعاً بعد الحديبية .

وفى هذا المبحث سنتناول أهم الأحداث وبخاصة كيفية تعامل المسلمين مع كل الفرقاء على كثرتهم وذلك فيما يلى :

- أولاً -

هدوء جبهة قريش

وظهور مفرزة أبي بصير ﷺ

تم توقيع الصلح فى شهر ذى القعدة ، والعرب بقبائلهم ، وأعرابهم فى مكة يقيمون أسواقهم ، ويؤدون منسكهم وفق ما بقى عندهم من علم بدين إبراهيم ﷺ ... فشاهدوا ما حدث بين المسلمين وبين قريش ، وعلموا بالصلح الذى تم .

لقد كانت قريش تقود الحرب ضد الإسلام والمسلمين ، وتجمع حولها المنافقين ، واليهود ، والأعراب ، وكل معارض لظهور دين الله تعالى .

فلما تم صلح الحديبية التزمت قريش به ، وتخلت عن كافة أنشطتها المناوئة للإسلام ، فانفرط عقد الأحزاب ، وخمدت فتن المنافقين ، وانحسر خطر اليهود ، وتبعثرت القبائل الوثنية فى أرجاء الجزيرة العربية ... وأخذت قريش تهتم بمصالحها ، وتجاريتها وبخاصة بعدما أمنت طريق قوافلها .

وأدى هذا الموضع إلى هدوء عام للعواصف القرشية التى كانت تثار ضد الإسلام وأخذ المسلمون يهتمون بتعريف الناس دينهم بالحسن ، ومخاطبة القبائل وإقناعها بالإسلام الأمر الذى أدى إلى دخول الناس فى الإسلام بأعداد غفيرة ، حتى أن الذين دخلوا فى الإسلام فى العام ما بين الصلح وعمره القضاء كانوا أكثر عدداً من الذين أسلموا فى المدة من أول البعثة حتى الحديبية .

ولذلك تأكد الصحابة من أن صلح الحديبية هو الفتح الأعظم كما أخبرتهم الله تعالى فى سورة الفتح .

يروى الزهرى : أن صلح الحديبية أعظم فَنَحْ فَنَحْ فى الإسلام .

ويستدل ابن إسحاق على عظمة هذا الفتح بأن عدد الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية كانوا ألفاً وأربعمئة والذين خرجوا يوم فتح مكة كانوا عشرة آلاف إن صلح الحديبية أظهر الوجه الحقيقى للإسلام ، فبدأ الناس يتأملونه ...

ولذلك سارعوا إلى الدخول فيه بعدما انزاحت العقبة الكئود أمام إيصال الحق للناس ، واستمر تطبيق بنود الصلح المتفق عليها ، ولم يحدث لها تغيير ، إلا بعد أن طلب القرشيون تعديل البند الثالث الذى أظهر التطبيق العملى ضرره على قريش بعدما كَوَّن أبو بصير ﷺ مفرزته فى طريق أهل مكة .

لقد جلبت قريش الشر لنفسها باشتراطها ضرورة إعادة من يسلم من أهل مكة إليها إذا هاجر إلى المدينة ، وأثبتت الحوادث أن هذا الشرط أفاد الجبهة الإسلامية كثيراً وذلك بوقوع ما عرف بقصة " أبى بصير " وهو عتبة بن أسيد الثقفى ؓ... فلقد أسلم بعد الصلح فى مكة ، وهرب منها وجاء إلى رسول الله ﷺ فى المدينة فأرسل قومه إلى رسول الله ﷺ يطلبون رده إلى قريش تطبيقاً لبنود الصلح ، وحمل الطلب إلى رسول الله ﷺ "خنيس بن جابر العامرى" ومولى لهم يسمى "كوثر" على بعير لهم ليعودا بأبى بصير إلى مكة .

فأمر رسول الله ﷺ أبى بصير أن يرجع معهم ، ودفعه إليهما .
فقال أبو بصير : يا رسول الله تردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى !!...
فقال ﷺ : يا أبى بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً .
فقال أبو بصير : يا رسول الله ﷺ ، تردنى إلى المشركين .
قال ﷺ : انطلق أبى بصير ، فإن الله سيجعل لك مخرجاً ، ودفعه إلى العامرى وصاحبه .

فخرج أبو بصير معهما ، وجعل المسلمون يسرون إلى أبى بصير : يا أبى بصير ، أبشر فإن الله جاعل لك مخرجاً ، والرجل يكون خيراً من ألف رجل ، فافعل ، وافعل يأمرونه بالذين معه لينقذ نفسه منهم فهذا حقه ، وليفعل ما سيفعله قبل أن يفعل به ، وقد أعد القرشيون للعودة به عدتهم ، فلما وصلا به إلى ذى الحليفة عند صلاة الظهر صلى أبو بصير فى مسجدها ركعتين صلاة المسافر ، ومعه زاد له من تمر يحمله فمال إلى جدار المسجد فوضع زاده فجعل يتغذى ودعاهما للطعام فقالا له : لا حاجة لنا فى طعامك .

فقال لهم : ولكنى لو دعوتونى إلى طعامكم لأجبتكم وأكلت معكم ، فاستحيوا وأكلوا .

وقد علق العامري سيفه أثناء الطعام على الجدار ، وتحادثوا وقد أمن كل منهم للآخر .

فقال أبو بصير : يا أخا بني عامر ما اسمك ؟

قال : خنيس .

قال : ابن من ؟

قال : ابن جابر .

قال : يا أبا جابر أصارم سيفك هذا ؟

قال : نعم .

قال : ناولينه أنظر إليه إن شئت ، فناوله وكان قريباً من السيف منه فأخذ أبو

بصير بقائم السيف والعامري ممسك بالجفن فعلاه به وضربه حتى برد^(١) .

فخرج " كوثر " هارباً يعدو نحو المدينة ، وأبو بصير في إثره فأعجزه حتى سبقه إلى رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه بعد العصر ، إذ طلع كوثر يعدو فقال ﷺ : هذا رجل قد رأى ذعراً .

وأقبل " كوثر " حتى وقف أمام رسول الله ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ : ويحك ؟ مالك ؟

قال : قتل صاحبكم صاحبي وأفلت منه وكاد أن يقتلني .

وأقبل أبو بصير ، فأناخ بغير العامري بباب المسجد ، ودخل متوحشاً سيف العامري ، فقال : يا رسول الله وقت ذمتك ، وأدى الله عنك ، وقد أسلمتني بيد العدو ، وقد امتنعت بديني من أن أفتن ، أو أكذب بالحق .

فقال ﷺ : ويل أمه محش حُرْبٍ لو كان معه رجال^(٢) .

وقدم أبو بصير سلب العامري ، ورحله ، وسيفه ، ليخمسه رسول الله ﷺ

فقال ﷺ : إني إذا خمسته رأوا أني لم أوف لهم بالذي عاهدتم عليه ، ولكن شأنك بسلب صاحبك .

(١) المغازي ج ٢ ص ٦٢٦ .

(٢) المرجع السابق .

ثم قال ﷺ لكوثر : ترجع به إلى أصحابك ؟
فقال كوثر : يا محمد مالي به قوة ولا يدان تقدر عليه .
فقال ﷺ لأبى بصير : اذهب حيث شئت^(١) .
فخرج حتى أتى العيص ، فنزل منه ناحية على ساحل البحر على طريق
عير قريش إلى الشام .
وبلغ المسلمين الذين قد حبسوا بمكة خبر أبى بصير ، فتسللوا إليه .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذى كتب إليهم بقول رسول الله ﷺ لأبى
بصير :: ويل أمه محشّ حرب لو كان معه رجال ، وأخبرهم أنه بالساحل ،
فاجتمع عند أبى بصير قريب من سبعين مسلماً على رأسهم "أبو جندل بن
سهيل" ، فكانوا بالعيص ، وضيقوا على قريش ، فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ،
ولا تمر عير إلا اقتطعوها ، ومر بهم ركب يريدون الشام ، معهم ثمانون بعيراً ،
فأخذوا ذلك ، وأصاب كل رجل منهم قيمة ثلاثين ديناراً ، وكانوا قد أمروا عليهم أبا
بصير ، فكان يصلى بهم ، ويقرئهم ويجمعهم ، وهم له سامعون مطيعون فغاض
قريشاً صنيع أبى بصير ، وشق عليهم ، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم
إلا أدخل أبا بصير إليه ومن معه ، فلا حاجة لنا بهم فكتب ﷺ إلى أبى بصير أن
يقدم بأصحابه معه ، فجاءه الكتاب وهو يموت فجعل يقرأه ﷺ ومات ، والكتاب
فى يده فدفنه أصحابه ، وأقبلوا إلى المدينة وهم سبعون رجلاً^(٢) .

وهكذا تم إلغاء الشرط الذى وضعه القرشيون لأنفسهم ، ظناً منهم أنه يفيدهم
فى منع أهل مكة من اعتناق الإسلام .

وقد استمرت جبهة قريش على هدوئها إلى أن نقضت قريش العهد بمناصرة بنى
بكر حلفائها على بنى خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ فكان أن تم فتح مكة .

(١) المغازى ج ٢ ص ٦٢٧ .

(٢) المغازى ج ٢ ص ٦٣١ .

- ثانياً -

العمل فى المحيط العام

” إرسائل الرسائل ”

انفتحت السبل ، وأصبح الطريق آمناً أمام الدعاة ليصلوا بدينهم للناس ، وتشوق الجميع ليتعلموا هذا الدين الذى أعلنه محمد ﷺ وتغلب به على قريش ، وانتشر بسببه السلام بين العرب جميعاً ... ورأى النبى ﷺ أن الجبهة أمام الدعوة قد اتسعت لتشمل الجزيرة كله ، والعالم كله ما عدا جيوب صغيرة تتأبى قبول الإسلام ، والاستماع لدعائه ... وهده الله سبحانه وتعالى لوسيلة تناسب هذا التوسع ، هى وسيلة الرسائل يحملها الصحابة ، الذين يختارهم لحملها إلى رؤساء القبائل ، وشيوخ العشائر ، وملوك الدنيا ... وفيها يدعوهم ومن وراءهم إلى الدخول فى الإسلام .

فأنشأ ﷺ ديواناً لـ ”كتابة الرسائل” وهو الذى عرف بديوان الإنشاء ، ويقصد به إعداد المكان الذى تكتب فيه الرسائل التى يملئها رسول الله ﷺ ليحملها من يختاره ﷺ ... كما يستقبل الرسائل التى تأتى إلى رسول الله ﷺ .

وهو أول ديوان وضع فى الإسلام ، وذلك أن النبى ﷺ كان يكتب أمراءه ، وأصحاب سراياه من أصحابه ، ويكتبونه ، وكتب إلى من أمكنه من ملوك الأرض ورؤساء العالم ، يدعوهم إلى الإسلام .

واتخذ من أصحابه من يكتب له ، وقد ذكر ابن عساكر أنهم كانوا خمسة وعشرين صحابياً فذكر منهم : علياً ، وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعامر بن فهيرة وعبد الله بن الأرقم ، وأبى بن كعب ، وثابت بن قيس بن شماس ، وخالد بن سعيد ابن العاص ، وأخاه (أبان) ، وحنظلة بن أبى عامر الاسدى ، وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان ، وشرحبيل ابن حسنة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول والزبير بن العوام ، ومعيقب بن أبى فاطمة الدوسى ، والمغيرة بن شعبة ، وخالد بن الوليد ، والعلاء بن الحضرمى ، وعمر بن العاص ، وجهيم بن الصلت وعبد الله بن رواحة ، ومحمد بن مسلمة ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح^(١) .

(١) الاستيعاب ج ١ ص ٥١ .

وقد أوصلهم العراقي إلى اثنين وأربعين كاتباً^(١) ، وأوصلهم الدكتور / عبد الحى الفرماوى إلى ست وأربعين كاتباً^(٢) .

وقد اتخذ النبى ﷺ كتاباً يعرفون لغة من سيكتب إليهم ، وعلى رأسهم زيد بن ثابت ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن الأرقم ، يقول ابن إسحاق : كان زيد بن ثابت يكتب الوحي ، ويكتب إلى الملوك ، وكان إذا غاب عبد الله بن الأرقم وزيد بن ثابت واحتاج رسول الله ﷺ أن يكتب إلى أمراء الأجناد والملوك أمر من حضر أن يكتب له^(٣) وكان اختيار الرسول لكتابه على أساس اتصافهم بالصدق والأمانة ، والدقة والورع يقول أبو بكر لزيد بن ثابت : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، فقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن واجمعه^(٤) .

يقول ابن حجر : لأنه لو لم تثبت أمانته ، وكفايته ، وعقله لما استكتبه النبى ﷺ وإنم وصفه بالعقل ، وعدم الاتهام دون ما عداهما إشارة إلى استمرار ذلك فيه^(٥) . وكان الكتبة من الصحابة يكتبون على اللوح ، والرق (الجلد المرقق) والكاغد (الصحيفة) واللخاف (الحجارة البيضاء الرقيقة) ، والنحاس ، والحديد ، وعسيب النخل ، وعلى عظم أكتاف الإبل ، والغنم ، والأدم^(٦) .

يروى ابن سعد أن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك ، وكان الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً فاتخذ رسول الله ﷺ يوماً **خاتماً من فضة** ، وفصّه منه ،. نقش عليه ثلاثة أسطر : **محمد رسول الله** ، وختم به الكتب فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم .

(١) التراتيب الإدارية ص ١٩٢ .

(٢) رسالة مخطوطة بكلية أصول الدين بعنوان "رسم المصحف ونقطه" ورقة (١٨ ، ١٩) .

(٣) الفتح الربانى بشرح مسند الإمام أحمد الشيبانى ج ١ ص ١٤٥ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب الحكام . باب يستحب للكاتب أن يكون أميناً ج ١٣ ص ١٨٣ .

(٥) فتح البارى ج ١٣ ص ١٨٤ .

(٦) التراتيب الإدارية ص ١٩٧ .

وقد تميزت رسائله ﷺ بالمواصفات التالية :

- ١ . كان يضع عنواناً لرسائله هو (من محمد رسول الله إلى فلان) ويجعل العنوان قسمين ، مفصول بينهما مثل : (من محمد رسول الله ... إلى فلان) ...
- ٢ . كان يصدر رسائله بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) يقول ابن حجر : جمعت كتبه ﷺ إلى الملوك . ، وغيرهم . فلم يقع لى شئ منها المبدأءم بالحمد . بل بالبسملة^(١) .
- ٣ . كان يبدأ رسائله بعد البسملة بذكر اسمه ﷺ ، واسم المرسل إليه ، أو شهرته فإن كان المكتوب إليه ملكاً كتب بعد ذكر اسمه عظيم القوم الفلانيين وربما كتب ملك القوم الفلانيين ، وربما كتب صاحب مملكة كذا ، وكان يعبر عن نفسه ﷺ فى أثناء كتبه بلفظ الإفراد ، مثل إنى ، ولى ، وجاءنى ، ووفد على ، وما أشبه ذلك ، وربما أتى بلفظ الجمع مثل بلغنا ، وجاءنا ، ونحو ذلك ، وكان يخاطب المكتوب إليه عند الإفراد بكاف الخطاب ، مثل لك وعليك ، وتاء المخاطب ، مثل أنت قلت كذا وكذا ، وجعلت كذا ، وعند التثنية بلفظها مثل أنهما ، ولكما ، وعليكما ، وعند الجمع ، بلفظة مثل أنتم ولكم ، وعليكم ، وما أشبه ذلك^(٢) .
- ٤ . كان ﷺ يكتب فى رسائله : أما بعد ، ويضعها فاصلة بين المقدمة وعرض الموضوع .
- ٥ . كان يختم رسائله ﷺ : بالسلام ، فيقول لأهل الكفر ، والسلام على من اتبع الهدى ، ويكتفى فى بعضها بقوله ... والسلام .
- ٦ . كانت الرسائل تذيل باسم كاتبها ، وبخاتم رسول الله ﷺ المكتوب فيه (محمد رسول الله) تكتب على ثلاثة أسطر فى كل سطر كلمة (محمد) ، (رسول) ، (الله) من أسفل إلى أعلى ، ليكون لفظ الله هو الأعلى^(٣) .
- ٧ . كانت الرسائل تؤرخ بالهجرة ، حيث عرف التاريخ بها فى زمنه ﷺ .

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٦٨ .

(٢) التراتيب الإدارية ص ٢٠٣ .

(٣) الرسائل النبوية ص ١١٨ .

وقد كانت الرسائل عملاً دقيقاً ، حسناً ، فبلغت الإسلام . ، وخاطبت الأمم والملوك بالحسنى ، واشتملت على الحقائق التالية :

أولاً : وجهت الرسائل إلى الملوك والأمراء فهم قادة الناس ، ورعيته على دينهم ، وقد تضمنت الرسائل ما يفيد مسؤولية الملوك عن رعاياهم ومن ذلك : (... فإنما عليك إثم المجوس) ، (عليك إثم الإريسيين) ، (فإنما عليك إثم النصارى) (فإنما عليك إثم القبط) ، (عليك إثم الأكاريين) وبذلك تعد هذه الرسائل تبليغاً لعالمية الإسلام بصورة عملية .

ثانياً : كانت الرسائل تتناسب مع المرسل إليهم لهجة ، وأسلوباً ، واستدلالاً ، ولذلك كانت تتكلم عن المسيح والكتاب إذا كان الملك من أهل الكتاب وتتكلم عن مساوئ الكفر والضلال إذا كان الملك كافراً كالمجوس .

ثالثاً : كانت الرسائل واضحة في موضوعها فهي كلها تدعو إلى التوحيد ، وطاعة الله ، وتتضمن الإنذار والتشهير ، وتربط دوام الملك بالإيمان ، وتخوف من زوال الملك حين الاستمرار على الكفر والمعصية^(١) .

وقد أرسل رسول الله ﷺ كتبه في شهر المحرم سنة سبع ، بعد العودة من الحديبية بعشرين يوماً وبعدها تتابعت كتبه إلى سائر الناس ، وقد عد ابن سعد منها أكثر من سبعين كتاباً^(٢) وفيما يلي نصوص أهم هذه الكتب :

١. كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة :

حمل الرسالة إلى النجاشي الصحابي عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه ونص الرسالة :

هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الإسلام ،

(١) النظام السياسي في الإسلام ص ١٤٤ .

(٢) انظر الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٥٨-٢٧٩ .

فإني أنا رسوله ، فأسلم تسلم : ﴿ قُلْ يَتَاهَلْ آلَ كَتَبٍ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(١) فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنْ عَلَيْكَ إِثْمُ النَّصَارَى مِنْ قَوْمِكَ .

وقد رحب النجاشي بالرسالة ، ووضعتها على عينه ، وأعلن إسلامه أمام جعفر بن أبي طالب .، وكتب رداً. إلى النبي ﷺ جاء فيه : (إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم سلام عليك نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته ، والله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فو رب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت فروقاً ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك ، وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً ، مصداقاً وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين^(٢) .
ثم جهز سفينتين حمل فيهما المهاجرين إلى الحبشة ، وعاد بهم عمرو بن أمية إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فوصلوا إليها في شهر رجب من السنة السابعة بعد الهجرة ، والمسلمون في غزوة خيبر .

٢ . كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس ملك مصر :

حمل رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس حاطب بن أبي بلتعة ، وقد جاء فيها :
بسم الله الرحمن الرحيم ... من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يوثك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم أهل القبط^(٣) :

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٤ .

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٢ .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ۙ ﴾ .

وقد قام حاطب بدعوة المقوقس إلى الإسلام ، وبين له قرب النصارى من المسلمين وأن محمداً هو الذى بشر به عيسى عليه السلام .
وقد أخذ المقوقس الكتاب ، وكتب رداً عليه جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ... لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك أما بعد ... فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك ^(١) .

٣. كتاب النبى ﷺ إلى كسرى ملك فارس :

وأرسل النبى ﷺ رسالة إلى كسرى حملها الصحابى عبد الله بن حذافة السهمى رضي الله عنه قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ... من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس ^(٢) .

٤. كتاب النبى ﷺ إلى قيصر الروم :

وأرسل النبى ﷺ رسالة إلى قيصر الروم ، قال فيها :

(١) الرحيق المختوم ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٣٨١ .

بسم الله الرحمن الرحيم ... من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتكَ الله أَجْرَكَ مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الإريسيين : ﴿ قُلْ يَتَاهَلْ أَلْكَتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(١) .

ولخاتار. النبي ﷺ لحمل هذا. الكتاب. دحية بن خليفة الكلبي ﷺ . وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر .

وقد روى البخارى عن ابن عباس : أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ هادن فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء (بيت المقدس) فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسباً .

فقال : ادنوه منى ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه .

يقول أبو سفيان : فوالله ، لولا الحياء من أن يأتروا على كذبا لكذبت عنه .

ثم قال : أول ما سألتى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟

فقلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قال : لا .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٤ .

- قال : فاشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟
قلت : بل ضعفاؤهم .
قال : أيزيدون أم ينقصون ؟
قلت : بل يزدون .
قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن دخل فيه .
قلت : لا .
قال : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟
قلت : لا .
قال : فهل يغدر ؟
قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .
قال : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .
قال : فهل قاتلتموه ؟
قال : نعم .
قال : فكيف كان قتلكم إياه ؟
قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .
قال : بماذا يأمركم ؟
قلت : يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آبائكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق ، والعفاف ، والصلة .
فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها .
وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا : قلت لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .
وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فقلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا فقلت
أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله .
وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أنهم ضعفاؤهم ، فذكرت
أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل .
وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزدون ، وكذلك أمر الإيمان
حتى يتم .

وسألتك أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن دخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك
الإيمان حت تخالط بشاشته القلوب .
وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً
وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف .
فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه
خارج ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه
ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ ، فقرأه ، فلما
فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده ، وكثر اللغط ، وأمر بنا فأخرجنا :
فقلت لأصحابه حين أخرجنا لقد علا أمر ابن أبي كبشة وإنه ليخافه على ملك
بنى الأصفر ، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله على
الإسلام^(١) .

٥. كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى :

وأرسل النبي ﷺ رسالة إلى المنذر رسالة جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ... من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام
عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما
بعد فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع
رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا

(١) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٦٣ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٩٠ .

عليك خيراً ، وإنى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نغزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية^(١) .

وحمل الرسالة المنذر العلاء الحضرمى ؑ .

٦. كتاب النبى ﷺ إلى هوزة بن علي ، وثمامة بن آثال. صاحبى اليمامة :

وأرسل النبى ﷺ مع الصحابى سليط بن عمرو العامرى ؑ رسالة إلى هوزة جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ... من محمد رسول الله ﷺ إلى هوزة بن علي ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك^(٢) .

٧. كتاب النبى ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر صاحب دمشق :

وأرسل شجاع بن وهب من بنى خزيمة ؑ برسالة إلى الحارث بن أبى شمس صاحب دمشق جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ... من محمد رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر سلام على من اتبع الهدى ، وآمن به وصدق ، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك^(٣) .

٨. كتاب النبى ﷺ إلى ملك عمان وأخيه :

وأرسل النبى ﷺ عمرو بن العاص ؑ إلى جيفر ملك عمان وأخيه عياد برسالة جاء فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله ﷺ إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام ،

(١) الرحيق المختوم ص ٣٥٨ .

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٥٨ .

(٣) الرحيق المختوم ص ٣٥٩ .

أسلما تسلما ، فإنى رسول الله ﷺ إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل ، وخیلى تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما^(١) .

٩. الدعاة حملة الرسائل :

تخير النبى ﷺ من أصحابه ﷺ الأعراف بدينه ، الجميل فى خلقته ، الكريم فى خلقه ،. القوى فى شجاعته ،. الأملين فى عمله ونشاطه ،. الحليم فى صبره ،. المداهية فى قوله وعمله ،. وأرسلهم فرادى لمواجهة ملوك الأرض. وشعوبها ، ودعوتهم إلى الله تعالى .

وقد حمل هؤلاء المصاحبة كتب رسول الله ﷺ إلى ملوك ورؤساء الدنيا ، ولكنهم لم يكونوا مجرد حاملين للرسائل ، وإنما كانوا دعاة ، يحملون دينهم ، ويعملون له ، ويدعون إليه بالحسنى ، ويردون عنه زيف الضالين ، وشبه المحرفين . وكان رسول الله ﷺ يوصيهم بالخلق الكريم ، والتعامل السهل ، يروى البخارى بسنده أن رسول الله ﷺ كان يقول لأصحابه :. "يسروا ولا تعسروا إنما بعثتم ميسرين لا معسرين" .

ويروى البخارى أيضاً بسنده عن أبى سعيد بن بردة عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن وقال لهما : يسرا ولا تعسرا ، بشرا ولا تنفرا ، تطاوعا ولا تختلفا^(٢) .

يقول ابن حجر :. كان ذلك شأنه ﷺ فى حق كل من بعثه إلى جهة من الجهات^(٣) .

وحين ننظر إلى أعمال هؤلاء السفراء وأقوالهم ندرك دورهم فى الدعوة إلى الله تعالى ، ونعلم بيقين أن هؤلاء السفراء لم يكونوا رجالاً عاديين ، وأنهم تميزوا بعدة صفات أهمها :

(١) الرحيق المختوم ص ٣٥٩ ، والظاهر أن الرسالة التى حملها ، عمرو بن العاص كانت فى وقت متأخر بعد سلام عمرو بن العاص لأنه تأخر فى إسلامه .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الوضوء . باب صب الماء على البول ج ١ ص ٣٢٣ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب الجهاد . باب ما يكره فى التنازع ج ٦ ص ١٦٣ .

(أ) الفهم الدقيق للإسلام ، وإحاطتهم التامة بكل ما نزل من القرآن الكريم وبكل ما حدث به ﷺ .

(ب) خبرتهم الواسعة بالجهات التي ذهبوا إليها ، وبالناس الذين تحدثوا معهم ولذلك كانوا يتكلمون معهم ، ويناقشونهم في عقائدهم حديث الخبير الذي يعرف حقائق الشئ ظاهراً وباطناً ويدرك حاجته ، ومراميه .

(ج) تحليلهم بحسن الخلق ، وللمصبر الجميل ومراعاة حق مخاطبيهم في الفهم والمعرفة ولذلك كانوا يشرحون ، ويوضحون ويجيبون على أى تساؤل يوجه إليهم .

(د) اتصافهم بسرعة مواجهة المواقف المفاجئة ، وحسن الحيلة ، وبذلك تخلصوا من الانفعال والعصبية ، وتمكنوا من تحقيق الغاية التي ذهبوا إليها .

(هـ) تمتعهم بحسن الفهم ، وحسن الخطاب ، وحسن العرض . ولذلك كانوا يتكلمون مع من يحادثهم في مسائل هامة ، في بداهة عالية ، وهدوء رصين ، ودقة ملتزمة بتعاليم الإسلام .

(و) صدقهم في الاعتقاد ، ولذلك وفوا لإيمانهم ، وحافظوا على حقوق محدثيهم وعرضوا قضيتهم بكل صدق ، ووضوح ، بلا تردد ، أو مداراة ، وكانوا دعوة عملية صريحة

(ز) شجاعتهم الشخصية النابعة من ثقتهم في الله ، واعتزازهم بالانتساب إليه جعلهم يؤكدون صدق الإسلام وإن خالف ما عليه الناس ، ويناقشون الملوك والرؤساء وهم فرادى ، وسط أبهة الملك ، وقوة السلطان .

إن هذه الصفات جعلتهم سفراء لله ورسوله ، حين تحدثوا مع من أرسلوا إليهم ، يتضح ذلك حين ننظر في كلماتهم التي ذكروها لمن ذهبوا إليهم .

من ذلك ما ذكره دحية الكلبي لقيصر الروم ، قال له :

يا قيصر أرسلنى من هو خير منك ، والذى أرسله هو خير منه ومنك ، فاسمع بذل ، ثم أجب بنصح ، فإنك إن لم تذلل لم تفهم ، وإن لم تنصح لم تتصف .
قال : هات .

قال : هل تعلم أكان المسيح يصلى ؟

قال : نعم .

قال : فإنى أدعوك إلى من كان المسيح يصلى له ، وأدعوك إلى من دبر خلق السموات والأرض والمسيح فى بطن أمه .
أدعوك إلى هذا النبی الأمی الذى بشر به موسى ، وبشر به عيسى بن مريم بعده وعندك من ذلك أثاره ، من علم تكفى من العيان ، وتشفى من الخبر .
فإن أجبت كانت لك الدنيا والآخرة ، وإلا ذهبت عنك الآخرة ، وشوركت الدنيا ، واعلم أن لك رباً يقصم الجبابرة ، ويغير النعم .
فأخذ قيصر الكتاب فوضعه على عينيه ورأسه وقبله ، ثم قال : أما والله ما تركت كتاباً إلا وقرأته ، ولا عالماً إلا سألته ، فما رأيت إلا خيراً ، فأمهلى حتى أنظر من كان المسيح يصلى له ، فإنى أكره أن أجيبك اليوم بأمر أرى غداً ما هو أحسن منه فأرجع عنه فيضرنى ذلك ، لا ينفعنى^(١) .
ومنه أيضاً ما ذكره العلاء الحضرمي للمنذر بن ساوى ملك البحرين
قال له :

يا منذر إنك عظيم العقل فى الدنيا ، فلا تصغرن عن الآخرة .
إن هذه المجوسية شر دين . ليس فيها تكرم العرب ، ولا علم أهل الكتاب ينكحون ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتكره على أكله ، ويعبدون فى الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة .
ولست بعديم عقل ، ولا فاقد رأى فانظر .
هلى ينبغى لمن لا يكذب أن لا تصدقه ؟!
ولمن لا يخون أن لا تأمنه ؟!
ولمن لا يخلف أن لا تثق به ؟!
فإن كان هذا هكذا ، فهو هذا النبی الأمی ، الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أوليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه ، إن كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل البصر .
فقال المنذر .: قد نظرت فى هذا الأمر الذى فى يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت فى دينكم فوجدته للآخرة والدنيا ، فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية

(١) الروض الأنف ج ٤ ص ٢٤٩ .

الحياة ، وراحة الموت ، ولقد عجبت أمس ممن يقبله ، وعجبت اليوم ممن يرده ،
إن من إعظام من جاء به أن يعظم رسله ، وسأنظر^(١) .

ومن ذلك ما ذكره عمرو بن العاص للجلندي ، قال له :

يا جلندي إنك وإن كنت منا بعيداً ، فإنك من الله غير بعيد .
إن الذي تفرد بخلقك أهل أن تفرد بعبادتك ، وأن لا تشرك به من لم يشركه
فيك واعلم أنه يميئك الذي أحياك ، ويعيدك الذي بدأك .
فانظر في هذا النبي الأُمى الذي جاء بالدنيا والآخرة ، فإن كان يريد به أجراً
فامنعه ، أو يميل به هوى فدعه ، ثم انظر فيما يجيئ به هل يشبه ما يجيئ به الناس
فإن كان يشبهه فسله العيان ، وتخير عليه في الخبر ، وإن كان لا يشبهه فأقبل
ما قال ، وخف ما وعد .

قال الجلندي : إنه والله لقد دلني على صدق هذا النبي الأُمى أنه لا يأمر
بخير إلا كان أول من أخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه
يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، وأنه يفى بالعهد ، وينجز الموعد ، وأنه لا
يزال سر قد اطلع عليه يساوى فيه أهله ، وأشهد أنه نبي^(٢) .

**ومن ذلك ما ذكره المهاجر بن أبي أمية للحارث بن عبد كلال ، حيث
قال :**

يا حارث إنك كنت أول من عرض عليه النبي ﷺ نفسه فخطئت عنه ، وأنت
أعظم الملوك قدراً .
فإذا نظرت في غلبة الملوك ، فانظر في غالب الملوك .
وإذا سرك يومك فخف غدك .

وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارها ، وبقيت أخبارها ، عاشوا طويلاً ، وأملوا
بعيداً ، وتزودوا قليلاً ، منهم من أدركه الموت ، ومنهم من أكلته النقم .

وإني أدعوك إلى الرب الذي إن أردت الهدى لم يمنعك ، وإن أرادك لم
يمنعه منك أحد وأدعوك إلى النبي الأُمى الذي ليس له شيء أحسن مما يأمر به ولا

(١) الروض الأنف ج ٤ ص ٢٥٠ .

(٢) الروض الأنف ج ٤ ص ٢٥٠ .

أقبح مما ينهى عنه ، واعلم أن لك رباً يميت الحى ، ويحي الميت ، ويعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .

فقال الحارث : قد كان هذا النبی عرض نفسه على فخطئت عنه ، وكان ذخراً لمن صار إليه ، وكان أمره أمراً سبق ، فحضره اليأس وغاب عنه الطمع ، ولم يكن لى قرابة أحتمله عليها ، ولا لى فيه هوى أتبعه له ، غير أنى أرى أمراً لم يوسوسه الكذب ولم يسنده الباطل ، له بدء سار ، وعاقبة نافعة وسأنظر .

إن هذه المواعظ التى واجه بها صحابة رسول الله ﷺ الملوك والرؤساء تدل بوضوح على عبقرية هؤلاء الصحابة ، ومدى تمتعهم بالمزايا التى يجب أن يتحلى بها الدعاة وهم يتحركون بالإسلام ، فهم ليسوا موظفين عاديين يؤدون عملهم فقط ، وإنما هم أصحاب رسالة ، وجنود قضية ، يعيشون لها ويتحركون بها ... وتحقيق انتصارها هى كل همهم ، واهتماماتهم .

إن الجو الذى قيلت فيه هذه الكلمات يؤكد طبيعة هؤلاء الرجال من أصحاب رسول الله ﷺ ، إنها قيلت لملوك وأمراء ، وهم بين جنودهم ، ووزرائهم ، وحاشيتهم ، ولم يكن أحد منهم قد دخل فى الإسلام بعد ، بينما المتحدث رجل واحد ، هو سفير رسول الله ﷺ .

فدلالة الموقف واضحة فى تأكيد شجاعة ، وقوة شخصية أصحاب رسول الله ﷺ ، وتبين فى نفس الوقت قوة ولائهم للقضية التى جاءوا من أجلها . لقد دار الحديث حول قضايا العقيدة فدعوا إلى الإيمان بالله الواحد ، ونبذ عبادة غيره مع تقديم الدليل المناسب لكل منهم .

فمع قيصر يدلل الداعية على وحدانية الله بعبودية المسيح الله ، ومع المنذر المجوسى يدلل بهوان النار وضررها ، على عدم صلاحيتها للألوهية ، وأن الألوهية الحققة هى لله الخالق .

وهكذا سار كل داعية فى كلمته اتجاهاً يتناسب مع محدثه ، بلا اصطدام معه وبطريقة تدعوه إلى النظر والتدبر .

لقد ركزوا فى كلماتهم السابقة على أهم أركان الإيمان وأساسيات العقيدة ... وهى :

• الإيمان بالله الواحد .

• الإيمان بالرسول النبي الأُمى ﷺ .

• الإيمان بالآخرة بما فيها من حساب وجزاء .

ولم يتكلموا فى الأركان الباقية ، لأن الإسلام كله ، بأركانه وفروعه يتحقق تبعاً لهذه الأركان الثلاثة .

إن هؤلاء الرجال هم نماذج الدعاة فى العالم كله ، وقد تمكنوا من نشر الإسلام فى الناس ، لحسن خلقهم ، وسعة معارفهم ، وبلاغه خطابهم ، وجمال عرض قضيتهم .

ونلاحظ من حركة الدعاة فى العالم ، وحملهم لرسائل رسول الله ﷺ مدى تفاعل المجتمع كله بالإسلام ، وطاعته لرسول الله ﷺ ، وتوحيده فى إطار تعاليم الدين ، وتحقيق المصالح الحقيقية للناس أجمعين .

لم يحدث أن حكى التاريخ معارضة صحابى لأمر كلفه به رسول الله ﷺ ولو كان فى التكليف فناء دنياه .

ولم ينقل أحد من العلماء أن صحابياً جبن حين ذهابه وحيداً يبلغ الإسلام فى الأماكن البعيدة لقوم غير مسلمين .

ولم تكن حركة الدعاة بعيدة عن عقول وقلوب المسلمين فى المدينة ... بل كان المجتمع كله يتابع أخبار الدعاة ، ويعايش مسارهم ، ويدعو لهم ، مع كل الاستعداد للبذل والفداء من أجلهم ، ومن أجل الله تعالى .

وهذا ما نتمناه لأمة الإسلام التى يجب أن تسترشد فى حياتها بعصر القدوة ، عصر رسول الله ﷺ .

- ثالثاً -

القضاء على إرهاب اليهود

فى "خيبر" وما حوالها

بعد القضاء على اليهود فى المدينة وضواحيها ، والتخلص من بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ... تجمع من بقى منهم فى خيبر وهى على بعد ثمانين ميلاً شمال المدينة المنورة .

وخيبر عبارة عن ولاية فى واد متسع تنتثر فيه التلال والمرتفعات ، وقد جعل اليهود كل تل قرية صغيرة تتكامل منافعها وحاجاتها وجعلوا كل بيت حصناً ، وأحاطوا البيوت بسور منيع حتى صارت كل قرية حصناً كبيراً .

وقد أقام اليهود بيوتهم فى خيبر بناء على نظرتهم للحياة ، حيث يرون ضرورة التحصن خلف الجدر ، وتوزيع الاستيطان فى الأماكن العالية الحصينة وإحاطة مساكنهم بالنخيل ، والأشجار ليستفيدوا بثمرها ، ويستتروا بها من عدوهم ، ويعيشوا جنوداً محاربين ما دامت حياتهم فيها ، وقد سمى اليهود موطنهم بـ "خيبر" ومعناه الحصن ، والبعض يسميها "خيابر" إشارة إلى كونها مجموعة من الحصون المنيعة القوية .

وقد أخذ اليهود فى إعداد العدة لمواجهة المسلمين وغيرهم ، فأكثروا من تدريب رجالهم ، وتسليحهم ، وكانوا يخرجون كل يوم قبل الفجر ، فيلبسون السلاح ، ويصفون الكتائب ، ويتجمعون فى عشرة آلاف مقاتل استعداداً للمسلمين ، وإرهاباً لمن تسول له نفسه أن يأتى إليهم لمقاتلتهم .

ونظراً لما فى خيبر من زروع كثيرة ، وثمار متنوعة فإنهم كانوا يسخرونها لكسب مودة القبائل ، والتحالف معهم على المسلمين .

وقد تصور كثير من العرب أن اليهود فى خيبر قوة لن تهزمها قوة أخرى وكان اليهود أنفسهم يشيعون ذلك ، ويقولون : ... محمد يغزونا ... هيهات ... هيهات ، وكان اليهود الذين وادعوا المسلمين فى المدينة يقولون بعد أن تحرك

المسلمون إلى خيبر : لو رأيتم خيبر وحصونها لعلمتم أن المسلمين سيرجعون قبل أن يصلوا إليها ، حصون شامخات فى ذرى الجبال والماء فيها دائم ، وقوتهم ظاهرة بارزة ^(١) .

والحديث عن مواجهة يهود خيبر يقتضى بيان ما يلى :

- ١ -

حصون "خيبر"

تخير اليهود التلال العالية ، والجبال المرتفعة ، فى الوادى وأقاموا فوقها حصونهم ، وقلاعهم .

والحصن الواحد عبارة عن عدد من البيوت المعدة للسكن ، يضم الملاجئ العديدة والمخابئ القوية ، ومصانع السلاح ، ومخازن المؤن والطعام وترتبط المخازن فى الحصون الرئيسية ، والمخابئ بأنفاق محفورة تحت الأرض وطرق معدة بين الزروع تضمن الحركة الآمنة للانتقال فيما بينها ، وتحاط بيوت الحصن ومكملاتها بسور كبير عرضاً ، وطولاً ، وارتفاعاً ، نصبت فيه البوابات الضخمة ، وأسس فى أعاليه نقاط للحراسة والدفاع ، ونصب المنجنيق ، وجهزت أماكن الرماة .

وتختلف الحصون عن بعضها سعة وليستعداداً ، تبعاً لموقعها ، وقدرة أصحابها ، وأهميتها فى التصدى والمقاومة .

وتخضع الولاية كلها لنظام إدارى واقتصادى واحد ، ويعرف كل حصن باسم صاحبه ، أو قائده ... ويحكم الحصون كلها الأحبار ورجال الدين .

وتتكون الحصون الرئيسية من مجموعات وكل مجموعة قوة متكاملة يسهل الانسحاب من كل حصن فيها إلى غيره ، ويعين كل منها الآخر بالرجال والسلاح حين الحاجة .

والحصون الرئيسية فى خيبر ثلاثة مجموعات .

(١) المغازى ج ٢ ص ٦٣٦ .

أولاًها : يقع فى منطقة تسمى "النطاة" وتتكون من ثلاثة حصون هى :

- (١) حصن ناعم .
- (٢) حصن الصعب بن معاذ .
- (٣) حصن قلعة الزبير .

وثانيها : يقع فى منطقة تسمى "الشق" وتتكون من حصنين هما :

- (١) حصن أبى .
- (٢) حصن النزار .

وثالثها : يقع فى منطقة تعرف بـ "الكتيبة" وتتكون من ثلاثة حصون هى :

- (١) حصن القموص ، وهو حصن أبناء أبى الحقيق من بنى النضير .
- (٢) حصن الوطيح .
- (٣) حصن السالم .

وحصون المجموعتين الأولى والثانية أكثر تحصيناً من الثالثة ، ولذلك دار القتال الشديد حولهما ... أما حصون المجموعة الثالثة فقد استسلمت للمسلمين بلا قتال بعد سقوط المجموعتين الأوليين^(١) .

وقد جهز اليهود حصن الصعب فى المجموعة الأولى ، وحصن النزار فى المجموعة الثانية ، بالمؤن والعتاد ليكونا موئل الأسر والذرى .
وقد قام اليهود بزراعة الوادى المنخفض بالزروع ، والنخيل ، والأشجار العالية ، وحفروا كثيراً من الآبار لسقى الأرض ، ومد الحصون بالمياه .
وبهذا التصوير الواقعى لخبير ندرك ما صنعه اليهود ليتحقق لهم الاستقلال الاقتصادى ، والدينى ، والعسكرى ... ونرى مدى حرصهم على حماية أنفسهم ، ونشاطهم ، ومعرفة منهجهم فى الحياة ... الأمر الذى أدى بهم إلى غرور دفعهم إلى التآمر على الإسلام والمسلمين ، وإلى تجميع ما يمكنهم من القبائل لمحاربة رسول الله ﷺ .

(١) المغازى ج ٢ ص ٦٦٩ .

- ٢ -

تحرك المسلمين نحو "خيبر"

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد الحديبية عشرين يوماً تحرك بعدها إلى خيبر ، وقد وعده الله تعالى بمغانم خيبر فقال تعالى : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (١) .

والآية تشير إلى ما فى صلح الحديبية من خير عجله الله تعالى لهم ، كما تعدهم بمغانم كثيرة بعد ذلك هى مغانم خيبر ، وقد شعر المنافقون وضعفاء الإيمان بما فى خيبر من غنائم فعزموا على الخروج مع رسول الله ﷺ ليأخذوا منها فأمره الله تعالى بمنعهم فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَاثِبُونَ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢) .

ولذلك قال النبى لأصحابه لا يخرج معنا إلا راغب فى الجهاد .
فخرج معه الذين بايعوه تحت الشجرة وعددهم ألف وأربعمائة .
واستعمل على المدينة سباع بن عرفة ؓ .

وبعد أن صلى المسلمون صلاة الصبح تحرك الجيش الإسلامى وسلك رسول الله ﷺ فى اتجاهه نحو خيبر جبل عصر (بالكسر وقيل بالتحريك) ثم الصهباء ، ثم نزل على واد يقال له "الرجيع" وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة ، فتهيأت غطفان ، وتوجهوا إلى خيبر ، لإمداد اليهود ، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حساً ولغطاً فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا إلى ديارهم لحراسة الديار وحماية الذرارى والنساء وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر .

(١) سورة الفتح ، الآية ٢٠ .

(٢) سورة الفتح ، الآية ١٥ .

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يرشدان الجيش ليدلاه على الطريق الأحسن ، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال أى جهة الشام فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام كما يحول بينهم وبين غطفان .

قال أحدهما : أنا أدلك يا رسول الله فसार الجيش حتى انتهى إلى مفرق طرق وقال. يا رسول الله ﷺ :. هزم طرق. يمكن الوصول. من كل منها إلى المقصد ، فأمره ﷺ أن يسميها له واحداً واحداً .

قال الرجل : اسم واحد منها حزن فأبى النبي ﷺ سلوكه .

وقال : اسم الثانى شاش ، فامتنع منه أيضاً .

وقال ﷺ : اسم آخر حاطب ، فامتنع منه أيضاً .

فقال حسيل : فما بقى إلا واحد منها .

قال عمر : ما اسمه ؟

قال : مرحب ، فاختار النبي ﷺ سلوكه تفاولاً باسمه .

وقد حدث فى الطريق إلى خيبر أن رجلاً من القوم قال لعامر بن الأكوع : يا

عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟

وكان عامر رجلاً شاعراً ، فنزل يحدو بالقوم ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا .: ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك ما اتقينا .: وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقيين سكينه علينا .: إنا إذا صيح بنا أبينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا السائق ؟

قالوا : عامر بن الأكوع .

قال : يرحمه الله .

قال رجل من القوم : وجبت يا نبي الله ، لولا أمتعتنا به^(١) .

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد ، وقد

استشهد عامر فى غزوة خيبر .

(١) صحيح البخارى . باب غزوة خيبر ج ٦ ص ٣٧٤ .

وفى الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير (الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله) فقال رسول الله ﷺ : "أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم ... وكنت خلف دابة رسول الله ﷺ فسمعتى وأنا أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فقال لى : يا عبد الله بن قيس .

قلت : لبيك رسول الله .

قال : ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة .

قلت : بلى يا رسول الله ، فذاك أبى وأمى .

قال : لا حول ولا قوة إلا بالله^(١) .

وعند المصهبا. أدنى خبير صلى رسول الله بالمسلمين المعصر . ثم دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسويق فأمر به فثرى ، فأكل وأكل الناس ، ثم قام إلى المغرب ، فمض مضض الناس ، ثم صلى ولم يتوضأ ، ثم صلى العشاء^(٢) .

بات المسلمون الليلة الأخيرة التى بدأ فى صباحها القتال قريباً من خيبر ، واليهود لا يشعرون بهم ، وكان النبى ﷺ إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح ، فلما أصبح صلى الفجر بغلس ، وركب المسلمون ، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ، ومكاثلهم . فلما خرجوا لأرضهم . وبرأوا. الجيش قالوا .: محمد . ولله محمد والخميس^(٣) ، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم ، فقال النبى ﷺ : "الله أكبر خربت خيبر ، الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين"^(٤)

وكان النبى ﷺ اختار لمعسكره منزلاً وسط الأشجار ، تعلوه الحصون فأتاه الحباب بن المنذر فقال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله ، أم هو الرأى فى الحرب ؟

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة خيبر ج ٦ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

(٢) المغازى ج ٢ ص ٦٤٢ ، ٦٤٣ .

(٣) معنى قولهم والخميس أن الجيش أقبل فى خمسة أركان مقدمة ، ومؤخرة ، وميمنة ، وميسرة ، وقلب .

(٤) صحيح البخارى . باب غزوة خيبر ج ٦ ص ٣٧٦ .

قال : بل هو الرأى .

فقال : يا رسول الله إن هذا المنزل قريب جداً من حصن نطاة ، وجميع مقاتلى خيبر فيه ، وهم يدرون أحوالنا ، ونحن لا ندري أحوالهم ، وسهامهم تصل إلينا ، وسهامنا لا تصل إليهم ، ولا نأمن من بياتهم ، وأيضاً هذا بين النخلات ، وفى مكان غائر ، وأرض وخيمة ، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاصد ، نتخذة معسكراً .

قال ﷺ : الرأى ما أشرت ، ثم تحول إلى الرجيع ، وعسكر فيه .

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال ﷺ : قفوا فوقف الجيش فقال ﷺ : اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقتلن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإننا لنسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر هذه القرية ، وشر أهلها ، وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله .

ولما كانت ليلة الدخول قال : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها .

فقال رسول الله ﷺ : أين علي بن أبى طالب .

فقالوا : يا رسول الله هو يشتكى عينيه .

قال : فأرسلوا إليه ، فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرئ ، كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية .

فقال : يا رسول الله ﷺ أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟

قال ﷺ : انفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم^(١) .

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة خيبر ج ٦ ص ٣٨٣ .

- ٣ -

اقتحام الحصون

وصل المسلمون إلى مجموعة النطا ، وعرض على بن أبي طالب على أهل النطا الإسلام فأبوا ، فعرض عليهم الاستسلام ودفع الجزية فأبوا ، وهنا كان لابد من قتالهم حتى ينزلوا على حكم الله تعالى .

بدأ المسلمون بمهاجمة مجموعة "النطا" فأمر رسول الله ﷺ يقطع نخيلهم كيلاً لهم ، وفتحاً للطريق إليهم ، وإزالة للموانع الموجودة أمام حصونهم ، وقد بلغ عدد النخيل الذى قطع أربعمئة نخلة . وكان المسلمون يعسكرون ليلاً بالرجيع ، ويهاجمون النطا نهاراً ، ومن يجرح منهم يأخذونه إلى الرجيع ، واستمر المسلمون على ذلك سبعة أيام ، جرح منهم عدد كثير ، حيث جرح منهم خمسون رجلاً فى أول يوم . وقد جرح محمد بن مسلمة بعدما أدلى عليه "مرحب" اليهودى رعى هشمت بيضته وجرح حليفة ، فعالجه النبو ﷺ وأخذه إلى الرجيع ، فمات بها بعد ثلاثة أيام .

واشتد الأمر على المسلمين فساق الله إليهم يهوديا ، أخذ ينادى : أنا آمن وأبلغكم ؟

فقالوا : نعم .

فدخل على رسول الله ﷺ فدلّه على عورة اليهود فغدوا المجاهدون عليهم فظفّرهم الله بهم .

وبعد سقوط تحصينات النطا وجد المسلمون أنفسهم أمام حصن الناعم ، وهو الحصن الرئيسى فى النطا وصاحبه هو "مرحب اليهودى" الذى كان يعد بألف فارس .

دعا على بن أبى طالب أهل الحصن إلى الإسلام فأبوا ، فخرج "مرحب" وطلب المبارزة ... فبارزه أولاً عامر بن الأكوع فاستشهد عامر رضي الله عنه ... فدعا مرحب إلى المبارزة مرة أخرى فخرج له على بن أبى طالب وقتله . ولما دنا على رضي الله عنه من حصونهم طلع يهودى من رأس الحصن ، وقال : من أنت ؟

فقال : أنا على بن أبى طالب .

فقال اليهودى : علوتم وما أنزل على موسى .
ثم خرج ياسر أخو مرحب وهو يقول : من يبارز ؟
فبرز إليه الزبير ، فقالت صفية أمه : يا رسول الله ، يقتل ابنى ؟
قال ﷺ : بل ابنك يقتله ، فقتله الزبير .
ودار القتال المرير حول حصن ناعم طوال الأيام السبعة ، قتل فيه عدة سراة
من اليهود ، انهارت بعده مقاومة اليهود ، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ،
فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب ، ولقتحم المسلمون حصن ناعم ،
واستولوا على عدد من الحصون التابعة له .
وكان حصن الصعب الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم ،
وفى النظاة وقد ملأه اليهود بالطعام ، وأسكنوا فيه الذرارى ، والنساء .
قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر . لأنصارى ،
ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام ، وفى اليوم الثالث جاء بنو سهم للنبي ﷺ وشكوا
إليه حالهم ، فدعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة .
فقال ﷺ : اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي
شئ أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء ، وأكثرها طعاماً
وودكاً ، فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخبير
حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه^(١) .
ولما ندب النبي ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن ، كان بنو أسلم
هم المقاديم فى المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن ، وقد فتح الحصن فى
ذلك الميوم . وهو الثالث قبل أن تغرب الشمس ، ووجد فيه المسلمون بعض
المنجنقات والدبابات .
وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود إلى قلعة الزبير ، وهو حصن
منيع فى رأس تلة عالية ، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه ، ففرض
عليه رسول الله الحصار .

(١) الرحيق المختوم ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

وبعد ثلاثة أيام من الحصار جاء رجل من اليهود ، وقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهراً ما بالوا. ، إن لهم شرباً وعيوناً تحت الأرض. ، يخرجون بالليل يشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعته فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك ، فقطع المسلمون ماءهم عليهم ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال وقتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ .

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى الشق ، وتحصنوا بقلعة أبي ، ففرض المسلمون عليهم الحصار ، فلما طلب اليهود المبارزة وخرج منهم رجلان بارزهم المسلمون ، وقتلوهما .

وكان الذى قتل المبارز الثانى هو البطل المشهور أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى صاحب العصابة الحمراء ، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة ، واقتحمها معه الجيش الإسلامى ، وجرى قتال مرير داخل الحصن ، ثم تسلل اليهود من القلعة ، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن فى المجموعة الثانية .

وكان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة ، وإن بذلوا قصارى جهدهم فى هذا المسبيل . ، ولذلك جمعوا فى هذه القلعة المذارى والنساء وساعدوا من كان فى الصعب منهم على الانسحاب إليه حينما رأوا بؤس سقوط الحصن فى يد المسلمين وفرض المسلمون على هذا الحصن الحصار الشديد ، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ، ولأن الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يجدوا سبيلاً لاقتحامه ، ولم يجرؤ اليهود على الخروج من الحصن ، للاشتباك مع قوات المسلمين ، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال ، وبإلقاء الحجارة .

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين ، أمر النبى ﷺ بنصب آلات المنجنيق ، وقذفوا بها القذائف ، فأوقعوا الخلل فى جدران الحصن ، واقتحموه ، ودار قتال مرير داخل الحصن ، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة ، وذلك لأنهم

لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن وتركه ، كما تسللوا وتركوا الحصون الأخرى ، ففر أغلبهم من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذريعتهم . وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح المنطقة والشق ، . وهرب اليهود إلى المنطقة الثالثة .

ولما تم فتح ناحية النطا والشق ، تحول رسول الله ﷺ إلى مجموعة الكتيبة وفيها حصون الوطيح والسُّلالم والقموص حصن أبى الحقيق من بنى النضير ، وقد جاء إليها أغلب من انهزم من النطا والشق ، وتحصن هؤلاء أشد التحصن . واختلف أهل المغازى هل جرى قتال فى أى حصن من حصونها الثلاثة أم لا ؟ فسياق ابن إسحاق صريح فى جريان القتال لفتح حصن القموص ، بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجرى هناك مفاوضة للاستسلام .

أما الواقدي ، فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاثة إنما أخذت بعد المفاوضة ، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال . وقد فرض رسول الله على منطقة الكتيبة حصارا شديدا دام أربعة عشر يوماً ، ولم يخرج اليهود من حصونهم ، حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح .

■ ٤ ■

نهاية فريزة "خيبر"

لما اشتد حصار المسلمين للكتيبة أرسل ابن أبى الحقيق الأكبر وكان محاصراً فى قلعة إلى رسول الله ﷺ ليكلّمه فى الصلح فقال له النبى ﷺ : انزل . فنزل . وصالح النبى ﷺ على حقن الدماء على أن يخرج أهل خيبر الرجال والنساء والذراري جميعاً منها ، ويخلوها للمسلمين بكل ما فيها من مال ، وأرض ، وذهب ، وفضة وماشية ، وعقار .. بحيث يخرج الواحد منهم بثوبه فقط .

فقال ﷺ : برئت منكم ذمة الله ورسوله إن كنتم شيئا .
قال : نعم^(١) .

وتم الصلح على ذلك ، وتسلم المسلمون الحصون ، وفتحت خيبر .
ولاستشهد من المسلمين في خيبر عدد قليل يدور بين ستة عشر وثلاثة
وعشرين شهيداً وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون قتيلاً^(٢) .
وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة ، يروى البخاري بسنده عن ابن عمر قال : ما
شبعنا حتى فتحنا خيبر^(٣) .

وقد قسم رسول الله ﷺ الغنائم إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة سهم جعل نصفها
للمقاتلين والنصف الثاني جعله ﷺ للمسلمين ، وحاجاتهم^(٤) .
ولما تم الصلح طلب يهود خيبر من رسول الله ﷺ إبقاءهم فيها لزراعة الأرض
وفلاحة البساتين ولهم نصف نتاجها ، فوافقهم رسول الله ﷺ وأبقاهم مزارعين في
أرضها^(٥) .

== ٥ ==

في أعقاب "خيبر"

نقض ابنا الحقيق عهدهم مع رسول الله ﷺ وغيباً عن رسول الله ﷺ مالا
كثيراً ... فأتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع وكان عنده كنز بنى النضير ، فسأله
عنه ، فجدد أن يكون يعرف مكانه ، فأتى رجل من اليهود فقال : إني رأيت كنانة
يطيف بهذه الخربة كل غداة .

فقال رسول الله ﷺ لكنانة : رأيت إن وجدناه عندك أأقتلك ؟
قال : نعم .

(١) المغازي ج ٢ ص ٦٧١ .

(٢) المغازي ج ٢ ص ٧٠٠ .

(٣) صحيح البخاري - كتاب المغازي . باب غزوة خيبر ج ٦ ص ٣٩٧ .

(٤) وزع ﷺ نصف المقاتلين لكل فارس سهم ، وكان معهم مائتتا فرس لكل فرس سهمان .

(٥) صحيح البخاري - كتاب المغازي . باب معاملة النبي ﷺ أهل خيبر ج ٦ ص ٣٩٨ .

فأمر بالخربة فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقى ، فأبى أن يؤديه فدفعه إلى الزبير ، وقال : خذه معك حتى تستأصل ما عنده ، فحبسه الزبير حتى أقر بما عنده .

ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة ، ليضرب عنقه قصاصاً لأخيه محمود بن مسلمة الذى قتله كنانة غيلة بإلقاء الرحي عليه عند حصن ناعم . ذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابنى أبى الحقيق بعد نقضهما العهد ، وكان الذى اعترف عليهما وأخبر رسول الله ﷺ بإخفاء المال هو ابن عم لهما^(١) .

وفى هذه الغزوة قدم جعفر بن أبى طالب وأصحابه من الحبشة، ومعهم الأشعريون أبو موسى عبد الله بن قيس وأصحابه ﷺ ومعهم أسماء بنت عميس رضى الله عنها^(٢) .

قال أبو موسى : بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين ، أنا وأخوان لى فى بضع وخمسين رجلاً من قومى ، فركبنا سفينة فألقننا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفرأ وأصحابه عنده ، فقال : إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا إلى رسول الله ﷺ مع المهاجرين العائدين من الحبشة ، فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر ، فأسهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئاً إلا لمن شهد معه إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم .

ولما قدم جعفر على النبى ﷺ تلقاه وقبله ، وقال : والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدم جعفر^(٣) .

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى . يطلب توجيههم إليه . فأرسلهم النجاشى على مركبين . وكانوا ستة عشر رجلاً ، معهم من بقى من نسائهم وأولادهم ، وبقيتهم رجعوا قبل ذلك لأنهم

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٢٧ .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٣٢ .

(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٣٣ .

لما سمعوا بهجرة النبي ﷺ إلى المدينة رجع ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمانى نسوة ، فمات منهم رجلان بمكة ، وحبس فيها سبعة ، وشهد منهم أربعة وعشرون رجلاً بدمراً .

وكانت صفية فى السبايا حين قتل زوجها كنانة بن أبى الحقيق لغدره ، ولما جمع المسلمون السبى جاء دحية بن خليفة الكلبي ، فقال : يا نبي الله ، أعطنى جارية من السبى .

فقال ﷺ : اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفية بنت حي .

فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة وبنى النضير ، لا تصلح إلا لك . قال : ادعوه بها .

فجاء بها ، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال : خذ جارية من السبى غيرها^(١) . وعرض عليها النبي ﷺ الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها حتى إذا كان بسد الصهباء راجعاً إلى المدينة حلت ، فجهزتها له أم سليم ، وأهدتها له من الليل ، فأصبح عروساً بها ، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسويق .

ورأى ﷺ بوجهها خضرة ، فقال : ما هذا ؟

قالت : يا رسول الله رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه ، وسقط فى حجرى ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً ، فقصصتها على زوجى ، فلطم وجهى ، فقال : تمنين هذا الملك الذى بالمدينة^(٢) .

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر أهدت له زينب بنت الحارث ، امرأة سلام ابن مشكم ، شاة مصلية ، وقد سألت أى عضو أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع فأكثرته فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع ، فلاك منها مضغة فلم

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٤٠٤ .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٢٧ .

يستسغها ، ولفظها ثم قال : إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم ، ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : قلت إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها ﷺ^(١) .

ووفد أبو هريرة رضي الله عنه ونفر من أوس على رسول الله ﷺ بخيبر ، وفي ذلك يقول أبو هريرة : قدمنا المدينة ، ونحن ثمانون بيتاً من أوس ، فصلينا الصبح خلف سباع بن عرفطة الغفاري .

فلما فرغنا من صلاتنا قال قائل : رسول الله ﷺ بخيبر ، وهو قادم عليكم . فقلت : لا أسمع به في مكان أبداً إلا جنته ، فزودنا سباع بن عرفطة ، وحملنا حتى جئنا خيبر فوجدنا رسول الله ﷺ قد فتح النطاة ، وهو محاصر الكتيبة ، فأقمنا حتى فتح الله علينا^(٢) .

وجاء لرسول نفر من بنى فزارة ، وكانوا قد قدموا على أهل خيبر ليعينوهم فراسلهم رسول الله ﷺ أن لا يعينوهم وسألهم أن يخرجوا عنهم ولكم من خيبر كذا وكذا فأبوا عليه ، فلما أن فتح الله خيبر أتاه من كان هناك من بنى فزارة ، فقالوا : حظنا الذي وعدتنا .

فقال رسول الله ﷺ : لكم ذو الرقيبة ، جبل من جبال خيبر . فقالوا : إذا نقاتلك . فقال ﷺ : موعدكم جنفاً .

فلما أن سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ خرجوا هاربين^(٣) . ونهى النبي ﷺ عن أكل لحم الحمر الأهلية فعن سلمة رضي الله عنه قال : أتينا خيبر فحاصرناها حتى أصابتنا مخمصة شديدة ، ثم إن الله تعالى ، فتحها علينا ، فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم ، أوقدوا نيراناً كثيرة . فقال رسول الله ﷺ : ما هذه النيران ؟ على أى شئ توقدون ؟

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ٣٣٧ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٥ ص ٢١٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ٥ ص ٢١٣ .

قالوا : على لحم .

قال ﷺ : على أى لحم ؟

قالوا : لحم حمر إنسية .

فقال رسول الله ﷺ : أهرقوها ، واكسروا الدنان .

فقال رجل : أو نهرقها ونغسلها ؟

قال ﷺ : أو ذاك^(١) .

ونهى رسول الله ﷺ عن أمور حيث قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسق ماءه زرع غيره ، ولا يبع شيئاً من المغنم حتى يعلم ، ولا يركب دابة من المغنم حتى إذا أدبرها ردها ، ولا يلبس ثوباً من المغنم حتى إذا أخلقه رده ، ولا يأت امرأة من السبي حتى تستبرأ بحيضة ، وإن كانت حبلى حتى تضع الحمل وممر على امرأة ، فقال : لمن هذه ؟

فقيل : لفلان .

فقال : لعله يطؤها ؟

قالوا : نعم .

قال : كيف بولدها ؟ يرثه وليس بابنه ، لقد هممت أن ألغنه لعنة تتبعه

فى قبره^(٢) .

وهكذا فتحت خيبر وزال نفوذ اليهود من الجزيرة العربية كلها .

- ٦ -

تطهير الجبهة الشمالية

من أتباع يهود "خيبر"

بعدما مكن الله للمسلمين من خيبر ، نظروا حول خيبر فوجدوا جيوباً يهودية فى فذك ، وتيماء ، ووادى القرى ، وكان من الضرورى القضاء على عدوانية هذه الأقاليم حتى لا يكرروا كيدهم للمسلمين مرة أخرى .

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة "خيبر" ج ٦ ص ٣٨٤ ط . الشعب .

(٢) إمتاع الأسماع ص ٣٢٤ .

فأرسل رسول الله ﷺ إلى "فدك" ^(١) الصحابي محيصة بن مسعود ﷺ ليدعوهم إلى الإسلام فأبوا ، ولما علموا بفتح خيبر أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يصلحوه على ما صلح عليه خيبر ، فقبل منهم ﷺ ذلك .

وحين انصرف المسلمون من خيبر نزلوا بوادي القرى ^(٢) فاستقبلهم أهلها بالرمي ، فعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصفهم ، ودفع لواءه إلى سعد بن عباد ، وأعطى راية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا وبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبي طالب ﷺ فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل دعا رسول الله ﷺ من بقي إلى الإسلام ويمتنعون .

وكلما جاء وقت صلاة صلاها النبي ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم ، وإلى الله ورسوله . فيمتنعون فيقاتلهم رسول الله ﷺ حتى أمسوا . وفي اليوم التالي تعذر الوضع ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها المسلمون عنوة ، وغنموا أموالهم ، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً ، وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام ، وقسم على أصحابه ، ما أصاب بها ، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود ، وعاملهم عليها كما عامل أهل خيبر ^(٣) .

ولما بلغ يهود "تيماء" خبر استسلام "أهل خيبر" ثم "فدك" ، "وادي القرى" ، لم يبدوا أى مقاومة ضد المسلمين ، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون للصلح ، فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ وأقاموا بأموالهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، وهاك نصه : هذا كتاب محمد رسول الله ﷺ لبنى عادياً ، إن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، ولا عداء ولا جلاء ، الليل مد ، والنهار شد .

(١) بفتح الفاء والذال ، قرية بالحجاز بين مكة ، والمدينة وهى أقرب إلى المدينة منها إلى مكة (معجم البلدان) .

(٢) وادي القرى بضم القاف واد بين الشام والمدينة ، وهو بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة ، وبها كانت ديار ثمود (معجم البلدان) .

(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٥٥ .

ثم أخذ رسول الله ﷺ في العودة إلى المدينة وكان رجوع المسلمين في أواخر صفر أو في أول ربيع الأول سنة سبع من الهجرة^(١) .
وفي جمادى الأولى بعد عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة جاء أبو العاص بن الربيع مهاجراً من مكة بعد إسلامه فرد رسول الله ﷺ ابنته زينب إليه^(٢) .
وبالقضاء على اليهود في خيبر ، وفي المناطق حولها ، لم يبق لليهود وجود قوى ، ومع ذلك رفضوا الدخول في دين الله تعالى ، واستمروا في كيدهم للإسلام والمسلمين ... وورثوا هذا الكيد لمن جاء بعدهم من ذراريهم ... وبذلك عاشوا على ضلالهم ... وداوموا العدا لدين الله تعالى .
وهم على ذلك إلى اليوم رغم تشتتهم في البلاد ، وتقطع أوصالهم ، وذهاب هويتهم .

- رابعاً -

مواجهة القبائل المتمردة

أدى صلح الحديبية إلى تمايز كل فريق بنيته وعمله ، وبادر رسول الله ﷺ بالتعامل مع كل جهة بما يناسبها .
فهادن قريشاً ومن سار على نهجها .
وواجه العالم بتبليغ الإسلام إليه ، وتعريفه بدين الله تعالى .
وواجه اليهود ، وذهب إليهم في حصونهم حتى قضى على خطورتهم .
وبقيت أمامه ثلة من القبائل المتناثرة في الجزيرة العربية التي عاشت على النهب والإغارة ، ظننت نفسها بعيدة عن رسول الله ﷺ منقطعة عن المسلمين لبعدهم عنهم ، وأخذت تعمل ضد الإسلام لظنهم أن المسلمين لن يعلموا شيئاً عن أخبارهم .

ولم تكن هذه القبائل في بلدة واحدة ، أو في مكان ثابت ، بل هم من الرحل المتنقلين ولذلك كان لا بد لتأديبهم بواسطة حملات تأديبية سريعة وخفيفة ، ومفاجئة

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٥٥ .

(٢) سنن أبي داود ج ٣ ص ١٥١ .

، ليعلموا أنهم تحت بصر المسلمين ، ومحل اهتمامهم ... وليتقنوا أن المسلمين بفضل الله ومعاونته يملكون حسن التعامل مع كل فريق بما يكافئه بحيث لا يخدعهم لنيم ولا يفاجئهم غادر .
وقد أدت الحملات التأديبية لهذه القبائل إلى وقوع الغزوات والسرايا التالية :

١. غزوة "ذات الرقاع" :

علم رسول الله ﷺ أن بطوناً من غطفان ، المجاورين لخبير قد تألموا لما لحق بأنصارهم من يهود. خبر وهم أنمار ، وبنو ثعلبة ، وبنو محارب ، فأخذوا. يجتمعون ، ويستعدون لمهاجمة المدينة ، فأسرع رسول الله ﷺ بالخروج إليهم في سبعمائة من أصحابه بعدما ولى على المدينة عثمان بن عفان. وسار. حتى وصل إلى "نخل"^(١) فلقى جمعاً من غطفان ، فتوافق الطرفان ولم يقع قتال بعدما هاب كل طرف الطرف الآخر .

يروى البخارى بسنده عن أبى موسى الأشعرى ؓ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بغير نعقبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدمائى ، وسقطت أظفارى ، فكننا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت الغزوة بـ "ذات الرقاع" ، لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا^(٢) .

ويسمى البعض هذه الغزوة بغزوة الأعاجيب لما ظهر فيها من الآيات العجيبة وخوارق العادات المذهلة .

يروى البخارى بسنده عن جابر قال : كنا مع النبى ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس فى العضاة ، يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه .

(١) نخل بفتح فسكون موضع بنجد من أرض غطفان فى طريق الشام من ناحية مصر (معجم البلدان) .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة ذات الرقاع ج ٦ ص ٣٣٢ ، وقيل سميت بذلك لرقاع كانت فى أثوابهم وقيل الرقاع اسم للمكان أو اسم للجبل وفيها ألوان كالرقاع ، ولا مانع من صحة أن تكون كل هذه أسباب للتسمية لأنها جميعاً كانت موجودة وقت الغزوة .

قال جابر : فمنا نومة ، فجاء رجل من المشركين فاخترط سيف رسول الله ﷺ فوقف على رأس رسول الله ﷺ ثم قال : أتخافنى ؟

قال ﷺ : لا .

قال الرجل : فمن يمنعك منى ؟

قال ﷺ : الله .

فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ ، فقال : من يمنعك منى ؟ فقال الرجل : كن خير آخذ .

قال ﷺ : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟

قال الرجل : أعاهدك أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك : فخلى سبيله فجاء إلى قومه ، فقال جئتكم من عند خير الناس .

قال جابر : فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا ، فجئنا فإذا عنده أعرابى جالس .

فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم ، فاستيقظت وهو فى يده صلتا .

فقال لى : من يمنعك منى ؟

قلت : الله .

فها هو ذا جالس ، ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ^(١) .

وفى رولية البخارى قال مسدد. عن أبى عوانة عن أبى بشر : اسم الرجل غورث بن الحارث .

قال ابن حجر : ووقع عند الواقدي فى سبب هذه القصة أن اسم الأعرابى دعثور ، وأنه أسلم لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان فى غزوتين والله أعلم^(٢) .

والأعاجيب المروية كثيرة وهى مفصلة فى كتب السيرة والسنة .

وكانت غزوة "ذات الرقاع" فى ربيع الأول سنة سبع للهجرة^(٣) .

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة ذات الرقاع ج ٦ ص ٣٣٧ .

(٢) صحيح البخارى . باب غزوة ذات الرقاع ج ٦ ص ٣٣٧ .

(٣) تناول ابن حجر كافة الأقوال التى ذكرت فى سنة هذه الغزوة (فتح البارى ج ٧ ص ٤١٧) .

٢. سرية غالب بن عبد الله إلى بنى الملوح فى قديد^(١) :

وقعت هذه السرية فى ربيع الأول سنة سبع للهجرة ، وسببها إن بنى الملوح قتلوا أصحاب بشير بن سويد ، فبعث رسول الله ﷺ هذه السرية لأخذ الثأر ، فشنوا الغارة فى الليل فقتلوا من قتلوا ، وساقوا النعم ، وحين رجوعهم إلى المدينة طاردهم جيش كبير من العدو ، أنقذهم الله تعالى منه لأنه حين قرب منهم نزل مطر غزير ، وامتأل الوادى بسيل عظيم حال بين الفريقين ، وانسحب المسلمون وعادوا إلى المدينة غانمين منتصرين^(٢) .

٣. سرية عمر بن الخطاب إلى تربه^(٣) :

أعلنت هوازن عدم موافقتها على صلح الحديبية مع أنها مجاورة لمكة وتقع بناحية العيلاء على طريق صنعاء ونجران وكان المأمول أن تسالم كما فعلت قريش ، وبخاصة أنها شاهدت قوة المسلمين ، وعلمت حرصهم على نشر الإسلام ، وتبليغه للناس جميعاً .

لكن هذا المأمول لم يتحقق ، لأن هوازن أخذت تعد العدة لمهاجمة رسول الله فى المدينة ، والاستيلاء على أموال المهاجرين والأنصار ، فأرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ فى ثلاثين رجلاً يقودهم دليل من بنى هلال ، فأخذوا يسيرون فى الليل ، ويكمنون فى النهار ، فلما علمت هوازن بخبرهم هربوا ، فلما جاء عمر ديارهم لم يجد أحداً فرجع إلى المدينة^(٤) .

٤. سرية بشير بن سعد إلى بنى مرة:

سار بشير بن سعد الأنصارى ﷺ إلى بنى مرة فى إحدى نواحي "فدك" وهم جماعة من اليهود أبت أن تدخل فى صلح قومهم مع رسول الله ﷺ ، ولذلك أرسل

(١) القديد بضم القاف وفتح الدال تصغير قد موضع قرب مكة (معجم البلدان) .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٦٢ ، سيرة النبى ج ٢ ص ٦٠٩ .

(٣) تربة بضم التاء وفتح الراء واد خصب قرب مكة .

(٤) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

رسول الله ﷺ بشير بن سعد إليهم في شعبان سنة سبع للهجرة في ثلاثين رجلاً خرج إليهم بشير فلم يجد أحداً منهم ، فاستاق الشاء والنعم ، ثم رجع فأدركه بنو مرة عند الليل فرموهم بالنبل حتى فنى بشير وأصحابه ، فقتلوا جميعاً إلا بشيراً فإنه حمل جريحاً إلى فذك . ، فأقام عند يهودى حتى برأت جراحه . وعاد إلى المدينة^(١) .

٥. سرية غالب بن عبد الله إلى الميعة :

سار غالب بن عبد الله المليثي في رمضان سنة سبع للهجرة إلى بنى عوان وبنى عبد بن ثعلبة بالميعة . في مائة وثلاثين رجلاً . فهجموا عليهم جميعاً ، وقتلوا من أشرف لهم ، واستاقوا نعماً وشاء وعادوا إلى المدينة بما غنموا^(٢) .

٦. سرية عبد الله بن رواحه إلى خير :

سار عبد الله بن رواحه إلى خير في شوال سنة سبع للهجرة في ثلاثين راكباً . وذلك أن أسيراً بن رزام كان يجمع غطفان لغزو المسلمين . فلما وصل ابن رواحة إليهم خاطب أسيراً وأطمعه أن رسول الله ﷺ يستعمله على خير إن ترك جماعته فتركهم مع ثلاثين من أصحابه ، وهنا وقع الشقاق بين أسير وقومه فتقاتلوا قتالاً شديداً ، وتمكن المسلمون من الرجوع إلى المدينة ، وقد أفضى شقاق القوم إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين وبذلك تفرق القوم ، ولم يقع مع المسلمين قتال ، وتم القضاء على رأس الفتنة ، وعاد المسلمون سالمين إلى المدينة^(٣) .

٧ . سرية بشير بن سعد إلى يمن وجبار :

ثم كانت سرية بشير بن سعد إلى يمن وجبار في سنة سبع من الهجرة ، وذلك أن حسيل بن نويرة الأشجعي أخبر رسول الله ﷺ أن جمعاً من غطفان بالجناد ، قد واعدوا عيينة بن حصن أن يزحفوا إلى أطراف المدينة .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٠ .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٦٠ .

(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٦٠ .

فذكر ذلك لأبى بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأشار بإرسال بشير بن سعد ، فعقد له لواء ، وبعث معه ثلاثمائة رجل ، وكان حسيل دليلهم ، حتى أتوا إلى يمن وجبار وهى نحو الجنب والجنب يعارض "سلاح" و "خيبر" ووادى القرى ، فنزلوا بسلاح ، ثم دنوا من القوم فأصابوا نِعْماً كثيراً ملأوا منه أيديهم ، وتفرق الرعاء فأنذروا أصحابهم ، فمروا على وجوههم ، فلم يلق بشير أحداً ، وعاد بالنعم ، فوجد عيناً لعينة فقتله ، ثم لقي جمع عينة فأوقع بهم وهم لا يشعرون ، وقد ناوشهم بشير حتى انهزموا ، وأسر منهم رجلاً أو رجلين ، وقدم بهم المدينة فأسلما وتركهما الرسول ﷺ لحالهما^(١)

٨. سرية أبى حردد رضي الله عنه إلى الغابة :

سار أبى حردد الأسلمى إلى الغابة ، وملخصها أن رجلاً من جشم بن معاوية أقبل فى عدد. كبير على الغابة . يريد أن. يجمع قيساً على محاربة المسلمين ، فبعث رسول الله ﷺ أباً حردد. مع رجلين فاختر أبو حردد خطة حكيمة ، وهزم العدو هزيمة منكرة ، واستاق الكثير من الإبل والغنم^(٢) .

٩. سرية أبى بكر رضي الله عنه إلى بنى هلال :

أرسل رسول الله ﷺ أباً بكر رضي الله عنه فى نفر من أصحابه لمباغثة بنى كلاب بنجد فى ناحية "ضرية" فى شهر شعبان فى العام السابع ، ففاجأ القوم ، وبيتهم ليلاً وقتل منهم عدداً ، عاد بعدها إلى المدينة المنورة^(٣) .

١٠. سرية غالب بن عبد الله إلى بنى مرة :

بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثى على مائتى رجل فى صفر سنة ثمان ، ومعه أسامة بن زيد وعلبة بن زيد الحارثى إلى بنى مرة لتأديبهم على ما فعلوه مع بشير بن سعد وصحبه . فسار. حتى دنا منهم . وبعث الملائع عليها علبة بن زيد . فأعلموه خبرهم ثم ولفاهم . وحضهم على المجهاد . ولأوصاهم بالتقوى ، وحمل بهم على المقوم. فقاتلوا ساعة ثم حووا. الماشية والنساء ، وقتلوا

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٦٠ .

(٢) سيرة النبى ج ٢ ص ٦٢٩ .

(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٥٩ .

الرجال ، ومر أسامة بن زيد فى إثر رجل منهم يقال له نهيك بن مرداس ، حتى دنا منه ، فقال : لا إله إلا الله ، فقتله ، ثم ندم وأقبل إلى جماعته فقال له غالب بن عبد الله : بنس والله ما فعلت ، تقاتل أمراً يقول لا إله إلا الله .
وقدموا المدينة ، فحدث زيد رسول الله ﷺ بخبره .
فقال : قتلته ، يا أسامة ، وقد قال : لا إله إلا الله .
فجعل أسامة يقول : إنما قالها تعوذاً من القتل .
فقال ﷺ : أفلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟
فقال أسامة : لا أقتل أحداً يقول لا إله إلا الله أبداً^(١) .

- - خامساً - -

تطبيق بنود صلح الحديبية وأداء العمرة

حافظ المسلمون والقرشيون على ما تعاهدوا عليه فى الحديبية ، وتفرغ رسول الله ﷺ فى العمل فى جبهات. جديدة عديدة بعد أن. أمّن جبهة قريش .، ولذلك تضاعف العمل .، ونشطت الدعوة بعد صلح الحديبية .، ومر عام من الجهاد والدعوة .، وجاء موسم الحج وهو الموعد المتفق عليه لأداء. العمرة .، فتحرك المسلمون لأداء عمرتهم وتم لهم وعد الله تعالى حينما قال لهم سبحانه : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾^(٢) .

وبعد أداء العمرة واصلوا حركتهم بالدعوة ومواجهة الطغيان والمرتدين .
وفى هذه الدراسة سنتناول الأمور الآتية :

١. عمرة القضاء :

لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر إلى المدينة أقام بها شهرى ربيع وجماديين ، ورجباً وشعبان ورمضان وشوالاً .

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٦١ .

(٢) سورة الفتح ، الآية ٢٧ .

فلما أهل شهر ذى القعدة من العام السابع أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتجهزوا لأداء العمرة التي أجلوها من العام الماضي .

وتسمى هذه العمرة عمرة القضاء لأنها قضاء عن عمرة العام السابق .
كما تسمى **عمرة القصاص** لأن الله كتبها لهم عوضاً عن الأولى التي لم تمكنهم قريش منها فتمت مثلاً بمثل ، وتسمى **عمرة الصلح** لأنها تمت بناء على بنود صلح الحديبية .
وتسمى **عمرة القضية** لأن رسول الله قاضى أهل مكة وصالحهم على هذه العمرة .

والبعض يسميها غزوة القضاء لخروج رسول الله ﷺ على رأسها قاصداً مكة ليدخلها ، رغم أنف المشركين فيها^(١) .

أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعتمرُوا ، وألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف من أهلها أحد ، ممن هو حى ، وخرج معهم عدد من غير أهل الحديبية فبلغ عدد الخارجين للعمرة ألفين .

وقال جماعة من المسلمين :. ولله يا رسول الله ما لنا زاد. ، وما من أحد يطعمنا ، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا فى سبيل الله ، وأن يتصدقوا وألا يكفوا أيديهم فيهلكوا .

فقالوا : يا رسول الله بم نتصدق ، وأحدنا لا يجد شيئاً ؟

فقال : بما كان ولو بشق تمره ، ولو بمشقص يحمل به أحدكم فى سبيل الله^(٢) .

فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٣) يعنى أن ترك النفقة فى سبيل الله يؤدى إلى الهلكة .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٣٦ ، والمشقص السهم العريض النصل .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٩٥ .

وساق ﷺ ستين بدنة جعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي ، يطلب المرعى بها في الشجر .، ومعه أربعة فتيان. من أسلم .، وكان. أبورهم كلثوم بن حصين الغفاري ، ممن يسوقها ويركبها .

وقلد ﷺ هديه بيده ، وحمل السلاح وفيها البيض والدروع ، وقاد مائة فرس أمر عليها محمد بن مسلمة ، واصطحب العتاد والسلاح ، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري وأحرم من باب المسجد ، وسار يلبي والمسلمون معه يلبيون .

فلما انتهى محمد بن مسلمة بالخيول إلى مر الظهران ، وجد بها نفراً من قريش فسألوه عن رسول الله ﷺ فقال : يصبح في هذا المنزل غداً إن شاء الله .

فلما رأوا سلاحاً كثيراً مع بشير بن سعد ، أسرعوا إلى مكة ، وأخبروا قريشاً ففزعوا ، وقالوا : والله ما أحدثنا حدثاً ، ففيم يغزونا محمد ؟

ولما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران قدم السلاح إلى بطن يأجج ، وترك معه مائتين من أصحابه ، عليهم أوس بن خولى .

وخرج مكرز بن حفص في نفر حتى لقوا رسول الله ﷺ ببطن يأجج .

فقالوا : يا محمد ! والله ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ! تدخل بالسلاح

الحرم ! وقد اشترطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافرين والسيوف في القرب ؟

فقال ﷺ : إني لا أدخل عليهم السلاح .

فعاد مكرز إلى مكة فخرجت قريش إلى رؤوس الجبال وقالوا : لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه

وحبس ﷺ الهدى بذي طوى ، ودخل مكة من الثنية التي تطلع على الحجون وقد ركب القصواء ، وأصحابه حوله متوشحو السيوف يلبيون ، وعبد الله بن رواحة أخذ بزمام راحلته ، فلم يزل ﷺ يلبي حتى استلم الركن^(١) .

وتحدثت قريش عن جهد المسلمين وضعفهم ، ووقف منهم جماعات عند دار الندوة ليروا ما تصوره فاضطبع ﷺ بردائه ، وأخرج عضده الأيمن ، ثم قال : رحم الله امرئاً أراهم اليوم قوة ! فلما انتهى إلى البيت وهو على راحلته وابن رواحة أخذ بزمامها ، وقد صف له المسلمون دنا من الركن فاستلمه بمحجنه ، وهو مضطبع بثوبه ، وهول هو والمسلمون في الثلاثة الأشواط الأول ، وكان ابن رواحة يرتجز في طوافه ، وهو أخذ بزمام الناقة ، فقال ﷺ : إياها يا ابن رواحة ! قل : لا إله إلا

(١) الفتح الرباني . باب عمرة القضاء ج ٢١ ص ١٣١ .

الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده !
فقالها ابن رواحة وقالها الناس .

فلما قضى ﷺ طوافه ، . خرج إلى المصفا فسعى على راحلته ، . وللمسلمون يسترونه من أهل مكة أن يرميه أحد منهم أو يصيبه بشئ ، ووقف عند فراغه قريباً من المروة ، وأوقف الهدى عندها فقال : هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر^(١) .

ونحر عند المروة وكان قد اعتمر معه قوم لم يشهدوا الحديبية فلم ينحروا ، وشركه في الهدى من شهد الحديبية ، فمن وجد بدنة من الإبل نحرها ومن لم يجد بدنة رخص له في البقرة ، وكان قد قدم رجل من الأعراب ببقرة فاشترى الناس منه ، وحلق ﷺ عند المروة حلقة معمر بن عبد الله العدوي .

ثم دخل ﷺ البيت ، ولم يزل فيه حتى أذن بلال بالظهر فوق ظهر الكعبة .
وخطب ﷺ "ميمونة" وهو في مكة فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب فتزوجها ﷺ وهو محرم ، وقيل : بل تزوجها ﷺ لما أحل بسرف .

ولما حان موعد خروج المسلمين من مكة ورجوعهم إلى المدينة جاءتهم عمارة بنت حمزة رضي الله عنها تنادي : يا عم ، يا عم .
فأخذها على ﷺ .

وكانت مع أمها سلمى بنت عميس بمكة ، فقال : علام نترك بنت عمنا يتيمة بين ظهرائي المشركين ! فخرج بها ، حتى إذا دنوا من المدينة أراد زيد بن حارثة أن يتزوجها لأنه كان وصي حمزة وأخاه أخوة المهاجرين ، وقال : أنا أحق بها ، إنها ابنة أخي .

فقال جعفر بن أبي طالب : الخالة والدة وأنا أحق بها لمكان خالتها عندي ،
أسماء بنت عميس .

فقال على ﷺ : ألا أراكم في ابنة عمي ، وأنا أخرجتها من بين أظهر المشركين ، وليس لكم إليها نسب دوني ، وأنا أحق بها منكم .

فقال رسول الله ﷺ : أحكم بينكم ، أما أنت يا زيد فمولي الله ورسوله .
وأما أنت يا على فأخي وصاحبي .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٣١ .

وأما أنت يا جعفر فتشبه خلقى وخلقى ، أنت يا جعفر أولى بها ، تحبك خالتك ، فقضى بها لجعفر .

فقام جعفر فحجل حول النبى ﷺ فقال : ما هذا يا جعفر ؟
قال : يا رسول الله كان النجاشى إذا أرضى أحداً قام فحجل حوله .
فقال علي ؑ : تزوجها يا رسول الله ﷺ .
قال ﷺ : هى ابنه أختى من الرضاعة^(١) .

ولما كان الظهر فى اليوم الرابع ، أتى سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى رسول الله ﷺ فى مجلس الأنصار ، وهو يتحدث مع سعد بن عبادة فقال : قد أنقضى أجلك يا محمد ، فاخرج عنا .

فقال ﷺ : وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، وصنعت طعاماً ؟
فقالا : لا حاجة لنا فى طعامك ، اخرج عنا ، ننشدك الله والعهد الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا ! فهذه الثلاث قد مضت !
فغضب سعد بن عبادة وقال. لسهيل : كذبت لا أم لك ! ليست بأرضك ولا أرض أبيك والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً .
فتبسم ﷺ ثم قال : يا سعد ، لا تؤذ قوماً زارونا فى رحالنا ، فأسكت الرجلين عن سعد .

وروى أنهم بعثوا علياً إلى النبى ﷺ ليخرج عن بلدهم^(٢) .
وأمر ﷺ أبا رافع بالرحيل ، وقال : لا يمسين بها أحد من المسلمين وركب حتى نزل سرف ، وخلف أبا رافع ليحمل إليه ميمونة حين يمسى ، فخرج بها مساء ، فبنى ﷺ على ميمونة بسرف .
ولم ينزل بمكة بيتاً ، وإنما ضربت له قبة من آدم بالأبطح ، وظل هناك حتى سار منها وأثناء إقامته بعث بمائتى رجل ممن طافوا بالبيت إلى بطن يأجج ، فأقاموا عند السلاح حتى أتى الآخرون ففضوا نسكهم ، وبعد أن أدى المسلمون عمرتهم عادوا إلى المدينة فى ذى الحجة من نفس العام^(٣) .

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٧٢ .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٧٢ .

(٣) إمتاع الأسماع ص ٣٣٦ : ٣٤١ .

وفى صفر من العام الثامن ، وبعد استقرار المسلمين فى المدينة خرج عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشى السهمى من مكة ، بعد مرجعه من الحبشة ، يريد المدينة ، فهاجر فوجد فى طريقه خالد بن الوليد القرشى المخزومى ، وعثمان بن طلحة بن أبى طلحة القرشى العبدري ، وقد قصدوا قصده ، فقدموا المدينة ، ودخلوا على رسول الله ﷺ فبايعه خالد أولاً ، ثم بايعه عثمان ، ثم عمرو فقال لهم ﷺ : إن الإسلام يجب ما كان قبله والهجرة تجب ما كان قبلها .

وهكذا أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص بعد هذه الرحلة الطويلة من الجهاد والمعاناة ، وصارا من خيرة صحابة رسول الله ﷺ ، والله فى خلقه شئون .

٢. سرية ابن أبى العوجاء :

أرسل رسول الله ﷺ ابن أبى المعوجاء فى شهر ذى الحجة سنة سبع فى خمسين رجلاً بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى سليم ، ليدعوهم إلى الإسلام . فقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا إليه .

وكان مع ابن العوجاء رجل من بنى سليم سبق السرية ، وأخبر قومه بقدمهما فتجمعوا واستعدوا ، وقاتلوا قتالاً شديداً ، حتى قتل أغلب رجال السرية ، وجرح فيها أبو العوجاء ، وتحامل المسلمون حتى رجع من عاش منهم إلى المدينة فى أول صفر من العام الثامن^(١) .

٣ . سرية غالب بن عبد الله :

أرسل رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد إلى بنى الملوح بالكديد فى صفر سنة ثمان فى مائتى رجل ، فأصابوا من العدو. نعماً ، وقتلوا منهم قتلى وقد تبعهم القوم فحال الله بينهم بواد عميق ملأه المطر ماء^(٢) .

٤. سرية ذات أطلح :

سرية ذات أطلح فى ربيع الأول سنة ثمان ، كانت بنو قضاة قد حشدت جمعاً كبيراً للإغارة على المسلمين ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصارى فى خمسة عشر رجلاً ، فلقوا العدو فدعوهم إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٧٥٢ .

(٢) المغازى ج ٢ ص ٧٥٠ .

لهم ، ورشقوهم بالنبل حتى استشهدوا كلهم إلا رجلاً واحداً ، فقد جرح وتحامل حتى أتى المدينة فشق ذلك على رسول الله ﷺ فلما هم بإرسال سرية أخرى لتأديبهم علم أنهم تركوا ديارهم وأقاموا في مكان آخر (١) .

٥. سرية ذات عرق :

سرية ذات عرق إلى بني هوازن في ربيع الأول سنة ثمان ، كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى ، فأرسل إليه شجاع بن وهب الأسدي في خمسة وعشرين رجلاً فاستاقوا نعماً من العدو ، ولم يلقوا كيداً (٢) .

٦. سرية شجاع بن وهب إلى السبي :

كانت سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى السبي ، وهو ماء من ذات عرق إلى وجرة يريد بني عامر بناحية ركة في ربيع الأول سنة ثمان ، على أربعة وعشرين رجلاً ، فخرج حتى أغار على القوم وهم فارون ، فأصابوا نعماً وشاء ، وقدموا المدينة بسبايا ، فيهن جارية وضيئة ، فلما قدم بنو عامر إلى رسول الله ﷺ رد إليهم ما أخذ منهم ، واختارت الجارية الوضيئة شجاع بن وهب ، وكان قد أخذها بثمن فأقامت عنده حتى قتل باليمامة ﷺ (٣) .

٧. سرية قطبة بن عامر إلى خثعم بتبالة :

بعث رسول الله ﷺ قطبة بن عامر بن حديدة في عشرين رجلاً إلى حي من خثعم بناحية "تبالة" فخرجوا على عشرة أبعة يتعقبونها ، فوجد قطبة رجلاً فسأله فلم يجبه عن القوم وجعل يصيح بالحاضرين ، فضرب عنقه ، وشن الغارة ليلاً فقاتله القوم قتالاً شديداً وأتى قطبة عليهم ، وساق النعم والشاء والنساء حتى قدم المدينة ، فكانت سهامهم أربعة أبعة لكل رجل أو عدلها : عشرة من الغنم عن كل بعير (٤) .

ويلاحظ أن السرايا التي تحركت بعد عمرة القضاء توجهت إلى قبائل بعيدة عن المدينة ، وهي من الرحل الذين لا يستقرون في مكان واحد ، وأن الهدف كان منعهم من التفكير في الإغارة والنهب ... وإحاطتهم بقوة المسلمين ... وتعريفهم ما في الإسلام من حق ومزايا .

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٧٥٢ .

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٨٦ .

(٣) المغازي ج ٢ ص ٧٥٤ .

(٤) إمتاع الأسماع ص ٣٤٤ .

- سادساً -

بدء مواجهة الرومان ، والقبائل التابعة لها

علت قوة المسلمين فى الجزيرة كلها وليستكان. القرشيون.، وعلم الناس. خبر الإسلام فبدأوا الدخول فيه غير أن نفرًا من الناس وبخاصة من لهم صلة بالرومان أبوا الانصياع للواقع الجديد فبدأوا يلتقون بالرومان ، ويتعاونون معهم فى التصدى لدعاة الإسلام ، وكراهية قوة المسلمين .

وشجعهم على ذلك ما فعله صاحب بُصْرَى شرحبيل بن عميل الغسانى عامل البلقاء من قبل قيصر الروم حيث مزق كتاب رسول الله وقتل الصحابى الحارث بن عمير الأزدي حامل الرسالة .

إن. هذا. الفعل جريمة تحتاج إلى المواجهة حتى لا. يتصور. الناس. ضعفاً بالمسلمين فيستهينون بهم ، ويصدون الدعاة عن تبليغ الحق ، وحمل الإسلام إلى الناس .

إزاء هذا الواقع الذى حدث فى شمال الجزيرة العربية بدأت مرحلة جديدة من المواجهة العسكرية مع هذه المنطقة رغم بعدها عن المدينة ، واستعداداتها العسكرية الضخمة ، وقد أدت المواجهة مع هؤلاء الناس إلى حدوث السرايا التالية :

١. سرية مؤتة^(١) :

أدى مقتل الصحابى "الحارث بن عمير" حامل رسالة رسول الله ﷺ إلى ملك بصرى إلى غضب رسول الله ﷺ وتألمه لهذا العدوان الذى لا يراعى حقاً ولا يحترم خلقاً ، فجهز جيشاً من ثلاثة آلاف صحابى ، وأمر عليه ثلاثة من خيرة الصحابة هم : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة رضى الله عنهم فأمر زيدا أولاً وقال لهم: إن قتل زيد فجعفر ، فإن قتل جعفر فعبد الله ... وعقد لهم لواء أبيضاً^(٢) .

(١) مؤتة : قرية بأدنى بلاد الشام فى منطقة البلقاء .

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى ج ٢١ ص ١٣٦ .

وسار رسول الله ﷺ حتى كان خارج المدينة فعسكر بـ "المجرف". وندب الصحابة للخروج ، ولم يبين لهم الأمر ، حتى صلى بهم الظهر فجلس معهم ، وعين الأمراء ، وعقد اللواء وأعطاه للأمير الأول ، زيد بن حارثة ، وأخذ المؤمنون يدعون قائلين وهم يودعون المجاهدين : دافع الله عنكم ، وردكم صالحين غانمين .

وقد ودع رسول الله الجيش حتى ثنية الوداع ، وهناك أوصاهم فقال لهم : أوصيك بتقوى الله ، وبمن معك من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم ، واكفف عنهم .

ادعهم إلى الدخول في الإسلام ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم في الفئ ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين .

فإن أبوا الإسلام فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستزلهم على حكم الله فلا تستزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا ؟

وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة رسوله ، ولكن اجعل لهم ذمة أبيك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تنقضوا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين للناس ، فلا تتعرضوا لهم وستجدون آخرين في رعوسهم مفاحص الغدر والهوى فاقلعوها بالسيوف .

لا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً ، ولا كبيراً فانياً ، ولا تغرقن نخلاً ، ولا تقتلن شجراً ولا تهدموا بيتاً^(١) .

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، مرني بشئ أحفظه عنك .

قال ﷺ : إنك قادم غداً بلداً ، السجود فيه قليل فأكثر السجود .

قال ابن رواحة : زدني يا رسول الله .

قال ﷺ : اذكر الله ، فإنه عون لك على ما تطلب .

فقام عبد الله من عنده ، حتى إذا مضى ذاهباً رجع .

فقال : يا رسول الله ، إن الله وتر يحب الوتر .

فقال : يا ابن رواحة ، ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشرراً عسى أن

تحسن واحدة .

فقال : لا أسألك عن شئ بعدها^(٢) .

ومضى المسلمون ، وقد أمرهم رسول الله ﷺ أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير ، وسمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم ، فقام فيهم رجل من الأزد يقال له شرحبيل بن عمر الغساني ، وقدم الطلائع أمامه ، وبعث أخاه سدوس بن عمرو في خمسين فلقوا المسلمين بوادي القرى فقاتلهم المسلمون وقتلوا سدوسا .

ونزلوا معان من أرض الشام ، فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من البلقاء في مائة ألف من الروم ، ومعه من بهراء ووائل ، وبكر ، ولخم ، وجذام مائة ألف عليهم رجل من بلوى يقال له مالك .

فأقاموا ليلتين بـ "معان" وأرادوا أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ليردهم أو يزيدهم رجالاً ، فشجعهم عبد الله بن رواحة وقال : والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ، ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول ، إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، انطلقوا والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، ويوم أحد وما معنا إلا فرس واحد ، فإنما هي إحدى الحسينيين : إما ظهور عليهم ، فذلك ما وعدنا الله

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٢) المغازي ج ٢ ص ٧٥٦ . ٧٥٨ .

ووعدنا نبينا ، وليس لوعده خلف وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان .

فشجع الناس ومضوا إلى مؤتة ، فرأوا المشركين ومعهم مالا قبل للمسلمين به من العدد ، والسلاح ، والكراع ، والديباج ، والحرير ، والذهب .
قال أبو هريرة : وقد شهدت ذلك فبرق بصرى ، فقال لى ثابت بن أقرم : يا أبا هريرة ، مالك ؟ كأنك ترى جموعاً كثيرة .
قلت : نعم .

قال : لم تشهدنا ببدر ، إنا لم ننصر بالكثرة .
وقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم : فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل وقاتل الناس معه ، والمسلمون على صفوفهم ، وعلى اليمين قطبة بن قتادة السدوسى ، وعلى الميسرة عباية بن مالك ، فقتل زيد طعناً بالرمح .
ثم أخذ اللواء جعفر فنزل عن فرسه فعرقبها ، ثم قاتل حتى قتل : ضربه رجل من الروم فقطعه نصفين ، فوجد فى نصفه بضع وثلاثون جرحاً وقيل : وجد فيما بين منكبيه ، اثنتان وسبعون ضربة بسيف أو طعنة برمح ووجد به طعنة قد أنفذته .

ثم أخذ اللواء بعده عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل^(١) .
وسقط اللواء ، فاختلط المسلمون والمشركون ، وانهزم المسلمون أسوأ هزيمة ، وقتلوا ، واتبعهم المشركون ، فجعل قطبة بن عامر يصيح : يا قوم يقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً ، فما يثوب إليه أحد ، ثم تراجعوا ، فأخذ اللواء ثابت بن أقرم ، وصاح : يا للأنصار ، فأتاه الناس من كل وجه وهم قليل ، وهو يقول : هلموا إلى أيها الناس .

فلما نظر إلى خالد بن الوليد قال : خذ اللواء يا أبا سليمان .
فقال خالد : فقال لا آخذه ، أنت أحق به ، أنت رجل لك سن ، وقد شهدت بدرأ .

قال ثابت : خذه أيها الرجل ، فوالله ما أخذته إلا لك .

(١) المغازى ج ٢ ص ٧٦٠ - ٧٦٢ .

فأخذه خالد وواصل القتال ، وجعل المشركون يحملون عليه ، فثبت حتى كلَّ المشركون ، وحمل بأصحابه ففض جمعاً من جمعهم ، ثم دهمه منهم بشر كثير فتحملها خالد والمسلمون حتى انتهى اليوم .

بات خالد ليلته ووضع خطة جديدة فلما أصبح غداً ، وقد جعل مقدمته ساقية وساقته مقدمة ، وميمينته ميسرة ، وميسرته ميمنة ، وصمد في واد واسع ينتهى بمضيق جهة الرومان فلما جاء الرومان من المضيق ، ورأوا تنظيم المسلمين أنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيأتهم ، فقالوا : قد جاءهم مدد ، ورعبوا ، فأنكشفوا منهزمين ، وحين تراجعهم اضطربوا في المضيق وأدى تراحمهم إلى هلاك كثير منهم وقتل المسلمون منهم مقتلة لم يقتلها قوم آخرون^(١) .

وقتل من المسلمين يوم مؤتة اثنا عشر شهيداً بما فيهم القواد الثلاثة وانسحب الجيش الإسلامي وعاد إلى المدينة ببعض الغنائم .، وتحدث أهل المدينة بأن الجيش فر من المعركة وسموهم بالفرار ... فقعد الناس في بيوتهم حتى لا يسمعو من يناديهم يا فرار ... وكانوا يصلون في دورهم ولا يحضرون جماعة المسجد .

فلما علم بذلك النبي ﷺ قال : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار في سبيل الله^(٢) .
والصحيح أن كل فئة انحازت عن الأخرى ، وأطلع الله سبحانه وتعالى على ذلك رسوله من يومهم ذلك ، فأخبر به أصحابه وقال عنهم ﷺ : لقد رفعوا إلى في الجنة فيما يرى النائم على سرر. من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رولحه أزوراراً عن سرير صاحبيه ، فقلت عم هذا ؟ ف قيل لى : مضيا ، وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى .

وقال رسول الله ﷺ : مثل لى جعفر وزيد وابن رواحة في خيمة من در كل واحد منهم على سرير ، فرأيت زيدا وابن رواحة في أعناقهما صدود ، ورأيت جعفرأ مستقيماً ليس فيه صدود. قال. : فسألت ف قيل لى :. إنهما حين غشيها الموت أعرضا أو كأنهما صدا بوجوههما ، وأما جعفر فإنه لم يفعل .

(١) إمتاع الأسماع ص ٣٤٥ . ٣٤٩ .

(٢) المغازى ج ٢ ص ٧٦٥ .

وقال رسول الله ﷺ في جعفر : إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء .

وقال موسى بن عقبة : قدم يعلى بن منية على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة ، فقال له رسول الله ﷺ : إن شئت فأخبرني وإن شئت أخبرتك ، قال : أخبرني يا رسول الله فأخبره ﷺ خبرهم كله ، ووصفهم له ، فقال : والذي بعثك بالحق ، ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً لم تذكره ، وإن أمرهم لكما ذكرت ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معركتهم^(١) .

٢. غزوة "ذات السلاسل"^(٢) :

بعد انتهاء غزوة مؤتة ، ورجوع المسلمين إلى المدينة بلغ رسول الله ﷺ أن نفراً من "بلى وقضاة" وهم الذين كانوا مع الرومان في مؤتة يجتمعون ويستعدون لمهاجمة أطراف المدينة ... فجهز رسول الله ﷺ جيشاً من المسلمين بلغ ثلاثمائة رجل ومعهم ثلاثون فرساً وأمر عليهم عمرو بن العاص ﷺ لرحمته فيهم لأن أمة كانت بلوية أماً في تأثرهم بقرابته وعقد له اللواء وأعطاه راية سوداء .

أخذ عمرو ﷺ يتحرك بالجيش فكان يسير في الليل ويكمن بالنهار . فلما اقترب من القوم أرسل طلائعه للوقوف على خبرهم فبلغه أنهم جمع كثيف ، فأرسل ابن مكيث إلى رسول الله ﷺ يخبره بجمع القوم ، ويستمدده بالرجال ، فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في مائتين من كبار الصحابة ، فلاحقوا بعمر و جنوده ، فاختلف أبو عبيدة وعمر و فيمن يتولى إمارة الجيش ، حيث رأى أبو عبيدة أنه أمير مجموعته ، وتمسك عمرو بأنه قائد الغزو ، والمدد يتبعه ، ولا يصح تواجد قائدين على جيش مسئول عن مهمة واحدة .

وبعد جدل ونقاش سلم أبو عبيدة القيادة لعمر و وقال له : لتطمئن يا عمرو وتعلمن أن آخر ما عهد إلى رسول الله ﷺ أن قال : "إذا قدمت على صاحبك

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٨٣ ، المغازي ج ٢ ص ٧٦٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٥ .

فتطوعاً ولا تختلفاً " وإنك والله إن عصيتني لأطيعنك" ^(١) ، فأطاع أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلى بالناس ، فأب إلى عمرو جمع ، فصاروا خمسمائة ، فسار الليل والنهار حتى وطئ بلاد بلى ودوخها ، وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه كان بهذا الموضع جمع فلما سمعوا به تفرقوا ، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلى وعذرة وبلقين ولقى فى آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير ، فقاتلوا ساعة وتراموا بالنبل .
ورمى يومئذ عامر بن ربيعة ، بسهم فأصيب ذراعه ، وحمل المسلمون عليهم فهربوا ، وأعجزوا هرباً فى البلاد وتفرقوا .

وهزم عمرو ما هناك وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا بمكان صاروا فيه وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم ، وكانوا ينحرون ويذبحون ، لم يكن فى ذلك أكثر من ذلك ، ولم تكن غنائم تقسم إلا ما ذكر له ^(٢) .

وتميز عمرو بن العاص بحسمه فى القرار . ، وحسن قيادته لجندم . ، وكان يصبر على تنفيذ ما يأمر به وبخاصة أنه فى ميدان معركة لا يصح معه الجدل والنقاش فلقد أمر جنوده بعدم إشعال النار لئلا رغم شدة البرد وقسوة الشتاء حتى لا يجد العدو مبيتهم فيفاجئهم .

كما أصر على وحدة القيادة . ، وأطاعه أبو عبيدة رضي الله عنه وعاد المسلمون بعد انتهاء اللقاء إلى المدينة سالمين .

٣. سرية الخبط :

بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فى سرية فيها المهاجرون والأنصار وهم ثلثمائة رجل ، إلى ساحل البحر إلى حى من جهينة ، فأصابهم جوع شديد ، فأكلوا الخبط حتى إن شفق أحدهم بمنزلة مشفر البعير العضة ، فمكتنا على ذلك حتى قال لهم أبو عبيدة : لو لقينا عدوا ما كان بنا حركة إليه ، لما بالناس من الجهد .

فقال قيس بن سعد : من يشتري منى تمرًا بجزر . ، يوفيني الجزر . ها هنا وأوفيه التمر بالمدينة ؟

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٧٤ .

فجعل عمر ابن الخطاب يقول : واعجباه لهذا الغلام ، لا مال له يدان فى مال غيره فوجد قيس رجلاً من جهينة فقال له : بعنى جزراً وأوفيك سقّة من تمر بالمدينة .

قال الجهنى : والله ما أعرفك ؟ ومن أنت ؟

قال : أنا قيس بن سعد بن عبادة بن دليم .

قال الجهنى : ما أعرفتى بنسبك ، أما إن بينى وبين سعد خلة ، سيد أهل يثرب ، فابتاع منهم خمس جزر كل جزور بوسقين من تمر ، يشترط عليه البدوى تمر ذخيرة مصلية من تمر آل "دليم" .

يقول قيس : نعم .

فقال- المجهنى :- فأشهد لى فأشهد له نفرًا- من -الأنصار- ومعهم نفر من

المهاجرين .

قال قيس : أشهد من تحب ، فكان فيمن أشهد عمر بن الخطاب ؓ .

فقال عمر : لا أشهد هذا يدان ولا مال له ، إنما المال لأبيه .

قال الجهينى : والله ما كان سعد ليخنى بابنه فى سقّة من تمر ، وأرى وجهاً حسناً وفعالاً شريفاً .

فكان بين عمر وبين قيس كلام حتى أغلظ له قيس الكلام ، وأخذ قيس الجزر فنحرها لهم فى مواطن ثلاثة ، كل يوم جزوراً فلما كان اليوم الرابع نهاه أميره .

وقال أبو عبيدة : تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك^(١) ؟

أقبل أبو عبيدة بن الجراح ومعه عمر بن الخطاب ؓ إلى قيس ونهياه عن

ذبح الجزر

فقال أبو عبيدة : عزمت عليك ألا تتحر ، أتريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك ؟

فقال قيس : يا أبا عبيدة أترى أبا ثابت وهو يقضى دين الناس ، ويحمل الكل ويطعم فى المجاعة ، لا يقضى سقّة تمر لقوم مجاهدين فى سبيل الله ، فكاد أبو عبيدة أن يلين له ، ويتركه حين جعل عمر يقول : اعزم عليه فعزم عليه ، فأبى

(١) المغازى ج ٢ ص ٧٧٥ .

عليه أن ينحر ، فبقيت جزوران معه حتى وجد القوم الحوت فى البحر فكفاهم اثنى عشر يوماً .

فقدم قيس المدينة ظهراً مع المسلمين وهم يتعاقبون على ما بقى معه من الإبل وبلغ سعد ما كان أصاب القوم من المجاعة .

فقال : إن يكن قيس كما أعرفه فسوف ينحر للقوم .

فلما قدم قيس لقيه سعد فقال : ما صنعت فى مجاعة القوم حيث أصابهم ؟
قال : نحرت .

قال : أصبت انحر .

قال : ثم ماذا ؟

قال : نحرت .

قال : أصبت .

قال : ثم ماذا ؟

قال : ثم نحرت .

قال : أصبت ، انحر .

قال : ثم ماذا ؟

قال : نهيت .

قال : ومن نهاك ؟

قال : أبو عبيدة بن الجراح أميرى .

قال : ولم ؟

قال : زعم أنه لا مال لى وإنما المال لأبيك .

فقلت : أبى يقضى عن الأبعاد ، ويحمل الكل ، ويطعم فى المجاعة ، ولا

يصنع هذا بى وبالمجاهدين .

قال أبوه : فلك أربع حوائط ، وكتب له بذلك كتاباً ، وأتى بالكتاب إلى أبى

عبيدة فشهد فيه ، وأتى عمر فأبى أن يشهد فيه ، وأدنى حائط يعطى منها خمسين وسقاً .

وقدم البدوى مع قيس فأوفاه سقته وحمله وكساه ، فبلغ النبى ﷺ فعل قيس .

فقال : إنه فى بيت جود^(١) .

٤. سرية أبى قتادة إلى خضرة :

كانت سرية أبى قتادة بن رعى الأنصارى إلى خضرة ، وهى أرض محارب بنجد أميرها أبو قتادة الأنصارى ، بعثه رسول الله ﷺ فى شعبان منها فى خمسة عشر رجلاً إلى غطفان نحو نجد ، فساروا ليلاً وكمنوا نهاراً ، حتى أتوا ناحيتهم ، فهجموا على حاضر منهم عظيم ، وجردوا سيوفهم ، وكبروا ، فقتلوا رجالاً ، واستاقوا النعم ، وحملوا النساء حتى قدموا بمائتى بعير ، وألف شاة ، وسبى كثير ، فعزلوا من ذلك الخمس .

وقد غابوا خمس عشرة ليلة ، وكانت سهمانهم اثنتى عشر بعيراً ، أو عدلها من البعير عشرة من الغنم^(٢) .

- سابعاً -

حركة الدعوة

فى مرحلة ما بين الحديبية وفتح مكة

بعدما أتم المسلمون صلح الحديبية أخذت الحركة بالدعوة صوراً كثيرة ، ونشطت فى أماكن متعددة ، واستفادت بكل الوقائع المتاحة .

وقد رأينا تتابع الرسائل إلى العالم كله يحملها دعاة مخلصون لدينهم وكانت الرسالة يحملها صحابى واحد ، ويسلمها إلى كبير القوم الذين قصدهم ملكاً كان أو سلطاناً ، أو أميراً ، أو شيخاً لقبيلة ، وهذا يؤكد اعتماد تبليغ الإسلام على الكلمة الحرة الطليقة ، والبرهان الدقيق والتعامل مع الواقع ، واستنطاق الآيات منه ... وأن لا ما حمل البلاغ رجل واحد إلى أمة كبيرة بعيدة ... ولم يترتب على عدم الاستجابة عداًء أو حرب الملهم إلا فى حالات الاعتداء على حامل الرسالة ، والاستهزاء بشخصه ، والاستهانة بإنسانيته ، واحتقار دين الله تعالى بأى صورة كانت .

(١) المغازى ج ٢ ص ٧٧٤ - ٧٧٦ .

(٢) المغازى ج ٢ ص ٧٧٧ .

وعاشت الجزيرة العربية كلها حالة من الاستقرار والهدوء ، وبدأ الناس يفدون إلى المدينة المنورة باحثين عن الحق ليكونوا معه ، وراغبين في التجارة أهل مكة بعدما تحقق الأمان لهم وهم يرحلون ... ولم يشذ عن هذا الاستقرار إلا اليهود فلقد تجمعوا في منطقة خيبر بعد إخراجهم من المدينة ونظموا حياتهم ومعاشهم فزرعوا الوادي بالنخيل والأشجار والثمار ، وأقاموا على المرتفعات البيوت ، وحصنوها وفق خطة منتظمة حيث جعلوا كل مجموعة من البيوت حصناً ، وكل حصون مرتفع ما حصناً رئيساً ، وأحاطوا كل حصن رئيس بسور ضخيم أعدوه للدفاع والقتال يسمح للمدافعين بالإقامة فوقه في علوهم ... وبعد هذا يكون الوادي المزروع ... وأسسوا في السور أبواباً للدخول والخروج أحاطوها بالحرس من جانبيه ... وربطوا بين الحصون الرئيسية بطرق بين الشجر والزرع ، وتحت الأرض ... وتصور اليهود في خيبر إمكانية تعرضهم للحصار. فمألو. حصونهم بالأمتعة ، والأغذية وللأسلح ليحملوا الحصار. مدة طويلة توقع من يهاجمهم في الميأس. ، وتضطروا إلى الانسحاب .

قدر رسول الله ﷺ واقع اليهود ، وتيقن أن السكوت على عداوتهم وتصرفاتهم سيعيد الكثير إلى معاداة المسلمين ، وسيزيدهم غروراً وهمجية ، ولذلك كانت ضرورة التحرك. إلى خيبر وما حولها للتخلص من هذا الخطر الذي لا يرضى بالسلام ، ولا يريد المسالمة وكان إن قضى النبي ﷺ على حصونهم وأتباعهم في خيبر ، وفدك ، وتيماء ، وأذرعات ، وبذلك تطهر شمال جزيرة العرب ، وأصبحت الحركة آمنة للدعوة إلى الله تعالى .

إن الإنسان المعاصر وهو يتصور حصون خيبر ، واستعداداتها يتصور ما تفعله إسرائيل اليوم من جدار عازل ، وقنوات مائية عميقة تحجز جيرانها عنها لتعيش آمنة فيما اغتصبت من أرض ، وتتمتع بما سرقت من أوطان . يتصور الإنسان ذلك ويتساءل أين أصحاب محمد للتخلص من هذا العدوان الظالم ؟

وأين هي القوة التي تستطيع المحافظة على الحقوق ، وإلزام كل إنسان بما
وجب عليه ؟ ... ويفهم الإنسان المعاصر وهو يرى الظلم والظلمات الحكمة في
أهمية القوة الإسلامية وضرورتها لحماية الحقوق ، وصيانة الكرامة ومنع الظلم
والعدوان .

وفي هذه المرحلة التاريخية أدى رسول الله ﷺ وكثير من المسلمين عمرة
القضاء في إطار ما عاهد عليه قريش ، فالتزم ووفى وزار البيت واعتمر ، وأظهر
للدنيا كلها طبيعة الإسلام في سلامه وعطائه .

وكما واجه الرسول ﷺ يهود خيبر أرسل جيش مؤتة إلى أطراف بلاد
الروم ليكون رسالة تحذيرية للرومان وأتباعيهم ليدركوا أن ما أصاب اليهود قد
يصيبهم إذا ألفوا العدوان والظلم ... ولقد أدى جيش مؤتة مهمته وعاد إلى المدينة
المنورة وقد اشتبك المسلمون في عديد من السرايا ليتعودوا على الحرب ،
ويعلموا دورهم في حماية الإسلام والدعوة لدين الله تعالى ... وكان القرآن معهم
يوجههم ، ويربيهم بمنهج الله تعالى .

المبحث الثانى عشر فتح مكة

وتطهير الجزيرة العربية كلها من الشرك

رضيت الجزيرة العربية بواقعها الجديد ، وأخذت تؤمن بالإسلام ، وتدخل فى دين الله تعالى ... ولم تبق إلا جيوب قليلة استمرت على عداها لله ورسوله ... وعلى رأس هذه الجيوب رعوس الكفر فى مكة ، وقبائل ثقيف ، وهوازن ، وبنى سليم ...

أخذت هذه الجيوب الكافرة تمثل عائقاً أمام الآخرين فى إقبالهم على الإسلام ، وتهدد الدعاة إلى دين الله تعالى فى حركتهم بالدعوة إلى الله تعالى ، ولذلك كان التخلص من هذه الجيوب نهاية كريمة لإسلام الجزيرة كلها ... وتوجيه كل طاقاتها لبروز خير أمة فى مجال الواقع ، تحمل الإسلام إلى ممالك الدنيا ، وتظهره فى أمة عادلة ناهضة تدعو إلى الإسلام بالعمل ، والقول ، والسلوك . وللخلق ، وتنادى العالمين أن هلموا إلى الإسلام لتحقيقوا عالمية إنسانية فى إطار دين الله ، وتبتعدوا عن كل سوءات البشر ، من صراع ، وتحاسد ، وطغيان ، وعدوان .

ومن حكمة الله تعالى أنه عند فتح مكة وتطهير الجزيرة كلها من الشرك كانت معالم الإسلام قد عرفت ، وأحكامه العملية قد فصلت ، وأصبح كل من المفرد والجماعة والأمة يدرك مدى الخير الذى حققه الإسلام للجميع ، وتيقنوا من صدقة ، وأحقيته أن يكون دين الناس أجمعين .

وعلم كل من أسلم مسئوليته أمام دينه الذى آمن به ، ولذلك انطلق دعاة الإسلام إلى العالم يبلغون دين الله تعالى ، ويزيلون كوابس الطغيان التى تمنع الناس من التفكير الحر ، والاختيار الصحيح ، واستمروا على إخلاصهم حتى استقر الحق ، ودخل الناس فى دين الله تعالى .

إن فتح مكة قضى على أكثر قوة تصدت لرسول الله ، وناصبت دينه العداوة وجعلت نفسها المعارض الرئيسى للإسلام والمسلمين ... ولذلك كان انضمام مكة للمعسكر الإسلامى من الناحية العملية انضمام الجزيرة كلها للإسلام .

إن الغزوات الكبرى كانت مع المكيين ، أما غيرهم فكانت المواجهة معهم تتم بأعداد قليلة ، وأحياناً بفرد واحد .
وفى هذا المبحث سنبين الخطوات النهائية التى تطهرت فيها الجزيرة العربية من الأوثان والشرك ... وذلك فيما يلى :

- أولاً -

فتح "مكة"

هو الفتح الأعظم الذى انتهى به عصر الأصنام فى الجزيرة العربية كلها وعلت به كلمة الله تعالى ، وأصبح الإسلام قوة ظاهرة بانضمام مكة والمدينة تحت لوائه ... وصارت مكة هى قلب الأمة الإسلامية ، ومستقرها الآمن ... وغدت الأمل الذى عاش رسول الله ﷺ يعمل له ، ويجاهد من أجله .
وفتح مكة يحتاج إلى دراسة النقاط التالية :

- ١ -

سبب فتح "مكة"

تعاهد رسول الله ﷺ والقرشيون فى الحديبية على حرية كل فرد وكل جماعة فى أن تتحاز لأيهما ، وتتدخل فى دينه وعقيدته .
وقد انحازت بنو بكر لقريش ، وانحازت بنو خزيمة لرسول الله ﷺ .
وبنو بكر وبنو خزاعة قبيلتان متحاربتان فى الجاهلية ، وبينهما عداوات قديمة فلما انحاز كل منهما لطرف من طرفى الحديبية عاشوا آمنين فى ظل هذا الصلح .
إلا أن بنى بكر انتهزوا فرصة انشغال المسلمين بالسرايا ، وبالعودة إلى الله تعالى وظنوا أن بُعد المسافة بين مكة والمدينة يؤدى إلى عدم وصول الأخبار إلى المدينة ، وإلى تقاعس المسلمين عن الانتصار لحلفائهم بنى خزاعة ، وبخاصة إذا خططوا لتآمرهم وخدعوا بحيلهم رسول الله ﷺ والمسلمين معه ...
فتآمروا مع حلفائهم من قريش .
وقال القرشيون : ما يعلم بنا محمد ، إذا دبرنا الغدر ليلاً وفى الظلام .

فوثب بنو بكر على بنى خزاعة ليلاً وقتلوا منهم ثلاثاً وعشرين نفساً عند بئر لهم يعرف بـ "بئر الوتر" وكان أغلب القتلى من الأطفال والنساء والشيوخ ، ففرت خزاعة إلى الحرم ودخلت فيه ولجأت إلى البيت الكريم .
أدركت بنو بكر حرمة المبيت ، وشعرت بافتضاح تأمرها ، فنادت قائدها نوفل بن معاوية الدؤلى ، قائلة له : إنا قد دخلنا الحرم ... إلهك ... إلهك ...
فقال لهم : لا إله اليوم يا بنى بكر ، أصيبوا تأركم ، فلعمري إنكم لتسرقون فى الحرم ؟ ... أفلا تصيبون فيه تأركم^(١) ؟؟
وقد أعانت قريش حلفاءها بالسلاح والرجال ، وحاولوا إخفاء ما قاموا به حتى لا ينتقم المسلمون منهم ، وظنوا أن ظلام الليل يستر غدرهم .
وفى مكة بحثت خزاعة بعد انتهاء العدوان الغادر عن مقر آمن تذهب إليه فلجأت إلى دار بديل بن ورقاء ، واستجارت به .
وأسرع عمرو بن سالم الخزاعى إلى رسول الله ﷺ يخبره الخبر ، ويستجده ، فلما وصل إلى المدينة وجد رسول الله ﷺ جالساً فى المسجد بين الصحابة فوقف عنده ثم قال :

يا رب إني ناشد محمداً .: حلف أبينا وأبيه الأتلدا^(٢)
قد كنتم ولداً وكنا والداً^(٣) .: ثمة أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر ، هداك الله ، نصراً اعتدا .: وادع عباد الله يأتوا مددا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا .: ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لى فى كدء رصداء .: وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل ، وأقل عددا .: هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم ، ثم عرضت له سحابة من السماء فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب^(١) .

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ٣٩٠ .

(٢) يشير إلى أن زوجة قصي أم عبد مناف من بنى هاشم خزاعة .

(٣) يشير إلى ما كانين بنى خزاعة وبنى هاشم من حلف فى الجاهلية .

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بمن أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة .

وأمر رسول الله ﷺ بالجهاز ، وكتب الخروج ، وسأل الله أن يعمى على قريش خبره حتى يبيغتهم في بلادهم^(٢) .

- ٢ -

محاولة "أبي سفيان" تجديد الصلح

استيقظت قريش لنفسها ، وأدركت أنها ارتكبت جرماً يستوجب نقض صلحها مع المسلمين ، فأسرعت بإرسال أبي سفيان في وفادة الإنقاذ لرسول الله ﷺ ليجدد الصلح والعهد ، ويزيد في المدة ، فخرج أبو سفيان من مكة ، فلقه بديل بن ورقاء عائداً من المدينة فقال له : من أين أقبلت يا بديل ؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ .

فقال بديل : سرت في خزاعة في هذا الساحل في بطن هذا الوادي .
فعمد أبو سفيان إلى مبارك ناقتة فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى ، وعلم أنه من نوى المدينة فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته ، فقال : يا بني ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش ؟ أو رغبت به عني ؟
فقالت : هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراشه .

فقال : يا بنية والله لقد أصابك بعلمك شر .
قالت : هداني الله للإسلام ، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها ، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ؟
قال : يا عجباه ، وهذا منك أيضاً ؟ أأترك ما كان يعبد آبائي وأتبع دين محمد ؟

(١) سيرة النبي ج ٢ ص ٣٩٥ .
(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

ثم قام من عندها^(١) .

فلما لقي رسول الله قال له : يا محمد اشدد العقد ، وزدنا في المدة .

فقال رسول الله ﷺ : أو لذلك قدمت ؟ هل كان من حدث قبلكم ؟

فقال : معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لانغير ، ولانبدل .

فخرج من عند رسول الله ﷺ وأتى أبا بكر فقال : جدد العقد وزدنا في

المدة ؟

فقال أبو بكر : جوارى في جوار رسول الله ﷺ ، والله لو وجدت الذر تقاتلكم

لأعنتها عليكم .

ثم خرج فأتى عمر بن الخطاب فكلمه .

فقال عمر ابن الخطاب ؓ : ما كان من حلفنا جديد فأخلفه الله ، وما كان

منه مثبتاً فقطعه الله ، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله .

فقال له أبو سفيان : جزيت من ذي رحم شراً .

ثم دخل على عثمان فكلمه .

فقال عثمان : جوارى في جوار رسول الله ﷺ .

ثم اتبع أشراف قريش يكلمهم فكلهم يقول عقدنا في عقد رسول الله ﷺ .

فلما ينس مما عندهم دخل على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فكلما فقالت :

إنما أنا امرأة وأن ذلك إلى رسول الله ﷺ .

فقال لها : فأمرى أحد ابنيك .

فقالت : إنهما صبيان ليس مثلهما يجير .

قال : فكلمى علياً .

فقالت : أنت فكلمه .

فلما كلمه قال له على ؓ إن ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يفتات

على رسول الله بجوار ، وأنت سيد قريش ، وأكبرها ، وأمنعها ، فأجر بين

عشيرتك .

(١) المغازى ج ١ ص ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، سيرة النبي ج ٢ ص ٣٥٧ .

قال : صدقت وأنا كذلك ، فخرج فصاح ألا أنى قد أجرت بين الناس ولا والله ما أظن أن يحفزنى أحد .
ثم دخل على النبى ﷺ فقال : يا محمد إنى أجرت بين الناس ، ولا والله ما أظن أن يحفزنى أحد ، ولا يرد جوارى ؟
فقال ﷺ : أنت تقول يا أبا حنظلة .
فخرج أبو سفيان على ذلك فقال ﷺ حين أدبر أبو سفيان : اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة .
وقدم أبو سفيان مكة فقالت له قريش ما وراءك هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟
قال : لا والله لقد أبى على ، وقد تتبعت أصحابه فما رأيت قوماً لملك عليهم أطوع منهم له ، غير أن على بن أبى طالب قد قال لى : التمس جوار الناس عليك ، ولا تجر أنت عليه وعلى قومك وأنت سيد قريش ، وأكبرها ، وأحقها أن لا تخفر جواره ، فقامت بالجوار ثم دخلت على محمد فذكرت له أنى قد أجرت بين الناس وقلت : ما أظن أن تحفزنى ؟
فقال : أنت تقول ذلك يا حنظلة^(١) ؟
فقالوا مجيبين له : رضيت بغير رضى ، وجئتنا بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئاً ، وإنما لعب بك على ، لعمر الله ما جوارك بجائز وإن إخفارك عليهم لهين .
ثم دخل على امرأته فحدثها الحديث فقالت : قبحك الله من وافد فما جئت بخير .

- ٣ -

استعداد المسلمين لفتح مكة

أخذ رسول الله ﷺ يستعد لغزو مشركى مكة ، وأمر عائشة إن تستعد لذلك ، وأمرها أن لا تخبر أحداً بجهة الغزو ليأخذ القرشيين على غرة .

(١) بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى ج ٢١ ص ١٤٤ ، والمغازى ج ٢ ص ٧٩٣ ، ٧٩٥

وعين ﷺ عمر بن الخطاب على أطراف المدينة ليتحفظ على من يأتي المدينة من غير أهلها ، ويرقب الحركة منها وإليها .

ودخل أبو بكر ﷺ على عائشة رضى الله عنها : وهى تجهز للسفر ، وتعمل قمحاً سويقاً ودقيقاً ، فقال : يا عائشة أهم رسول الله بغزو ؟ قالت : ما أدرى .

قال : إن كان هم بسفر فأعلمينا نتهياً له .

قالت : ما أدرى ، لعله يريد بنى سليم ، لعله يريد ثقيفاً ، لعله يريد هوازن ، فاستعجمت عليه ، وحافظت على أسرار رسول الله ﷺ حتى دخل رسول الله ﷺ عليهما فقال له أبو بكر ﷺ : يا رسول الله ، أردت سفيراً ؟

قال ﷺ : نعم .

قال أبو بكر : أفأتجهز ؟

قال ﷺ : نعم .

قال أبو بكر : فأين تريد يا رسول الله ؟

قال ﷺ : قريشاً وأخف ذلك يا أبا بكر .

وأمر ﷺ الناس بالإستعداد للجهاد وطوى عنهم الوجه الذى يريد .

قال أبو بكر : يا رسول الله ، أوليس بيننا وبينهم مدة .

قال : إنهم غدروا ونقضوا العهد ، فأنا غازيهم ، وأطو ما ذكرت لك .

ونشط المسلمون فى الاستعداد ، وبدأت القبائل تفد برجالها إلى المدينة بعدما أخبرهم بأهمية القدوم إليها وقال لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليأت المدينة وبعث رسلاً فى كل ناحية حتى قدموا ، فقدمت أسلم ، وغفار ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ، المدينة ولحقت بنو سليم بهم عند قديد^(١) .

وأخذ المسلمون يفكرون فى جهة غزوتهم التى جاءوا لها ، فظان يظن أنها الشام وظان يظنها ثقيفاً ، وظان يظن أنها هوازن .

(١) إمتاع الأسماع ص ٣٦١ . ٣٦٤ .

ومن المتوربة على الناس. ، إرساله ﷺ ابن ربيع في ثمانية نفر إلى بطن "إضم" ليصرف انتباه الناس عن مكة ، وحتى يظن القوم أن رسول الله ﷺ سيتجه باستعداداته لمساعدة من

أرسلهم إلى " إضم" وبخاصة أنها في اتجاه مكة .

فلما أجمع ﷺ المسير إلى قريش وعلم بذلك الناس ، كتب حاطب بن أبي بلتعه إلى قريش ، يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ في أمرهم ، وكان كتابه موجهاً إلى ثلاثة نفر : صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبي جهل ، وفيه يقول: إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن يكون لي عندكم يد بكتابي إليكم .

وأعطى الكتاب إلى امرأة من مزينة من أهل العرج تسمى "سارة" وجعل لها عشرة دنانير على أن تبلغه قريشاً ، وقال لها : أخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق المألوف بين مكة والمدينة فإن عليه حرساً ، فجعلته في رأسها ، ثم فتلت عليه فرونها ، وسلكت طريقاً غير مألوف حتى لقيت الطريق بالعقيق ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث ﷺ علياً ، والزيبر رضى الله عنهما وقال لهما : أدركا امرأة من مزينة قد كتبت معها حاطب كتاباً يحذر قريشاً ، فخرجا ، فأدركاها ، فاستنزلاها ، والتمسأه في رحلها فلم يجدا شيئاً فقالا لها : إنا نحلف بالله ما كذب رسول الله ولا كذبتنا ، ولتخرجن هذا الكتاب ، أو لنكشفنك ، فلما رأت منهما الجد قالت : أعرضاً عني ، فأعرضاً عنها ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب .

فلما جاء بالرسالة إلى رسول الله ﷺ دعا حاطباً فقال : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءاً ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم أهل وولد ، فصانعتهم .

فقال عمر ؓ : قاتلك الله ، ترى رسول الله ﷺ يأخذ بأطراف المدينة ، ويراقب كل داخل إليها ، وتكتب إلى قريش تحذرهم ، دعنى يا رسول الله أضرب عنقه فإنه قد نافق .

فقال ﷺ : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم^(١) ، وأنزل الله تعالى في شأن حاطب قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ مُخْرَجُونَ أَلْرُسُولَ وَإِذَاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾^(٢) والآية واضحة الدلالة في طريقة التعامل مع أعداء الله تعالى ، الذين كفروا بالإسلام ، وحاربوا رسول الله ﷺ لأن هؤلاء لا يفيد معهم الود لامتلاء قلوبهم بالحق ، والكرهية إن ولاية المؤمن الحق هي للمؤمنين وحدهم ، ومن يوالى أعداء الله فقد ضل الطريق المستقيم الذي أمر الله به .

وأما " سارة " فقد تركها الصحابييان بعد أخذ الرسالة منها ، وكانت لا تدرى ما بها فمضت إلى مكة تباشر مهمتها في الغناء ، فأقبلت تتغنى بهجاء رسول الله ﷺ ، وقد ارتدت عن الإسلام .

- ٤ -

الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة

غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهاً إلى مكة في عشرة آلاف من الصحابة ﷺ واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري ﷺ في العاشر من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة .

ولما كان بالجحفة أو فوق ذلك لقيه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان قد خرج بأهله وعياله من مكة مسلماً مهاجراً ، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية . فأعرض عنهما ، لما كان يلقيه منهما من شدة الأذى والهجو ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك ، وقال على لأبي سفيان بن الحارث :

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الفتح ج ٧ ص ٣ ، ٤ .

(٢) سورة الممتحنة ، الآية ١ .

اثن رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾^(١) .

فأنشده أبو سفيان أبياتاً منها :

لعمرك إني حين أحمل راية .: لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله .: فهذا أوانى حين أهدى فأهتدى
هدانى هاد غير نفسى ودلنى .: على الله من طردته كل مطرد

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طردتني كل مطرد^(٢) : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٣) .

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم ، والناس صيام ، حتى بلغ "الكديد" وهو ماء بين عسفان وقديد ، فأفطر وأفطر الناس معه ، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران في وادي فاطمة ، نزله عشاء ، فأمر الجيش بإيقاد النيران فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب ؓ .
وركب العباس بعد نزول المسلمين بمر الظهران بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وخرج يلتمس أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها .
وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وترقب ، وكان أبو سفيان يخرج ومعه حكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار .
قال العباس : والله إني لأسير على بغلة رسول الله ﷺ إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً .

ويقول بديل : هذه والله خزاعة ، خمشتها الحرب .

فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وقال العباس : أبا حنظلة ؟ فعرف أبو سفيان صوته .

(١) سورة يوسف ، الآية ٩١ .

(٢) بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى ج ٢١ ص ١٤٥ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٩٢ .

قال : أبا الفضل ؟

قلت : نعم .

قال : مالك ؟ فذاك أبى وأمى .

قلت : والله لئن ظفر بك أحد من المسلمين ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة .، حتى آتى بك رسول الله ﷺ فاستأمنه لك .، فركب خلفى .، ورجع صاحباه .

يقول العباس :. فجئت به على رسول الله ﷺ فكلما مررت به على نار. من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته ﷺ ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إلى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال عمر : أبو سفيان عدو الله ؟ الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقت فدخلت على رسول الله ﷺ ،

ثم دخل عليه عمر فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان فدعنى أضرب عنقه .

قلت : يا رسول الله ﷺ إني قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت : والله لا يناجيه الليلة أحد دونى ، فلما أكثر عمر فى شأنه قلت : مهلاً يا عمر فو الله لو كان من رجال بنى عدى ما قلت مثل هذا .

قال عمر : مهلاً يا عباس ، فو الله لإسلامك كان أحب إلى من الخطاب لو أسلم .، وما بى إلا. أنى قد عرفت أن إسلامك كان. أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب .

فقال رسول الله ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأنتنى به فذهبت فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

قال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لأغنى عنى شيئاً !!

فقال رسول الله ﷺ : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله .

قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ أما هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شيئاً .

فقال له العباس : ويحك أسلم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق .

قال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً منه .

قال ﷺ : نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن^(١) .

وفى صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ثمان غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة ، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادى عند خطم الجبل ، حتى تمر به جنود الله فيراها ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت به قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فيقول مثلاً : سليم ، فيقول : مالى ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فيقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ؟ حتى نفذت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها ، فإذا أخبرته قال : مالى ولبنى فلان .؟ حتى مر به رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال : سبحان الله يا عباس من هؤلاء .

قال : هذا رسول الله ﷺ مع المهاجرين والأنصار .

قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً .

قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة .

قال : فنعم إذن^(٢) .

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٤٠١ ، ٤٠٢ بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ٢٤٤ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد ج ٦ ص ٢٤١ .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عباد ، فلما مر بأبي سفيان قال له : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ، فلما حاذى رسول الله ﷺ أبو سفيان قال أبو سفيان : يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد ؟

قال : وما قال ؟

قال : كذا وكذا .

وقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة .

فقال رسول الله ﷺ : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً ، ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى ابنه قيس^(١) .

ولما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال له العباس : النجاء إلى قومك ، فأسرع أبوسفيان حتى دخل مكة ، وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت :. اقتلوا الحميت المدسم الأخمش الساقين ، قبح من طليعة قوم .

قال أبو سفيان : ويلكم ، لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك ؟

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم ، وإلى المسجد ، وبثوا أوباشاً لهم ، وقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شئ كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا ، فتجمع سفهاء قريش مع عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخدمة ليقاتلوا المسلمين ،. وكان فيهم رجل من بنى بكر حماس بن قيس،. كان يعد قبل ذلك سلاحاً، فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى ؟

قال : لمحمد وأصحابه .

قالت : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شئ .

(١) صحيح البخارى - كتاب غزوة الفتح ج ٧ ص ٨ .

قال : إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم .
ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فمالى علة هذا سلاح كامل وأله
وذو غرارين سريع السلة

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا في الخدمة .
أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى "ذى طوى". وكان يضع رأسه
تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس
واسطة الرجل ، وهناك وزع جيشه .

وكان خالد بن الوليد على الميمنة ، ومعه أسلم ، وسليم ، وغفار ومزينة
وجهينة قبائل من العرب ، أمره ﷺ أن يدخل مكة من أسفلها ، وقال لخالد : إن
عرض لكم أحد من قريش فاحصدهم حصداً ، حتى توافوني على الصفا .

وكان الزبير بن العوام على الميسرة ، وكان معه راية رسول الله ﷺ فأمره أن
يدخل مكة من أعلاها ، من كداء ، وأن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر ، وهم الذين لا سلاح معهم ، فأمره أن
يأخذ بطن الوادي ، ويدخل مكة من الشمال الغربى فى اتجاه جبل هند حتى يأتى
لمكة بين يدي رسول الله ﷺ .

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامى على الطريق الذى حدده رسول الله
ﷺ فأما خالد وأصحابه فلم يلقيهم أحد من المشركين إلا أناموه ، وقتل من أصحابه
كرز بن جابر الفهري ، وخنيس بن خالد بن ربيعة ، كانا قد شذا عن الجيش ،
فسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً .

وأما السفهاء من قريش فلقبهم خالد وأصحابه بالخندمة فناوشوهم شيئاً من قتال
، فأصابوا من المشركين اثنى عشر رجلاً وانهزم المشركون شر هزيمة .

وانهزم حماس بن قيس ، الذى كان يعد السلاح لقتال المسلمين ، حتى دخل
بيته ، فقال لامرأته : أغلقى على بابى .

فقالت : وأين ما كنت تقول ؟

فقال لها :

وأنت لو رأيتنا بالخدمة
واستقبلتنا بالسيوف المسلمة
إذ فر صفوان وفر عكرمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة
ضرباً فلا يسمع إلا غممة
لهم نهيت خلفنا وهممة
لم تنطق في اللوم أدنى كلمة

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا .
وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح ،
وضرب له هناك قبة ، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ .

ثم نهض رسول الله ﷺ ، والمهاجرون والأنصار بين يديه ، وخلفه ، وحوله حتى
دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود ، فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفي يده
قوس وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقرأ
قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ^(١) وقوله
تعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ ^(٢) .

وأخذت الأصنام تتساقط على وجوها كلما ضربها رسول الله ، أو أشار إليها
وكان طوافه على راحلته ، ولم يسع بين الصفا والمروة لأنه لم ينو العمرة
يومئذ ، فلما أتم طوافه ﷺ دعا عثمان بن طلحة ، وأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر
بها ففتحت ، فدخلها ، فرأى فيها الصور . ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل
عليهما السلام يستقسمان الأزل ، فقال ﷺ : قاتلهم الله والله ما استقسما بها قط
، ورأى في الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده وأمر بالصور فمحييت ^(٣) .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨١ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٤٩ .

(٣) المغازي ج ٢ ص ٨٣٢ ، ٨٣٤ .

- ٥ -

”مكة” تحت القيادة الإسلامية

تهدمت الأصنام ، وتطهرت الكعبة من ألوان الشرك ، والضلال ، وبدأ عهد جديد في مكة ، علا فيه الإسلام ، وخضع الجميع لحكم الله تعالى . وأخذ ﷺ يصرف أمور الناس والحياة ، بوحي الله تعالى بعد استقرار الأمر لعشر بقين من رمضان سنة ثمان .

وأقام ﷺ في قبة من أدم أقامها له أبو رافع عند الحجون ، وكان ﷺ يأتي منها إلى المسجد عند كل صلاة .

وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، ومنهم كان يستجير بمسلم قبل أن يعلن إسلامه من شدة خوفه .

وتحرك ﷺ من الحجون. إلى الحرم. أول مرة ضحى وقد اصطف الناس . واصطحب أبا بكر ، وابن أم مكتوم ، فلما انتهى ﷺ إلى الكعبة استلم الركن وكبر ، فكبر الناس لتكبيره حتى ارتجت مكة كلها .

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى ناحية من المسجد والناس حوله ، فاتى بدلو من زمزم فغسل وجهه ، فما يقع منه قطرة إلا فى يد إنسان ، إن كانت قدر ما يحسوها حساها ، وإلا تمسح بها ، والمشركون ينظرون ، فقالوا : ما رأينا ملكاً قط أعظم مما رأينا اليوم .

وجاءته قريش فأسلموا ، وقالوا : يا رسول الله ، اصنع بنا صنع أخ كريم . فقال ﷺ : أنتم الطلقاء مثلى ومثلكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(١) .

ثم اجتمع الناس لمبايعته ﷺ ، فجلس على الصفا ، وجلس عمر بن الخطاب أسفل مجلسه وجلس ابن أم مكتوم بين يديه فبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا وسألوه عن الهجرة إلى المدينة المنورة .

(١) سورة يوسف ، الآية ٩٢ .

فقال ﷺ : لا هجرة بعد الفتح .

وتجرد الرجال من الأزر ، ثم أخذوا الدلاء فغسلوا ظهر الكعبة وبطنها حتى انبعج الوادى من الماء ، وأزالوا ما كان فيها من عمل الجاهلية فلم يدعوا فيه صورة ولا أثراً من آثار المشركين إلا محوه .

وجاء عثمان بن طلحة بالمفتاح إلى رسول الله ﷺ لما بلغ رأس الثنية ، فبعث ﷺ عمر بن الخطاب من البطحاء ، ومعه عثمان بن طلحة ليفتح البيت ، وأمره أن لا يدع صورة إلا محاه ، ولا تمثالاً إلا هدمه ، ففعل عمر ذلك ، وترك صورة إبراهيم الخليل حتى محاه رسول الله ﷺ .

ودخل ﷺ الكعبة ، ومعه أسامة بن زيد ، وبلال ، وعثمان بن طلحة ، فمكث فيها مدة وصلى ركعتين ثم خرج والمفتاح فى يده ، ووقف على الباب خالد بن الوليد يذب الناس عنه حتى خرج رسول الله ﷺ فوقف على باب البيت وأخذ بعضاديته ، وأشرف على الناس وفى يده المفتاح ، ثم جعله فى كفه ، وقد جلس الناس ، ثم قال ﷺ :

الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، يا معشر قريش ، ماذا تقولون ؟ ... وماذا تظنون ؟ ...

قالوا : نقول خيراً ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت .
فقال ﷺ : فإنى أقول كما قال أخى يوسف : ﴿ لَا تَتَّيِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

ألا إن كل ربا فى الجاهلية ، أو دم ، أو مال ، أو مآثرة فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وفى قتيل العصا والسوط الخطأ شبه العمد الدية مغلظة مائة ناقة ، منها أربعون فى بطونها أولادها .

إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكثرها بآبائها ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام بحرام الله ، لم تحل لأحد كان قبلى ، ولا تحل لأحد كائن بعدى ، ولم تحل

لى إلا ساعة من النهار ، ألا لا ينفر صيدها ، ولا يعضد عضائها ، ولا تحل
لقطتها إلا لمنشد ولا يختلى خلاها .

فقال العباس ؓ : إلا الإذخر يا رسول الله ، فإنه لابد منه للقبور ، وظهور
البيوت ، فسكت ساعة .

ثم قال ؓ : إلا الإذخر فإنه حلال^(١) .

ولا وصية لوارث ، وأن الولد للفرش وللعاهر الحجر ، ولا يحل لامرأة تعطى
من مالها إلا بإذن زوجها . . والمسلم أخو المسلم . . والمسلمون إخوة ،
والمسلمون يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دمائهم ، يرد عليهم أقصاهم ويعقد
عليهم أداناهم ومشدهم على مضغفهم ، ومسيرتهم على قاعدهم ، ولا يقتل
مسلم بكافر ، ولا ذو عهد فى عهده ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا جلب
ولا جنب ، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وبأفنيتهم ، ولا تنكح المرأة
على عمتها وخالتها ، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، ولا تسافر
امرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذى محرم ، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح ،
وأنهاكم عن صيام يومين : يوم الأضحى ويوم الفطر ، وعن لبستين ، لا يحتب
أحدكم فى ثوب واحد يفضى بعورته إلى السماء ، ولا يشتمل الصماء ، ولا إخالكم
إلا وقد عرفتموها^(٢) .

ثم نزل ؓ ومعه المفتاح ، فتتحنى ناحية من المسجد فجلس فقال : ادعوا إلى
عثمان بن طلحة ، فأقبل عثمان .

فقال ؓ : خذوها يا بنى أبى طلحة تالدة خالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم ،
يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا بالمعروف^(٣) .

وقال لخالد بن الوليد ؓ : لم قاتلت وقد نهيت عن القتال ؟

فقال خالد : هم يا رسول الله بدأونا بالقتال ، ورشقونا بالنبل ، ووضعوا فىنا
السلاح وقد كفت ما استطعت ، ودعوتهم إلى الإسلام وأن يدخلوا فيما دخل فيه

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى ج ٧ ص ٢١ .

(٢) المغازى ج ٢ ص ٨٣٥ - ٨٣٧ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٨٣٨ .

الناس فأبوا ، حتى إذا لم أجد بداً قاتلتهم ، فظفرنا الله عليهم وهربوا في كل وجه يارسول الله .

فقال ﷺ : فكف عن الطلب .

قال : قد فعلت يا رسول الله .

قال ﷺ : قضاء الله خير .

ثم قال ﷺ : يا معشر المسلمين ، كفوا السلاح ، إلا بني خزاعة عن بني بكر فلهم إلى صلاة العصر فضربوهم ساعة ، وهى الساعة التى أحلت لرسول الله ﷺ ولم تحل لأحد قبله .

وقام ﷺ خطيباً فى اليوم الثانى بعد قتل جندب بن الأذلع فقال : أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، ويوم خلق الشمس والقمر ووضع هذين الجبلين ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، لا يحل لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، ولا يعضد فيها شجراً ، لم تحل لأحد كان قبلى ، ولا تحل لأحد يكون بعدى ولم تحل لى إلا ساعة من نهار ، ثم رجعت حرمتها بالأمس ، فليبلغ شاهدكم غائبكم ، فإن قال قائل : قد قاتل فيها رسول الله ، فقولوا : إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد والله كثر إن نفع ، وقد قتلتم هذا القتيل ، والله لأدينه ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بالخيار : إن شاءوا قدم قتلهم ، وإن شاءوا فعقله^(١) .

وجاء الظهر ، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن فوق ظهر الكعبة ، وكانت قریش فوق رؤوس الجبال ، وقد فر وجوههم وتغيبوا خوفاً من أن يقتلوا ، فلما أذن بلال ورفع صوته كأشد ما يكون أمنوا ونزلوا .

وأتى يعلى بن منية بأبيه فقال : يا رسول الله ، بايع أبى على الهجرة .

فقال ﷺ : لا بل أبايعه على الجهاد ، فقد انقضت الهجرة .

وكان سهيل بن عمرو أغلق عليه بابه ، وبعث إلى ابنه عبد الله بن سهيل أن يأخذ له أماناً ، فأمنه رسول الله ﷺ وقال : من لقى سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سهيل جهل الإسلام ،

(١) المغازى ج ٢ ص ٨٤٤ .

ولقد رأى ما كان يوضع فيه إنه لم يكن له بنافع ، فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره فقال- سهيل :- كان- والله- برأ- صغيراً- وكبيراً- ، فخرج- وشهد- حنيناً- ،- وأسلم بالجعرانة .

وهرب هبيرة بن أبي وهب زوج أم هانئ بنت أبي طالب ومعه عبد الله بن الزبير بن سهم القرشي السهمي إلى نجران ، فبعث حسان بن ثابت بشعر إلى ابن الزبير فجاء ، ولما نظر رسول الله ﷺ إليه قال : هذا ابن الزبير ومعه وجه فيه نور الإسلام فأسلم ابن الزبير ، وأما ابن هبيرة فقد مات بنجران مشركاً .

وهرب حويطب بن عبد العزى بن لؤى القرشي العامري ، فأمنه أبو ذر ؓ ومشى معه ، وجمع بينه وبين عياله .

وأسلمت هند بنت عتبة ، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام : امرأة عكرمة ابن أبي جهل ، والبعوم بنت المعذل : امرأة صفوان بن أمية ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وهند بنت منبه بن الحجاج : أم عبد الله بن عمرو بن العاص ، في عشرة نسوة من قريش .

فأتين رسول الله ﷺ بالأبطح ، وعنده زوجته وفاطمة ابنته ، في نساء من نساء بني عبد المطلب ، فبايعنه .

وكانتبيعة النساء عقيببيعة الرجال عند الصفا ، ورؤيت فيهن هند وهي متنكرة لأجل صنيعها بحمزة ، وكان زوجها أبو سفيان حاضراً ، فعرفها رسول الله ﷺ وقال : إنك لهند .

فقالت : أنا هند ، فاعف عما سلف .

فبايعهن عمر ؓ واستغفر لهن رسول الله ﷺ وطلبت أم حكيم أماناً لعكرمة وقد هرب إلى اليمن ، فأمنه ، فخرجت إليه حتى قدم ، فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ : يأتكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً ، فلا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحي ولا يبلغ إليه ، فلما رآه ﷺ وثب إليه فرحاً فوقف ، ومعه امرأته منتقبة .

فقال : يا محمد إن هذه أخبرتنني أنك أمنتني .

فقال ﷺ : صدقت ، فأنت آمن ، فأسلم .

وهرب صفوان بن أمية بن جمح القرشي الجمحي ، فأخذ له عمير بن وهب بن حذافة أماناً ، وخرج في إثره حتى رجع ، وشهد هوازن كافراً ، وأسلم بالجعرانة .
وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ممن أهدر رسول الله ﷺ دمه يوم الفتح فأتى به عثمان بن عفان ؓ ، وسأله أن يهبه له ، فوهب له جرمه وأسلم .
وأهدر ﷺ دم الحويرث بن نقيذ بن بجير بن عبد بن قصي ، فضرب على بن أبي طالب ؓ عنقه وكان مؤذياً لله ورسوله ﷺ .

وأهدر دم هبار بن الأسود بن عبد العزى بن قصي الأسدي القرشي ، إلا أنه أسلم وحسن إسلامه .

وأخرج أبو برزة الأسلمي عبد الله بن خطل ، وهو متعلق بأستار الكعبة وجاء به إلى رسول الله ﷺ .

فقال له رسول الله ﷺ : اقتله فأخرج أبو برزة عبد الله بن خطل وقتله بين الركن والمقام .

وعن السائب بن يزيد قال : رأيت رسول الله ﷺ أخرج عبد الله بن خطل من بين أستار الكعبة فقتله صبراً .

ثم قال : لا يقتل أحد من قريش بعد هذا صبراً .

وقتل مقيس بن صبابه نميلاً بن عبد الله المليثي رآه المسلمون بين المصفا والمروة فقتلوه بأسياهم .

ولما قتل النفر الذين أمر رسول الله ﷺ بقتلهم ، سمع النوح عليهم .

وجاء أبو سفيان بن حرب فقال : فذاك أبي وأمي ، البقية في قومك .

فقال ﷺ : لا تقتل قريش صبراً بعد اليوم ، يعني على الكفر .

وأمر ﷺ بقتل وحشى ، ففر إلى الطائف حتى قدم في وفد فأسلم .

فقال له ﷺ : غيب عنى وجهك ، فكان إذا رأى النبي ﷺ توارى عنه .

واستسلف ﷺ من عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم فأعطاه ، فردها

من غنائم هوازن .

وقال : إنما جزاء السلف الحمد والأداء .

وقال : بارك الله لك في مالك وولدك .

واستقرض من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فأقرضه ، واستقرض من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم ، فكانت ثلاثين ومائة ألف قسمها بين أهل الضعف ، فأصاب الرجل خمسين درهماً وأقل وأكثر ، وبعث من ذلك إلى بنى جذيمة .

وأهدى له يومئذ راوية خمر .
فقال ﷺ : إن الله حرمها ، فسار الرجل الممهدي غلامه : اذهب بها إلى الحزورة ، فبيعها .

فقال ﷺ : بم أمرته ؟

قال : ببيعها .

قال ﷺ : إن الذي حرم شربها حرم بيعها ، ففرغت بالبطحاء .
ونهى يومئذ عن ثمن الخمر ، وثنم الخنزير ، وثنم الميتة ، وثنم الأصنام ، وحلوان الكاهن .

وقيل له يومئذ : ما ترى في شحوم الميتة يدهن بها السقاء ؟
قال ﷺ : قاتل الله يهود ، حرم عليهم الشحوم فباعوها ، فأكلوا ثمنها .
وقال يومئذ ، وهو بالحزورة ، والله إنك لخير أرض الله إلى ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت .

وهبط ثمانون من أهل مكة على رسول الله ﷺ ، من جبل التنعيم عند صلاة الفجر فأخذهم سلماً فعفا عنهم ، ونزل فيهم : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ ﴾^(١) .

وأتى بشارب فضريوه بما في أيديهم ، فضرب بالسوط ، وبالنعل ، وبالعصا ، وحثا عليه النبي ﷺ التراب .

وجاء جبر غلام بنى عبد الدار ، وكان قد أسلم وكنم إسلامه ، فأعطاه النبي ﷺ ثمنه ليسده وأعتقه .

(١) سورة الفتح ، الآية ٢٤ .

وقال رجل يومئذ : إني نذرت أن أصلى فى بيت المقدس إن فتح الله عليك مكة .

فقال ﷺ : والذى نفسى بيده ، لصلاة ها هنا أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، من البلدان .

وقال ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها : يا رسول الله ، إني جعلت على نفسى ، إن فتح الله عليك مكة ، أن أصلى فى بيت المقدس .
فقال ﷺ : لا تقدرين على ذلك ، ولكن ابغى بزيت يستصبح لك فيه ، فكأنك أتيتيه .

وكانت ميمونة تبعث إلى بيت المقدس كل سنة بمال ليشتري به زيت يستصبح به حتى ماتت فأوصت بذلك .

وأهدت هند بنت عتبة بعد إسلامها هدية لرسول الله ﷺ وهو بالأبطح ، مع مولاة لها فانتهت الجارية إلى خيمته ﷺ ، فسلمت ولستأذنت فأذن لها فدخلت ورسول الله ﷺ بين أم سلمة وميمونة ونساء بنى عبد المطلب .
فقالت : إن مولاتى أرسلت إليك بهذه الهدية ، وهى معذرة إليك ، وتقول : إن غنمها اليوم قليلة الوالدة .

فقال ﷺ : بارك الله لكم فى غنمكم ، وأكثر والدتها ، فسرت هند لما أخبرتها مولاتها بذلك ، ورأوا من كثرة غنمهم ووالدتها ما لم يكن قبل ولا قريباً منه .
وكانت هند تقول : هذا بدعاء رسول الله ﷺ وبركته .

وأنته إحدى نساء بنى بكر ، إما خالة أو عمة ، بهدية طعام وهو بالأبطح فعرفها ودعاها إلى الإسلام فأسلمت ، وسألها عن حليلة السعدية فأخبرته بوفاتها رضى الله عنها فذفرت عيناه ﷺ .

وقالت له : أخواك وأختاك محتاجون فأمر لهم ﷺ بكسوة وجمل ومائتى درهم .
فقالت : نعم والله المكفول كنت صغيراً ، ونعم المرء كنت كبيراً ، عظيم البركة .
وأخذ أهل مكة ومن يقدم عليهم يأتى إليه ﷺ يبأيعه ، ويسأله حاجته ، ويتعلم ما يحتاج إليه فى أمور دينه الذى آمن به .

وكان ﷺ يذكر أهل مكة بما من الله عليهم بالإسلام ، ويعرفهم بضلال ما كانوا فيه ليزدادوا إيماناً ، وتشتد براءتهم مما كانوا فيه قبل الهدى والرشاد .
من ذلك قوله لعثمان بن طلحة حين أتى به ليعطيه مفتاح الكعبة : ألم أقل لك يا عثمان لعنك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت ؟؟
فقال : بلى أشهد أنك رسول الله .

وعاش رسول الله ﷺ في مكة بعد فتحها مدة تقع بين اثني عشر وعشرين يوماً على اختلاف الروايات ... انطلق خلالها لتطهير مكة وحواليها من كافة صور الأصنام والأوثان على كثرتها وتنوعها ... كما قام انطلاقاً من مكة بغزوتي حنين والطائف .. وبذلك أسلمت الجزيرة كلها^(١) .

- ثانياً -

تطهير مكة وما حوالها من الأصنام

بعد أن أتم الله نصره ، وفتحت مكة أخذ رسول الله ﷺ في إزالة الأصنام والأوثان وكافة ألوان الشرك والضلال من صور ، وبيوت ، وهياكل .
فبدأ أول دخوله مكة بتكسير الأصنام الموجودة حول البيت وعددها ثلاثمائة وستون صنماً .

ثم نادى منادى رسول الله ﷺ : من كان يؤمن بالله وبرسوله فلا يدعن في بيته صنماً إلا كسره ، أو حرقه ، وثمنه حرام .

فجعل المسلمون يكسرون الأصنام ، ولم يكن في مكة رجل أو امرأة من قريش إلا إلا واتخذ في بيته صنماً يتمسح به حين الدخول ، وحين الخروج .
ونشط عكرمة بن أبي جهل في معاداته للأصنام بعد إسلامه ، فكان لا يسمع عن صنم في بيت إلا مشى إليه وكسره .

وجعلت هند بنت عتبة تضرب صنماً في بيتها بالقدوم ، وتكسره جزءاً جزءاً وهي تقول : كنا منك في غرور .

وأرسل ﷺ سراياه إلى القبائل المشركة لدعوتهم إلى الإسلام ، وتكسير الأصنام التي ألوهها .

(١) راجع في أحداث الفتح سيرة ابن هشام ، والطبقات ، والمغازي ، وزاد المعاد ، وإمتاع الأسماع والبداية والنهاية ... الخ .

ومن هذه السرايا :

- ١ . بعث ﷺ خالد بن الوليد إلى "العزى" بـ "نخلة" فى ثلاثين صحابياً فهدمه لخمس بقين من رمضان والعزى أكبر أصنام العرب .
 - ٢ . وبعث الطفيل بن عمرو الدوسى إلى "ذى الكفين" صنم عمرو بن حممة الدوسى فحرقه بالنار .
 - ٣ . وبعث سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارساً إلى "مناة" بالمشلل فهدمه .
 - ٤ . وبعث عمرو بن العاص إلى "سواع" صنم هذيل فكسره وأزاله ، وأسلم سادنه .
 - ٥ . وبعث هشام بن العاص فى مائتين إلى يلملم .
 - ٦ . وبعث خالد بن سعيد إلى جهة عرنة وعرفة .
- وبهذه السرايا تم بسط سلطان الإسلام على مكة وضواحيها ولم يعد فيها صوت لغير الله تعالى وأزيلت الأصنام من الجزيرة كلها .
- ٧ . وبعث خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة بن عامر من بنى كنانة يدعوهم إلى الإسلام فخرج فى أول شوال من السنة الثامنة فى ثلاثمائة وخمسين صحابياً ، وانتهى إليهم ، فقالوا : نحن مسلمون ، فلم يصدقهم خالد ، فودعهم أسرى عند الصحابة وأمر بقتلهم ، فقتل بنو سليم من كانوا فى أيديهم ، ورفض المهاجرون والأنصار القتل ... فلما رجع خالد وعلم رسول الله ﷺ تبرأ مما فعل خالد ، وأرسل علياً عليه السلام إلى بنى جذيمة يودى لهم ما أصاب خالد .
 - ٨ . وبعث ﷺ جرير بن عبد الله البجلي إلى ذى الخلصة وهو بيت لختعم وبجيله فيه نصب تعبد يسمونها الكعبة اليمانية ، يقول ابن جرير : فنفرت فى مائة وخمسين راكباً من أحمرس وكانوا أصحاب خيل ، فأتينا فكسرناهم وحرقناهم وقتلنا من وجدنا عنده .
 - ٩ . بعث ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبه لهدم الطاغية .
- وقصة ذلك إن عبد ياليل بن عمرو ، وعمرو بن أمية أحد بنى علاج الثقفيان لما قدما على رسول الله ﷺ مع وفد ثقيف وأسلموا قالوا : رأيت الربة ماذا نصنع فيها ؟
- قال ﷺ : اهدموها .
- قالوا : هيهات لو تعلم الربة أنا أوضعنا فى هدمها قتلت أهلنا .

قال عمر بن الخطاب : ويحك يا عبد يا ليل ما أجهلك ... إنما الربة حجر لا تدري من عبده ممن لم يعبده .

قال عبد الله ياليل : إنا لم نأتك يا عمر .

وقالوا : يارسول الله اتركها ثلاث سنين لا تهدمها ، فأبى .

فقالوا : سنتين ، فأبى .

فقالوا : سنة ، فأبى .

فقالوا شهراً واحداً ، فأبى أن يوقت لهم وقتاً .

وإنما كانوا يريدون ترك الربة خوفاً من سفهائهم ، كما كرهوا أن يروعوا قومهم بهدمها ، وأملوا في إقناعهم بالإسلام ، وبعدها تزول كل صور الشرك والهوى ولذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يعفيهم من هدمها وقالوا : يا رسول الله اترك أنت هدمها فإننا لا نهدمها أبداً ... حتى لا يقال فينا ما لا يجوز، وقد فهم رسول الله ﷺ رأيهم .

فقال بعد هذا : أنا أبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها .

فرجع الوفد ، وأخبروا قومهم بما سمعوا من رسول الله ﷺ .

فقال شيخ من ثقيف : فذاك والله مصداق ما بيننا وبينه فإن قدر على

هدمها فهو محق ونحن مبطلون ، وإن امتنعت ففي النفس من بعد هذا شيء .

وخرج أبو سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة وأصحابهما لهدم الربة فلما

دنوا من الطائف قال المغيرة لأبى سفيان : تقدم أنت على قومك .

ولقام أبو سفيان بماله بذى الهرم .، ودخل المغيرة في بضعة عشر رجلاً

يهدمون الربة فلما نزلوها عشاء باتوا ثم غدوا على الربة يهدمونها .

فقال المغيرة لأصحابه الذين قدموا معه : لأضحكنكم اليوم من ثقيف .

فقام المغيرة بن شعبة واستوى على رأس الربة ومعه المعول ، وضرب

الكرزين ثم سقط مغشياً عليه ، يركض برجليه ، فارتج أهل الطائف بصيحة

واحدة وقالوا : أسعد الله المغيرة قد قتلته الربة ، زعمتم أن الربة لا تمتنع بل والله

لتمنن ، وفرحوا حين رأوه ساقطاً ، وقالوا : من شاء منكم فليقترب ، وليجتهد على هدمها فوالله لا يستطيع أبداً .

فوثب المغيرة بن شعبة وقال: : فبحكم الله يا معشر ثقيف إنما هي لكاع حجارة ومدر ، فاقبلوا عافية الله تعالى ولا تعبدوها ثم إنه ضرب الباب فكسره ، ثم سورها وعلا الرجال معه فما زالوا يهدموننا حجراً حجراً حتى سووها بالأرض . وهكذا كان فتح مكة سبباً مباشراً للقضاء على أصنام العرب وأوثانها ليعلو الحق ويدوم^(١) .

- ثالثاً -

غزوة "حنين"

فوجئ العرب بالانهيار السريع لمشركي مكة ، واستسلامهم لرسول الله ﷺ فبدأوا في تقدير الإسلام والدخول فيه ، غير أن فريقاً من القبائل تعالت على الإسلام ، وبقيت في شركها ، وأخذت تتجمع لمهاجمة المسلمين في مكة وعلى رأس هؤلاء قبائل هوازن ، وثقيف ، ونصر وجشم وبنو هلال^(٢) .

فلما بلغ رسول الله ﷺ أنهم تحشدوا .، وتجمعوا. تحت قيادة مالك بن عوف وأخذوا في التحرك نحو مكة حتى نزلوا بـ "أوطاس" وهو واد سهل واسع بين مكة والمدينة مجاور لوادي حنين .

خرج رسول الله ﷺ على رأس جيش من المسلمين بلغ عدده اثنا عشر رجلاً في يوم السبت السادس من شهر شوال ، بعد أن ولى أمر مكة للصحابي عتاب بن أسيد بن أبي المعيص .، وأبقى معه معاذ. بن جبل ليعلم الناس. المسنن واللفقه ، ويدارسهم القرآن الكريم وما شرع من أحكام الإسلام .. والحديث عن غزوة حنين يحتاج إلى بيان النقاط التالية :

(١) انظر في سرايا تحطيم الأصنام سيرة ابن هشام والمغازي .

(٢) لم يحضر مع هوازن بطنان منهم هما كعب وكلاب .

- ١ -

استعداد المشركين للحرب

خرجت القبائل من ديارها ، وتجمعت في وادي "أوطاس" واصطحبوا معهم أموالهم ، ونساءهم ، وأطفالهم لدفع الرجال للقتال دفاعاً عن كل ما لهم .
سأل دريد بن الصمة قائدهم مالك بن عوف : مالي أسمع بكاء الصغير ، ورغاء البعير ، ونهاق الحمير ، ويعار الشاه ؟
قال مالك : يا أبا قره إني سقت مع الناس أموالهم وذرائعهم ، وأردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله يقاتل عنه .
فقال دريد : رويعي ضأن !! وهل يرد المنهزم شيء ؟؟
وصل جيش المسلمين إلى وادي "حنين" وعسكر فيه ، فأخذ مالك بن عوف يبعث رسله ليعرف خبر رسول الله وجنوده بعد استقرارهم بـ "حنين". فبعث ثلاثة رجال وكلهم رجعوا إليه ، وهم في حالة خوف ورعب ، وقالوا: رأينا رجالاً بيضا على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى وقد اتفق الثلاثة على هذا .
وقالوا له : ما تقاتل أهل الأرض إنما تقاتل أهل السماء ، وإذا أطعنا رجعت بالناس ... فسبهم وحبسهم ، وعبا جنوده ، ونظمهم في وادي حنين^(١) .

- ٢ -

استعداد المسلمين للقتال

خرج رسول الله ﷺ في اثني عشر ألفاً من أصحابه ، عشرة منهم من المهاجرين والأنصار ، وألفين من مسلمي مكة ، وسار بهم حتى نزل في "وادي حنين". وعبا قوائمه من السحر ووضع الألوية والمرايات. في أهلها . فحمل رايات المهاجرين : علي ، وسعد ابن أبي وقاص ، وعمر بن الخطاب ؓ .
وحمل رايات الأنصار الحباب بن المنذر ، وقيل كان لواء الخرج الأكبر مع سعد بن عباد ، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير ، وفي كل بطن لواء أو راية .

(١) بلوغ الأمان ج ٢ ص ١٦٨ .

وكانت رايات المهاجرين سواداً وألويتهم بيضاً ، ورايات الأنصار خضراً وحمراً ، وكانت فى قبائل العرب رايات ، وبقيت سليم كما هى فى مقدمة الخيل وعليهم خالد ابن الوليد .

ولما تجمع المسلمون بهذا العدد أعجبته كثرتهم ، وانتظروا النصر وقالوا بلسان الحال ، والمقال : لن نغلب اليوم عن قلة .

وانحدر رسول الله ﷺ بأصحابه فى وادى حنين ، وهو على تعبئته ، وقد ركب بغلته البيضاء "دلدل" ولبس درعين والمغفر والبيضة ، وحض على القتال ، وبشر بالفتح إن صدقوا وصبروا .

وقد أرسل رسول الله عبد الله بن أبى حردد لياتى بخبر القوم ، فطاف بهم وسمع كلامهم ، وعاد إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما رأى وسمع وبمدى استعداد القوم للقاء ، وبعلمهم بجيش المسلمين كما نقلته العيون إلى مالك بن عوف^(١) .

- ٢ -

القتال

بدأت الحرب بهجوم شديد من "هوازن" قبيل مطلع الشمس على المسلمين وقد كانوا فى كثرة عجيبة أدهشت المسلمين ، وحيرتهم لأنهم لم يتوقعوها .

حملت هوازن على المسلمين حملة واحدة ، فانكشفت خيل بنى سليم ، وولت الأدبار ، وتبعهم أهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شئ فالتفت رسول الله ﷺ يميناً وشمالاً ، والناس منهزمون حتى بلغوا مكة ، فلم يرجع آخرهم إلا والأسارى بين يدي النبى ﷺ وهو يقول : يا أنصار الله ... يا أنصار رسول الله ... ؟ أنا عبد الله ورسوله !! ثم تقدم بحريته أمام الناس ، وانهزم المشركون ، وما ضرب أحد من المسلمين بسيف ولا طعن برمح ، ورجع ﷺ إلى العسكر ، وأمر أن يقتل كل من قدر عليه من المشركين . وقد ولت هوازن . وثاب من انهزم من المسلمين .

(١) المغازى ج ٣ ص ٨٩٥-٩٠٠ .

ولم يكن معه ﷺ وقت هزيمة هوازن إلا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وقد أخذ بثغر البغلة ، والعباس أخذ بحكمتها ، وهو يركضها إلى وجه العدو ، وينوه باسمه فيقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب^(١)

وقال ﷺ : يا عباس ! اصرخ : يا معشر الأنصار ! يا أصحاب السمرة !... فنادى بذلك ، وكان رجلاً صيتاً ، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت إلى أولادها يقولون : يا لبيك !! يا لبيك ، فأشرف ﷺ كالمتطاول في ركابه ، فنظر إلى قتالهم وقال : الآن حمى الوطيس ، ثم أخذ بيدهم من الحصار فرماهم بها وهو يقول :.. شأهت الوجوه ، حم ، ثم لا ينصرون ، ثم قال : انهزموا ورب الكعبة فما زال أمرهم مدبراً ، وانهمزموا ، فانحاز ﷺ ذات اليمين ، وهو على بغلته قد جرد سيفه ، وثبت معه سوى من ذكرنا : على ، والفضل بن عباس ، وربيعه بن الحارث بن عبد المطلب ، وأيمن بن عبيد الخزرجي ، وأسامة بن زيد وأبو بكر ، وعمر^(٢) .

ولما انكشف الناس قال رسول الله ﷺ لحارثة بن النعمان الأنصاري : كم ترى الناس الذين ثبتوا ؟

فحزبهم مائة ،. وهزم المائة هي التي كرت. بعد الفرار . فاستقبلوا. هوازن واجتلدوا والرسول يدعو : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان . ويقال إن المائة الصابرة يومئذ : ثلاثة وثلاثون من المهاجرين ، وسبعة وستون من الأنصار ، وكان على ، وأبو دجانة ، وعثمان بن عفان ، وأيمن بن عبيد ﷺ يقاتلون بين يدي النبي ﷺ .

وكانت أم عمارة في يدها سيف صارم . وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها وهي يومئذ حامل بعبد الله بن أبي طلحة ، وأم سليط ، وأم الحارث ، حين انهزم الناس ، يقاتلن ، وأم عمارة تصيح بالأنصار : أية عادة هذه !! ما لكم وللفرار !! وشدت على رجل من هوازن فقتلته وأخذت سيفه^(٣).

(١) بلوغ الأمانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني ج ٢١ ص ١٧٤ .

(٢) سيرة النبي ج ٢ ص ٤٤٣ .

(٣) بلوغ الأمانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني ج ٢١ ص ١٧٥ .

ورسول الله ﷺ قائم مصلت السيف بيده ، وقد طرح غمده ينادى : يا أصحاب سورة البقرة ، فكر المسلمون ، وجعلوا يقولون : يا بنى عبد الرحمن ، يا بنى عبد الله ، يا بنى عبيد الله ، يا خيل الله ، وكان ﷺ قد سمى خيله خيل الله ، وكان شعار المهاجرين بنى عبد الرحمن ، وشعار الأوس بنى عبيد الله ، وشعار الخزرج بنى عبد الله . فكرت الأنصار ووقفت هوازن حملة ناقة ، ثم كانت هزيمتهم أقبح هزيمة ، والمسلمون يقتلون ويأسرون

وأم سليم بنت ملحان تقول : يا رسول الله ﷺ ما رأيت هؤلاء الذين أسلموا وفروا عنك وخذلك !! لا تعف عنهم إذا أمكنك الله منهم ، تقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين ! فقال : يا أم سليم ! قد كفى الله ، عافية الله أوسع^(١) .

وحقق المسلمون على المشركين فقتلوه حتى شرعوا فى قتل الذرية ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية ! ألا لا تقتل الذرية فقال أسيد بن الحضير : يا رسول الله ، أليس إنما هم أولاد المشركين ! فقال : أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟! كل نسمة تولد

على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها وأبواها يهودانها أو ينصرانها^(٢) !

وكان سيما الملائكة يوم حنين عائم حمر قد أرخواها بين أكتافهم ، وكان الرعب الذى قذف الله فى قلوب المشركين يومئذ كوقع الحصاة فى الطست : له طنين ، فيجدون فى أجوافهم مثل ذلك ، ولما رمى رسول الله ﷺ بذلك الكف من الحصى ، لم يبق أحد من المشركين إلا وهو يشكو القذى فى عينه ، ورأوا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، عليهم عائم حمر قد أرخواها بين أكتافهم وهم بين السماء والأرض : كتائب ، كتائب ، فما كانوا يستطيعون أن يتأملوهم من الرعب منهم^(٣) . واستحر القتل فى بنى مالك من ثقيف ، فقتل منهم قريب من مائة رجل تحت رايتهم ، وقتل ذو الخمار ، وهربت ثقيف .

واستشهد من المسلمين أربعة رجال جميعهم من الأنصار^(٤) .

(١) المغازى ج ٣ ص ٩٠٣ ، ٩٠٤ .

(٢) المغازى ج ٣ ص ٩٠٥ .

(٣) المغازى ج ٣ ص ٦٠٩ .

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٣٧ .

■ ٤ ■

تعقب الفارين

لما انهزمت هوازن فرت إلى الطائف وإلى أوطاس ، وإلى نخلة ، فسير رسول الله أصحابه لتعقب الفارين ، وقتالهم .

فذهب الربيع بن ربيعة في عدد من المسلمين على خيلهم إلى نخلة فأدركوا دريد بن الصمة ، وقتلوه .

وذهب أبو عامر الأشعري إلى أوطاس ومعه عدد من المسلمين ، وقد جرى بين الفريقين قتال فقتل من المشركين تسعة ، وأصيب بعض المسلمين واستشهد أبو عامر ، فخلفه أخوه أبو موسى وقد فتح الله على يديه .

ولحق مالك بن عوف وأكثر من كان معه إلى الطائف ، ولذلك ذهب إليهم رسول الله ﷺ فكانت غزوة الطائف^(١) .

■ ٥ ■

غزوة "الطائف"

وهذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين ، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع قائدهم ، مالك بن عوف النضري ، وتحصنوا بها ، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين .

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة في ألف رجل ، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف ، فمر في طريقه على النخلة اليمانية ، ثم على قرن المنازل ، ثم على لية ، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه ، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه ، وعسكر هناك ، وفرض الحصار على أهل الحصن .

ودام الحصار مدة غير قليلة ، ففي رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً ، وعند أهل السير خلاف في ذلك ، فقليل : عشرين يوماً ، وقيل : بضعة عشر ، وقيل ثمانية عشر ، وقيل : خمسة عشر^(١) .

(١) البداية والنهاية ج ٥ ص ٣٣٨ .

ووقعت في هذه المدة عدة مناوشات ، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رمياً شديداً كأنه رجل جراد ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً ، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مكان مسجد الطائف اليوم ، فعسكروا هناك .

ونصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ، وقذفهم به حتى فتحت طاقة في جدار الحصن . فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة إلى المجدار. ليحرقوه ، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار ، فأحرقت الدبابة وخرج المسلمون من تحتها فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالاً .

وأمر رسول الله ﷺ كجزء من سياسة الحرب. للإجاء العدو. إلى الاستسلام بقطع الأعتاب وتحريقها ، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً ، فسألته تقيف أن يدعها لله والرحم .

ونادى مناديه ﷺ أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج إليهم بضعة عشر رجلاً فيهم أبو بكر ، تسور حصن الطائف وتدلّ منه ببكرة مستديرة يستقى عليها ، فكانه رسول الله ﷺ "أبا بكر" فأعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة .

ولما طال الحصار ، واستعصى الحصن وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق المنبال. وللحديد المحمى . وكان أهل الحصن . قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلمي فقال : هم ثعلب في جحر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك ، وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل ، فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فنقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟

فقال رسول الله ﷺ : اغدوا على القتال ، فغدا فأصابهم جراح . فقال ﷺ : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ يضحك .

(١) انظر البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥١ ، المغازي ج ٣ ص ٩٣٦ .

ولما ارتحلوا واستقلوا قال ﷺ : قولوا : آييون تائبون عابدون ، لربنا حامدون .
وقيل : يا رسول الله ﷺ ادع على ثقيف ، فقال : اللهم اهد ثقيفاً وآت بهم .
وقد استشهد من المسلمين في حصار الطائف اثنا عشر رجلاً^(١) .

- ٦ -

توزيع الغنائم

انتهى ﷺ إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس خلون من ذي القعدة والغنائم بها ستة آلاف ، والإبل أربعة وعشرون ألف بغير ، فيها اثنا عشر ألف ناقة ، والغنم أربعون ألفاً وقيل أكثر ، فأمر ﷺ بسر بن سفيان الخزاعي أن يقدم مكة فيشتري للسبي ثياباً من برود هجر ، فكساهم كلهم ، واستأنى ﷺ بالسبي ولم يوزع منهم ، وأقام يتريص أن يقدم وفدهم ، وكان قد فرق منه وهو بحنين ، فأعطى عبد الرحمن بن عوف امرأة ، وأعطى صفوان بن أمية ، وعلياً ، وعثمان ، وعمر ، وجبير بن مطعم ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبا عبيدة بن الجراح ، والزبير بن العوام ﷺ فلما رجع إلى الجعرانة بدأ بالأموال فقسمها ، فأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس ، فجاء أبو سفيان بن حرب والفضة بين يديه ، فقال : يا رسول الله أصبحت أكثر قريش مالاً ، فتبسم ﷺ .

فقال أبو سفيان : أعطني من هذا يا رسول الله .
قال ﷺ : يا بلال ! زن لأبي سفيان أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل .
قال : إبنى يزيد إعطه !!
قال ﷺ : زنوا ليزيد أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل .
قال : إبنى معاوية يا رسول الله !
قال ﷺ : زن له يا بلال أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل .
قال أبو سفيان : إنك لكريم فداك أبي وأمي ، والله لقد حاربتك فنعمة المحارب كنت ! ثم سالمك فنعمة المسالم أنت جزاك الله خيراً^(٢) .

(١) انظر المغازي ج ٣ ص ٩٢٢ - ٩٣٨ بتصرف .

(٢) المغازي ج ٣ ص ٩٤٤ - ٩٤٥ .

وسأل. حكيم بن حزام. يومئذ مائة من الإبل فأعطاه . ثم سأل. مائة أخرى فأعطاه ثم سأل مائة ثالثة فأعطاه ، ثم قال : " يا حكيم بن حزام ، إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من السفلى ، وابدأ بمن تعول " ... فأخذ حكيم المائة الأولى ثم ترك ما عداها وقال : يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعداً ... فكان عمر بن الخطاب ؓ يدعو له لعطاء فيرفضه^(١) .

وأعطى النضير بن الحارث علقمة بن كلفة أخا النضر بن الحارث مائة من الإبل ، وأعطى أسيد بن جارية ، حليف بنى زهرة مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن جارية خمسين بغيراً ، وأعطى الحارث بن هشام مائة من الإبل ، وسعيد بن يربوع خمسين بغيراً

وفى صحيح مسلم عن الزهري : أن الرسول ﷺ أعطى يومئذ صفوان بن أمية ثلاثمائة من الإبل ، ويقال إنه طاف مع النبي ﷺ وهو يتصفح الغنائم ، إذ مر بشعب مما أفاء الله عليه ، فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء ، فأعجب صفوان وجعل ينظر إليه ، فقال ﷺ :

أعجبك يا أبا وهب هذا الشعب ؟

قال ﷺ : نعم .

قال : هو لك وما هو فيه !

فقال. صفوان. : أشهد ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبى ، وأشهد أنك رسول الله^(٢) . وأعطى قيس بن عدى مائة من الإبل ، وأعطى عثمان بن وهب خمسين بغيراً ، وأعطى سهيل بن عمرو مائة من الإبل ، وأعطى حويطب بن عبد العزى مائة من الإبل وأعطى هشام بن عمرو خمسين بغيراً ، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة من الإبل وأعطى عيينة بن حصن الفزاري مائة من الإبل ، وأعطى أبا عامر العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة السلمى دون المائة ،

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٩٤٥ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الجهاد . باب غزوة "حنين" .

فعاثب النبي ﷺ في شعر قاله ، فقال رسول الله ﷺ : اقطعوا عنى لسانه ، فأعطوه مائة من الخمس .

وقال: يومئذ سعد بن أبي وقاص. ﷺ : يا رسول الله ﷺ أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة ، وتركت جعيل بن سراقه الضمرى ؟ فقال : أما والذي نفسى بيده لجعيل بن سراقه خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع ، ولكنى أتألفهما ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقه إلى إسلامه . ثم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ﷺ بإحصاء الناس والغنائم ثم فضها على الناس وكانت سهامهم : لكل رجل أربع من الإبل وأربعون شاة ، وإن كان فارساً أخذ ثنتى عشرة من الإبل أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس واحد لم يسهم له .

وقدم وفد هوازن. ، وهم أربعة عشر رجلاً رأسهم أبو صرد. زهير بن صرد الجشمى السعدى ، قد أسلموا وأخبروا بإسلام من وراءهم من قومهم . فقال أبو صرد : يا رسول الله أنا أصل العشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك ، فامنن علينا من الله عليك ، إنما فى هذ الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، ولو أنا منحنا للحارث بن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا أحدهما بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وعائدته ، وأنت خير المكفولين .

فقال رسول الله ﷺ : إن أحسن الحديث صدقه ، وعندى من ترون من المسلمين ، فأبناؤكم ونسائكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا: . يا رسول الله ! خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا !. وما كنا نعدل بالأحساب شيئاً ، فرد علينا أبناؤنا ونساءنا .

فقال ﷺ : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، واسأل لكم الناس ، فإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ فإنى سأقول لكم : ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وسأطلب لكم إلى الناس ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر

بالناس : قاموا فتكلموا بما أمرهم به ، فأجابهم بما تقدم ، فقال المهاجرون : فما كان لنا فهو لرسول الله .

وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عيينة بن حصن : أما أنا وفزارة فلا .

وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا !

فقال بنو سليم : بلى ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

ثم قام رسول الله ﷺ فى الناس خطيباً فقال : إن هؤلاء القوم جاءوا مسلمين ، وقد كنت أستأنيت بهم فخيرتهم بين النساء والأبناء والأموال ، فلم يعدلوا بالنساء والأبناء فمن كان عنده منهن شئ فطابت نفسه أن يرده فسيبيل ذلك ، ومن أبى منكم ويمسك بحقه فليرد عليهم ، وليكن قرضاً علينا ست فرائض من أول ما يفى الله علينا به ، فقالوا : يا رسول الله رضينا وسلمنا .

قال ﷺ : فمروا عرفاءكم أن يرفعوا ذلك إلينا حتى نعلم ، فكان زيد بن ثابت على الأنصار يسألهم : هل سلموا ورضوا ؟ فخبروه أنهم سلموا ورضوا ، ولم يتخلف منهم رجل واحد ، وكان أبو رهم الغفارى يطوف على قبائل العرب ، ثم جمعوا العرفاء ، واجتمع الأمناء الذين أرسلهم رسول الله ﷺ فاتفقوا على قول واحد : أنهم سلموا ورضوا ، ودفع عند ذلك السبى إليهم .

وتمسكت بنو تميم مع الأقرع بن حابس بالسبى فجعل رسول الله ﷺ الفداء ست فرائض : ثلاث حقائق وثلاث جذاع .

وقال يومئذ : لو كان ثابتاً على أحد من العرب ولاء أورق لثبت اليوم ، ولكن إنما هو إيسار أو فدية ، وجعل أبا حذيفة العدوى على مقاسم المغنم .

وقال للوفد : ما فعل مالك بن عوف ؟

قالوا : هرب ولحق بحصن الطائف مع ثقيف .

فقال ﷺ : إنه إن يأت مسلماً رددت إليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من

الإبل ، وكان قد حبس أهل مالك بمكة عند عمتهم أم عبد الله بهمه ابنة أبى

أمية ، ووقف ماله فلم تجر فيه السهام ، فلما بلغ ذلك مالكا ، فر من ثقيف ليلاً ،
وقدم الجعرانة وأسلم ، وأخذ أهله وماله ومائة من الإبل .

ولما أعطى رسول الله ﷺ عطاياه وجد الأنصار في أنفسهم إذ لم يكن فيهم
منها شيء ، وكثرت القالة ، فقال واحد : لقي رسول الله قومه !! أما حين القتال
فنحن أصحابه ، وأما حين القسم فقومه وعشيرته ، ووددنا أنا نعلم ممن كان هذا
؟ إن كان هذا من الله صبرنا ، وإن كان هذا من رأى رسول الله استعتبناه .
فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فغضب غضباً شديداً ، ودخل عليه سعد بن عبادة ؓ
فقال له : ما يقول قومك ؟

فقال سعد : وما يقولون يا رسول الله ؟
فذكر له ما بلغه وقال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟
فقال : يا رسول الله ، ما أنا إلا كأحدهم ، وإنا لنحب أن نعلم من أين هذا ؟
قال ﷺ : فاجمع لى من كان ها هنا من الأنصار .
فلما اجتمعوا ، حمد الرسول ربه وأثنى عليه ثم قال : يا معشر الأنصار ما
مقالة بلغتني عنكم ؟ وجدة وجدتموها في أنفسكم ، ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ؟ وعالة
فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟
قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .
قال : ألا تجيبوني ؟

قالوا : وماذا نجيبك يا رسول الله ؟
قال : أما والله ولو شئتم قلتم فصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخدولاً
فنصرناك وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، وخائفاً فأمناك ، وجدتم في أنفسكم
يا معشر الأنصار في شيء من الدنيا تألفت به قوماً أسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم
، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس إلى رجالهم ، بالشاة والبعير ،
وترجعون برسول الله إلى رجالكم ؟

والذى نفسى بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس
شعباً وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، أكتب لكم بالبحرين كتاباً
من بعدى تكون لكم خاصة دون الناس ؟
قالوا : وما حاجتنا بعدك يا رسول الله ﷺ ؟

قال : إما لا فسترون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإن موعدكم الحوض ، وهو كما بين صنعاء وعمان ، وآنيته أكثر من عدد النجوم ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله حظاً وقسماً ، وانصرفوا^(١) .

■ ٧ ■

العودة إلى المدينة

لما فرغ رسول الله ﷺ من توزيع الغنائم وأداء العمرة انصرف راجعاً إلى المدينة في آخر ذي القعدة من العام الثامن الهجري بعدما ولى على مكة عتاب بن أسيد ، وترك معاذ بن جبل معه لتعليم الناس الفقه والقرآن وما يحتاجونه من أحكام دين الله تعالى .

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة الطائف ج ٧ ص ٣٢ ، ٣٧ ، وللحديث روايات متعددة فى الباب .

المبحث الثالث عشر

الاستقرار العام فى الجزيرة

ومواجهة غير العرب

عاد رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار إلى المدينة المنورة ، وأخذ ينظم شئون دولة الإسلام بعد اتساعها ... وأخذ فى سياسة أمور الناس ، وحراسة دينهم فى الجزيرة العربية كلها .

ووجد ﷺ أن مسائل الحياة قد تعددت ، واتجاهات الناس قد تنوعت ، والحركة بالدعوة تحتاج إلى أعمال كثيرة فى نواح مختلفة ، وفى أوقات متزامنة . وجد ﷺ أن أغلب القبائل قد أسلمت ، وقلة أبت وكفرت ، وقلة أخرى يدور أمرها بين القبول والرفض .

وأدى هذا الوضع إلى أن يرسل رسول الله ﷺ عمالاً لمن أسلم من القبائل وأن يبعث دعاة للمترددين ، وأن يواجه المتمردين بالقوة حتى لا يكونوا بؤرة فساد بين الناس تنتشر الضلال والإفك .

وحتى يعرف الناس شمول دعوة الإسلام للعالم كله عملياً بعدما عرفهم ذلك نظرياً أخذ فى توجيه الدعاة والمجاهدين إلى خارج الجزيرة العربية حيث الروم ومعهم الغساسنة والفرس ومعهم المناذرة . وبذلك بدأت مؤسسات الدولة الإسلامية فى الظهور والتكوين وأخذت الحركة بالإسلام تتسع وتنمو . وفى هذا المبحث سنتناول المسائل التالية :

- أولاً -

بعث عمال الصدقات إلى القبائل

استهل رسول الله ﷺ شهر المحرم من السنة التاسعة بعد رجوعه إلى المدينة المنورة فى مباشرة تبليغ الإسلام ، وحماية استقرار الجزيرة ، وتقوية إيمان القبائل ، وإلزامهم بشرع الله تعالى ، فأرسل للقبائل التى أعلنت إسلامها عمالاً من قبله ﷺ

للحكم فيهم بشرع الله ، وأخذهم بما أمر الله تعالى مع تحصيل الصدقات والزكاة بعد فرضها ولذلك سموا بالمصدقين . وقد تكونت هذه المطائفة الأولى من المصدقين^(١) من :

- (١) عيينة بن حصن ؓ إلى بنى تميم .
 - (٢) يزيد بن الحصين ؓ إلى أسلم وغفار .
 - (٣) عباد بن بشر الأشهلي ؓ إلى سليم ومزينة .
 - (٤) رافع بن مكيث ؓ إلى جهينة .
 - (٥) عمرو بن العاص ؓ إلى بنى فزارة .
 - (٦) الضحاك بن سفيان ؓ إلى بنى كلاب .
 - (٧) بشير بن سفيان ؓ إلى بنى كعب .
 - (٨) ابن اللثبية الأزدي ؓ إلى بنى ذبيان .
 - (٩) المهاجر بن أبي أمية ؓ إلى صنعاء ، وخرج عليه الأسود العنسي .
 - (١٠) زياد بن لبيد ؓ إلى حضر موت .
 - (١١) عدى بن حاتم ؓ إلى طيء وبنى أسد .
 - (١٢) مالك بن نويرة ؓ إلى بنى حنظلة .
 - (١٣) الزبرقان بن بدر ؓ إلى بنى سعد (إلى قسم منهم) .
 - (١٤) قسيم بن عاصم ؓ إلى بنى سعد (إلى قسم منهم) .
 - (١٥) العلاء بن الحضرمي ؓ إلى البحرين .
 - (١٦) علي بن أبي طالب ؓ إلى نجران لجمع الصدقة والجزية كليهما .
- وكان ؓ يحافظ للقبيلة على هيكلها التنظيمي ، فلها شيخها ، وفيها أولوا الرأي والثقة ... وكان عمال النبي ﷺ في هذه القبائل يقومون بالتعليم والإرشاد ، وتوجيه الناس إلى ما جاء به دين الله تعالى ، كما يقومون بجمع الصدقات وإرسالها إلى المدينة ... وقد عرفت القبائل ذلك فأطاعوا ، واستقاموا وبذلك كانوا مؤمنين .

ويلاحظ أن إرسال هؤلاء العمال استغرق مدة طويلة امتدت من أول العام التاسع حتى وفاته ﷺ .

(١) الرحيق المختوم ص ٤٢٤

- ثانياً -

إرسال الدعاة إلى القبائل

أخذ رسول الله ﷺ يرسل دعاة من المدينة إلى مختلف قبائل الجزيرة لتعليم المسلمين ما يحتاجون إليه من قرآن ، وفقه ، ودين ، ولعرض الإسلام على الذين لم ليعلنوا إسلامهم ، ولتقوية إيمان من أعلن إسلامه ، ومن هؤلاء الدعاة :

١. بعثة أبي موسى الأشعري ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن :

يروى البخارى بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال : أقبلت إلى رسول الله ﷺ ومعى رجلان من الأشعريين ، أحدهما عن يميني ، ولآخر عن شمالي ، كلاهما يرجو أن يكون من عمال النبي ﷺ على قومه ، ويسأل في ذلك والنبي ﷺ يستاك ، ويسمع .

فلما فرغا من سؤالهما قال ﷺ : ما تقول يا أبا موسى ؟
فقلت :. وللذى بعثك بالحق ما أطلعاني على ما فى نفسيهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل .

يقول أبو موسى : فكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفتيه وقد قلصت .

ثم قال ﷺ : لن نستعمل على عملنا من يريده ، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى .

قال أبو موسى : فبعثنى رسول الله ﷺ ومعاذا إلى اليمن .

وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله عز وجل قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب^(١) .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٦ ص ٣٥٠ .

٢. إرسال خالد بن الوليد ثم علي بن أبي طالب إلى همدان :

يروى البخارى عن البراء بن عازب أنه قال : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا ، ثم إن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب مكان خالد وأمره أن يعيد خالداً إلى المدينة وقال له ﷺ : مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب ومن شاء أن يقبل فليقبل ، فكنت فيمن عقب مع علي ، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا فصلى بنا على ثم صفنا صفاً واحداً ، ثم تقدم بين أيدينا ، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً ، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه ، وقال : السلام على همدان^(١) .

٣. إرسال أبي أمامة صدى بن عجلان ؓ إلى قومه :

وفى ذلك يقول أبو أمامة : بعثنى رسول الله ﷺ إلى قومي أدعوهم إلى الله عز وجل وأعرض عليهم شرائع الإسلام ، فأتيتهم وقد سقوا إبلهم ، وحلبوها . فلما رأوني قالوا : مرحباً بالصدى بن عجلان ، وأكرموني ثم قالوا : بلغنا أنك صبت إلى هذا الرجل .

فقلت : لا ولكن آمنت بالله ورسوله ، وبعثنى رسول الله ﷺ إليكم أعرض عليكم شرائع الإسلام ، فبينما نحن كذلك إذ جاءوا بقصعتهم فوضعوها واجتمعوا حولها يأكلونها وقالوا : هلم يا صدى . قلت : ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم إلا ما ذكيتكم كما قال الله تعالى .

قالوا : وما قال ؟

قلت : نزلت هذه الآية : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ^(٢) ۝ ﴾ .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٦ ص ٣٥٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٣ .

فجعلت أَدْعُوهم إلى الإسلام فكذبوني وهجروني ، وأنا جائع ظمآن قد نزل بي جهد شديد ، فقلت لهم : ويحكم ايتوني بشربة من ماء فإني شديد العطش .
قالوا : لا ، ولكن ندعك تموت عطشاً .

فاعتممت وضربت برأسي في العمامة ونمت في حر شديد ، فأتاني آت في منامي بقدر فيه شراب من لبن لم ير الناس ألد منه فشربته حتى فرغت من شرابي ، ورويت وعظم بطني .

فقال القوم : أتاكم رجل من أشرافكم وسراكم فرددتموه فاذهبوا إليه ، وأطعموه من الطعام والشراب ما يشتهي ، فأتوني بالطعام والشراب .

فقلت : لا حاجة لي في طعامكم ولا شرابكم ، فإن الله تعالى أطعمني وسقاني ، فانظروا إلى الحال التي أنا عليها ، فأريتهم بطني فنظروا فأسلموا عن آخرهم بما جئت به من عند رسول الله ﷺ .

قال أبو أمامه : ولا والله ما عطشت ولا عرفت عطشاً بعد تيك الشربة^(١) .

٤. بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني عبد المدان :

يقول ابن هشام : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني عبد المدان وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام فخرج إليهم خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضيرون. في كل وجه ، ويدعون. إلى الإسلام. ويقولون. : يا أيها الناس. أسلموا تسلموا ، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه ، فأقام فيهم خالد بن الوليد يعلمهم شرائع الإسلام وكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد النبي رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٦ ص ٣٧٠ .

أما بعد يا رسول الله ﷺ ، فإنك بعثتني إلى بنى الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ وبعثت فيهم ركبانا ينادون : يا بنى الحارث أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وإنى مقيم بين أظهرهم أمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام ، وسنة النبي ﷺ حتى يكتب إلى رسول الله ﷺ والسلام عليك يا رسول الله ورحمته وبركاته .

فكتب إليه رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإن كتابك جاءنى مع رسولك يخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام وأن الله قد هداهم بهداه فبشرهم ، وأنذرهم ، وأقبل ، وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته^(١) .

- ثالثاً -

تسيير السرايا

للخارجين على النظام

مع ظهور سيادة الإسلام فى الجزيرة ، وتعيين العمال ، وإرسال الدعاة ظهرت جماعات متعددة تعيش على النهب والسلب ، وتأبى الخضوع للنظام الإسلامى ، فكان لابد من تأديب هذه الجماعات ، والأخذ على يدها ليستتب الأمن ، ويستقر النظام ، ويتفرغ المسلمون للتعامل مع القوى الخارجية ودعوتهم إلى الإسلام ، وعلى رأس هذه القوى الفرس والروم ، لأن التوجه إليهم يحتاج إلى قوة وصبر ورجال .
وأهم هذه السرايا ما يلى :

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٦ ص ٣٥٤ .

١. سرية عبيدة بن حصن الفزاري ، في المحرم سنة تسع ، إلى بني تميم ، في خمسين فارساً لم يكن فيهم مهاجرى ولا أنصاري ، وسببها أن بني تميم كانوا قد أغروا القبائل ، ومنعوه عن أداء الجزية وحرصوهم على قتال رسول الله ﷺ .

خرج عبيدة بن حصن يسير الليل ويكن المنهار . حتى هجم عليهم في الصحراء فولى القوم مدبرين ، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً ، وإحدى وعشرين امرأة ، وثلاثين صبياً ، وساقهم إلى المدينة ، فأنزلهم رسول الله ﷺ في دار رملة بنت الحارث .

وقدّم فيهم عشرة من رؤسائهم ، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ ، فنادوا بصوت عال : يا محمد اخرج إلينا فخرج فتعلقوا به ، وجعلوا يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى حتى صلى الظهر ، ثم جلس في صحن المسجد فأظهروا رغبتهم في المفاخرة والمباهاة ، وقدموا خطيبهم عطار بن حاجب فقال : الحمد لله الذي له الفضل علينا والذي جعلنا ملوكاً ، وأعطانا الأموال نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثرهم مالاً وأكثرهم عدداً ، فمن مثلنا في الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وذوى فضلهم ؟ فمن يفاخر فليعدد مثل ما عددنا ، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام ، ولكننا نستحي من الإكثار فيما أعطانا الله أقول قولي هذا لأن نؤتى بقول هو أفضل من قولنا .

فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس ، خطيب الإسلام ، فأجابهم وقال : الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كل شئ علمه ، فلم يكن شئ إلا من فضله ، ثم كان ما قدر أن جعلنا ملوكاً اصطفى لنا من خلقه رسولاً ، أكرمهم نسباً ، وأحسنهم زياً وأصدقهم حديثاً ، أنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، وكان خيرته من عباده ، فدعا إلى الإيمان فأمن المهاجرون من قومه وذوى رحمه أصبح الناس وجهاً ، وأفضل الناس فعلاً ، ثم كنا أول الناس إجابة حين دعا رسول الله ، فنحن أنصار الله ورسوله ، نقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه في ذلك ، وكان قتله علينا يسيراً .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم و للمؤمنين والمؤمنات^(١) .
ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد مفاخرأ ، فأجابه شاعر الإسلام
حسان بن ثابت على البديهة .

ولما فرغ الخطيبان. والمشاعران. قال. الأقرع بن حابس :. خطيبه أخطب من
خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا وأقوالهم
أعلى من أقوالنا ، ثم أسلموا فأجازهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم ، ورد
عليهم نساءهم وأبناءهم .

٢. سرية قطبة بن عامر إلى حى من خثعم بناحية تبالة ، بالقرب من تربة ، فى
صفر سنة تسع خرج قطبة فى عشرين رجلاً على عشرة أبعرة يتعقبونها ،
فشن الغارة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى فى الفريقين جميعاً ، وقتل
عدد كبير ، وساق المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة .

٣. سرية الضحاك بن سفيان الكلابى إلى بنى كلاب فى ربيع الأول سنة تسع
بعثت هذه السرية إلى بنى كلاب ، لدعوتهم إلى الإسلام ، فأبوا وقاتلوا ،
فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم رجلاً .

٤. سرية علقمة بن مجزز المدلجى إلى سواحل جدة فى شهر ربيع الآخر سنة
تسع فى ثلاثمائة ، بعثهم إلى رجال من الحبشة كانوا قد اجتمعوا بالقرب من
سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة ، فخاض علقمة البحر حتى
انتهى إلى جزيرة ، فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا .

٥. سرية على بن أبى طالب إلى صنم لطئ ، يقال له القلس ، ليهدمه ،. فى
شهر ربيع الأول سنة تسع بعثه رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة على مائة
بعير وخمسين فرساً ومعه راية سوداء ولواء أبيض ، فشنوا الغارة على محلة
حاتم مع الفجر ، فهدموه وملأوا أيديهم من السبى والنعم والشاء ، وفى السبى
أخت عدى بن حاتم ، وهرب عدى إلى الشام ، ووجد المسلمون فى خزانة
القلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، وفى الطريق قسموا الغنائم ، وعزلوا الصفى
لرسول الله ﷺ ولم يقسموا آل حاتم .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٣٦ .

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدى بن حاتم رسول الله ﷺ قائلة : يا رسول الله ﷺ غاب الوافد ، وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ، ما بى من خدمة ، فمن على من الله عليك .

قال : من وافدك ؟

قالت : عدى بن حاتم .

قال : الذى فر من الله ورسوله ؟ ثم مضى ، فلما كان الغد قالت مثل ذلك

وقال لها مثل ما قال أمس ، فلما كان بعد الغد قالت مثل ذلك ، فمن عليها .

ورجعت أخت عدى بن حاتم إلى أخيها عدى بالشام ، فلما لقيته قالت عن رسول الله ﷺ : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، انته راغباً أو راهباً ، فجاء عدى بغير أمان ولا كتاب ، فأتى به إلى داره ﷺ ، فلما جلس بين يديه حمد رسول الله به وأثنى عليه ، ثم قال : ما يفرك ؟ أيفرك أن تقول : لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله سوى الله ؟

قلت : لا .

ثم تكلم رسول الله ﷺ ساعة ثم قال : إنما تفر أن يقال : الله أكبر فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟

قلت : لا .

قال : فإن اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارى ضالون .

قلت : فإنى حنيف مسلم ، فانبسط وجهه ﷺ فرحاً ، وأمر بى فنزلت عند رجل من الأنصار ، وجعلت آتى النبی ﷺ طرفى النهار .

وكان النبی ﷺ يسأله فيما يهديه ، ويرشده قال لى : إيه يا عدى بن حاتم ألم تكن ركوسياً ؟

قلت : بلى .

قال : أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟

قلت : بلى .

قال : فإن ذلك لم يحل لك فى دينك .

قلت : أجل وعرفت أنه نبي مرسل ، يعرف ما يجهل .

ثم قال : يا عدى أسلم تسلم .
فقلت : إني من أهل دين .
قال : أنا أعلم بدينك منك .
فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟
قال : نعم ، ألسنت من الركوسية ، وأنت تأكل مرباع قومك ؟
فقلت : بلى .
قال : فإن هذا لا يحل لك في دينك .
يقول عدى : بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل .
فقال ﷺ : يا عدى ، هل رأيت الحيرة ؟ فإن طالت بك حياة فلترين الطعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً إلا الله ، ولئن طالت بك حياة لفتحن كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ويطلب من يقبله ، فلا يجد أحداً يقبله منه .
يقول عدى : فرأيت الطعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى ابن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ^(١) .

- رابعاً -

غزوة "تبوك"

والتصدى لعدوانية الرومان

لم يقبل الرومان انتصار المسلمين ، وتوحد الجزيرة تحت راية الإسلام وكبر عليهم أن تظهر قوة كبرى مجاورة لهم ، فجهزوا جموعاً كثيرة بالشام عند حلفائهم الغساسنة ، وأرادوا غزو المسلمين في ديارهم ، والقضاء على دولتهم الناشئة فكان أن جاءهم النبي ﷺ غازيا في "تبوك" .
والحديث عن غزوة تبوك يتطلب النقاط التالية :

(١) الرحيق المختوم ص ٤٢٥ - ٤٢٨ .

ـ ١ ـ

استعداد المسلمين للغزوة

علم رسول الله ﷺ بما يعمل له الرومان فجهز المسلمين ، وأعد العدة وكانت غزوة تبوك .

وتبوك موضع بين الحجر وأول الشام ، وإليها كانت غزوة النبي ﷺ .
وقد وقعت هذه الغزوة في حر شديد ، ومع قلة أموال المسلمين ولذلك سميت "غزوة العسرة" .

ونظراً لبعده مسافة تبوك عن المدينة ، وللمظروف التي أحاطت بها صرح الرسول الله ﷺ بجهة الغزو على غير عادته ليستعد الصحابة لها ، وليكونوا على بينة من المشاق التي سيتحملونها في خروجهم .

ندب الرسول ﷺ أهل المدينة للخروج إلى تبوك ، وأرسل إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى عدوهم فبعث بريدة بن الحصيبي وأمره أن يبلغ الفرع وبعث أبا رهم الغفاري إلى قومه ، وأبا واقد الليثي إلى قومه ، وأبا جعدة المضمري إلى قومه بالساحل ، ورافع بن مكيث بن جندب بن جنادة إلى جهينة ونعيم بن مسعود إلى أشجع ، وبديل بن ورقاء وعمرو بن سالم وبسر ابن سفيان إلى بني كعب بن عمرو ، والعباس بن مرداس إلى بني سليم .

وحض على الجهاد ورغب فيه ، وأمر بالصدقة فحملت صدقات كثيرة ، وأول من حمل صدقته أبو بكر الصديق ؓ : جاء بماله كله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله ﷺ : هل أبقيت لبناتك شيئاً ؟
قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب ؓ بنصف ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : هل أبقيت شيئاً ؟ قال : نعم ، نصف مالي جئت به .

وبلغ عمر ما جاء به أبو بكر ؓ فقال : ما استبقنا إلى خير إلا سبقني إليه .
وحمل العباس بن عبد المطلب ؓ مالا يقال إنه تسعون ألفاً .

وحمل طلحة بن ابن عبيد الله مالا .

وحمل عبد الرحمن بن عوف مائتي أوقية .
وحمل سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالا .
وتصدق عاصم بن عدى بتسعين وسقاً تمرأ .
وجهاز عثمان بن عفان ؓ ثلث ذلك الجيش ، فكان من أكثرهم نفقة ، فلقد
كفلت نفقته مؤونة ثلث الجيش حتى إن كان ليقال : ما بقيت له حاجة !!
جاء عثمان ؓ بألف دينار . ففرغها في حجر النبي ﷺ ، فجعل ﷺ يقبلها
ويقول : ما ضر عثمان ما فعل هذا اليوم ، قالها مراراً .
ورغب ﷺ أهل الغنى في الخبر والمعروف ، فتبادر المسلمون في ذلك حتى
إن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكما تعتقبانه ،
ويأتى الرجل بالنفقة فيعطيهما بعض من يخرج ، وأنت النساء بكل ما قدرن عليه ،
فكن يلقيان في ثوب مبسوط بين يدي النبي ﷺ ، المسك ، والمعاضد ، والخلخل ،
والأقرطة ، والخواتيم والخدمات .
وكان الناس في حر شديد ، وحين طابت الثمار ، وحسنت الظلال ، وبدأ
الناس يحبون المقام ، ويكرهون الشخوص أخذهم ﷺ بالجد ، ودعاهم إلى الخروج
وعسكر بثنية الوداع .
تجمع المسلمون بثنية الوداع حتى بلغ عددهم قريباً من أربعين ألفاً فيهم كثير
من الأعراب ، وعبد الله بن أبي وأشياعه من المنافقين .
وكان لابد من حمولة للمجاهدين لطول السفر ، وصعوبة الطريق ، وظهر
ولضحاً أن المذى لا يجد ما يحمله لن يغزو . وله عذرهم . وهنا جاء عدد من
أصحاب النبي ﷺ يشكون له عدم وجود ما يركبون ، وأخذوا في البكاء حزناً على
فوت الجهاد منهم .
وهم سبعة : أبو ليلي المازني ، وسلمة بن صخر الزرقى ، وثعلبة بن غنمة
السلمي ، وعلبة بن زيد الحارثي ، والعرياض بن سارية السلمي ، وهرمي بن
عمرو المزني ، وسالم بن عمير ، جاءوا يستحملون رسول الله ﷺ وكانوا أهل
حاجة .
فقال لهم ﷺ : لا أجد ما أحملكم عليه .

فولوا يبيكون ، فلقى اثنان منهما يامين بن عمير بن كعب فقال : ما يبكيكما ؟
قالا : جئنا إلى رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس
عندنا ما ننقوى به على الخروج ، ونحن نكره أن تفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ
فأعطاهما ناضحاً له ، فارتحله اثنان منهم ، وزود كل واحد صاعين من تمر .
وحمل العباس بن عبد المطلب منهم رجلين .
وحمل عثمان بن عفان منهم ثلاثة^(١) .

وأبطأ أبو ذر . عن رسول الله ﷺ من أجل بعيره . وكان الحر شديداً فخرج
وحده ، حتى لحق برسول الله ﷺ نصف النهار وقد بلغ منه العطش .
فقال له ﷺ : مرحباً بأبي ذر ! يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده ،
ما خلفك ؟

فأخبره أبو ذر ﷺ خبر بعيره .
فقال ﷺ : إن كنت لمن أعز أهلى على تخلفاً ! لقد غفر الله لك بكل خطوة
ذنباً إلى أن بلغتني .

يروى ابن هشام أن رسول الله ﷺ مضى سائراً فجعل يتخلف عنه الرجل
فيقولون : يا رسول الله تخلف فلان ، فيقول : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه
الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، حتى قيل : يا رسول الله ،
قد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره ، فقال : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله
بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، وتلوم أبو ذر على بعيره ، فلما أبطأ
عليه ، أخذ متاعه فحملة على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، ونزل
رسول الله ﷺ في بعض منازلهم ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله إن هذا
الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر فلما تأمله القوم قالوا :
يا رسول الله هو والله أبو ذر فقال رسول الله ﷺ : رحم الله أبا ذر يمشى وحده ،
ويموت وحده ، ويبعث وحده^(٢) .

(١) إمتاع الأسماع ص ٤٤٦ .

(٢) سيرة النبي ج ٢ ص ٥٢٣ .

وولى رسول الله ﷺ على المدينة "سباع بن عرفطة ؓ" وخلف معه على بن أبى طالب على أهله ، وعقد الألوية والرايات ، فدفع اللواء الأعظم لأبى بكر ، والراية الكبرى للزبير بن العوام ، وأمر ﷺ كل من خرج معه باتخاذ لواء أو راية . وأخذ الجيش الإسلامى يتحرك من ذات الثنية باتجاه الشام . وهنا برز أصحاب النفاق وانسحبوا من ذى الثنية ورجعوا إلى المدينة ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى وأشياعه .

وقالوا : يحسب محمد ﷺ أن قتال بنى الأصفر (الروم) للعب؟؟
ونافق آخرون وهم الأعراب الذين أخذوا يتخلفون عن الجيش معتذرين بأسباب واهية كاذبة .

وكان. تخلفهم رحمة بالمؤمنين المصادقين ولذلك كان. ﷺ كلما أخبره أصحابه بتخلف فلان يقول : **دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .**

وسار الجيش إلى تبوك ، بعدما تخلص من المنافقين وضعاف الإيمان ، وقد بلغ عدده ثلاثين ألفاً .

وعندما وصل المسلمون إلى "ذى خش" وهو جبل يقع شمال المدينة قريباً منها أخذ ﷺ يصلى والمسلمون معه الظهر والعصر والمغرب والعشاء جمعاً يؤخر الظهر حتى تدبر الشمس ويصلى العصر جمع تقديم ، ويصلى المغرب مع العشاء وقت العشاء جمع تأخير واستمر ﷺ على ذلك حتى رجع من تبوك .

لما وصل الجيش إلى تبوك جمع النبى ﷺ جنوده ، وخطب فيهم وقال ﷺ :
"أيها الناس ! أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير المثل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنن محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عواقبها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف القتل قتل الشهداء ، وأعمى الضلالة الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى .

وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا نزرأ ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما ألقى فى القلب اليقين ، والارتياح من الكفر .

النياحة من عمل الجاهلية ، والغلول من جمر جهنم ، والشكر وقاية من النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حباله إبليس ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المال أكل مال اليتيم .

والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنما يصير أحكم إلى موضع أربع أذرع ، والأمر إلى آخره ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الرؤيا رؤيا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتل المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتألم على الله يكذبه ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يتتبع السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضاعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه ، اللهم اغفر لى ولأمتى ، اللهم اغفر لى ولأمتى أستغفر الله لى ولكم" .

وطاف على ناقته بالناس وهو يقول : يا أيها الناس ! يد الله فوق يد المعطى ، ويد المعطى الوسطى ويد المعطى السفلى ، أيها الناس استغفوا ولو بحزم الحطب ، اللهم هل بلغت ! اللهم هل بلغت ! اللهم هل بلغت ... !
وجلس بتبوك فى نفر من أصحابه وهو سابعهم ، فجاء رجل من بنى سعد هذيم فسلم فقال : اجلس .

فقال : يا رسول الله ! أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله .

فقال : أفلح وجهك .

ثم قال : يا بلال ، أطعنا ! فبسط نطعاً ، ثم أخرج من حميت له خرجات من تمر معجون بسمن وأقط ، ثم قال ﷺ : كلوا فأكلوا حتى شبعوا .

فقال الرجل : يا رسول الله إني كنت لآكل هذا وحدي !!
فقال ﷺ : الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معي واحد .
ثم جاء من الغد متحِيناً الغداء ليزداد في الإسلام يقيناً ، فإذا عشرة حوله
عليه السلام فقال ﷺ : هات أطعمنا يا بلال ! فجعل يخرج من جراب تمرأ بكفه
قبضة قبضة ، فقال : اخرج ولا تخف من ذي العرش إقتاراً ! فجاء بالجراب فنثره ،
فحزره الرجل مدين ، فوضع ﷺ يده على التمر ثم قال : كلوا باسم الله ، فأكل
القوم وأكل الرجل وكان صاحب تمر ، حتى ما يجد له مسلكاً وبقي على النطع
مثل الذي جاء به بلال كأنهم لم يأكلوا منه ثمرة واحدة .
ثم عاد الرجل من الغد ، وعاد نفر ، فكانوا عشرة أو يزيدون رجلاً أو رجلين
، فقال ﷺ : يا بلال أطعمنا ، فجاء بذلك الجراب بعينه فنثره ، ووضع ﷺ يده عليه
وقال : كلوا باسم الله ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم رفع مثل الذي صب ففعل مثل ذلك
ثلاثة أيام^(١) .
وعسكر النبي ﷺ بجنوده في "تبوك" عشرين يوماً حتى فتح الله عليهم فعادوا
إلى المدينة بلا قتال وبلا حرب .

- ٢ -

نتائج الغزوة

عسكر النبي ﷺ والمسلمون في تبوك ، وعسكر قبالتهم جيش الروم ، فشاور
رسول الله ﷺ أصحابه في التقدم بعد أن بين لهم أن الأمر بيدهم وعليهم أن
يختاروا لأنفسهم ، وبخاصة أن الله لم يأمر بشئ ، فرأوا الرجوع
إلى المدينة ، والاكتفاء بما حقق الله لهم في هذه الغزوة .
إن غزوة "تبوك" خلت من القتال ولكنها تركت آثاراً عديدة على المسلمين
وعلى غيرهم .

(١) إمتاع الأسماع ص ٤٦٠ .

أما أثرها مع المسلمين فقد محص الله صفهم ، وأحاطهم بآيات. من عنده كإكثار الطعام وهم في أمس الحاجة إليه ، ونزول المطر بدعاء النبي ﷺ .
وقد وجه النبي من عسكره في تبوك سرايا إلى القبائل العربية الموجودة في المنطقة التابعة للرومان ... فلما رأى العرب قوة المسلمين قبلت العهد مع رسول الله ﷺ وصاروا من أهل الذمة ... وعلى رأس هذه القبائل أهل أيلة ، وأهل جرباء ، وأهل أذرج ، وأهل مقتاً ، حيث أتى يحنه بن رؤبة صاحب أيلة رسول الله ﷺ وصالحه على إعطاء الجزية وتبعه أهل جرباء وأذرج ، فكتب لهم النبي ﷺ كتاباً أعطاه لهم ، جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمانة من الله ومحمد النبي ﷺ ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة^(١) : سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه، من بر أو بحر .

وقد كتب الكتاب جهيم بن الصلت ، وشرحبيل بن حسنة ، بإذن رسول الله^(٢) .
وكتب ﷺ لأهل "جرباء" كتاباً جاء فيه : هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل جرباء وأذرج : أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم^(٣) .
وكتب لأهل أذرج ما يلي : من محمد النبي رسول الله لأهل أذرج إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة ، وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه^(١) .

(١) وأيلة بفتح الهمزة وسكون الياء - مدينة على البحر الأحمر مما يلي الشام وهي من بلاد الشام .

(٢) سيرة النبي ج ٢ ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

(٣) إمتاع الأسماع ج ص جرباء بفتح فسكون موضع جنوب الشام يقع في شمال جبل السراه .

وكتب لأهل "مقتاً" كتاباً جاء فيه : أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم ^(٢).

وأرسل خالد بن الوليد في بعث إلى أكيدر دومة ، رجل من كندة و كان ملكاً عليها ، وكان نصرانياً ، فقال رسول الله ﷺ لخالد : إنك ستجده يصيد البقر ، فخرج خالد ، حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين ، وفي ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ، ومعه امرأته فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ؟

قال : لا والله .

قالت : فمن يترك هذه .

قال : لا أحد .

فنزل فأمر بفرسه ، فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسان فركب ، فلما خرجوا لقيهم خيل رسول الله ﷺ ، فأخذته وقتلوا أخاه ، وقد كان عليه قباء من ديباج مخصص بالذهب فاستلمه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون منه ، فقال رسول الله ﷺ : أتعجبون من لين هذه ؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها ^(٣) .

ثم إن رسول الله ﷺ حقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع إلى قريته ^(٤)

وبذلك تحقق للمسلمين العزة والقوة في هذه المناطق البعيدة .

أما آثار تبوك على غير المسلمين فلقد أيقنوا أن قوة الإسلام غالبية ، وأنه لا قبل لأي فريق في مواجهة المسلمين وبدأوا يدركون صدق الإسلام وخطأهم فيه .

(١) أدرج بفتح الهمزة وسكون الذال وضم الراء بلد صغير يقع في أطراف الشام من ناحية الجنوب .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٢٧ .

(٣) صحيح البخاري . كتاب المناقب . باب مناقب سعد بن معاذ ج ٦ ص ١٥٥ .

(٤) سيرة النبي ج ٢ ص ٥٢٦ .

- ٣ -

موقف المنافقين بعد الغزوة

سارع المنافقون بالخروج إلى ثنية الوداع حينما ندب النبي ﷺ لغزوة تبوك ويبدو أن خروج المنافقين كان مناورة منهم لتنشيط همم المؤمنين ونشر الذعر بينهم وحتى لا يتهموا بالعودة والنكوص ، وظنوا أن بمقدورهم القعود بالجيش كله عن الغزو ولذلك ناقشوا كثيراً في التخلف ، وأكثروا من الحلف وهم كاذبون ، وبدأوا في إضعاف عزائم المجاهدين مرة بعد المسافة ، وأخرى بقسوة الحر ، وثالثة بوعورة الطريق ، ورابعة بقوة الروم والأعراب المتحالفين معهم ... وكل تلك أمور بينها رسول الله ﷺ لأصحابه حين دعاهم للخروج .

وأهم أفعال المنافقين :

١. إنشاء مسجد الضرار :

بنى المنافقون في "ذى أوان" بجوار المدينة مسجداً يتآمرون فيه ، بعدما كانوا يجلسون في الخلاء ويراهم المسلمون .، ويطلقون على مكرهم .، وخبثهم وهذا المسجد هو الذى عرف بمسجد الضرار .، وقد دعوا الرسول ﷺ للصلاة فيه ، فوعدهم بالصلاة معهم فيه حين رجوعه من الغزوة ، وأثناء عودته من تبوك نزل عليه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ مُّحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ (١) .

لقد كان المسجد ستاراً للمنافقين عن أعين المسلمين ، لكن عين الله لا تنام ولذلك أمر النبي ﷺ بهدم المسجد ، وحرقه ، بعدما أمره الله تعالى بعدم الصلاة فيه ، وبين له أن سبب تأسيسه هو الإضرار بالمسلمين والكفر بما أنزل الله ، وتفريق المسلمين وإيواء أعداء الله ورسوله .

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٧ ، ١٠٨ .

٢. نشر الإشاعات الكاذبة :

أمر رسول الله ﷺ على بن أبي طالب عليه السلام أن يبقى في أهله ، وحينئذ قال المنافقون : ما خلفه محمد إلا خوفاً عليه ، ويسراً به ... فلما سمع على ذلك أخذ سلاحه ولحق بالمسلمين بـ "الجرف" فأعاده النبي ﷺ وقال له : كذبوا إنما خلفتك ورأى في أهلي وأهلك .

وأخذ المنافقون يهلون في قوة الرومان ، ويستهيئون بالمسلمين .

يقول وديعة بن ثابت المنافق : مالى أرى أصحاب محمد اتسعت بطونهم

وكذب لسانهم ، وجبنوا عن اللقاء .

ويقول الجلاس بن سويد المنافق : الرومان سادتنا وعظماؤنا ، ولئن كان

محمد صادقاً فنحن شر من الحمير .

فقال له عمير رضي الله عنه : أنت شر من الحمير ، محمد الصادق وأنت الكاذب .

فلما أتى رسول الله ﷺ بالمنافقين وسألهم عن أقوالهم السيئة قال وديعة : يا رسول الله ! إنما كنا نخوض ونلعب ، فأُنزل الله فيه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١﴾ .

وجاء الجلاس فحلف أنه ما قال من ذلك شيئاً وأن عميراً كذب عليه ، فأُنزل الله فيه قوله تعالى : ﴿ مَحْلُوفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ﴿٢﴾ .

(١) سورة التوبة ، الآية ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٧٤ .

فلما نزلت الآية قال الجلاس : عمير صادق وأنا كاذب يا رسول الله وكان للجلاس دية في الجاهلية على بعض قومه ، وكان محتاجاً ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخذها منهم وأعطاهم له فاستغنى بها وتاب فتاب الله عليه^(١) .

٣. محاولة قتل النبي ﷺ :

وفى أثناء الطريق مكر أناس من المنافقين لقتل رسول الله ﷺ عند العقبة^(٢) فلما بلغوها أرادوا أن يسلكوها مع رسول الله ﷺ فأخبره الله بخبرهم فقال ﷺ للناس : اسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع ! ليبعد المنافقين عن مؤامرتهم فسلك الناس بطن الوادي ، وسلك ﷺ العقبة ، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، وأمر حذيفة بن اليمان يسوق خلفه ، فغضب المنافقون ، وأصروا على سلوك العقبة فأمر ﷺ حذيفة أن يردهم ، فرجع إليهم فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجن في يده ، فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس فلما أصبح رسول الله ﷺ قال له أسيد بن الحضير : يا رسول الله ! ما منعك البارحة من سلوك الوادي ، فقد كان أسهل ؟

فقال ﷺ : يا أبا يحيى ! أتدرى ما أراد البارحة المنافقون وما هموا به ؟! قالوا :.. نتبعه في المعقبة .. فإذا.. أظلم الليل عليه قطعوا. أنساع. راحلتى ونخسوها حتى يطرحوني عن راحلتى ! فقال أسيد : يا رسول الله ! فقد اجتمع الناس ونزلوا ، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا .

قال ﷺ : يا أسيد إنى أكره أن يقول الناس إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه .

فقال أسيد : يا رسول الله ! هؤلاء ليسوا بأصحاب !

قال ﷺ : أو ليس يظهرون شهادة ألا إله إلا الله !

قال : بلى ! ولا شهادة لهم !

قال : أو ليس يظهرون أنى رسول الله ؟

قال : بلى ! ولا شهادة لهم !

(١) إمتاع الأسماع ص ٤٥٣ .

(٢) العقبة جبل يعرض للطريق فيجعله مضيقاً ، والمراد هنا المضيق في شمال مكة عند (واقص) .

قال ﷺ : فقد نهيت عن قتل أولئك^(١) .

وقد فضح الله المنافقين بنزول الوحي يوضح صفائهم ، ويبين أكاذيبهم ، ويحدد منزلتهم السافلة ، وخلقهم الردي .

فإنهم لما اعتذروا لعدم الاستعداد قال الله عنهم : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾^(٢) .

وحتى يعرف المؤمنون أن تخلف المنافقين خير قال الله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا لِلنَّاسِ حِطْلًا كَيْ يَبْغُوكُمْ أَلْفِتَةً وَفِئَكُمْ سَمْعُونَ هُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾^(٣) .

وحتى لا يغتر المسلمون بمظهر المنافقين قال تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾^(٤) .

وحتى لا يصدق المسلمون أيمانهم قال تعالى : ﴿ وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾^(٥) ويقول تعالى ﴿ تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾^(٦) . وقال تعالى : ﴿ تَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٧) .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٧٧ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٤٦ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٤٧ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ٥٥ .

(٥) سورة التوبة ، الآية ٥٦ .

(٦) سورة التوبة ، الآية ٦٢ .

(٧) سورة التوبة ، الآية ٩٦ .

لقد رد الله أقوال المنافقين جميعاً ، وبين طوايا قلوبهم ، وخبايا نفوسهم فقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ ^(١) .. وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٤) .

وهكذا ...

فضح الله النفاق والمنافقين ، وبرزت سيم الإيمان والجهاد ، وظهرت معالم الحياة أمام البصائر والأبصار .

٤. الثلاثة الذين تخلفوا :

تخلف عن رسول الله ثلاثة من المسلمين هم : كعب بن مالك الأنصاري ، ومرارة بن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفي ، فلما رجع رسول الله ﷺ من تبوك جاءوا وندموا على تخلفهم ، وبينوا أنه لا عذر لهم في التخلف ، ولم يكذبوا كغيرهم .

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى ركعتين بالمسجد جاءه المخلفون يعتذرون ويحلفون ، ورسول الله يكل حقيقتهم إلى الله تعالى .

(١) سورة التوبة ، الآية ٥٨ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٦١ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٧٩ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ٩٤ .

فلما جاء كعب بن مالك تبسم له رسول الله ﷺ تبسم المغضب وقال له : ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟

قال كعب : بلى يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كاذباً لترضى عني ، لئوشكن الله أن يسخط على ولئن حدثتك اليوم حديثاً صادقاً تجد على فيه ، إنى لأرجو عقبي الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك !! فقال ﷺ : أما أنت فقد صدقت ! فقم حتى يقضى الله فيك .

ويمثل ذلك ذكر صاحباه ، فنهى ﷺ عن كلام الثلاثة فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم حتى تنكرت لهم أنفسهم ، فلبثوا على ذلك خمسين ليلة ، وقد قعد مرارة وهلال فى بيوتهما ، وكان كعب يخرج فيشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف بالأسواق ، فلا يكلمه أحد ، ويأتى رسول الله ﷺ ، وهو فى مجلسه بعد الصلوات ، فيسلم عليه ويصلى قريباً منه يسارقه النظر ، وهو معرض عنه وتسور يوماً جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمه ، وأحب الناس إليه ، فسلم عليه فلم يرد عليه السلام فقال : يا أبا قتادة ! أنشدك الله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، وكرر ذلك فقال فى الثالثة : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناه وانصرف .

يقول كعب : فبينما أنا أمشى بسوق المدينة ، وإذا نبطى من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلىنى على "كعب بن مالك" ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع لى كتاباً من ملك غسان ، فإذا فيه : أما بعد فإنه بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيمنت بها التتور فسجرتها .

فلما مضت أربعون ليلة بعث إلى رسول الله ﷺ وإلى هلال بن أمية ومرارة بن ربيع مع خزيمة بن ثابت يأمرهم أن يعتزلوا نساءهم ، فقال كعب لامرأته : ألقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما هو قاض !

وبكى هلال بن أمية وامتنع عن الطعام ، وواصل اليومين والثلاثة ما يذوق طعاماً ، إلا أن يشرب الشربة من الماء أو الضيخ من اللبن ، ويصلى الليل ولم يخرج من بيته لأن أحداً لا يكلمه ، حتى إن الوالدين يهجرونه لطاعة رسول الله ﷺ .

وجاءت امرأته فقالت: يا رسول الله ! إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، وأنا أرفق به من غيري ، فإن رأيت أن تدعني أخدمه فعلت . قال : نعم ، ولكن لا تدعيه يصل إليك !

فقالت : يا رسول الله ! ما به من حركة إلى ! والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، وإن لحيته لتقطر دموعاً الليل والنهار ، ولقد ظهر البياض على عينيه حتى تخوفت أن يذهب بصره .

فلما كملت خمسون ليلة ، وهم كما قال الله تعالى : ﴿ صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾^(١) ، أنزل الله توبتهم بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾^(٣) وقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٤) .

فأعلم رسول الله ﷺ أصحابه بذلك عند الصبح ، فخرج أبو بكر رضي الله عنه فأوفى على سلع فصاح : قد تاب الله على كعب بن مالك ! يبشره ، فأتاه حمزة بن عمرو فبشره ، فنزع ثوبيه وكساهما إياه ولا يملك غيرهما ، واستعار ثوبين من أبي قتادة فلبسهما ، ثم انطلق إلى رسول الله والناس يهنئونه ، وخرج أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل إلى هلال يبشره ، فلما أخبره سجد ولقيه الناس يهنئونه ، فما استطاع المشي ، لما ناله من الضعف والحزن والبكاء حتى ركب حماراً ، وبشر مرارة بن ربيع سلمان بن سلامة بن وقش ، فأقبل حتى توافوا عند النبي ﷺ .

(١) سورة التوبة ، الآية ١١٨ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٧ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ١١٨ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ١١٩ .

فقام طلحة بن عبيد الله يتلقى كعب بن مالك ، فلما سلم على رسول الله ﷺ قال له ﷺ ووجهه يبقرق من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك .
فقال : أومن عندك يا رسول الله أو من عند الله ؟
قال : من عند الله .
فقال كعب : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة .
فقال : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك .
قال فالثلاثان !
قال : لا .
قال : فالنصف .
قال : لا .
قال : فالثالث .
قال : نعم^(١) .

(١) إمتاع الأسماع ص ٤٨٦ - ٤٨٨ .

المبحث الرابع عشر

السرايا والجهاد فى الميزان

شرع الله الجهاد لتعيش الدعوة إلى الله فى إطار خلقى كريم ، يقدر الإنسان ،
ويبرز مزايا الدين ، ويشجع الناس على الدخول فى دين الله تعالى .
وحيثما نتأمل فى تشريع الإسلام للجهاد .، وننظر فى مساره التطبيقى من
خلال الغزوات والسرايا، ومدى مساهمته فى خدمة الدعوة ، وتجلية صدق الإسلام
وخيريته تظهر الحقائق التالية :

- ١ -

الجهاد ضرورة عامة

قد يتساءل سائل ما ، بحسن نية أو بسوء نية ، ويقول :
ما سبب كل هذه التضحيات التى يحتاجها الجهاد الإسلامى ؟
وهل يستحق كل هذا ؟
وما الغاية منه ؟ وما الحكمة فى تشريعه ؟
وهل استنفد المسلمون كافة الوسائل السلمية حتى يلجأوا إلى الجهاد والحرب
... ؟ مع ما فى الحرب من قتل ، ودم ، وإزهاق للأموال والأرواح .
وهل تتساوى غايات الجهاد مع مسئولياته ؟
وهذه تساؤلات. تحتاج لإجابات. ولضحة منعاً للبس ، ورداً لشبهات. يثيرها
أعداء الإسلام حول مشروعية الجهاد الإسلامى .
إن الإسلام دين الله تعالى جاء به محمد ﷺ بعدما أوحى الله إليه به لإنقاذ
الناس من ظلمات الجهل ، وعبودية المادة ، وطغيان الأقوياء حتى يعيشوا حياة
آمنة مستقرة بالعدل والحق ، وانتشار الخير والسلام .
ولم يبدأ الإسلام بتشريع الجهاد والقتال ... وإنما بدأ بالكلمة الصادقة والدعوة
الآمنة والحوار الجاد ، يناقش العقول ، و يحرك العواطف ، ويثبت للناس صدق

الإسلام ، وأحقيقته ، بلا عدوان على أحد ، أو سب لمخلوق ، أو مصادرة لرأى واتجاه .

أعلن الإسلام غايته بوضوح وهى تنحصر فى تحقيق السعادة للناس ، ونشر السلام فى العالم كله بواسطة منهج ربانى خالص حدد معالم الإسلام . ، وبين غايته ومراميه .

ومع هذا أبى جبايرة الأرض أن يواجهوا الدعوة بالدعوة ، والحجة بالحجة ، والرأى بالرأى ... وإنما بدأوا باضطهاد من يدعونهم ، وقتل من يكلمهم ، ووضعوا سياجاً يمنع الدعوة من الحركة والإنطلاق ... ولم يكن موقفهم هادئاً .. ولم يكتفوا بالحديث مهما كان توجهه ومستواه ... وإنما اعتمدوا على القتل والأذى ، ولم يفرقوا فى عدوانهم بين كبير وصغير ، ولا بين رجل وامرأة ... واستمروا فى مباشرة العدوان وتصعيده حتى أجبروا المسلمين على الهجرة وترك الديار إلى أماكن لا عهد لهم بها كالحبشة والمدينة . ، ولم يترك الأعداء المسلمين أحراراً حتى فى مواطن هجرتهم ، وإنما تتبعوهم بالعدوان ، ولاحقوهم بالأذى ودبروا المؤامرات لاغتيال رسول الله ﷺ وقهر المسلمين وجيشوا الجيوش لقتل المسلمين فى دارهم ... وكان أملهم هو القضاء التام على المسلمين ، وإطفاء نور الله فى الأرض .

وبتحقق هذه الأمور فى عالم الواقع يظهر أن مشروعية الجهاد جاءت بعد استنفاد كافة الوسائل التى يتصورها العقل لصيانة الحقوق ، وضمان الخير للناس .

وقد شرع الله الجهاد لرد العدوان . ، ومنع الأذى . ، وتحقيق وضع يحقق الاستقرار للدعوة وللناس ، ويصون الكرامة ، ويحمى الحقوق ، وذلك أمر تدعو إليه المواثيق الدولية القديمة والمعاصرة وتعمل له .

ولذلك كان تشريع الجهاد ضرورة عامة ، ووحيدة بعد ما استنفد المسلمون كافة الطرق للتعامل مع أعدائهم الذين بدأوهم بالأذى ، ولاحقوهم بالعدوان ، ولم يسمعوا لهم كلمة ، ولم يناقشوهم بحجة .

لو لم يشرع الله الجهاد وتركه المسلمون لتمكن المشركون من كل مسلم ولقضوا على المسلمين ودينهم .

ولو لم يشرع الجهاد لاستمرت البشرية فى ظلمات الجهل ، وسوءات القهر والاستعباد .

ومن هنا ندرك ضرورة تشريع الجهاد ، وسبب تكليف المسلمين به ، وأهمية التضحية والبذل إنقاذاً لأنفسهم ، وحماية لدينهم ، وتحقيقاً لخير الإنسانية وسعادتها .

إن- الأمم المعاصرة تحتفل بما بذلته في حروبها العالمية .- وتتباهى بتضحياتها من أجل الحرية والديموقراطية ، وتجعل قتلاها خلال هذه الحروب أبطالاً تصنع لهم التماثيل ، وتشيد بهم في كل مجال ... فإذا نظرنا إلى الجهاد الإسلامي من زاوية هؤلاء الناس مع ربطه بوسائله وأهدافه ، وتطبيقاته فإن ذلك يعد برهاناً على ضرورته ، وحتمية استمراره لخير الناس مع وضوح الفرق بين الجهاد الإسلامي وهذه الحروب من ناحية أخلاقيات الجهاد ونتائجه .

إن- الجهاد- الإسلامي في إطار- مشروعيته يحتاج- إلى كل ما بذل- له من تضحية وعطاء ، ولو تضاعف الجهد لكان خيراً وبركة .

ويبقى الجهاد في مشروعيته محافظاً على حقيقته ، وغايته على الزمن كله .
ومن حكمة الله أن آيات الجهاد تورده مرتبطاً بسببه وعلته ، يقول الله تعالى : ﴿ اذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾^(١) .
ويقول سبحانه : ﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَتِّلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٣) .

ويقول- سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٤) .

ويقول- سبحانه : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبُيُوعٌ وَصَلَوَاتٌ

(١) سورة الحج ، الآية ٣٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٠ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٣٦ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٥١ .

وَمَسْجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ^(١) .

إنه تشريع ربانى بسبب أنهم ظلموا ... !!!
ولرد عدوان المعتدى ومقاتلة من يقاتل ... !!!
ولمعاملة الأعداء بمثل ما يعملون ... !!!
ولإنقاذ البشرية من ظلم الطغاة واستبداد المتجبرين وحتى لا تنهدم الحضارات
على رؤوس أصحابها ... !!!
وقد سبق عند الحديث عن مراحل تشريع الجهاد بيان واضح لهذه القضية .

- ٢ -

الجهاد يحمى حرية الإنسان

أظهر الجهاد الإسلامى قيام الإسلام على المبادئ النبيلة ، التى تحمى الحقوق وتصور الكرامة ، وتعمل على ضمان حرية الإنسان بصورة مطلقة وذلك ينتضج من خلال بعض الملاحظات فى حركة الإسلام بين الناس ، وأهمها :
(أ) إن الإسلام فكرة قائمة على بعض المعانى التى لا بد من فهمها ، قبل الإيمان بها والعمل بمقتضاها ، ومن المعلوم أن حركة الأفكار تحتاج إلى الحرية ، لتظهر الفكرة قولاً يسمع ومعنى يتدبر ، واتجاها يتحول إلى عمل وسلوك ، وبدون الحرية لا تجد الأفكار مجالاً تعيش فيه وتتحرك خلاله ، وإذا فقد الإنسان الاختيار الحر فإنه يتصرف ويعمل بلا اقتناع أو رضى وهذا شأن يأباه الإسلام ويمنعه .

(ب) ومن الحقائق المؤكدة تشريعياً ، وعملياً ، أنه لا إكراه فى اعتناق الإسلام . فكل النصوص الدينية تؤكد أن الإسلام يعتمد على الدليل والبرهان ، ويقوم على الرضى والاختناع ، يقول الله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ^(٢) ويقول تعالى : ﴿ هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ

(١) سورة الحج ، الآية ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

إِبْرَاهِيمَ»^(١) ويقول تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾^(٢) والآيات واضحة الدلالة على أن دين الله تعالى يقوم على الإرادة الحرة والمشیئة الطليقة ، ولا حرج فيه أبداً .

هذا من الناحية التشريعية ، أما الناحية العملية التطبيقية فهي تؤكد أن ذلك هو ما حدث فى عالم الواقع ، ولم يتحدث المؤرخون أو بعضهم أن جماعة من الناس ، أو واحداً من الأفراد دخل فى الإسلام قهراً وجبراً ، وكل ما قام به المجاهدون بعد انتصارهم هو إزالة الطغاة الجاثمين ، وصيانة الأموال والأعراض ، وتيسير أمر الحياة ، وإعلان سيادة الله فى الأرض ... هذا فقط ... مما أدى بالناس إلى التفكير والتدبير ، والمقارنة فدخلوا فى الإسلام طواعية واختياراً بعد فهم واقتناع .

إن الناس دخلوا فى الإسلام راضين سعداء . ، ولذلك نراهم يسارعون إلى معرفة لغة الإسلام ، وحفظ القرآن الكريم والمحافظة على سنة نبيه الكريم . ومما يؤكد الحرية فى الاقتناع ما رأيناه من إيمان القوة الغالبة المنتصرة على المسلمين المنهزمين كما حدث فى إسلام التتار ، فلقد دخلوا فى الإسلام بعد هزيمة المسلمين بعد معرفتهم بحقيقه الإسلام ، وإيمانهم بصدق وصواب ما جاء به .

يقول أرنولد توينبى : إن الإسلام فى جوهره دين عقلى بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية ، وهو يعتمد الأسلوب العقلى طريقاً لإقامة العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق ، والحق أن محمداً كان متحمساً لدينه وكان يمتلك غيره الإيمان ونار الاقتناع ، عرض دعوته على أنها وحى وإلهام وأن لدينه كل العلامات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل^(٣) .

(١) سورة الحج ، الآية ٧٨ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٢٩ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ص ٤٥٥ .

لقد بقي الإسلام صامداً في وجه الهجمات الاستعمارية التي استولت على العالم كله ، لما فيه من خير وصلاح. يؤكد هذا الأمر ما نراه دائماً من إسلام عديد من الناس. وهم بين أقوام غير مسلمين وفي ثنايا قوة تحارب الإسلام ... وما ذلك إلا لاقتناعهم التام الذي جعلهم يتركون دين آبائهم ، ويهاجرون بعد إسلامهم إلى المسلمين وديار الإسلام ليقوموا بواجب الأمانة التي تحملوها بإسلامهم .

ولا يمكن القول بأن الجزية تمثل إكراهاً مادياً ، يدفع الفقراء إلى الإسلام ليبتعدوا عنها ... لا يقال ذلك لأن المسلم يدفع أضعاف هذه الجزية حين يؤدي ما عليه من ولجبات دينية مثل دفع الزكاة ، وأداء صدقة الفطر ، وتحمل مغارم الكفارات العديدة ، في الوقت الذي يعفى فيه دافع الجزية من الاشتراك في الجهاد ، وعمليات تأمين الأمة ، بينما المسلم يقوم بذلك على وجه الوجوب والفرضية .

(ج) الجانب الباطني في الإنسان لا يعلمه إلا الله تعالى ، وارتباط الإيمان في الإسلام بهذا الجانب تأكيد واضح على ضرورة الحرية للاقتناع والإيمان . إن النفاق لا يغني عن الحق شيئاً ، والمنافق خطر على الإسلام أكثر من خطورة الكافر ، لأن المنافق عدو خفي ، والكافر عدو ظاهر ، والعدو الخفي ضرره أكثر ، وإبداؤه أشد .

ويوم أن ظهر المنافقون في المدينة حذر الله منهم وبين للرسول ﷺ مظاهرهم ، ومواطن الخطر من قبلهم فقال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ

كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ^ط تَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ^ع هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ^ع
فَنَتْلَهُمُ اللَّهُ^ط أَنِّي يُؤْفِكُونَ^(١) .

والآيات واضحة الدلالة على سلوك المنافقين السيئ ، فلقد كانوا يأتون إلى النبي ﷺ ويحدثونه بالسنتهم حديثاً مخالفاً لما في قلوبهم ، وينطقون بكلمة الحق مع أنهم لا يقرون بها ، فهم كاذبون في إقرارهم ، حيث لا ارتباط له بما في قلوبهم .. ونراهم يسارعون إلى الأيمان الكاذبة لإبعاد التهمة عنهم ، مع أنهم بهذه الأيمان يبالغون في الكذب ... ويتصورون أنهم خدعوا بذلك رسول الله ﷺ والمؤمنين ... إن هؤلاء المنافقين يبدون في صورة حسنة ، وقلوبهم مملوءة بالسوء ... لهم كلام منمق ، لكنه السم الزعاف ... وهم مدركون لفعلهم ، ولذلك يعيشون خائفين ، يتوقعون انكشاف أمرهم في كل لحظة ولفتة : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ فَنَتْلَهُمُ اللَّهُ^ط أَنِّي يُؤْفِكُونَ^(٢) 》 .

وكان الوحي مع رسول الله ﷺ يعرفه بحال هؤلاء المنافقين ، ويرشده بظهور خلقهم من حديثهم ، وسلوكهم ، وبذلك أبطل تصورهم في حساب استمرار خداعهم فقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَن لَّنْ نُخْرِجَ اللَّهَ^ط أَضْغَيْنَهُمْ^(٣) 》 .

هذا هو موقف الإسلام من النفاق والمنافقين قديماً وحديثاً ... ولذلك فلا قيمة للإيمان إذا لم ينبع من الباطن القلبي ... وذلك شأن لا يتحقق إلا في إطار الحرية .. والاختيار الكريم .

(د) يتكون الإسلام من أساسيات أخلاقية تعتمد على التسامح والعفو ، وحب الخير لسائر الناس . مع الالتزام بالصدق والأمانة وضرورة مراعاة حقوق الآخرين ، والمحافظة على القيام بالواجب بكل دقة ... ودين هذا شأنه لا يتصور منه إهانة الإنسان في عقله ، وفي إرادته أو في حياته أو في أي جانب إنساني .

(١) سورة المنافقون ، من الآية ١ : ٤ .

(٢) سورة المنافقون ، الآية ٤ .

(٣) سورة محمد ، الآية ٢٩ .

فى إطار هذه الملاحظات يعمل الجهاد ويتحرك المجاهدون ... ولذلك نرى الجهاد يحمى حرية الناس ، ويحفظ عقلهم ، ودينهم وأموالهم .

ـ ٣ ـ

الجهاد يصون كرامة الإنسان

كرم الله الإنسان منذ خلقه ، وسخر كل ما فى الوجود لخدمته وسعادته ، وأرسل إليه رسله وأنبياءه ليستقيموا به على المنهج الربانى السديد ... لكن الإنسان ظلم نفسه ، وبعد عن ربه فلعب به الهوى ، واستحوذ عليه الشيطان ، فصار عبداً لشهواته وغرائزه .

وانتهز أنصار الشر خيبة الناس فتمكنوا منهم وحولهم إلى قطعان من العبيد ، وتحكموا فى رقابهم تحكم المالك فى غنمه ومواشيه ... ولذلك انقسم العالم إلى جزئيات متناثرة تحت سيطرة أفراد مستبدين ... وفقد الإنسان إرادته ، وضاعت كرامته .

فلما جاء الإسلام وجد هذه الفوضى فكون من المسلمين أمة مجاهدة تنتشر العدل ، وتصون الأمن ، وتحقق كرامة الإنسان .

لقد شرع الله الجهاد ، وحدد وسائله وغاياته ، وطبقة المسلمون بكل دقة وشدة حتى تحققت فى عالم الواقع كرامة إنسانية عاشها كثيرون ، كرامة لم يتصورها أحد من الناس .

لقد جاهد المسلمون بعد الهجرة أقل من عشر سنوات قاموا خلالها بأكثر من مائة غزوة وسرية ، تحملوا خلالها كثيراً من الألم والتعب ، والشهادة لكنهم حققوا فى عالم الحياة أمة عادلة منصفة .. وأزاحوا من حياة الناس مظالم الفرس والروم ، واستبداد العرب وجاهلية الفوضى والعصبية ... وأوجدوا بدل ذلك الإنسان الكريم الذى يعيش لله ، ويعمل لله ، ويموت لله ... وفى ذلك الدلالة على تكريم الجهاد للناس .

إن مقارنة أمينة بين وضعية العالم قبل الإسلام وبين وضعيته تحت سيادة الإسلام تؤكد مدى الخير الذى قدمه الإسلام للناس من كافة النواحي .

لقد نظم الإسلام حياة الناس :

- . حدد حق الحاكم ومسئوليّاته ، وواجباته .
- . وضح حقوق الناس- وصان- لهم النفس ، والعقل ، والمعرض ، والمال . ، والاعتقاد
- . أرسى أسس السلوك القويم ، وأعلى مكارم الأخلاق .
- . بين العقوبات- الملائمة للجرائم لصيانة المجتمعات- البشرية من المتهمة والعدوان .
- . أعلى مقام العلم وجعله حقاً ضرورياً لكل رجل وامرأة .
- . دعا إلى السعى والعمل وبذل أقصى الوسع للنجاح ويسر لذلك الطريق .
- . أعطى لكل فرد ما يستحقه من جزاء وثواب تبعاً لطاقاته العقلية وإمكاناته العملية .
- . حدد حقوق كل من الرجل والمرأة بما يضمن لكليهما الحياة السعيدة المستقرة .
- . حقق بين أفراد المجتمع تكافلاً كاملاً يحقق العدل والمساواة .
- . ولم يحقق الإسلام هذا في عالم الواقع إلا بجهد المسلمين وتضحياتهم ...
- . وتلك هي مسئولياتهم إلى يوم القيامة .

■ ٤ ■

الجهاد يبرز إيجابية الإنسان المسلم

- أبرز تشريع الجهاد حقيقة الإنسان المسلم ، في باطنه ، وظاهره ، وخلقه .
- فهو في باطنه يسلم أمره الله ورسوله ، ويؤمن بكل ما يبلغه من الرسول ﷺ .
- وليست الحياة الدنيا في مفهوم المسلم مغنماً يحرص عليه ، وإنما هي مجال يطيع الله فيه ، ليغنم رضوان الله وجنته بعد هذه الحياة الدنيا .
- إن الجهاد يبرز أعلى درجات الاستسلام والطاعة لله تعالى ، لأن المجاهد يدفع روحه لله ، ويقبل الموت راضياً به ، ليفوز برضوان الله تعالى .

إن سائر العبادات رقى في حياة المسلم ، واستمرارية لطهارة الدنيا ، وعظمتها والهجرة من مكة إلى المدينة كانت خلاصاً من الضعف ، والقلّة ، والأذى ، وانتقالاً إلى القوة ، والكثرة ، والغلبة ، والتخلص من عدوان الكفر وأذى المشركين ، فهي رقى دنيوى في طاعة الله تعالى .

إن الجهاد هو بذل للمال ، وللنفس ، وترك الدنيا ، من أجل إعلاء كلمة الله وذلك كان ذروة سنام الإسلام ، وقد جعل الله المجاهدين صفوة الخلق ، وأكرمهم عندهم وجدد. الله حياتهم بعد استشهادهم ، وضاعف رزقهم . وأحاطهم بالبشر ، والسرور ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٣١) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٢) * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٣) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣٤) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٣٥) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسِهِمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (١).

إن المتضحية لإحقاق الحق ، وإبطال المباطل شهامة وبطولة يقدم عليها العظماء من الناس ... وهى مناط إظهار إيجابية المجاهدين فى سبيل الله تعالى .
لقد قام المجاهدون بما تعلموه من رسول الله ﷺ فلم يبدأوا بعدوان ، وإنما كانوا يبدأون بعرض الإسلام وشرح أعماله ومراميه ، ودفع ما يثار حوله من شبه وافتراء ... وكانوا يعرضون الجزية يدفعها من يأبى الإسلام ليكون له العهد والذمة .
ولم يتعد المجاهدون على شيخ كبير أو امرأة أو صغير أو راهب فى صومعة أو بيعة .

(١) سورة آل عمران ، من الآية ١٦٩ : ١٧٤ .

إن الجهاد فى الإسلام معلومة غايته ، مبيّنة وسيلته ، من خلال تشريعه الصريح وتطبيقاته فى الأمم ، التى تمتعت به ... وهو فى مجمله قوة تؤمن بالله ، وتستمد طاقتها من شريعة الله ، وتبرز غايتها المعلنة منذ أن جاء الإسلام للناس .
إن تكوين القوى الدولية التابعة للأمم المتحدة تنطلق من هذا المفهوم الذى نرجو له أن يتطابق رسمه مع رسمه وتلتقى فكرته مع واقعه ليكون عوناً للضعفاء ، ومساعدة للمحتاجين .
إن المجاهد لا يطلب مجداً شخصياً ، ولا سلطاناً قومياً ، ولا استعلاءً أممياً ... وإنما كل غايته تحقيق العبودية للمعبود ، وإعلاء سلطان الله فى الأمم كلها .
وبذلك فالمسلم المجاهد إنسان إيجابى يفيد الإنسانية كلها .

— ٥ —

الواقعية فى تشريع الجهاد

لم يغب تشريع الجهاد مطلقاً عن مصلحة الناس ، ومراعاة واقعهم العملى حيث رأيناه فى مكة لم يكلف المسلمين بجهاد ، وإنما أمرهم بالصبر ، والعفو لقلّة عددهم وضعف أحوالهم ، وغلظة أعدائهم ، وفى نفس الوقت لم يوجه لوماً لمسلم ينتصر لنفسه ضد بغى وقع عليه ، إذا رأى الانتصار ممكناً ، ولا يؤدى إلى ضرر أكبر .

وقد تحدث الوحى عن الجهاد بالإذن فيه ، أو بالأمر به ، ليعلم أهل مكة ومن يشايعهم أن قضية الإسلام لم تنته بالهجرة إلى المدينة ، ولكن الحقيقة أن الهجرة تؤكد أن مرحلة جديدة قد بدأت ، ولأنها ستكون أقوى من سابقتها ، ولأن الاستقامة على الحق ضرورة واجبة ، والدعوة إلى الله أمر لن يتوقف ، وأن قوة المسلمين ستكون فى خدمة الدعوة دائماً ، وستبقى فى حماية الحركة بالإسلام .
وقد تحقق فى عالم الواقع أن أهل مكة وقبائل العرب وغيرهم أدركوا هذا الأمر وتيقنوا أن الإسلام تحميه قوة المسلمين ، ويبلغه للعالم رجال يبذلون له كل ما يمكنهم من نفس ومال ، وعمل .

حين شرع الله للمسلمين أن يتصدوا للظلم والعدوان عرفهم أن ذلك هو الجهاد الذى كلفوا به ، فى إطار نظام متكامل يتضمن الدعوة أولاً ، ويتمسك بالخلق الحسن فى كافة مراحلها ، ويملاً المجاهد بحب الجهاد ، وحب الموت فى سبيل الله

وبإعلان الإسلام للجهاد نظاماً له منهجه ، وهدفه ، علم العرب جميعاً مدى حب المسلم لدينه ، ومدى ربطه سعادة الآخرة بعمل الدنيا ، ومدى تمنيه الموت مجاهداً فى سبيل الله تعالى ... وهذا أمر يدفع الناس إلى التفكير الجاد فى شأن الإسلام ، ورجاله، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ .

أظهر تشريع الجهاد إيجابية الإسلام فى معالجة مشاكل الناس ، فالمسلم لا يجاهد لكسب مادية ، وإنما يجاهد لضمان حرية الإنسان فى التفكير ، وصيانة عقله من الغوغائية والتسلط ، وإزاحة الظلم والاستبداد من عالم الناس وهذا شأن يجب أن يذكر به الجهاد الإسلامى .

إن العالم الحديث يلزم الأقوياء ، والأغنياء بمعاونة الضعفاء ، والمحتاجين فى إطار مجموعة من النظم ، والمواثيق ، والمؤسسات الدولية ، وذلك شاهد يؤكد عظمة تشريع الجهاد ، وسبق الإسلام فى تكليف المسلمين بقهر الظلم ودفع البغى ، وإزاحة الطواغيت لقد تصدى الإسلام لأناس تألهوا على الناس ، واستعبدوا البشر ، وحولوا الأحرار إلى قطعان من الأنعام ، وأقاموا سداً يمنع نور الحق من الوصول للأفهام ... فلما جاء الإسلام ، وظهرت قوة المسلمين، انزاحت القوى المتسلطة، وتبين الرشد من الغى، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً

إن هذه الإيجابية الإسلامية معروفة مقررة ، بشهادة التاريخ ، وبشهادة الواقع يقر بها كل منصف أمين .

وقد تعرضت الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث بإدعاء أن جهادها كان ظالماً قائماً على الاعتداء والغدر : وهذا افتراء واضح لأن الجهاد الإسلامى لم يكن إلا رداً لظلم ودفعاً لعدوان ، وحماية للدعاة فى حياتهم وعملهم .

لقد أدت.المنتائج الأولى للجهاد. إلى تحقيق حرية التفكير لسائر الناس. ، وصيانة حقوقهم الضرورية المرتبطة بإنسانيتهم ، وحمايتهم ، وحماية أموالهم فى إطار تحديد ما لهم وما عليهم فى دولة الإسلام .

- ٦ -

ظهور فقه الإسلام فى الجهاد

أدى تشريع الجهاد فى الإسلام إلى ظهور الأحكام التفصيلية لأعمال الجهاد بمختلف مراحلها ، وأصبح المسلمون مسئولين عن رعاية هذه الأحكام وتطبيقها فى عالم الواقع ، ومن هذه الأحكام :

(أ) إعداد القوة لحماية البلاد والعباد ، والدين ، وذلك بتنفيذ قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾^(١) .

ومن الواضح فى الآية أن إعداد القوة ، وتجهيز الجيش سبب لتحقيق السلام ، وضمان الحقوق ، لأن أعداء الحق إذا رأوا يقظة صاحب الحق يخافون منه ، ويتعدون عن مصادمته ... ومن مسلمات الحضارة الحديثة أن الأمم المجادة تجهز جيشها ، وتعدده لحماية أمنها وسلامتها ، ولذا لم يكن عجباً وجود وزارات ومؤسسات فى كل دولة لإعداد العدة وتجهيز القوة حماية للمصالح ، وصيانة لحقوق المواطنين من أى عدوان يلحق بها ، ونشر الأمن لكل خاضع لنظام الدولة وسيادتها .

ولذا كان توجيه المسلمين لإعداد القوة من بدهيات العقل ، ومسلمات العمران والتقدم ومن أساسيات ضمان الأمن وتحقيق السلام .

(ب) ضرورة التهيئة النفسية ، وتقوية الجانب الروحى فى الإنسان ، لينشأ المسلم شجاعاً قوياً ، لا يخاف إلا من الله تعالى ، يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۖ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ۚ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾^(٢) .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٦٥ .

أن الخور والضعف أمام العدو يولد الهزيمة ، ويورث الوطن والأمة الذل والهوان ، ولذلك كان واجباً تربية الأمة على التحمل والصبر ، والقيام ببعض ما يكرهون في إطار متطلبات الأمة ، ونظامها .

(ج) تعلم المجاهدون من تطبيقات الجهاد مع رسول الله ﷺ النظم العسكرية التي بها يتحقق النصر ، من حسن التخطيط ، وسعة المشاورة ، ومعرفة أسرار العدو ، ومقابلة الخصم بما يكافئه .. مع التوكل على الله ، والاستعانة به ﷻ .
(د) بينت الشريعة الإسلامية أحكام الإسلام قبل القتال عن طريق تنشيط العلاقات الدولية ، ومناقشة الخصم في القضايا المثارة ، وعرض الإسلام عليه ، عسى أن يتحقق السلام. وينتشر الأمن في إطار. حكيم حسن . . بالكلمة المحررة ، والقول الأمين ولذلك كان عرض الإسلام على الآخرين أمراً واجباً على من يتصدى لهم ويقابلهم .

(هـ) تعلم المسلمون من الجهاد ، أهمية القيادة ، وضرورة طاعة القائد فيما يأمر به لأنه يوجه الجماعة وفق مبادئ لا يدركها جميع المجاهدين ولأن المواقف الصعبة والمصيرية تحتاج إلى الحسم والتنفيذ ، ويضيعها التردد ... ولذلك كانت طاعة الحاكم قضية واجبة في ميدان الحرب ، منعاً للهزيمة والفشل .

(و) تعلم المسلمون من الجهاد شروط مهادنة الأعداء ، وطرق التعامل معهم قبل القتال ، وأثناءه ، وبعده وأساسها العزة ، والتزام الحق ، والقيام بالواجب .

(ز) استفاد المسلمون طرق التعامل مع الغنائم ، والفئ ، والأسرى كما هو مفصل في كتب الفقه على ضوء التعاليم التي نزل الوحي بها .

(ح) وأبواب. الفقه مليئة بتفصيلات. توضح مكانة الشهيد . ومنزلته عند الله ، وكيفية دفنه ، والصلاة عليه .

(ط) تعلم المسلمون أن النصر لا يعنى الغرور والاستعلاء وإنما هو عطاء إلهي وتقدير رباني يحتاج إلى الشكر ، ومداومة الطاعة ، واستمرارية العمل لدين الله تعالى .

وهكذا ظهر فقه الجهاد من خلال تطبيقاته في المدينة المنورة .

المبحث الخامس عشر

وجاء نصر الله

لما فرغ رسول الله ﷺ من فتح مكة ، وغزوة تبوك . ، وأسلمت ثقيف دانت الجزيرة كلها للإسلام ، وتتابعت الأفواج تدخل في دين الله تعالى ، وغدت المدينة المنورة منارة للمؤمنين يقصدها من هداهم الله تعالى ، ووفقهم للإسلام . يروى البخارى بسنده عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه أن العرب كانت تنتظر نتيجة ما بين الرسول وأهل مكة ويقولون ، أتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق^(١) .

واستمروا في انتظارهم حتى تم الفتح فدخلوا في دين الله أفواجا ونزل قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾^(٢) .

وقد نزلت سورة النصر بعد فتح مكة بسنتين تبشر المسلمين بمجيئ نصر الله واعتناق الناس الإسلام ، وانقياد الجزيرة العربية كلها لحكم الله تعالى . وقد أدى هذا النصر إلى حدوث تطورات تؤكد ، وتتجاوب معه ... وأهمها ما يلي :

- أولاً -

تتابع مجئ الوفود إلى المدينة

تيقن العرب من انتصار الإسلام ، وآمنوا بصدقه وأحقيته فأسرعوا إلى الدخول فيه وبدأوا يرسلون وفوداً من قبلهم يمثلونهم لمبايعة رسول الله ﷺ وتعلم الإسلام ، وكان العام التاسع هو قمة هذا التحرك الشامل .

أورد ابن سعد في الطبقات تفصيلات سائر الوفود التي جاءت للمدينة المنورة سواء قل عدد أفراد الوفد أو كثر ، وسواء كان مجيئها في السنة التاسعة أو العاشرة

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب وقال الليث حدثني يونس ج ٧ ص ١٧ .

(٢) سورة النصر .

أو قبل التاسعة أو بعد العاشرة .. وسواء أعلن الوفد إسلامه أو اتفق على دفع الجزية ، ويمكن مراجعة تفصيلات الوفود في كتب السنة كذلك ، وفي كتب التاريخ ومؤلفات السيرة وغيرها .

ومن أهم الوفود^(١) التي جاءت إلى المدينة ما يلي :

١. وفد "أحمس" :

قدم قيس بن غربة الأحمسى فى مائتين وخمسين رجلاً من أحمس فقال لهم رسول الله ﷺ : من أنتم ؟

فقالوا : نحن أحمس الله ، وكان يقال لهم ذلك فى الجاهلية .

فقال لهم رسول الله ﷺ : وأنتم اليوم لله .

وقال رسول الله ﷺ لبلال : أعط ركب بجيلة وابدأ بالأحمسيين ، ففعل .

٢. وفد "أزد شنوءة" :

قدم على رسول الله ﷺ صرد بن عبد الله الأزدي فى وفد من الأزد مكون من بضعة عشر رجلاً فنزلوا على فروة بن عمرو ، فحباهم وأكرمهم وأقاموا عنده عشرة أيام ، ثم أسلموا ، وكان صرد أفضلهم ، فأمره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بهم من يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن .

٣. وفد "أزد عمان" :

أسلم أهل عمان فبعث إليهم رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي يعلمهم شرائع الإسلام ويأخذ صدقة أموالهم ، فخرج وفداهم إلى رسول الله ﷺ فيهم أسد بن بريح الطاحي ، فلما قابلوا رسول الله ﷺ سأله أن يبعث معهم رجلاً يقيم أمرهم ، فقال مخربة العبدى واسمه مدرك بن خوط : ابعثنى إليهم فإن لهم على منة ، أسرونى فمنا على ، فوجهه ﷺ معهم إلى عمان .

وقدم سلمة بن عياذ الأزدي فى أناس من قومه ، فسأل رسول الله ﷺ عما يعبد وما يدعو إليه ، فأخبرهم رسول الله ﷺ فقال : ادع الله لى أن يجمع كلمتنا

(١) تراجع تفصيلات الوفود فى المغازي ، والطبقات ، وزاد المعاد .

وألفتنا ، فدعا رسول الله لهم ، فلما رجع سلمة إلى قومه أسلموا وبارك الله فيهم.

٤. وفد "بنى أسد" :

قدم عشرة رهط من بنى أسد بن خزيمة على رسول الله ﷺ في أول سنة تسع ، فيهم حضرمي بن عامر ، وضرار بن الأزور ، وواصة بن معبد ، وقتادة بن القائف ، وسلمة بن حبيش ، وطليحة بن خويلد ، ونقادة بن عبد الله بن خلف ، ورسول الله ﷺ في المسجد مع أصحابه ، فسلموا وقال متكلمهم : يا رسول الله ، إنا شهدنا ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله فقبل منهم رسول الله ، وسر بإسلامهم وأمرهم بدعوة قومهم ، وتعليمهم الإسلام وأكرم وفادتهم ثم عادوا إلى ديارهم .

٥. وفد "أسلم" :

قدم عمير بن أفصى في جماعة من أسلم فقالوا : قد آمنا بالله ورسوله ، واتبعنا من هاجك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها فإننا إخوة الأنصار ، ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء .

فقال رسول الله ﷺ : أسلم سلمها الله ، وغفار غفر الله لها .

وكتب رسول الله ﷺ لأسلم ، ومن أسلم من قبائل العرب ممن يسكن السيف والسهل ، وفيه ذكر الصدقة والفرائض في المواشي .

وكتب الصحيفة ثابت بن قيس بن سماش ، وشهد عليها أبو عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب .

٦. وفد "أسيد بن أبي أناس" :

قال ابن عباس ؓ : أهدر رسول الله ﷺ دم أسيد بن أبي أناس لما بلغه أنه هجاه ، فأتى أسيد الطائف فأقام بها ، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة خرج سارية بن زنيم إلى الطائف .

فقال له أسيد : ما وراءك ؟

قال سارية : قد أظهر الله تعالى نبيه ونصره على عدوة ، فأخرج يا ابن أخى إليه فإنه لا يقتل من أتاه .

فحمل أسيد امرأته ، وخرج وهي حامل تنتظر ، وسار نحو مكة فألقت غلاما عند قرن الثعالب وأتى أسيد أهله فلبس قميصاً واعتم ، ثم أتى رسول الله ﷺ وسارية بن زنيم قائم بالسيف عند رأسه يحرسه ، فأقبل أسيد حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ وقال : يا محمد أهدرت دم أسيد ؟

قال : نعم .

قال : تقبل منه إن جاءك مؤمناً ؟

قال : نعم .

فوضع يده فى يد رسول الله ﷺ .

فقال : هذه يدى فى يدك ، أشهد أنك رسول الله ﷺ وأشهد ألا إله إلا الله فأمر رسول الله ﷺ وجهه وألقى يده على صدره .

٧. وفد "أشجع" :

قدمت أشجع على رسول الله ﷺ عام الخندق وهم مائة ورأسهم مسعود بن رخیلة فنزلوا شعب سلع ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ وأمر لهم بأحمال التمر ، فقالوا : يا محمد لا نعلم أحداً من قومنا أقرب داراً منك ، ولا أقل عدداً ، وقد ضقتنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك ، فوادعهم ﷺ ثم أسلموا بعد ذلك .

٨. وفد "الأشعريين" :

روى مسلم بسنده عن أبى هريرة ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وأضعف قلوباً والإيمان يمان ، والحكمة يمانية السكينة فى أهل الغنم ، والفخر والخيلاء فى الفدادين من أهل الوبر ^(١) .

وعن جبیر بن مطعم ؓ قال : كنا مع رسول الله ﷺ فقال : أتاكم أهل اليمن كأنهم السحاب وهم خيار من فى الأرض .

(١) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب تفاضل أهل الإيمان ج ٢ ص ٣٠ .

فقال رجل من الأنصار : إلا نحن يا رسول الله ؟
فسكت ثم قال مرة ثانية : إلا نحن يا رسول الله ؟
فقال ﷺ : إلا أنتم^(١) .

ولما لقوا رسول الله ﷺ أسلموا وبايعوا ، فقال رسول الله ﷺ : الأشعريون
فى الناس كصرة فيها مسك .
٩. وفد "الأشعث بن قيس" :

قدم على رسول الله ﷺ الأشعث بن قيس فى وفد كندة فى ثمانين ركباً من
كندة ، فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده ، وقد رجلوا جمهم وتكحلوا عليهم جيب
الحبرة ، وقد كفوها بالحرير ، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال : ألم تسلموا ؟
قالوا : بلى .

قال ﷺ : فما بال هذا الحرير فى أعناقكم ؟
فشقوه منها ، فألقوه .

١٠. وفد "بارق" :

قدم وفد بارق على رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا وبايعوا ، وكتب
لهم رسول الله ﷺ : هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق لا تجد ثمارهم ولا ترعى
بلادهم فى مربع ولا مصيف إلا بمسألة من بارق ، ومن مر بهم من المسلمين
فى عرك ، أو جذب فله ضيافة ثلاثة أيام ، وإذا أينعت ثمارهم فلا بن السبيل
اللقاط يوسع بطنه من غير أن يقتنم .

١١. وفد "باهلة" :

قدم مطرف بن الكاهن الباهلى على رسول الله ﷺ بعد الفتح وافداً لقومه فقال
يارسول الله أسلمنا للإسلام وشهدنا دين الله فى سماواته وأنه لا إله غيره وصدقناك
وآمنا بكل ما قلت فاكتب لنا كتابا فكتب له :

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٦١٩ .

من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن ولمن سكن بيئة من باهلة ، إن من أحياء أرضاً مواتاً فيها مراح الأنعام فهي له ، وعليه في كل ثلاثين من البقر فارض ، وفي كل أربعين من الغنم عتود ، وفي كل خمسين من الإبل مسنة ، وليس للمصدق أن يصدقها إلا في مراعيها وهم آمنون بأمان الله .

ثم قدم نهشل بن مالك الموائلي من باهلة على رسول الله ﷺ ولقداء لقومه ، فأسلم وكتب رسول الله ﷺ للوفد ولمن أسلم من قومهم كتاباً فيه شرائع الإسلام .

١٢. وفد "بنى الكائى" :

وفد من بنى البكاء على رسول الله ﷺ سنة تسع ثلاثة نفر على رأسهم معاوية بن ثور بن عباد البكاء ، وهو يومئذ ابن مائة سنة ، ومعه ابن له يقال له بشر ، والفجيع بن عبد الله بن جندح بن البكاء ، ومعهم عبد عمرو ، وهو الأصم ، فأمر لهم رسول الله ﷺ بمنزلة وضيافة ، وأجازهم ، ورجعوا إلى قومهم ، وقال معاوية للنبي ﷺ : إني أتبرك بمسك ، وقد كبرت وابنى هذا بر بنى فامسح وجهه ، فمسح رسول الله ﷺ وجهه بشر بن معاوية وأعطاه أعزراً عفراً وبرك عليهن .

١٣. وفد "بنى بكر بن وائل" :

قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ ، فقال له رجل منهم : هل تعرف قس بن ساعدة ؟

فقال رسول الله ﷺ : ليس هو منكم ، هذا رجل من أباد تحنف في الجاهلية فوافى عكاظاً والناس مجتمعون فكلّمهم بكلامه الذى حفظ عنه .

وكان فى الوفد بشير بن الخصاصية ، وعبد الله بن مرثد ، وحسان بن حوط . وقدم معهم عبد الله بن أسود بن شهاب بن عوف عن عمرو بن الحارث بن سدوس وكان ينزل اليمامة فباع ما كان له من مال باليمامة ، وهاجر وقدم على رسول الله ﷺ بجراب من تمر فدعا له رسول الله ﷺ بالبركة .

١٤. وفود "بلى" :

قدم. وفد من بلى فى شهر ربيع الأول. سنة تسع فأنزلهم ﷺ فى منزل. بنى جديلة ، ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه فى بيته فى الغداة فسلموا عليه وتكلموا معه فقال ﷺ : يا رويقع .

قال : لبيك .

قال ﷺ : من هؤلاء القوم ؟

قال : قومى .

قال ﷺ : مرحباً بك وبقومك .

قال : يا رسول الله ﷺ قدمنا وافدين عليك ، مقرين بالإسلام ونحن على من وراعنا من قومنا .

فقال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيراً يهدده للإسلام .

قال. فتقدم. شيخ الوفد أبو المصيب فقال. : يا رسول الله إنا قدمنا عليك لنصدقنك ونشهد أن ما جئت به حق ، ونخلع ما كنا نعبد ويعبد آباؤنا . فقال. رسول. الله : الحمد لله الذى هداكم للإسلام فكل من مات على غير الإسلام فهو فى النار^(١) .

١٥. وفود "تجيب" :

قدم. وفد تجيب على رسول. الله ﷺ وهم ثلاثة عشر رجلاً ، وساقوا. معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عز وجل ، فسر رسول الله ﷺ بهم وأكرم منزلهم ، وقالوا : يا رسول الله ﷺ سقنا إليك حق الله فى أموالنا .

فقال ﷺ : ردوها فاقسموها على فقرائكم .

قالوا : يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ﷺ ما قدم علينا وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحى من تجيب .

فقال ﷺ : إن الهدى بيد الله عز وجل ، فمن أراد الله له خيراً شرح صدره للإيمان .

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٣٠ .

وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها ، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن ، فازداد رسول الله ﷺ فيهم رغبة ، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم^(١) .

١٦. وفود "ثمالة والحدان" :

قدم عبد الله بن علس الثمالي ، ومسلمة بن هاران الحداني على رسول الله ﷺ في رهط من قومهما بعد فتح مكة ، فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على قومهم وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً بما فرض عليهم من الصدقة في أموالهم كتبه ثابت بن قيس بن شماس ، وشهد فيه سعد ابن عباد ، ومحمد بن مسلمة .

١٧. وفود "جرم" :

روى ابن سعد عن سعد بن مرة الجرمي عن أبيه قال : وفد على رسول الله ﷺ رجلان. منا يقال. لأحدهما الأصقع بن شريح بن صريم بن عمرو. بن رياح ، والآخر هوزة بن عمرو بن يزيد بن عمرو بن رياح فأسلما ، وكتب لهما رسول الله ﷺ كتاباً .

١٨. وفود "همدان" :

قدموا. سنة تسع بعد مرجعة ﷺ من تبوك. ، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه ، وأمر عليهم مالك بن النبط ، واستعمله على من أسلم من قومه ، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه ، ثم بعث على بن أبي طالب ، وأمره أن يقبل خالداً ، فجاء على إلى همدان ، وقرأ عليهم كتاباً من رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً ، وكتب على ببشارة إسلامهم إلى رسول الله ﷺ فلما قرأ الكتاب خر ساجداً ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان ، السلام على همدان .

١٩. وفود "فزارة" :

قدم هذا الوفد سنة تسع بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، قدم في بضعة عشر رجلاً جاؤوا مقرين بالإسلام ، وشكوا جدد بلادهم ، فصعد رسول الله ﷺ المنبر ، فرفع يديه واستسقى وقال : اللهم اسق بلادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، وأحي بلدك

(١) المستدرک للحاکم ج ٢ ص ٦١ .

الميت ، اللهم اسقنا غيثاً ، مغيثاً ، مريحاً ، طبقاً ، واسعاً عاجلاً ، غير آجل ،
نافعاً غير ضار ، اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عذاب ، ولا هدم ، ولا غرق ، ولا
محق ، اللهم اسقنا الغيث ، وانصرنا على الأعداء^(١) .

٢٠. وفد "نجران" :

كانت وفادة أهل نجران^(٢) سنة تسع ، وقوام الوفد ستون رجلاً ، منهم أربعة
وعشرون من الأشراف ، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران ، أحدهم العاقب
، كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه عبد المسيح ، والثاني السيد ، كانت تحت
إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه الأيهم أو شرحبيل والثالث الأسقف وكانت
إليه الزعامة الدينية ، والقيادة الروحانية ، واسمه أبو حارثة بن علقمة .

ولما نزل الوفد بالمدينة .، ولقى النبي ﷺ سألهم وسألهم .، ثم دعاهم إلى
الإسلام ، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا ، وسألوه عما يقول في عيسى ﷺ فمكث
رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ
آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ
الْمُمْتَرِينَ ۝ ﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ
عَلَى الْكَاذِبِينَ ۝ ﴾^(٣) .

وقالوا : إنا نعطيك ما سألتنا ، فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية ، وصالحهم
على ألفي حلة ألف في رجب ، وألف في صفر ، ومع كل حلة أوقية ، وأعطاهم
ذمة الله وذمة رسوله ، وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ،
وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلاً أميناً فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن
الجراح ، ليقبض مال الصلح .

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٦٥٣ .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ٦٢٩ .

(٣) سورة آل عمران ، من الآية ٥٩ : ٦١ .

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم ، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعدما رجعا إلى نجران ، وأن النبي ﷺ بعث إليهم علياً ، ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم ، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين .

٢١. وفد "بنى حنيفة" :

كانت وفادتهم سنة تسع وكانوا سبعة عشر رجلاً ، ونزلوا في بيت رجل من الأنصار ، ثم جاؤوا إلى النبي ﷺ فأسلموا .

واختلفت الروايات في مسلمية الكذاب ، ويظهر بعد التأمل في جميعها أن مسلمة صدر منه الاستكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة ، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ وأن النبي ﷺ أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً ، فلما رأى أن ذلك لا يجدى فيه نفعا تفرس فيه الشر .

٢٢. وفد "بنى عامر بن صعصعة" :

كان فيهم عامر بن الطفيل عدو الله وأريد بن قيس أخو لبيد لأمة وخالد بن جعفر وجبار. بن جعفر . وجبار. بن أسلم . وكانوا رؤساء القوم . وشياطينهم وكان عامر هو الذي غدر بأصحاب بئر معونة . فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تأمر عامر وأريد ، واتفقا على الفتك بالنبي ﷺ ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبي ﷺ ، ودار أريد خلفه ، واختلط سيفه شبراً ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله وعصم الله نبيه ودعا عليهما النبي ﷺ ، فلما رجعا أرسل الله على أريد وجمله صاعقة فأحرقتة وأما عامر فنزل على امرأة سلولية فأصيب بغدة في عنقه فمات وهو يقول : أغدة كغدة البعير وموتاً في بيت السلولية .

وفي صحيح البخاري : أن عامراً أتى النبي ﷺ فقال : أخيرك بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السهل ولى أهل المدر ، أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء ، فطعن في بيت امرأة ، فقال : أغده كغدة البعير ، في بيت امرأة من بنى فلان إيتوني بفرسى ، فركب فمان على فرسه .

٢٣. وفد "طى" :

قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل ، فلما كلموا النبي ﷺ ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ عن زيد : ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ، ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه ، وسماه زيد الخير .

وهكذا ...

تتابعت الوفود من كل أنحاء جزيرة العرب ، ودخل الجميع فى دين الله أفواجاً وقد استعد الرسول الله ﷺ وأصحابه لاستقبال الوفود ، والترحيب بهم ورعايتهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه فى دين الله تعالى .

- ثانياً -

نظام استقبال الوفود

وضع النبي ﷺ نظاماً حسناً فى معاملة الوفود يعتمد على النقاط التالية :

١. استقبال الوفد :

عين رسول الله ﷺ بعض أصحابه لاستقبال الوفود حين وصولهم إلى المدينة ، وتيسير معاشهم مدة إقامتهم فى مدينة رسول الله ﷺ .

٢. تهيئة مكان نزول الوفود :

أعد رسول الله ﷺ عدداً من دور المدينة لإنزال الوفود بها ، ومنها دار رملة بنت الحارث النجارية ، وهى دار واسعة ، وفيها نخيل وزروع ، وقد نزل بها وفد سلامان ، ووفد تميم بن عيينة بن حصن ، ووفد بنى كلاب ... ومنها دار المغيرة بن شعبة ، ونزل بها الأخلاف من ثقيف ، ومنها دار أبى أيوب الأنصارى ونزل بها وفد نجران ... ومنها دار يزيد بن أبى سفيان ، ونزل بها وفد همدان ... ومنها دار بلال ، وقد نزل بها ملك أيله حين قدم مع أهل الشام واليمن .

٣. إكرام الوفد :

أمر النبي ﷺ أصحابه بأن يحسنوا استقبال الوفود ، ويكرموا وفادتهم فقاموا بذلك خير قيام ، ففى طبقات ابن سعد أن وفد بنى حنيفة نزلوا دار رملة فأكلوا مرة خبزاً ولحماً ، ومرة خبزاً ولبناً ، ومرة خبزاً وسمناً .

وفيه أن النبي ﷺ رحب بوفد تجيب .، وأكرمهم .، وحباهم .، وأمر بلال. أن يحسن ضيافتهم ، ووفادتهم .

٤. الاستعداد للقاء الوفد :

اتخذ النبي ﷺ قبه في المسجد النبوي يستقبل فيها الوفود ، وجعل خالد بن سعيد بن العاص لاستقبالهم ، وتهيئة لقائهم برسول الله ﷺ ويستأذن لهم عند رسول الله ﷺ .

وكان الرسول ﷺ حين يلتقى بالوفد يلبس أحسن ثيابه ، ويأمر أصحابه بذلك ، فقد لبس ﷺ وأبو بكر وعمر يوم استقبال وفد كندة حلاً يمانية وفد بنى الصحابة لرسول الله ﷺ دكة من طين يجلس عليها حين يستقبل الوفود .

٥. الاستماع للوفد أولاً :

كان الرسول الله ﷺ يستقبل الوفد ، ويستمع منه أولاً . ، ليعرف موضوعه ومذهبه وبعد ذلك يرد عليه ، أو يكلف أحداً من أصحابه بالرد . وكان يجيب على أسئلة الوفد ويعرض عليهم الإسلام ، ويقبل منهم الجزية ، وكان يسمع للوفد أولاً ، ثم يرد عليهم . وأكتفى هنا بإيراد نموذجين .

النموذج الأول :

قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ وتكلم خطيبهم فقال : الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن ، وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكاً ، ووهب لنا أموالاً وعظماً ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثره عدداً ، وأيسره عدة . فمن مثلنا في الناس ؟

ألسنا برعوس الناس وأولى فضلهم ؟

فمن فآخرنا فليعدد مثل ما عدنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك ، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ، ثم جلس .

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن الشماس ، أخى بتي الحارث بن الخزرج : قم فأجب الرجل في خطبته .

فقام ثابت فقال : الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شئ قط إلا من فضله .

ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسولاً ، أكرمه نسباً وأصدقه حديثاً ، وأفضله حسباً ، فأنزل عليه كتابه وأتمنه على خلقه فكان خيرة الله من العالمين .

ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه أكرم الناس حسباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فعلاً .
ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب الله حين دعا رسول الله ﷺ نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .
قال ابن إسحاق : فلما فرغ ثابت بن الشماس من قوله ، قال الأقرع بن حابس ولبى : إن هذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا .
فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم .

النموذج الثانى :

قدم ضمّام بن ثعلبة ولفداً عن بنى سعد بن بكر . فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ فى أصحابه فقال : أيكم ابن عبد المطلب .
فقال رسول الله ﷺ : أنا ابن عبد المطلب .
قال : أمحمد ؟
قال : نعم .
قال : يا ابن عبد المطلب ، إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة ، فلا تجدن بها على فى نفسك .
قال : لا أجد فى نفسى ، فسل عما بدا لك .
قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آله بعثك لنا رسولاً ؟
قال : اللهم نعم .
قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده لا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فأنشذك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن نصلّى هذه الصلوات الخمس ؟

قال : اللهم نعم .

قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ، الزكاة ، والصيام والحج ، وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منهما كما ينشده في التي قبلها حتى إذا فرغ قال : فإنّي أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه المفرائض ، ولأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف إلى بعيده ، راجعاً

فقال رسول الله ﷺ : إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة .

إن المواجهة الصادقة بين الوفود ورسوله الله ﷺ كثيراً ما كانت تحقق الثمار المطلوبة ، وبها انتشر الإسلام في كل الجزيرة العربية .

٦. الإهداء للوفد :

يروى البخارى بسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أوصى عند موته بثلاث منها إجازة الوفد بمثل ما كان يجيزهم .

وقد أعطى النبي ﷺ قروة بن عمرو الجذامي اثنتي عشر أوقية من الفضة وأعطى كل واحد من وفد تميم ذلك ، وفعل ذلك مع كل من وفد عليه .
وسر هذا الإهداء أنه يولد الحب ،، ويعظم الإخلاص ويبرز حسن المعاملة .

٧. توديع الوفود :

كان النبي ﷺ يحسن توديع الوفود. كما يحسن استقبالهم ،، وكان يوصيهم بالدعوة ، ويبعث معهم من يعلمهم القرآن إن احتاجوا إليه .
وهكذا ...

وضع رسول الله ﷺ سياسة حسنة في التعامل مع رجال الوفود التي قدمت إليه في المدينة المنورة لأن كل وفد يمثل قبيلته وجماعته ، فتقدير الوفد وتكريمه يعد تكريماً للقبيلة كلها .

وأيضاً فإن تأليف القلوب ، والتعامل الكريم ، وإبراز حسن الخلق من أساسيات التحرك بالدعوة ... بل هو الدعوة بعينها .

ويجب على المسلمين أن يهتموا بهذا الجانب الحيوى ، وبخاصة أن العالم المعاصر تشابكت مصالحه ، وكثرت اللقاءات فيه ، وساعدت المخترعات الحديثة فى تواصل الناس ، وترابط المصالح ، وبذلك تلتقى الدعوة مع الفطرة ومع التقدم الحضارى الإنسانى .

- ثالثاً -

حج "أبى بكر" ﷺ

وإعلان نهاية الوثنية فى الجزيرة العربية

اقترب موسم الحج فى العام التاسع الهجرى فكره رسول الله أن يخرج للحج مع المشركين وبخاصة أنه ﷺ عقد معهم عقد أمان يوم تبوك .

إن اشتراك رسول الله ﷺ مع المشركين فى حج البيت يؤدى إلى ضرر بالمسلمين وشعائهم ، لأن المشركين يعارضون بتلييتهم تلبية المسلمين فإن قال المسلمون : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك قال المشركون : إلا شريكاً هو لك ، كما أنهم يطوفون بالبيت عرايا ، ويرفعون أصواتهم بالشرك حيث يعتقدون ذلك وليس هناك ما يمنعهم من حج بيت الله .

وفى ذلك إفساد لروحانية الحج ، ومضيعة لآثاره ، كما إن اشتراك الرسول معهم فى حجهم وبدعهم يعد إقراراً لهم فيما يفعلون .

لكل ذلك كره رسول الله أن يحج معهم ، واستعمل على الحج أبى بكر الصديق ﷺ ليؤكد ثبات حق المسلمين فى الحج وليتعلم المسلمون الحج عملياً لأهمية العمل فى إتقان أداء النسك .

خرج أبو بكر ﷺ فى ثلاثمائة رجل وعشرين بدنه قلدها ﷺ النعال وأشعرها بيده ﷺ فى الجانب الأيمن ، واستعمل عليها ناجية بن جندب الأسلمى ، وساق أبو بكر ﷺ خمس بدنات ، وحج عامئذ عبد الرحمن بن عوف ﷺ ، فأهدى بدنا ، وأهل أبو بكر ﷺ من ذى الحليفة .

وسار حتى إذا كان بالعرج فى السحر ، سمع رغاء القصواء ، فإذا علي بن أبى طالب ﷺ عليها فقال له أبو بكر : قد استعملك رسول الله ﷺ على الحج !!! قال علي : لا ولكن بعثنى أقرأ سورة براءة على الناس ، فأنبذ إلى كل ذى عهد عهده^(١) وكانت عادة العرب أن القوم منهم إذا عاهد سيدهم عهداً مع غيره لا ينقضه إلا هو أو أقرب الناس إليه من عصبته النسبية .

وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أبى بكر ﷺ أن يخالف المشركين : فيقف يوم عرفه بعرفه ولا يقف بجمع (مزدلفة) ولا يدفع من عرفة حتى تغرب الشمس ، ويدفع من جمع قبل طلوع الشمس .

وقرأ علي بن أبى طالب ﷺ يوم النحر عند الجمرة أول سورة براءة ، ونبذ إلى كل ذى عهد عهده وقال : إن رسول الله ﷺ يقول: لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وخطب أبو بكر ﷺ يوم النحر بعد الظهر على راحلته ، وأقام يرمى الجمار ماشياً ذاهباً وجائياً ، فلما رمى يوم الصدر هو (اليوم الرابع) ، وجاوز العقبة ركب ، وصلى بالأبطح الظهر والعصر ، وصلى بمكة المغرب والعشاء ، ثم خرج من ليلته قافلاً إلى المدينة^(٢) .

ولما علم العرب جميعاً بأن رسول الله ﷺ تبرأ من الشرك والمشركين ، ونقض العهود التى عاهدهم عليها ... وأعطاهم مهلة أربعة أشهر ليستريحوا فى الأرض آمنين ، ويختاروا لأنفسهم ما يريدون .

لما حدث ذلك أقبل على الإسلام من كان متردداً ... فأسلم مشركو مكة ... وأقبلت وفود معان ، وغسان من الشمال ، وغامد ، ونجران من الجنوب وهكذا جاءت الوفود من الأماكن النائية لتعلن تمام إسلام الجزيرة كلها ودخول أبنائها فى دين الله تعالى .

(١) المغازى ج ٣ ص ١٠٧٧ ، البداية والنهاية ج ٥ ص ٣٧ .

(٢) المغازى ج ٣ ص ١٠٧٨ .

- رابعاً -

حجة "الوداع"

وتحديد المعالم الكبرى في الإسلام

تمت حجة الوداع ، ويقال لها : حجة الإسلام ، وحجة البلاغ ، وحجة التمام .
أجمع ﷺ الخروج في ذى القعدة سنة عشر من مهاجرة ، وقد أسلمت جزيرة العرب ومن شاء الله من أهل اليمن ، فصرى الظهر بمسجد المدينة أربعاً ، وأذن فى الناس بالحج ، فقدم المدينة بشر كثير يريدون أن يأتوا برسول الله ﷺ ويعملوا بعمله ، وسار من المدينة متدهنا مترجلاً يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة ، ومعه أزواجه ، وأهل بيته ، وعامة المهاجرين ، فلما انتهى إليه اجتماع أصحابه والهدى دخل مسجد ذى الحليفة فصلى العصر ركعتين^(١) ، ثم خرج فدعا بالهدى فأشعره فى الجانب الأيمن بيده ووجهه إلى القبلة ، وقلده نعلين نعلين ثم ركب ناقته ، فلما استوى بالبيداء أحرم^(٢) .

وساق- مائة بدنة وأمر ناجية بن جندب- أن- يشعر ما فضل من المبدن- ، ولستعمله على الهدى- .- وكان- مع ناجية بن جندب- فتیان- من أسلم- .- وكانوا يسوقونها سوقاً ويتبعون بها الرعى ، وعليها الجلال ، فقال ناجية بن جندب : يا رسول الله ! أرأيت ما عطب منها كيف أصنع به ؟ قال ﷺ : تنحره وتلقى قلائده فى دمه ، ثم تضرب به صفحته اليمنى ، ثم لا تأكل منه ولا أحد من أهل رفقتك وأمر من كان معه هدى أن يهل كما أهل ، وسار وبين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله أمم لا يحصون كثرة : كلهم قد قدموا ليأتوا به ﷺ ويقال : كان معه تسعون ألفاً ، ويقال : مائة وأربعة عشر ألفاً ، ويقال أكثر من ذلك .

ومر ﷺ برجل يسوق بدنة ، فقال : اركبها ، ويلك !
قال : إنها بدنة .

قال : اركبها وكان يأمر المشاة أن يركبوا على بدنهم .

(١) صحيح البخاري - كتاب الحج ، باب الإهلال مستقبل القبلة - حديث : ١٤٨٨ .
(٢) صحيح مسلم - كتاب الحج ، باب تقليد الهدى وإشعاره عند الإحرام - حديث : ٢٢٥٩ .

وطيبته عائشة رضى الله عنها لإحرامه بيدها ، وأحرمت وتطيبت ، فلما كانوا بالقاحه سال من الصفرة على وجهها ، فقال : ما أحسن لونك الآن يا شقيراء .

وكان يصلى بين مكة والمدينة ركعتين أمثالاً لا يخاف إلا الله ، فلما قدم مكة صلى بهم ركعتين ثم سلم وقال : **أتموا صلاتكم يا أهل مكة فإننا سفر** .

وأصبح ﷺ يوم الأحد بيلملم^(١) ، ثم راح فتعشى بشرف. السبالة^(٢) وصلى المغرب والعشاء ، ثم صلى الصبح بعرق الظبية : بين الروحاء والسبالة ، وهو دون الروحاء ، ثم نزل الروحاء ، فإذا بحمار عقير فقال : دعوه حتى يأتى صاحبه ، فأهداه له ﷺ ، فأمر به أبا بكر ﷺ فقسمه بين الصحابة ، وقال : صيد البر لكم حلال إلا ما صدتم أو صيد لكم ، ثم راح من الروحاء فصلى العصر بالمنصرف ، وصلى المغرب والعشاء بالمتعشى وتعشى به ، وصلى الصبح بالأثاية ، وأصبح يوم الثلاثاء بالعرج .

ولما انتهى إلى الثنيتين بات بينهما بين كداء وكدى ثم أصبح فاغتسل ودخلها نهار الاثنين من ذى الحجة من أعلاها حتى انتهى إلى باب بنى شيبه فلما رأى البيت رفع يديه ، فوقع زمام راحلته فأخذه بشماله ، ثم قال حين رأى البيت : **اللهم زد هذا البيت تشريقاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً ، وزد من عظمه ممن حجه واعتمره تشريقاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً وبراً**^(٣) .

ولما دخل المسجد بدأ بالطواف قبل الصلاة .

وطاف راكباً على راحلته ، فلما انتهى إلى الركن استلمه وهو مضطجع بردائه ، وقال : **بسم الله والله أكبر** ، ثم رمل ثلاثة من الحجر إلى الحجر ، وكان يأمر من استلم الركن أن يقول : **بسم الله والله أكبر إيماناً بالله ، وتصديقاً بما جاء به محمد ﷺ** ، وقال فيما بين الركن اليمانى والأسود : **﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾**^(٤) .

ولم يستلم من الأركان إلا اليمانى والأسود ومشى أربعة أشواط على مهل .

(١) يلملم على مسيرة يومين من مكة عند الطائف ، وهو ميقات أهل اليمن .

(٢) السبالة موضع بين مكة والمدينة .

(٣) زاد المعاد ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٠١ .

ثم انتهى خلف المقام فصلى ركعتين يقرأ فيهما : ﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴾^(١) و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾^(٢) ثم عاد إلى الركن فاستلمه .

وقال لعمر رضي الله عنه : إنك رجل قوى ، إن وجدت الركن خالياً فاستلمه ، وإلا فلا تزاحم عليه فتؤذى .

وقال لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : كيف صنعت بالركن يا أبا محمد ؟ فقال : استلمت وتركت .

قال : أصبت .

ثم خرج إلى الصفا من باب بنى مخزوم ، وقال : أبدأ بما بدأ الله به وسعى على راحلته فصعد على الصفا فكبر سبع تكبيرات ، وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دعا بين ذلك ، ونزل إلى المروة ، فلما انصبت قدماه في الوادي رمل وقال في المشى : أيها الناس ، إن الله كتب عليكم السعى فاسعوا ، وسعى حتى انكشف إزاره عن فخذه ، وقال في الوادي : رب اغفر وارحم ، وأنت الأعز الأكرم ، فلما انتهى إلى المروة فعل عليها مثل ما فعل على الصفا ، فبدأ بالصفا وختم بالمروة .

وأقام بمكة يوم الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وكان يوم التروية يوم الجمعة ، فخطب قبل التروية بيوم بعد الظهر بمكة ، وقام يوم التروية بين الركن والمقام ، فوعظ الناس وقال : من استطاع أن يصلي الظهر بمنى فليفعل فصلى في حجته هذه صلاة أربعة أيام وهو مقيم بمكة حتى خرج إلى منى .

وركب حين زاغت الشمس في يوم التروية ، بعد أن طاف بالبيت فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح بمنى .

ثم أصبح فسار إلى عرفة ، ولم يركب من منى حتى رأى الشمس قد طلعت ، فركب إلى عرفة ، ونزل بنمرة ، وقد ضرب له بها قبة من شعر ، ويقال : إنما قال إلى فئ صخرة ، وميمونة رضى الله عنها تتبع ظلها حتى راح ، وأزواجه في قباب خز فلما كان حين زاغت الشمس أمر براجلته القصواء ، فرحلت برجل رث وقطيفة

(١) سورة الكافرون ، الآية ١ .

(٢) سورة الإخلاص ، الآية ١ .

لا تسوى أربعة دراهم ، فلما توجه قال : اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة ، ثم أتى بطن عرنة ، وكانت قریش لا تشك أنه لا يتجاوز المزدلفة يقف بها ، فقال نوفل بن معاوية الديلمي وهو يسير إلى جنبه : يا رسول الله ظن قومك أنك تقف بجمع .

فقال ﷺ : لقد كنت أقف بعرفة قبل النبوة خلافاً لهم .

وكانت قریش كلها تقف بجمع إلا شيبه بن ربيعة من بينهم فإنه كان يقف بعرفة . وخطب ﷺ حين زاغت الشمس ، ببطن عرنة على ناقته فلما كان آخر خطبته أذن بلال وسكت ﷺ من كلامه ، فلما فرغ بلال من أذانه تكلم بكلمات وأناخ راحلته ، وأقام بلال. فصلی عليه السلام الظهر ، ثم أقام العصر .: جمع بينهما بأذان وإقامتين ، ثم ركب ، وهو يشير بيده إلى الناس : ارتفعوا إلى عرفة ، وكان من خطبته بعرفة قبل الصلاتين :

أيها الناس إني والله ما أدرى لعلی لا ألقاكم بمكانی هذا ، بعد يومكم هذا رحم الله امرءا سمع مقالتي فوعاها ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، واعلموا أن أموالكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، واعلموا أن الصدور لا تغل على ثلاث ، إخلاص العمل لله ، ومناصحة أهل الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ، ألا إن كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، وأول دماء الجاهلية أضع دم إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب كان مسترضعاً في بني سعد بن بكر فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع كله ، وأول ربا أضعه ربا عباس بن عبد المطلب ، اتقوا الله في النساء إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن عصيتم به : كتاب الله ، وأنتم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون ؟

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، ثم قال بإصبعه السبابة يشير إلى السماء يرفعها ويكبها ثلاثاً : اللهم اشهد .

ووقف على راحلته حتى غربت الشمس يدعو ونزل عليه وهو واقف بعرفة قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

ومال إلى شعب الأذاخر ، عن يسار الطريق بين المأزمتين فقضى حاجته ، ولم يصل حتى نزل. قريباً من المدار. التي على قزح .، وصلى المغرب. وللعشاء بالمزدلفة بأذان واحد لهما ، وبإقامتين ، لكل صلاة منهما إقامة ، ولم يسبح بينهما ، ولا أثر واحدة منهما ، فلما كان في السحر أذن لمن استأذنه من أهل الضعف من الذرية والنساء في التقدم من جمع قبل حطمة الناس وحبس نساءه حتى دفعن بدفعه حين أصبح ، فرمى الذين تقدموا الجمرة قبل الفجر أو مع الفجر .

ولما برق الفجر صلى عليه السلام الصبح ، ثم ركب راحلته ووقف على قزح . وأردف. الفضل بن العباس من مزدلفة إلى منى ، وقال هذا. الموقف وكل المزدلفة موقف ، وحمل حصى العقبة من المزدلفة ، وأوضع في وادى محسر ولم يقطع التلبية حتى رمى الجمرة ورمى جمرة العقبة يوم النحر على ناقته، بلا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك .

ولما انتهى إلى المنحر قال : هذا المنحر ، وكل منى منحر ، وكل فجاج مكة طريق ومنحر ، ثم نحر بيده ثلاثاً وستين بدنه بالحرية ، ثم أعطى رجلاً فنحر ما بقى .

ولما فرغ من نحر الهدى دعا الحلاق فحلق .

وخطب في حجته ﷺ ثلاث. خطب : الأولى قبل التروية بيوم بعد الظهر بمكة ، والثانية يوم عرفة بعرفة بعد الظهر على راحلته القصواء ، والثالثة يوم النحر بعد الصلاة ، وكانت خطبة يوم النحر أطولها وأهمها ، لأنه ﷺ وضع فيها

(١) سورة المائدة ، الآية ٣ .

المعالم الكبرى فى الإسلام وهو يودع أصحابه عند الموقف العظيم ، وهذا نص خطبة النحر كما ذكرها ابن هشام والمقرئون وغيرها .

أيها الناس ! اسمعوا من قولى واعقلوه ، فإنى لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا أيها الناس ! أى شهر هذا ؟ فسكتوا .

فقال : هذا شهر حرام .

وأى بلد هذا ؟ فسكتوا ، فقال : يلد حرام .

وأى يوم هذا ؟ فسكتوا قال : يوم حرام .

ثم قال : إن الله حرم دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، حرمة شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى يومكم هذا إلى أن تلقوا ربكم ، ألا هل بلغت !

قالوا : نعم .

قال : اللهم اشهد !

ثم قال : إنكم سوف تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا هل بلغت ؟

قال الناس : نعم !

قال : اللهم اشهد ! ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، ألا وإن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأول دماءكم أضع دم إياس بن ربيعة بن الحارث ، كان مسترضعاً فى بنى سعد بن ليث فقتلته هذيل ، ألا هل بلغت ؟

قالوا : اللهم نعم !

قال : اللهم اشهد ! فليبلغ الشاهد الغائب ، ألا إن كل مسلم محرم على كل مسلم ، ولا يحل مال امرئ مسلم إلا ما أعطى عن طيب نفس .

فقال عمرو بن يثربى : يا رسول الله ! رأيت إن لقيت غنم ابن عمى اجتزر

منها شاة ؟

فقال : إن لقيتها نعجة تحمل شفرة وأزناداً بختب الجميش فلا تهجها .

ثم قال : أيها الناس ! ﴿ إِنَّمَا أَلْهَيْتُ زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا مُجْلُونَ عَامًا وَمُحَرَّمُونَ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ (١) .

يحرمون ما أحل الله ، ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي يدعى شهر مضر : الذي جاء بين جمادى الآخرة وشعبان ، والشهر تسعة وعشرون وثلاثون ، ألا هل بلغت ؟

فقال الناس : نعم

فقال : اللهم اشهد .

ثم قال : أيها الناس إن للنساء عليكم حقاً ، وإن لكم عليهن حقاً : فعليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً ولا يدخلن بيوتكم أحداً تكرهونه إلا بإذنكم ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وأن تضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟

قال الناس : نعم !

قال : اللهم اشهد .

أيها الناس : إن الشيطان قد ينس أن يعبد بأرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه من أعمالكم ، إن المسلم أخو المسلم ، وإنما المسلمون إخوة ، ولا يحل لامرئ مسلم دم أخيه ولا ماله إلا بطيب نفس منه ، وإنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم ، وحسابهم على الله ، ولا تظلموا أنفسكم ، ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، إني قد تركت فيكم ما لا تضلون به : كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟

(١) سورة التوبة ، الآية ٣٧ .

قال الناس : نعم .

قال : اللهم اشهد^(١) .

وقد تضمنت الخطبة القضايا التالية :

- ١ . بيان ما لمكة وأشهر الحج ويوم النحر من حرمة تدعو المسلم إلى المحافظة عليها .
 - ٢ . تحريم العدوان على المسلم وضرورة المحافظة على كيانه الإنسانى الكامل وأن حرمة الإنسان لا تقل عند الله عن حرمة مكان الحج وزمنه ويومه .
 - ٣ . توضيح إطار المسؤولية الدينية التى يلتزم الإنسان بها فى صدق وأمانة وإخلاص بعيداً عن المحسوبية ، والعنصرية والمحاباة .
 - ٤ . ضرورة الفصل التام بين ما كان فى الجاهلية وما جاء به الإسلام . فلا استمرار لعادة ، ولا تقدير لحكم سابق إن خالفة الإسلام أو هدمه .
 - ٥ . الزمان ثابت لا يتغير وهو يدور مع الأيام والشهور ولا يصح تغييره للهوى والعبث .
 - ٦ . بيان أن المرأة صنو الرجل فى المسؤولية والجزاء ، ولهن حقوقهن فى إطار خلقتهن ، وعلى الرجل أن يحترم فى المرأة إنسانيتها ، وأن يتقى الله تعالى وهو يعاملها .
 - ٧ . على المسلمين أن يعلموا أن عدوهم الأكبر هو إبليس اللعين ، وهم مكلفون بمقاومته والحذر من أفاعيله .
 - ٨ . وكان ﷺ يشهد الناس عن كل قضية يذكرها لهم ويبرئ ذمته أمام ربه ويناديه اللهم فاشهد .
 - ٩ . حمل رسول الله ﷺ المسؤولية للمسلمين ، وأشهد الله على أنه أدى الأمانة وبلغ الرسالة .
- وبذلك وضح للمسلمين أهم ما يحتاجون إليه من توجيهات ودروس .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٥١٠ - ٥٣٢ ، سيرة النبى لابن هشام ج ٢ ص ٦٠٣ ، ٦٠٤ .

- خامساً -

آخر بعوث النبي ﷺ بعث "أسامة"

كبر على الرومان أن ينضم اتباعهم السابقون من عرب الشمال إلى ركب الإسلام واتباع محمد ﷺ فأخذوا في اضطهاد من يعلن إسلامه ، وقتلوا وإلى "معان" بعد دخوله في الإسلام وانضمامه إلى المسلمين ... فكان لابد من تلقين الرومان درساً يعلمون به أن محمداً لن يترك أتباعه ، ويدركون أن عاقبة عدوانهم ستتقلب عليهم ... وأن مصلحتهم في تجنب معاداة المسلمين ، وعدم الاستهانة بهم وبدينهم فأخذ ﷺ في أوائل العام الحادي عشر بتجهيز جيش ضخم وأمر عليه الصحابي "أسامة بن زيد" ﷺ ولم يبلغ بعد الثامنة عشرة ، وجعل في الجيش كبار الصحابة وأمر ﷺ أسامة أن يطأ أرض الروم ، ولا يتعمق في المسير لتحقيق هدف واضح يؤدي إلى إرهاب الروم ، ويمنعهم من العدوان على المسلمين والتعدى على بلادهم ... وقد تم تجهيز الجيش ، واستعد للرحيل ، وشاءت إرادة الله تعالى أن تكون حركته في أول عهد أبي بكر ﷺ بعدما لقي رسول الله ربه في هذه الأثناء .

ولعل من أوضح دروس هذا البعث تولية أسامة إمارة الجيش ليكون درساً للشباب الإسلامي ليعلموا دورهم في بناء الأمة ، ويتيقنوا من أهميتهم في المحافظة على قوتها ... وقد انضم كبار الصحابة إلى جيش أسامة طاعة لرسول الله ﷺ ، وحباً في الجهاد ، وإبقاء لضرورة طاعة أمر الله ورسوله على الزمن كله ، وتقديم النص الصريح على أي اجتهاد عقلي مهما كانت دقته ووضوحه .

وسيأتى تفصيل بعث أسامة حين نتناول بالدراسة تاريخ الدعوة في عهد أبي

بكر ﷺ .

المبحث السادس عشر

انتقال الرسول إلى الله تعالى

أسلمت الجزيرة كلها ، وتأكدت حقائق الدين بكل جوانبه ، فتمت مصادره ، وتحددت معالمه ، ونزل كل ما يحتاجه الإسلام من وحى الله تعالى ولذلك نزل قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ^(١) .

وقد فهم كثير من الصحابة من هذه الآية نعى رسول الله ^(٢) وإخبار بقرب انتقاله ﷺ إلى الله تعالى ، لأن الرسالة هي غاية مجئ محمد ﷺ إلى الدنيا ، فإذا ما كملت الرسالة وتم الدين ونزل ما رضىه الله للناس لم يعد هناك داع لبقاء رسول الله ﷺ في الحياة بين الناس .

وقد أعد الله الأمة لتقبل رحيل رسول الله ﷺ فدارس جبريل عليه السلام محمداً ﷺ بالقرآن في رمضان الأخير مرتين ، وكان يدارسه قبل ذلك في كل رمضان مرة واحدة .

وعلم النبي أصحابه على إدارة شئون الحياة ، والمحافظة على الإسلام ، والحركة بالدعوة عن طريق قيادة السرايا ، وإدارة شئون المدينة ، وإقامة الصلاة ، والدعوة إلى الإسلام فرادى وجماعات ، في إطار تعاليم الله الثابتة ، ومنهجه الذى يحرص المسلمون على تطبيقه ، وصيانتته من كل عبث ، والدفاع عنه ضد كل معتد أثيم .

وبكل هذا أدى الرسول وظيفته ، وأتم الغاية التى خلق لها ، ووصل إلى النهاية . وجاء وقت الرحيل ، فاعتكف ﷺ في رمضان من العام العاشر عشرين يوماً وكان يعتكف قبل ذلك عشراً ، وجاءه جبريل فدارسه القرآن مرتين ، وكان يدارسه قبل ذلك مرة واحدة ، وقال لأصحابه في حجة الوداع : **إني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا ... وكرر ذلك .**

(١) سورة المائدة ، الآية ٣ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب مرض رسول الله ﷺ ج ٧ ص ٩٣ .

يقول ابن مسعود : نعى إلينا نبينا وحبينا نفسه قبل موته بشهر ، حين دنا الفراق جمعنا فى بيت عائشة رضى الله عنها ، فنظر إلينا فشدد ودمعت عيناه وقال : مرحباً بكم ، حياكم الله ، رحمكم الله ، آواكم الله ، حفظكم الله ، رفعكم الله وفقكم الله ، سلمكم الله ، قبلكم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، واستخلفه عليكم ، وأودىكم إليه ، إني لكم منه نذير وبشير ألا تغفلوا على الله فى عباده ، وبلاده فإنه قال لى ولكم : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(١) .

قلنا : فمتى أجلك ؟

فقال ﷺ : دنا الفراق والمنقلب إلى الله ، وسدرة المنتهى ، والرفيق الأعلى وجنة المأوى .

فقلنا : من يغسلك ؟

فقال : أهلى .

قلنا : فيم نكفئك ؟

قال : فى ثيابى أو فى بياض .

قلنا : فمن يصلى عليك ؟

قال : مهلاً ، غفر الله لكم ، وجزاكم عن نبيكم خيراً ، فبكينا وبكى ، ثم قال : ضعوني على سريري على شفير قبري ، ثم اخرجوا عنى ساعة ليصلى على جبرائيل وإسرافيل وميكائيل وملاك الموت مع الملائكة ، ثم ادخلوا على فوجاً فوجاً فصلوا على ولا تؤذوني بتزكية ولا رنة ، أقرئوا أنفسكم منى السلام ، ومن غاب من أصحابي فأقرئوه منى السلام ، ومن تابعكم على ديني فأقرئوه السلام^(٢) .

وفى أوائل صفر من العام الحادى عشر للهجرة خرج النبى ﷺ إلى جبل أحد ليودع الأموات كالأحياء ، ثم خطب فى أصحابه وقال : إني بين أيديكم فرط ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإنى أنظر إليكم من مقامى هذا ، وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدى ، ولكنى أخاف عليكم أن تنافسوها^(٣) .

(١) سورة القصص ، الآية ٨٣ .

(٢) الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٣١٩ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب غزوة أحد ج ٦ ص ٢٨٦ .

وفى ليلة من ليالى صفر من نفس العام. خرج إلى البقيع وخاطب الموتى قائلاً: السلام عليكم يا أهل المقابر ليهن عليكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى^(١) ... وإنا بكم للاحقون ، ولما رجع ﷺ من البقيع وجد عائشة تشكو ألماً وتقول وأرأساه .

فقال ﷺ : بل أنا والله يا عائشة وأرأساه ، وما ضرك لو مت قبلى فقامت إليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك .

قالت رضى الله عنها :. والله لكأنى بك لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نساءك .

فتبسم رسول الله ﷺ ، ونام به وجعه وهو يدور على نسائه ، حتى اشتد عليه المرض وهو فى بيت ميمونة^(٢) .

وفى يوم الاثنين التاسع والعشرين من صفر بدأ مرض رسول الله ﷺ الأخير الذى استمر أربعة عشر يوماً .

ولما ثقل المرض برسول الله ﷺ أخذ يسأل : أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً^(٣) ؟ يستعجل يوم عائشة رضى الله عنها ففهم الصحابة ، وفهمت أمهات المؤمنين مراد النبى ﷺ بسؤاله فأذن له أن يستمر عند عائشة مدة مرضه ... فانتقل ﷺ إلى بيت عائشة يمشى بين الفضل بن عباس وعلي بن أبى طالب وذلك بعد مرضه بسبعة أيام^(٤) .

ثم إنه ﷺ خرج يوماً بين العباس. وعلى حتى جلس على المنبر فحمد الله تعالى ثم قال :

أيها الناس إنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخش الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقاً إن كان له أو حللنى فلقيت

(١) الكامل ج ٢ ص ٣١٨ .

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣١٨ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب مرض النبى ﷺ ج ٧ ص ١٠٢ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب مرض النبى ﷺ ج ٧ ص ٩٨ .

ربى وأنا طيب النفس ، ثم نزل فصلى الظهر ثم رجع إلى المنبر فعاد لمقاتلته الأولى ، فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم ، فأعطاه عوضها ، ثم قال : أيها الناس من كان عنده شئ فليؤده ولا يقل فضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ، ثم قال : إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده^(١) .

وفى يوم الأربعاء قبل وفاته بخمسة أيام قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت عائشة يا رسول الله : إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل بالناس ، ثم ذهبت لحفصة وقالت لها : قولى لرسول الله إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل بالناس ، ففعلت حفصة ، فقال رسول الله ﷺ : مه إنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس^(٢) .

ثم إن النبی ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين العباس وعلى لصلاة الظهر وأبو بكر يصلى بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن لا تتأخر وقال لهما : اجلساني إلى جنبه فأجلساه إلى جنب أبي بكر الأيسر ، فكان أبو بكر يصلى وهو قائم بصلاة النبي ﷺ والناس يصلون بصلاة أبي بكر^(٣) وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما أنه لما نزل برسول الله ﷺ الممرض طفق يطرح خميصة على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها ، فقال ﷺ وهو كذلك : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا . وقال ﷺ : "قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحرم ذلك على أمته . تقول عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً^(٤) . وعن ابن عباس أن على بن أبى طالب خرج من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الذى مات فيه فسأله الناس : يا أبا حسن كيف أصبح رسول الله ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئاً

(١) الكامل ج ٢ ص ٣١٩ .

(٢) سيرة النبي ج ٢ ص ٦٥٢ .

(٣) سيرة النبي ج ٢ ص ٦٥٣ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب مرض النبي ﷺ ج ٧ ص ٩٩ .

فأخذ العباس بن عبد المطلب بيد علي وقال له : يا علي أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، وإنني والله لأرى رسول الله يتوفى من وجعه هذا ، إنني لأعرف بنى عبد المطلب عند الموت اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر بعده ؟ إن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصي بنا .

فقال علي : إنا لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس من بعده ، وإنني والله لا أسأله رسول الله^(١) .

وقال رسول الله ﷺ لعائشة : ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم^(٢) .

يقول ابن إسحاق : فكان المسلمون يرون أن رسول الله مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة .

تقول عائشة رضي الله عنها : لَدَنَّا (رسول الله) ﷺ في مرضه ، فجعل يشير إلينا أن لا تلدونى ، فقلنا : يقول ذلك كراهية المريض للدواء ، فلما أفاق قال : ألم أنحكم أن تلدونى ؟

قلنا : فهمناه كراهية المريض للدواء .

فقال ﷺ : لا يبقى أحد في البيت إلا لد قصاصاً وأنا أنظر ، فلدوا جميعاً إلا العباس فإنه لم يشهد معهم .

وزاد ألم المرض برسول الله ﷺ في يوم الخميس قيل وفاته بأربعة أيام . يقول ابن عباس ؓ : يوم الخميس وما يوم الخميس ، اشتد برسول الله وجعه فقال :

ائتنوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً ، فتنازعوا ، ولا ينبغي عند نبي تنازع .

فقال عمر : إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب كتاباً لا تضلوا بعده ، ومنهم من يقول : غير ذلك .

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب مرض النبي ﷺ ج ٧ ص ١٠٠ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب مرض النبي ﷺ ج ٧ ص ٩٣ .

فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال ﷺ : قوموا عنى ، فكان ابن عباس يقول :
إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب ذلك الكتاب وذلك
لاختلافهم ولغظهم^(١) .

ويجب أن يكون واضحاً أن ما أراد رسول الله كتابته كان أمراً عادياً لأنه لو
كان من واجبات الشريعة لكتبه ﷺ بلا تأثر بكلام عمر أو بكلام غيره لسابق حسمه
فى أمور الدين ، وأيضاً فقد سبق ذلك إعلان تمام الدين وكماله .
وحكمة الله فى عدم كتابة أمر فى هذا الوقت واضحة منعاً لمن يقول : إن
المريض قد يختلف عليه عقله إذا اشتد مرضه .

فاذا ما تصورنا أنه ﷺ كان يريد أن يعهد لأبى بكر رضى الله عنه فى الكتاب الذى كان
يريده كما رجح البعض فإنه دليل على ثانوية الأمر ، وحتى يبقى هذا الشأن شورى
بين المسلمين لم يغيره ﷺ كلام عمر ولا غيره .

وكان ﷺ قد قال لعائشة فى مرضه هذا : لقد هممت أن أبعث إلى أهلك
وأخيك فأكتب كتاباً وأعهد عهداً لنلا يتمنى متمن أو يقول قائل : أنا أولى وأبى
الله والمؤمنون إلا أبى بكر ، فلم يكن والله أعلم الكتاب الذى أراد أن يكتب
إلا فى استخلاف أبى بكر .

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفس على نفسه بالمعوذات ومسح
عنه بيده ، فلما اشتكى وجعه الذى مات فيه طفت أنفـس عنه بالمعوذات التى كان
ينفس ، وأمـسح بيد النبى ﷺ عنه لبركتها .

ولما كان يوم الاثنين والناس فى صلاة الفجر وأبو بكر يصلى لهم لم يفاجأهم
إلا رسول الله يكشف ستر حجرة عائشة ، فنظر إليهم وهم صفوف فى الصلاة ، ثم
تبسم يضحك سروراً باستقامة أمر الناس وإخلاصهم مع الدين لله وهو ليس معهم ،
فنكص أبو بكر على عقبية ليصل الصف ، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج
إلى الصلاة ، وهم الناس أن يفتتوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم
بيده رسول الله أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر^(٢) ، وانصرف الناس
وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أفاق من وجعه فرجع أبو بكر إلى أهله بالسـنح حيث

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب مرض النبى ﷺ ج ٧ ص ٩٤ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب مرض النبى ﷺ ج ٧ ص ١٠١ .

كان مسكنه .

ومع هذا التصور الذى شعر به المسلمون بعد صلاة الفجر كانت هى الصلاة الأخيرة لرسول الله ﷺ حيث توفى صباح يوم الاثنين وهو عند عائشة رضى الله عنها .

تقول عائشة : إن من نعم الله على أن رسول الله توفى فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى ، وأن الله جمع بين ريقى وريقه ، ودخل على عبد الرحمن وبيده سواك وأنا مسندة رسول الله إلى صدرى فرأيتته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناوله فاشتد عليه ، وقلت : ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فلينته بأمره فاستن به وهو مستند إلى صدرى ، وبين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ويقول : لا إله إلا الله ، إن للموات سكرات^(١) .

وكان رسول الله ﷺ يقول : إنه لن يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخير ، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشى عليه ، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال : اللهم اغفر لى وارحمنى ، وألحقنى بالرفيق الأعلى مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اللهم الرفيق الأعلى فكان آخر كلمة تكلم بها : اللهم الرفيق الأعلى^(٢) .

فلما رأت عائشة رضى الله عنها شدة الموت التى لحقت برسول الله ﷺ قالت : فلا أكره شدة الموت لأحد بعد رسول الله ﷺ^(٣) .

ولم يترك النبي ﷺ مالا ، وخرج من الدنيا وهو مدين يقول عمرو بن الحارث : ما ترك النبي ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها ، وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة .

وعن عائشة : توفى رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعاً من شعير^(٤) .

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب مرض النبي ﷺ ج ٧ ص ٩٦ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب مرض النبي ﷺ ج ٧ ص ٩٩ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب مرض النبي ﷺ ج ٧ ص ١٠٥ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب مرض النبي ﷺ ج ٧ ص ١٠٦ .

وعن أنس بن مالك قال : لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه ، فقالت فاطمة : واكرب أباه .

فقال لها ﷺ : . ليس على أهلك كرب. بعد اليوم. ، فلما مات. قالت : يا أبتاه أجاب ربا دعاه ، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه . فلما دفن قالت فاطمة : يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله التراب^(١) ؟

وعن عائشة قالت : دعا النبي ﷺ فاطمة في شكواه التي قبض فيها فسارها فبكيت ، ثم دعاها فسارها فضحكت ، فسألناها عن ذلك فقالت : سارني أنه يقبض في وجعه ، الذي توفي فيه فبكيت ، ثم سارني فأخبرني أني أول أهل بيته يتبعه فضحكت^(٢) .

وتوفي رسول الله ﷺ صباح يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة مثل الوقت الذي دخل فيه المدينة^(٣) ومثل اليوم الذي ولد فيه . وعن أنس بن مالك قال : . مر أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال : ما يبكيكم ؟ فقالوا : ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا .

فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك ، فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاضية برد فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشى وعيني ، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم ، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم^(٤) .

وعن ابن عباس قال : خرج النبي ﷺ وعليه ملحفة منعظاً بها على منكبيه ، وعليه عصاة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح للطعام

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب مرض النبي ﷺ ج ٧ ص ٩٥ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب مرض النبي ﷺ ج ٧ ص ٩٥ .

(٣) سيرة النبي ج ٢ ص ٦٥٥ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب قول النبي ﷺ اقبلوا من محسنهم ج ٦ ص ١٥٤ .

، فمن ولى منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه ، فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم^(١) .

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ مات. وأبو بكر بالسنح ،. حيث كان. مسكنه بالعالية ، فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله ، ولكنه ذهب لملاقاة ربه كما ذهب موسى ﷺ لملاقاة ربه أربعين يوماً وسيرجع والله ما كان في نفسه إلا ذلك وليبعثه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم .

فجاء أبو بكر على فرس من منزله بالسنح حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيمم رسول الله وهو مغشى بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً ، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً .

ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : اجلس يا عمر ، فأبى عمر أن يجلس فقال له أبو بكر : أيها الحالف على رسلك ... فأقبل إليه الناس وتركوا عمر ، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْفَكُونَ عَنْ قُلُوبِهِمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ وَمَنْ يَنْفَكْ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾^(٣) .

فأخذ الناس. يبكون. وقد تيقنوا. موت. رسول. الله ﷺ يقول. ابن عباس. :. والله لكأنى بالناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها .

وقال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعفرت حتى ما تقلنى رجلاي ، وحتى هويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، وعلمت أن رسول الله قد مات^(٤) .

(١) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب قول النبى اقبلوا من محسنهم ج ٦ ص ١٥٥ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٣٠ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٤٤ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب مرض النبى ﷺ ج ٧ ص ١٠٤ .

ولما عرفوا أنه ﷺ مات. دهش الناس. وطاشت عقولهم ،. فمنهم من خبل ، ومنهم من أصمت ، ولم يكن أثبت وأحزم من أبي بكر والعباس^(١) .
وقد قضى المسلمون بقية يوم الاثنين ويوم الثلاثاء فى اختيار خليفة رسول الله بعد وفاته وبعد مشاورات تمت بيعة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة ووقى الله المسلمين شر الفتنة .

ولما فرغ الناس من بيعة أبى بكر ، وجمعهم الله على خليفة واحد ، وصرف عنهم كيد الشيطان أقبلوا على تجهيز نبيهم .

يروى ابن إسحاق بسنده أن على بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب وقتم بن العباس ، وشقران مولى رسول الله ، وأسامة بن زيد هم الذين تولوا غسله ، وأن أوس بن خولى - وكان بدرياً - دخل معهم ، وحضر غسل رسول الله ، وأسندته إلى صدره ، وكان العباس والفضل وقتم يقبلونه معه ، وكان أسامة بن زيد وشقران هما اللذان يصبان الماء عليه ، وعلى يغسله بعدما أسندته إلى صدره ، وعليه قميصه يدلكه به من ورائه لا يفضى بيده إلى رسول الله ، وعلى يقول : بأبى أنت وأمى ما أطيبك حياً وميتاً ، ولم ير من رسول الله ما يرى من الميت^(٢) .

حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت : لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه فقالوا : والله ما ندرى أنجرد رسول الله من ثيابه ؟

فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا ذقنه فى صدره ، ثم كلمهم مكرم من ناحية البيت لا يدرون من هو أن غسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه ، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه ،. يصبون الماء فوق القميص ، ويدلكون. وللقميص دون أيديهم ،. فلما فرغوا من غسله كفنوه فى ثلاثة أثواب صحاريين وبرد وحبرة أدرج فيه أدرجاً .

وحدثنى حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ تساءلوا عن طريقة الحفر هل يحفرون كحفر أهل مكة أو كحفر أهل المدينة ؟ وكان أبو عبيدة بن الجراح يحفر كحفر أهل مكة وكان أبو طلحة زيد بن سهيل هو الذى كان يحفر لأهل المدينة وكان يلحد .

(١) مختصر السيرة ص ٤٦٠ . ٤٦٥ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب مرض النبي ﷺ ج ٧ ص ١٠٣ .

فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما : اذهب إلى أبي عبيدة ، وللاخر اذهب إلى أبي طلحة ثم دعا الله قائلاً : اللهم خر لرسول الله ، فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة فجاء به فلحد لرسول الله .

فلما فرغ الصحابة من جهاز رسول الله يوم الثلاثاء وضع سريره في بيته وقد اختلف المسلمون في دفنه فقال قائل : ندفنه في مسجده .

وقال قائل : بل ندفنه مع أصحابه .

فقال أبو بكر : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض ، فرفع فراش رسول الله الذي توفي عليه فحفر له تحته .

ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ أرسالاً يصلون عليه عشراً عشراً ، حتى إذا فرغ الرجال دخل النساء ، حتى إذا فرغ النساء دخل الصبيان ، ولم يؤم الناس على رسول الله أحد وقاموا بدفنه ﷺ والنساء عنه بعيد تقول عائشة رضى الله عنها : ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء .

وكان الذين نزلوا في قبره على بن أبي طالب والفضل وقثم بن العباس . وشقران مولاه وأوس بن خولى ، وجعلوا تحته ﷺ قطيفة كان يلبسها ويفترشها وكان آخر الناس عهداً به قثم بن عباس .

وبعد مدة ذهب أبو بكر وعمر لزيارة أم أيمن رضى الله عنها كما كان رسول الله يفعل ، فلما رأتهما بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ؟ ما عند الله خير لرسوله . قالت : والله ما أبكى أن لا أكون أعلم ما عند الله خير لرسوله ، ولكنى أبكى لأن الوحي انقطع من السماء ... فهيجتهما على البكاء فأخذا يبكيان^(١) .

وهكذا ...

انتقل رسول الله ﷺ إلى الله تعالى وترك من ورائه أمة تحمل الأمانة ، وتقدر المسؤولية ... وتعلم عن يقين أن الله تعالى سيحاسبها بميزان الوحي الذي تركه ﷺ في الناس ، ليكون شاهداً فيهم ...

(١) صحيح مسلم . كتاب الفضائل . باب فضائل أم أيمن ج ١٦ ص ٩ ، ١٠ .

انتقل رسول الله ﷺ إلى الله بعد أن تترنم الإسلام وكمل ، وصار كل شئ بينا حكمه ، معروفة جنباته ... حيث لا عذر بعد ذلك لناقض ، أو كسول ... ولا أهمية لعداوة أو نفاق .

انتقل رسول الله ﷺ إلى ربه بذاته ، وترك في أمته الوحي كله ، وعرفهم أنه ترك لهم ما فيه كل الفلاح والهدى ... يقول ﷺ : تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتي^(١) .

انتقل الرسول ﷺ إلى ربه بعد أن وضع لأمته طريقة الحياة بعزة ، وكرامة ، وأخلاق وبعد أن وضع أيديهم على الحقائق التالية :

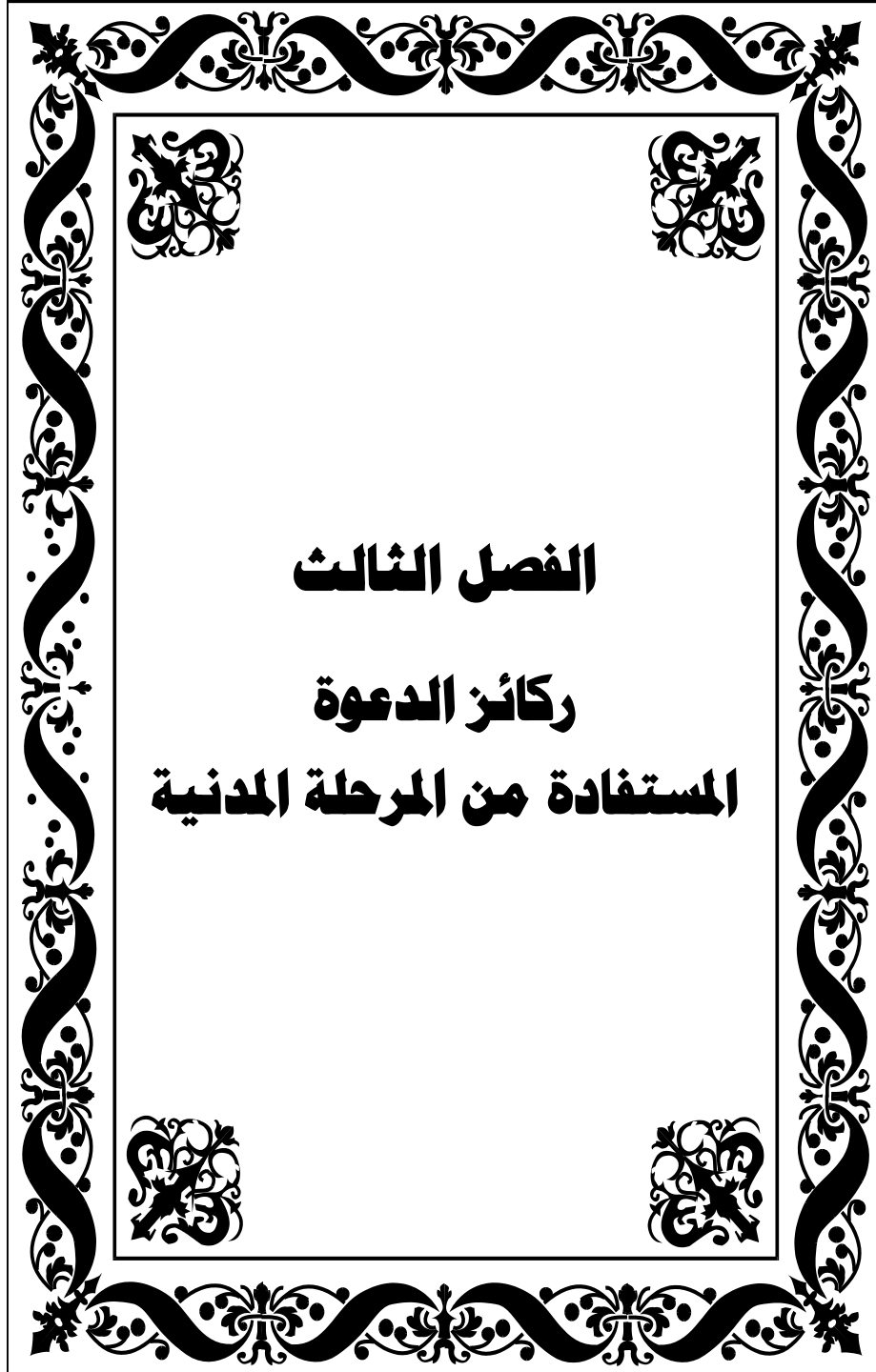
١ . الإنسان متميز عن سائر المخلوقات بحقوق تناسبه ولا بد من المحافظة عليها ، والوفاء بواجباتها بالمنهج الذي عاشه الرسول ﷺ وصحابته .

٢ . القوة المادية أساس حماية العزة والكرامة ... والضعفاء لا ينالون إلا الهوان ، والذل وضياع الحقوق .

٣ . الإسلام أمانة في عنق كل مسلم ... ومصادره وتعاليمه واضحة بينه ... ولا عذر لمسلم في البعد عن الإسلام بصورة كلية أو جزئية ... ولا عذر للأمة إن قصرت في واجباتها الإسلام .

٤ . سينتقل الجميع إلى الله وسيحاسبون. على كل ما قدموا. ولن ينفع إلا الصدق ، والإيمان ، والعمل الصالح ، وسيجزى كل نفس بما عملت ... وما ربك بظلام للعبيد .

(١) فيض القدير ج ٣ ص ٢٤٠ .



تمهيد :

سيرة النبي ﷺ زاد وفير للإنسانية كلها ، وللمسلمين على الخصوص .
فهو ﷺ صورة شاملة للإسلام ، يجمع كل حقائقه ، ويوضح كافة جوانبه جعله
الله تعالى منبع العلوم والمعارف ، وخصه بنزول الوحي والتنزيل ، ووكله بجبريل
عليه السلام يلقى إليه القرآن ، ويوحى إليه بالأحاديث ... وكل باحث عن شئ في الإسلام
فمرجعته رسول الله ، ومصدره ما أوحى إليه ﷺ .

وهو ﷺ تطبيق عملي للوحي المنزل . ، وتجسيد بشري لتعاليم الله تعالى ،
فعمله حجة ، وسلوكه طريق ، ومعاشه وحياته أسوة للناس أجمعين .
ولم يكن اهتمام علماء المسلمين بالسيرة النبوية إلا إبرازاً لمناط الأسوة والقدوة
نظرياً وعملياً ، ولتبقى بين العالمين منارة هدى ، ومصدر إشعاع وخير .

وحين أعاننى الله تعالى على كتابة السيرة النبوية حاولت أن ألم بأحداثها
جميعاً لتكون صفحة واضحة أمام من يطلع عليها لدرجة تغنيه عن أمهات الكتب ،
والمصادر القديمة للسيرة النبوية مع الإشارة إلى ما يستفاد من أحداثها واضحاً
الحدث في صورته الناطقة بدورة في تحقيق الخير وصيانة الحقوق ، وحاولت بعد
ذلك أن أكتب بعض الركائز المفيدة للدعاة المعاصرين ولكافة المسلمين ، حتى لا
تنتقطع الأمة المسلمة عن ماضيها ، وبذلك تعيش الحاضر بروح الماضى ، وتعيد
الماضى فى صورة العصر الحديث .

وليعلم الجميع أنه لا جديد عن الدعوة إلى الله تعالى بعد رسول الله ﷺ وكل
ما جاء بعد عصره ﷺ فهو مستمد منه وراجع إليه .

وكل مسلم يبتعد عن رسول الله فهو بعيد عن الحق والصواب .
إن- رسول- الله ﷺ ترك- للناس- الإسلام- حقيقة كاملة خالية من المعوج
والاضطراب وترك أمته تطبيق الإسلام وتلتزم به ... وعرفهم أن الفوز والفلاح فى
إتباع وحى الله تعالى ، والالتزام الدقيق بالإسلام .

وقد أوجب الله تعالى الدعوة إلى دينه سبحانه وتعالى وكلف الأمة الإسلامية
بأن تبلغ الإسلام للناس بالكيفية التى دعا بها رسول الله وصحابته رضوان الله
عليهم أجمعين .

وفى هذا الفصل أورد أهم الركائز المستفادة من سيرة رسول الله فى المدينة
المنورة ، وذلك فى المباحث التالية :

المبحث الأول

ضرورة بناء الأمة الإسلامية

”قاعدة الدعوة“

الإسلام دين الله تعالى أنزله للناس ليسعدوا به ، وكلف المسلمين أن يقوموا بالدعوة إليه ، وأداء الأمانة التي حملهم الله بها .

وقضية الدعوة ليست أمراً سهلاً لأنها تتعامل مع عديد من الناس. اختلفت عقائدهم ، وتباينت اتجاهاتهم ، وتعارضت أمانيتهم وخياراتهم ... ولذلك فهي مسألة صعبة تحتاج إلى الإعداد والاستعداد .

ففي الكتاب الثانى من هذه السلسلة بينت نظرة الإسلام للإنسان واهتمامه به وتوضيح أركان الإسلام وغاياته من خلال الركائز المستفادة من السيرة فى مكة .

وبينت المرحلة المدنية أهمية اعتماد الدعاة فى حركتهم على قاعدة صلبة وقوة يقظة وقد تمثل ذلك فى نشوء دولة الإسلام. فى المدينة المنورة بقيادة رسول الله ﷺ لقد قامت الدعوة فى مكة على جهود فردية ، وتضحيات نفر قليل من أصحاب رسول الله ﷺ وسط عداوات أهل مكة ، ومباشرتهم الأذى والاضطهاد لكل من أسلم ... ولذلك مضت مدة طويلة أسلم فيها عدد قليل عاشوا خلالها حالة من العنت والاضطهاد .

وكان رسول الله ﷺ يحاول إيجاد القاعدة القوية لانطلاق الإسلام فعرض نفسه على القبائل وعلى أهل الطائف ليعيش معهم ويؤمنوا. بالإسلام. ، ويحمونه بما يحمون به أنفسهم وأهليهم فلم يستجيبوا له ... فلما استجاب له أهل المدينة وبايعوه عند العقبة هاجر وأصحابه إليهم ، وأسس دولة الإسلام فى المدينة ، وبذلك بدأت حركة الدعوة .

إن بناء قاعدة الانطلاق عملية أساسية لنجاح أى عمل ، وإلا لصار الجهد هباء لا يفيد ، ومن المعلوم أن الإنسان الذى يتمتع بالخلق الكريم قادر على تعليم غيره الخلق والسلوك أما غيره فلا يمكنه ذلك لأن فاقده الشئ لا يعطيه .

والشخص القوى يهابه الضعاف أما الضعيف فلا قيمة له بين الناس .
والأمة القوية تقود غيرها إلى حيث تريد ... هكذا في كل زمان ، في عالم
الإنسان كما هي في عالم الحيوان .
وقد اهتم الإسلام في بناء قاعدته الصلبة في المدينة المنورة على عدة أسس
تضامنت وتكاملت حتى أنتجت قاعدة الدعوة ، ومنطلقها المتين .
وأهم ما فعله الإسلام في الناس إيجاد خير أمة للناس وفق مراحل ومواصفات
معينة :

فبدأ أولاً : بإيجاد الأمة القوية : متميزة بمجموعة من الخصائص ليحافظ
على قواها ، ويبعدها عن التشرذم والتفكك ، والانحيار .
إن تنظيم الأمة يحتاج إلى الاستفادة بكل الإمكانيات المتاحة ، ووضعها في
صورتها الإيجابية المنتجة لتحمل الجهد ، والوقت ، والطاقت .
إن مجموعة صغيرة من الناس مهما بلغ عددها لا يمكنها أن تقوم بما تقوم به
الجماعة الكبيرة ، ولا تتمكن من أداء دور الأمة مع الإسلام أو مع أى هدف آخر
ودور الأمة مع الإسلام عظيم وهام حدده الله تعالى بقوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ
جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾^(١) ،
وبقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٢) .

لقد اهتم النبي ﷺ بعد الهجرة بتنظيم الأمة فأخى بين رعاياها ، وجعل الإخوة
حقيقة مستمرة على الزمن كله لتكوين القاعدة الصلبة المطلوبة .
إن إخوة المؤمنين لم تكن من أجل الاشتراك في نشاط ما وترك ما عداه ، أو
التوحيد في الولاء لفرد فقط .. وإنما كانت الأخوة في الله ، وتحت وشيعة العقيدة
... تجمع بين الراعى والرعية في اتجاه واحد .. وتأخذ روابطها من الإسلام ،
وتجعل كل فرد مسئولاً عن حقوق هذه الأخوة أمام الله تعالى ، وأمام الناس أجمعين

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى هذا الجيل الأول الذى طبق الأخوة الإيمانية بكل تجرد وصدق بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾ .

يروى الإمام أحمد عن أنس وصفاً لآثار هذه المؤاخاة على لسان المهاجرين أنفسهم حيث قالوا لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلاً من كثير من هؤلاء ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال ﷺ : لا ما أنثيتم عليهم ودعوتم الله لهم (٢) .

وهكذا. آخى رسول الله ﷺ بين أعضاء. هذا. التجمع الموليد ... أى أنه حول هؤلاء الأفراد المفكرين إلى مجتمع متكافل ، تكون رابطة العقيدة فيه مقدمة على رابطة الدم والنسب ، ويقوم الولاء لقيادته الجديدة مقام الولاء للقيادة الجاهلية القبلية ، ويصبح الولاء فيه للإسلام وحده ، وبهذا تتحقق سائر العلاقات وتنمو تحت مظلة رابطة العقيدة والإيمان .

ولقد تحقق الغرض من هذا الإجراء الفذ ، وبقي أثره محركاً فى حياة الصحابة حتى الوفاة فهذا بلال ؓ كان يقول فى عهد عمر عن أخوته مع أبى رويحة : لا أفارقه أبداً للأخوة التى كان رسول الله ﷺ عقدها بينه وبينى .

إن وجود الأمة الإسلامية القوية هى أكبر سند لحركة الدعوة وتقدم المجتمع ، وقدرته على تحقيق فيجب عليه الحركة والانطلاق .

وليس من تنظيم الجماعة المؤمنة تشتت الأفراد فى اتجاهات مادية متعددة متعارضة لأن هذا فى الحقيقة تفريق للأمة ، وتضييع لجهودها ... وذلك التشتت يظهر كثيراً حينما يعمل الأفراد لعدة غايات متعارضة .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم ، مسند أنس بن مالك ؓ حديث : ١٢٨٢٢ .

لقد نادى رسول الله ﷺ بهجرة سائر المؤمنين إلى المدينة لتحقيق هذه القاعدة الواحدة القوية ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلَئِيهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ (١) .

والآية واضحة فى وجوب الهجرة والتجمع فى المدينة لأن المسلمين لو عاشوا أفراداً حيث هم لتكالبت عليهم الأفاعى ، وقضى عليهم الطغاة ... ولذلك كانت هجرتهم إلى رسول الله لتكوين أمة مسلمة تعيش الإسلام ، وتقدم نموذجاً عملياً لتعاليمه أمام الناس .

وعمل ثانياً على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية العملية : لأن الإسلام لا تهمه أمة فارغة القلب والضمير لأنها تكون حينئذ ضعفاً ووهناً لا يضمن ولا يغنى من جوع .

ولا تهمه أمة تعلن الإسلام ولا تعمله ، وترفع الشعار ولا تشعر به ، وتدعى الدين وهى تناقضة بسلوكها وعملها .

وحتى تصير الأمة سنداً لحماية الحق ، ونصر الدين كان لابد لها أن تقيم بنيانها على تقوى من الله تعالى ، ولعل ذلك هو ما قصده رسول الله ﷺ وهو يبدأ نشاطه فى المدينة ببناء مسجده الشريف ليكون مكاناً للتربية والتعليم ... وجامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته ، ومنندى تتألف فيه العناصر القبلية المختلفة التى طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها ، وقاعدة لإدارة جميع شئون الدولة ، ومركزاً لبعث الحملات والسرايا العسكرية ، وبرلماناً لعقد المحالس الاستشارية والتنفيذية . . . وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين الذين لم يكن لهم دار ولا مال ولا أهل ولا بنون .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٧٢ .

لقد تحولت المدينة إلى مستقر آمن للدعوة ، ومنطلق رئيسي للحركة بالإسلام ولهذا رأينا تماسك المهاجرين والأنصار وتأخيهم تحت لواء الله تعالى في صورة متكاملة متوازنة ... وكان هذا التكامل شاملاً لكل جوانب حياة أهل المدينة ولن أتحدث عن كل صور. هذا التكافل ولكني أشير إلى بعض تلك الصور. فقط ، وأهمها :

التكافل في بيت النبوة : فبيت النبوة هو مقر قيادة الأمة ، فحينما نزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب الأنصاري وظل في منزله قرابة السبعة الأشهر كان لابد من توفير الطعام الذي يحتاجه رسول الله ﷺ ومن ينزل عليه من الناس ، ولهذا تسابق الأنصار إلى بيت أبي أيوب يأتون بالطعام جعلوا لأنفسهم نظام التناوب ، فكل مرة مجموعة منهم ، وما كانت من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة يحملون الطعام ، يتناوبون ، وكان يدعو النبي ﷺ أصحابه فيأكلون معه ، فيحضر عشاءه الخمسة إلى الستة إلى العشرة .

التكافل في استقبال الأنصار للمهاجرين : لقد كانت المؤاخاة هي أبرز ما في الصورة فعبد الرحمن بن عوف كان أماً لسعد بن الربيع الأنصاري فعرض عليه أن ينصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك دلني على السوق ، وتقدمت الأنصار إلى رسول الله ﷺ وقالوا : اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين النخيل وطلبوا منه أن يجعل الأموال قطائع فيما بينهم ... ولكن رسول الله ﷺ رفض هذا وجعل على المهاجرين أن يعملوا في أرض إخوانهم الأنصار وأن يكون لهم جزء من الثمرة .

التكافل في تشريع الزكاة : فرغم أن التوجيه القرآني للمؤمنين لم ينقطع عن مخاطبة المؤمنين في العهد المكي للمساعدة إلى الصدقة بشكل عام ، وذلك لتربية النفوس. المدافعة ، وسد عوز النفوس. المحتاجة إلّا. أن مشروعية الزكاة بأنصبها محددة لم تشرع إلّا في العهد المدني ، وابتدأ فرض زكاة الفطر أولاً ، وصار هذا ملحاً بمشروعية صيام شهر رمضان ، فصارت زكاة الفطر تخرج عن الصغير والكبير ، والحر والعبد ، والمذكر والأنثى ، ثم جاءت بعد ذلك زكاة الأموال بأنصبها المفروضة .

التكافل فى صلاة الجمعة : إن أول جمعة جمعت كانت بالمدينة المنورة سواء أقامها المسلمون قبل مقدم رسول الله ﷺ أو. بأمره أو. أقامها بعد قدومه المدينة مباشرة لأن المقصود بالجمعة إظهار شعار الإسلام ، واجتماع المؤمنين كلهم ، ومواعتهم .، وكانت أول. خطبة خطبها رسول الله ﷺ فى أول. جمعة أقامها فى المدينة كانت فى بنى سالم بن عمرو. بن عوف. فى طريقه من قباء. إلى قلب المدينة وبما أن الجمعة هى لاجتماع المؤمنين ومواعتهم فإن هذا يفسر لنا سر تجمع المسلمين فى المدينة يوم الجمعة فى مسجد رسول الله ﷺ بينما كانوا يتفرقون بقية الأسبوع. فيصلى بعضهم فى مسجد الرسول .، ولللبعض الآخر يصلى فى مساجد متفرقة بلغ عددها تسعة مساجد .، فإذا. ما جاء يوم. الجمعة تجمعوا. فى مسجد واحد حول. قائد الأمة ليتأكد من قوة المسلمين .، ويشرف على حضورهم وتربيتهم وإعدادهم .

التكافل فى صوم شهر رمضان : حيث لم يتم هذا التشريع فى العام الأول من الهجرة ، وإنما فى العام الثانى ، وفيه حصلت غزوة بدر الكبرى (يوم الفرقان) .
إن فرض الصيام شهراً كاملاً كل عام يعد عبادة شرعها الله عز وجل ، وحدد الغاية منها فى القرآن الكريم بقوله : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(١) لأن المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات ، وفطامها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانية ، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ... ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين ، ومن ثم فإن التقوى هى ثمرة الصيام .

ولا شك أن تأخر هذا الفرض إلى السنة الثانية للهجرة كان له سبب وغاية ترجع إلى استقرار الإسلام ، وتوطيد النفس لتحمل هذا النوع من العبادة ، ومع هذا رغم أنه فرض من أول وهلة ، إلا أن الفرد المسلم كان مخيراً بين الصيام والإطعام ، ثم حسم بعد ذلك وجعل الإطعام لمن لا يطيق .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٣ .

التكافل فى مشروعية العيدين :: العيد هو اليوم الذى يعتاد الناس فيه الاجتماع لتبادل الأشواق وإعلان الأفراح ، وكان العرب يعتادون أياماً عدة تقوم إما على الوثنية أو العصبية .. فشرع الله للمسلمين عيدين يرتبطان بعبادة فعيد الفطر الذى شرع بعد الانتهاء من غزوة بدر يبدأ بنهاية عبادة صيام شهر رمضان ، وزكاة الفطر ويستهل يومه بصلاة العيد .

و.عيد الأضحى يبدأ بنهاية عبادة الحج ، ويستهل يومه أيضاً بالصلاة والأضحية التى تحمل فى طياتها صورة من صورة التكافل الاجتماعى وقد شرع فى العام الثانى للهجرة وفيه ضحى رسول الله ﷺ وضحى الموسرون من المسلمين معه وهذا الموقف له دلالة عملية ، ودلالة مرحلية واقعية ، حيث تلاحظ التدرج الواقعى فى المجتمع المسلم دون اعتساف أو تعجل ، بل كل شئ فى أوانه ، وحينما تهيأ له الظروف والأجواء ، وهنا نلاحظ أن المسلمين لم تعمهم الفرحة إلا بعد أن استقر أمرهم ، وقامت دولتهم أما قبل ذلك فلا عيد ولا فرحة .

وعمل الإسلام ثالثاً على صيانة ثوابت الأمة لأن الأمة الإسلامية تعيش فى إطار منهج تحددت معالمه ، وفصلت حقائقه .

وأعداء الإسلام يعملون لهدم ثوابت المنهج ، والإساءة إليه ، وتشويه صورته ليتمكنوا من هدم كل ما تمثله الأمة من قيم وحياة ولذلك وجب حماية الإسلام مما يوجه إليه وذلك بحماية أمتة .

إن منهج الله تعالى ينطلق من تعاليم الله ، يقول الله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ^ط وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ^ط وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ^(١) .

ومن ثم وجب استمرار هذه الصبغة ليبقى المنهج على حقيقته التى جاء بها ووجب حينئذ منع أى دخيل يسئ للمنهج ولا يتوافق معه ، وبذلك يعيش المجتمع بخصائصه الربانية .

لقد شرع الله الأذان للصلاة أسلوباً وحيداً للمسلمين ووجههم إلى الكعبة ليستقلوا بقبلتهم .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٣٨ .

وميزهم بمعالم وبلوحة فى حياتهم ومعائشهم وبذلك برزت الأمة
بخصائصها ومكوناتها .

وإن المرء ليتساءل عن سر تفوق هذا النموذج البشرى وعن أسباب عجز
المسلمين المعاصرين من أن يكونوا مثلهم مع استمرار القرآن وحفظه وبقاء
السنة وتدوينها !!!..

إن الأمة الإسلامية التى كونها رسول الله ﷺ صورة مثالية رائدة تعاملت مع
الواقع وتكونت من الناس . ، وتعاملت مع فطرة البشر مما يجعلها نموذجاً قابلاً
للتكوين فى كل عصر ومصر لو حاول الناس تتبع خطاها ، وسلوك الطريق الذى
مرت فيه .

إن عوامل تأسيس الجماعة الأولى موجودة حتى الآن ، ولذلك نحتاج إلى
معرفة الأسباب التى ساعدتهم على التكوين والتنشئة ولم تساعد سواهم أملاً فى
الاحتذاء بهم ، والسير على طريقته .

يبدو والله أعلم أن أسباب استفادتهم تعود إلى ما يلى :

(أ) إنهم حينما دخلوا فى الإسلام تيقنوا الواقع وعلموا أن الإسلام بيعة منهم

لربهم ، وهم طرف فيها ، وعليهم بالإسلام أن يصدقوا الله فيما بايعوه به .

(ب) إنهم استقبلوا الوحي الكريم المنزل على رسول الله ﷺ بما يليق به من تعظيم

وتقديس فاهتموا به ، ولم يوازنوا بينه وبين غيره ليتبينوا صدقه ، وأحقية ،

وإنما استقلوه موقنين بأنه الحق ، وهو الخير وهو المصلحة ويكفى أنه من

عند الله .

(ج) إنهم أيقنوا حين إيمانهم أن الوحي نزل للتطبيق والعمل به ، ولم ينزل لمجرد

المعرفة وللتقافة ومن هنا اقتصروا على التدرج فى حفظه فكانوا يفهمون

ويحفظون عشر آيات ولم يغادروها إلا بعد العمل بها ، وتطبيق ما جاء فيها

ولذلك كان أبو بكر يقوم المسلم بمقدار حفظه للقرآن لأن هذا يدل على مدى

عمله وسلوكه .

(د) إنهم بعد مجئ وحى الله التزموا به وتركوا ما عداه من ثقافات الأمم الأخرى ونظمها ، وأهملوا بصورة كلية كل ما كان فى حياتهم الجاهلية ، وهذا الموقف يصور النقلة العجيبة التى أحدثوها فى واقعهم ، ولقد كانوا يفعلون. كل ما يأمرهم به الوحي مكتفين بالسؤال عنه أالله أمر بهذا ؟

فإذا علموا أنه من الله ، فلا شئ معه وأهملوا حينئذ كل ما عداه .
لقد خلت الحياة الإسلامية الأولى من أى دخيل يعارضه الإسلام ، مع أن نظماً وآداباً فارسية ورومانية وغيرها كانت قبل الإسلام ملء الزمان طويلاً وعرضاً ، وكان العالم كله معجبا بهم ، ومقدراً لأصحابها .
نعم لم يلتفت المسلمون إلى ما يأتيهم من قبل الشرق أو الغرب ، أو من هنا أو من هناك ، لأن وحى الله يكفيهم وهم به أقوياء .

(هـ) إنهم شعروا بعزة الإسلام ، وبقدرة الله ، وتيقنوا أن الله اختارهم بالإيمان لإنقاذ البشرية من عبادة البشر ، وللخضوع لغير الله تعالى . وجاهدوا لإزالة الطواغيت من على ظهر الأرض تكريماً للإنسانية كلها .

وهذا التيقن يفسر لنا سر تضحياتهم بالنفس والنفيس حين ساحوا فى الأرض مجاهدين فى سبيل الله يبيغون نشر دينه ، وإحقاق الحق ، وإقرار الأمن والسلام .
تلك أهم الأسباب التى ساعدت الأمة الإسلامية على الاستفادة بوحى الله تعالى وتركت بذلك درساً فى الناس لمن يشاء أن يستقيم ، ويسعد فى الدنيا وفى الآخرة .

إن البناء الدقيق لأمة الإسلام استغرق من رسول الله ﷺ وقتاً طويلاً ، وجهداً شاقاً ... ولكنه ﷺ أتمه على أحسن حال ... وقد تعرض ﷺ خلال مرحلة البناء لمحاولة القتل ، وحوصرت المدينة ، وهاجمة سفهاء القبائل ، واستعان ﷺ بالصبر والتحمل والجهاد حتى أتم ما عمل له ، ولم ينتقل إلى ربه سبحانه وتعالى إلا وقد تكونت الأمة الفتية ، وانتشر الإسلام فى الجزيرة العربية كلها وتحققت حرية الدعاة ، وأصبحت دعوة الإسلام محل تقدير واحترام ، تسمع وتناقش ، وتعيش واقع الحياة ، وتتعامل مع الجميع فى حسن وأمان .

وحين نرى حال المسلمين اليوم ، وننظر فى أمر الدعوة نلمس ضرورة وجود الأمة المؤمنة لمساندة الدعوة وتدعيم حركتهم بالعمل والسلوك .

إن الناس فى العالم المعاصر ينظرون إلى المسلمين ويتأملون أحوالهم ، ويتصورون أنهم صناعة الإسلام ، ونتأججه بمجرد تسميتهم بالمسلمين !! وليس الأمر كذلك لأن المسلمين من فترة طويلة لا يعيشون الإسلام حقيقة ، ولا يطبقون تعاليم الله على الوجه الصحيح .

وحين نبحث عن أهم الركائز المستفادة فى سيرة رسول الله فى المدينة فإنى أرى أن أهم الركائز هو وجود الأمة المسلمة التى تحرك الدعوة ، وتوجه حركتهم إلى الناس .

إن الأمم اليوم تتعامل فيما بينها بواسطة السفراء والمبعوثين الذين يمثلون الدول والحكومات ولذلك صار لهم دور ، وعاشوا آمنين لأن من ورائهم دولهم . إن الدنيا تتحرك كلها إذا أسئ لفرد من دولة أوربية أو غيرها لأن من ورائها دولته ... ويا حبذا لو تمتع الدعوة برعاية دولهم ... ويا حبذا لو كانت الدول إسلامية قلباً وقالباً على قلب رجل واحد لتكون الأمة المرجوة ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر فى صدق وشفافية .

إن العالم المعاصر يقر للدول العظمى بحقها فى توجيه الدول الصغيرة ، وتغيير مساراتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفق رؤيتها ... بدعوى تحقيق تقدم ضارى وإنسانى لهذه الدول برغم ما فى كل هذا من رغبة الاستعلاء والسيطرة والاستغلال .

إن هذا الواقع يعطى لصاحب الحق أن ينشر ما يتمتع به الخير لغيره ... وحين يكون القوى صاحب رسالة سامية يريد إفادة الناس بها متجرداً من أى غاية ذاتية ، وبعبداً عن أى مصلحة شخصية حين يكون الأمر كذلك يرحب به الجميع .

إن الأمة الإسلامية ضرورة لنجاح الدعوة ، وقاعدة لا بد منها لمساندة الحركة بالإسلام ، وإيصاله إلى كل إنسان فى الوجود .

وحين نؤمن بهذه الضرورة لابد أن يتعاون الأفراد ويعمل الجميع لإيجاد هذه الأمة بالخصائص التي لابد منها لأى أمة تريد لنفسها المرقى وللتقدم وخدمة الإنسانية لابد أن تنشط هذه الأمة فى الأخذ بأسباب القوة المادية التي لابد منها فى عالم لا يعترف إلا بحقوق الأقوياء ، ولا يهاب إلا القادرين .

إن القيم النبيلة تتحول فى لسان الضعفاء إلى مظاهرة صوتية تحتج وتصيح بلا مجيب وتستغيث بلا مغيث ... وربما عدها الأقوياء جماعة من المجانين .

وأول قوة الأمة يبدأ بتقوية الأفراد والجماعات الصغيرة ، وهؤلاء مسئولون عن أنفسهم ، **فليقو الفرد** نفسه بالطاعة ، والصدق ، والعمل ، والتجرد من الهوى ... والتوجه فى كل نشاطه لله ، **وعلى الأفراد** أن لا يعبأوا بالمعوقات الطارئة ، ولا يينتظروا أجراً من مخلوق لأنهم يعملون لله ، وينتظرون الأجر منه سبحانه وتعالى وما عندهم سبحانه لا يضيع أبداً وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

المبحث الثانى

الاهتمام بمعرفة الواقع العالمى

هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ، وأسس دولة الإسلام فى المدينة ، وأخذ فى دعوة الناس إلى الله تعالى حسب مقتضيات كل مرحلة . وكان ﷺ يعلم واقع العالم كله ، ويدرك اتجاهات الأفراد ، وكان الله معه يعينه على الحق ، ويعرفه به إن سها عنه ، أو لم يدركه .

لقد كان يعرف ما عليه الفرس والروم ، ويعرف ما بينهما من حروب وأحقاد ، ويعلم أن الروم أهل كتاب ، وأن الفرس عبدة أوثان وأصنام ، وكان الله معه يخبره بأهم ما عندهما .

ووقف ﷺ على كافة أحوال اليهود والمنافقين وسائر القبائل وهو فى مكة قبل الهجرة ، وبعد استقراره فى المدينة بعد الهجرة .. وكان يتعامل مع كل بما يكافئه ... ويدعوهم بالأسلوب الذى يناسبهم ... فإن رأى منهم غدراً حذرهم ، وتعامل معهم بالصورة المناسبة .

لقد كان ﷺ يحدث أهل الكتاب عن رسلهم وكتبهم . ويحدث القرشى عن الخالق والمخلوق ... ويحدث أهل الزرع والتجارة كل بما هو فيه ، وبما يتلاءم مع حياته وفكره وتلك قضية مهمة لا بد منها لنجاح الدعوة إلى الله تعالى .

لقد عاش المسلمون وسط الناس بعيونهم ، وبمن آمن منهم ، ولذلك كانوا على خبر دقيق بواقع الناس .

إن معرفة الواقع المعاصر ضرورى للدعوة ليتحرك الدعاة وفق خطة عملية متكاملة ناتجة من تخطيط سليم .

إن التخطيط السليم بحث وعلم بالواقع ، وتحديد للعمل والمنهج ، ومتابعة للأعمال والنتائج .

وهذا ضرورى للدعوة إلى الله تعالى فى العصر الحديث .

لا يكفى تكليف الدعاة بالعمل فى إقليم ما ، وتركهم لشأنهم ، مع أنهم لا يعرفون شيئاً عن طبيعة الإقليم ، ولا عن سكانه ، ولا عن الاتجاهات السائدة فيه .
لا يكفى ذلك . بل لابد من معرفة الدعاة للبيئة التى سيدعون فيها معرفة شاملة لكافة النواحى (أناسا ، وطبعاً ، وخلقاً ، وتديناً ، وثقافة ، وتحضراً ... الخ) .

وهذه أمور تقوم على البحث المتعمق ، والدراسة المسبقة .
وبناء على البحث والدراسة توضع الخطة الملائمة لإبراز أولويات الدعوة ، والوسائل المستخدمة ، والأسلوب المناسب ، والكيفية المثلى لكافة الظروف التى تهم الدعوة والدعاة .

إن التمهيد لعملية الدعوة بتوضيح الجوانب المشار إليها ضرورة فى عصر يعتمد على التخطيط فى سائر الأعمال ، وهى ضرورة يؤكدها الإسلام ويؤيدها .
فقد خطط النبى ﷺ لغزواته جميعاً ، وفى غزوة بدر - عرض - الأمر على الأنصار ، وعلى المهاجرين وأخذ موقع الغزوة برأى أصحابه .
وفى غزوة أحد أخذ رأى ، وشاور الصحابة ، وحدد لكل مجموعة مكانها .
وهكذا فى كل خطواته ﷺ .

إن الرسائل النبوية أرسلت بعد معرفة من أرسلت إليهم ، لتتناسب مع فكرهم ، وولقهم . فإن كانت الرسالة مرسله إلى أحد من أهل الكتاب . فإنها تشير إلى الإيمان بعيسى كجزء من الإيمان بمحمد ﷺ ، نقرأ ذلك فى رسالة النبى ﷺ إلى النجاشى ملك الحبشة ، وفيها يقول ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة ، أسلم فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة ، الحسنة فحملت بعيسى ، خلقه الله من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ويقول ﷺ لعظيم الروم بمصر ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثمك وإثم الإريسيين معك ، والإريسيون هم المزارعون .

فنجده ﷺ يحدثهم بحديث الخبر بهم ، يحدثهم عن مريم ، وعن عيسى عليهم السلام كما يحدث المقوقس عن المزارعين بمصر .

ونلاحظ أن رسائله ﷺ قد صيغت بلغة ، ولهجة من أرسلت إليهم ، فهذه رسالته إلى نهد قبيلة باليمن ، يقول فيها ﷺ : اللهم بارك لهم فى محضها ، ومخضها ، ومذقها وابعث راعيها فى الدثر ، وافجر له الصمد ، وبارك له فى المال والولد^(١) بل إن رسائله ﷺ كانت تناسب طبائع الناس ، ومنزلتهم ، وتنوعهم . ألا يدل ذلك على أهمية فهم الواقع وضرورة العلم بالناس الذين توجه إليهم الدعوة ؟

وقد دلت التجارب المعاصرة على أهمية التمهيد لحركة الدعوة بمعرفة الواقع على ما هو فيه بكل صدق. وتجرد. ، لأن. الدعاة إذا. جهلوا. الواقع حين يقومون بالدعوة يصطدمون بالمستمعين بآدى ذى بدء ، ولهذا أثره السيئ ، كما أن عدم معرفة الواقع يؤدى إلى عدم الاستعداد له ، الأمر الذى يضع الدعاة فى غربة فكرية ونفسية مع من يتوجهون إليهم ، ولا يمكن القول بأن دراسة الواقع ، ومعرفة متطلبات الدعوة مسئولية من يكلفون بالدعوة ، ويباشرونها لأن ذلك فوق مقدورهم ، وأكبر من طاقتهم .

لو كان مجال الدعوة إقليمياً واحداً لأوجبنا على الدعاة " أفراداً " أن يبدؤوا عملهم بالبحث والدراسة ، ولا يباشرون الدعوة إلا بعد فهم الواقع ، والإحاطة الكاملة بأحوال المدعوين .

لو كان المجال إقليمياً واحداً لقلنا ذلك ، لكنه العالم كله وحينئذ لا يستطيع التعريف به إلا. هيئات ضخمة ،. قادرة على توظيف العلماء ،. وتوجيه الطاقات والقيام بالدراسات والبحوث النظرية والميدانية وبذل ما تحتاجه من توضيحات ومن الممكن الاستفادة بالأبحاث العملية العديدة التى تقدم من طلاب الدراسات العليا فى كليات الدعوة والدراسات الإسلامية العديدة وبخاصة تلك الأبحاث القائمة على الدراسة الميدانية ، ويمكن تأسيس المعاهد البحثية لتحقيق هذه الغاية . لقد بذلت محاولات فى العالم الإسلامى فى هذا الطريق لكنها لم تكمل .

(١) انظر كتب النبى ﷺ من الكتاب .

لقد حاولت جامعة الأزهر فى أوائل الستينات من القرن العشرين تأسيس معهد بحثى عرف بـ "معهد الدراسات الأسىوية والأفريقية". تكون. الدراسة فيه بلغات القارتين ، ويقبل طلبته من خريج الكليات الإسلامية من جامعة الأزهر للتخصص فى دراسة السكان ، وبخاصة فى النواحي التى تحتاجها الدعوة ، على أن تكون الدراسة فى السنة الأولى عامة ، وفى السنة الثانية ينقسم الطلبة إلى مجموعات كل مجموعة تختص بدراسة إقليم ما للإحاطة بواقعه ، واكتشاف أنحج الطرق للتوجه إليه ، والتلاؤم معه على أن تكون الدراسة ، فى الفصل الثانى من السنة الثانية ميدانية فى الإقليم الذى يتخصص له الطالب ، وبعد الانتهاء من دراسة السنة الثانية يقوم الطالب بإعداد بحث للماجستير فى دعوة الأقليم التى عاش معه مدة الدراسة على أن يعمل للدعوة فى الأقليم الذى أتقن لغته ، ودرس أحواله ، وعائشه خلال المرحلة الميدانية .

ويجوز إتمام البحث العلمى خلال العمل بالإقليم ليستمر إشراف الأزهر على الطالب ، وعمله .

وكان المقترح أن يحصل الطالب خلال دراسته على درجة معيد بالجامعة إلا أن الاقتراح بعد أن اجتاز خطوات عديدة توقف .

كما قررت رابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة تأسيس "المعهد العالى للدعوة الإسلامية" ليقبل طلاباً من العالم الإسلامى للحصول على درجة الماجستير فى الدعوة وتخريجهم دعاة إلى الإسلام ليقوموا بالدعوة فى بلداهم تحت إشراف الرابطة .

وفكرة المعهد حسنة إلا أن التطبيق العلمى للفكرة شابه قصور فى المنهج وفى قلة عدد الطلاب ، وعدم إخلاصهم للهدف الذى قبلوا بسببه فى المعهد ، وعدم خبرة القائمين على التدريس ، وأخيراً تقلص المعهد ولم تبق منه إلا صورته فقط .

إن. هذه المحاولات. لو قامت بها هيئات. كبرى. تدعمه . . وعلى خطوات مدروسة معد لها فقد يكتب لها النجاح .

وحتى يتم ذلك نقول للدعاة : ابدأوا عملكم بدراسة الواقع الاجتماعى للبيئة التى تقومون- بدعوة أهلها ، . ولستقيدولـ بالنظريات. العلمية فى مجال. الخدمة الاجتماعية والتربوية والنفسية والاجتماعية .

إن الجميع يعلم أن الدعوة إلى الله تعالى يجب أن تكون بالحكمة الدقيقة ، والإحسان الخلقى فى الموعظة والجدل .

وبمعرفة الواقع بكل جوانبه يتمكن الدعاة من استعمال الحكمة لمن تناسبه ، ويأتون بالموعظة عند أهلها ، ويكون الجدل لمن لا يفيد إلا الحوار والنقاش ، ويتوجهون. بالدعوة فى وقت مناسب وظروف. مفيدة ولغة يفهمها من توجه لهم الدعوة .

وبذلك تتلاءم دعوتهم مع المدعويين .

إن. علم الداعية بالواقع الاجتماعى يمكنه من مخاطبة محدثه بقول. لائق مقبول ، حدث أن المقوقس حين استلم الرسالة من حاطب بن أبى بلتعة ؓ قال له : ما يمنع محمداً إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه ، وأخرجه من بلده ؟ فرد عليه حاطب على الفور : وما منع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعو الله عليهم ليهلكهم ؟

فقال المقوقس : أحسنت ، حكيم جاء من عند حكيم .

فنجد حاطباً يقنع المقوقس لأنه ارتبط فى حديثه بالواقع الذى يعرفه ، والحقيقة التى يعيشها المقوقس ، واللغة التى يفهمها .

إن العالم اليوم ملئ بالدعوات العقائدية المختلفة ، والكل يحاول معارضة الإسلام ببث الشبه ، ونشر الدعايات المضللة الظالمة .

وأغلب الشبه دونها المستشرقون ، وكتبها المبشرون ، وتحدث عنها العلمانيون ويشيروا اليوم المتتورون والإحاطة بها أمر ميسور .

ومن الممكن تناول هذه الشبه بالتحليل والرد عليها بطريقة علمية هادئة

لتفنيدها ، وإثبات الحق في كل مسألة منها بمختلف وسائل الدعوة والتوجيه مثل المؤلفات العلمية والمحاضرات والنشرات ، والدروس ، والخطب ، والحوار ... وهكذا .

ويمكن الاستفادة بمؤلفات العلماء وأبحاث الدارسين الإسلاميين ، وتوجيههم نحو هذا المجال الهام .

إن المستشرقين بذلوا جهوداً ضخمة وأخرجوا مؤلفات عديدة بمساندة المراكز العلمية التالية :

١ . **كراسي اللغات الشرقية** التي أنشئت في سائر الجامعات الأوروبية وتنضم أعداداً غفيرة من الأساتذة ، والمحاضرين ، والمعيدون ولهم رصيد ضخم من الدراسات المختلفة .

٢ . **المكتبات الشرقية** وهي تضم المؤلفات والمخطوطات باللغات المختلفة ، وقد تنوعت هذه المكتبات . فمنها ما هو تابع للحكومات . ومنها ما هو تابع للجامعات ومنها ما هو تابع للعلماء ، ولجميع هذه المكتبات فهارس شاملة وإصدارات هذه المكتبات مستمر وغزير .

٣ . **الجمعيات الآسيوية والشرقية** وهي نواد للعلماء المهتمين بالعلوم الشرقية وتصدر المجلات الدورية ن وتنتشر مؤلفات الأعضاء ولهذه النوادي مسميات عديدة ، وهي تنتشر بين الأغنياء والخاصة من الناس في كل بلاد العالم الإسلامي .

وللمبشرين أيضاً مؤسساتهم الضخمة فالكنيسة لها دعائها ، وبابا الفاتيكان رئيس دولة مستقلة تشرف على الكنائس وتوجه المبشرين .

إن الكنائس المسيحية بمختلف مذاهبها تقوم بالتبشير بالنصرانية ، وتحاول دائماً الاستفادة بالسلبيات التي تجدها بين الناس كالفقر ، والجهل ، والمرض ، والتخلف ، ولها نشاطها في مجال الإعلام والاتصال والتعليم ، والطب وغيرها .
وللكنائس نظامها في اختيار كوادرها ، وتدريبهم ، والإشراف عليهم بصورة مستمرة .

وقد قامت الدول. المسيحية بتوجيه من رجال. الكنيسة بتأسيس مدارس. فى البلاد الإسلامية وغيرها لنشر ثقافة وفكر دول التأسيس ، وفيها ما فيها من بعد عن الإسلام وثقافته .

هذه المؤسسات الضخمة للمستشرقين والمبشرين وتلك التى تقوم بها الكنيسة تحتاج إلى جهد يكافئها ، ليقف الدعاة المسلمون أقوىاء بدينهم الحق ، وبالتدعيم الذى يساندهم .

لقد تكلم المستشرقون فى كل جزئية إسلامية ، والواجب أن تكون الردود شاملة وقوية ، وبخاصة أن وسائل الاتصال لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وبنيتها فى العالم كله

وللمسلمين من سيرة رسول الله ﷺ عبرة وتوجيه ، لأن الثابت أن رسول الله ﷺ لم يترك سؤالاً لمعترض إلا وأجابه ، ولم يشاهد أمراً إلا وشرح حقيقته لأصحابه ، ولم ينزل عليه وحى إلا وبلغه للناس على وجه مفهوم ، وإقناع تام ... ولم يترك مسألة على خفائها ، ولم يدع مدخلاً للشيطان إلا وسده ، ونصح أمته بما يجب عليهم .

لقد بث النبى ﷺ عيونه فى كل مكان ، ولذلك كان يفاجئ أعداءه إذا عملوا على العدوان على المسلمين ... وكان يرسل الدعاة الفاهمين إلى أى مكان يحتاج إليه

وهذا الشأن يدعو الأمة إلى ضرورة العلم والعمل ، وأهمية التخطيط والتحرك مستفيدين بمستجدات العصر ، ومخترعات العقول ، فى إطار المشروعات الدينية .

المبحث الثالث

أهمية التطابق بين المسلم والإسلام

من القضايا ذات التأثير الكبير فى حركة الدعوة إلى الله تعالى وجود الإسلام فى حياة الناس أفراداً وجماعات لأن الإنسان يرى أول ما يرى فى الغير عمله ، ويسارع فى تصويره والحكم عليه بعد ذلك ... ويربط دائماً بين العمل وبين شخصية القائم به .

إن الإنسان دائماً تحركه نفسه ، وتوجهه قناعاته ، وتتحكم فيه عقيدته وديانته .

ومن هنا كانت دلالة العمل على المنطلق الفكرى لصاحبه .

إن الجاد فى الكسب والربح هو التاجر الذى يقوم بالبيع والشراء .

والمتقف الحر يعشق حرية الناس ، ويعمل على نشرها وتحقيقها لغيره .

وحين نرى إنساناً يصلى فى المسجد فهو مسلم .

والمتخصص فى الحرب والدفاع جندى يعيش بين المدفع والصاروخ .

إن دلالة العمل على فكر صاحبه ، وثقافته حقيقة ثابتة وفى الإطار الإسلامى

يجب أن يتطابق عمل المسلم مع توجيهات دينه ، وتعاليم ربه ليكون مسلماً .

إن الإسلام جاء للتطبيق والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا

لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^(١) .

ويقول تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْفَائِزُونَ ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ

وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾^(٣) .

(١) سورة النساء ، الآية ٦٤ .

(٢) سورة النور ، الآية ٥٢ .

(٣) سورة النور ، الآية ٥٤ .

ولقد برزت الأمة الإسلامية فى عصرها الأول بصورتها الواجبه حيث كان الجميع صورة صادقة للإسلام ، لدرجة أن من تأمل عملهم ، ومعاشهم وجد دينهم ، ورأى أثره على الناس أمناً ، ونشاطاً ، وتعاوناً ، وإخلاصاً ، ومن علم دينهم وقف على حياتهم ومعاشهم

عاش المسلمون الأول الإسلام بكافة جوانبه . وبذلك تأسلم المجتمع كله ، وصار الإسلام مجسداً فى الحياة .

عاش رسول الله ﷺ بين الناس يريهم بالإسلام ، ويطمئن على خلوصهم لله وصدقهم فى المطاعة . فهم بشر يعترهم ما يعترى سائر البشر . ولذلك كانت ضرورة الاستمرار فى التربية ليسكن الإيمان قلوبهم ، ويكونوا عوناً لرسول الله فى الالتزام والتطبيق ، لقد استمر رسول الله يريهم بالوحى حتى وصلوا إلى الذروة ، وأصبحوا مثلاً عالياً للصناعة الربانية .

لقد نشأ رسول الله ﷺ المسلمين على أسس راسخة ، ومن أهم جوانب التنشئة الإسلامية للأمة ما يلى :

١. نشر العدل :

العدل فضيلة تضمن لصاحب الحق حقه بعيداً عن الظلم والعدوان ، وينظر الإسلام إلى العدل نظرة شاملة تعم التشريع كله وبذلك تتضمن كافة العلاقات ، والمعاملات الإنسانية سواء أكانت بين المسلمين بعضهم مع بعض أو كانت بين المسلمين وغيرهم يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

(١) سورة النساء ، الآية ٥٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٨ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(١) .

وكما يأمر الإسلام بالعدل نراه ينهى عن الظلم تأكيداً للعدل ، وقد كتب الله على الظالمين لعنته وسخطه بقوله تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٢) .
وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾^(٣) .

وقوله عز وجل : ﴿ فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٤) .
ولقد أمر الله رسوله ﷺ بالعدل والاستقامة فقال له : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(٥) .

وقد أظهر رسول الله ﷺ العدل وأمر به ومارسه في حياته كلها ، ولعل قمة العدل أن يعفو ﷺ عن أساء إليه .
ترى هذا في العفو العام الذي أطلقه ﷺ لكل من تصدى له بالعداء من قريش فأعلنها : " اذهبوا فأنتم الطلقاء"^(٦) وهكذا بلا كلمة عتاب ... ولا موقف عقاب ، فهو فضل منه ﷺ .

ونرى هذا في إعلان براءة رسول الله ﷺ مما فعله خالد بن الوليد يوم أن قتل أسرى بنى جذيمة لاجتهاد اجتهده .
ونرى هذا في إعلانه يوم حنين ، رغم ما فعله المشركون بالمسلمين ، فلقد أمر المسلمين ألا يقتلوا امرأة ولا وليداً .
ونرى هذا في عدم دعائه على ثقيف رغم محاصرتهم في المطائف فترة طويلة فلم يزد على أن يقول : اللهم اهد ثقيفا .

(١) سورة النحل ، الآية ٩٠ .

(٢) سورة هود ، الآية ١٨ .

(٣) سورة غافر ، الآية ٥٢ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ٤٤ .

(٥) سورة هود ، الآية ١١٢ .

(٦) مصنف ابن أبي شيبة ج ٧ ص ٢٥٠ .

ونرى أثر العدل فى إطفاء نار العصبية متمثلاً فى أكثر من موضع .
رأيناه بعد الفتح حينما استغلت خزاعة قريبها من رسول الله ﷺ فقتلت رجلاً من
هذيل لثأر. بينهم فى الجاهلية فقال. ﷺ وهو فى حالة من الغضب الشديد لهذا
الفعل: "وإن أعتى الناس على الله عز وجل ثلاثة : رجل قتل فى مكة ، ورجل
قتل غير قاتله ، ورجل طالب بثأر فى الجاهلية ، وإنى والله لأدى هذا الرجل الذى
قتلتم" (١) فوداه رسول الله ﷺ
ورأيناه فى حجة الوداع. وهو ﷺ يضع تحت قدمه كل عصبية الجاهلية
وأولها عصبية بنى هاشم .

ونرى العدل فى إقامة شرع الله على القريب وللبعيد على حد سواء. ، فقد
سرق امرأة من بنى مخزوم وتحركت قريش لستر هذه المرأة ومنع إقامة الحد عليها
مخافة العار فكلموا أسامة بن زيد بن حارثة لمكانته من رسول الله ﷺ فغضب ﷺ
وقال لأسامة : أتشفع فى حد من حدود الله ، ثم قام وخطب فقال : أيها الناس
إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم
الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله !! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت
يدها (٢) .

وبما أن العدل من مبادئ الإسلام العظمى ورسول الله ﷺ هو أول العاملين بها
، كان الله تعالى يصوبه إذا أخطأ فى حكم أخذ فيه بظاهر دعوة الناس ونضرب مثلاً
على هذا وهو تبرئة اليهودى الذى اتهم بالسرقة بدون وجه حق ... وبما أن رسول الله
لا يعلم الغيب فقد وافق المدعين على قولهم ، فأنزل الله من عنده التقويم والحكم
العدل فقال سبحانه وتعالى يخاطب رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ۖ ﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَلَا تَجِدُ لِكُلِّ شَيْءٍ كَيْدًا مُخْتَلِفًا إِلَّا كَيْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (٣) .

(١) السنن الكبرى للبيهقى . باب ما جاء فى تغليظ الدية ج ٨ ص ٨١ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب أحاديث الأنبياء . باب حديث الغار ج ١١ ص ٢٩٤ .

(٣) سورة النساء ، من الآية ١٠٥ : ١٠٧ .

٢. تحقيق القيم النبيلة :

إن غرس القيم من أساسيات التكوين والتنشئة لأنها مرتبطة بالنفس الإنسانية مع ما فيها من تنوع ونزوع إلى الشهوة والهوى .
وكان القرآن الكريم يربى المجتمع المسلم ويحاول وضعه في إطاره الإيماني الصحيح .

إن المقيمة التي كان المنهج القرآني ينقل خطي هذه الأمة لتبليغها هي قيمة التجرد لله ، والخلوص لدينه ، وقيمة المفصلة على أساس العقيدة مع كل أواصر القربى وكل لذائذ الحياة وهي قيمة النبل ، والخلق ، والحياة .

وقد اهتم رسول الله ﷺ بغرس القيم عند أصحابه قبل الحاجة إليها لأن وجود الدواء حين وجود الداء أنجع فقد خاف المسلمون من الفقر نتيجة فتح مكة ونتيجة منع المشركين من المجئ إلى مكة بعد البراءة منهم ، وأن المواسم التجارية ستقطع فنبههم القرآن الكريم ورباهم على أن الرزق بيد الله الخالق لا بيد خلقه يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(١) وقد ساعدهم يقينهم بقدرة الله وعلمه وحكمته على طرد ما اعتراهم من خوف قبل نزول الآية .

ولما أعجب المسلمون بكثرتهم في غزوة حنين حينما صاروا اثني عشر ألف رجل ، وقالوا معجبين بكثرتهم : لن نغلب اليوم من قلة ، وذلك نسيان لقيمة الإيمان والإخلاص لله فكان أن انهزموا يقول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ

(١) سورة التوبة ، الآية ٢٨ .

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ۖ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١) فعادوا إلى إيمانهم ، وتابوا عن تصوراتهم فنصرهم الله تعالى .

ورسول الله ﷺ لم يكن ليتخلى عن الله ناصره وكافله ، فهو يعلم المسلمين أنه عبد من عبيد الله ولا حول له ولا قوة إلا بالله ، ولا يستمد قوته إلا من الله ، ومع هذا يثبت ولا يفر ، ويصمد ولا يتخاذل ، فكان يدعو ربه بدعائه الخاشع قائلاً : "اللهم بك أحاول وبك أصاول ، وبك أقاتل"^(٢) .

وهكذا يكون الموقف سبباً لتقويم الانحراف الذي يظهر في وسط المجتمع . ولما أحب المسلمون القعود عن الخروج إلى تبوك ، أحبوا القعود في وقت يطلب فيه المسكون. والمدعة ، فالثمار. قد حان. قطافها ، .ولالأشجار. الموارفة تمد المستظلين بها بنسماتها الساحرة كل هذا كان يدعو للقعود ، ولا يدعو إلى الأسفار المرهقة ، وقطع الصحارى والفيافي الحارقة المهككة ، ومع هذا يعلن رسول الله ﷺ للمسلمين الخروج رغم كل ذلك ، فيجتمع له في حدود ثلاثين ألف مقاتل ، ليكون أكبر جيش يقوده رسول الله ﷺ .

وحيثما نشاهد الذين تخلفوا عن هذا الجيش لأنهم إما جماعة حبسهم العذر فلم يجدوا ما يحملهم ، وإما منافق قد كشف عن نفاقه أو قدم عذره فقبل ، أو مسلم صادق لم يقدم عذراً فتوجهوا إلى الله تائبين فتاب عليهم ونزل قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۖ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝^(٣) .

(١) سورة التوبة ، من الآية ٢٥ : ٢٧ .

(٢) كنز العمال ج ٧ ص ٢١٩ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ١١٧ ، ١١٨ .

٣. تعود الصبر والتحمل :

من أهم خصائص المسلم الصبر الذى هو زاد الطريق فى الدعوة ، إنه طريق طويل شاق ، حافل بالعقبات والأشواك ، مفروش بالصد والرد ، وبالإيذاء والابتلاء والصبر أنواع كثيرة :

الصبر على شهوات النفس ورغائبها وأطماعها ومطامحها ، وضعفها ونقصها .
والصبر على شهوات الناس . ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم وانحراف طباعهم وأثرتهم وغرورهم .
والصبر على جرأة الباطل ، ووقاحة الطغيان وتصغير الغرور والخيلاء .
والصبر على قلة الناصر وضعف المعين ، وطول الطريق ، ووساوس الشيطان فى ساعة الكرب والضيق .

ولا شك أن رسول الله ﷺ نبي هذه الأمة هو أول من يمثل هذا الصبر بمعانيه هذه كلها ، وكل خطوة من خطواته تمثل هذا الصبر تمثيلاً صادقاً .
لقد عاش رسول الله ﷺ الصبر كله فى هذه المرحلة التى كون فيه الأمة فهناك صبر على جفاء الأعراب وطمعهم فى الأموال ، وحرصهم على المكاسب ، فكان يعاملهم على قدر عقولهم فكان بهم رحيماً ، ولهم مربياً ومصلحاً وقد عنفهم الله سبحانه وتعالى على جفائهم فى قوله : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) .

ومع هذا حاول رسول الله ﷺ أن يرتفع بهم ويخرجهم من طباعهم هذه إلا أنهم ما استفادوا كثيراً من هذه المواقف .
وهناك الصبر على إيذاء النفوس الملتوية حيث قال أحد المنافقين عند تقسيم غنائم يوم حنين : والله إن هذه القسمة ما عدل فيها ، وما أريد فيها وجه الله فلم يزد ﷺ

(١) سورة التوبة ، الآية ٩٧ ، ٩٨ .

أن تغير وجهه وقال : "فمن يعدل إن لم يعدل رسول الله ... يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر"^(١) .

وهناك الصبر فى ميدان المعركة أمام استعلاء الباطل ، فقد تراجع المسلمون فى أحد وحنين ولم يتراجع رسول الله ﷺ وهو بموقفه هذا. استطاع أن يجمع المسلمين مرة أخرى ويحقق لهم النصر .

وهناك صبر مع المسلمين الذين تراجعوا فى المعركة فلم يعنف ، ولم يعاقب أحداً ممن فر عنه حتى حينما طالبه بعض المسلمين بأن يقتل الفارين لم يستجب لهذا المطلب لأنه ﷺ كان يربى أمة ، وينشئ جماعة ولذلك اكتفى بما بينى ، وبما يفيد .. وليس هو العقوبة فى هذا التوقيت من الزمان .

٤. تحقيق التكافل بين الناس :

وعلى الرغم من أن الإنفاق والعطاء معلم بارز فى الشخصية المسلمة ، لأنه يتكرر كثيراً فى القرآن الكريم كله وهو يدعو إلى الإنفاق . ، ويجعله جزءاً من المتطلبات التى لا تنفك عن المسلم ، ويجعل الزكاة . وهى العطاء الواجب . ركناً من أركان الإسلام ، فلا إسلام إلا به .

على الرغم من هذا كله فإن رسول الله ﷺ كان يمرن الأمة المسلمة باختبارات عديدة لتعميق هذه القيمة العالية ، قيمة الإنفاق والعطاء دون مقابل عاجل حيث جعلها إقراضاً لله يوفيه لصاحبه يوم القيامة .

وكان رسول الله ﷺ يتعوذ فى أكثر أوقاته من البخل ، ويطلب من المسلمين أن يجعلوا هذا التعوذ فى وردهم الصباحى والمساءلى .

وكان حينما تأتية أموال الغنائم ينفق يميناً وشمالاً ، إنفاق من لا يخشى الفقر ، ويرى المسلمون منه هذا السلوك .

وكان يعطى للناس . ، يتألف به قلوبهم . ، فيجذبهم إلى الإسلام من خلال عطائه ، حتى أن أحدهم يكون مبغضاً للإسلام ولرسول الله قبل العطاء ، فما أن

(١) صحيح البخارى - كتاب فرض الخمس . باب ما كان النبى ﷺ ج ١٠ ص ٤٠٣ .

يجد السخاء يجرى بين يدى رسول الله ﷺ حتى تنتفخ كوة من قلبه على الإيمان ، فيقبل إقبالاً صادقاً ويحسن إسلامه .

ومع هذا فهو ﷺ يترك أقواماً ولا يعطيهم ، يكلهم إلى إيمانهم وتقواهم ، لأنه يريد أن يربى هذه النفوس على الارتفاع عن هذه المظاهر المادية الزائلة فقال ﷺ :
فو الله إنى لأعطي الرجل ، وأدع أحب إلى من الذى أعطى ، ولكنى أعطى أقواماً لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير^(١) .

وبعد حنين ، وبعد أن قسم رسول الله ﷺ الغنائم بين المسلمين ، جاءت هوازن مسلمة ، فأراد أن يرجع إليهم ما أخذ منهم من الغنائم التى قد وزعها بين المسلمين ، وفى الوقت ذاته أراد أن يغرس فى نفوس المسلمين التخلّى عن منحهم الدنيوية بطواعية ليربى فيهم حب العطاء والسخاء ، فبدأ ﷺ بنفسه وبأهله ، فقال وهو يخطب فى الناس :

أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فتسارع القوم من المهاجرين والأنصار يتنازلون عن رغبة صادقة بما هو لهم ... الخ .
فكان عمله ﷺ هذا. مثلاً. للتربية العملية التى جعلت الناس يتسابقون. إلى العطاء دون تعلق بعرض من الدنيا زائل ، ومن لم يستجب من الأعراب استوهمهم رسول الله ﷺ على عوض سيعوضهم به .

وكان رسول الله ﷺ ينتبع مآرب النفس الإنسانية ويقودها إلى الخير ، فلما بلغه رغبة بعض الأنصار أن يكون لهم مثل ما أخذته المؤلفة قلوبهم من العطاء بعد الغنائم ، لم يستجب لهذه الرغبة وإنما عمل على تطهير نفوس الأنصار من هذه العلائق ، فجمعهم وخطب فيهم ، وبعد أن استثار فيهم كوامن نفوسهم قال لهم :
إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة ، وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ، لو سكلت الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسكلت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار^(٢) .

(١) مسند الصحابة . باب عبادة بن قرظ ج ٤٨ ص ٣٧٩ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الزكاة . باب إعطاء المؤلفة ج ٥ ص ٢٨٧ .

ولقد وجدنا أثر هذه التربية فى وسط المسلمين فى مواقف عديدة ، ويكفى هنا أن نشير إلى ما حصل قبل غزوة تبوك لأنه يمثل ظاهرة حسنة هى ظاهرة الإنفاق والعطاء التى لم تكن مفروضة على الناس من قبل وإنما كان حثاً للجميع أن يقدموا بين يدى رسول الله ما تجود به أنفسهم لتجهيز الجيش الخارج لملاقاة الروم فى تبوك وقد اكتملت جوانب الظاهرة هذه بأن الذين تقدموا للإنفاق ليسوا الأغنياء فقط الذين دفعوا ما جهز به الجيش ، وإنما أقبل الفقراء والنساء فدفعوا ما يمتلكون حتى أن الواحد منهم كان يأتى بنصف صاع من طعام ، فهذا ما يمتلكه فيدفعه إلى جسم هذا العطاء الضخم ، ومن ليس لديه أى شئ ينفقه يقوم من الليل باكياً ثم يقول : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ثم لم تجعل ما أتقوى به مع رسولك ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها مال أو جسد أو عرض وقد علم رسول الله ﷺ عن طريق الوحي بهذه الصدقة ، فأعلم صاحبها بأنها قد قبلت فى الزكاة المتقبلة . وهكذا تجهز جيش بأكله بالجهود الفردية التى تحولت إلى بحر زاخر من العطاء .

إن هذا الجهد المبذول أخرج خير أمة فى عالم الناس ولذلك انتصر الإسلام بهم ، ووصلت الدعوة معهم إلى كل مكان وصلوا إليه . إن التطابق بين الإسلام والمسلمين فى العصر الأول جعل المسلمين جميعاً دعاة ، الأمر الذى أدى إلى انتشار الإسلام فى العالم كله برؤية الصورة الإسلامية خلال حركة الفتوح ، لأن الإسلام كان ظاهراً مع الجنود ، والتجار ، والقراء ، بكل ما فيه من سمو وخلق .

إن التطابق بين الإسلام وعمل المسلمين يساعد على تنشئة الأجيال المسلمة ، لأن الطفل المسلم يرى الإسلام من أبويه كما يراه فى الطريق وفى المدرسة ومع الزملاء ومع كل من يختلط بهم ، وبهذا يفهم المسلم الإسلام ويطبقه ويؤدى هذا التطابق إلى وحدة الأمة لأن كل فرد فيها يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ويؤدي هذا المتطابق إلى جمال الإسلام في كل تعاليمه لأن الالتزام العام بالإسلام يصبغ المجتمع به ، الأمر الذي يجعل الناس متآلفين معه راضين به سعداء بتطبيقه .

ويؤدي هذا التطابق إلى إعلام الآخرين بحقيقة الإسلام من خلال التطبيق ... وحين ينطلق الدعاة إلى هؤلاء الآخرين يجدون الأرض ممهدة للدعوة ، والقلوب مستعدة للاستجابة والإيمان .

إن التناقض بين الاعتقاد والسلوك لا يقره الإسلام ولا يرضى به المسلم ولذلك يعاتب الله المؤمنين إذا حدث هذا الانفصام في حياتهم يقول الله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ^(١) إن هذا الانفصام سبب يؤدي إلى الضياع والهلاك وقد حدث ذلك في الأمم السابقة يقول الله تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ^(٢) .

وحين ننظر إلى العالم الإسلامي اليوم من زاوية التطابق بين الإسلام وعمل الناس ندرك أسباب تخلف الأمة وأسباب انصراف الناس عن الإسلام ، ونعرف سبب العجز عن توجيه الدعوة إلى الآخرين بصورة حسنة مقبولة .

إن التناظر الحاصل بين تعاليم الإسلام وبين سلوك الناس يسئ إلى الناس أولاً لأنهم يتحركون بلا هوية ، ويعيشون بلا فكر ، ولا أصول ... ولذلك تراهم يشكلون حياتهم من عادات الآخرين وسلوكهم ، بعيداً عن دينهم ، مكتفين بالمظهر الفارغ فلا هم جزء من الآخرين ، ولا هم جزء مفيد في جماعة المسلمين ... ويسئ ثانياً إلى الدعوة لأن الآخرين سيقولون : لو كان الإسلام خيراً لفعله أصحابه ، ولو كان

(١) سورة الصف ، الآية ٢ ، ٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٧٨ ، ٧٩ .

صواباً لتمسك به بنوم بل رأيناهم يتهمون الإسلام ويقولون: :- إن تخلف المسلمين نتيجة مباشرة لتعاليم دينهم ... وهى تهمة باطلة لغياب تطبيق الإسلام عن حياة المسلمين .

إن التناقض بين الإسلام وعمل المسلمين يؤدي بالمسلمين إلى التخلف لأنهم بإعلان أنهم مسلمون ولا إسلام فيهم خاصموا غير المسلمين باتخاذهم نهجاً وطريقاً خاصاً بهم ، وبتركهم الإسلام صاروا زبداً أجوف لا يسمن ولا يغنى من جوع وبخاصة فى عالم تعددت فيه الثقافات والحضارات .

إن العالم المعاصر يتميز بتعدد التكتلات ، وتنوع التوجهات وكل منها يتفاعل مع غيره ، فلديه ما يعطيه ، وعندم قابلية الاستفادة من غيره فى إطار ثقافته وتوجهه .

وهذا التفاعل ضرورة لمسيرة الحياة ... ولابد لها من فكر نبيل تسنده قوة عادلة ... ولابد له من واقع يعطى ويأخذ ، ويفيد ويستفيد .

والمرء يتساءل بكل تجرد ... ماذا عند المسلمين اليوم ليجذب الآخرين إليهم ؟
لقد فرط المسلمون فى كنوزهم ، وأهملوا روح السبق والتنافس ، وظهروا بأفكار ليست هى واقعهم وحياتهم ... وبذلك أساءوا إلى نبل الأفكار ... ووضعهم الناس فى مؤخرة الصفوف ، وتصورهم جزءاً من عالم الظلام .

لقد بنى النبى ﷺ أمة ، وأنشأ قوة ، وأوجد للمسلمين حياة بعد هوان ، وأعماله وتوجيهاته ﷺ دروس وا ضحة فى هذا الطريق لمن يريد .

لو أردنا للدعوة أن تنجح ، وأردنا لأنفسنا أن نتقدم فالطريق واضح ، وهو ضرورة التزام المسلم بإسلامه بصورة مطلقة ، وعودة الأمة إلى الله عودة جميلة حميدة وحيئنذ سوف يفرح المؤمنون بنصر الله ، والله على كل شئ قدير .

المبحث الرابع

ضرورة الفصل التام بين الإسلام وغيره

نشأت الأمة الإسلامية وسط عالم ملئ بالمذاهب واللعنات ، ولالاتجاهات المختلفة وكان تميزها عن كل ما عداها أمراً ظاهراً بارزاً .

وحرص النبي ﷺ على استقلالية الأمة بوحى الله تعالى ، ولم يدخل فى نظام الأمة شيئاً من عند غيرها ، وفصل كل ما هو إسلامى عن غيره .

والحكمة فى هذا أن الأخذ من الغير لا يصح إلا حين الحاجة إليه ، وحين يكون متلائماً مع ثوابت الأمة وقيمها ... فلقد أخذ النبي ﷺ من الفرس فكرة حفر الخندق وأخذ من سياسات الفرس والروم فبعث الرسل ، واستقبل الوفود ، وأرسل الكتب ... أما فى الجوانب التى تسى لدين الله تعالى فهو ﷺ منها برئ .

لقد حاولها أهل مكة ورفضها ﷺ يقول الله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ

فَيْدْهُنُونَ ﴾ (١) ؟

فلو داهنهم ﷺ بأن عبد إلههم يوماً ، وعبدوا معه إلهه يوماً لضل وغوى وبعد عن دين الله بالكلية ، ولكنه ﷺ أبى ذلك ورفضه بأمر من الله تعالى .

إن الكفر صور شتى ، وحيل الكافرين عديدة وهم يعملون على القضاء على الإسلام والمسلمين ، وقد يئسوا من كفر المسلمين صراحة ، ولذلك خططوا لإبعاد المسلمين عن دينهم جزءاً جزءاً لإفراغ الإسلام من محتواه ، وبذلك يتحول دين الله إلى جسد ميت لا روح فيه ولا حراك .

إن الإسلام عقيدة وشريعة وخلق ، يكمل بعضها بعضاً ، وتتعاون جميعاً فى تقديم الحقيقة الثابتة للإسلام ، لأن التفريط فى جزء منها يعد تفريطاً فى الإسلام كله .

إن العقيدة تعنى امتلاء الباطن بحب الله ، والخشوع له ، والتوجه الكلى نحو الخالق فى كل همسة ولمسه . وفى كل فكرة وخاطرة . ومع كل اتجاه وسلوك

(١) سورة القلم ، الآية ٩ .

وبذلك يعيش المسلم مؤمناً بقدر الله مستسلماً لأوامره ، متوكلاً عليه ، راضياً بما يراه الله له لأنه يوقن بأن ما قدره الله سوف يكون .

والشريعة تعنى الامتثال المطلق لتعاليم الله تعالى ، المنظمة لكل حركة فى الوجود وقصر نية التوجه فى الفكر والقول والعمل لله تعالى .

والخلق هو مجموعة القيم التى تزين الإنسان ظاهراً وباطناً ، وتملأ الوجود بالخير والجمال .

إن الإسلام بهذا المعنى كاف للناس ظاهراً وباطناً ، فكراً وعملاً ، نشاطاً وخلقاً .
إن الإقرار بالتوحيد لابد معه من الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا الكون وهو المتصرف فيه ، وهو الذى يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ، ويتقربون إليه سبحانه بنشاط الحياة كله .

إن الله هو الذى أنزل لعباده الشرائع ، وهم يخضعون لحكمه فى شأن حياتهم كله .

وأياً فرد شهد أن لا إله إلا الله وفرط فى لوازمها وتبعاتها ففى شهادته خلل كائناً ما كان اسمه ولقبه ونسبه .

وفى الأرض اليوم أقوام من الناس أسمائهم أسماء المسلمين ، وهم من سلالات المسلمين ، وديارهم يسكنها المسلمون ولكنهم لا يدينون لله على الوجه الصحيح ويعيشون الإسلام ثقافة ومظهراً ، ويتركونه حقيقة وعملاً ، وهذا أشق ما تواجهه حركة الدعوة مع هؤلاء الناس ، لأنهم يعدون معها وهم فى الحقيقة عبء عليها .

أشق ما تعانيه الدعوة هو الغش والغموض واللبس الذى أحاط بمدلول لا إله إلا الله ، ولوازم الإسلام فى جانب ، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية فى الجانب الآخر .

أشق ما تعانيه هذم الدعوة هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين ، وطريق المعصاة المجرمين ، واختلاط المشارب والمعنوين ، والمتباس . الأسماء والصفات ، والتية الذى لا تحدد فيه مفارق الطريق .

ويعرف. أعداء الدعوة هذه الثغرة ، فيعكفون. عليها توسيعاً وتمييعاً وتليبساً وتخليطاً حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة ، ويصبح الحكم فى أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم ، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله .

يجب أن يهتم الدعاة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين .
ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله فى كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة ، وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف ، ما داموا مع الحق بأدلتهم وبراهينه ، ومع الصدق بوضوحه وأعماله ، ومع الله بقرآنه وسنته .

ولهذا ...

يبقى الإسلام نظاماً فريداً فى إصلاح الحياة والأحياء ، وأى تغيير فيه يفسده بمقدار ما داخله من تغيير .

إن أى تغيير يجريه الإنسان فى أمر ما يكون مفيداً حين يكون فى أمر ثبت فسادُه أو ظهر قصوره ، أو بان تخلفه ... والإسلام بعيد عن كل ذلك ولهذا كان أى تغيير فيه عبث لا يجوز .

وأعداء الإسلام من الجن والإنس ينشط لإيجاد التغيير الضار الذى يفسد الإنسان ويبعده عن دين الله بحيل شتى ، وطرق عديدة .

يعمل أعداء الإسلام على إشغال باطن الإنسان وفكره بأمر تافهة لا تفيد شيئاً كالحرص المادى ، وتزيين الشهوات ، والاهتمام بما لا فائدة فيه من فوازير ومسابقات وأعياد ، ولقاءات .

ويزينون أمام المسلمين ما يلهيهم عن طاعة الله كزخرفة الشهوات ، وتيسير الفحش ، ونشر ألوان الهوى ، وإشغال الغرائز . مع التوقف عن إيجاد حلولها الشرعية .

وينشر الأعداء الخلق السئ ، ويبرزون القيم النبيلة فى أثواب بالية لصرف الجادين عنها .

ويصل الأمر بالمسلمين إلى جلب الحلول. لمشاكل حياتهم من عند غير المسلمين والرضا بغير ما أنزل الله .

وبذلك يبتعد المسلم عن دينه شيئاً فشيئاً ، وتصعب عودته إلى الله تعالى وهذا الأمر يحتاج للتصدي له توكيلاً منه ، وعلاجاً لخطورته .

ولا يصح التصدي إلا بالبراءة المتامة من كل ما يتعارض مع الإسلام ، وتفصيل الإسلام تفصيلاً يؤدي إلى تميز الخبيث من الطيب ، وليظهر الصالح ويعرف الفاسد ، ولتستبين سبيل المجرمين .

إن أخطر ما وقع فيه المسلمون المعاصرون هو اشتراك الإسلام وغيره في حياتهم حتى تم تشويه كل ثوابتهم ... فهم ينادون بالعفة ويتمسكون بالاختلاط ، يدعون إلى

العبادة والنساء عاريات سافرات ، تملأ المادة قلوبهم ويزعمون الإخلاص لله ... إن المسلمين بذلك مشتتون مذبذبون فلا هم أخلصوا الله ، ولا هم كانوا مع أعدائه ... وهذا في دين الله لا يفيد .

إن كل نظام له إيجابياته وسلبياته ، ولا يصح أن ننسب إيجابيات نظام لغيره ، ولا نكلف نظاماً ما بعلاج سلبيات غيره ، وفي حالة التشتت الإسلامي هذه نرى عجباً ، لأننا لا يمكننا أن ننسب السلبيات للإسلام وغيره يفعلها !!

ولا يصح أن نطالب الإسلام بالعلاج وغيره فاعل المرض !! ومنطق العقل والنقل تجعل الفاعل مسئولاً عن فعله ، والجريمة يحملها المجرم ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(١) ومعاقبة البرئ ظلم لا يرضاه عقل أو دين .

ومن هنا ...

وجب على المسلمين أن يمحسوا. حياتهم .، ويجعلوها خالصة لمنهج الله ، وحينئذ تثمر حياتهم دولة الإسلام بمالها ، وما عليها وتحمل كل ما يجد فيها من سلبيات ، وتسعد بما يتحقق لها من إيجابيات .

(١) سورة المدثر ، الآية ٣٨ .

لقد وقع في دولة الإسلام الأولى بعض الأخطاء من أفراد عصوا الله في حياتهم فأقيم عليهم الحد ، واقتص منهم ، وأخذت الدية وفق منهج الدولة المسلمة ولكن حين ننظر في العقوبات التي طبقت كما وكيفاً ونقارنها بحياة الناس نشاهد ندرتها وقلتها مما يجعلها طرفاً في إثبات إيجابية النظام الإسلامي ورفعته .

إن المسلم مطالب حين يلتزم الإسلام بتحقيق ذاته ، والاعتزاز بما التزم به والتمسك بكل ما يؤمر به ، والابتعاد عن كل ما ينهى عنه ، وبذلك تبرز إيجابية الإسلام في حياة الفرد وفي نشاط الجماعة ... الأمر الذي يؤدي إلى مساهمة هذه الإيجابية في حركة الدعوة إلى الإسلام .

وقد التزم المسلمون مع رسول الله ﷺ بكل ما جاءهم من رسول الله ﷺ وساروا على نمطه بكل دقة ، فكانوا خير الدعاة ، وخير ما ظهر في أفق الحياة .

إن الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى الأمة المسلمة الصادقة التي تساند الدعوة ، وتؤكد مقالاتها بعملها ، وتشهد على صدقهم بنشاطها ، وإيجابياتها .

لقد حدد رسول الله ﷺ سبيل أمة تميزاً كاملاً ، جعلها بعيدة كل البعد عن سبيل المجرمين ، وأخذ القرآن الكريم يوضح هذا التمايز ويفصله ، وبذلك يعرف الإيمان ويتضح الخير لأن الشئ بضده يتميز ، وأيضاً فإن هذا التوضيح يعد دعوة في حد ذاته لأنه يبرز ما في الإسلام من خير وإصلاح ، ويشير إلى ما عند معارضيهِ من فساد وضرر .



الخاتمة

الحمد لله رب العالمين وللصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،

فلقد أوشك الأمل على التحقيق واقتربت بفضل الله تعالى من إصدار هذا الكتاب الذى يختم تاريخ الدعوة والسيرة النبوية فى العهد المدنى ، وينتهى بوفاء رسول الله ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى سبحانه وتعالى .

وقد رجعت إلى العديد من المؤلفات القديمة والحديثة فى السيرة النبوية فوجدتها جميعاً تعود إلى المصادر الأساسية وهى القرآن الكريم ، وكتب السنة وسيرة ابن إسحاق والمغازى للواقدي ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، وزاد المعاد لابن القيم ، والشفا للقاضى عياض ، فالتزمت بهذا المسلك فهو خير وأجدى .

وأمل أن يقوم المسلمون بواجبهم إزاء السيرة النبوية ، لأن السيرة فى الحقيقة تقديم الإسلام فى صورته التطبيقية وهو يتعامل مع الفطرة ، ويراعى الواقع ، ويلتقى مع الإنسان ويرتقى به .

إن الأمم العظيمة تكرم رجالها الذين قدموا للأجيال خدمات وفوائد ... وليس هناك فى الأمم من يماثل رسول الله ﷺ فلقد قدم للإنسانية كلها ديناً يحقق سعادة الناس وينشر الأمن والسلام .

ولسوف يجد العلماء فى سيرة رسول الله ﷺ خير زاد فى أبحاثهم ودراساتهم ، كل فى مجاله ... ولذا وجب على العلماء المسلمين أن يعودوا إلى السيرة يأخذون منها الزاد والدليل ، ويعرفون الدواء لكل داء .

لقد عاش ﷺ أباً حنوناً ، وزوجاً رحيماً ، وأخاً صالحاً وإنساناً مخلصاً ، وقائداً أميناً ... وإماماً هادياً ، وناصحاً صادقاً ، ورسولاً يستقبل الإسلام ويبلغه للناس ... إلى آخر المجالات التى يمكن لإنسان أن يقوم بها أو يكلف بها رسول الله ﷺ .

وهو ﷺ فى كل ما قام به كان مثلاً عالياً ، وقدوة رائدة لكل من يريد التقدم والفلاح .

والأمل أن يهتم كل مسلم بسيرة رسول الله ﷺ ليأخذ منها مناط الأسوة التي يحتاج إليها حيث نشاطه وعمله .

ولسوف يشعر المسلمون بالعزة يوم أن يعيشوا الإسلام كما جاء به رسول الله ﷺ وكما عاشه المسلمون الأوائل .

وقد كان لعلماء العصر الحديث فضل أن قدموا النبي ﷺ في لقطات متخصصة فمنهم من كتب الجانب النفسى ومنهم من كتب في الطب النبوى ... ومنهم من كتب في القيادة المحمدية وهكذا. حتى أصبح أمر الاستفادة من السيرة سهلاً لمن يريده ... وأصبح عملاً جميلاً لمن يبحث عن السعادة والرضى . ولا يصح مطلقاً أن نعيش السيرة فكراً ثقافياً نعجب به ، ونعرفه ، ولا نطبقه لأن ذلك إهمال للواجب ، وإساءة لحق رسول الله ﷺ ، وإضاعة لحضارة إسلامية عظيمة قائمة على العلم والعمل ، ومعتمدة على الفكر والسلوك ... ولعل ما فيه المسلمين اليوم يؤكد المحاذير التي أشرت إليها ، فلقد صاروا في مؤخرة العالم وغدوا. عالة عليه من ساعة إهمالهم لتطبيقات. السيرة . ولبتعادهم عن العمل بالإسلام .

والأمر في هذا الشأن بدهى كله لأن المسلم حين يبتعد عن الإسلام يعمل بلا هوية . ولا يعرف. لنفسه غاية . وتتكاثر أمامه المطرق. وحينئذ يتحرك بعشوائية ، ويرضى بأى غاية ، ويضل بين المسالك والسبل ... الأمر الذى يسهل لأعداء الإسلام وأعداء الله اللعب به ، وإضعافه ، وإبعاده عن الغايات الإسلامية العظيمة .

إن محاولتى فى الكتابة عن السيرة ليست ترفاً ، وليست تقليداً ... وإنما هو أمل أرجو من ورائه إحياء الروح الإسلامية فى الإنسان ليتحرك نحو الله ملتزماً بمنهج رسول الله ﷺ حتى تخرج الأمة من التيه ، وتنقذ نفسها من المستنقع الذى وضعت نفسها فيه ... وتبدأ من جديد حياة المجد والكرامة التى جاء رسول الله ﷺ لتحقيقها فى عالم الحياة .

إن الإنسان المسلم مسئول عن إسلامه وعن رسوله ﷺ وسوف يجد كل نفسه أمام سؤال لابد منه ، لا تنفع معه الحيل ، ولا يصح معه الكذب أو السكوت ، وهذا السؤال هو :

من هو الرجل الذى بعث فيكم ؟

وماذا تقول فيه ؟

وهل كنت تابعاً له أم معارضاً له ؟

وهل عشت الإسلام عملاً أم طرحته وراءك ؟

وبعد السؤال يكون الجزاء ، وهو إما إلى الجنة وإما إلى النار .

لم ينتفع الإنسان فى هذا الوقت إلا بعمله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٦٦﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٦٧﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٦٨﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٦٩﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٧٠﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٧١﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٧٢﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٧٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (١) .

الأمر خطير ، والمسئولية عظيمة ، والطريق معروف ، وهو ما حاولت أن أبرز شيئاً منه فيما كتبت ، وحذرت من مغبة الكسل ، والإهمال .

أسأل الله تعالى أن يفتح القلوب والعقول ، ويبسر العمل والتطبيق ، ويحقق الفوز والفلاح ... وأن يجعل عملى هذا خالصاً متقبلاً لأستفيد به فى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٢) .

والحمد لله رب العالمين ...

المؤلف،

(١) سورة عبس ، من الآية ٣٤ : ٤٢ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ ، ٨٩ .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة الطبعة الثانية
٨	مقدمة الطبعة الأولى
٢١	التمهيد : التعريف بالمدينة المنورة
٢١	(١) أسماء المدينة المنورة
٢٨	(٢) جغرافية المدينة المنورة
٣٠	(٣) أهمية موقع المدينة
٣٢	(٤) خلو المدينة من الوباء
٣٣	(٥) وسطية المدينة
٣٤	(٦) تميز المدينة عن غيرها من المدن
٣٥	(٧) سكان المدينة
٤٢	(٨) شجاعة أبناء المدينة
٤٦	(٩) تألف أبناء المدينة
٤٨	(١٠) حب أهل المدينة للإسلام

الفصل الأول

السيرة النبوية من الهجرة حتى وفاة النبي ﷺ

٥٩	التمهيد
٦١	المبحث الأول : الهجرة النبوية
٦٣	النقطة الأولى : تحديد موطن الهجرة
٦٥	النقطة الثانية : أهمية الهجرة

٧٢	 النقطة الثالثة : تنظيم الهجرة
٧٢	 أولاً : تأمر القرشيين على رسول الله ﷺ
٧٥	 ثانياً : التخطيط للهجرة
٧٥	 (١) الإعداد المسبق
٧٦	 (٢) مبيت علي ﷺ
٧٨	 (٣) الوصول للغار
٧٩	 (٤) البقاء فى الغار
٨١	 (٥) فى الطريق للمدينة
٨٤	 ثالثاً : عناية الله بنبيه فى الهجرة
٨٤	 (١) رد سرقة
٨٥	 (٢) شاة أم معبد
٨٦	 (٣) إسلام أبى بريدة
٨٧	 (٤) تأمين الزاد
٨٨	 (٥) التبشير بالعودة إلى مكة
٨٩	 رابعاً : الوصول للمدينة
٩٣	 النقطة الرابعة : وقفات مع الهجرة
٩٤	 (١) دقة الطاعة
٩٥	 (٢) حسن التصرف
٩٥	 (٣) تحمل الأذى
٩٦	 (٤) التضحية بالمال
٩٦	 (٥) كيد قريش بالمهاجرين
٩٧	 (٦) الاستيلاء على الدور
٩٧	 النقطة الخامسة : ركائز دعوية من الهجرة إلى المدينة ...
٩٨	 الركيزة الأولى : حاجة الحق إلى قوة تصونه
٩٨	 الركيزة الثانية : الأمر كله لله ورسوله
٩٩	 الركيزة الثالثة : أهمية اتباع المنهج النبوى

١٠٠	المبحث الثانى : الاستقرار فى المدينة
١٠١	أولاً : الترحيب بمقدم النبى ﷺ
١٠٥	ثانياً : تأمين سكن النبى ﷺ
١١٠	ثالثاً : هجرة آل النبى ﷺ
١١١	رابعاً : إقامة المسجد النبوى
١١٧	المبحث الثالث : تنظيم الحياة الاجتماعية فى المدينة
١١٨	(١) تنظيم الإخاء بين المسلمين
١٢٦	(٢) وضع الميثاق العام لسكان المدينة
١٣٢	المبحث الرابع : الحياة الأسرية لرسول الله ﷺ فى المدينة
١٣٢	أولاً : التعريف بأمهات المؤمنين
١٣٢	الزوجة الأولى : خديجة بنت خويلد
١٣٣	الزوجة الثانية : سودة بنت زمعه
١٣٣	الزوجة الثالثة : عائشة بنت أبى بكر
١٣٤	الزوجة الرابعة : حفصة بنت عمر
١٣٥	الزوجة الخامسة : زينب بنت خزيمة
١٣٦	الزوجة السادسة : أم سلمه
١٣٧	الزوجة السابعة : زينب بنت جحش
١٣٩	الزوجة الثامنة : جويرية بنت الحارث
١٣٩	الزوجة التاسعة : أم حبيبة
١٤٠	الزوجة العاشرة : صفية بنت حيي
١٤٢	الزوجة الحادية عشر : ميمونة بنت الحارث
١٤٤	ثانياً : الزوجات المختلف فيهن
١٤٥	ثالثاً : من خطبهن النبى ولم يتزوجهن

١٤٧	المبحث الخامس : رد ما يقال عن تعدد زوجاته ﷺ
١٥٤	المبحث السادس : الحكم العامة فى تعدد زوجات النبى ﷺ
١٦٦	المبحث السابع : حسن عشرة النبى ﷺ لزوجاته
١٨١	المبحث الثامن : أبناء النبى ﷺ
١٨١	الأول : القاسم ﷺ
١٨١	الثانية : زينب (رضى الله عنها)
١٨٥	الثالثة : رقية (رضى الله عنها)
١٨٥	الرابعة : أم كلثوم (رضى الله عنها)
١٨٥	الخامسة : فاطمة (رضى الله عنها)
١٩٠	السادس : عبد الله ﷺ
١٩٠	السابع : إبراهيم ﷺ
١٩٢	المبحث التاسع : الحياة الشخصية لرسول الله ﷺ
١٩٢	أولاً : أكله ﷺ
١٩٦	ثانياً : شربه ﷺ
١٩٦	ثالثاً : نومه ﷺ
٢٠٠	رابعاً : سماعته ﷺ
٢٠٧	المبحث العاشر : قيامه ﷺ بمهام الرسالة

الفصل الثانى

حركة الرسول ﷺ بالدعوة فى المدينة المنورة

٢١٧	التمهيد
٢١٩	المبحث الأول : بناء المجتمع الإسلامى
٢٢٠	أولاً : دين كامل
٢٢٥	ثانياً : قيادة أمينة
٢٣٠	ثالثاً : مؤمنون صادقون

٢٣٦	رابعاً : التفاعل التام بين المسلمين والإسلام
٢٣٩	المبحث الثانى: تشريع الجهاد وحركة الدعوة
٢٤١	أولاً : تعريف الجهاد
٢٤٥	ثانياً : مراحل تشريع الجهاد
٢٤٦	المرحلة الأولى : مرحلة التحمل والصبر
٢٤٨	المرحلة الثانية : مرحلة الإذن بالقتال
٢٥٢	المرحلة الثالثة : مرحلة القتال المقيد
٢٥٣	المرحلة الرابعة : مرحلة الأمر العام بالقتال
٢٥٦	المبحث الثالث : السرايا والغزوات قبل "بدر"
٢٥٩	أولاً : أسباب وقوع السرايا والغزوات
٢٦٢	ثانياً : السرايا والغزوات قبل بدر
٢٦٢	(١) سرية سيف البحر
٢٦٣	(٢) سرية رابع
٢٦٣	(٣) غزوة "الخرار"
٢٦٣	(٤) غزوة "ودان"
٢٦٤	(٥) غزوة "بواط"
٢٦٤	(٦) غزوة "سفوان"
٢٦٥	(٧) غزوة "ذى العشيرة"
٢٦٦	(٨) غزوة "نخلة"
٢٦٧	ثالثاً : السرايا وحركة الدعوة
٢٧٠	المبحث الرابع : غزوة "بدر الكبرى"
٢٧١	أولاً : أسباب الغزوة
٢٧٤	ثانياً : مواقف الفريقين قبل المعركة
٢٧٤	(أ) موقف المسلمين

٢٨٣	 (ب) موقف القرشيين
٢٩٠	 ثالثاً : أحداث المعركة
٢٩٩	 رابعاً : نتائج المعركة
٣٠٣	 خامساً : قريش والهزيمة
٣٠٥	 سادساً : المسلمون فى إطار انتصار "بدر"
٣٠٦	 (١) الاختلاف حول الغنائم
٣٠٨	 (٢) الاختلاف فى مصير الأسرى
٣١١	 (٣) الابتهاج بنصر الله
٣١٣	 (٤) تشريع زكاة وعيد الفطر
٣١٤	 المبحث الخامس : أحداث ما بين "بدر" و "أحد"
٣١٥	 أولاً : محاولة قريش قتل النبی
٣١٨	 ثانياً : غزوة "بنى سليم"
٣١٨	 ثالثاً : غزوة "السويق"
٣١٩	 رابعاً : غزوة "غطفان"
٣٢١	 خامساً : غزوة "بحران"
٣٢٢	 سادساً : سرية زيد بن حارثة
٣٢٣	 سابعاً : غزوة "بنى قينقاع"
٣٢٧	 ثامناً : قتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط
٣٢٨	 تاسعاً : قتل كعب بن الأشرف
٣٣١	 عاشراً : أهم أحداث المجتمع الإسلامى
٣٣٢	 حادى عشر : حركة الدعوة بين "بدر" و "أحد"
٣٣٥	 المبحث السادس : غزوة "أحد"
٣٣٦	 أولاً : أسباب الغزوة
٣٣٧	 ثانياً : موقف أطراف معركة "أحد"
٣٣٧	 (١) موقف المشركين

٣٤٤	 (٢) موقف المسلمين
٣٥٢	 ثالثاً : أحداث المعركة
٣٥٣	 المرحلة الأولى : انتصار المسلمين
٣٥٨	 المرحلة الثانية : هزيمة المسلمين
٣٦١	 المرحلة الثالثة : الصمود الإسلامي
٣٧٨	 رابعاً : نتائج المعركة
٣٨٥	 خامساً : الآيات الربانية الخارقة في "أحد"
٣٨٨	 سادساً : "أحد" وحركة الدعوة
٣٩٩	 المبحث السابع : أحداث ما بين "أحد" و "الأحزاب"
٤٠١	 أولاً : غزوة "حمراء الأسد"
٤٠٥	 ثانياً : سرية أبي سلمة رضي الله عنه
٤٠٧	 ثالثاً : بعث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه
٤٠٨	 رابعاً : بعث الرجيع
٤١٠	 خامساً : سرية عمرو بن أمية لقتل أبي سفيان
٤١٣	 سادساً : وقعة "بئر معونة"
٤١٦	 سابعاً : غزوة "بنى النضير"
٤١٩	 ثامناً : غزوة "نجد"
٤٢٠	 تاسعاً : غزوة "بدر الثانية"
٤٢٢	 عاشرًا : غزوة "دومة الجندل"
٤٢٣	 حادى عشر : أهم الأحداث الاجتماعية بين "أحد" و "الأحزاب"
٤٢٦	 ثانى عشر : حركة الدعوة بين أحد والأحزاب
٤٢٩	 المبحث الثامن : غزوة "الأحزاب"
٤٣٢	 أولاً : وقت الغزوة
٤٣٣	 ثانياً : تجمع "الأحزاب"
٤٣٨	 ثالثاً : استعداد المسلمين للأحزاب

٤٤١	رابعاً : سير القتال
٤٥١	خامساً : الآيات الربانية الخارقة فى يوم "الخنق"
٤٥٤	سادساً : حركة الدعوة خلال أيام "الخنق"
٤٥٨	المبحث التاسع : أحداث ما بين "الأحزاب" و "الحديبية"
٤٦١	أولاً : غزوة "بنى قريظة"
٤٦٩	ثانياً : قتل ابن أبى الحقيق
٤٧١	ثالثاً : سرية محمد بن مسلمة
٤٧٢	رابعاً : غزوة "بنى لحيان"
٤٧٣	خامساً : غزوة "الغابة"
٤٧٤	سادساً : سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر
٤٧٥	سابعاً : السرايا إلى ذى القصة
٤٧٥	ثامناً : سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه
٤٧٧	تاسعاً : غزوة "بنى المصطلق"
٤٧٩	عاشراً : مواجهة المنافقين
٤٨٢	حادى عشر : السرايا بعد غزوة "بنى المصطلق"
	ثانى عشر : حركة الدعوة خلال مرحلة ما بين "الأحزاب"
٤٨٣	و "الحديبية"
٤٨٩	المبحث العاشر : غزوة "الحديبية"
٤٩٠	أولاً : أسباب الغزوة
٤٩٠	ثانياً : التحرك للعمرة
٤٩٣	ثالثاً : المفاوضات مع قريش
٤٩٧	رابعاً : الصلح
٤٩٩	خامساً : موقف المسلمين من الصلح
٥٠٣	سادساً : موقف المسلمين بعد توقيع الصلح
٥٠٥	سابعاً : عدم رد المؤمنات المهاجرات

- ٥٠٧ ثامناً : فراق الكافرات
- ٥٠٨ المبحث الحادى عشر : الأحداث بين صلح الحديبية وفتح مكة ...
- ٥١٠ أولاً : هدوء جبهة قريش وظهور مفرزة أبى بصير
- ٥١٤ ثانياً : العمل فى المحيط العام وإرسال الرسائل
- ٥١٧ (١) كتاب النبى ﷺ إلى النجاشى
- ٥١٨ (٢) كتاب النبى ﷺ إلى المقوقس
- ٥١٩ (٣) كتاب النبى ﷺ إلى كسرى فارس
- ٥١٩ (٤) كتاب النبى ﷺ إلى قيصر الروم
- ٥٢٢ (٥) كتاب النبى ﷺ إلى المنذر بن ساوى
- ٥٢٣ (٦) كتاب النبى ﷺ إلى هوزة صاحب اليمامة
- ٥٢٣ (٧) كتاب النبى ﷺ إلى الحارث صاحب دمشق
- ٥٢٣ (٨) كتاب النبى ﷺ إلى ملك عمان وأخيه
- ٥٢٤ (٩) الدعاة حملة الرسائل
- ٥٢٩ ثالثاً : القضاء على إرهاب اليهود فى خيبر وما حولها
- ٥٣٠ (١) حصون "خيبر"
- ٥٣٢ (٢) تحرك المسلمين نحو "خيبر"
- ٥٣٦ (٣) اقتحام الحصون
- ٥٤٠ (٤) نهاية غزوة "خيبر"
- ٥٤١ (٥) فى أعقاب "خيبر"
- ٥٤٥ (٦) تطهير الجبهة الشمالية من أتباع "خيبر"
- ٥٤٦ رابعاً : مواجهة القبائل المتمردة
- ٥٤٧ (١) غزوة "ذات الرقاع"
- ٥٤٩ (٢) سرية غالب إلى بنى الملوح
- ٥٤٩ (٣) سرية عمر بن الخطاب إلى تربة
- ٥٥٠ (٤) سرية بشير بن سعد إلى بنى مرة

- ٥٥٠ (٥) سرية غالب بن عبد الله إلى الميعة
- ٥٥٠ (٦) سرية عبد الله بن رواحة إلى ضواحي خيبر
- ٥٥١ (٧) سرية بشير بن سعد إلى يمن وجبار
- ٥٥١ (٨) سرية أبي حذرر إلى الغابة
- ٥٥١ (٩) سرية أبي بكر إلى بنى هلال
- ٥٥٢ (١٠) سرية غالب بن عبد الله إلى بنى مرة
- ٥٥٢ خامساً : تطبيق بنود صلح الحديبية وأداء العمرة
- ٥٥٣ (١) عمرة القضاء
- ٥٥٧ (٢) سرية ابن أبي العوجاء
- ٥٥٧ (٣) سرية غالب بن عبد الله
- ٥٥٧ (٤) سرية ذات أطلح
- ٥٥٨ (٥) سرية ذات عرق
- ٥٥٨ (٦) سرية شجاع بن وهب إلى السبي
- ٥٥٨ (٧) سرية قطبة بن عامر إلى خثعم
- ٥٥٩ سادساً : بدء مواجهة الرومان والقبائل التابعة لها
- ٥٥٩ (١) سرية مؤتة
- ٥٦٤ (٢) غزوة "ذات السلاسل"
- ٥٦٥ (٣) سرية الخبط
- ٥٦٨ (٤) سرية أبي قتادة إلى خضرة
- ٥٦٨ سابعاً : حركة الدعوة في مرحلة ما بين الحديبية وفتح مكة
- ٥٧١ المبحث الثاني عشر : فتح "مكة"
- ٥٧٢ أولاً : فتح "مكة"
- ٥٧٢ (١) سبب فتح "مكة"
- ٥٧٤ (٢) محاولة "أبي سفيان" تجديد الصلح
- ٥٧٦ (٣) استعداد المسلمين لفتح "مكة"
- ٥٧٩ (٤) الجيش الإسلامي يتحرك نحو "مكة"

٥٨٥	 (٥) مكة تحت القيادة الإسلامية
٥٩٤	 ثانياً : تطهير مكة وما حولها من الأصنام
٥٩٧	 ثالثاً : غزوة "حنين"
٥٩٧	 (١) استعداد المشركين للحرب
٥٩٨	 (٢) استعداد المسلمين للقتال
٥٩٩	 (٣) القتال
٦٠١	 (٤) تعقب الفارين
٦٠٢	 (٥) غزوة "الطائف"
٦٠٣	 (٦) توزيع الغنائم
٦٠٨	 (٧) العودة إلى المدينة
	المبحث الثالث عشر : الاستقرار العام في الجزيرة ومواجهة غير
٦٠٩	 العرب
٦٠٩	 أولاً : بعث عمال الصدقات
٦١١	 ثانياً : إرسال الدعاة
٦١٤	 ثالثاً : تسيير السرايا للخارجين على النظام
٦١٨	 رابعاً : غزوة "تبوك"
٦١٨	 (١) استعداد المسلمين للغزوة
٦٢٤	 (٢) نتائج الغزوة
٦٢٦	 (٣) موقف المنافقين بعد الغزوة
٦٣١	 (٤) الثلاثة الذين تخلفوا
٦٣٤	 المبحث الرابع عشر : السرايا والغزوات في الميزان
٦٣٤	 (١) الجهاد ضرورة عامة
٦٣٧	 (٢) الجهاد يحمي حرية الإنسان
٦٤٠	 (٣) الجهاد تصون كرامة الإنسان
٦٤٢	 (٤) الجهاد يبرز إيجابية الإنسان

٦٤٤	 (٥) الواقعية فى تشريع الجهاد
٦٤٥	 (٦) ظهور فقة الإسلام فى الجهاد
٦٤٨	 المبحث الخامس عشر : وجاء نصر الله
٦٤٨	 أولاً : تتابع مجئ الوفود إلى المدينة
٦٥٨	 ثانياً : نظام استقبال الوفود
٦٦٢	 ثالثاً : حج أبى بكر رضي الله عنه وإعلان نهاية الوثنية
٦٦٣	 رابعاً : حجة الوداع
٦٧١	 خامساً : آخر بعوث النبى صلى الله عليه وسلم بعث أسامة
٦٧٣	 المبحث السادس عشر : انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى

الفصل الثالث

ركائز الدعوة

المستفادة من المرحلة المدنية

٦٨٧	 التمهيد
٦٨٨	 المبحث الأول : ضرورة بناء قاعدة الدعوة
٦٩٩	 المبحث الثانى : الاهتمام بمعرفة الواقع العالمى
٧٠٦	 المبحث الثالث : أهمية التطابق التام بين المسلم والإسلام
٧١٨	 المبحث الرابع : ضرورة الفصل بين الإسلام وغيره
٧٢٥	 الخاتمة
٧٣١	 الفهرس

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،